المستطرف

في كل فن مستظرف

تأليف

شهاب الدين بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي

شرحه ووضع هوامشه

إبراهيم أمين محمد

المكتبة التوفيقية

المُسْتَطرَف

في كُلِّ فنٍّ مُسْتَظرَف

تَأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي

شَرَحه وَوَضع هوَامِشه

إبراهيم أمين محمد

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم العلي الكبير، الغني اللطيف الخبير، المنفرد بالعز والبقاء، والإرادة والتدبير، الحي العليم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه على قصد ويسر من عسير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير. وأشهد أن سيِّدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير، ومأمور وأمير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد: فقد رأيت جماعة من ذوي الهممّ، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورقائق الأشعار، وألفوا في ذلك كتبًا كثيرة، وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة، فاستخرت الله تعالى وجمعت من جموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسميته (المستطرف في كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبيّ الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار» وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبويّة، والأمثال الشعريّة، والألفاظ اللّغوية، والحكايات الجديّة، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشنف بذكره الأسماع، وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعته كل قلب محزون.

من كلِّ معنى يكاد الميْت يفهمه ... حسنًا ويعشقه القرطاس والقلم

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين بابًا من أحسن الفنون، متوجة بألفاظ كأنها الدرّ المكنون، كما قال بعضهم شعراً في المعنى:

ففي كل باب منه درٌّ مؤلفٌ ... كنظم عقود زيّنتها الجواهر
فإنْ نظم العقد الذي فيه جوهرٌ ... على غير تأليف فما الدرّ فاخرُ

وضمنته كل لطيف، ونظمته بكل ظريف، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لي ما رمته من الوصول. وجعلت أبوابه مقدمة، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤول في تيسير المطلوب، وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للصعاب.

فى ذكر الخطب والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد. (**الباب العاشر**) فى التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم والقناعة، وذم الحرص والطمع، وما أشبه ذلك وفيه فصول. (**الباب الحادى عشر**) فى المشورة والنصيحة، والتجارب، والنظر فى العواقب. (**الباب الثانى عشر**) فى الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك. (**الباب الثالث عشر**) فى الصمت وصون اللسان، والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة، ومدح العزلة وذم الشهرة، وفيه فصول. (**الباب الرابع عشر**) فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه. (**الباب الخامس عشر**) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته. (**الباب السادس عشر**) فى الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك. (**الباب السابع عشر**) فى ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرر والخطر. (**الباب الثامن عشر**) فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول. (**الباب التاسع عشر**) فى العدل والإحسان والإنصاف، وغير ذلك. (**الباب العشرون**) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك. (**الباب الحادى والعشرون**) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان. (**الباب الثانى والعشرون**) فى اصطناع العروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحوائج للمسلمين، وإدخال السرور عليهم. (**الباب الثالث والعشرون**) فى محاسن الأخلاق ومساويها. (**الباب الرابع والعشرون**) فى حسن المعاشرة، والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك. (**الباب الخامس والعشرون**) فى الحياء والتواضع، ولين الجانب وخفض الجناح، وفيه فصلان. (**الباب السابع والعشرون**) فى العجب والكبر والخيلاء، وما أشبه ذلك. (**الباب الثامن والعشرون**) فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت. (**الباب التاسع والعشرون**) فى الشرف والسؤدد وعلو الهمّة. (**الباب الثلاثون**) فى الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين، رضى الله عنهم أجمعين. (**الباب الحادى والثلاثون**) فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء، رضى الله عنهم. (**الباب الثانى والثلاثون**) فى ذكر الأشرار والفجّار، وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة. (**الباب الثالث والثلاثون**) فى الجود والسخاء والكرم، ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد. (**الباب الرابع والثلاثون**) فى البخل والشح وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم. (**الباب الخامس والثلاثون**) فى الطعام وآدابة والضيافة وآداب المضيف والضيف، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك. (**الباب السادس والثلاثون**) فى العفو والحلم والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك. (**الباب السابع والثلاثون**) فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم. (**الباب الثامن والثلاثون**) فى كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه. (**الباب التاسع والثلاثون**) فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد، وفيه فصول. (**الباب الأربعون**) فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد، وشدة البأس والتحريض على القتال، وفيه فصول. (**الباب الحادى والأربعون**) فى ذكر أسماء الشجعان، ذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن. (**الباب الثانى والأربعون**) فى المدح والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول. (**الباب الثالث والأربعون**) فى الهجاء ومقدماته. (**الباب الرابع والأربعون**) فى الصدق والكذب، وفيه فصلان. (**الباب الخامس والأربعون**) فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقرابات، وذكر الأنساب، وفيه فصول. (**الباب السادس والأربعون**) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس، وما أشبه ذلك . (**الباب السابع والأربعون**) فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب، وما جاء فى التختم. (**الباب الثامن والأربعون**) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (**الباب التاسع والأربعون**) فى الأسماء والكنى والألقاب، وما استحسن منها. (**الباب الخمسون**) فى الأسفار والاغتراب، وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان. (**الباب الحادى والخمسون**) فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه. (**الباب الثانى والخمسون**) فى ذكر الفقر ومدحه. (**الباب الثالث والخمسون**) فى ذكر التلطف فى السؤال، وذكر من سئل

فجاد. **(الباب الرابع والخمسون)** فى ذكر الهدايا والتحف، وما أشبه ذلك. **(الباب الخامس والخمسون)** فى العمل والكسب والصناعات والحرف، والعجز والتوانى وما أشبه ذلك. **(الباب السادس والخمسون)** فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلى عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول. **(الباب السابع والخمسون)** فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك. **(الباب الثامن والخمسون)** فى ذكر العبيد والإماء والخدم، وفيه فصلان. **(الباب التاسع والخمسون)** فى أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم. **(الباب الستون)** فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا. **(الباب الحادى والستون)** فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ والتبصر، ونحو ذلك. **(الباب الثانى والستون)** فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات، مرتبًا على حروف المعجم. **(الباب الثالث والستون)** فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم. **(الباب الرابع والستون)** فى خلق الجان وصفاتهم. **(الباب الخامس والستون)** فى ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار والآبار، وفيه فصول. **(الباب السادس والستون)** فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول. **(الباب السابع والستون)** فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها. **(الباب الثامن والستون)** فى ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه. **(الباب التاسع والستون)** فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء. **(الباب السبعون)** فى ذكر القينات والأغانى. **(الباب الحادى والسبعون)** فى ذكر العشق ومن بلى به، والافتخار به والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما فى معنى ذلك، وفيه فصول. **(الباب الثانى والسبعون)** فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت، وكان وكان، والموشحات، والزجل، والحماق، والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء والصفات، وفيه فصول. **(الباب الثالث والسبعون)** فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن، وفيه فصول. **(الباب الرابع والسبعون)**: فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها. **(الباب الخامس والسبعون)** فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول. **(الباب السادس والسبعون)** فى النوادر والحكايات وفيه فصول. **(الباب السابع والسبعون)** فى الدعاء وآدابه وشروطه، وفيه فصول. **(الباب الثامن والسبعون)** فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله تعالى. **(الباب التاسع والسبعون)** فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار. **(الباب الثمانون)** فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء، من السنة والعيادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. **(الباب الحادى والثمانون)** فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله. **(الباب الثانى والثمانون)** فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك، وفيه فصول. **(الباب الثالث والثمانون)** فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها، ونحو ذلك. **(الباب الرابع والثمانون)** فى فضل الصلاة على النبى ﷺ وهو آخر الأبواب، ختمتها بالصلاة على سيِّد العباد. أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

المؤلف

الباب الأول

فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له. فرد لا مثل له. صمد لا ند له. أزلى قائم، أبدى دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. قيوم لا فنيه الأبد ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن منزه عن الجسمية ليس كمثله شئ وهو فوق كل شئ فوقيته لا تزيد بعداً عن عباده وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شئ شهيد.

وهو معكم أينما كنتم لا يشابه قربه قرب الأجسام كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الأبرار فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار. حى قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت.

خلق الخلق وأعمالهم، وقدر رزوزاقهم وآجالهم لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات. يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضر إلاّ بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فماء شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلّا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلّا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا.

سميع بصير متكلم بكلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلّا وله فى ذلك. حكمة دالة على وحدانيته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٦٤].

وقال أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة فى الورى شاهدُ

وقال غيره :

كل ما ترتقى إليه بوهم ... من جلال وقدرة وسناء

فالذى أبدع البرية أعلى ... منه سبحانه مبدع الأشياءِ

وقال على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده: «اعلم يا بنى أنه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده فى ملكه أحد». وعنه عليه الصلاة والسلام: «كل ما يتصور فى الأذهان فالله سبحانه بخلافه».

وقال لبيد بن ربيعة[1]:

---

(١) لبيد بن ربيعة: هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامرى، أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، وهو من أصحاب المعلقات فى الجاهلية، وكان كريماً توفى سنة (٤١هـ-٦٦١م).

ألا كل شيء مــا خــلا الله باطلُ	وكل نعيم لا محـالةَ زائلُ
وكلّ ابن أنثى لو تطاول عمره	إلى الغاية القصوى فللقبر آيل
وكلّ أناسٍ سوف تدخل بينهم	دويهيةٌ تصفرّ منها الأنامل
وكلّ امرئٍ يومًا سيعرف سعيه	إذا حصلت عند الإله الحصائل

وروى أن النبيّ ﷺ قال وهو على المنبر: «إن أشعر كلمة قالتها العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمدًا رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة.

فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد فى قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربّك وما دينك ومن نبيّك؟ ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنّة حق، والنّار حق، وأن الله تعالى يدخل الجنّة من يشاء بغير حساب وهم المقربون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى فى جهنم من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنًا به موقنًا فهو من أهل الحق والسنة، مفارق لعصابة الضلال والبدعة، رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة، وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب. فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلا».

الفصل الثانى : فى الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)﴾ [النساء: ١٠٣]. واختلفوا فى اشتقاق اسم الصلاة مم هو، فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاء، معروفة فى كلام العرب، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء. وقيل: سميت بذلك من الرحمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهى من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء. قال ﷺ: «اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى» أى ارحمهم. وقيل: سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار إذا قومته، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقيل لأنها صلة بين العبد وربّه. وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الإيمان الصلاة، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن» وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «لايتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن[1]: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره». وقال بعضهم: «لا تفوت أحدًا صلاة فى جماعة إلا

(١) الحسن البصرى: هو الحسن البصرى (٢١-١١٠هـ) إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه، ولد فى المدينة وشب فى كنف على بن أبى طالب، وعظمت هيبته فى القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم وكان فى غاية الفصاحة تتصبب الحكمة من فيه. انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبى (٤/٥٦٣) ترجمة (٢٢٣).

بذنب». وكانت رابعة العدوية[1] تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثوابًا ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ. ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمّتي هذا عملها فى اليوم والليلة. وقال بعضهم: صليت خلف ذى النون المصرى، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: «الله» ثم بهت وبقى كأنه جسد لا روح فيه إعظامًا لربّه جل وعلا، ثم قال: «الله أكبر» فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتى. وإذا جن عليه الليل نام عنى، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه؟ ولعبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه:

إذا ما الليل أظلم كابدوهُ ... فيسفرُ عنهمُ وهُمُ ركوعُ
أطار الخوفُ نومهمُ فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ

وكان سيدى الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريرى رحمه الله، كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات

يا أيها الراكد كم ترقدُ ... قم يا حبيبى قد دنا الموعدُ
وخذْ من الليل ولو ساعةً ... تحظى إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليلهُ ... لم يبلغ المنزلَ لو يجهدُ

وكان سيدى أويس القرنى لا ينام ليله ويقول: «ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر» وقال حذيفة رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة» وقال هشام بن عروة: «كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هى رأس المال». وقال أبو الطفيل: «سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول: «يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». وجزأ محمد بن المنكدر، عليه وعلى أمه وعلى أخته، الليل أثلاثًا، فماتت أخته. فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه. فقام الليل كله. وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لأهله: تحدثوا فلست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام. فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ، وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعًا منصوبًا لطول انتصابه فى الصلاة. وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن فى ركعة واحدة، أربعة من الأئمة عثمان بن عفان وتميم الدارى، وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعى شابًا بين القبر والمنبر، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: «عند الصباح يحمد القوم السرى». فقال: يا ابن أخى لك ولأصحابك لا للجمالين. وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: «بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور. وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع علىّ». وقال أبو صفوان ابن عوانة: «ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة» وقال الحسن: «ما كان فى هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وكانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها». وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان، هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام. فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة؟ فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»[1]. وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: «فاتتنى صلاة الجماعة مرة فعزانى أبو إسحاق البخارى وحده، ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا». وكان السلف رضى الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا

---

(١) رابعة العدوية: هى رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة لها أخبار فى العبادة والنسك. اختلف فى سنة وفاتها، قيل: توفيت بالقدس سنة (١٣٥هـ - ٧٥٢م).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٣).

فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعًا إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان فى تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه».

وأنشد بعضهم:

خسر الذى ترك الصلاة وخابا — وأبى معادًا صالحًا ومآبا
إن كان يجحدها فحسبك أنه — أضحى بربك كافرًا مرتابا
أو كان يتركها لنوع تكاسل — غطى على وجه الصواب حجابًا
فالشافعى ومالكٌ رأيا له — إن لم يتبْ حدّ الحسام عقابا
والرأى عندى للإمام عذابُه — بجميع تأديبٍ يراه صوابا

اللهمَّ أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شىء من فضل السواك والآذان.

أما السواك: فقد قال الرسول ﷺ: **«لولا أن أشق على أمّتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»**[1]. وقال أيضا: **«صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك»**. وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك». وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». وعنه ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه». وقال أيضًا: «أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها». والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك. ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والإشنان، والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف. ويستاك عرضًا مبتدئًا بالجانب الأيمن من فيه، وينوى به الإتيان بالسنة. والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب يقول عند السواك: «اللهمَّ بارك لى فيه يا أرحم الراحمين». ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمرارًا لطيفًا، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين، فإن اشتد يبسه ليّنه بالماء، وقد قيل: إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح.

وأما الآذان فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من آذانه». قيل فى قوله تعالى: **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا﴾**[فصلت: ٣٣]. نزلت فى المؤذنين. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: «يغفر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس». وعن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة». رواه مسلم، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين». رواه البخارى ومسلم، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخارى. والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث: فى الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه. قال الله تعالى: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** [البقرة: ٤٣]. وقال تعالى: **﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾** [النور: ٣٧]. وقال تعالى: **﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾** [البينة: ٥]. وعن بريدة رضى الله تعالى عنه، عن النبىّ

(١) أخرجه الترمذى (١/ ٣٥).

ﷺ أنه قال: «ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» وعن عائشة رضى الله عنها عن النبيّ ﷺ قال: «ما خالطت الزكاة مالا قط إلا أهلكته». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال: «من كان عنده ما يزكى ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة». يعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ولنلحق بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب، ودفع البلاء. قال الله تعالى: ﴿إن الله يجزى المتصدقين﴾[يوسف:٨٨]. وقال تعالى: ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ [الأحزاب:٣٥]. الآية. والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذى فى جامعه بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». وفى صحيح مسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما نقص مال من صدقة». أو قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى».

ودخلت امرأة شلاء على عائشة رضى الله عنها فقالت: «كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها، لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة، فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت، وكأن أمى قد غطت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس، فطلبت منه قدحًا من ماء فسقيت أمى، فنوديت من فوقى ألا من سقاها، فشل الله يدها فانتبهت كما ترين».

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه، ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته، فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها، فاختلسه الذئب، فوقفت وقالت: «يارب ولدى»، فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب، فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر، فقال لها: «هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل».

وعشش ورشان فى شجرة فى دار رجل، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له، أخذ أفراخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مرارًا، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى، فأخذها الرجل بأمر امرأته، ثم أعاد الورشان الشكوى، فقال سليمان لشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين». فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: «ألم تفعلا ما أمرتكما به»؟ فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين.

وقال النخعى: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء. وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائمًا بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل، وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين بابًا من الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام». وروى عنه ﷺ أنه قال: «ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق». وعنه أيضًا ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: «من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام». وكان نبيّنا محمّد ﷺ يناول المسكين بيده، وعنه ﷺ: «ما من مسلم يكسو مسلمًا ثوبًا إلا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة». وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز، فرأى سائلاً فأعطاه إياه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وإن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء، والصدقة تدفع ميتة السوء». وقال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة، وعن عمر رضى الله عنه: أن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم». وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله،

ومن كسا لله كساه الله. وقال الشعبي: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه. وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما ينتفع به، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل.

ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر، فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس، وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط، وقالا لي: قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟! وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: «إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه، فاغتنم حمله إياه». ولله در القائل حيث قال:

يبكي على الذاهب من ماله ... وإنما يبقى الذي يذهبُ

وحكي أن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة، فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها، وأقبل على عبادته، فولت المرأة، فنظر إليها، فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه، فترك العبادة وتبعها وقال: إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد. فقال: هيهات صار المرادُ مريداً والأحرار عبيداً. ثم جذبها فأدخلها مكانه، فأقامت عنده سبعة أيام، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام، فبكى حتى غشي عليه، فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإني أرى في وجهك أثر الصلاح، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني. قال: فخرج هائماً على وجهه، فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز، فمد ذلك الرجل العاصي يده، فأخذ رغيفاً، فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً، فقال: أين رغيفي؟ فقال الغلام: قد فرقت عليكم العشرة. فقال: أبيت طاوياً، فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه: أنا أحق أن أبيت طاويا لأنني عاص، وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه، وجاء طائعاً. وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال، فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به على نفسه. فوزنوا ذلك، فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة، وقبل الله توبته.

وحكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه، فخرج إليه وانتهره، فذهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته، وطلق زوجته، وتزوجت بعده برجل آخر، فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية، وإذا بسائل يطرق الباب، فقال الرجل لزوجته: ادفعي إليه هذه الدجاجة، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول، فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية، فسألها زوجها عن بكائها، فأخبرته أن السائل كان زوجها، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: وأنا والله ذلك السائل.

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال: ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجح وأسرع إجابة؟ قال: بلى. قال: تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه، فخرج الرجل من عنده، و تصدق على سائل بدرهم وقال: هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه، فنادى في تلك الساعة مناد في البحر: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث. فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا -وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدرهم- وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف، فسمعنا صوتاً من الهواء: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث. وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين. والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم.

الفصل الرابع: فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [البقرة: ١٨٣]. قيل: الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص: فصوم العموم: هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة، وصوم الخصوص: هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وصوم خصوص الخصوص: هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية. قال رسول الله ﷺ «زكاة الجسد الصيام». وعنه ﷺ أنه قال: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه». وقال وكيع فى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة: ٢٤]. إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال: «من أفطر يوماً فى رمضان من غير رخصة رخصها الله له، لم يقض عنه صيام الدهر». وروى فى صحيح النسائى عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنّم وسلسلت الشياطين». وروى الزهرى أن تسبيحة واحدة فى شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة فى غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: من لم يغفر له فى شهر رمضان فلن يغفر له فى غيره. وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما فى شهر رمضان من الخير لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها» «ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة». وقال ﷺ: «ليس من عبد يصلى فى ليلة فى شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً فى الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب، لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام». وقال ﷺ: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل، فليقل فى كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لى». وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حى لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله فى يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر» وهى الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر. وفى صحيح البخارى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت فى الصحيح من الحديث عن النبى ﷺ أنه قال مخبراً عن ربّه عز وجلّ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به». وقد يكتفى فى فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس: فى الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٩٧)﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته حاجًا أو معتمراً فمات. أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا». وفى الحديث: «أن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة». وفيه: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم فى الدنيا». وفى الخبر: «أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنّة، وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وجاء فى الحديث الصحيح: «إن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة. فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام». وقال مجاهد[1]: إن الحجّاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان

---

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكى مولى بنى مخزوم، تابعى، مفسّر من أهل مكة، قال الذهبى: شيخ القراء والمفسرين، ولكن كتابه فى «التفسير» يتقيه المفسرون، وسئل الأعمش عن ذلك فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب، يعنى النصارى واليهود. ويقال: إنه مات وهو ساجد سنة (١٠٤هـ - ٧٢٢م) انظر «ميزان الاعتدال» للذهبى (٣/ ٤٣٩).

الإبل، وصافحوا ركبان الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنّة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. وعن النبيّ ﷺ: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنّة فيدخل معها».

وحكى أن جميلة الموصلية[1] بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً. قيل: إنها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج، واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصبح فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتى جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين. ولما بنى آدم عليه الصلاة السلام البيت وقال: يارب إن لكل عامل أجراً، فما أجر عملى؟ قال: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدنى. قال: جعلته قبلة لك ولأولادك، قال: يارب زدنى. قال: أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يارب حسبى. وفى الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنّة». وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة.

وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير، وكانت كسوتها المسوح والإنطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم. وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر، وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له، نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

ورُوِى الحسن بن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكى ويقول: عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسيكينك ببابك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضى الله عنه، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم، وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا بنا إلى منزلى. فتوجهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً، وقال: أعتقهم لله تعالى لعله يعتقنى من النار. وقال الحسن بن على رضى الله عنهما: إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة.

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كأن الحجيجَ الآن لم يقربوا منىً ... ولم يحملوا منها سواكاً ولا نعلا
أتونا فما جادوا بعودِ أراكةٍ ... ولا وضعوا فى كفّ طفلٍ لنا نقلا

وقال غيره:

يحجون بالمال الذى يجمعونه ... حراماً إلى البيت العتيق المحرّم
ويزعم كلّ منهمو أنّ وزره ... يحطّ ولكنْ فوقه فى جهنم

(١) جميلة الموصلية: هى جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل إحدى شهيرات النساء فى الكرم والعقل والجمال، لم تتزوج أنفة أن يتحكم بها الزوج، وحجت وكان معها أربع مائة جارية، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، وألقيت فى دجلة فماتت غرقاً سنة (٣٧١هـ - ٩٨١م).

وقال آخر:

حجّ في الدهر حجة حج فيها وأحرما
وأتانا من الحج ركما راح محرما
فهو ذو الحجة الذي ما توقى محرما

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له: أتخاصم رجلاً من الحجاج فقال:

يحجّ لكيما يغفر الله ذنبَهُ ويرجع قد حطت عليه ذنوبُ

وقال أبو الشمقمق:

إذا حججت بمال أصله دنسٌ فما حججت ولكنْ حجّت العير
ما يقبل الله إلاّ كلّ طيبة ما كلّ من حجّ بيتَ الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢]، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: اقبل، فاقبل ثم قال له: ادبر، فأدبر، فقال عز من قائل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز على منك، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب»، وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضئ خلقه الله عز وجل فى الدماغ، وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما، فأما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء، وأما الثانى فهو العقل التجريبى وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقضيته، كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوى التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى فى محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢] فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة، وأدركته عناية أزلية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث.

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت، وحكم به كما قال سليمان عليه السلام، وفى هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة، وقد قيل لبعض الحكماء: بم يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه

فى الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها، وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق، وقالوا: العاقل الذى يحسن المداراة مع أهل زمانه، وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس»، وقال على بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، فسمعه أعرابى فقال: هذا كلام يقطر عسله، وقيل: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شئ إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل: لكل شئ غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج، واختلف الحكماء فى ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة فى القلب كالنور فى العين، وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أى عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة، قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زينٌ لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء فى غير آفة ... أفادت له الأيام فى كرها عقلاً

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عَقَلَكَ عَقْلُك عما لا يعنيك فأنت عاقل، ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس، وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان، قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه ... وإن كان ذا بيت على الناس هين

ومن كان ذا عقل أجلّ لعقله ... وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح، وقيل لعلى رضى الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذى يضع الشئ مواضعه، قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت، يعنى الذى لا يضع الشئ مواضعه، وقال المنصور لولده: خذ عنى ثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير، وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة، وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدى إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير، وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه، وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة، والتحبب إلى الناس، وقيل: من أعجب برأى نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله، وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً، وأرحمهم كباراً، وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق، وقيل: لا ينبغى للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل، ومثل بعضهم: أيما أحمد فى الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن، وقيل: غضب العاقل على فعله

وغضب الجاهل على قوله، وقال أبو الدرداء[1] رضى الله تعالى عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قرباً»، قلت: بأبى وأمى ومن لى بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلاً، وتزدد من الله قرباً وعزاً»، وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم، ويروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عينىّ محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها ... ولست أرشدُ إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله فى إرشاد، ورأيه فى إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله فى إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم، ولا يكتفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كنيف مبيض، وجلد مفضض، وقد قال الأصمعى[2]: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعى: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله، وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرموقاً بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله، وقيل: إن إياس بن معاوية القاضى كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضى إياس وقص عليه القصة، فقال القاضى: هل أخبرت بذلك أحداً غيرى؟ قال: لا، قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلىّ؟ قال: لا، قال: انصرف واكتم أمرك ثم عد إلىّ بعد غد، فانصرف ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له: قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً، فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضى إياس: امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معى إلى القاضى إياس الحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعاً فى تسليم المال، فسبه القاضى وطرده، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره. ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأى عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً، فسألوه عن

---

(١) أبو الدرداء: هو عمير بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى، أبو الدرداء، صحابى من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجراً بالمدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، على عهد النبى ﷺ روى عنه أهل الحديث (١٧٩) حديثا، توفى بالشام سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م). انظر «الإصابة فى تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانى (٣/ ٤٥، ٤٦).

(٢) الأصمعى: هو عبد الله بن قُريب بن على بن أصمع الباهلى، أبو سعيد الأصمعى، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جدّه أصمع، كان كثير التطواف بالبوادى، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعى، وكان الأصمعى يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة، تصانيفه كثيرة: «الإبل» و«الأضداد» ولد بالبصرة وتوفى فيها سنة (٢١٦هـ-٨٣١م).

علة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا ان نخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة، وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتآلفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب، لايزال الهرج بين المسلمين مالم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتآلفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الأحمق: فقد قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داءٍ دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم، قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الاشياء عليه وهو العقل»، ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق، وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق، قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني» والسكوت عند الأحمق جوابه، ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجر.

وحكى أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً، قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة، فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم، ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه، وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وما هوجي يا هند إلا سجيةٌ ... أجرُّ لها ذيلي بحسن الخلائق

ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه ... ولاطمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه

من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧]، وسماه حكيما، فقال تعالى: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١، ٢]، وسماه مجيداً فقال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: ١]، أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، فهو النور المبين والحق المتين لا شئ أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألذ من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم»، وقال أيضا ﷺ: «أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى»، وقال الشعبى[1]: الذى يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل، ووفد غالب بن صعصعة على على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق، قال: ذلك خير سبلها، ثم قال له: يا أبا الأخطل من هذا الذى معك؟ قال: ابنى وهو شاعر، قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة وفى ذلك قال:

وما صبّ رجلى فى حديد مجاشعٍ ... مع القيد إلا حاجة لى أريدها

وقال أنس رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا بنى لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت، فإن القرآن يحيى القلب الميت، وينهى عن الفحشاء والمنكر».

وحكى الزمخشرى فى كتابه «ربيع الأبرار» قال: ومن حكايات الحشوية ما قيل إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن فى أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعنى أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق، وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن، وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة فى المصحف، وكان أبو حنيفة والشعبى رحمهما الله تعالى يختمان فى رمضان ستين ختمة، وقال على رضى الله تعالى عنه: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، وقال الشعبى: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك، وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله»، وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت»، وقال عمر بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا، وقال على كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل

---

(١) الشعبى: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار، الشعبى الحميرى، أبو عمرو، راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه، سئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء فى بيضاء، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته، وهو من رجال الحديث الثقات، كان فقيهاً، شاعراً. توفى بالكوفة سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م).

حرف خمسون حسنة، ومن قرأه في غير الصلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة، وقال رسول الله ﷺ: «اقرؤا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»، وعن صالح المزنى قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى: «يا صالح هذه القراءة فأين البكاء»؟ وكان عثمان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم نبأ موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس، وعن على رضى الله عنه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها، وكان عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ولعن أباه، إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول: هو كلام ربى، وأبطأت عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ما حبسك؟» قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله»، وقال ابن عيينة، رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرنى فقال: «على قراءة أبى عمرو»، وعن أبى عمرو أنى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم فاشدد بها يدك، فينبغى للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سفراً وحضراً.

وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه الأذكار: قد كان للسلف رضى الله عنهم عادات مختلفة فى القدر الذى يختمون فيه، فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة وآخرون فى كل عشر ليال ختمة، وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة، وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمان ختمات، أربعاً فى الليل، وأربعاً فى النهار، وروى أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان يختم القرآن فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء، وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الدارى، وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم، وروينا فى مسند الإمام المجمع على حفظه وجلاله وإتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى رحمه الله، عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار، صلت عليه الملائكة حتى يمسى، قال الدارمى: هذا حديث حسن عن سعد، وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة وأما فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد الصبح، ولا كراهة فى وقت من الأوقات، ولافى أوقات النهى عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة، وقيل: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً، ويجب على القارئ الإخلاص فى قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شئ سوى ذلك، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر فى ذهنه أنه يناجى ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه، وينبغى للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها، ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: إن أراد

القارئ بالإسرار بعد الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره، من مصل أو نائم أو غيرهما، والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، من أراد الزيادة فلينظر فى كتاب التبيان فى آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الإسلام محيى الدين النووى قدس الله روحه ونور ضريحه، وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث كثيرة، وروى فى فضل قراءة سور من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبير، منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له، وفى رواية له، من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح مغفوراً له»، وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»، وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب، وتبارك الملك، وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ فى ليلة إذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها، والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، المؤنس فى الوحشة، والمحدث فى الخلوة، والجليس فى الوحدة، والصاحب فى الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى، ومجالسة الملوك فى الدنيا، ومرافقة الأبرار فى الآخرة، والفكر فى العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم يطاع الله ويعبد.

قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً، وقال النبى ﷺ: «خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به، يبشره بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة»، وقال على كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقلهم علماً، وقال أيضاً رضى الله عنه: العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون فى سفن النجاة يسيرون، وقال موسى عليه السلام فى مناجاته: إلهى من أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علماً، وقال بعض السلف رضى الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان، وقيل: العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره.

وسئل الشعبى عن مسألة فقال: لا علم لى بها، فقيل له: ألا تستحى؟ فقال: ولم أستحى مما لم تستح الملائكة منه حين قالت: لا علم لنا، وعن النبى ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»، وروى: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وقال على كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم، وأنشدوا:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقال بعضهم:

إنى رأيت الناس فى عصرنا ... لا يطلبون العلم للعلم
إلا مباهاة لأصحابه ... وعدة للغش والظلم

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم، فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت، فرمت نفسها إلى الأرض، فقال لها: فداك أبي وأمي إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم، وقال النبي ﷺ: «هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم وجمع المال»، وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال، فقال: «العلم بالله، والفقه في دينه»، وكررها عليه، فقال يا رسول الله: أسألك عن العمل، فتخبرني عن العلم، فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»، وقال عيسى عليه السلام: من علم وعمل عد في الملكوت الأعظم عظيماً.

وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها، وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل، وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف وجهه ووجوه العباد عنه، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأجود الأجواد»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود من بعدي رجل علم علماً فنشره، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل»، وقال الثوري: كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون، وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذاً لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فأعظم بها مصيبة والله أعلم، وللقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني[1] وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرزت في خلع حسان:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أسلما
فإن قلت زند العلم كاب فإنما ... كبا حين لم نحرس من حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

وقيل: من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره، وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء، وخير الأمراء من يجالس العلماء، وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء، قيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال: مرحباً بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب جدد القلوب، رياحين كل قبيلة، وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه، وعن النبي ﷺ: «ما آتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً»، ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله، وعن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كثدي النساء، يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب، والناس عطاش»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه

---

(١) الجرجاني: هو علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن، قاضي من العلماء بالأدب، كثير الرحلات له شعر حسن، ولد بجرجان وولي قضاءها ثم قضاء الري، فقضاء القضاة، وله «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» و«ديوان الشعر» توفي بنيسابور سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠٢م).

الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً، وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم».

شعر:

العلم أنفس شئ أنت داخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخره

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق، فسألني عن اسمي، فأخبرته، ثم قال: يا شعبي: كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عني يؤخذ، قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إلى فيها المنتهى، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها، قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك، وفرض لي أموالاً، وسودني على قومي، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم. قال البستي[1]:

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى ... وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً
فبشره أن الله أولاه فتنة ... تغشيه حرماناً وتوسعه حزناً

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه، سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري، وقال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه، وقال علي رضى الله عنه: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض، ولصالح اللخمي:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم ... فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفتى ... من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في الرماة، فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله في أحد منك، وملّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت فرقي السطح، وجعل يستمع من كوة، حتى وقع عليه الثلج، فصبر، فشكر الله ذلك، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون في شئ إلا صدروا عن رأيه، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ، فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وذلك أن حفظ العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة في كل شئ أردت، بسم الله وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) البُستي: هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح، شاعر عصره وكاتبه، ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته، له: «ديوان شعر» صغير فيه بعض شعره، وفي كتب الأدب كثير من نظمه غير مدوّن. توفي في بلدة أوزجند سنة (٤٠٠هـ - ١٠١٠م).

قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام، وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة: آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه.

ومن فوائد سيدى الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى فى الحفظ يقرأ فى كل يوم عشر مرات **﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾**[الأنبياء:٧٩] إلى قوله تعالى: **﴿وكنا فاعلين﴾**، يا حى يا قيوم يارب موسى وهارون، ويارب إبراهيم، ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ألزمنى الفهم وارزقنى العلم والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين، وعن أبى يوسف قال: مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفاً أن يفوتنى منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى حتى كان يقال: إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث، وقال البخارى رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح، وقال ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وقال: أخرجته من ستمائة ألف حديث، وصنفته فى ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى، وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه، وكان يقال الليث بن سعد[1] رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته: والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك، وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس، ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسئول، وقالوا: من خدم المحابر خدمته المنابر.

شعر:

لا تدخر غير العلو م فإنها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقا ء مع الجهالة كان خاسر

وللشافعى رضى الله تعالى عنه شعر:

أخى لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهرى[2]: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبى بالكوفة، والحسن البصرى بالبصرة، ومكحول بالشام، وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضئ به أهل عصره، وقيل لإبراهيم بن عيينة: أى الناس أطول ندامة؟ قال: أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما فى الآخرة فعالم مفرط.

شعر:

كن عالماً وارض بصف النعال ولا تكن صدراً بغير الكمال
فإن تصدرت بلا آلة صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام، جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر، ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام، وقال: يا نبى الله إن هذا العصفور يقول يا موسى أنت على علم من علم

---

(١) الليث بن سعد: هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمى، عالم الديار المصرية.

(٢) الزهرى: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، من بنى زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعى، من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتى حديث، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لاتجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. توفى رحمه الله بِشَغْب سنة (١٢٤هـ - ٧٤٢م).

الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقي لا يعلمها إلا هو، وقال موسى عليه السلام: يارب قد قلت للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهما؟ قال: يا موسى كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما، قال موسى: يارب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي، قال موسى: يارب وأين ذلك المرج؟ قال: في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة، فقال: «فيم تفكرون؟ تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله، فإن الله خلق من جانب العرب أرضاً يقال لها البيضاء، تقطعها الشمس في أربعين يوماً، فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين»، فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: «ما علموا بإبليس خلق أم لا»، قال: أمن بني آدم؟ قال: «ما علموا بآدم خلق أم لا، فهذه كلها مما أعدها الله في علم غيبه، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون»، وقال قتادة[1]: لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه، وقال بعضهم: ليس العلم ما خزنته الدفاتر وإنما العلم ما خزنته الصدور، وقيل: العلم يؤدي إلى التصدير، وقيل: من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله، وقيل: من برق علمه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً، العلم نور وهدى، والجهل غي وردى، وقال بعضهم: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم، لأن العالم كان جاهلاً، والجاهل لم يكن عالمًا، وقيل: أربعة يسوِّدون العبد: العلم والأدب والصدق والأمانة، وقيل: أهل العراق أطلب الناس للعلم، وقال حماد بن سلمة[2]: مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها، ولإبراهيم بن خلف المهراني:

النحو يصلح من لسان الألكن	والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها	فأجلها منها مقيم الألسن

وقال علي بن بشار:

رأيت لسان المرء آية عقله	وعنوانه فانظر بماذا تعنون
ولا تعْدُ إصلاح اللسان فإنه	يخبر عما عنده ويبين
ويعجبني زي الفتى وجماله	فيسقط من عيني ساعة يلحن

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون، وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن، فقال: لم لا تنظر في العربية؟ فقال: بلغني أن من نظر فيها قل كلامه، فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ، وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض للعاقل، وقال أبو الأسود الدؤلي إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً، وقال الشاعر:

---

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسر حافظ ضرير أكمه. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. وكان يرى القدر، وقد يدلس في الحديث. مات بواسط في الطاعون سنة (١١٨هـ - ٧٣٦م).

(٢) حماد بن سلمة: هو حماد بن سلمة بن دينار البصري الرَّبَعي بالولاء، أبو سلمة، مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة، كان حافظاً ثقة مأموناً، إلا أنه لما كبر ساء حفظه، فتركه البخاري، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع منه قبل تغيره. توفي رحمه الله سنة (١٦٧هـ - ٧٨٤م).

جـــــهلت ولا تـدرى بـأنك جـــاهـل ومـــن لـى بأن تـدرى بأنـــك لا تـدرى

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس: قال: لا تقل هذا، قال: فخذ على كلمة واحدة، قال: هذه واحدة، أبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم، فقال حسان رضى الله تعالى عنه:

الـنـاس كـنـوه أبـــا حـكـم والله كـنـاه أبـا جـــهـل

وأما ما جاء فى الأدب: فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام، وقال على كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة، صاحب فى المجلس أنيس فى الوحدة تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا، وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح.

وحكى أن رجلاً تكلم بين يدى المأمون فأحسن، فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: نعم النسب انتسبت إليه، ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد، قال الشاعر:

كن ابـن من شـئت واكـتـسـب أدباً يغنيك مـحـمـوده عن الـنـسـب

إن الـفـتـى من يـقـول ها أنـا ذا ليـس الفـتـى مـن يقـول كـان أبى

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعاً، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً، قال بعض الشعراء:

لـكـل شـئ زيـنـة فـى الـورى وزيـنـة المـرء تمـام الأدب

قـد يـشـرف المـرء بـآدابـه فـيـنـا وإن كـان وضـيـع الأدب

وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مـالى عـقـلى وهـمـتى حـسـبى مـا أنا مـولى ومـا أنا عـربى

إذا انتـمـى مـنتـم إلـى أحـد فـإنـنـى منـتـم إلـى أدبـى

وقيل: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب، وقيل: المرء بفضيلته وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه، وقيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت، ومن أدب ولده صغيراً سر به كبيراً، من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب، وقيل لسقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق، ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالاً من قريش تحته، فرأى سوء نظرهم إليه وحموضة وجوههم، فقال: مالكم تنظرون إلى نظر الشحيح إلى الغريم المفلس، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبيد على الأسرة، وقال جالينوس: إن ابن الوضيع إذا كان أديباً كان نقص أبيه زائداً فى منزلته، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائداً فى سقوطه، وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه، وسمع معاوية رجلاً يقول أنا غريب فقال: كلا الغريب من لا أدب له، ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب، ولعبد الملك بن صالح:

فى الـنـاس قـوم أضـاعـوا مـجـد أولهم مـا فـى المكارم والـتـقـوى لـهم أرب

سـوء الـتـأدب أرداهم وأرذلـهـم وقـد يزيـن صـحـيـح المنـصب الأدب

وقيل أربعة تسود العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة، وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم إلا بخمسة، لا يتم الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة، ولا يتم الغنى إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجراة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق، والله تعالى أعلم.

فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه فى الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه ووكله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد. الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل. من لم يكن من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ. من سره الفساد ساءه المعاد. كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع. لايغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. من أطاع هواه باع دينه بدنياه. ثمرة العلوم العمل بالمعلوم. من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد. أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه. خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه فى طاعة ربه. نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف. البخيل حارس نعمته وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لاينفع كدواء لاينجع. من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه، ويهين نفسه فى إكرام دنياه. أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لايعود إليك، ويوم أنت فيه لايدوم عليك، ويوم مستقبل لاتدرى ما حاله ولاتعرف من أهله. من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب. لاتبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة، ومن عمرك فى فسحة. عظ المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك. إيّاك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لايجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً. حسن النيّة من العبادة. حسن الجلوس من السياسة. من زاد فى خلقه نقص فى حظه. من ائتمن الزمان خانه. اظهر الناس محبة أحسنهم لقاء. لايكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله. إيّاك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة. قيل لافلاطون: ما الشىء الذى لايحسن أن يقال، وإن كان حقاً؟ قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تؤدى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة. من ساء تدبيره أهلكه جده. الغرة ثمرة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم، آفة النعم قبيح المن، آفة الذنب حسن الظن. الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء. من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد. من قرب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر. ومن صبر فقد ظفر. من ملك نفسه عند أربع حَرَّمَهُ الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى. من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله، ويوصف بفعله فقل سديداً وافعل حميداً. من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلّت ندامته. كن صموتاً وصدوقاً. فالصمت حرز، والصدق عزّ. من أكثر مقاله سئم، من أكثر سؤاله حرم. من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال. من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه. من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه. من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة. من منّ بمعروفه سقط شكره، من أعجب بعمله حبط أجره. من رضى من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالرداءة. من رجع فى هبته بالغ فى خسته. من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق فى مقاله زاد فى جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل. خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف فى النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام، وصرف فى الآثام. أفضل المعروف إغاثة

الملهوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم عفو المقتدر. جود الرجل يُحَبِّبُهُ إلى أصدقائه، وبخله يبغضه إلى أودّائه. لاتسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك. من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعاديه. شر الناس من ينصر الظلوم، ويخذل المظلوم. من حفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه. من سل سيف العدواة الحمد فى رأسه. من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. لاالحاج من يذهلك خوفه، ويملكك سيفه. صمتٌ تسلم به خير من نطق تندم عليه. من قال ما لاينبغى سمع ما لا يشتهى. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكت عن جاهل فقد أوسعه جواباً، وأوجعه عتاباً. من أمات شهوته أحيا مروءته. من كثرت عوارفه كثرت معارفه. من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. إيّاك والبغى فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال. الناس فى الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداء، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداء فهو كريم، ومن فعله اقتداء فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقى، ومن تركه استحساناً فهو دنى. من سالم سلم، ومن قدّمَ الخير غنم، ومن لزم الرقاد عدم المراد. ومن دام كسله خاب أمله. العجول مخطيء وإن ملك، والمتأنى مصيب وإن هلك.

من أمارات الخذلان معاداة الإخوان. استفساد الصديق من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر فى العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلَّت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقى ما ساء. من كثر اعتباره قل عثاره. من ركب جده غلب ضده. القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير. ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته. من خاف سطورتك تمنى موتك. إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤ ه.

من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. لاتشتك ضعفك إلى عدوّك، فإنك تشمته بك، و تطمعه فيك، من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس. من أفشى سره أفسد أمره. الحازم من حفظ ما فى يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لايكون طال تعبه. لاتفتح باباً يعييك سده، ولاترم سهماً يعجزك رده.

سوء التدبير سبب التدمير. أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً، ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر. رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. لايخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. الجوع خير الخضوع. الكذوب متّهم وإن صدقت لهجته، ووضحت حجّته. من طاوعه طرفه اشتد حتفه. من لم تسر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحسين العيوب.

الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية. إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله. بُعدٌ يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لايؤمن حده، والكلام سهم نافذ لايمكن رده. من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره. أجهل الناس من قل صوابه، وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة، ولم يأتمر بها، ونهى عن المعصية، ولم ينته عنها. من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لاينكب، الفضيلة بكثرة الآداب لابفراهة الدواب. من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشيء نسب إليه، من اعتاد شيئاً حرص عليه. عند الجدال يظهر فضل الرجال. من أخر الأكل لذ طعامه، من أخر النوم طاب منامه. موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز. مقاساة الفقر هى الموت الأحمر، ومسألة الناس هى العار الأكبر. حق يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولايسر، ومرهوب منه ينفع ولايضر. عثرة الرجل تزيل القدم، وعثرة اللسان تزيل النعم. المزاح يورث الضغائن. من حلم ساد ومن تفهم ازداد. معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده، وأخطأ البصير قصده. اليأس خير من التضرع إلى الناس. لاتكن ضاحكاً فى غير عجب ولا ماشيا فى غير أرب. من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برأيه. أشرف الغنى ترك المنى. من ضاق خلقه مله أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه. استر سوأة أخيك، لما يعلم فيك. خمول

الذكر أسنى من الذكر الذميم. العجلة أخت الندامة.

من كرم أصله لان قلبه ومن قلَّ لبه زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأى، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. لاتعادين أحدا، فإنك لاتخلو من عداوة جاهل أو عاقل، فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربّه. من قلَّ سروره كان الموت راحته. لاتردن على ذى خطأ خطأه، فيستفيد منك علماً، ويتخذك عدواً. استحى من ذم، من لو كان حاضراً، لبالغت فى مدحه ومدح من لو كان غائباً، لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العدواة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتوانى يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأنى تسهل المطالب، ويحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجلب الجلالة، وبالنصفة تكثر المواصلة، وبالأفضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه. وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك ما لايعنيك يتم لك الفضل.

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة. ومن صِغَرِ الهمّة الحسد للصديق على النعمة. والنظر فى العواقب نجاة. ومن لم يحلم ندم. ومن صبر غنم، ومن سكت سلم. ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. ومن أطاع هواه ضل. ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة. وزارع البر يحصد السرور. وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل نَصَب. إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع. المروءات كلها تبع للعقل، والرأى تبع للتجربة، والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة، والأعمال كلها تتبع القدر. واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل: من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت سلم. ومن القرآن: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[آل عمران: ١٠١]. واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات، لاتحمل بطنك ما لايطيق. ولاتعمل عملاً لا ينفعك. ولاتغتر بامرأة. ولاتثق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم.

فى الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم وأحاديث النبى الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلّى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيِّدنا رسول الله ﷺ عنها، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم فى إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[آل عمران: ٩٢]. ﴿الآن حصحص الحق﴾[يوسف: ٥١]. ﴿قضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾[يوسف: ٤١]. ﴿أليس الصبح بقريب﴾[هود: ٨١]. ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾[الأعراف: ٩٥]. ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾[النجم: ٥٨]. ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾[البقرة: ٤٤]. ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[سبأ: ٥٤]. ﴿لكل نبأ مستقر﴾[الأنعام: ٦٧]. ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾[الإسراء: ٨٤]. ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩]. ﴿وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها﴾[آل عمران: ١٢٠]. ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[المدثر: ٣٨]. ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾[الأنعام: ٤٤]. ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾[المائدة: ٩٩]. ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾[البقرة: ٢٤٩]. ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾[التوبة: ٩١]. ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾[الحشر: ١٤]. ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾[الرحمن: ٦٠]. ﴿ولاينبئك مثل خبير﴾[فاطر: ١٤]. ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾[الأنفال: ٢٣]. ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[الروم: ٣٢] ﴿لايكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[البقرة: ٢٨٦]. ﴿لايستوى الخبيث والطيب﴾[المائدة: ١٠٠]. ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾[الشعراء: ٢١]. ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض﴾[ص: ٢٤]. ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[الصف: ٢]. ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء﴾[النساء: ٤٩]. ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم﴾[المائدة: ١٠١]. ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلا كانوا عنها معرضين﴾[يس: ٤٦]. ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾[الأنعام: ٢٨]. ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾[المائدة: ٩٨]. ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون﴾[المؤمنون: ٧٥]. ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[الغاشية: ٢١، ٢٢]. ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾[الزخرف: ٢٣]. ﴿ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾[الزخرف: ٣٨]. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[الذاريات: ٣٦]. ﴿لايجليها لوقتها إلا هو﴾[الأعراف: ١٨٧]. ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾[النجم: ٣٢]. ﴿كل يوم هو فى شأن﴾[الرحمن: ٢٩]. ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾[الأعراف: ١٨٥]. ﴿وما ربّك بغافل عما تعملون﴾[هود: ١٢٣، النحل: ٩٣]. ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾[المزمل: ١٠]. ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾[فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]. ﴿إن هى إلا فتنتك﴾[الأعراف: ١٥٥]. ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾[الحشر: ٢]. ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[الواقعة: ٧٦]. ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾[الملك: ٣]. ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾[ص: ٨٨]. ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾[الفرقان: ٦٧]. ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾[الصافات: ٦١]. ﴿كل من عليها فان﴾[الرحمن: ٢٦]. ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[آل عمران: ١٨٥]. ﴿أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون﴾[الطور: ١٥].

ومن الأمثال من الحديث النبوى: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى). (نيّة المرء خير من عمله). (آفة العلم النسيان). (من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه). (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه). (أنزلوا الناس منازلهم). (اليد العليا خير من اليد السفلى). (من مات غريباً مات شهيداً). (مطل الغنى ظلم). (يد الله مع الجماعة). (الجار قبل الدار). (والرفيق قبل الصديق). (من غشنا فليس منا). (سيد القوم خادمهم). (الحياء شعبة من الإيمان). (تخيروا لنطفكم). (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول). (حدث عن البحر ولا حرج). (المجالس بالأمانات). (كل ميسر لما خلق له).

(اطلبوا الخير من حسان الوجوه). (إيّاك وما يعتذر منه). (الوحدة خير من جليس السوء). (استعينوا على الحوائج بالكتمان). (الندم توبة). (لايكون المؤمن طعاناً ولا لعاناً). (دع ما يريبك إلى ما لايريبك). (من كثّر سواد قوم فهو منهم). (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). (انتظار الفرج عبادة). (كاد الفقر أن يكون كافراً). (نعم صومعة الرجل بيته). (الأعمال بخواتيمها).

الفصل الثانى: فى أمثال العرب

إن من البيان لسحراً. إن الجواد قد يعثر. إن البلاء موكل بالمنطق. إن أخا الهيجاء من يسعى معك. ومن يضر نفسه لينفعك. أنف فى السماء وإست فى الماء. إن الذليل الذى ليست له عضد. أى الرجال المهذب إنما هو كبرق خلب. إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إيّاك أعنى فاسمعى ياجارة، إن لم يكن وفاق ففراق. إنّك لاتجنى من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق الفضاء. إن المناكح خيرها الأبكار. إذا كنت مناطحاً فناطح بذوات القرون. أوى إلى ركن بلا قواعد. إيّاك أن تضرب بلسانك عنقك. أكل وحمد خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين، وقد فقئت عينه، فلا تقض له حتى يأتيك خصمه، فلعله فقئت عيناه. ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. اتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان، وشتى فى الشّيَم. بلغ السيل الزبى. أجع كلبك يتبعك. حافظ على الصديق، ولو فى الحريق. اشتدى يا أزمة تنفرجى. اتبع السيئة الحسنة تمحها. الخيل أعرف بفرسانها. رمتنى بطرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرياح مع السماح. رب أكلة تمنع أكلات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السكوت جواباً. رب ملوم لاذنب له. رب عين أنم من لسان. رحم الله من هدانى إلى عيوبى. ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس. سبق السيف العذل. زوج من عود خير من قعود. سبك من بلغك السب. سحابة صيف عن قليل تقشع. شر أيام الديك، يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تظفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. عند الصباح يحمد القوم السرى. والظلم مرتعه وخيم. عند النطاح يغلب الكبش الأجم.

العبد يُقرعُ بالعصا والحرّ تكفيه الملامة

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السوابق. عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. عند النازلة تعرف أخاك. فى القمر ضياء، والشمس أضوأ منه. القول ما قالت حذام. لقد أسمعت لو ناديت حياً. أقلل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب ببابه نباح. كاد العروس أن يكون ملكاً. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. الكلام أنثى، والجواب ذكر. كل إناء يرشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ فى بيته صبى. كلب جوال خير من أسد رابض. لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ليس الخبر كالعيان. لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة. لكل قادم دهشة. لعل لها عذراً وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لاعطر بعد عروس. لايلدغ المؤمن من جحر مرتين. لايضر السحاب نباح الكلاب. لاتقتن من كلب سوء جرواً. مقتل الرجل بين فكيه. ماحك جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدهم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادى أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. يكسو الناس و إسته عارية. يدك منك وإن كانت شلاء.

الفصل الثالث: فى أمثال العامة والمولدين

التسلط على المماليك دناءة. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر. أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوى لاينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحى ترجع. المؤذى ردى كلما جلوته صدى. الأسواق موائد الله فى أرضه. السلامة إحدى الغنيمتين. الشاة المذبوحة لايؤلمها السلخ. الطير بالطير يصاد. اطلع القرد فى الكنيف فقال: هذه المرآة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامسة. الغائب حجته معه. الخضوع عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. النصح بين الملأ تقريع. الحر حر وإن مسه الضر. والعبد عبد وإن ملك الدر. الثقيل إذا تخفف صار طاعوناً. أضيع من حلى على زنجية. العمل للزرنيخ والاسم

للنورة. أنشط من أير دخل نصفه البغل. الهرم لايفزعه صوت الجلجل. بدن وافر وقلب كافر.

تزاوروا ولا تجاوروا. تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب. ثمرة العجلة الندامة. جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. حيثما سقط لقط. خذ اللص قبل أن يأخذك. خذ القليل من اللئيم وذمه. وذل من لاسفيه له. ريق العدو سم قاتل. رب ساع كقاعد. زكاة البدن العلل. زلق الحمار وكان من سهوة المكارى. زلة الرجل عظم يجبر. وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر. سلطان غشوم خير من فتنة تدوم. سواء قوله وبوله. سفير السوء يفسد ذات البين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الوالد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكسا. طاعة الولاة بقاء العز. طفيلى ويقترح. عناية القاضى خير من شاهدى عدل. دلت على أهلها براقش. (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن وصفحات الوجوه. غنى المرء فى الغربة وطن. فر من الموت وفى الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكعبة يزار ولا يزور. قيل للزمار، تهيأ للزمر قال: المزمار فى كمى والريح فى فمى. كل قليلا تعش كثيراً. كلامه ريح فى قفص. كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كاد المريب يقول: خذونى. كنت سنداناً فصرت مطرقة. كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قصوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شراً. لسان الجاهل مفتاح حتفه. لكل جديد لذة. لو ضاعت صفعة ما وجدت إلا فى قفاه. لو كان فى البوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل	وكلّ نعيم لا محالة زائلُ
إذا جاء موسى وألق العصا	فقد بطل السحر والساحرُ
إذا لم يكن فيكنّ ظلٌّ ولا جنى	فأبعدكن الله من شجرات
إذا كنت فى فكرى وقلبى ومقلتى	فأىّ مكانٍ من مكانك ألطف
إذا أراد كريمٌ منع صاحبه	فليس يخفى عليه كيف ينفعه
إذا ما أتيت الأمر من غير بابه	ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته	على طرف الهجران إن كان يعقلُ
إذا لم يكن عندى نوال هجرتنى	وإن كان لى مال فأنت صديقى
الناس فى طلب المعاش وإنما	بالجد يرزق منهم من يرزق
أيّها السائل عمّا قد مضى	هل جديد مثل ملبوس خلق
إنما أنفسنا عاريةٌ	والعوارى حكمها أن تسترد
إن العدو وإن أبدى مسالمةً	إذا رأى منك يوماً غرّةً وثبا
أتمنى على الزمان محالاً	أن ترى مقلتاى طلعة حرٍّ
إذا ملكٌ لم يكن ذاهبه	فدعه فدولته ذاهبه
إذا ثارت خطوب الدهر يوماً	عليك فكنْ لها ثبت الجنان
إذا كنت لاترضى بما قد ترى	فدونك الحبل به فاختنق
إن الأمور إذا بدت لزوالها	فعلامة الإدبار فيها تظهر
إذا ضاع شىءٌ بين أمّ وبنتها	فإحداهما لاشكّ ذلك آخذه
إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً	فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
إذا ما أراد الله إهلاك نملة	سمت بجناحيها إلى الجو تصعد
إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا	أصبت حليماً أو أصابك جاهل
إذا لم تستطع أمراً فدعه	وجاوزه إلى ما تستطيعُ

إذا صوّت العصفور طار فؤاده … ولكن حديد الناب عند الشدائد

أهن عامراً تكرم عليه فإنما … أخو عامرٍ من مسّه بهوان

إذا محاسنى اللاتى أتيتُ بها … عُددْن ذنوباً فقل لى كيف أعتذرُ

إخوان صدقٍ ما رأوك بغبطةٍ … فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا … فأيسرُ ما يمرّ به الوحول

ألم تر أن المرء تدوى يمينه … فيقطعها عمداً ليسلم سائره

إذا أنت لم تعلم طبيبك كلّ ما … يسوؤك أبعدت الدواء عن السقمِ

إذا أنت حمّلت الخؤون أمانةً … فإنّك قد أسندتها شرّ مسندِ

أكلّ خليلٍ هكذا غير منصفٍ … وكلّ زمانٍ للكرام بخيلُ

إذا أنت عبت المرء ثم أتيته … فأنت ومن تزرى عليه سواء

أسأتُ إذ أحسنتُ ظنّى بكم … والحزم سوءُ الظنّ بالناس

الحادثات إذا ألمّ خطوبها … فلها مساوٍ مرةً ومحاسنُ

الخير لايأتيك متصلاً … والشرّ يسبق سيلُه مطرهُ

العلم ينهض بالخسيس إلى العلا … والجهل يقعد بالفتى المنسوبِ

الكفر بالنعمة يدعو إلى … زوالها والشكر أبقى لها

أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم … ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا

أقلّبُ طرفى لا أرى غير صاحب … يميل مع النعماء حيث تميل

إذا ما قضيت الدّين بالدّين لم يكن … قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

حرف الباء الموحدة:

بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا … نرى فرجاً يشفى السقام قريبا

بالملح نصلح ما نخشى تغيّره … فكيف بالملح إن حلّت به الغِيَرُ

بنى عمنا إنّ العداوة شأنها … ضغائنُ تبقى فى نفوس الأقاربِ

حرف التاء المثناة الفوقية:

تحنّ إليه أفئدةُ البرايا … وتهواه الخلائق للسماع

تلوم على القطيعة من أتاها … وأنت سننتها للناس قبلى

تلجىء الضرورات فى الأمور إلى … سلوك ما لايليق بالأدب

تفرقت الظباء على خراشٍ … وما يدرى خراشٌ ما يصيد

تجتلى الأذن منه أحسن مما … تجتلى العين من وجوه البدور

حرف الجيم:

جن لـه الـدهـر فـنـال الـغـنـى — آه لمن أغـفـلـه الـدهـر
جـربـت أهلى وأهـلـيـه فـمـا تـركت — إلى الـتـجـارب فـى ودّ امـرىء غـرضـا

حرف الحاء المهملة:

حـيّـاك من لـم تكن تـرجـو تحـيـتـه — لولا الـدراهم مـا حـيّـاك إنـسـانُ

حرف الخاء المعجمة:

خـفض الجـأش واصـبـرن رويداً — فـالـرزايـا إذا تـوالـت تـولـت
خليليّ إنّ الحبَّ صـعبٌ مـرامـه — وإن عـزيز الـقـوم فـيـه يهـان
خـاطرْ بنفـسك كى تـصـيب غـنيمـة — إن الجلـوس مع الـعـيـال قـبـيحُ
خـيـالكَ فى عـيـنى وذكـرك فى فـمى — ومـشـواك فى قلبى فـأين تـغـيبُ
خن من آمنت ولا تـركـن إلـى أحـد — فـمـا نصـحـتك إلا بعـد تجـريبى

حرف الدال المهملة:

داود مـحـمـودٌ وأنت مـذمّمٌ — عـجـبًـا لذاك وأنتـمـا من عـود
دعـينى أنهب الأمـوال حـتـى — أعـفّ الأكـرمين عـن الـلـئـام

حرف الذال المعجمة:

ذو العـقـل يشـقى فى الـنـعـيم بعـقـلـه — وأخـو الجـهـالة فـى الشـقـاء منعّم

حرف الراء:

رُبَّ مـهـزولٍ سـمينٌ عـرضـه — وسـمين الجـسم مـهـزولُ الحـسـب
ردّوا علىَّ صـحـائفـاً سـودتُهـا — فـيكم بـلا حقٍ ولا اسـتـحـقـاق
رضـيت ولا أرضى إذا كـان مـسـخطى — من الأمـر مـا فـيـه رضـا صـاحب الأمـر
ربّ يـوم بـكـيـت مـنـه فـلـمـا — صـرت فـى غـيـره بكيت عليـه

حرف الزاى:

زنـيـمٌ لـيـس يـعـرف من أبـوه — بـغـىّ الأم ذو حـسـبٍ لـئـيـم

حرف السين المهملة:

سـروري أن تبـقى بخـيـر ونـعـمـة — وإنـى من الـدّنـيـا بـذلـك قـانـع
سـوء حـظّى أنـالنـى مـنك هـجـراً — فـعلى الحظ لا عـلـيك العـتـابُ

سبكناه ونحسبه لجيناً   فأبدى الكير عن خبث الحديد
ستذكرني إذا جرّبت غيري   وتعلم أنّني نعم الصديق

حرف الشين المعجمة:

شفيعي إليك الله لاربٌّ غيره   وليس إلى رد الشفيع سبيلُ
شكرتك قبل الخير إن كنت واثقا   بأني بعد الخير لاشكّ شاكرٌ

حرف الصاد المهملة:

صحّ لنا والده أولاً   وأنت في حل من الوالدة

حرف الضاد المعجمة:

ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت   والعسر مفتاح كل ميسور

حرف الطاء المهملة:

طويل عمر المعالي والندى أبداً   قصير عمر الأعادي والمواعيد
طوبى لأعين قومٍ أنت بينهُمُ   القومُ في نزهةٍ من وجهك الحسن

حرف الظاء المشالة:

ظهرت خياناتُ الثقات وغيرهمْ   حتّى اتهمنا رؤية الأبصار
ظلمت امرأً كلّفته غير خلقه   وهل كانت الأخلاق إلا غرائزُ

حرف العين المهملة:

علم الله كيف أنت فأعطا   ك المحلّ الجليل من سلطانه
على المرء أن يسعى لما فيه نفعُهُ   وليس عليه أن يساعده الدهرُ
عسى فرجٌ يأتي به الله إنّهُ   له كل يومٍ في خليقته أمرُ
عتبت على عمروٍ فلما تركته   وجربت أقواماً بكيت على عمرو

حرف الغين المعجمة:

غنيٌّ بلا دين عن الخلق كلهم   وإنّ الغنى إلا عن الشيء لا به
غلامٌ أتاه اللؤم من شطر نفسه   ولم يأته من شطر أم ولا أب

حرف الفاء:

فلم أر كالأيام للمرء واعظاً   ولا كصروف الدهر للمرء هاديا
فنفسك أكرمها فإنك إنْ تُهنْ   عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
فصبرٌ جميلٌ أنّ في اليأس راحةً   إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره
فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم   ولكنهم في النائبات قليلُ
فإن كانت الأجسام منّا تباعدت   فإن المدى بين القلوب قريب
فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت   ولكن حمد المرء غير مخلّد
فإن تفق الأنام وأنت منهمْ   فإن المسك بعض دم الغزال

حرف القاف:

قد يجمعُ المالَ غير آكلِه   ويأكل المال غير من جَمعه
قد زال ملك سليمان فعاوده   والشمس تنحطّ في المجرى وترتفع
قد يدرك المتأنّي نجح حاجته   وقد يكون من المستعجل الزّلل
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه   خَلِقٌ وجيبُ قميصه مرقوع

حرف الكاف:

كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا   فإنّ على الخلّاق رزقكم غدا
كفى زاجراً للمرء أيام دهره   تروح له بالواعظات وتغتدي
كنت من كربتي أفرّ إليهم   فهم كربتي فأين الفرار
كانوا بني أم ففرق شملهم   عدمَ العقول وخفةُ الأحلام
كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى   فتهون غيرَ شماتة الأعداء
كأنك من كل النفوس مركبٌ   فأنت إلى كل الأنام حبيبُ
كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصةً   وإن ينل شبعاً ينبح من الأشر

حرف اللام:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتّقي   إذا هو لم يجعل له الله واقيا
لعمري ما ضاقت بلادٌ بأهلها   ولكنّ أخلاق الرجال تضيقُ
للموت فينا سهامٌ وهي صائبةٌ   من فاته اليوم سهمٌ لم يفتْهُ غدا
لو أن خفة عقله في رجله   سبق الغزال ولم يفته الأرنب
لو كان ما بي في صخر لأنحله   فكيف يحملُهُ خلقٌ من الطين
لعمرك ما الأيام إلا مُعارةٌ   فما استطعت من معروفها فتزوّد
لكل امرىءٍ حالان بؤسٌ ونعمةٌ   وأعطفهم في النائبات أقاربُهُ

حرف الميم:

منْ يحمدِ الناس يحمدوه ... والناس من عابهم يعاب

من لم يعدنا إذا مرضنا ... إن مات لم نشهد الجنازه

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ

من كان فوق محل الشمس رتبته ... فليس يرفعهُ شيءٌ ولا يضعُ

من الناس من يخشى الأباعد نفعه ... ويشقى به حتى الممات أقاربُه

ما كان في المخدع من أمركم ... فإنه في المسجد الجامع

ما قام عمروٌ في الولا ... ية قائمًا حتى قعدْ

حرف النون:

نود أعلاها وتأبى أصولها ... وليس إلى رد الشباب سبيلُ

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لابدّ من شربه

ندمت ندامة الكسعيّ لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

حرف الهاء:

هنّاكم الله بالدنيا ومتعكم ... بما تحب لكم منها ونرضاه

هل بالحوادث والأيام من عجب ... أم هل إلى رد ما قد فات من طلب

هبِ الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى الزوال

هنيئاً لمن لا ذاق للدهر لوعةً ... ولم تأخذ الأيام منه نصيباً

هم يحسدوني على موتي فواحزني ... حتى على الموت لا أخلو من الحسد

حرف الواو:

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه ... فحلوٌ وأمّا وجهه فجميلُ

وإذا خشيت من الأمور مقدّراً ... وهربت منه فنحوه تتوجّهُ

والرزق يخطىء باب عاقل قومه ... ويبيت بوّاباً بباب الأحمق

ولا يغررك طولَ الحلم منّي ... فما أبداً تصادفني حليما

ولا خير فيمن لايوطّن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوبُ

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأنّي كاملُ

وما للمرء خيرٌ في حياة ... إذا ما عدّ من سقط المتاع

وما المرء إلا كالهلال وضوئه ... يوافي تمام الشهر ثم يغيب

وقد تسلب الأيام حالات أهلها — وتعدو على أسد الرجال الثعالب

ومن يأمن الدهر الخئونَ فإنني — برأى الذى لايأمن الدهر أقتدى

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد — ذخراً يكون كصالح الأعمال

ومن يكن الغراب له دليلاً — يمرّ به على جيف الكلاب

ومن يك مثلى ذا عيالٍ ومقتراً — من الزاد يطرح نفسه أىَّ مطرحِ

ولربما منع الكريم وما به — بخلٌ ولكنْ سوء حظ الطالب

ولا بات يسقينا سوى الماء وحده — وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع

ومن عاش فى الدنيا فلا بدّ أن يرى — من العيش ما يصفو وما يتكدر

ولو دامت الدولات دامت لغيرنا — رعايا ولكن ما لهنّ دوام

وأحسنْ فإنَّ المرء لابدّ ميِّتٌ — وإنك مجزىٌّ بما كنت ساعيا

ولاترينّ الناس إلاَّ تجملاً — وإن كنت صفر الكفِّ والبطن طاويا

وما لامرىءٍ طولُ الخلود وإنَّما — يُخلّدهُ طول الثناء فيخلدِ

ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى — ذرعاً وعند الله منها المخرج

وكان رجائى أن أعود ممتَّعاً — فصار رجائى أن أعود مسلَّما

وتجلُّدى للشامتين أريهم — أنّى لريب الدهر لا أتضعضع

ولابد من شكوى إلى ذى مروءةٍ — يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

وهوَّن حزنى عن خليلى أنّنى — إذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه

ويومٌ علينا ويومٌ لنا — ويومٌ نساءُ ويوم نُسرَ

حرف اللام ألف:

لا تنظرنَّ إلى الجهالة والحجى — وانظر إلى الإقبال والإدبار

لا يسأل المرء عن خلائقه — فى وجهه شاهدٌ من الخبر

لايصبر الحر تحت ضيمٍ — وإنما يصبر الحمار

لاتنه عن خلق وتأتى مثله — عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

لايبالى الشتم عرضٌ — كله شتمٌ وذم

لاتنظرن إلى امرىءٍ عما أصله — وانظر إلى أفعاله ثم احكم

لايسكن المرء فى أرض يهان بها — إلا من العجز أو من قلّة الحيل

لايقبلون الشكر ما لم ينعموا — نعماً يكون لها الثناء تبيعا

لا أسأل الناس عمّا فى ضمائرهم — ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

حرف الياء المثناة التحتية:

يفرّ من المنية كلّ حي ولا ينجي من القدر الحذار
يريك الرضا والغلّ حشو جفونه وقد تنطق العينان والفمُ ساكت
يهم لشعير إذا رآه ويعبس إن رأى وجه اللجام
يفارقني من لا أطيق فراقه ويصحبني في الناس من لا أريده
يزيد تفضّلاً وأريد شكراً وذلك دأبه أبداً ودأبي
يواسي الغرابُ الذئبَ في كل صيده وما صارت الغربان في سعف النخل
يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراضٌ لنا وعقول
يغرّ الفتى مرّ الليالي سليمةً وهنّ به عمّا قليلٍ غوائرُ
يغيظني وهو على رسله والمرء في غيظ سواه حليم
يريك البشاشة عند اللقا ويبريك في السر بريَ القلم

الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف: إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك، حول باب دارك. إذا كان صاحبك عسل، لاتلحسه كله. المستعجل والبطيء عند المعدية يلتقى. ألف ذقن، ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقني. إذا غاب عنك أصله، كانت دلائل نسبته فعله. إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. إذا كان النبيذ دردي، والعشيق كردي، والبقل فول حار، و العشاء بيسار إيش يكون الحال. إذا كان الفطن أحمر، والمغسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر، اعلم أن الميت من أهل سقسر، والوادي الأحمر. إيش ينفع الضراط عند طلوع الروح قال تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة. القشر والنشر والعشا خبيزة. أكل الدقة والنوم في الأزقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. إيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة. الرجم بالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يافصيح لا تصيح. أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع في بركة القرعان إيش ما يطلع يطلع النصف لي والربع لي والثمن لي والثمن الآخر لك ولي. والله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب. اقعد ياحمار حتى ينبت لك الشعير. أي موضع راح الحزين يلقى جنازة.

قال الشاعر:

إن دام هذا السير يا مسعود لا جملٌ يبقى ولا قعود

غيره:

إذا لم تكن لي والزمان شرمُ بُرمْ فلا خير فيك والزمان ترللي

غيره:

إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة وإذا أدبرت كادت تقدّ السلاسلا

حرف الباء الموحدة: بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المقتر فرغ عمره. بينما أصل قبره نسيت همه. يعدل بينما المقتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حقي اتفرقعت جوزة حلقي. بينما يقطع الجريد يفعل

الله ما يريد. بينما يجيء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات. بين حـانا ويانا حلقت لحانا. بدوى مقروح لقى التمر مطروح أين يخلى ويروح. بدال لحمتك وقلقامك هات لك شد على رأسك. بدال اللحـمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان. بدال لحـمتك الثلاثة هات لك شـد ياشماتة. بقى للكلب سرج وغـاشية وغلمـان وحاشية. بقى للخـرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغلة.

حرف التاء المثناة فوق: تموت الحدادى وعينهـا فى الصيد. تعالوا بنا نقتبح ونرجع غـدا نصطلح. تدحرج الخرا لعند البعر قال له: إيش أنت؟ قـال له: يزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب العـمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخانق ما هو شئ موافق. تجارة الأحمق على أهل بيـته. تضارب الريح مع الموج. جاء الهم على النواتية. تزاوروا ولا تجاوروا. تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها.

حرف الثاء المثلثة: ثوب العيرة ما يدفى. ثقيل واسمه صخـر بن جبل. ثور علقوه أغمى عليه قال: حتى يطلع شئ يرشوه عليه. ثور عـاجز ما يدور ساقيـة. ثقيل من أولاد الزنا مرّ العنا،. ثوب عليه وثوب عـلى الوتد، قال: أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد.

حرف الجيم: جور القط ولا عدل الفار. جمل موضع جمل يبرك. جهد المقل دموعه. جمل بحبه قال: وأين المحبة جيت أصطاد صادونى. جار له حق وجار ما له حق وجار لاصحبته عافية. جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال كل من هو فى حاله. جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهى بهمه. جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها. جوزوها له مالها إلا له. جوزوا مشكاح لريما ما على الاثنين قيمة.

حرف الحاء المهملة: حاجة لاتهمك وصى عليها زوج أمك. حول حبيبى ما عونه وقدرته مع كانونة. حمار حنكوه بالتوت عـلى باب الغيط يموت. حلينا القلوع وأرسـينا وأصبـحنا على ما أمـسينا. حب ووارى وكره ودارى. حـدثتنى ونصحتنى عايرتنى وفرحتنى. حط فليساتك فى كمك واشتر أبوك وأمك. حبة قرض تخرب أرض.

حرف الخاء المعجمة: خذينى وارغبى فيه. أنا حصاد ملوخية وعند الخبز آكل مية وعند الشغل ما لى نية. خبثت لى وصلحت لك. خذ ذا الصبى فوق صبيانك تمام لأحزانك. خـزينة فى جره وملحه فى صره. خبزه بلا أدام ويعزم على الجيران.

حرف الدال المهملة: دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك و لا عليك. دواء ما لاتشتهى النفوس تعجيل الفراق.

حرف الذال المعجمة: ذا درب مايسد ريح. ذى مـا هى رمانة إلا قلوب ملانة. ذا لى وذا أيدى عليـه. ذى مائدة ما يقعد عليها طفـيلى. ذا الخبز ما هو من ذا العجين. ذا الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليـه حك أنفه. ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

حرف الراء المهملة: راح ذاك الزمان بناسه وجـا هذا الزمان بفاسه. وكل من تكلم بالحق كسـروا راسه. رأوا حجار راكب حيط قالوا: إلى أين يا حجـار قال: مسـافر. قالوا: من كانت هذه المطية مطيته لايشرق ولايغرب. رأوا سكران يقرأ قالوا: غن تشـاكل روحك. رأوا شيخاً يتـهجى قالوا يختم على الصراط. رأوا وردانة عـلى سنداس قالوا: مالذى الفسيـقة إلا ذى البليطة. رأوا على قبره مكتوب ياسـعادة ساكنه، قالوا: ابصر من يزاحـمه. راكب بلاش ويناغش مراة الريس. وكبتك وراى حطيت يدك فى الخـرج. راح الجندى وخلى خلقه عندى. رزق الكلاب على المجانين. راسين فى عمامة ما يكون. راحت على جمل، وجاءت على قطة قال مالذى الشيلة إلا ذى الحطة. ركبت خنفسة زمر زنبور قال: ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

قال الشاعر:

راح الـذى كـنـا نـعـــــــــيـــش بـفـــــضـلـه بـين الـورى	
وبـقـى الـذيـن حــــــيـــاتـهـم	ووجـــودهـم مـــثـل الخـــرا

حرف الزاى المعجمة: زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بنيت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بنتى أقعد فى دراها جاتنى وأربعة وراها.

قال الشاعر:

زوجت بنتى تنستر	ويمتلى بيتى قماش
جا غزلها فى أكلها	ونيكها طلع بلاش

زنبور زن على حجر مسن، قال له: إيش تريد قال: ألحسك قال: أنا ألحس البولاد. زنبور زن على فلس جحش، قال له: إيش تطلب قال: له عسل. قال له: قصدت معدن يادندن.

حرف السين المهملة: سل المجرب ولاتنس الطبيب. سموك مسحر قال فرغ رمضان. سموك حبل قال وطولت. سموك راجح قال إن شاء الله تجى الحق. سبع وزر ولا استر.

قال الشاعر:

سيغنى الله عن بقراط دنّ	ويأتى الله بالـلبن الحليب

وقال آخر:

سيغنى الله عن زيد وعمرو	ويأتى الله بالفرج القريب

حرف الشين المعجمة: شره ووضيع ويغضب سريع. شىء ما نابه وتقطعت ثيابه. شعر يحلق وشعر ما يحلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل. شمنى ولا تدعكنى. شىء ما يجىء على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شخت بغلة عامت زبلة.

حرف الصاد المهملة: صام ستة وفطر على بصلة. صبرى على الحبيب ولا فقده. صاحب يضر عدو مبين. صباح الفوال ولا صباح العطار. صباحك يا أعور قال ذى خناقة بايتة. صباح الخير يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى.

حرف الضاد المعجمة: ضرب الحبيب كأكل الزبيب. ضربتين فى الرأس تعمى. ضرب وبكى وسبق يشتكى. ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا. ضمنوا حداية لغراب قال: الكل يطيروا. ضربوا بياع الكسبرة خرى بياع التوم، قال ذى داهية جات على الخضرية.

حرف الطاء المهملة: طارت الطيور بأرزاقها. طفيلى ويجلس فى الصدر. طفيلى ويقترح. طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار. طبق وجارية على صحن بسارية. طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعامك ما جانى ودخانك عمانى. طار طيرك وأخذه غيرك. طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش. طوّل الغيبة وجانا بالخيبة.

حرف الظاء المعجمة: ظهرك عندى نصف الليل.

حرف العين المهملة: عنقود مدلى فى الهوا من لايصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكا صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شىء ما زرع إيش جا يستغل. عزومة حسبت عليك كل وبحلق عينيك. عند المخاضة يبان القليط. عند الطعان يبان الفارس من الجبان. عريان التينة وفى حزامه سكينة. عريان وفى كمه ميزان.

حرف الغين المعجمة: غابت السباع ولعبت الضباع. غربه وكربه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحسين فى قدره. غالى السوق ولارخيص البيت.

حرف الفاء: فرجة بلا كسر تعمى البصر. فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يختى. فوق الشراطة ملخ أودانة. فارس خرا ويسوق فى الوحل. فارس خرا واسمه عنتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة فى الرأس تكفى. فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد. فرغت الرعانة يا جانم.

حرف القاف: قالوا للأعمى زوق عصاتك قال هو أنا محب فيها. قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلى. قالوا للقرد شب قال: أيادى ملاح وتمسك الماصول. قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط. قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أيادى مفرودة. قالوا للدبة طرزى قالت ذى خفة أيادى. قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طبعى. قالوا لبقر الديوان إذا متم يكفنوكم فى حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا. قالوا للغزالة ارحلى حركت ذنبها. قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف: كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع. كشكار دايم ولا علامة مقطوعة. كل كرهاً واشرب كرهاً ولا تعاشر كرهاً. كل هم كاوى عند همى ياوى. كل شىء لايشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف مصة ما يجو بغصة. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. كملت يا لحمان بالشعر والصنان. كمل حبيبى كل المعانى أعرج وقيليط ومعجبانى. كمل حبيبى وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للغَجَرِ ولايوحشه من غاب ولايؤانسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور ينيك بلاش ويأوى فى الأعشاش.

حرف اللام: لولاك ياكمى ما كلت يافمى. لولاك يالسانى ما انكسيت ياقفاى. لولا الغيرة والحسد كانت العجوزة كفت بلد. لولا أختك ماصرت ابن عمتك. لو قليناها بلية ما جاءت هكذا. لو كان فيها خير ما رماها طير. لك وعليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطة. لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه. لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة ما يخليها. لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما. لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت لأولاد الخرا كتاب.

حرف الميم: محبة بلا حبه ما تساوى حبه. ما شلتك يا دمعتى إلا لشدتى. من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحس تعب فى تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه. من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا إسته وهزه. من لايحط يده لزنده ما يعرف حره من برده. ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون. ما لى على فراقكم جلد إلا هجاجى من البلد. ما كفانا هم أبونا قام جاب أبوه. وقال خذوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه و ثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القبيح يروح عرضه وينفضح. ما تتقدوهم كلهم وغليه ما فيهم من يعجب النقاد. من أولاد الزنا مر العنا.

حرف النون: نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكبير. نفسك أتلفت أى شىء أخلقت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقص ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها: وأنت كنت على أى ورقة. نيتك مطيتك. نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

حرف الهاء: هانت الزلابية حتى أكلها بنو واتل. هان المسك وانتشر. هدية تعر قومها تخليتها ولا لومها. هدية الأحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الموز. هو عرس تأكل وتنسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقول الله يردها. هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

حرف الواو: واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر ياقريب الفرج. واحد بيخطبوا له وهم قائم عليه قال أنا فى حاجتك. واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال مالذى الفاكهة البلدية إلا ذى الصورة القمرية. واحد سموه عنبر وصنعته سرباتى، قال الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة. وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك. وإيش قام على تومه بفضل الحكومة وقت الشوا واليخنى ما.

قلت يا أخي الحقني ووقت ضرب الدره قلت اصفعوا واصفعني.

حرف اللام ألف: لاتعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك. لا أصل شـريف ولاوجه ظريف. لا أخوك ولا ابن عمك تشـقق ثوبك على إيش. لا عاش بلـيق. لاحراس ولا دراس. لا عاش العـار ولا بنى له دار. لا ربح ثوابه ولا خلاه لاصحـابه. لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصـل. لاتشكرن فتى حتى تجربه. لاتفـرح لمن يروح حتى تنظر من يجي. لايضر السحاب نبح الكلاب. لايغرك تظريفى الأصل فى ريقى.

حرف الياء: ياشب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا طرفك. يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفى قلبه من الهم واجس. ياطارق الباب بعـد العشى لاتطرق الباب ما تم شى. يا من ملنـا ما كان حلنا. لـا ما لنـا فى العشرة سنة. يهنيكم قدومه قـد جاكم بشومه. ياليتنا انكسـرنا ولا بك انتصرنا. يا ويل من كان عشيـه من بيت خيه. ياطالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

أمثال النساء

حرف الألف: أحبك يا سوارى مـثل معصمى. الذي فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل. إن كنتى حـرة لاتضيعى نقابك بره. إن لم تعملى وتفتخرى وإلا اقعدى وانعـفرى. إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذى داهية عياره. الكلام لك ياجاره إلا أنت حـماره. إيش تعمل الماشطة فى الوجـه المشؤوم. إيش قام على الحـزينة بالنقش والزينه. إيش ينفع النفخ فى الوجه الأصم. أرمله عدس ومـتزوجه عدس. اقعدى بعدسكى اسم الزوج ولاطعم الترمل. العاقلة فينا تزنى بيقطينا. إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى. استعارت الرعنة شىء حـبته لها أخذت المقص ودارته لها. اقعدى فى عشك حتى يجى حد ينشك.

حرف الباء الموحدة: بعد أن كنتى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك. بعـد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين. بعد أن كان زوجها بقى طبـاخ فى عرسها. بعد مشيك فى الحلقة بـقالك سلالم وغرفه واسمك ستيـته. بعد أمى وأختى الكل جيرانى. بينما تتنقب الحولة انصرف القاضى. بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف. باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قـبله. بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعى فردة خـفك. بخرا أو تزاحم بالبوس. بقى لأم سيسى برقع وللضفدعة زماره. بعد مشيك فى الخلافى لبستى الصافى. بعيد على الحزينه تستعمل الزينة.

حرف التاء: تابت القحبـة يوم وليلة وقالت ما بقى فى البلد حكام. تضاربـت المجنونة والحمقاء حـبته الرعنة من حقا. تضارب وتتعرى وتصيح ياقلة رجالى. تأخذوا أبونا وتكابرونا. ترتانه وبيانه ومفاتيح الخزانه. تباهت الرعنة بشعر بنت أختـها. تخلونى وإلا اسـتحل بجارنا قـالت إذا كان ذا فى قلبك خـذيه بلا استحـلال. تتغمـى بالخرج ولا تخلى الغنج. تقعد عيوشه فى ديارتها ما لأحد حاجة فى زيارتها.

حرف الثاء: ثوب سيدى ثوب حبيبى ثوب ستى ثوب قحبه.

حرف الجيم: جاره بجاره والعـداوه خساره. جانى عذولى ورتالى مـا هى محبه إلا شمـاته لى. جاريه وزبديه على باذنجانه مقليه. جاتنا العدوة مكحلة قطران لا غيرة وقلبها فرحان. جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونه معهم.

حرف الحاء المهملة: حوله وتتنقـب بنخ. حزانى ما عندهم دقيق اشـتروا لهم منخل رقيق. حزانى مـا عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخيـة. حزينة وواعية. حبلة ومرضعة وعلى كتفهـا أربعة، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل. حوله ونصرانية لامليحة ولا أصل طيب. حزينة ما لها مملوك سمـت زنبورها خوشكلدم. حزينة مالها ملك اكترت لها بواب. حزينة مالها كاملية طلبت لها خف وشعرية.

حرف الخاء المعجمة: خطبوها تعززت وكـان زمان البوار. خلت زوجها مكـروب وراحت تشوف المصلوب. خذى قطيفة واكتمى سرى قالت ما يطاوعنى قلبى. خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها.

حرف الدال المهملة: درى زوجك بكتبتك تمى نهارك مع ليلتك. دق من أسفل ولاتطلع ما أنت على القلب.

حرف الذال المعجمة: ذكرت العجوز أطلالها.

حرف الراء: رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجمل. رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم. وأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا ما لذا الشكل الوضيع إلا ذا القماش الرفيع. واحت تبيع ربعه غابت جمعة. راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة. راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس. رأوا خنفسة على مكنسة قالوا ما للى الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر.

حرف الزاى: زمر بالزميميره تبان لك العاقله من المجينينه. زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعة. زوجوا بنت نشادرى لسرباتى قالوا قليلات الخرا تتدحرج لبعضها.

حرف السين المهملة: سودا وتتقش بسباخ سودا. سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب.

حرف الشين المعجمة: شدى قرطاسك من عند موسه قالوا داشى ما فرحتى به وأنتى عروسة وشامتة ومعزية.

حرف الصاد المهملة: صارت القحبة واعظة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة: ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت ما أخف دمه.

حرف الطاء المهملة: طلعت ترحم نزلت تتوحم.

حرف الظاء المعجمة: ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

حرف العين المهملة: عميا تخفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة. عاقلة جابت طفلة وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها اطبخى. على قدر لمحة تقع الصلحة. عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجوزة وخرفانة دى داهيه كمانة.

حرف الغين المعجمة: غيرك يقوم مقامك عليش قلبى أعنبه.

حرف الفاء: فرحت حزينة خربت مدينة.

حرف القاف: قالوا للمغانى اتزوقوا قلبوا عصاييهم. قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد. قالوا دى قحبة تطلب الثواب.

حرف الكاف: كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها. كبرتى يا برقوقة وبقى لك دبوقة. كانوا مغانى صاروا ملاهى. كلى قليه وباتى هنيه كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة. كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبه جعيدى مخلوعة ولا تأخذ شىء.

حرف اللام: لو كان ما ينقش إلا السمان بارت المواشط من زمان. للساعة ما حبلت جابت المرسين. لولا المعاير ما كانت الحراير.

حرف الميم: ماشطة وتمشط بنتها. من افتكرنا بياسمينا ما نسينا. منقبة قفل على خزانة.

حرف النون: نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكبير.

حرف الهاء: هش يا دباتة أنا حبلى من مولانا.

حرف الواو: وجه لايرى بالذهب يشترى.

حرف اللام ألف: لا أنتى مليحة ولا تغنى بايش تدلى. لا راحت ولا جات كما هى.

حرف الياء: يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزالة الأقمار أين كنتى بالنهار. يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية. يا من ملنا ما كان حلنا للساعة ما لنا فى العشرة سنة.

فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول فى البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] وقال ﷺ: «إن من البيان لسحرا». قال ابن المعتز[1]: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ[2]: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هى أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]. وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ [القلم: ٣٩]. أى وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليونانى: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندى: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندى: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ قال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعانى الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدى. والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدى: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحترى: خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لايقطع إلا بسوابق الأذهان، ولايسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به	وكلنا بقصور عنك نعترفُ
مَهِّد لى العذر فى نظم بعثت به	من عنده الدرّ لايُهدى له الصَّدفُ

وروى أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال: ياغلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، قال: فطلبت حجاماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة، فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل.

وقال الثعالبى: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالى، ويخيط الألفاظ على قدر المعانى. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً. وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه فى حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لايحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثانى: فى الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من

(١) ابن المعتز: هو عبد الله بن محمد بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسى، أبو العباس الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، كان مولعاً بالأدب وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ منهم، وصنّف كتباً منها: «الزهر والرياض» و«البديع» و«طبقات الشعراء» وغيرها توفى سنة (٢٩٦هـ-٩٠٩م).

(٢) الجاحظ: هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثى، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، قتلته مجلدات مكتبته حيث وقعت عليه، له تصانيف كثيرة منها «الحيوان» و«البخلاء» و«البيان والتبيين» وغيرهم توفى سنة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م).

قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لايكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد فى تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى، والفصاحة فى الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم فى صدرى، وإن قصر سقط من عينى.

وقد اختلف الناس فى الفصاحة، فمنهم من قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعانى، ومنهم من قال: إنها لاتخص الألفاظ وحدها واحتجّ من خصّ الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعانى، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف فى كلام الناس، والذى أراه فى ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المستحسن فى الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمت الحبّ كنت كما ... كنّا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبرُ

قيل: إن هذا البيت لايمكن إنشاده فى الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب فى المخارج يحدث ثقلاً فى النطق به. وقيل: من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفى من أمره المستور. قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... ولم يبق إلاّ صورة اللحم والدم

وسمع النبىّ ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك ياعم فى جمالك. أى فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء[1] يستجيزها أحمد الله كثيراً. فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت فى إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما أن الآنية تمتحن بأطنانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه.

وقال المبرد[2] قلت للمجنون أجزنى هذا البيت:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه ... وإبراقه فاليوم لاشك ماطر

---

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمى، بالولاء، أبو العيناء، أديب فصيح، من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جواباً، اشتهر بنوادره ولطائفه، كان ذكياً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان فى سبّ الناس والتعريض بهم، كف بصره بعد الأربعين، توفى فى البصرة سنة (٢٨٣هـ - ٨٩٦م).

(٢) المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدى، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد فى زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار ولدبالبصرة سنة (٢١٠هـ) ومن تصانيفه (الكامل) و(إعراب القرآن) و(المقتضب) توفى ببغداد سنة (٢٨٦هـ - ٨٩٩م).

فقال:

وقد حجبت فيه السحاب شمسه ... كما حجبت وردَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثنى، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يابنى إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعنى كلاماً وصواباً، قال: يابنى، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبى[1]: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إلىّ منها. وقال ابن عيينة[2]: الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك[3]:

وهذا اللسان بريدُ الفؤاد ... يدلّ الرجالَ على عقله

ومرّ رجل بأبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضى الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شىء، فقال: لا، وأيّد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعراً:

سحبان يقصر عن بحور بيانه ... عجزاً ويفرق منه تحت عباب

وكذا قسٌ ناطقٌ بعكاظه ... يعيا لديه بحجة وجواب

وقيل: إنه حجّ مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لايفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبى على الثقفى إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة. وكتب إبراهيم المهدى: إياك والتتبع لو حشى الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع. والسيف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبى بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام على حتى مضى رضى الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضى الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضى الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلاً كان أسيراً فى بنى بكر ابن وائل وعزموا على غزو قومه، فسألهم فى رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لاترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاءوا بعبد أسود، فقال له: أتعقل ما أقول لك، قال: نعم إنى لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل، قال: ما أراك إلاّ عاقلاً، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدرى وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومى التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعنى أسيراً كان فى أيديهم من

---

(١) الشعبى: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار، الشعبى الحميرى، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد سنة (١٩هـ)، اتصل بعبد الملك بن مروان، وكان يقول: لاحدثنى رجل بحديث إلاّ حفظته، وكان فقيهاً شاعراً، توفى سنة (١٠٣هـ- ٧٢١م).

(٢) ابن عيينة: هوسفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى، أبو محمد، محدث الحرم المكى من الموالى، ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعى: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له «الجامع» فى الحديث، وكتاب فى «التفسير» توفى فى مكة سنة (١٩٧هـ-٨١٤م).

(٣) ابن المبارك: هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى، أبو محمد، اليزيدى، عالم بالعربية والأدب سكن بغداد، فصحب يزيد بن منصور الحميرى (خال المهدى) يؤدب ولده فنسب إليه واتصل بالرشيد فعهد إليه تأديب المأمون، من كتبه: (النوادر) فى اللغة و«المقصور والممدود»، توفى بمرو سنة (٢٠٢هـ-٨١٨م).

بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيساً، واسألوا عن خبري أخي الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أى أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتي الحمراء أى ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، اى الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيساً، أى أن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه: والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندى غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له الزم الفرقدين يعنى فى هروبك على جبل طيء، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

وكانت علية بنت المهدى تهوى غلاماً خادماً اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة، ﴿فإن لم يصبها وابل﴾[البقرة: ٢٦٥]، فالذى نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم: تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أى يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلاناً، أى ما ضربته فى رئته، ولا كلمته أى ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعاً، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً، فالكافر السحاب والفاسق الذى تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراكع العاثر الذى كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلى الذى يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقرة، أى عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

وحكى أن معاوية رضى الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن عليّا رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليّا رضى الله تعالى عنه، فلقد لقى ربّه، وأفرد فى قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفنى فهو خير لك وإن تجبرنى على ذلك، فوالله لاتجرى شفتاى به أبداً، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك فى القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتنى، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثنى عليه، وأصلى على نبيه محمّد ﷺ ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليّا، الا وإن معاوية وعليّا اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهمّ العنهم لعناً كثيراً أمنوا رحمكم الله. يامعاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى. فقال معاوية: إذاً نعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب: إن عليّا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبى سفيان قد أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنّك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم. ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين

من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أى أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها، وفرحك بما أتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾[الأنعام: ٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمـــــــرٌ بـدا نقــــــصُــــــهُ ترقَّبْ زوالا إذا قـــــــيـل، تمّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن: ١٥] فتعجبوا من ذلك.

وحكى أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومى قبل يومك، والله إنه ليسرنى ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية، وأما قوله: وأقر عينك، فمعناه سكن الله حركتها أى أعماها، وأما قوله: وجعل يومى قبل يومك، أى جعل الله يومى الذى أدخل فيه الجنّة قبل يومك الذى تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرنى ما يسرك، فإن العافية كما تسره تسر الآخر. فانظر إلى الاشتراك وفائدته، ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد ولا سلم له فى التخلص قياد، وكان حماد الراوية[1] لايقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف، فصحف فى نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل: ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة: ١١٥] بالباء الموحدة ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾[القصص: ٨] بالباء الموحدة. وقوله: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ [لقمان: ٣٢] بالجيم والباء الموحدة. وقوله: ﴿هم أحسن أثاثا ورئيا﴾[مريم: ٧٤] بالزاى وترك الهمزة. وقوله: ﴿عذابى أصيب به من أشاء﴾ [الأعراف: ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾[البقرة: ١٣٨] بالنون والعين المهملة. وقوله: ﴿سلام عليكم لانبتغى﴾[القصص: ٥٥] بإسقاط التاء. وقوله ﴿بل الذين كفروا فى عزة وشقاق﴾[ص: ٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لايقع إلا من الأذكياء.

وحكى أن المأمون ولى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور فى حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى فى أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: آخذاً بالعزم، أى إذا عزم على ظلم أو جور، فعله فى الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته، أى أخذ كل مامعهم حتى ساوى بين الغنى والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعنى أن الكل صاروا فقراء لايملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أى ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولى عليهم غيره.

وفى ذلك ما حكى: أن القاضى الفاضل[2] كان له صديق خصيص به وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر

---

(١) حماد الراوية: هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالراوية، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم، توفى سنة (١٥٥هـ - ٧٧٢م).

(٢) القاضى الفاضل: هو عبد الرحيم بن على بن سعيد اللخمى، المعروف بالقاضى الفاضل، كان من وزراء السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين يقول: لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل، توفى رحمه الله سنة (٥٩٦هـ - ١٢٠٠م).

صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهمّ بقتله فتسحب إلى بلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه. فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أننى أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبى ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة فى الكتب.

فشدد إن ثمّ أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[القصص: ٢٠] فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً فلما أراد أن ينهى الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل فى آخرها ألفاً وأراد بذلك ﴿إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾[المائدة: ٢٤]، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكى أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جنب قصره لم ير الراءون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمنْ هذه؟ فقالت: يا مولاى هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى فيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاى، قال: خذ هذا الكتاب وامض إلى البلد الفلانية، وائتنى بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه متخفياً إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر: فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وأما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إننى الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتنى فقالت: بل عرفتك يامولاى، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ | وذاك لكثرة الورَّاد فيه
إذا سقط الذباب على طعام | رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسودُ ورودَ ماءٍ | إذا كان الكلاب ولَغنَ فيه
ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ | ولايرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر:

قلْ للذى شَفَّهُ الغرامُ بنا | وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائلٌ أبداً | قد أكلَ الليثُ فضلةَ الذيب

ثم قالت: أيها الملك تأتى إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسى نعله فى الدار، هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه فى رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك فى الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلم عليها، وقال لها: قومى إلى زيارة بيت أبيك، قالت وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك، قالت: حباً وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها،

وقال يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليَّ حقًا، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضى إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيّد الله مولانا قاضى القضاة إنى أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضى إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضى قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضى: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضى: ما قولك؟ قال: والله يا مولاى ما رددت البستان كراهة فيها، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالنى، فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد، قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يافيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمراً ولاشيئاً، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضى ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

وهذا كله مما يأتى به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المتستر من أمره من الراحة فى كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن فى المعاريض مندوحة عن الكذب. كما روى فى غزوة بدر أن النبىّ ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدراً، فلقيهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبىّ ﷺ: «من ماء» أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أى العرب يقال لهم ماء، فسار النبىّ ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ فى قوله: فإن الله عز وجل قال: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾[الطارق: ٥، ٦]. وكما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال للكافر الذى سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: هو رجل يهدينى السبيل، وقد صدق فيما قال رضى الله عنه فقد هداه الله وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكى عن الإمام الشافعى(١) رضى الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول فى القرآن؟ فقال الشافعى: إياى تعنى، قال: نعم. قال: مخلوق، فرضى خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعى إلا نفسه. وكما حكى عن ابن الجوزى(٢) رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته، وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة، فقيل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم على رضى الله عنهما، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضى الله عنه لأن الضمير فى ابنته يعود إلى أبى بكر رضى الله عنه، وهى عائشة رضى الله عنها، وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير فى ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهى فاطمة رضى الله عنها، وكانت تحت على رضى الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة، والله أعلم.

الفصل الثالث: ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبى تتكلم فى هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًا، فلست أصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبى صغير السن، وقد

(١) الشافعى: هو محمد بن إدريس، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية ولد بغزة بفلسطين سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، قال المبرد: كان الشافعى أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات وقال أحمد بن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو أوراق إلا وللشافعى فى رقبته منّة، قصد مصر سنة (١٩٩هـ) وتوفى بها سنة (٢٠٤هـ - ٨٢٠م).

(٢) ابن الجوزى: هو عبد الرحمن بن محمد الجوزى القرشى البغدادى، أبو الفرج، علامة عصره فى التاريخ والحديث، كثير التصانيف له: «الأذكياء وأخبارهم» و«المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم» وغيرها توفى فى بغداد سنة (٥٩٧هـ - ١٢٠١م).

أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرَّهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون﴾[الأنفال: ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلَّمْ فليس المرءُ يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
فإنَّ كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفّت عليه المحافل

وحكي أن البادية قحطت أيام هشام[1]، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لايعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: انشره لله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، فاقتحمته عينه وتنقصه، فقال مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجوّ نائله ... إني لمن معشرٍ شُمِّ الذرى زهرِ
فلا تغرنك الأجسامُ إنّ لنا ... أحلام عادٍ وإن كنّا إلى قصرِ
فكم طويل إذا أبصرت جثته ... تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فإن ألمّ به أمر فأفظعه ... رأيته خاذلاً بالأهل والزّمر

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب من لاينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا

---

(١) هشام: هو هشام بن عبد الملك بن مروان، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق سنة (٧١هـ) وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥هـ) وكان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، توفي سنة (١٢٥هـ - ٧٣٤م).

يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنّة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذى فى القمر. فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت فى شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل. فكتب إليه فأجابه، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وأما لاشيء فإنها الدُّنيا تبيد وتفنى، وأما دين لايقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنّة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم، وأما صلاة كل شيء فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذى لا أم له، فآدم عليه السلام، وأما القبر الذى جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل، وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلاّ ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معتذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما الشجرة التى تنبت من ماء، فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذى يتنفس بلا روح، فالصبح. قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨]. وأما اليوم فعمل وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل، وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذى فى القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكى أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين. قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطى على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتفنن فى الملام، الضنين بالسلام، المهذار فى الكلام، المقبقب[1] على الطعام. قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً وأقومهم ميزاناً، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً، قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله و عزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لايعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذى لايتكلم هذراً، ولاينظر شزراً، ولايضمر غدراً، ولايطلب عذراً، والجاهل هو المهذار فى كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك، فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لايعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه،

(١) وهو الجالس على الطعام كأنه قبّة.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لايصلح إلا على المداراة، فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة، فقال له الحجاج[1]: ياغضبان إنى موجهك إلى ابن الأشعث[2] وافد، فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إنى أظنك لاتقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لسانى، وأجريه فى ميدانى، قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه أى جاسوساً، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك، فخذ حذرك، وتغدّ به قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً، فأتى إلى أرملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء، فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمىء ظمأ شديداً، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابى؟ قال: أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ، فيممت قبتك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعنى؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لايوصل إليها. قال: إن هذه أمنع منها، فقال الأعرابى: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطى؟ قال: أكره أن يكون لى اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشى فى مناكبها. فقال الأعرابى وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، فقال: يا هذا ائذن لى أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقنى حر الشمس، قال: ما لى عليها من سلطان، فقال: الرمضاء أحرقت قدمى، قال: بل عليها تبرد، فقال: إنى لا أريد طعامك، ولا شرابك، قال: لاتتعرض لما لاتصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابى: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابى: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابى يا جار بنى كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث، فقال الأعرابى: ما رأيت رجلاً أقسى منك أتيتك مستغيثاً فحجبتنى وطردتنى، هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض؟ قال: ما لى بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابى: بالله ما اسمك، ومن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبعثرى. فقال: اسمان منكران خلقا من غضب. قال: قف متركئاً على باب قبتى برجلك هذه العرجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة، فقال الأعرابى: إنى لأظنك حرورياً. قال: اللهمّ اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده، فقال: إنى لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرنى على إصلاحه، فقال الأعرابى: لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى، وهو يقول:

لا بارَكَ اللهُ فى قومٍ تسودُهم ... إنّى أظنّك والرحمن شيطانا

أتيتُ قبّتَهُ أرجو ضيافته ... فأظهرَ الشيخُ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابى قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا، فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التى بلغتنى أنك قلت لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى

---

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى، أبو محمد، قائد، داهية، سفاك للدماء، خطيب ولد ونشأ فى الحجاز سنة (٤٠هـ)، وانتقل إلى الشام فلحق بنائب عبد الملك بن مروان، ثم ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيها، فقمع الثورة، وثبتت له الإمارة، وقال بعضهم: ما رؤى مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه، توفى سنة (٩٥هـ - ٧١٤م).

(٢) ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى، أمير من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج، وتم له سجستان وكرمان والبصرة وفارس، توفى سنة (٨٥هـ - ٧٠٤م).

بك، فوالله لأحبسنك عن الوساد، ولأنزلنك عن الجياد، ولأشهرنك فى البلاد، قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له: ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به،فقيد وسجن، فمكث ماشاء الله، ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتى هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لِمَ لم تخبرونى بنصح؟ قالوا: لايصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتى هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها فى غير بلدك لا لك ولا لولدك لاتدوم لك، ولايسكنها وارثك، ولاتبقى لك، وما أنت لها بباق، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين﴾[الزخرف: ١٣] فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿ربِّ أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾[المؤمنون: ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخلقكم تارة أخرى﴾[طه: ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربّى لغفور رحيم﴾[هود: ٤١] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاءً وخبثاً، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له فى الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلاّ الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لاتعفو آثاره، ولايتهدم مناره، ولاينبت حبله، ولايزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين فى الضياع التى أفادناها نعم آبائه الطيِّبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامى هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيِّبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدى ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمّد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً[1] إليك بالطاعة التى أفرع عليها غصنى واحتنكت بها سنى، وريّش بها جناحى، متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومفارقة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق فى نصابه، وأقرهم فى داره وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالاً بعد حال، فارحم ياأمير المومنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدراً بعد صفو، ومراً بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاّتى غذتنا صغاراً وكباراً وشباباً وأشياخاً وأمشاجاً فى الأصلاب، ونطفاً فى الأرحام، وقدمنا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت لطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور[2] وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لاينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لاعفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. و قد قال الله جلّ ثناؤه، وتعالت قدرته: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[النور: ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ومنعه الكافى ثم أنشد يقول:

أميـر المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قُربى وليس لهم تلاد
هم الصدر المقدّمُ من قريش ... وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدُّنيا ولذّت ... وأرجو أن يطيبَ بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين ... وكيف يقلّ سؤددك البلاد

(١) مزدلفًا: مقتربًا.

(٢) الديجور: الظلمة.

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه وقرّب منزلته وأدناه، ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين، فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدى، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ درادير، ذقن ذكر ذراع، رقبة رأس ركبة، زند زردمة زب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سرة سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدغ صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طرة طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغنوغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعا فقبّل الأرض بين يدى أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ فى الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى من الفصحاء، وكان على عتوه وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق فى الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان، وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال، وذلك فى كل يوم وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامى، فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولى إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت.

حكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكى، وأنف حمى، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوى الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد، فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق: قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك. ثم قال: ما لى أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفىء نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة، قال إليك عنى، وذاك فلست هناك، ثم قال: مَن للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلنى قطعته، ومن نازعنى قصمته، ومن خالفنى نزعته، ومن دنا منى أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتى وعلامتى وما عليك يا أمير المومنين أن تبلونى فإن كنت للأعناق قطّاعا، وللأموال جمّاعا، وللأرواح نزّاعا، ولك فى الأشياء نفّاعا، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل، فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذى تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيىء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق قال عبد الملك بن عمير: فبينما

نحن فى المسجد الجامع بالكوفة إذ أتانا آت فقال: هذا الحجـاج قدم أميراً على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمـراء متلثماً بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسـجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حـالة حسنة و هيئة جميـلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان فى المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمى، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابىء وقـال: لعن الله بنى أمية حيث يـولون ويستعملون مـثل هذا على العراق، وضيع الله العـراق حيث يكون هذا أميرها، فو الله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشىء، والحـجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً، فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقـال: إنى لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأميـر، فكشف عن لثامه، ونهض قائما فكان أول شىء نطق به أن قال: والله إنى لأرى رءوسًا أينعت وقد حان قطافـها وإنى لصاحبها، وإنى لأرى الدماء ترقرق بـين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثـر كنانة بين يديه فعجم عيـدانها، فوجدنى أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً، فـرماكم بى لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم فى مراقد الضلال، والله لأنكلن بـكم فى البلاد، ولأجعلنكم مثلاً فى كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإنى يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيـت، فإياى وهذه الزرافات والجماعات، وقيل: وقال وكـان ويكون، يا أهل العراق: إنّما أنتم أهل قـرية كانت آمنة مطمئنة يأتيـها رزقها رغـداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعـيد القرى من ربّهـا، فاستوثقـوا واستقيـموا، واعملوا ولاتميلوا، وتابعـوا، وبايعوا، واجتمـعوا، واستـمعوا، فليس منى إلا الإهدار والإكثـار إنما هو هذا السيف، ثم لاينسلخ الشـتاء من الصيف حتى يذل الله لأمـير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم ثم إنى وجدت الصـدق مع البـر ووجدت البر فى الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور فى النـار، وقد وجهنى أميـر المؤمنين إليكم، وأمرنى أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب ابن أبى صفرة[1]، وإنى أقسم بالله لا أجـد رجلاً يتخلف بعد أخـذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقـه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: اكفف ياغلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيـسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه؟ هذا أدبكم الذى تـأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدباً غيـر هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فـقرأ حتى بلغ قـوله: سلام عليكم فلم يبق أحـد إلا قـال: وعلى أميـر المؤمنين السـلام، ثم نزل بعـدما فـرغ من خطبته وقـراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونهـا حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إنى على الضـعف كما ترى، ولى ابن هو أقوى منى على الأسفار، أفتقبله بديلاً منى؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولى قال له قائل: أتدرى من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابىء الذى يقول:

همـــمت ولَمْ أفـــعل وكـــدتُ وليـــتنى ... تركـت على عـــثـــمـــان تـبكى حـــلائـله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول، فوطىء فى بطنه، فكسر ضلعين مـن أضلاعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحـجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فـعلت يوم قتل الدار؟ إن فى قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين. ياسياف اضرب عنقه، فضرب عنقه، وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف فى قتل أسرى دير الجـماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مـروان، فشق عليه، وكتب إليه، أمـا بعد، فقد بلغنى عنك إسراف فى الدمـاء، وتبذير فى العطاء، وقد حكمت عليك فى الدماء فى الخـطأ بالدية، وفى العمد بالقود، وفـى الأموال أن تردها إلى مواضعـها، ثم تعمل فيـها برأيى، فإنما هو مال اللـه تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لى فمـا أغنانى عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عنى أمران: لين وشدة، فـلا يؤمننك إلا الطاعة، ولايوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله

(١) المهلب: هو المهلب بن أبى صفرة ظالم من سراق الأزدى العتكى، أبو سعيد، أمير بَطّاش، جواد، قـال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق، ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، توفى سنة (٨٣هـ - ٧٠٢م).

عزّ وجلّ الظفر، فلا تقتلن جانحاً، ولا أسيراً، وكتب فى أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلب رضائى بالذى أنا طالبُهْ
فإن ترَ منّى غفلةً قرشيةً ... فيا ربما قد غصّ بالماء شاربه
وإن ترَ منّى وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبه
فلا تأمنّى والحوادثُ جمةٌ ... فإنك تجزى بالذى أنت كاسبُهْ
فلا تعدُ ما يأتيك حقاً علمته ... يقمن به يوماً عليك نوادبه
فلا تمنعنّ الناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إنْ تعطى الحقوق فإنما ... النّوافل شىءٌ لايشيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافى وتبذيرى فى الأموال، ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلى العصاة إسرافاً وإعطائى المطيعين تبذيراً، فليمض لى أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمداً فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب فى أسفل الكتاب:

إذا أنا لاأبغى رضاك وأتّقى ... أذاك فليلى لا توارى كواكبه
وما لامرىءٍ بعد الخليفة جنّة ... تقيه من الأمر الذى هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئةً ... لقامت عليه بالصباح نواديه
فإذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... وأقصِ الذى تسرى إلىّ عقاربه
وأعط المواسى فى البلاء عطيةً ... لردّ الذى ضاقت علىّ مذاهبه
فمن يتّقى بؤسى ويرجو مودتى ... ويخشى غداً والدهر جمٌّ نوائبه
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقلْ ما يقاربهْ
ومهما أردت اليوم منى أردته ... وما لم ترده اليوم إنّى مجانبه
وقف بى على حدّ الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه
وإلّا فدعنى والأمورَ فإنّنى ... شفيقٌ رفيقٌ أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتى ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومنى على محبته، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لايرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك.

وفى مروج الذهب للمسعودى: أن أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام، ولدته مشوهاً لادبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدى وأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له فى صورة الحرث بن كلدة[1] حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيساً والعقوه دمه، وأولغوه فيه، ثم اطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدى، فلأجل ذلك كان لايصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لايقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يوماً فى السحر، فوجدها تخلل أسنانها

(١) الحارث بن كلدة: هو الحارث بن كلدة الثقفى، طبيب العرب فى عصره، وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف، رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها، واختلفوا فى إسلامه، وكان النبى ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيطب عنده، له كلام فى الحكمة، وكتاب «محاورة فى الطب» توفى سنة (نحو ٥٠هـ - نحو ٦٧٠م).

فطلقهـا، فسألتـه لم فعل؟ فقال لهـا: إن كنت باكرت الغداء فـأنت شرهة، وإن كان بقـايا طعام بفيك، فـأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السـواك، فقال: قضى الأمر، فـتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عـشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسـون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لايبلغه وصف، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسـون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع، ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في مـوضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يـستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي[1]، أكان الحجاج مـؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمـة بخبيثها وفاسـقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم، وقد مضى القـول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واسـتحضرته من أخـبارهم، وأنا قائل إن شاء الله تعالى مـا استحضرتـه من ذكر فصحاء النسـاء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكي عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكـان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسيـة القد، قاعدة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتهـا وحملتها على كتفها، وصعدت من حـافة النهر فانحل وكاؤها فـصاحت برفيع صوتها: يا أبـت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقة لي بفـيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: ياجارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غيـر لئام يقرون الـضيف، ويضربون بالسـيف، ثم قالت: يافـتى من أي الناس أنت؟ فقال: أوَ عنـدك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكـرمها نسباً، وأعظمها حسباً، وخيرها أماً وأباً، وممن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانـة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهـابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قـال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشـم؟ قال: من أعـلاها منزلة، وأشرفـها قـبيلة، ممن تهـابه هاشم وتخافه، فـعند ذلك قبَّلت الأرض، وقالت الـسلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليـفة ربِّ العالمين. قال: فـعجب المأمون وطرب طرباً عظيـماً وقال: والله لأتزوجن بهذه الجـارية لأنها من أكبـر الغنائم، ووقف حتى تلاحقـه العسـاكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مـسروراً، وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكي أن هند بنت النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بهـا، وشرط لها عليه بعـد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنهـا انحدرت معه إلى بلـدة أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندٌ إلاَّ مُهرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تحلَّلها بغلُ
فإن ولدت فحلاً فلله درُّها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغلُ

فانصـرف الحجاج راجعاً ولم يـدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فـأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفـذ لها معـه مائتي ألف درهم، وهي التـي كانت لها عليـه، وقال: يا ابن طاهر طـلقها بكلـمتين، ولا تزد

(١) تقدمت ترجمته.

عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب، فاغسلى الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملى من المعرة إلى بلدك التى أنت فيها، ويكون ماشيا حافياً بحليته التى كان فيها أولاً، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند فى محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يادابة اكشفى لى سجف المحمل، فكشفته، فوقع وجهها فى وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكى منّى فيا طولَ ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفرّج

فأجابته هند تقول:

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت ... بما فقدناه من مالٍ ومن نشب

فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ ... إذا النفوس وقاها الله من العطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار إلى الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها، وكان من أمرها ماكان، وقد وجدت فى بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل: إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها، فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك، فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول، فقال: قولى، فأنشأت تقول:

ما سلم الظبيُ على حسنه ... كلا ولا البدرُ الذى يوصفُ

الظبى فيه خَنَسٌ بيِّنٌ ... والبدرُ فيه كلفٌ يُعرفُ

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها. وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة الجمال فائقة فى الكمال، غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها، خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين إنه فى وقت حاجتك لايكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب، فعبر يوماً تحت جوسق ببستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لايستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة يعرض إليها الزيارة فى جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحير فى أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيراً فى ذلك قالت: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفهِ	زرٌ من التبر خفى اللحامِ
فالزر والعنبر معناهما	زرٌ هكذا مختفياً في الظلام

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

وحكي أن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أو يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بنى ما تميم تكتنون؟ فقالت: ولمَ لانكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال أفعل إن شاء الله، فخجلت من قوله وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض؟ قال: نعم. قالت قطع لي:

حولوا عنا كنيستكم	يا بني حمالة الحطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت بثأرك.

وحكي أن شاعراً كان له عدوّ، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له ياهذا: أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما، فقال: سمعاً وطاعة، ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره، ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتا بفم واحد: قتيل خذا بالثأر ممن آتاكما ثم تعلقتا بالرجل، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله، والله أعلم.

وقيل: بينما كثيرُ عزة[1] مار بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها تنحى عن الطريق، فقالت له: ويحك ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة. قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولمَ؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى	يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزةَ موهناً	إذا أُوقدتْ بالمجمر اللدنُ نارها

ويحك ياهذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً	وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جواباً. وقيل: أتى الحجاج بامرأة منالخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لاتنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لاتنظرين إليه، فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لاينظر الله إليه.

وحكي ابن الجوزي[2] في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبيّ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لايزيد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لاتزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول،

---

(١) كثير عزة: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر، شاعر متيم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، وفي المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، وكان عفيفاً في حبه لعزّة بنت حميل وأكثر فيها التغزل حتى سمي بها، له: «ديوان شعر» توفي بالمدينة سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م).

(٢) تقدمت ترجمته.

فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا﴾[النساء: ٢٠] فقال عمر رضى الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها فى أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: علىَّ بزوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفى أمر طعام أم شراب؟ قال: بل فى أمر مباعدتك إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يا أيها القاضى الحكيمُ أنشده	ألهى خليلى عن فراشى مسجده
نهاره وليله لا يرقدُهُ	فلستُ فى أمر النساء احمدُهُ

فأنشأ الزوج يقول:

زهّدنى فى فرشها وفى الحلل	أنّى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النمل وفى السبع الطوّل	وفى كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضى:

إنَّ لها عليك حقّا لم يزل	فى أربع نصيبها لمن عقل

فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورابع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضى الله عنه: لا أدرى من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك البصرة.

(حكاية المتكلمة بالقرآن)

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا فى بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق، فتميزت ذاك، فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾[يس: ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان؟ قالت: ﴿ومن يضلل الله فلا هادى له﴾[الأعراف: ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾[الإسراء: ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهى تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنتِ منذ كم فى هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثلاث ليال سويا﴾[مريم: ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: ﴿هو يطعمنى ويسقين﴾[الشعراء: ٧٩] فقلت: فبأى شىء تتوضئين: قالت: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾[النساء: ٤٣]، فقلت لها: إن معى طعاماً، فهل لك فى الأكل؟ قالت: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾[البقرة: ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾[البقرة: ١٥٨]، فقلت: قد أُبيح لنا الإفطار فى السفر. قالت: ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[البقرة: ١٨٤]، فقلت: لِمَ لا تكلمينى مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[ق: ١٨]، فقلت: فمن أى الناس أنت؟ قالت: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[الإسراء: ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعلينى فى حل، قالت: ﴿لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾[يوسف: ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة، قالت: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه

الله﴾[البقرة:١٩٧] قال: فأنخت ناقتى، قالت: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾[النور: ٣٠] فغضضت بصرى عنها وقلت لهـا: اركبى، فلما أرادت أن تركـب نفرت الناقة فـمزقت ثيـابها فـقالت: ﴿وما أصـابكم من مصيبـة فبما كـسبت أيديكم﴾[الشورى: ٣٠] فقلت لها: اصبـرى حتى أعقلها، قالت: ﴿ففهمناها سليمان﴾[الأنبياء:٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبى فلما ركبت قالت: ﴿سبـحان الذى سخّر لنا هـذا وما كنا له مقرنين وإنـا إلى ربنا لمنقلبون﴾[الزخرف:١٣] قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿واقصد فى مشيك واغضض من صوتك﴾[لقمان:١٩] فجعلت أمشى رويداً رويداً وأترنم الشعر، فقالت: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾[المزمل: ٢٠] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً، قالت: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[البقرة:٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تسـألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾[المائدة: ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[الكهف:٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم فى الحج؟ قالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[النحل:١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القبـاب فمن لك فـيهـا؟ قالت: ﴿واتخـذ الله إبراهيم خليـلاً﴾[النسـاء:١٢٥] ﴿وكلم موسى تكليـماً﴾[النسـاء:١٦٤] ﴿يايحيى خذ الكتاب بقوة﴾[مريم:١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبـان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فليـنظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾[الكهف:١٩] فمضى أحدهم فـاشترى طعاما فقـدموه بين يدى فقالت: ﴿كلوا واشربـوا هنيئاً بما أسـلفتم فى الأيام الخـالية﴾[الحاقة: ٢٤] فقلت: الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليـها الرحمن، فسبحان القـادر على مايشاء، فقلت: ﴿ذلك فـضل الله يؤتيه مـن يشاء والله ذو الفـضل العظيم﴾[الجمعة: ٤] والله أعلم بالصواب وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل: إن معن بن زائدة[١] دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة[٢] مائة ألف على قوله:

معن بن زائدة الذى زادت به ... شرفًا على شرفٍ بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلنًا ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهندٍ وسنان

فقال: أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع. ووفد ابن أبى محجن على معاوية، فقام خطيبًا فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذى أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمةٍ ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وقال: بل أنا الذى يقول أبى:

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته ... وسائل الناس ما جودى وما خلقى
أعطى الحسام غداة الروع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس أنى من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبى محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى، فقال له: ألست القائل:

ومنا سويد والبطين وقعنب ... ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك. فكان ذلك سببًا لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميمًا، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير

---

(١) معن بن زائدة: هو معن بن عبد الله بن مطر الشيبانى، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموى والعباسى، فلما صار الأمر إلى بنى العباس طلبه المنصور فاستتر وتغلغل فى البادية، ودافع عن المنصور دون الثوار من أهل خرسان فعفى عنه المنصور وأكرمه وجعله من خواصه وولاه اليمن ثم سجستان مات قتيلاً سنة (١٥١هـ -٧٦٨م) .

(٢) مروان: هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة، كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار، قيل كان طبيباً يهودياً فأسلم، وكان يمدح المهدى والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة عظيمة، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية، توفى ببغداد سنة (١٨٢هـ - ٧٩٨م).

من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن حرب ... وسيفي صارم ومعي لساني

وحولي من ذوي يزن ليوث ... ضراغمة تهش إلى الطعان

يعير بالدمامة من سفاه ... وربات الحجال من الغواني

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج، فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرك رسنه، وأولاك أمانته، فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر لك وهو عنى مدبر، فلو رأيتني وهو على مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحقرت، فقال سليمان: أترى الحجاج استقر فى جهنم؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودى لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم، فقال على كرم الله وجهه: ولمَ أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. ووجد الحجاج على منبره مكتوبًا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾[الزمر:٨]، فكتب تحته ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾[آل عمران : ١١٩]. ودخل عقيل[1] على معاوية وقد كف بصره، فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم. وقيل: اجتمعت بنو هاشم يومًا عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بنى هاشم إن خيرى لكم لممنوح، وإن بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم، ولا يرد بابى دونكم، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرًا مختلفًا، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدى منى، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا، وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال: والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكفن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر، أكفاك أم أزيدك، قال كفانى يا ابن عباس. وقال معاوية يومها: أيها الناس إن الله حبا قريش بثلاث فقال لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ونحن عشيرته الأقربون، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. ونحن قومه، وقال: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ [قريش: ١]. ونحن قريش، فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]. وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧]، وأنتم قومه وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو ردتنا لزدناك.

وقال معاوية أيضًا لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومى قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال : ٣٢]، ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه. وقال يومًا لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية! فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهى الأنثى من الكلاب! قال: اسكت لا أم لك. قال: أم لى ولدتنى أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف

(١) عقيل: هو عقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، وكنيته ابو يزيد أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، وكان ممن يتحاكم الناس إليه فى قريش، وخرج مع قريش للقتال فى بدر، فأسره المسلمون ثم افتدى ورجع مكة، وأسلم بعد الحديبية، وشهد غزوة مؤتة وكان ناس يأخذون عنه الأنساب فى مسجد المدينة. توفى سنة (٦٠هـ - ٦٨٠م).

التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقًا، وأعطيناك سمعًا وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالاً شداداً، وأسنة حداداً، فقال معاوية، لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفًا فإن شر الدعاء محيط بأهله. وخطب معاوية يومًا فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١] فعلام تلومونى إذا قصرت في عطاياكم فقال له الأحنف[1]: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه. وقيل دخل مجنون الطاق يومًا إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وكان في الحمام فغمض عينيه فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يومًا متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولى العراق شر منه قبحه الله، وقبح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟ قال: لا. فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيب فلا.

وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدب يتحلى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور: أنت نبي سفلة؟ فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة

ما ذكر أن إبراهيم[2] مغني الرشيد غنى يومًا بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إليّ بك، فأمر له بمائة ألف درهم. وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوى: وأنت النهر الذي يسقى منه البستان. وذبحت عائشة رضى الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفًا، فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها»؟ فقالت: ما بقي منها إلا كتف، فقال: «كلها بقي إلا كتفًا»، وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال. فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته، وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله قال: أنت تكلؤنا الليلة؟ قال: الله يكلؤنا يا أمير المؤمنين وهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك	ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا رأيت الزمان صدعك	شتت فيك شمله ليجمعك

---

(١) الأحنف: هو لقب لصاحب الترجمة، لحنف في رجله، أى اعوجاج، واختلفوا في اسمه فقيل: (الضحاك) وقيل (صخر) وهو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المزى السعدى المنقرى التميمى ، أبو بحر، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم، وشهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وخطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان وهي حرية بالجمع توفي سنة (٧٢هـ - ٦٩١م).

(٢) إبراهيم الموصلي: هو إبراهيم الموصلي، رئيس المطربين، أبو إسحاق إبراهيم بن ماهان بن بهمن الفارسي الأصل، الأرجاني برع في الآداب والشعر والموسيقى، واتصل بالخلفاء والبرامكة، وكان نَدِيَّ الصوت جداً توفي سنة (١٨٨هـ).

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت، وقال المعتصم للفتح بن خاقان[1] وهو صبى صغير: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص لفص كان فى يده؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين: اليد التى هو فيها أحسن منه، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل إن رجلاً سأل العباس رضى الله عنه: آأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله، وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندى: آأنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة، وقال المأمون للسيد بن أنس: آأنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس، وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه: آأنا أطول أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل. والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

(١) الفتح بن خاقان : هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد ، أديب شاعر، فصيح ، كان فى نهاية الفطانة والذكاء، فارسى الأصل من أبناء الملوك، اتخذه المتوكل العباسى أخاً له، واستوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وله: «اختلاف الملوك» و «الصيد والجوارح» وقتل مع المتوكل سنة (٢٤٧هـ ٨٦١م).

فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم

وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم فى مهل، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأنى بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالى بجسده البالى، فهو فى التراب عفير، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبى: ما سمعت أحداً يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطىء ما خلا زياد فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب على رضى الله عنه فقال فى خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجاء النجاء والوحا الوحا، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يومًا يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ٢]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاء شديداً، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك اليوم ﴿ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن فى أضغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

فصل

فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى، وقيل: أمسك على النابغة الجعدى[1] أربعين يومًا فلم ينطق بالشعر، ثم إن بنى جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذل له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال الخليل: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملاً، وإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقى مساويها، وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتنى إلا قول القائل:

(١) النابغة الجعدى: هو قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدى العامرى، أبو ليلى شاعر مفلق صحابى اشتهر فى الجاهلية وسمى (النابغة)، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ووفد على النبى ﷺ توفى نحو سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م).

أقـــول لـهـــا إذا جـــشـــأت وجـــاشـت   مكـانك تحـــمـــدي أو تســـتـــريحي

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر[1]، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك، فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مـالاً جزيلاً على أن يتكلم في بيت من الشعـر شكوا فيه فأبى. وكـان الحسن بن على رضى الله عنه يعطى الشعـراء، فقيل له فى ذلك، فقـال: خير مالك ما وقيت به عـرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عـبد الله؟ فقال: وما روايتى مع رواية عائشة رضى الله عنها ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعراً، وكان رسـول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كـفى الإسلام والشيب للمـرء ناهيًا» ولم ينطق به موزونًا، فـقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: أشـهد أنك رسول الله حقًا وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى﴾[يس:٦٩].

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها:

ومـــا المـال والأخـــلاق إلا مـــعـــارةٌ   فـــمـــا اسطعت من مـــعـــروفـــهـــا فـــتـــزوَّد

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهى معلقة على الكعبة يقول فيها:

لعـــمـــرك مـــا الأيام إلا مـــعـــارة   فـــمـــا اســتطعت من مـــعـــروفـــهـــا فـــتـــزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فـــمـــا كـــان قـــيس هلـكه هلك واحـــدٍ   ولكـنه بـنيـــان قـــوم تـهـــدمـــا

أخذه من قول امرىء القيس

فلـو أنهـــا نفـــسى تموت شـــريتـــهـــا   ولكـنهـــا نـفس تـســاقط أنـفـــســـا

ويقال من سوق شيئًا واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقـة الفاحشة قول كثير فى عبد الملك بن مروان:

إذا مـــا أراد الغـــزو لـم يثـن همـــه   حـــصـــان عليـــهـــا عـــقـــد در يزينهـــا

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروى:

إذا مـــا أراد الغـــزو لـم يثـن همـــه   حـــصـــان عـليـــهـــا لـؤلؤ وشـنوف

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فـلو كـــان الخـلود بـفـــضـل قـــوم   عـلـى قـــــوم لـكـان لـنـا الخـلـود

(١) خلف الأحمر: هو خلف بن حيان، أبو محرز، المعروف بالأحمر، راوية، عـالم بالأدب شاعر من أهل البصرة، كان أبواه موليين من فرغانة، ثم أعتقا، قال معـمر بن المثنى: خلف معلم الأصمعى ومعلم أهل البصرة، وقال الأخفش: لم أدرك أحـداً أعلم بالشعر من خلف والأصمعى، له: «ديوان الشعر» و «جبال العرب» توفى فى نحو سنة (١٨٠هـ-٧٩٦م).

من قول زهير[1] وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت ... ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس بنافع ... وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجى النفوس الشئ لا تستطيعه ... وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تفتحه الصبا ... بياض العطايا فى سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضًا فى سوادٍ كأنه ... بياض العطايا فى سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء

ما قيل: إن أبا العتاهية[2] كان مع تقدمه فى الشعر كثير السقط، روى أنه لقى محمد بن مبادر بمكة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة، وأنا أقول فى كل سنة مائتى قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذى يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة ... أموت الساعة الساعة

لقلت كثيراً ولكنى أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفى ... هد ركنًا ما كان بالمهدود

ما درى نعشه ولا حاملوه ... ما على النعش من عفافٍ وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًا وأسفًا. وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه فى الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظمى سليمى حبتى ... قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا أدنيت منها بصلاً ... غلب المسك على ريح البصل

---

(١) زهير : هو زهير بن أبى سُلْمى ربيعة بن رياح المزنى، من مضر، حكيم الشعراء فى الجاهلية، ومن أئمة الادب من يفضله على شعراء العرب كافة، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعران، واخته الخنساء شاعرة، وأشهر شعره معلقته، توفى سنة (١٣ق هـ - ٦٠٩م).

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العينى، العنزى أبو إسحاق الشهير بأبى العتاهية، شاعر مكثر، سريع الخاطر، فى شعره إبداع، كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً فى اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل، توفى فى بغداد سنة (٧٢٥هـ -١٣٢٥م).

هذا مع قوله:

إذا قـــامـت لمشـــيــتــهـــا تثـنت ... كـــأن عظـامـــهـــا من خـــيـــزران

ومع قوله في الفخر:

كـــأن مـــثـــار النقع فـــوق رؤوسنا ... وأســـيـــافنا لـيل تهـــاوى كـــواكـــبـــه

ومع قوله أيضًا:

إذا أنت لـم تشـــرب مـــرارًا على الـقـــذى ... ظمـــئت وأى الناس تصـــفـــو مـــشـــاربه

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعانى وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضـــاقت الأرض حـــتى صـــار هاربـهم ... إذا رأى غـــيـــر شىء ظنـه رجـــلاً

وغير شىء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله:

تقـلقـلت بـالهـم الذى قـلقـل الحـــشـــا ... قـــلاقـل عـشٍ كلـهـن قـــلاقـل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إن كـــان مـــثـلك كـــان أو هو كـــائن ... فـــبـــرئـت حـــيـنـئـــذ من الإســـلام

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونـهـب نـفـــوس أهل الـنـهـب أولـى ... بأهـل المجـــد من نـهب الـقـــمـــاش

أخذه من قول أبى تمام:

إن الأســـود أســـود الـغـــاب هـمـــتـهـــا ... يـوم الكـريـهـــة فى المسـلوب لا الـسـلـب

قال أبو عبد الله الزبيرى: اجتمع راوية جرير، ورواية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبى أشعر، فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين[1] رضى الله عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول:

طـرقـــتك صـــائدة الـقـلـوب وليـس ذا ... وقـت الزيـارة فـــارجـــعـى بـســـلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال: فادخلى بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذى يقول:

يقـــر بعـــينـى مـــا يقـــر بعـــينـهـــا ... وأحـــســن شىء مـــا بـه العين قـــرت

وليس شىء أقر بعينها من النكاح، أيحب صاحبك أن ينكح! قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول:

---

(١) سكينة: هى سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب، نبيلة، شاعرة، من أجمل النساء وأطيبهن نفساً، سيدة نساء عصرها، لمجالس الأجلة من قريش، فيجتمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم وتجيزهم، توفيت سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) رحمها الله. انظر «أعلام النساء» لكحالة (٢/٢٠٢-٢٢٤).

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فوا حزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يتعشقها بعده. قبحه الله وقبح شعره هلا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ... ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها ... حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله عنها.

وروى ابن الكلبي[1] قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدى بن أرطأة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجي مطيته ... هذا زمانك إني قد خلا زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أني لدى الباب كالمشدود في قرن

لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضى الله عنه: ما لي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة[2] القرشي قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي ... شممت الذي ما بين عينيك والفم

وليت طهوري كان ريقك كله ... وليت حنوطي من مشاشك والدم

ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحًا، والله لا يدخل عليّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

(١) ابن الكلبي: هو هشام بن محمد بن أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي، أبو المنذر، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب، وأيامهم، من أهل الكوفة، كثير التصانيف له نيف ومئة وخمسون كتاباً، منها: «جمهرة الأنساب»، و«الكنى»، و «نسب الخيل»، و«أسواق العرب» توفى سنة (٢٠٤هـ -٨١٩م).

(٢) عمر بن أبي ربيعة: هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن في قريش أشعر منه، ولد في الليلة التي توفى بها عمر بن الخطاب سنة (٢٣هـ) فسمى باسمه، مات غرقاً سنة (٩٣هـ-٧١٢م).

قال جميل بن معمر العذرى[1] قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعًا فإن تمت ... يوافى لدى الموت ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغبٍ ... إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها وتلتقى ... مع الليل روحى فى المنام وروحها

والله لا يدخل علىَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر الفراق قعوداً
لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خروا لعزة ركعًا وسجوداً

أبعده الله، فوالله لا يدخل علىَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصارى[2] قال: أبعده الله، والله لا يدخل علىَّ أبداً، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بينى وبين سيدها ... يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله:

هما دليانى من ثمانين قامة ... كما انقض باز لين الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحى فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفطنوا بنا ... ووليت فى أعقاب ليلٍ أبادره

والله لا دخل علىَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبى. قال: أليس هو القائل:

ولست بصائم رمضان عمرى ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجرٍ عيسًا بكوراً ... إلى أطلال مكة بالنجاح
ولست بقائم كالعبد يدعو ... قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولاً ... وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عنى، فوالله لا دخل علىَّ أبداً، ولا وطىء لى بساطًا، وهو كافر، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان ولابد، فهذا، فأذن له قال عدى بن أرطأة[3]: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إن الذى بعث النبى محمداً ... جعل الخلافة فى الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره ... حتى ارعووا وأقام ميل المائل

(١) جميل العذرى: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى القضاعى، شاعر، من عشاق العرب، افتتن ببثينة، من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، توفى (٨٢هـ - ٧٠١م) .

(٢) الأحوص: هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم من بنى ضبيعة، شاعر هجاء، صافى الديباجة كان معاصراً لجرير والفرزدق، من سكان المدينة، وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه، ثم بلغه عنه ماساءه فى سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده ، ولقب بالأحوص لضيق فى مؤخر عينيه، له : «ديوان الشعر» توفى سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م).

(٣) عدى بن أرطأة: هو عدى بن أرطأة الفزارى، أبو واثلة ، أمير أهل دمشق، كان من العقلاء والشجعان، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة (٩٩هـ)، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب، بواسط فى فتنة أبيه (يزيد) بالعراق سنة (١٠٢هـ - ٧٢٠م) .

إنى لأرجو منه نفعًا عاجلاً ... والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل فى الكتاب فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقًا، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن بعدك يكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم يدرج ولم يطر
أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت ... أم قد كفانى ما بلغت من خبرى
إنا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافة جاءته على قدرٍ ... كما أتى ربَّه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دمت حيًا لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابنى، وعشرة أخذتها أم عبد الله، قم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائى ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإننى عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجن لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيًا

ومما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو، وكان الأحنف ابن قيس حليمًا سيدًا يضرب به المثل، وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجلاً يسفهه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك فى قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانيًا، ففطن أنه من قبل عمرو ابن الأهتم[1]، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا، وقال سعيد ابن المسيب: ما فاتنى الأذان فى مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد، وقال قتادة: ما نسيت شيئًا قط، ثم قال: يا غلام ناولنى نعلى. قال: النعل فى رجلك. وكان هشام بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودهاتهم، وقد عدت له سقطات منها: أن الحادى حدا به يومًا فقال:

إنى عليك أيها النجى ... أكرم من يمشى به المطى

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان وأخوه، فقال: والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولى الخلافة قال: الحمد لله الذى أنقذنى من النار بهذا المقام. قال النابغة: أى الرجال المهذب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) عمرو بن الأهتم: هو عمرو بن سنان بن سمى التميمى المنقرى، أبو ربعى أحد السادات الشعراء الخطباء فى الجاهلية، والإسلام من أهل نجد، كان يدعى (المكحل) لجماله فى شبابه، وفد على النبى ﷺ فأسلم، ولما تكلم بين يدى النبى أعجبه كلامه فقال: إن من البيان لسحراً، وكان شعره فى مجالس الملوك حللاً منشرة، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه، ولقب بالأهتم لأن ثنيته هتمت يوم الكلاب، توفى سنة (٥٧هـ - ٦٧٧م).

فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير». رواه مسلم. قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتعود بطانًا»، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعانى أجبته، ومن استغاثنى أغثته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل علىَّ كفيته، فأنا كافى المتوكلين وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين.

وحكى أنه كان فى زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادًا عظيمًا، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففى بعض الأيام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدى عنده خزانة بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها، فلهذا أنا إذًا لا أبالى فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتمًا الأصم[1] كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجًا، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئًا ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت إلهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلنى معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدًا، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدى لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئًا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا، فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها فى الدار، ثم قال لأصحابه: من

---

(١) حاتم الأصم: هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم، زاهد، اشتهر بالورع والتقشف، له كلام مدون فى الزهد والحكم، من أهل بلخ، وشهد بعض معارك الفتوح، وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفى سنة (٢٣٧هـ-٨٥١م).

أحبنى، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحى، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائى كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرمًا ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيبًا، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفى الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكرًا فى أمر عياله، فقيل له فى منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء، من أيقن أن الرزق الذى قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن أعلم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولاه خير له من العباد، فقصده كفاه همه وجمع شمله، وفى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت عند النبى ﷺ يومًا فقال: «يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت باستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بنى أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعانى الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتنى بفلان الأموى، وهذا كتابى إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصى جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لى حاله ومآله، وقد أجلتك لذهابك ستًا، ولمجيئك ستًا، ولإقامتك يومًا، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله، فخرجت أطوى المنازل ليلاً ونهارًا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدًا نحو دار الأموى، فإذا هى دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عنى، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت فى وسط الدار رأيت أقوامًا محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لى: هو فى الحمام، فأكرمونى، وأجلسونى، وأمروا بمن معى ومن صحبنى إلى مكان آخر، وأنا أتفقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم علىَّ وسألنى عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كل معنا، فتأملت تأملاً كثيرًا إذ لم يمكننى، فقلت: ما آكل، فلم يعاودنى، ورأيت ما لم أره إلا فى دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيبًا، ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكل. قلت: ليس لى به حاجة، فلم يعاودنى ونظرت إلى أصحابى فلم أجد أحدًا منهم عندى، فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندى، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلنى وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلى، وما شككت أنه يريد القبض علىَّ، فقال: الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان فى مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلنى وقدم رجليه

وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع فى المحمل وركبت معه فى المحمل، ومرنا، فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتدأ يحدثنى بانبساط ويقول: هذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لى وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة يتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدرى ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثنى حديثًا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجى على ما ذكرت فإنى على ثقة من ربى الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى على بأمر فلا حيلة لى بدفعه ولا قدرة لى على منعه، وإن لم يكن قد قدر على بشىء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لى ذنب فأخاف، وإنما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى، وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابًا. ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك علىَّ، فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة والغضب يظهر فى وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدى لأصحابى، فلم أجد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لى. قال هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله. اخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله علىَّ مكرمًا، ففعلت، فلما دخل قبل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام فصيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعى إلى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى قال: هذا كائن، فسل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذى أخذته منه، قم فى حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار(١) مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى: يا ابن آدم لا تخافن من ذى سلطان ما دام سلطانى باقيًا، وسلطانى لا ينفد أبداً، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائنى ملآنة، وخزائنى لا تنفد أبداً، يا ابن آدم لا تأنس بغيرى، وأنا لك، فإن طلبتنى وجدتنى، وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتى، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، وفى أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندى محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندى مذمومًا، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أعى بخلقهن أيعيينى رغيف أسوقه لك من غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقى عليك كن لى محبًا، يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد، فإنى لم أنس من عصانى، فكيف من أطاعنى وأنا على كل شىء قدير، وبكل شىء محيط.

قال الشاعر:

وما ثم إلا الله فى كل حالة	فلا تتكل يومًا على غير لطفه
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى	وخيرته فيها على رغم أنفه

---

(١) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى، أبو إسحاق، تابعى كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر، وقدم المدينة، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ثم سكن فى حمص وتوفى فيها سنة (٣٢هـ-٦٥٢م).

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ... فما خاب حقًا من عليه توكلاً
وكن واثقًا بالله واصبر لحكمه ... تفز بالذى ترجوه منه تفضلا

الفصل الثانى: فى القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. أن المراد بها القناعة. وقال ﷺ: «القناعة مال لا ينفد». وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الإياس مما فى أيدى الناس» «وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهى الشيء فيدافعه سنة، قال الكندى:

العبد حر ما قنع ... والحر عبد ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى فى طلب الرزق، فبينما هو يمشى فأعيا، فآوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هى:

إنى رأيتك قاعدًا مستقبلى ... فعلمت أنك للهموم قرين
هون عليك وكن بربك واثقًا ... فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه فى رزقه ... لما تيقن أنه مضمون

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم فى مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة، وفى ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعايش، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خلقًا قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سببًا للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه فى بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وبعر الظباء، وحلى زوجته الودع، وثماره المقل[1]، وصيده اليربوع وهو فى مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه: يا بنى إذا طلبت الغنى، فاطلبه فى القناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائى فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبى حنيفة رضى الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هى من مال رجل ما أقدم عليه أحد فى زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت، وإكرامًا للحى، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرد:

إن ضن زيد بما فى بطن راحته ... فالأرض واسعة والرزق مبسوط
إن الذى قدر الأشياء بحكمته ... لم ينسنى قاعدًا والرحل محطوط

---

(١) المقل: ثمر الدوم.

قال لى عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضيًا عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدى، فسكر يومًا ففاتته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعوراً فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلى الصلوات، وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئًا لله إلا عوضه الله منه بديلاً، فما عوضك عما تركت له؟ قال: الرضا بما أنا فيه.

وقال الثورى: ما وضع أحد يده فى قصعة غيره إلا ذل له، وقال الفضيل: من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس فى الشتاء جلالى، ونور القمر سراجى، وبقل البرية فاكهتى، وشعر الغنم لباسى، أبيت حيث يدركنى الليل ليس لى ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذى كببت الدنيا على وجهها.

بيت مفرد:

إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق فى ظلها هما يؤرقه

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها. وقيل: وفد عروة بن أذنية على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقى ... إن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى إليه فيعيينى تطلبه ... ولو قعدت أتانى ليس يعيينى

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعًا، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على، فجبهته ورددته خائبًا، فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له: كيف رأيت قولى سعيت، فأكديت، فرجعت، فأتانى رزقى فى منزلى. ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى، فلما سارا تخلف الأنصارى وقال: الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى، فوفد الثقفى وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصارى؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار، وبعث إلى الأنصارى بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول:

فوالله ما حرص الحريص بنافع ... فيغنى ولا زهد القنوع بضائر

خرجنا جميعًا من مساقط روسنا ... على ثقة منا بجود ابن عامر

فلما أنخنا الناجعات ببابه ... تخلف عنى اليثربى ابن جابر

وقال ستكفينى عطية قادر ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر

فإن الذى أعطى العراق ابن عامر ... لربى الذى أرجو لسد مفاقرى

فقلت خلالى وجهه ولعله ... سيجعل لى حظ الفتى المتزاور

فلما رآنى سال عنه صبابة ... إليه كما حنت ظؤار الأباعر

فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعًا ... ولا ضائراً شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدرى لَم رزقت الأحمق؟ قال: لا يارب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال، ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يومًا ... فقد أيسرت فى الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار ... وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقًا ... لكان المال عند ذوى العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض فنظر إليها، فانفجرت، فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبى وابن نبى.

ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد، وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمسك على بغلتى، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج على وفى يده درهمان ليكافىء بها الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشترى بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه وقال: الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين، وقال سليم بن المهاجر الجيلى:

كسوت جميل الصبر وجهى فصانه ... به الله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم ... على بابه يومًا مقام ذليل
وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى ... إلى الناس مبذولاً لغير قليل

وصلى معروف الكرخى خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتى التى صليتها خلفك. قال: ولِمَ؟ قال: لأن من شك فى رزقه شك فى خالقه. وقال أبو حازم: ما لم يكتب لى لو ركبت الريح ما أدركته، وقال عمر بن أبى عمر اليونانى:

غلا السعر فى بغداد من بعد رخصة ... وأنى فى الحالين بالله واثقٌ
فلست أخاف الضيق والله واسعٌ ... غناه ولا الحرمان، والله رازق

وقال القهستانى(1):

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم ... وأن الغنى الأعلى عن الشىء لا به

وقال منصور الفقيه:

الموت أسهل عندى ... بين القنا والأسنة
والخيل تجرى سراعًا ... مقطعات الأعنة
من أن يكون لنذل ... علىَّ فضل ومنة

(1) القُهُسْتَانى: هو محمد بن جمعة بن خلف، أبو قريش القهستانى الأصم، من حفاظ الحديث، قال ابن ناصر الدين: متقن ثقة مكثر رحال، له «المسند الكبير» و «كتاب فى الحديث» توفى بقهستان سنة ٣١٣هـ-٩٢٥م).

وأنشد أعرابي:

أيا مالك لا تسأل الناس والتمس ... بكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصنى قال: «عليك باليأس مما فى أيدى الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر»، وقيل: إذا وجدت الشيء فى السوق، فلا تطلبه من صديقك، وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.

وقال المعرى:

إذا كنت تبغى العيش فابغ توسطًا ... فعند التناهى يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهى أهلة ... ويدركها النقصان وهى كوامل

وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله ... واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص ... ولا تعكر إلا فى الزيادات

وقال أعرابي استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصرى:

وكم ملك جانبته عن كراهة ... لإغلاق بابٍ أو لتشديد حاجب
ولى فى غنى نفسى مرادٌ ومذهب ... إذا انصرفت عنى وجوه المذاهب

وقيل: ينبغى أن يكون المرء فى دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها. وقال شقيق بن إبراهيم البلخى: قال لى إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرنى عما أنت عليه قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت. قال: هكذا تعمل كلاب بلخ؟ فقلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت، وقال بعضهم:

هى القناعة فالزمها تعش ملكًا ... لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر:

وإن القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يرانى على بابه ... ولا ذا يرانى له منهمك
فصرت غنيا بلا درهم ... أمر على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلى إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئًا للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يبكى من الفرح ويقول: بأى يد كانت منى تركت مثلى على هذه الحالة والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث: فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وروى أن النبى ﷺ قرأ: (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) قال: «يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت».

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بى، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفى ثوبًا حتى ترقعيه».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد فى رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعت حرصك كنت عبداً ... لكل دنيئة تدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسى ورأس الدهر لم يشب ... إن الحريص على الدنيا لفى تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان نبى الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدرينى لعلى ما أبلغه، وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه: «لا يزال الكبير شابًا فى اثنين، حب المال وطول الأمل». وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل، وقيل: من جرى فى عنان أمله كان عاثراً بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان فى قوله:

وذى حرص تراه يلم وفراً ... لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال فى الجناس الحقيقى:

إذا ما نازعتك النفس حرصًا ... فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه ... وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله، قال عبد الصمد بن المعدل [1]:

ولى أمل قطعت به الليالى ... أرانى قد فنيت به ودام

---

(١) عبد الصمد بن المعدل: هو عبد الصمد بن المعدل بن غيلان بن الحكم العبدى، من بنى عبد القيس ، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ فى البصرة كان هجاءً شديد العارضة سكيراً، مات نحو (٢٤٠هـ ٨٥٤م).

قال الحسن: إياكم وهذه الأماني، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا ولا في الآخرة.
وقال قس بن ساعدة[1]:

وما قد تولى فهو لا شك فائت ... فهل ينفعني ليتني ولعلني

وقال آخر:

ولا تتعلل بالأماني فإنها ... عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد:

الله أصدق والآمال كاذبة ... وجل هذى المنى فى الصدر وسواس

وقال آخر:

شط المزار بسعدى وانتهى الأمل ... فلا خيال ولا رسم ولا طلل
إلا رجاء فما ندرى أندركه ... أم يستمر فيأتى دونه الأجل

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجد الموت فى طلبى ... و إن فى الموت لى شغلاً عن اللعب
ولو شمرت فكرتى فيما خلقت له ... ما اشتد حرصى على الدنيا ولا طلبى

وله أيضًا:

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيا من عاش فى الدنيا طويلاً ... وأفنى العمر فى قيلٍ وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمع من حرامٍ أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوال

(١) قس بن ساعدة: هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك الإيادى، من بنى إياد، أحد حكماء العرب، ومن كبراء خطبائهم فى الجاهلية، ويقال إنه أول عربى خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وكان يفد على قيصر الروم زائراً، فيكرمه ويعظمه، توفى نحو سنة (٢٣ق هـ - نحو ٦٠٠م).

ومما جاء فى الطمع وذمه

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع، وقال رضى الله عنه: ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفى الحديث: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حرًا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعى، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع، وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد فهى تجرى فى أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

قال إسماعيل بن قطرى القراطيسى:

حسبى بعلمى إن نفع ... ما الذل إلا فى الطمع
من راقب الله نزع ... عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

وقال سابق البربرى[1]:

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى ... سفاهًا وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع فى سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لأشعب[2]: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جارى فأفت خبزى، وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتساران فى جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشىء من ماله، وما زفت عروس إلا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلىّ.

قال بعضهم:

لا تغضبن على امرىء ... لك مانع ما فى يديه
واغضب على الطمع الذى استدعاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سابق البربرى: هو سابق بن عبد الله البربرى، أبو سعيد، شاعر، من الزهاد، له كلام فى الحكمة والرقائق، وهو من موالى بنى أمية، والبربرى لقب له، ولم يكن من البربر، سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز فينشده من مواعظه، توفى نحو سنة (١٠٠هـ - ٧١٨م). انظر «الأعلام» للزركلى (٣/٦٩).

(٢) أشعب الطامع: أشعب بن جبير، المعروف بالطامع، ويقال له ابن أم حميدة، ويكنى أبا العلاء وأبا القاسم، ظريف، من أهل المدينة، كان يجيد الغناء، يضرب المثل بطمعه، وأخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب توفى بالمدينة سنة (١٥٤هـ - ٧٧١م).

فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾: [آل عمران: ١٥٩]، واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح، فيعمل عليه، وهذا قول الحسن، ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك، ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان فى غنية عن مشورتهم، وهذا قول سفيان، وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس، وإن كان عالماً، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل»، وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى.

وقال الحسن: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة، وأما الرجل الذى هو نصف رجل، فالذى له رأى ولا يشاور، وأما الرجل الذى ليس برجل، فالذى ليس له رأى ولا يشاور.

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنتين: لا تقل فى غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير، وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية، وقال أعرابى: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة، وقيل: من بدأ بالاستخارة، وثنى بالاستشارة، فحقيق أن لا يخيب رأيه، وقيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندى:

وما ألف مطرور السِّنان مسدد ... يعارض يوم الروع رأياً مسدداً

وقال على رضى الله عنه: خاطر من استغنى برأيه، وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأى أن يترددا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فانفذه عاجلاً ... فإن فساد العزم أن يتقيدا

ولمحمد بن إدريس الطائى:

ذهب الصواب برأيه فكأنما ... آراؤه اشتقت من التأييد

فإذا دجا خطب تبلج رأيه ... صبحاً من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق:

إن اللبيب إذا تفرق أمره ... فتق الأمور مناظراً ومشاوراً

وأخو الجهالة يستبد برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطراً

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد:

لقد بان وجه الرأى لى غير أننى عدلت عن الأمر الذى كان أحزما
فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما توزع حتى صار نهباً مقسماً
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

وقال آخر:

خليلى ليس الرأى فى جنب واحد أشيرا على اليوم ما تريان

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب، وقال أزدشير ابن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة، وقال: لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأى الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبد برأيه، ولا على متلون، ولا على لجوح، وقيل: ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأى، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب، وكم ناقد فى شئ ضعيف فى غيره.

قال أبو الأسود الدؤلى:

وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأى، لأن من طباع المشتركين فى الأمر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه، وفى اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له، وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتنى، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفة.

وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك، فجرد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج عن عداوتك إلى موالاتك، وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر فى السباخ.

قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة:

بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك، وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل حتى يجد.

ولما أراد نوح بن مريم قاضى مروان أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً، فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك وأنت تستفتينى، قال: لابد أن تشير على، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدى، وكان يقال: من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب، وقيل: إذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضى الله تعالى فى أمره ما يحب، وقال بعضهم: خمير الرأى خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيره، وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود من النساء، ولا صاحب حاجة يريد

قضاءها، ولا خائفاً، ولا حاقناً، وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب أن يشاورهم، جاهل، وعدو وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمرائي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب، والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأى له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكى أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي[1] قال: ركبني دين أثقل كاهلي، وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لابد منه، وضاقت على الأرض، ولم أهتد إلى ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى، فأشار على بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب، ثم إني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب، فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إني قطعت إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من يثرب، فإنه أشار على بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتي، فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة، فقلت: لا، ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وأن يحل دونها حائل لم أذم يومك، ولم أيأس من غدك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة، فأخذني معه، فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعها إلى، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب به إليه مسرعاً، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله على نجح سعيك، واجتنائك جنى مشورتك، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا، قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبة	فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح	لديه فيما ابتغاء غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أهلي، وجاريت المشير على، وعاهدت الله تعالى أن لا اترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حرامة الخلافة ولا تتجاوز عنها سيامة الملك، فحبسه عنده، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على، وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقل أمنه، وتزايد خوفه، وحزنه، فأدته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي، فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سراً، ثم سلمه إليه، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى، قال عيسى: فلما أخذت عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأى أن أشاور في قضيته من له رأى عسى أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لي حسن ظن في رأيه، وعقيدة صالحة في معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله وأمرني بقتله وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك وما تشير به؟ فقال لي يونس: أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته وأنفذت

---

(١) الأسلمي: هو نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمي، أبو برزة، صحابي، غلبت عليه كنيته واختلف في اسمه، كان من سكان المدينة، ثم البصرة، وشهد مع علي قتال أهل النهروان، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة، مات بخراسان سنة (٦٥هـ - ٦٨٥م).

أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك، قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها، وأظهرت لأمير المؤمنين أنى أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر فى نفسه أننى قد قتلت عمه عبد الله دس إلى عمومته أخوة عبد الله، وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم، ويستوهبوه منه، فجاؤوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم، فسألوه فى عبد الله فقال: نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى، فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: وقد سألنى فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فائتنا به الساعة، قال عيسى: فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك، ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أننى أمرته بقتله، وقد كذب على، قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به، قال عيسى: فأخذونى إلى الرحبة واجتمع الناس على، فقام واحد من عمومتى إلى وسل سيفه ليضربنى به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أى والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى فقال لهم: لا تعجلوا وردونى إلى أمير المؤمنين فردونى إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلى بقتله، والذى دبرته على عصمنى الله تعالى من فعله، وهذا عمك باق حى سوى، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته الساعة، فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره صادفت إعصاراً وأن انفراده بتدبيره قارف خساراً، ثم رفع رأسه وقال: ائتنا به، فمضى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: اتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً، قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته، فسلمت روحى، وزالت كربتى، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها، ثم إن المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت، فمات عبد الله، ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء فى النصيحة: اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤]. وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣]. وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم».

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد فى رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً. والنصيحة لكتابه إقامته فى التلاوة، وتحسينه عند القراءة. وتفهم ما فيه، والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته فى بث الدعوى، وتأليف الكلمة، والتخلق بالأخلاق الطاهرة. والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقى ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم. وقال ميمون بن مهران(١): قال لى عمر بن عبد العزيز رضى

(١) ميمون بن مهران: هو ميمون بن مهران الرَّقى ، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بالكوفة، وأعتقته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيدها استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، وكان ثقة فى الحديث، كثير العبادة، توفى سنة (١١٧هـ- ٧٣٥م).

الله عنه: قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، وفى منثور الحكم: ودك من نصحك وقلاك من مشى فى هواك. وقال أبو الدرداء[1] رضى الله عنه: إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله تعالى إلى عباده ويعملون فى الأرض نصحاً.

ولورقة بن نوفل[2]:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... إنى النذير فلا يغرركم أحد
لا شئ مما ترى تبقى بشاشته ... إلا الإله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إنى قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين. إن الله تعالى قد أعد لك منى قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك.

وأنشد الأصمعى:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا ... ترده على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخفى مناهلها ... على الرجال ذوى الألباب والفهم

ولمعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة إن تعدت ... هوى المنصوح عزّ لها القبول
فخالفت الذى لك فيه حظ ... فنالك دون ما أملت غول

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده فى يد الحجاج فلم يقبل منه، وسار إليه، فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتنى ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر ... فنفسك أولى اللوم إن كنت لائماً
فما أنا بالباكى عليك صبابة ... وما أنا بالداعى لترجع سالماً

ويقال: من أصفر وجهه من النصيحة، اسود لونه من الفضيحة.

وقال طرفة:

ولا ترفدن النصح من ليس أهله ... وكن حين تستغنى برأيك غانياً
وإن امرءاً يوماً تولى برأيه ... فدعه يصيب الرشد أو يك غاوياً

وفى مثله قال بعضهم:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد ... له الرأى يستغششك مالم تتابعه
فلا تمنحن الرأى من ليس أهله ... فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى، صحابى، من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجراً فى المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وفى الحديث (عويمر حكيم أمتى)، (ونعم الفارس عويمر) ولاه معاوية قضاء دمشق، قال ابن الجوزى، كان من العلماء الحكماء، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، توفى سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م).

(٢) ورقة بن نوفل: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، من قريش، حكيم جاهلى، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، تنصّر، وقرأ كتب الأديان، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين، توفى سنة نحو (١٢ق هـ - ٦١١م).

فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]. والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة.

وروينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيى الدين النووى[1] رحمة الله تعالى عليه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب فى معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل.

ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثَّر.

ومن كلام على رضى الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت فى إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

وأنشد الجاحظ:

وليس يزجركم ما توعظون به ... والبهم يزجرها الراعى فتنزجر

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتنى بعبد آبق كتبتك عندى حميداً، ومن كتبته عندى حميداً لم أعذبه بعدها أبداً، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظنى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسئ إلى من تحب فافعل، وقال النبى ﷺ فى بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان فى الثرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات.

ولما لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى[2] قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظنى، فقرأ الحسن البصرى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم

---

(١) النووى: هو يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الحزامى الحورانى، النووى، الشافعى، أبو زكريا، محى الدين، علامة بالفقه والحديث ولد فى نوا (من قرى حوران بسوريا) سنة (٦٣١هـ-١٢٣٣م) وإليها نسبته. تعلم فى دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً من كتبه «تهذيب الأسماء واللغات» «تصحيح التنبيه» فى فقه الشافعية، و «شرح صحيح مسلم » و «رياض الصالحين» وغيرها توفى سنة (٦٧٦هـ-١٢٧٧م).

(٢) الحسن البصرى : هو الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ) وسكن البصرة، وعظمت هيبته فى القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، قال الغزالى: كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، توفى رحمه الله سنة (١١٠هـ-٧٢٨م) بالبصرة.

مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال: عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتنى أحسن موعظة.

ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضى الله عنه، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة فى الآخرة، والزهد فى الدنيا، ولا تأسفا على شئ فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى قال: فإنى أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه، ثم قال: يابنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء، يا بنى ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بنى من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شئ عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار. يا بنى الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بنى العافية عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة فى ترك مجالسة السفهاء، يا بنى زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بنى لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بنى الحرص مفتاح التعب ومطية النصب.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

وقال الأوزاعى للمنصور فى بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التى بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوباً من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، وكان والى المدينة: احذر أن يأتى رجل غداً ليس له فى الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

وروى زياد عن مالك بن أنس رضى الله عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا، فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثنى عن أبيك. قال: سمعت أبى يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى ملكه، فأدخل عليه الجور فى حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شئ من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عنى. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغى. قال: مالك، فمازلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كـعب خوفنا. قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً، لازدريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضى الله عنه رأسه، وأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرها، فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كـعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتـزفر زفرة يوم القيامة، فلا يبـقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى.

وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى[1] رحمة الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل بان أمـير الجيوش، وهو أمير على مصر، فـقلت: السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السـلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكـرمنى إكراماً جزيلاً، وأمرنى بدخول مجلسـه، وأمرنى بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محـلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخـاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك فى حكمه، ولم يرض أن يكون أمـر أحد فوق أمرك، فـلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر مـنك، وليس الشكر باللسـان، وإنما هو بالفعـال والإحسـان. قال الله تعـالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل مـا صار إليك، فاتق الله فيـما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعـالى سائلك عن الفتيـل والنقير والقطميـر. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقـال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبيـاء: ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعـالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السـلام، فـسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجرى بأمـره رخاء حيث أصاب، ثم رفـع عنه حساب ذلك أجمع فـقال له: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩]، فوالله ما عدها نعمة كـما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حـسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعـالى، ومكراً به. فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فافـتح الباب، وسهـل الحجاب، وانصـر المظلوم، وأغث الملهـوف، أعانك الله على نصـر المظلوم، وجعلك كـهفـاً للملهوف وأمـاناً للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت الـبلاد شرقاً وغرباً، فما اخترت مملكة وارتحت إلـيها، ولذت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والنـاس أكـيس مـن أن يحـمـدوا رجـلاً ... حـتى يـروا عنـده آثار إحـسـان

وقال الفضل بن الربيع[2]: حج هارون الرشيـد سنة من السنين، فبـينما أنا نائم ذات ليلة إذ سـمعت قـرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقـال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسـرعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلـت إلى أتيـتك، فقال: ويحك قد حال فى نفسى شئ لا يخرجـه إلا عالم، فانظر لى رجلاً أسأله عنه، فقلت: ههنا سفيـان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمـير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلـت إلى أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحـادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا. فقـال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، فانظر لى رجـلاً أسأله، فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امض بنا إليه، فـأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فـخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلـت إلى أتيتك، فقال جـد لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العـباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صـاحبك شيئاً، فانظر لى رجـلاً أسأله، فقلت ههنا

(١) الطرطوشى: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشى الفهرى الأندلسى، أبو بكر الطرطوشى، ويقال له ابن رندقة، أديب، من فقهاء المالكية الحفاظ من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس تفقه فى بلاده ورحل إلى المشرق، وأقام فى الشام وتولى التدريس، وكان زاهداً لم يتشبث من الدنيا بشئ، له: «سراج الملوك» و «الحوادث والبدع» توفى سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

(٢) الفضل بن الربيع: هو الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، وزير أديب حازم، كان أبوه وزيراً للمنصور العباسى استحجبه المنصور، واستوزره الرشيد البرامكة، توفى بطوس سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيم جئت حملت على نفسك، وجميع من معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا. فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سهراً، فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال: زدني. قال يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه، فقال يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، و إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧، ٥٨]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل عذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات، قال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فإنما بكته.

وقالت أم الدرداء[1] رضي الله تعالى عنها: من وعظ أخاه سراً فقد سره وزانه، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه، ويقال: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وسره، ومن وعظه جهراً فقد فضحه وضره.

وعن عبد العزيز بن أبي داود قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة، فيتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم.

وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أم الدرداء: هي خيرة بنت أبي حدرد واسمه سلامة بن عمير بن أبي سلمة الأسلمي، صحابية تعرف بأم الدرداء الكبرى، من فضليات النساء وذوات الرأي فيهن، حفظت عن النبي ﷺ وعن زوجها (أبو الدرداء) روى عنها جماعة من التابعين، توفيت سنة نحو (٣٠هـ - ٦٥٠م).

فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة

ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

الفصل الأول: فى الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

واعلم أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب فى العادة والسلامة لا يعادلها شئ، وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الأم: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر.

وروينا فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: أى المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده».

وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك». قال الترمذى حديث حسن. وروينا فى كتاب الترمذى، وابن ماجة، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه». والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت كفاية لمن وفقه الله تعالى.

وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شئ منها.

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفى اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ فقال: هى أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هى؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها، وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع، إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره.

ومما أنشدوه فى هذا الباب:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم فى المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسى:

لعمرك إن فى ذنبى لشغلا ... لنفسى عن ذنوب بنى أميهْ

على ربى حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إليَّهْ

وقال على رضى الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام، وقال أعرابى: رب منطق صدع جمعاً وسكوت شعب صدعاً، وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى عزلة الناس، وقال على بن

هشام رحمة الله تعالى عليه:

لعمرك إن الحلم زين لأهله ... وما الحلم إلا عادة وتحلم

إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة ... وعى فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة: من حرم الخير فليصمت، فإن حرمهما فالموت خير له، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبى ذر(١) رضى الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: من نطق فى غير خير فقد لغا، ومن نظر فى غير اعتبار فقدْ سَهَا، ومن سكت فى غير فكر فقد لها، وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك ولو رأيت ما فى ميزانك لختمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيرنى فى بطن الحوت. وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم، وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفيه إذا سكت عنه كان فى اغتمام، وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سناً، ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه، وقيل: الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار فى وثاقها، وقيل: اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على مالم أقل مرة، وندمت على ما قلت مراراً، وقال قيصر: أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ما قلت، وقال ملك الصين: مالم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتنى، وقال ملك الهند: العجيب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع، وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر، فرماه، فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان. لو حفظ هذا لسانه ما هلك، وقال على رضى الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه: الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل، وقال لقمان لولده: يا بنى إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك، يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن، فيقلن بخير إن تركتنا.

قال الشاعر:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

الفصل الثانى: فى تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً فى الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهى ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان فى دينه أو بدنه أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك، فأما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل فى النجاسات ليس باراً بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها ولا يجتنب الغيبة، وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيئ الخلق متكبر، مراء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك، وقد روينا فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: وإن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» قال الترمذى حديث حسن صحيح. وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعنى قصيرة. فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها وروينا فى سنن أبى داود عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم». وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليزنى فيتوب، فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان، جئ به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفونه، وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة، وقال الأحنف: فى خصلتان: لا أغتاب جليسى إذا غاب عنى، ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلوننى فيه. وقيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً فقال: لست عن نفسى راضياً فأتفرغ لذم الناس وأنشد:

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها | لنفسى من نفسى عن الناس شاغل

وقال كثير عزة:

وسعى إلى بعيب عزة نسوة | جعلُ الإله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الحيس يوسف، وأول من عمل خبز الجرادق نمروذ، وأول من كتب فى القراطيس الحجاج، وأول من اغتاب إبليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار. ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك، أن يغتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصرى رضى الله تعالى عنه إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلى، فقال الحسن: أهديت إلى حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والدى لأنهما أحق بحسناتى، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشى متعارجاً أو متطاطئاً أو غير ذلك من الهيئات، يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضاً تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذى لم يبتلينا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من يستمع إنساناً يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك، قال بعض العلماء، إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومما أنشدوه فى هذا المعنى:

وسمعك صن عن سماع القبيح | كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح | شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب | فوافى المنية فى مطلبه

الفصل الثالث: فى تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١٠، ١١]. وحسبك بالنمام خسة ورذيلة، سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصرى: هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة. وقال على والحسن البصرى رضى الله عنهما: العتل الفاحش السيئ الخلق، قال ابن عباس رضى الله عنهما: العتل الفاتك الشديد المنافق، وقال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوى الشديد، يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة. وقال الكلبى: هو الشديد فى كفره. وقيل: العتل الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم

هو الذى لا يعرف من أبوه. قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه ... بغى الأم ذو حسب لئيم

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام». وروى أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله». قال الإمام أبو حامد الغزالى رحمة الله تعالى عليه: النميمة إنما تطلق فى الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا، فينبغى للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية، وينبغى لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق، وهو مردود الخبر، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه فى الله تعالى، فإنه بغيض عند الله والبغض فى الله واجب، وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء، لقول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو ابن بغى يعنى ولد زنا. قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: لا ينم على الناس إلا ولد بغى. وروى أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: شراركم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة والباغون العيوب».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام، ملعون كل منان». والشغاز المحرش بين الناس يلقى بينهم العدواة، والقتات: النمام، والمنان: الذى يعمل الخير ويمن به. وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة التى تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال، وتسلب العزيز عز وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعى ساع، وكم حريم استبيح بنميمة نمام، وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين افترقا، وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا، فليتق الله ربه عز وجل، رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغى لساع أو يستمع لنمام. ووجد فى حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعى: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه. وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات. وفى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيع الصديق، وقد تقطع الشجرة فتنبت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً، فكتب إليه على ظهرها: والنميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعى لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروينا فى كتاب أبى داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»

. ومن الناس من يتلون ألواناً ويكون بوجهين ولسانين، فيأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً. قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قل للذى لست أدرى من تلونه ... أناصح أم على غش يناجينى
إنى لأكثر مما سمتنى عجباً ... يد تشج وأخرى منك تأسونى
تغتابنى عند أقوام وتمدحنى ... فى آخرين وكل عنك يأتينى
هذان شيئان قد نافيت بينهما ... فاكفف لسانك عن شتمى وتزيينى

وقيل: لألف لجوج جموح خير من واحد متلون. وكان يشبه المتلون بأبى براقش، وأبى قلمون، فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون فى اليوم ألواناً وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألواناً، ويقال للطائش الذى لا ثبات معه أبو رياح، تشبيهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور

مع الريح وعناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة، فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذى يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة، يسمى أبا رياح، أيضاً ويقال: أخلاق الملوك مثل فى المتلون. قال بعضهم:

ويوم كأخلاق الملوك تلوناً ... فصحو وتغييم وطل ووابل
أشبهه إياك يا من صفاته ... دنو وإعراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الأحنف فى شئ بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغنى عن الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية، وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك. وكتب فى جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شئ وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعى فإنه لو كان فى سعايته صادقاً لكان فى صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. وقيل: من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب. وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عدواة إلى جددتها، ولا جماعة إلى بددتها، ثم لابد لمن عرف بها ونسب إليها، أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم:

من نم فى الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدرى به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف يفنيه

وقال آخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمن غوائل ذى وجهين كياد

وقال صالح بن عبد القدوس[1] رحمه الله تعالى:

من يخبرك بشتم عن أخ ... فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شئ لم يواجهك به ... إنما اللوم على من أعلمك

وقال آخر:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا ... شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقال آخر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... منى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها.

(ومما جاء فى النهى عن اللعن)

ما روينا فى صحيح البخارى ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». وروينا فى صحيح مسلم أيضاً عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون

(1) صالح بن عبد القدوس: هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدى الجذامى، مولاهم، أبو الفضل ، شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس فى البصرة، وشعره كله أمثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدى العباسى بالزندقة فقتله ببغداد، وعمى فى آخر عمره قتل سنة (١٦٠هـ-٧٧٧م).

شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». وروينا فى سنن أبى داود، عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينا وشمالاً فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها». ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود، والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ: «لعن الواصلة والمتوصلة»، وأنه قال: «لعن الله آكل الربا»، وأنه قال: «لعن الله المصورين»، وأنه قال: «لعن الله من لعن والديه»، وأنه قال: «لعن الله من ذبح لغير الله»، وأنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وأنه قال: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»، وجميع هذه الألفاظ فى البخارى ومسلم بعضها فيهما، وبعضها فى أحدهما، والله أعلم.

(ومما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة)

قال رسول الله ﷺ: «الخمول نعمة، وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى».

وقال بعضهم:

تلحف بالخمول تعش سليماً ... وجالس كل ذى أدب كريم

وقال جعفر بن الفراء:

من أخمل النفس أحياها وروحها ... ولم يبت طاوياً منها على ضجر

إن الرياح إذا اشتدت عواصفها ... فليس ترمى سوى العالى من الشجر

وقال أعرابى: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضرير يقول: فى خصلتان، ما يسرنى بهما رد بصرى قلة الإعجاب بنفسى، وخلو قلبى من اجتماع الناس إلى. وقال عمر رضى الله عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حسان على أطم من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه، فاجتمعت الخزرج، فقالوا ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر، فأحببت أن تسمعوه. قالوا: هات يا حسان. فقال:

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق، فقال: رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية. وقيل لعروة أخى مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرياسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل فى مرضه نعوده، فقال ما جاء بكم، والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلى، ثم قال: نعم الشئ المرض لولا العيادة، وقيل للفضل: إن ابنك يقول: وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه، ولا يرونى، فقال: ويح ابنى لم لا أتمها، فقال: لا أراهم ولا يرونى، وقال على رضى الله تعالى عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة. وقال سفيان: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس. وقيل لراهب فى صومعته: ألا تنزل، فقال: من مشى على وجه الأرض عثر. والكلام فى مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «وقروا السلاطين ويجلوهم، فإنهم عز الله وظله فى الأرض إذا كانوا عدولاً»، فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً؟ قال: قلت: بلى. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: قلت للنبى ﷺ: أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: «ظل الله فى الأرض، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر وعليكم الصبر». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أيما راع استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شئ». وقال مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه: وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدى، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم. وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لسيرين: ما أحسن هذا الملك لو دام، فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطى بابن شبرمة فى موكبه فقال:

أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الإسكندر يوماً فما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام ملكى. وقال الجاحظ: ليس شئ ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهى، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس، وقيل: الملك خليفة الله فى عباده، ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته. وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. وقال أزدشير لابنه: يا بنى الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. قيل: لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى يولد له ولد، فتملك، وأغار العرب على نواحى فارس فى صباه، فلما أدرك ركب، وانتخب من أهل النجدة فرساناً وأغار على العرب، فانتهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فقيل له: ذو الأكتاف، وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة.

وقيل: من أخلاق الملوك حب التفرد. كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم ير أحد مثلها، وإذا تختم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه. وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه. وأخبرنى من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك.

وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها، وكان أردشير متى شاء قال: لأرفع أهل مملكته وأوضعهم كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت، حتى كان يقال: يأتيه ملك من السماء، وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه.

وكان علم عمر رضى الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد. ولقد اقتفى معاوية أثره وتعرف إلى زياد رجل، فقال: أتتعرف إلىَّ وأنا أعرف بك من أبيك وأمك، وأعرف هذا البرد الذى عليك؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه.

وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى فى امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها، فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت، فوالله مازال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتنى.

(ومما جاء فى طاعة ولاة أمور الإسلام)

أمر الله تعالى بذلك فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وروينا فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم».

وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله فى أرضه من ناصحه اهتدى، ومن غشه ضل. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله فى الأرض، به يقوم الحق ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين». وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتى لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعنى كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أمرى فقد أطاعنى، ومن عصى أمرى فقد عصانى».

وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى أمر بالسمع والطاعة لولى الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له. ولو تتبعت ذلك لطال الكلام، لكن اعلم أرشدنى الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ والابتداع، أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحرزة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، وبطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض، وتحقن الدماء، وتؤمن السبل، وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وأن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة برئ من الذمة، وأن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم، وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ومن غش السلطان ضل وزل، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا فى أرفع محل، وأن طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها فى كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم. وقد اقتصرنا فى ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا، إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما، قال لى أبى: يا بنى إنى أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، وإنى أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سراً، ولا تجرين عليه كلباً، ولا تغتابن عنده أحداً، قال الشعبى رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف، فقال: إى والله، ومن عشرة آلاف.

وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخاً، فاجعله أباً، وإذا زادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا فى الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروى أن بعض الملوك استصحب حكيماً، فقال له: أصحبك على ثلاث خصال، قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لى ستراً، ولا تشتم لى عرضاً، ولا تقبل فى قول قائل حتى تستشيرنى، قال: هذا لك. فماذا لى عليك؟ قال: لا أفشى لك سراً، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أوثر عليك أحداً، قال: نعم الصاحب للمستصحب أنت.

وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكاً من الملوك، فلا تطعه فى معصية خالقك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه.

وقالوا: اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة وإن طال أنسك بهم تزده غماً.

وقالوا: علم السلطان وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته، فإنك لا تدرى متى يتغير منك، فيكونون عوناً عليك، وإياك أن تعادى من إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل. وفى الأمثال القديمة احذروا زمارة المخدة وفيه قيل: بيت منفرد:

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذى يأتيك عرياناً

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان، قال فى كتاب كليلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان. وكان بعض الحكماء يقول: أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور. وفى حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر.

وقيل للعتابى[1]: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ، ويرمى من السور فى غير شئ، ولا أدرى أى الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى، ويبطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعاً: لا تصحبن السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأينا، وبلغنا عمن صحب السلطان من أهل الفضل

(١) العتابى: هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبى، أبو عمرو، من بنى عتاب بن سعد، كاتب، حسن الترسل، وشاعر مجيد، يسلك طريقة النابغة، من أهل الشام، كان ينزل قنسرين، رُمى بالزندقة، فطلبه الرشيد فهرب، وله: «فنون الحكم» و «الآداب» وغيرها، توفى سنة (٢٢٠ هـ - ٨٣٥م).

والعقل والعلم والدين ليصلحه فقد هو به، فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ليصلحه، مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً، فاعتمد عليه ليقيمه، فخر الحائط عليه فأهلكه.

قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة ... في البحر ترجف دائماً من خوفه

إن أدخلت من مائه في جوفها ... يغتالها مع مائها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك، فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك، ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر.

وقالت الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف. وقال محمد بن واسع: والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك: الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك. وقيل: من صحب السلطان قبل أن يتأدب، فقد غرر بنفسه. وقال ابن المعتز: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، وعنه إذا زادك السلطان تأنيساً وإكراماً فزده تهيباً واحتشاماً. وقال أبو علي الصغاني[1]: إياك والملوك، فإن من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه. وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار، أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر ومال، وتحته مكتوب: كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان. وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنها خئون ولا بالدابة فإنها شرود. وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه، وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أرهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما است ... تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان:

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم ... وأفنيتموا أيامكم بمنام

فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة ... ومن ذا الذي يغشاكم بسلام

رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة ... بلثم غلام أو بشرب مدام

ولم تعلموا أن اللسان موكل ... بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك، فقالوا: إن الملوك يستعظمون في الثواب رد الجواب، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب، وقيل: شر الملوك من أمنه الجرئ وخافه البرئ. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] أبو علي الصغاني: هو الصاغاني الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العلوي العمري الصاغاني الحنفي رضيّ الدين، أعلم أهل عصره في اللغة، وكان فقيهاً محدثاً، ولد في لاهور بالهند (٥٧٧هـ) ونشأ بغزنة (في بلاد السند) ودخل بغداد، له: «مجمع البحرين» و «التكملة» و «العباب» وغيرها، توفي بمكة كما أوصى سنة (٦٥٠هـ - ١٢٥٢م).

فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿واجعل لى وزيراً من أهلى﴾ [طه: ٢٩]. فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿أشدد به* أزرى وأشركه فى أمرى﴾ [طه: ٣١، ٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال: ﴿كى نسبحك كثيراً* ونذكرك كثيراً﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحد الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله. وقال وهب بن منبه، قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره فى ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين، وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفى الأمثال: نعم الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى انتخاب الوزراء واستقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره، وترسخ فى النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفى كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفى كل صحيفة: ارحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافى فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً وإلى الماء محتاجاً، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس فى الرجل، فيقتله الملك، فمن ههنا شرط فى الوزير أن يكون صدوقاً فى لسانه عدلاً فى دينه مأموناً فى أخلاقه بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولى الوزارة لئيماً، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل، ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكاً طاعته لازمة	وحبه مفترض واجب
إن الذى شرفت من أجله	يزعم هذا أنه كاذب

وأشار

إلى الذمى، فسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتنى غضبان، فادفع إلى رقعة بعد رقعة، وكان فى الأولى أنك لست بإله، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضاً، وفى الثانية: ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء، وفى الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير،

وإذا أحبك الوزير، فنم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رءوفاً بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب: فقد قيل: لا شئ أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران، كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: من بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئاً من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد الله القشيرى يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسى فلا تحجبن عنى أحداً. فإن الوالى لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه احد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شئ أضيع للملكة من شدة حجاب الملك، ولا شئ أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذى لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذى هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنئ ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت.

وما عن رضى كان الحمار مطيتى ... ولكن من يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضرباً شديداً وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يسرعون تبادراً ... إذا فتح البواب بابك أصبعاً

ونحن جلوس ساكتون رزانة ... وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراسانى بباب أبى دلف العجلى حيناً فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف فى وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مال ... ولم يعذر تعلل بالحجاب

وأبواب الملوك محجبات ... فلا تستنكرن حجاب بابى

ومن محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم ... على أنه لا بد سوف يلين

خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها ... وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر:

ماذا على بواب داركم الذى ... لم يعطنا إذناً ولا يستأذن

لو ردنا رداً جميلاً عنكم ... أو كان يدفع بالتى هى أحسن

وقال آخر:

أمرت بالتسهيل فى الإذن لى ... ولم ير الحاجب أن يأذنا

فلن ترانى بعدها عائداً ... ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر:

ولقـــد رأيت بـبـــاب دارك جـفـــوة ... فـيـهـــا لحـسـن صنيـعك التكـدير

مـــا بـال دارك حـين تـدخـل جـنـة ... وبـبـــاب دارك منكـر ونكيـــر

وقال آخر:

إذا جـئـت ألقى عند بابك حـاجـبـاً ... مـحـيـاه من فـرط الجـهـالة حـالك

ومن عـجـب مـعـناك جنة قـاصـد ... وحـاجـبـهـا من دون رضـوان مـالك

وقال آخر:

سـأترك بابـاً انت تمـلك إذنـه ... ولو كنت أعـمى عن جـمـيع المسالك

فلـو كنت بواب الجنان تـركـتـهـا ... وحـولت رجلى مـسـرعـاً نحـو مـالك

وقال آخر:

مـاذا يـفـيـدك أن تكون مـحـجـبـاً ... والـعـبـد بـالبـاب الكريم يلـوذ

مـا أنت إلا فى الحـصـار مـعى فـلا ... تتـعـب فكل مـحـاصـر مـأخـوذ

وقال أبو تمام:

سـأترك هذا البـاب مـا دام إذنـه ... على مـا أرى حـتى يـلين قـليـلاً

فـمـا خـاب مـن لم يأته مـتـعـمـداً ... ولا فـاز من قـد نال منه وصـولاً

إذا لم نجـد للإذن عـندك مـوضـعـاً ... وجـدنا إلـى ترك المجئ سـبـيـلاً

واستـأذن رجل على أمير فـقال للحـاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسى وإنما هى هجعة وأهب، فـخرج الحاجب، فقـال له الرجل: ما الذى قال لك؟ قال: قـال كلاماً لا أفهمـه وهو يريد أن لا يأذن لك. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لـسهولة إذنه وبذل طعـامه. وقال عمرو بن مرة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

سـأصـبـر إن جـفـوت فكم صـبـرنا ... لمـثـلـك مـن أمـيـر أو وزيـر

رجـونـاهم فـلـمـا أخـلفـونـا ... تمادت فـيـهـم غـيـر الدهـور

فـجـبـتنـا بالـسـلامـة وهى غـنم ... وبـاتوا فـى المحـابـس والقـبـور

ولمـا لـم نـنـل مـنـهـم سـروراً ... رأيـنا فـيـهـم كـل الـسـرور

وأنشدوا فى ذلك أيضاً:

قل لـلذيـن تحـجـبـوا عن راغـب ... بمـنازل مـن دونهـا الحـجـاب

إن حـال عـن لقـيـاكم بـوابكـم ... فـالله لـيـس لبـابـه بـواب

واستأذن سعد بن مالك على مـعاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كـعب فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لى لا أبكى وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسـول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب لا تبك، فإن فى الجنة قصـراً من ذهب يقال له عدن أهله الصديقـون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله. واستـأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم، فحجبه فقال:

فى كل يوم لى ببـــابك وقــــفـــة أطوى إليـــــه ســـــائر الأبـواب
وإذا حـــضـــرت رغـــبت عـنك فـــإنه ذنب عـــقــوبتـــه على البـــواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص: ٢٦].

جاء فى التفسير أن من اتباع الهوى أن يحضر الخـصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذى فى قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قـال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الذى أصاب سليمـان بن داود عليهما السلام أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً.

وروى عن عبد الرحـمن بن سمرة رضى الله عنه قال: قـال لى رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحـمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة».

وفى الحديث: «من ولى من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوأ مقعده من النار». وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى عـاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعـالى بالعظام، فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعـاً أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفاً»، فقال عمر رضى الله عنه: سـمعت من النبى ﷺ مالم أسمع قـال: نعم. وكان سلمـان وأبو ذر حاضرين، فـقال سلمان: أى والله يا عـمر ومع السبـعين سبعـون خريفاً فى واد يلتـهب التهاباً، فـضرب عمـر رضى الله عنه بيده على جبـهته وقـال: إنا لله وإنا إليه راجعون. من يأخذها بما فيها، فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود فى السنن قـال: جاء رجـل إلى رسول الله ﷺ فـقال يا رسـول الله إن أبى عـريف على الماء، وإنى أسألك أن تجعل لى العرافة من بعده، فقال النبى ﷺ: «العرفاء فى النار». وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يـوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضى الله عـنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقـاضى العدل يوم القيامة، فـيلقى من شدة الحساب مـا يود أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة». وقال الحسن البصرى إن النبى ﷺ دعا عبـد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خـر لى فقال: «اقعد فى بيتك». وقال أبو هريرة رضى الله عنه ما من أميـر يؤمر على عشرة إلا جئ به يوم القيامة مـغلولاً، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمـان بن عبد الملك: هل تدرى يا أميـر المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيـامة؟ قال سليمـان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عـذاباً يوم القيامة رجل أشـركه الله فى ملكه فجار فى حكمـه، فاستلقى سليمـان على سريره وهو يبكى، فمازال يبكى حتى قـام عنه جلساؤه. وقال ابن سيرين: جاء صـبيان إلى أبى عبيدة السلمانى يتـخيرون إليه فى ألواحهم، فلم ينظر إليها، وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبى مريم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجـدوا ماء، فأتاهم رجل فقـالوا له: دلنا على الماء. فقال: احلفـوا إلى ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرافاً ولا مكاساً ولا عريفاً، ويروى ولا عرافاً، ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء، فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما قال، فدلهم على الماء، فقـالوا له: أعنا على غسله فقال: لا. حتى تحلفوا إلى ثلاثاً وثلاثين يميناً - كمـا تقدم. فحلفوا له، فصلى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضى الله عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إنى أحب لك ما أحب لنفسى، وإنى أراك ضعيفاً، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

ومن غريب ما اتـفق وعجيب ما سبق: مـا حكى أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشـير، وكان ذا مملكة متـسعة

وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير من يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتله هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدراً واعتدالا، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبى وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى فى جملة الأسارى وأتى بى فى هذا القصر، فلما رأتنى ابنته التى أرسلت تخطبها أحبتنى، وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى، فتركنى لها، فكنت أنا وهى كأننا روحان فى جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر فى البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة فى الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسرى، وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث فى يمينى بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبى وأنا غلبتك، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التى خطبتها منه، وأننى سمعت أنك أقسمت لتقتلنى فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك فى بطنى، فلا يتهيأ لك قتلى، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضباً، وعول على قتلها، ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشى أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال أيها الملك: إن الرأى هو الذي خطر لك والمصلحة هي التى رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال أيها الملك: إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهى أولى بالستر، ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها، فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيل إلى أن طرح شيئا فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقاً مختوماً وقال: أيها الملك إنى نظرت مولدى، فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم، وإن لى أولاداً وعندى مال قد ادخرته من نعمتك، فخذه إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه إرثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شئ ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك يطول الرب فى عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق، ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب فى تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسما وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذا تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن فى السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير: قد هرم جسمى وضعفت قوتى وإنى أرى أنى ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به. فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، كان قد ولى بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندى حية ولقد ولدت ووضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خلقاً وخلقاً، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفى الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإننى آتى بهذا الغلام بين عشرين غلاماً فى سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو.

وإنى أعطى كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو، فقال الملك: نعم التدبير الذى قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدى الملك، فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة ان يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابنى حقاً، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبى منهم والدأ بحضرة الملك، فتحقق الصدق فى ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبلت يد الملك، فرضى عنها، فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وأشياء مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة، وشدة مناصحته، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم
وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله»، وعن أبى حازم قال: دخل عمر على أبى بكر رضوان الله عليهما، فسلم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر، فقال: أتانى، وبين يدى خصمان قد فرغت لهما قلبى وسمعى وبصرى، وعلمت أن الله سائلى عنهما وعما قالا وقلت. وادعى رجل على على عند عمر رضى الله عنهما وعلى جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع على إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير فى وجه على، فقال يا أبا الحسن ما لى أراك متغيراً، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتنى بحضرة خصمى. هلا قلت يا على قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس على رضى الله عنهما، فقبله بين عينيه، ثم قال بأبى أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

وعن أبى حنيفة رضي الله عنه: القاضى كالغريق فى البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجه أبى حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط فى الدنيا أهون على من الضرب بمقامع الحديد فى الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابى، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضى الأرض داهن فى القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضى الأرض من قاضى السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضى مالم يجر، فإذا جار برئ الله منه ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أنى لهذا الأمر كاره فاقبضنى إليك فقبض. وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً، لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضياً. وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، كان أمير البصرة وقاضياً فيها وكان يقول إن الرجلين يتقدمان إلى فأجد أحدهما أخف على قلبى من الآخر فأقضى له. وتقدم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إنى تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه. وقدم

خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبى يوسف بن يعقوب فى حكم فارتفع الخادم على خصمه فى المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك فى المجلس فتمتنع، يا غلام ائتنى بعمرو بن أبى عمرو النخاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكى، فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلى يمدح بعض القضاة:

رفضت وعطلت الحكومة قبله ... فى آخرين وملّها رواضها
حتى إذا ما قام ألفّ بينها ... بالحق حتى جمعت أو فاضها

وفى ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأندب ملة الإسلام ... إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة ... وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: إن القاضى يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتاً يقضى بين الأحياء غيرك. وقيل المضروب بهم المثل فى الجهل وتحريف الأحكام، قاضى منى وقاضى كسكر وقاضى أيدج، وهو الذى قال فيه أبو إسحاق الصابى:

يا رب علج أعلج ... مثل البعير الأهوج
رأيته مطلعاً ... من خلف باب مرتج
وخلفه عذيبة ... تذهب طوراً وتجى
فقلت من هذا ترى ... فقيل قاضى أيدج

وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه أبو الحسن الجوهرى:

رأيت رأساً كدبة ... ولحية كالمذبة
فقلت من أنت قل لى ... فقال قاضى شلبة

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبى فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعى:

فتن الشعبى لما ... رفع الطرف إليها
فتنته ببنان ... كيف لو رأى معصميها
ومشت مشياً رويداً ... ثم هزت منكبيها
فقضى جوراً على الخصم ... ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبى فضرب الأشجعى ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبى ليلى قال: انصرف الشعبى يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهى تقول: فتن الشعبى لما وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبى وقال: رفع الطرف إليها ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأنشد بعضهم فى أمين الحكم:

تتماوتن إذا مشيت تخشعاً ... حتى تصيب وديعة ليتيم

الفصل الثانى: فى الرشوة والهدية على الحكم وما جاء فى الديون

أما الرشوة، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشى والمرتشى». وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل فى دين الله الرشا، قال الشهيدى: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفى نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً، فأهدى له فقبل فذلك السحت، فقيل له، ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال الأخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنت إذا خاصمت خصماً كببته ... على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت ... على وقالت قم فإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد روى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات، اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة». رواه الحاكم. وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى له بجنازة لم يسأل عن شئ من عمل الرجل، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه، فأتى بجنازة، فلما قام ليكبر ﷺ قال: «هل على صاحبكم من دين»؟ فقالوا ديناران يا رسول الله، فعدل النبى ﷺ عنه وقال: «صلوا على صاحبكم»، فقال على كرم الله وجهه: هما على يا رسول الله وهو برئ منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلى رضى الله عنه: «جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدين هم بالليل وذل بالنهار، وهو غل جعله الله فى أرضه فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً فى عنقه. وجاء سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال أشهد أن رسول الله ﷺ: قال: «لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله، ثم أحيى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه». وعن الزهرى قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ثم صلى عليهم» وعن جابر لا هم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه إليها، فهو زان، ومن استدان ديناً ينوى أن لا يقضيه فهو سارق»، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجب إلى شئ استقرضه إلا استقرضته من نفسى، أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غلا شئ على تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريض سمير قلبى ... فألهتنى القروض عن القريض

وقال غيلان بن مرة التميمى:

وإنى لأقضى الدين بالدين بعدما ... يرى طالبى بالدين أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان واثقاً بربه، وقد قال له: ولكن ليطمئن قلبي، اللهم أوف عنَّادين الدنيا بالميسرة، ودين الآخرة بالمغفرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة: فقد روى عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروى أن كعباً كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاص خاتماً بلا فص، فقال: وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان بمرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شئ يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصة، ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

وأما ما جاء في الرياء: فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء: ١٤٢]. وعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه، فهو من أقبح الرياء. وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شئ. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمنعه، وقال: إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائماً ولا أخبرت بذلك أحداً. اللهم اصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى والمحق من المبطل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثوابًا أيام العدل. وروينا من طريق أبى نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «العمل الإمام العادل فى رعيته يومًا واحدًا أفضل من عمل العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عاماً». وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء». وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرنى عن جنّة عدن، قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبىّ أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبىّ، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإنى أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّى لى بها. قال الحسن: فجعله الله صديقًا شهيدًا حكمًا عدلاً. وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم؟ الشجاعة أو العدل، قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة. ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالاً يرمها به، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابى، فحصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفى الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل أكثر. وقال: إن عشت لأبلغنه إلى ما كان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فمات فى تلك السنة. ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقّه، وفرق ما بقى بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إنى رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: ملئت الأرض بك عدلاً. وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليًا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حكى أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يومًا، فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذى كسرت العود، قال: نعم. قال: أفعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لى، قال: أكرمه لك بمعصية الله عز وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق». فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل مُنكر رأيته فغيره وأنا من ورائك. ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمنى فانصفنى منه وأذقنى حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانيًا، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال: يا أمير المؤمنين إنا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكًا فى ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه فى الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال إلى من ظلمه، فعزله وأخذ لليهودى حقه منه.

وروى أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين

أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال: بل اضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنًا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه انه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن انصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه. وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحًا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئًا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكئ في مجلسي كيف شاء، وليتمن عليّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلا بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطًا، ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجه بالعدل. وقيل: تظلّم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال: ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم. وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء[1] وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل: من هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب، فقال: إنه يحب أن يسمع أبيات في العدل، فقال: سمعًا وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نُسرّ به ... ولا نرى لوُلاة الحق أعوانا

مستمسكين بحق قائمين به ... إذا تلوّن أهل الجور ألوانا

يا للرجال لداء لا دواءَ له ... وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت. وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما قضى الأمر إلى معاوية جره يمينًا وشمالاً، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمننيه الله. وقال وهب بن منبه: إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا همّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكًا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرًا، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهمّ بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربّه في نفسه أن لا يأخذها

---

(١) واصل بن عطاء: هو واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة من موالي بني ضبة أو بني مخزوم، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمى أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية وهو الذي نشر مذهب الاعتزال، مات سنة (١٣١هـ - ٧٤٨ م).

ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عـادتها. ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيـها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعـصر قدحًا، فعزم الملك على أخذها منـها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنـها عصرت قصـبة فلم يخرج منها نصف قدح، فـقال لها: أين الذى كان يقـال؟ فقالت: هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخـذها منى، فارتفعت البركة منها، فتـاب الملك وأخلص لله النيّة وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدًا، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى[1] رحمه الله فى كتابه «سراج الملوك» قال: حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شـيئًا من ذلك العام. ولا تمرة واحـدة، وقال لى شيخ من أشيـاخ الصعيد أعـرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل ويبة بدينار.

وحكى أيضا رحمـه الله تعالى قال: شهدت فى الإسكندرية والصـيد مطلق للرعية السمك يـطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحـر، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وروى أصحاب التواريخ فى كـتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحـوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقـوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع ومـا أشبـه ذلك، وكان الوليـد بن هشام صـاحب ضياع واتـخاذ مصـانع فكان الناس يتساءلون فى زمـانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهـار وغرس الأشجار، ولما ولى سليمان بن عـبد الملك وكان صاحب طعـام ونكاح كان الناس يتحـدثون ويتساءلـون فى الأطعمة الرفـيعة ويتغالون فى المناكح والسرارى ويعـمرون مجالسهم بذكـر ذلك، ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتـساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشـبه ذلك. فينبغى للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الأقـوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى بشرًا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات وروحًا للعباد، ولو تتبعت ما جاء فى العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعًا جامعًا لهذا المعنى ولكن اقتـصدت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السـامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أبو بكر الطُّرْطُوش: هو محـمـد بن الوليد بن محـمـد بن خلق القرشى الفهـرى الأندلسى، أبو بكر الطرطوشى ويقال له ابن رندقة أديب من فـقهاء المالكية الحفاظ، من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس، توفى سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود: ١٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام»، وقال أيضًا ﷺ: «رحم الله عبدًا كان لأخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم»، وقال أيضًا ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنّة»، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئًا يسيرًا قال: «ولو كان قضيبًا من أراك». وعن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتًا من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة، فإنى ألعنه ما دام قائمًا يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنّة». وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل: لبيك عبدى حقًا لأنصرنك ولوبعد حين»، وعنه أيضا أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذى لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه». ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يارب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين وإذا مناد ينادى حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عليين. وقيل: من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه فقال له: كِلِ الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورُئى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعًا ... ولم أر مثل الجور للمرء واضعًا

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنّا منك فى سقم ... فإن سقمت فإنا السالمون غدا
دعت عليك أكفٌ طالما ظُلمت ... ولن ترد يدٌ مظلومة أبدًا

وكان معاوية يقول: إنى لأستحى أن أظلم من لا يجد علىَّ ناصرًا إلا الله، وقال أبو العيناء: كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى داود وقلت: قد تضافروا علىّ وصاروا يدًا واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرًا فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. وقال يوسف بن إسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه»، وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النّار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا فيقولون: إى والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه، وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر فى

البنيان من غير حلّه عربون على خرابه، وقال غيره: لو أن الجنّة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب، وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك. وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. وبكى على بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدى الله تعالى ولم تكن له حجة. وروى أن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيرى»، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه. وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق فى العلوم فضربه المعلم يومًا من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولى الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان: زه زه.

وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمنّ الدّهر حرًا ظلمته ... فما ليلُ حرٌّ إن ظلمتَ بنائم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم مصدرُه يفضى إلى النّدم
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدرى بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكنْ ... لها أمدٌ وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربّى ... ويرسلها إذا نفذَ القضاءُ

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسرى بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بنُ مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضلُ والفضلُ والفضل
ثلاثة أملاكٍ مضوا لسبيلهم ... أبادهمُ الموت المشتّت والقتلُ

يريد: الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها:

وحق الله إنّ الظلم لؤمٌ ... وأنّ الظلم مرتعهُ وخيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله المكتفى فى مصلاه رقعة مكتوبًا فيها:

بغى وللبغى سهامٌ تنتظر

أنفــــذ فــي الأحـــــشــــاء من وخـــــز الإبر

ســـهــــام أيدى القـــــانتين في الســــحــــر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لألي هذا بعدما حدثني إبراهيم، قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة، فيجمعون فى تابوت من حديد ثم يرمى بهم فى نار جهنم». وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبى للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالسًا فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدننى إليك فإنى مظلوم وقد أعوزنى العدل والإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتى قال: وما يحجبك؟ وقد ترى مجلسى مبذولاً. قال: يحجبنى عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك. قال: ففيم ظلمتك؟ قال: فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبًا منى بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء، فقال له: الرجل أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمنتك. قال: البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأى شىء هذه الأشياء إن هى إلا الجور وعدولك عن العدل؟ فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق وإنى لأرى فيك مصطنعًا ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له، يقال له: يا فلان كيف الناس فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له: ليلة كيف الناس الآن؟ قال: بخير. قال اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل فى الآثار الإسرائيلية فى زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بنى إسرائيل كان له عائلة وكان صيادًا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يومًا للصيد فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها فى مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانى خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلهى جعلتنى ضعيفًا وجعلته قويًا عنيفًا، فخذ لى بحقى منه عاجلاً فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته فى أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسرى الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب: ينبغى أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوًا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه فخرج هائمًا على وجهه مستغيثًا إلى ربّه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى فى منامه قائلا يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك امض إلى خصمك الذى ظلمته فارضه، فانتبه من النوم وفكر فى أمره فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه، ودفع إلى شيئًا من ماله وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحى على موسى عليه السلام: يا موسى وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضى الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضى الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقت بفرسى ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعنى بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمراً أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصرى: أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدرة، قال أنس رضى الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على ضلع عمرو، فقال يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذى ضربنى قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول إنى لم أشعر بهذا. وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون[1] قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة[2] يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا فى غد، فكتبت رقعة ووقفت بها فى طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم ففسقتم وردت إليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون واظلموا فإنا إلى الله متظلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قال: فعدل لوقته.

وحكى أن الحجاج حبس رجلاً فى حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة، وكتب فى آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا	غداً عند الإله من الظلوم
أما والله إن الظلم لؤمٌ	وما زال الظلوم هو الملومُ
سينقطع التلذذ عن أناسٍ	أداموه وينقطع النعيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضى	وعند الله تجتمع الخصومُ

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم، فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدراً فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتونى به ووكلوا بالسفينة من يحفظها، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا فى سفينة منحدرة وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم، كنت سحراً فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل

---

(١) أحمد بن طولون: هو أحمد بن طولون، أبو العباس، الأمير صاحب الديار المصرية، والشامية والثغور، تركى مستعرب، كان شجاعًا جوادًا حسن السيرة، موصوفًا بالشدة على خصومه وكثرة الإثخان والفتك فيمن عصاه، بنى الجامع المنسوب إليه بالقاهرة، ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين، ولى أمر الثغور ودمشق ثم مصر، سفك كثيراً من الدماء فى مصر والشام، توفى سنة (٢٧٠هـ - ٨٨٤م).

(٢) السيدة نفيسة: هى نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، صاحبة المشهد المعروف بمصر، تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث، ولدت بمكة سنة (١٤٥هـ) ونشأت فى المدينة، حجت ثلاثين حجة، وكانت تحفظ القرآن، وسمع عليها الإمام الشافعى، وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهى أمية، ولكنها سمعت الكثير من الحديث، توفيت فى مصر سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

سلبها إلى دارى لئلا يفشو الخبر على، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين وأخذت فى الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى إليك، فقال: وأين الحلى والسلب؟ قال: فى صدر السفنية تحت البوارى. قال المعتضد: علىّ به الساعة، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحراً وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر، فحضر فى اليوم الثانى ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم، قال: فقلت يا مولاى من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية؟ فقال: بل رأيت فى منامى رجلاً شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم. فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام، وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل غافل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

في بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

الفصل الأول: فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الأجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان.

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها، فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلى فى صداق ابنتى مائة ضيعة خربة، فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك، قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار، من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد كحفر الخلجان والإنفاق على الجسور وشق الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للأرامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار، ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صبًا وينادى عليه، برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير، مائتا ألف دينار، فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنؤوه بتفرقة الأموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة، وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له، ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك يجعله فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار. وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضًا مدبرة حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١]. وكان ملك مصر عظيمًا لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكًا وكانت الجنان بحافتى النيل متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعًا لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦].

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره، فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق

إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد، فليس خليج بمصر أكثر عطوفًا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم، رد على أهل القرى أموالهم، فرد عليهم ما أخذه منهم. فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمّد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]. قال: هي خزائن مصر، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام، وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخًا في مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلام، وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف، وافتقرت زليخا، وعمي بصرها فجعلت تتكفف الناس فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه، ثم قيل لها لا تفعلي لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسئ إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه، فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته، فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم والعبيد ملوكًا بطاعتهم، فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التي كنت أخدمك بنفسي وأرجّل شعرك بيدي وأكرم مثواك بجهدي وكان مني ما كان، وقد ذقت وبال أمري وذهبت قوتي وتلف مالي وعمي بصري وصرت أسأل الناس، فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين، فبكى يوسف عليه السلام بكاءً شديدًا وقال لها: هل في قلبك من حبك إياي شيء؟ قالت: نعم والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إلي من ملء الأرض ذهبًا وفضة، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أيمًا تزوجناك وإن كنت ذات بعل أغنيناك. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزئ بي هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة؟ فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلي ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم، فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها، فإذا هي بكر فولدت له إفرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما، فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف وللغني أن لا ينسى الفقير، فرب مطلوب يصير طالبًا ومرغوب فيه يصير راغبًا، ومسؤول يصير سائلا، وراحم يصير مرحومًا، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله.

ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال: ما روى أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له: عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيًا حافيًا عكازته بيده وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما نهاك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها، فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامي وإداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي، قال: فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: اللهمّ ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل، ثم عاد إلى مجلسه، فقال: ما صنعت في عملك يا عمير؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به، فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير، قال: أنشدك

الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمـر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له: اختبر لي عميراً وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو في سعـة أم ضيق، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة دينار، فأتاه حبيب، فنزل به ثلاثًا، فلم ير له عيشًا إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب: إن رأيت أن تتحول إلى جيـراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشًـا منا، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غـير هذا لأثرناك به. قال: فـدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك، فدعا بفروخلق لامرأته، فجـعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقـراء إلى أن أنفدها، فقدم حبيب على عمر، وقال: جـئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس ومُا عنده من الدنيـا قليل ولا كثير، فـأمر له عمر بوسـقين من طعام وثوبين، فـقال يا أمير المؤمنين أمـا الثوبان فاقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما عند أهلي صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع إليهم.

وروى أن عمر رضى الله عنه صرّ أربعمائة دينار وقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح[1] ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك قـال: وصله الله ورحمه، ثم دعـا بجاريته وقـال لها: اذهبي بهذه السـبعة إلى فـلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفـدها، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلهـا لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل، وانظر ما يكون من أمره، فـمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففـعل معاذ كما فعل أبو عبيدة، فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

الفصل الثاني : في أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعـمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسـم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطـنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حواليـها كنيـسة ولا ديراً ولا قلية ولا صومعة راهـب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطًا منـها في خطط المسـلمين في ليل ولا في نهار، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السـبيل، وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليـال نطعمهم، ولا نؤوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسًا ولا نكـتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شـرعنا ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوى قراباتنا الدخـول في دين الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين ونقوم لـهم من مجالسـنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشـبه بالمسلـمين في شيء من مـلابسـهم من قلنسـوة ولا عمامـة ولا نعلين، ولا نتكلم بكلامـهم، ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب في السروج، ولا نـتقلد بالسـيوف، ولا نتـخذ شيـئًا من السلاح ولا نحمـله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعـربية، أو لا نبيع الخمـر، وأن نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زيّنا حـيثما كنا، وأن نشـد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا، ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا إلا ضـربًا خفيفًا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهـر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجـاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلـمين، ولا نتطلع على منازلهم، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمـان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شـرطناه لكم، وضمناه على أنفـسنا فلا ذمة لنا وقـد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق. فكتب إليه عـمر رضى الله عنه أن امض ما سألوه والحق فيه حرفين واشترطهـما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم، أن لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده.

وروى أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بـن عبد العزيز رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين إنا قوم من العرب أفرض لنا، قال: نصارى؟ قالوا: نصـارى. قال: ادعوا إلى حجامًا، ففـعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزمًـا يحتزمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الأكف من شق واحد. وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل

(١) أبو عبيدة بن الجراح: هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهرى القرشي، الأمير القائد فاتح الديار الشامية، والصحابي أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عساكر: داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة، وكان لقبه أمين الأمة، ولي قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، توفي رحمه الله في طاعون عمواس سنة (١٨هـ - ٦٣٩م).

أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله بـه الحق وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك، ويترحم عليه مـا دامت الدنيا. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى، فإنهم أهل رشا فى دينهم ولا يحل فى دين الله الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه من البصرة وكان عاملاً بها للحساب، دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيًا، فقال له عمر: قاتلك الله وضرب بيده على فخذه، ولَّيتَ ذميًا على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. هلا اتخذت حنيفيًا؟ فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ ذلهم الله ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله. وكتب بعض العمال إلى عمر رضى الله عنه أن العدوّ قد كثر وأن الجزية قد كثرت، أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه انهم أعداء الله وأنهم لنا غششة فانزلوهم حيث أنزلهم الله.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال: إنى أريد أن أتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتك لأتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه عند ظهر البيداء، فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول، فقال: نعم. فخرج به وفرح به المسلمون، وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر، هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبىّ ﷺ ويراق دمه، ،فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين. وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن فى أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون فى غيرهم. قال أصحاب الشافعى: ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة، ويشدُّوا الزنانير على أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل: فوق الإزار وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، ولا يركبون الخيل ولا البغال، ولا الحمير إلا بالأكف عرضًا ولا يركبون بالسروج، ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام، ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين فى البناء، وتجوز المساواة، وقيل: لا تجوز. وإن تملكوا دارًا عالية أقروا عليها، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والإنجيل، ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم، وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينًا للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلمًا عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته، وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهمًا وعلى من دونه أربعة وعشرين درهمًا، وعلى من دونه الأثنى عشر درهمًا، وذلك بمحضر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنا عشر بدينار، وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل، وأحد قولى الشافعى، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين. وأما الكنائس، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين. وشدد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة، والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]. وقال رسول الله ﷺ : «من مشى فى عون أخيه ومنفعته، فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله»، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، رواه البزار والطبرانى فى معجمه، ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى، والخلق كلهم فقراء الله تعالى، وهو يعولهم، ورويناه فى مسند الشهاب عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس»، وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقًا خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «من سعى لأخيه المسلم فى حاجة، فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق». وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفًا عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له». رواه أبو نعيم فى الحلية.

ورويناه فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخرائطى، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفّر عنه سبعين سيئة، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنّة بغير حساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه فى حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض» رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «إن لله عند أقوام نعمًا يقرها عندهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم» رواه الطبرانى. ورأينا من طريق الطبرانى بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة، فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه، فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال». وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أغاث ملهوفًا كتب الله له ثلاثًا وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقى فى الدرجات». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: اللهمّ لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف»، رواه أبو منصور الديلمى، فى مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس، قيل: يا رسول الله، فأى الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته وتنفيس كربته، وقضاء دينه، ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيىء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة»، رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورًا لم يرض الله له سرورًا دون الجنّة»، رواه الطبرانى. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدخل رجل على مؤمن سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكًا يعبد الله تعالى ويوحده، فإذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور، فيقول له: أماتعرفنى، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذى أدخلتنى على فلان. أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربّك وأريك منزلك فى الجنّة»، رواه

ابن أبي الدنيا. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه: «إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي، وإنا أنزلناه في ليلة القدر، وأم الكتاب، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة»، وهو حديث مرفوع. ومن كلام الحكماء إذا سألت كريمًا حاجة، فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله، لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة، ثم توانى عن طلبها، فقال له المسؤول: أنمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها، فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة لنصيب: سلني، فقال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة، فأمر له بألف دينار. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضًا قال: لا تكثر على أخيك بالحوائج فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته. وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب؟ فقال: زل عن موضعك وعلى أن لا يلقاك منهم أحد، فقال له: صدقت، وجلس لهم في قضاء حوائجهم. وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال: عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات[1] رقعة في حاجة لي، فقرأها ووضعها من يده، ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلا من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجة ... وأبى فلا تقعدْ عليه بحاجب
فلربما منع الكريم وما به ... بخلٌ ولكن سوء حظٌ الطالب

فقال: وقد سمع ما قلت ارجع يا أبا جعفر، بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة، فعاودونا، فإن القلوب بيد الله تعالى، فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت. وسأل إسحاق بن ربعي، إسحاق بن إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون، فقال لكاتبه: ضمها إلى رقعة فلان، فقال:

تأن لحاجتي واشددْ عُراها ... فقد أضحت بمنزلة الضَّيَاع
إذا شاركتها بلبان أخرى ... أضرٌ بها مشاركُ الرّضاع

وقال أبو دقاقة البصري:

أضحت حوائجنا إليك مناخةً ... معقولة برحابك الوصَّالِ
أطلق فديتك بالنجاح عقالها ... حتى تثور معًا بغير عقالِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله

ولله در القائل حيث قال:

أيّها المادح العباد ليُعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارجُ فرض المقسِّم الجوّاد

---

(١) ابن الفرات: هو علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات، وزير، من الدهاة الفصحاء الأدباء الأجواد، وهو مهد الدولة للمقتدر العباسي، ولي ديوان السواد، ثم بلغ رتبة الوزارة، توفي قتلاً سنة (٣١٢هـ - ٩٢٤م).

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة إلى، فـارسل إلى رسولا أو اكتب لى كتابًا، فإنى لأستحى من الله أن يراك ببابى. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: والذى وسع سمعه الأصوات، مـا من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تـطرد غريبة الإبل، وقال لجابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهـما: يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حـوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عـرضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيهـا بما يجب لله عرضها للزوال. نعوذ بالله من زوال النعمـة ونسأله التوفيق والعصمة، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تـسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى محاسن الأخلاق ومساويها

قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فخص الله تعالى نبيّه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق، من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشىء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]. فقالت عائشة رضى الله عنها: كان خلُقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وكان الحسن رضى الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله، أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى»، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، ولا يأكل متكئًا ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول: «برد هذا يطفئ حر هذا»، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول: «هذا يزيد فى السمع، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل»، وكان يحب الدباء، ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا، فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين»، وكان يقول: «إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها»، وكان يكتحل بالأثمد ولا يفارقه فى سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضى الله عنها: سابقته، فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى وقال: هذه بتلك، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أُمّى لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلاهم كلامًا، وكان يقول: «أنا أفصح العرب»، وقال أنس رضى الله عنه: والذى بعثه بالحق نبيًا ما قال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته ولا فى شىء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامنى أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر، وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن النبىّ ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التى هى أعلى مرتبة من العبودية فالنبى ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا، فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى من دعاه لباه، ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذى يرفعها، يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء، أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عز وجل بدنًا، وأجدهم فى أمر الله لا تأخذه فى الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ. وقالت عائشة رضى الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادمًا له، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثمًا أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه، وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت، وهى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»، وفى رواية أخرى: «فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن». وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى فى أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنّة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى فى أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار». وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب والسىء الخلق أجنبى عند أهله، وقال الفضيل: لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلىّ من أن يصحبنى عابد سىء الخلق، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خلُقه مقتوه.

بيت منفرد:

إذا رام التخلق جاذبته ... خلائقُهُ إلى الطبع القديم

قيل: أبى الله لسىء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه. وعن عائشة قالت: كان

رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحداً، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه كن له: من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيّته زيد في رزقه، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره»، ثم قال: «وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق». وقيل: «سوء الخلق يعدى لانه يدعو إلى أن يقابل بمثله»، وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين رضى الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وقى به العرض، فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه فأنت أعلم منى، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إنى سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول: «أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنّة» وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنّة، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلاً رضى الله عنهما، وأُنشد في المعنى:

وإنى لألقى المرءَ أعلم أنّهُ ... عدوٌ وفى أحشائه الضغن كامنُ
فأمنحه بِشراً فيرجع قلبه ... سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فانفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه وأحضر بين يدى جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهرى بثمنها، وقال للرجل: خذها الآن حلالا طيبا وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف. ودخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم، فقال لها المأمون:ممّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحى وإكرامك إيّاى، فقال لا تعجبى فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجداً قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيانَ حسنَ وجوههم ... إذا كانت الأعراضُ غيرَ حسان
فلا تجعل الحسنَ الدليلَ على الفتى ... فما كلّ مصقول الحديد يمانى

وحكى أن بهرام الملك خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً، فتبعه طامعًا في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راع تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعى: احفظ على فرسى حتى أبول، فعمد الراعى إلى العنان وكان ملبسًا ذهبًا كثيراً، فاستغفل بهرام وأخرج سكينًا، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه، فرفع بهرام نظره إليه، فرآه فغضّ بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعى قدم إلىّ فرسى، فإنه قد دخل في عينى من سافى الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه إن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تتهمن بها أحداً.

وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه، فلما فقده الشرابى صاح بصوت عال لا يخرجن أحد حتى يفتش، فقال كسرى: ولم؟ فأخبره بالقضية، فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحداً فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسرى، وقال له: هذا من ذاك، فقبّل الأرض، وقال: نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يومًا، فنادى بالخادم يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركى وهو يقول: ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام

إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ فقال: ياعبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة واليًا، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه، ولا مديونًا إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ، يكلمنا بكلام أحلى من الجنى ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يومًا عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فعثر فى وسادة، فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها فى حجره فبقى الغلام متمثلا واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل، فغيّر ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك. اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى. ومرض أحمد بن أبى داود، فعاده المعتصم، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها فى أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من هنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميرى لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ ... أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصمًا ... فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس فى داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له فى ذلك، فقال: من خدعنا فى الله انخدعنا له. وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع فى وقت الهاجرة، فألقى عليه من فوق سطح طست رماد، فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم فى الملقى للرماد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئًا، فإن من استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب، وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته: هل فرحت فى الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أنى كنت قاعدًا ذات يوم، فجاء إنسان فبال عليّ، والثانية كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعنى. وروى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه دعا غلامًا له، فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابى؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكى أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك، فانصرف رحمك الله، فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب، فإن الكلب إذا دعى حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصى: يعجبنى من القراء كل فصيح مضحاك، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق: ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم[1] قال: كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون، فعطش،

---

(١) يحيى بن أكثم: هو يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى الأسيدى المروزى، أبو محمد، قاضى، رفيع القدر، عالى الشهرة، من نبلاء =

فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم، فينغص عليَّ نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائمًا وصاح يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام، فأزعجك، فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهنّاك الله تعالى بهذه النعمة، وأتمّها عليك، فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: وبت عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته، فأنتبه، قال يحيى: وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان، فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول، قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف، انظر إلى أخلاقهم رضى الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها، نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا، وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

= الفقهاء، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب ولي قضاء البصرة ثم بغداد وكان حسن العشرة وحلو الحديث، توفي في الربذة إحدى قرى المدينة سنة (٢٤٢هـ - ٨٥٧م).

فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بهـا يمنع الضيم وتنال الرغائب وتُنجح المقاصد، وقد منّ الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ووصف نعيم الجنّة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة، إذ جعلهم إخوانًا على سرر متقابلين، وقد سن رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وآخى بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنّم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا فى ذلك:

وما المرءُ إلا بإخوانه ... كما يقبضُ الكفُّ بالمعصم
ولا خير في الكفِّ مقطوعةً ... ولا خير في الساعد الأجذم

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان، وعون فى السراء والضراء، ومن كلام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه:

عليك بإخوان الصفا فإنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهور
وإن قليلاً ألف خل وصاحب ... وإن عدواً واحداً لكثير

وقال الأوزاعى: الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب إن لم تكن مثله شانته. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة، قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيِّبة، والفراش الوطئ، والنظر إلى الحسن من كل شىء، قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت، وهى أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره وافتضضت العذراء، فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضى الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما استمرئه، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلى، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا فى معنى ذلك:

وما بقيت من اللذات إلاَّ ... محادثةَ الرجال ذوى العقولِ
وقد كنّا نعدّهم قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ من القليل

وقال لبيد:

ما عاتب المرءُ اللبيبُ كنفسه ... والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

وقال آخر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلةٌ ... فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

وقيل لابن السماك: أى الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافى عقله، الذى لا يملّك على القرب ولا ينساك على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله. وأنشدوا فى المعنى:

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومنْ يضرّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريْبُ الزمان صدعك شتّت فيك شمله ليجمعك

وقال غيره :

وليس أخى من ودّنى بلسانه ولكنّ أخى من ودّنى وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدمًا ومالى له إن أعوزته النّوائبُ

وقال أبو تمام :

مَنْ لى بإنسان إذا أغضبتُه وجهلتُ كان الحلمُ ردَّ جوابهِ
وإذا صبوت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بطرفه وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يسد خلتى ويغفر زلتى ويقيل عثرتى. وقيل: من لا يؤاخى إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه، وكثر تعبه. قال الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبُ

وقال آخر:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلقَ الذى لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مرارًا على الأذى ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه

وقال: إذا رأيت من أخيك أمرًا تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده، ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وابرأ من عمله. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٦]. فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال ﷺ: «الارواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: إن روحى المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ما رأى أحدهما صاحبه. وفى ذلك قال بعضهم:

هَويتكُمْ بالسمع قبل لقائكم وسمع الفتى يهوى لعمرى كطرفه
وخُبّرتُ عنكم كلَّ جود ورفعة فلما التقينا كنتُم فوق وصفِهِ

وقال آخر :

تبسّم الثغر عن أوصافكم فغدا من طيب ذكركم نشرًا فأحيانا
فنحن هناك عشقناكُمْ ولم نركم والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان فى الله إلاّ كان أفضلهما عند الله أشدهما حبًا لصاحبه، ما زار أخ أخًا فى الله شوقًا إليه ورغبة فى لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنّة، وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقالوا: شر الإخوان الواصل فى الرخاء الخاذل عند الشدة، وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقًا، ولعدوّ صديقك عدوًا، وقالوا: أعجب الأشياء ودّ من يهودى وحفظ من نصرانى، ورياضة من دهرى، وكرم من أعجمى، والحذر من الكريم إذا أهنته، واللئيم إذا أكرمته، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة، فنسى جمائله وبقى شاكرًا ناشرًا ذاكرًا لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء إذا وقع بصرك على شخص، فكرهته فاحذره جهدك، قال عبد الله بن طاهر:

خليليَّ للبغضاء حالٌ مبينةٌ ... وللحب آثارٌ تُرى ومعارفُ

فما تُنكر العينان فالقلب مُنكرٌ ... وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال آخر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظى ... وشرفنى على ظمأ بريقى

غفرت ذنوبة وكظمت غيظى ... مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال آخر :

وليس فتى الفتيان مَنْ جلّ همّه ... صَبوحٌ وإن أمسي ففضل غبوقِ

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا ... لضر عدو أو لنفع صديقِ

وأما آداب المعاشرة: فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «من أخلاق النبيِّين والصِّديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا». وكان القعقاع بن شور الهذلى إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من ماله ويعينه على حوائجه، ودخل يومًا على معاوية، فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له فى المجلس، فدفعها للذى فسح له، فقال:

وكنت جليس قعقاع بن شورٍ ... وما يشقى بقعقاع جليسُ

ضحوك السن إنْ نطقوا بخيرٍ ... وعند الشر مطراقٌ عبوسُ

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لجليسى علىّ ثلاث: أن أرمقه بطرفى إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغى له إذا حدث، ويقال: لكل شىء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء، مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه. وكانت تحية العرب: «صبحتك الأنعمة وطيب الأطعمة» وتقول أيضًا: «صبحتك الأفالح وكل طير صالح». ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة، فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب. وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما فى محله. وقال ﷺ: «ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق[1] رضى الله عنه، إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا

---

(١) جعفر بن محمد: هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمى القرشى، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وعلى درجة عالية فى العلم، توفى سنة (١٤٨هـ - ٧٦٥م).

الجلوس في الصدور وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه، فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال، وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول. وعدوا ذلك من باب الأدب ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم، الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتآمر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان. ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصًا إذا كان جليسه ذا هيبة، فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد على حديثًا قط وقيل: إن أبا العباس كان يحدثه يومًا إذ عصفت الريح فأرمت طستًا من سطح إلى المجلس، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي، فقال: إن الله يقول: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها، فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي إلى حديثي.

وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بإنصاتك وصُنْهُ من وصمة التفاتك. وقيل: من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مدّ رجليه أو تمطى أو اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته، وكان أردشير إذا تمطى قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع[1]: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة، فما أعدت عليه حديثًا إلا مرة واحدة، فقال لي قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد. وقيل: المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المسلمين إذا التقيا، فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر، وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل: من السنّة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبًا. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفظ من تشبيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئًا وحديثك منظومًا مرتبًا، واصغ إلى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدًا على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك، فيسقط وقارك عندهما، وإذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك واهدىء غضبك وتكلم، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقًا عنده، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمازح لبيبًا أو سفيهًا، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الإيمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرئ السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة، ومن بلى

(١) روح بن زنباع: هو روح بن زِنْبَاع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة، أمير فلسطين وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها قيل: له صحبة، كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز توفي سنة (٨٤هـ - ٧٠٣م).

فى مجلس بمزاح أو لغط، فليذكر الله عند قيامه، فقد ورد عن النبىّ ﷺ أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان فى مجلسه ذلك».

وأما آداب المسايرة : فقد روى أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى سفر على بعير، فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى، فيعزمان عليه أن لا يمشى فيأبى ويقول: ما أنتم بأقدر منى على مشى وما أنا بأغنى منكم عن أجر، وقال ﷺ: «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى». وقيل: «لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا فى ثلاث: إذا ساروا ليلا أو خاضوا سيلا أو واجهوا خيلا»، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث، فى نكبته وغيبته ووفاته.

وأما ما جاء فى الإخوان القليلى الموافاة العديمى المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافة

فقال وهب بن منبه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا ستر لى عورة. وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعًا، فالثقة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سمعنا بالصديق ولا نراهُ ... على التحقيق يوجد فى الأنام
وأحسبه محالاً نمقوه ... على وجه المجازِ من الكلام

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه، وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم، وإن كان مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما فى حال الولاية فكثير وأنشد:

الناس إخوانُ مَنْ دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلّت به القدمُ

ولما نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدًا من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيًا فقال:

ما الناسُ إلاّ مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا
يُعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يومًا عليه بما لا يشتهى وثبوا

وقال آخر :

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم ... ولكنّهمْ في النائبات قليلُ

وقال البحترى:

إيّاك تغتر أو تخدعك بارقةٌ ... من ذى خداعٍ يرى بِشراً وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبةً ... وسرت في الأرض أوساطًا وأطرافا
لم تلق فيها صديقًا صادقًا أبدًا ... ولا أخًا يبذل الإنصاف إن صافى

وقال بعضهم فى المعنى أيضًا :

خليلىَّ جربت الزمان وأهله ... فما نالنى منهم سوى الهمّ والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد ... خليلاً يوفى بالعهود ولا أنا

وقال آخر :

لما رأيت بنى الزّمان وما بهم ... خلٌ وفىٌ للشدائد أصطفى
فعلمتُ أنّ المستحيل ثلاثةٌ ... الغول والعنقاء والخلّ الوفى

بيت مفرد:

وكلّ خليلٍ ليس في الله ودّه ... فإنّى به في وُدّه غير واثقِ

وقال آخر:

إذا ما كنتَ متخذًا خليلاً ... فلا تأمن خليلك أن يخونا
فإنّك لم يخنك أخٌ امينٌ ... ولكنْ قلّما تلقى امينا

وقال آخر :

تحبّ عدوى ثم تزعم أنّنى ... أودّك إن الرأى عنك لعازب
وليس أخى من ودّنى بلسانه ... ولكنْ أخى من ودّنى وهو غائبُ
ومن ماله مالى إذا كنت معدمًا ... ومالي له إن أعورته النوائبُ

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة[1] وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتابًا إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له فى بقية يومه أنه برئ مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه، فأنشد يقول هذه الأبيات:

تحالف الناسُ والزمان ... فحيث كان الزمان كانوا
عادانى الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس لى وبانوا
يا أيّها المعرضون عنّا ... عودوا فقد عاد لي الزمانُ

ومثله فى المعنى:

أخوك أخوك من يدنو وترجو ... مودّتهُ وإن دُعى استجابا
إذا حاربْتَ حارب من تعادى ... وزاد سلاحه منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدى :

وأخ رخصت عليه حتى ملّنى ... والشيء مملولٌ إذا ما يرخصُ
ما فى زمانك من يعزّ وجوده ... إن رمته إلا صديقٌ مخلصُ

يجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى، فإن المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم:

وكلّ محبّةٍ فى الله تبقى ... على الحالين من فرج وضيق
وكلّ محبّةٍ فيما سواه ... فكالحلفاء فى لهب الحريق

---

(١) ابن مقلة: هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة أبو على، وزير من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل ولى جباية الخراج في بعض فارس، ثم استوزره المقتدر قطعت يده اليمنى لأنه كتب بها محرضًا، ثم قطع لسانه وسجن حتى مات سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فينبغي للإنسان أن يتجنب معاشرة الأشرار ويترك مصاحبة الفجّار ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته، قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو فى الأخلاق خاصة، فليس أحد من الخلق إلا وفيه خُلق من أخلاق البهائم، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فإذا رأيت الرجل جاهلاً فى خلائقه غليظًا فى طبائعه قويًا فى بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم النمورة، والعرب تقول: أجهل من نمر وإذا رأيت الرجل هجامًا على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ويوذى من لا يؤذيه، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألست تذهب وتتركه، وإذا رأيت إنسانًا قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا، وإن قلت لا قال نعم، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيته بعد وإن أبعدته قرب، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته، وإن رأيت إنسانًا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد. وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب، وإذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان، وهى دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا. وإذا رأيت إنسانًا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا، فألحقه بعالم الخنافس، فإنه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها. وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر فى عطفيه، فألحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال، والعرب تقول أحقد من جمل، فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها: فقد قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتباذلين فىّ والمتزاورين فىّ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى». وقال ﷺ: «من عاد مريضًا أو زار أخًا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً». وقيل: «المحبة شجرة أصلها الزيارة».

قال الشاعر:

زُر من تحبّ وإن شطّت بك الدارُ ... وحال من دونه حجبٌ وأستار
لا يمنعنّك بُعدٌ من زيارته ... إن المحبّ لمن يهواه زَوّارُ

ولتكن الزيارة غبًا لقوله ﷺ: «زر غبًا تزدد حبًا».

قال الشاعر فى معنى ذلك:

عليك يا غباب الزيارة إنّها ... إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائمًا ... ويسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

ويقال: الإكثار من الزيارة ممل، والإقلال منها مخل، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة ... فما فضل قرب الدار منّا على البعد

وقال آخر:

وإن سرورى بالديار التى بها ... سُليمى ولم ألمم بها لجفاء

وقال آخر:

قد أتانا من آل سعدى رسولٌ ... حبّذا ما يقول لى وأقول

وقال آخر :

أزور بيوتًا لاصقاتٍ بيتها ... وقلبى فى البيت الذى لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين ووهب له مائتى ألف درهم، وأقطعه أرضًا فقال:

وخصصتنى بزيارة أضحى لنا ... مجد به طول الزمان مؤثل

وقضيت دينى وهو دين وافرٌ ... لم يقضه مع جوده المتوكّل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

نحن فى أفضل السرور ولكنْ ... ليس إلا بكم يتمّ السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودى ... أنكم غبتم ونحن حضور

فأجدّوا المسير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف: أى الرسل أنجح؟ قال: الذى له جمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً فى حاجة، فاتخذوه حسن لوجه حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيمًا عارفًا، فكن رسول نفسك، وقال بعضهم:

إذا أبطأ الرسول فقل نجاحٌ ... ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾ [الفاتحة: ١]. قال المفسرون «الرحمن» اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم، قلنا يا رسول الله كلنا رحيم. قال: ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين» رواه أبو يعلى والطبرانى. وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يغفر لا يُغفر له». وعنه ﷺ قال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم». وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، «قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى» رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل.

وروينا من طريق الطبرانى، عن الشعبى، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، قال الطبرانى: إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فسألته عن هذا الحديث، فقال النبى ﷺ، وأشار بيده: «صحيح صحيح صحيح ثلاثًا». وعن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، فوجده مستلقيًا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ. وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين».

الفصل الثانى: فى الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء: ٨٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن عمره، فيقول له جعلت لك جاهًا، فهل نصرت به مظلومًا أو قمعت به ظالمًا أو أغثت به مكروبًا»؟. وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له». وعن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لكى تؤجروا، ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، قيل: يا رسول الله، وما صدقة اللسان؟ قال: «الشفاعة تفك بها الأسير وتحقن بها الدماء، وتجر بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة». رواه الطبرانى فى المكارم. وقال على رضى الله عنه: الشفيع جناح الطالب. وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجبًا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه فى الشفاعات، فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك، فكلمه، وقال: اعف يا أمير

المؤمنين لا تثقل عليه فى الشفاعات، فقبل ذلك منه، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقص عليهم القصة، فأبوا إلا ان يأخذها، فقال: اقذفوها فى كمي، ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله؟ فقال له: يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب فى دولة الإسلام ولا العجم فى سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها فى عينى خصلة، قال: وما هى؟ قال: ليس لى فيها ضيعة، فتبسم، وقال: قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها، فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه، فجعل يردهن ويقول: ارجعن خائبات خاسرات، فضحك المنصور وقال: بحقى عليك ألا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع، فأعلمه، وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريمًا، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإنْ أحسابنا كرمت ... يومًا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وتصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها، قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد أتانى رجل لأشفع له فى حاجة، فأنشدنى لنفسه:

إنى قصدتك لا أدلى بمعرفة ... ولا بقربٍ ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروبًا يؤرقنى ... ذل الغريب ويغشينى الكرى كرمك
ما زلت أنكب حتى زلزلت قدمى ... فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ما علقت ... به يداك ولا انقادت له شيمك

قال: فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه، وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعى إليك الله لا شىء غيره ... وليس إلى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفًا، ذهب الرجل، فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه.

وقال آخر:

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعًا ... وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامتى ... عسى الهم عنى والمصائب ترفع

وقال آخر:

تشفع بالنبى فكل عبدٍ ... يُجاز إذا تشفع بالنبى

وقال آخر:

ولا تجزع إذا ضاقت أمور ... فكم لله من لطفٍ خفى

وروى أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقى الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا. اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والعشرون

فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الحياء

قالت عائشة رضى الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء. قال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه: «من لم يستح فهو كافر». قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: إنى لأدخل البيت المظلم اغتسل فيه من الجنابة فأحتنى فيه صلبى حياء من ربى، وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل، على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء، فارفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثانى: فى التواضع ولين الجانب وخفض الجناح

قال الله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]. وقال رسول الله ﷺ: أفضل العبادة التواضع». وقال ﷺ: «لا ترفعونى فوق قدرى، فتقولوا فىَّ ما قالت النصارى فى المسيح، فإن الله عز وجل اتخذنى عبداً قبل أن يتخذنى رسولا»، وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة، فقال ﷺ له: «هون عليك، فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»، وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم فى مهنة أهله، ولم يكن متكبراً ولا متجبراً، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعًا، وكان إذا حدث بشىء مما آتاه الله تعالى قال: ولا فخر. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا يزدكم الله». وقال عدى بن أرطأة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية، قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار». وقيل: التواضع سلم الشرف. ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين، فقيل له فى ذلك، فقال: إن أبى كان جباراً، فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره، وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: «هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس»؟ قال: لا يا رب. قال: «لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعًا لى». وقيل: من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس. وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاه إلا وضيع ولا فاخر إلا لقيط، وكل من تواضع لله رفعه الله. فسبحان من تواضع كل شىء لعز جبروت عظمته.

وصلى الله على سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه وسلم.

العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التآلف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، وقال رسول الله ﷺ: «من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه، فقال: جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أوما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة أكيدة أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه. وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فقرن الكبر بالفساد. وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا ما تحول ما به بي، يعني أتكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله، والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر، يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لتكبره ويقول: إنما ينادمني الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً. روى أنه قال لغلامه: اسقني ماء، فقال: نعم، فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه، فصفع ودعا أكاراً فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته، ويقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدي، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً، وقيل لرجل من بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة، فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي، وقيل للحجاج بن أرطأة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يزاحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال لمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس، فقال له: اردفني خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك، قال: فأعطني نعليك. قال: ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي. ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً، وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه، فأقعده معه على السرير وحدثه. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند، قال فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قول لأحمق يلوى التيه أخدعه ... لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ⁽١٨⁾﴾ [السجدة: ١٨]. نزلت فى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبى معيط، وكانا تفاخرا، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. نزلت فى أبى جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالفخر فى الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟».

وقال الأصمعى: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حى يا قيوم لم تنم
أدعوك ربى حزينًا هائمًا قلقًا ... فارحم بكائى بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول:

ألا أيها المقصود فى كل حاجتى ... شكوت إليك الضر فارحم شكايتى
ألا يا رجائى أنت تكشف كربتى ... فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما فى الورى عبد جنى كجنايتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى ثم أين مخافتى

ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه فى حجرى وبكيت، فقطرت دمعة من دموعى على خده ففتح عينيه وقال: من هذا الذى يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمعى، سيدى ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الوسالة؟أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ⁽٣٣⁾﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فقال: هيهات هيهات يا أصمعى إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًا قرشيًا، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ⁽١٠١⁾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⁽١٠٢⁾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ⁽١٠٣⁾﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومجته العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجبلة لا تعلمًا، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم، وكان كعب بن زهير[1] إذا أنشد شعرًا قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان، فيقال له: أتحلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأنى أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أى علم بين جنبى وأى لسان بين فكى. وقال الجاحظ، ولو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب، ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتيمة تنزيهًا لها عن المثل، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

(١) كعب بن زهير: هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المازنى، أبو المضرَّب، شاعر عالى الطبقة، من أهل نجد له (ديوان شعر) كان ممن اشتهر فى الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبى ﷺ وأقام يشبب بنساء المسلمين فهدر النبى ﷺ دمه، فجاءه كعب مستأمنًا وقد أسلم فعفا عنه، توفى سنة (٢٦ هـ - ٦٤٥م).

وسنذكر فى هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئًا من نظم البلغاء ونثرهم فى الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلى: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفى يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرنى بإحضاره، فدعوته، وسألته عن نسبة وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدنى شعرًا فأنشده شعر لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صدرت ... إن الأمور لها ورد وإصدار

فقال: ويحك ماكان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بنى تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكنى أحق ببيته منه ومن شعر أبى الطحان:

وإنى من القوم الذين هم هم ... إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب ... بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال فيهم حيث كان مسودًا ... تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن على رضى الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًا من المجرمين، فأنا ابن على وأنت ابن صخر وأمك هند وأمى فاطمة وجدتك قيلة وجدتى خديجة، فلعن الله ألأمنا حسبًا وأخملنا ذكرًا وأعظمنا كفرًا وأشدنا نفاقًا، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله. وروى أن معاوية خرج حاجًا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن على رضى الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن على فقال له معاوية مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا، فقال له الحسن: ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجىء إليك، فقال معاوية، إنى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة. ودخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فخجل يزيد ولم يرد جوابًا. وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ... بمط خدود وامتداد أصابع

فلما تنازعنا الفخار قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع

ترانا سكوتًا والشهيد بفضلنا ... عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضا:

إنى وقومى من أنساب قومهم ... كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف

ما علق السيف منا بابن عاشرة ... إلا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلى بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على: ما أدرى ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩].

وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم فى النار، والذى انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة. قال سلمان الفارسى:

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محيى الموتى، فأنكر سليمان قوله، فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وجدى فدى الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقيه. وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إن القبائل من قريش كلها ... ليرون أنا هام أهل الأبطح
وترى لنا فضلاً على ساداتها ... فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المروانى من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت ... له الأرض واهتزت إليه المنابر

وكتب كتابًا يهجوه فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام. وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندى، وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر وآخرًا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبًاوليس من شىء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمى رضى بقولك، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحدًا، قال: أخطأ المقتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فلله المنة به علينا وعليهم، فمنا النبى المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور، وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولى وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه، ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة، قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن الله

تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والميدن بالميدن. وقال تعالى: ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يقل فأكله الكنع، ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم. قال: لكم قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد أو ناسخ برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقر لخالد وجباهما جميعًا.

وقال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلة ... ذرا منبر صلى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنَّا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
سرى أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا يزال طويل
وإنا أناس لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل
ونحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول بما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق ... ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا ... لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها ... فتغمد حتى يستباح قتيل
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

فإنا بنى الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الملوك فلا حى يفاخرنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع
ونحن نطعمهم فى القحط ما أكلوا من العبيط إذا لم يؤنس الفزع
وننحر الكوم عبطًا فى أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعة إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سننًا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لو كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنون عن جار بفضلهم ولا يمسهم فى مطمع طمع
خذ منهم ما أتوا عفوًا إذا عطفوا ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا، وقال شاعر من بنى تميم:

أيبغى آل شدادٍ علينا وما يرعى لشدادٍ فصيل
فإن تغمد مناصلنا نجدها غلاظًا فى أنامل من يصول

وقال سالم بن أبى وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التخلق يأتى دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترمينى به الحدق
فما زلقت ولا أبديت فاحشة إذا الرجال على أمثالها زلقوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل قال: «يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى»، لأنهما كانا من خيار الصحابةوأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ، ومن كلام على رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه: أما قولك إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب. وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة: سابق ولا حق وماحق، فالسابق الذى سبق بفضله، واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه، والماحق الذى محق شرف آبائه. وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع وربتهما، قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين، وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

علىٌّ وعبد الله بينهما أب ... وشتان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى ... عليًّا ويلحاه علىٌّ على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلى بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبى ربيعة، فغازلها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه فقال:

وإنى لينهانى عن الجهل والخنا ... وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وأننى ... كريم ومثلى من يضر وينفع
فشتان ما بينى وبينك إننى ... على كل حال أستقيم وتضلع

وقال ربيعة الرقى:

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأعز بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى ... فتى الأزد للأموال غير مسالم
فهمُّ الفتى الأزدى إتلاف ماله ... وهمّ الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب القيسى أنى هجوته ... ولكننى فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظمونى ... ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعًا ... وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم خيرٍ ... فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «من رزقه الله مالًا فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد». وقيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: لم أخاصم أحدًا إلا تركت للصلح موضعًا. وقال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً لأنى لم أشاتم إلا أحد رجلين إما كريم، فأنا أحق أن أجله، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه. وقالوا: من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالاً، والسمع مقالاً. وقيل: قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بم سدت قومك، وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا أصبحهم وجهًا، ولا أحسنهم خلقًا؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركى من أمرك ما لا يعنينى، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك، وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادى، وعلى الأعداء كالليث العادى.٠وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسؤدده أنه قدم من سفر، فجمعه والشماخ بن ضرار المزنى الطريق، فتحدثا، فقال له عرابة: ما الذى أقدمك المدينة يا شماخ؟ قال: قدمتها لأمتار منها، فملأ له عرابة رواحله برًا وتمرًا وأتحفه بتحف غير ذلك، فأنشد يقول:

رأيت عرابة الأوسى يسمو	إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت بمجد	تلقاها عرابة باليمين

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة

فممن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة، قيل: إنه دخل يومًا على المنصور، وقعد فى مجلسه، فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى، فقال المنصور: يا عمارة قم، فاقعد مع خصمك، فقال: ما هو لى بخصم إن كانت الضيعة له، فلست أنازعه فيها، وإن كانت لى فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفنى به أمير المؤمنين ورفعنى، وأقعد فى أدنى منه لأجل ضيعة. وتحدث السفاح هو وأم سلمة يومًا فى نزاهة نفس عمارة وكبره، فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتى هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس، فوجه إليه فحضر، فحادثته ساعة، ثم رمت إليه بالسبحة، وقالت: هى من الطرف وهى لك، فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبعثت بها إليه مع خادم فقال للخادم: هى لك، فرجع الخادم فقال: قد وهبها لى، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه. وأهدى عبيد الله بن السرى[1] إلى عبد الله بن طاهر[2] لما ولى مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهارًا وما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون.

---

(١) عبيد الله بن السَّرى: هو عبيد الله بن السَّرىّ بن الحكم، أمير مصر، وابن أميرها، بايع له الجند وأقره المأمون العباسى، وأقبل عبد الله بن طاهر مارًا بالشام حتى بلغ مصر موغلاً من قبل المأمون فدافعه عبيد الله مدة، وجاءه أمان المأمون على الصلح بينه وبين ابن طاهر، فلما التقيا خلع عليه ابن طاهر وأمره أن يخرج للمأمون، فخرج وأقام بالعراق إلى أن توفى سنة (٢٥١ هـ - ٨٦٥م).

(٢) عبد الله بن طاهر: هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن زريق الخزاعى، بالولاء، أبو العباس، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة فى العصر العباسى، أصله من باذغيس بخراسان، ولى إمارة الشام مدة، ونقل إلى مصر ثم إلى الدينور، ثم إلى خراسان، ثم كانت له طبرسان وكرمان والرىّ والسواد، وكان أكثر الناس بذلاً للمال، مع علم وتجربة قال ابن خلكان: كان عبد الله سيدًا نبيلاً عالى الهمة شهمًا، توفى فى مرو سنة (٢٣٠هـ - ٨٤٤م).

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت، فنادت وامحمداه وامعتصماه، فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال: لبيك أيتها المنادية. وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، قيل له في مرضه: إن المريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به إلى الطبيب، فقال: أما الأنين، فهو جزع وعار، والله لا يسمع الله مني أنينًا، فأكون عنده جزوعًا، وأما وصف ما بي إلى الطبيب، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أمسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله، ولم يخبر أحدًا بحاجته. ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار، وحمي الذمار. وكانت العرب ترى ذلك دينًا تدعو إليه وحقًا واجبًا تحافظ عليه، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جارًا واخترت داري دارًا، فجناية يدك على دونك وإن جنت عليك يد، فاحتكم حكم الصبي على أهله. وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها، فعاذت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسمًا ولا نسبًا ولكن قال:

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

وقال ابن نباتة:

ولو يكون سواد الشعر في ذمم ما كان للشيب سلطان على القمم

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه، فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله، وهرب هو والسجان، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه، وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيًا، فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك. فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديمًا وحديثًا، ولم أجر عدوًا لأمير المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعةآلاف ألف درهم ظلمًا، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إليّ واستجار بي، فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين، أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم، فكتب إليه الوليد: إنه لابد أن ترسل إليّ يزيد مغلولاً مقيدًا، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعًا بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب ابن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانيًا واجعلني إذا شئت ثالثًا والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حدادًا وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد

ابن المهلب بعشرين ألف درهم، وردهما إلى سليمان، وكتب كتابًا إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم. فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم، فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له: يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله، فقال معن للرجل ما لك وما له فقال: إن أمير المؤمنين طالبه قال: خل سبيله، قال: لا أفعل، فأمر معن غلمانه فأخذوه غصبًا وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له: يا معن أتجير على، قال: نعم يا أمير المؤمنين قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتى أفماترونى أهلاً أن تجيروا إلى رجلاً واحدًا استجار بى، فاستحيا المهدى وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد، قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل مَنْ استجار بى فيكون قد أجاره وحباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وأن ذنب الرجل عظيم فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل، قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم،فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له: لا تتعرض لساخط الخلفاء، وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه: يا أبت إنى لأستحى أن أطعم طعامًا وجيرانى لا يقدرون على مثله، فكان أبوه يقول: إنى لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب. وسقط الجراد قريبًا من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا: نريد جارك. فقال: أما إذ جعلتموه جارى فوالله لا تصلون إليه، وأجاره حتى طار فسمى مجير الجراد، وقيل: هو أبو حنبل والحكايات فى معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة

وذكر الأولياء الصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وإنى والله أحبهم وأحب من يحبهم، وأسأل الله أن يميتنى على محبة النبى محمد ﷺ ومحبتهم وأن يحشرنا فى زمرتهم وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير. شعر:

إنى أحب أبا حفص وشيعته ... كما أحب عتيقًا صاحب الغار
وقد رضيت عليًا قدوة علمًا ... وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة ساداتى ومعتقدى ... فهل على بهذا القول من عار

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا»؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا»؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا»؟ فقال أبو بكر: «أنا» فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن فى أحد إلا دخل الجنة». وقال ﷺ: «لو كان بعدى نبى لكان عمر»، وقال له النبى ﷺ: «والذى بعثنى بالحق بشيرًا ما سلكت واديًا إلا سلك الشيطان واديًا غيره»، ولما أسلم رضى الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: «بلى»، قال: والذى بعثك بالحق نبيًا لا نعبد الله سرًا بعد هذا اليوم. ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيمًا لهم وقال: انظر إلى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة اعطوه ما شاء. وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى الله عنه. وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها: أخبرينى من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، قالت: فاطمة، قلت: إنما أسألك عن الرجال، قالت: زوجها، فوالله لقد كان صوامًا قوامًا. ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ فى يده فردها إلى فيه، قلت: فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قضى على، وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى: صف لى عليًا فاستعفى فألح عليه فقال: أما إذن فلابد أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ الخائف ويبكى بكاء الحزين، فكأنى الآن أسمعه يقول: يا دنيا إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى لقد أبنتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق، قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء، وقال رحم الله أبا الحسن: كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزنى عليه والله حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج. وقيل: أول من سل سيفًا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح، فقال: قتل محمد، فخرج متجردًا وسيفه معه صلتًا فتلقاه رسول الله ﷺ فقال: «ما لك يا زبير»؟ قال: سمعت أنك قتلت، قال: «فماذا أردت أن تصنع». قال: أردت والله أن أستعرض على

أهل مكة. وروى أخبط بسيفى من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستتر به وقال له: «أنت حواريى ودعا له».

قال الأوزاعى: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها، وباع داراً له بستمائة ألف درهم فقيل له: يا أبا عبد الله غبنت، قال: كلا والله لم أغبن أشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى، وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: مَنْ حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة، قال: «طلحة»، قال: أقرئه السلام واعلمه أنى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها إلا استنقذته منه. من هذا الذى عن يمينك؟ قال: «المقداد بن الأسود[1]»، قال: إن الله يحبه ويامرك أن تحبه. من هذا الذى بين يديك يتقى عنك؟ قال: «عمار بن ياسر»، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومر أبو ذر على النبى ﷺ ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى فلم يسلم، فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: «أتعرفه يا جبريل»؟ قال: والذى بعثك بالحق نبيًا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الأرض، قال: «بم نال هذه المنزلة»؟ قال: بزهده فى هذه الحطام الفانية. وقال ابن عمر رضى الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال أبو بكر السفاح لأبى بكر الهذلى: بم بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهوابن اثنتى عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهمًا قط فى تجارة ولم يل عملاً لسلطان ولم يأمر بشىء حتى يفعله ولم ينه عن شئ حتى يدعه، قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال: فلان أزهدالناس إلا الحسن وأفقه الناس إلا الحسن وأفصح الناس إلا الحسن وأخطب الناس إلا الحسن، وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها، فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب. وقال أنس فى ثابت البنانى: إن للخير مفاتيح وإن ثابتًا من مفاتيح الخير. وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفًا، كان يخرج من البدرة فيقول: يا رب اشتريت نفسى منك بهذه ثم يتصدق بها. وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم، ذكر عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقامًا عند منبر النبى ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدى. وقال سفيان الثورى: جهدت جهدى على أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسًا وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئًا، وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئًا، وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم.

وعن محمد بن الحسن قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع.

وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عبادان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفًا وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤى واضعًا جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح وهو أسود مفلفل الشعر، يفتى الناس فى الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان من لبن.

ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم اجمعين سيدى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى أستاذ إبراهيم بن شيبان، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيئًا تعود أكله.

---

(١) المقداد بن عمرو: هو المقداد بن عمرو، يعرف بابن الأسود، الكندى البهرانى الحضرمى، أبو معبد، أو أبو عمرو، وصحابى من الابطال، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس فى سبيل الله، كان من ساكنى حضرموت، شهد بدراً وغيرها، وسكن المدينة، توفى بقربها، ودفن فيها رحم الله سنة (٣٣هـ - ٦٥٣م).

ومنهم سيدى فتح بن شخرف بن داود يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين، لم يأكل الخبز ثلاثين سنة، قال أحمد ابن عبد الجبار: سمعت أبي يقول: صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء، ثم رفعها يومًا فقال: طال شوقى إليك فعجل قدومى عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت إنسانًا يقول غسلنا فتح بن شخرف فرأينا مكتوب على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوبًا وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثًا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفًا إلى ثلاثين ألفًا.

ومنهم سيدى فتح بن سعيد الموصلي يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلى: رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائمًا فقال عشونى فقالوا: ما عندنا شيء نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس فى الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به، فجعل يبكى من الفرح ويقول إلهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج بأى يد كانت منى، فما زال يبكى إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلامًا لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام، فقلت إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربى عز وجل فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربى، فقلت: إنه لم يجر عليك قلم التكليف؟ قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنًا منى، فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة، فقال: إنما على نقل الخطا وعليه البلاغ، فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادى يقينى وراحلتى رجلاى، فقلت: أسألك عن الخبز والماء، قال: يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا، فقال: إن سيدى دعا عباده إلى بيته وأذن لهم فى زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وإنى استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه، أفتراه يضيعنى؟ فقلت: حاشا وكلا ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة فلما رآنى قال: أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذالرازى وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم، أبو عثمان الحيرى بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء والعز والذل، وقال: منذأربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى شيء فسخطته.

ومنهم سيدى سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس، قيل: اجتمع حذيفة المرعشى وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت، فقال بعضهم: الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا، وقال بعضهم: الغنى من لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت فى ذلك، فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى فى التوكل ورأيت جوامع الفقر فى القنوط، والغنى حق الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقينًا ومن معرفته توكلاً، ومن قسمته رضا فذلك الغنى حق الغنى وإن أمسى طاويا وأصبح معوزًا فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدى أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى أحد رجال الطريقة قدس الله سره، كان من أجل السادات وأرباب الجد فى المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن فى نهاره كفى فى ليله ومن أحسن فى ليله كفى فى نهاره، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له، وقال: لكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، وقال: لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبى الحوارى شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحسست به فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك، وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتنى بسريرتى طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك.

وقال على بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأى شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب وصيانة الكرامات. وروى عنه قال: نمت ليلة عن وردى فإذا حوراء تقول لى: أو تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفى الأصل ولكنه سكن أنطاكية. ومن كلامه: لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة.

ومنهم سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهانى الأصل كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد، وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلثًا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقًا ويتصدق بالباقى، ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة فى مسجده خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول فى الجبل: يا رب إما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق علىّ فإنى لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحد وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه، وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه، وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بئس الصديق صديقًا يحتاج إلى أن يقال له: اذكرنى فى دعائك، وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق، وقال: من كان غناه فى كيسه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنيًا، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محرومًا.

وروى أنه قدم شيرازاً فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار، فأتته امرأة من نسائها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال: ثلاثون ألفًا أصرفها فى دين على بخراسان، فقالت: لك على ذلك أن تأخذها وتخرج من ساعتك، فرضى بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد، فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك.

ومنهم سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى إسقاط التصنع، عالمًا أديبًا صحب ذا النون المصرى وأبا تراب التخشى. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فإن قبل فاعلم أنه أحمق. وقال: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء، وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب إلىّ من أن ألقاه بذرة من التصنع، وقال أبو الحسن الدراج: قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول أى شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالسًا فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، فقال: أتحسن من قولهم شيئًا؟ قلت: نعم، وأنشدته:

رأيتك تبنى دائمًا فى قطيعتى ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلىّ وقال: يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عينى قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدى حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخى، ومن كلامه: الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة، وقال: من ادعى ثلاثًا بغير ثلاث فهو كذاب، من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبى ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل؟ قال: على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا أستحى منه.

وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة، فقال حاتم: ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصرى وأبا على الروذبارى وكان أوحد مشايخ وقته، من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها، وأنشدوا فى هذا المعنى:

إذا ما أسرت أنفس الناس ذكره ... تبينه فيهم ولم يتكلما
تطيب به أنفاسهم فتذيعها ... وهل سر مسكٍ أودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضًا: إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس. وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم، وقال: إذا سكن الخوف فى القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدى جعفر بن نصر الخلدى يكنى بأبى محمد، بغدادى المنشأ والمولد، صحب الجنيد وانتمى إليه وحج قريبًا من ستين حجة، روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاءً بحرقة، فقال لها: ما لك تبكين؟ فقالت: ثكلى بولدى، فأنشأ يقول:

يقولون ثكلى ومن لم يذق ... فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق ... شرابًا أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يومًا فى الدجلة، وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت، فدعا به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتفحصها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع علىّ ضالتى. وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثًا، وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال: ودعت فى بعض حجاتى زين الكبير الصوفى، فقلت: زودنى شيئًا فقال: إن فقدت شيئًا أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك أو بينك وبين إنسان، فقل: يا جامع الناس لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا، فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدى معروف بن فيروز الكرخى. قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرى، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى، فكان المؤدب يقول له: قل هو ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضربًا وجيعًا، فهرب منه، فكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أى دين شاء، فنوافقه عليه، فرجع إلى أبويه، فدق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أى دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، ومن كلامه رضى الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل، وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكى وتندب أخلص تخلص، وقال سرى: سألت معروفًا عن الطائعين لله بأى شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل؟ قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة، ومن إنشاداته:

الماء يغسل ما بالثوب من درنٍ ... وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يومًا على الدجلة ببغداد، فمر بنا صبيان فى زورق يضربون بالملاهى ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة، فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم

نقل لك ادع لهم، فقال: إذافرحـهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا ولم يضركم ذلك. وقال سـرى: رأيت معروفًا فى المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هـذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب، قال: هذا معروف الكرخى سكر بحبى لا يفيق إلا بلقائى، وقيل له فى مرضه: أوص، فقال: إذا مت فـتصدقوا بقميصى هذا، فإنى أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلتها عريانًا، وقال أبـو بكر الخياط: رأيت فى المنام كأنى دخلت المقابر، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخى بينهم يذهب ويجىء، فقلت يا أبا محفوظ: ما فعل الله بك؟ أو ليس قد مت؟ قال: بلى. ثم أنشد يقول:

مـــوت التـــقى حـــيـــاة لا نفـــاذ لهـــا قـــد مـــات قـــوم وهم فـى الناس أحـــيـــاء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخى يكنى أبا عبد الملك من أجـلاء المشايخ صحب أبا سليمان الدارانى وغيره، وكان من أقران السرى والحارث المحاسبى، وكـان أبو تراب النخشبى يصحبه، ومن كلامه: من أصلح فيـما بقى من عمره غفر له ما مضـى وما بقى، ومن أفسد فـيما بقى من عمـره أخذ بما مضى وما بقى. وقـال: السلامة كلها فى اعـتزال الناس، والفرح كله فى الخـلوة بالله عز وجل، وسئل عن التـوبة، فقـال: التوبة رد المظالم وترك المعـاصى وطلب الحلال وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصـيكم بخمس: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم فـلا تفرحوا، وإن ذممتم فلا تحزنوا، وإن كذّبتم فلا تغضبوا، وإن خـانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرج: سمعت قاسم بن عـثمان يقول: إن لله عبادًا قصدوا الله بهـممهم فأفردوه بـطاعتهم واكتفـوا به فى توكلهم، ورضوا به عوضًا عن كل مـا خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرة عين إلا فيما قرب إليه، وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشىء أفضل من المعرفة.

وروى عنه أنه قال: رأيت فى الطـواف حول البيت رجلاً فـتقربت منه، فـإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قـضيت حاجة المحتـاجين وحاجتى لم تقض، فقلت له: ما لك لا تزيـد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك، كنا سبعـة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتـضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء، فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سـبع جوار من الحور العين فى كل باب جارية، فقـدم رجل منا فضربت عنقه، فرأيـت جارية فى يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الـستة وبقيت أنا، وبقى باب وجارية، فلما قدمت لتضـرب عنقى استوهبنى بعض خواص الملك، فوهبنى له، فسمعتها تقول: بأى شىء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب، فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى. قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدى أبو بكر دلف بن جـحدر الشبلى، كان جليل القدر مالكى المذهب، عظيم الـشأن. صحب الجنيد[1]، ومن فى عصره، وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر،وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد فى الطاعات، ويقول: هذا شهر عظمه ربى، فأنا أولى بـتعظيمه. وسئل عن قول النبى ﷺ: «خير عمل المرء كـسب يمينه»، فقال: إذا كان الليل، فخـذ ماء وتهيأ لـلصلاة، وصل ما شئت، ومـد يديك، وسل الله عز وجل، فذلك كـسب يمينك، ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشيًا عليه، فلما أفاق أنشد يقول:

هـذه دارهـم وأنت مـحـب مـا بقـاء الدمـوع فى الآمـاق

وروى أنه قال: كنت يومًا جالسًا، فجرى فى خاطرى أنى بخيل، فقلت: مهما فتح الله على به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقانى، قال: فبينما أنا متفكر إذ دخل علىّ شخص ومعه خمسون دينارًا، فقال: اجعل هذه فى مصالحك، فأخذتها وخرجت، وإذا أنا بفقير مكفـوف بين يدى مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقـال لى: ادفعها للمزين،

---

(١) الجنيد: هو محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز، أبو القاسم: صوفى من العلماء بالدين، مولده ونشأته ووفاته ببغداد أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريرى نسبة إلى عمل القوارير، ثم عرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز، وهو شيخ فى مذهب التصوف، توفى سنة (٢٩٧هـ - ٩١٠م).

فقلت له: إنها دنانير، فقال: إنك لبخيل، قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً، قال: فرميتها فى الدجلة، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان.

حكى عن يوسف بن الحسين الرازى قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر، فسلمت عليه وجلست من ورائه، فالتفت إلىَّ وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك، فقال: قل. فقلت سمعته يقول:

قد بقينا مذبذبين حيارى ... نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكنى أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى ... حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانًا ... وإليه فى كل أمرٍ نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى. فقال: رحم الله ذا النون المصرى، رجع إلى نفسه، فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه، فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى، وأظن أنه أخوة مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنهم سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد كان من أقران ذى النون المصرى، ومن أقران أستاذى أحمد بن أبى الحوارى، له كلام حسن فى المعرفة وغيرها، روى عنه أنه قال: أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير إلى بعض إخوانى، فسمعت قائلاً يقول لى فى النوم: أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد، فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم سيدى بشر بن الحرث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة، أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سرى السقطى وغيره، ومن كلامه لا تكن كاملاً حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك؟ وقال: أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب، وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل، فقال: هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقى رجلاً سكران، فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدى يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قدنجا والمحبوب لا يدرى ما حاله، وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله، فقالت: إنى امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار، فهل على ذلك شىء؟ فقال: يجب أن تبينى، فلما انصرفت قال أحمد لابنه: اذهب، فانظر أين تدخل، فرجع، فقال: دخلت دار بشر، فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك إلى الطبيب قال: أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد، فألحوا عليه، فقال لأخته: ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا إليه القارورة فقال: حركوا الماء، فحركوه، فقال: ضعوه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: وبماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب، قال: هو كما وصفت لكم، أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى، فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وإن كان ماء مسلم، فماء بشر الحافى لأن ما فى زمانه أخوف منه، قالوا: هو ماء بشر، فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. قالوا له: ومن أعلمك بهذا؟ قال: لما خرجتم من عندى نوديت يا بشر ببركة مائك

أسلم الطبيب. توفى سنة سبع وعشرين ومائتين.

ومنهم سيدى أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامى من أجل المشايخ كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسى وهى تبكى إلى أن سقتها وهى تضحك. وسئل: بأى شىء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار، وقيل له: ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفة، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم دعوتها إلى شىء من الطاعات، فلم تجبنى، فمنعتها الماء سنة، وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبنى، فقيل له: لِمَ؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك: يا عبدى، فأقول: لبيك، فقوله لى: عبدى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء، وقال له رجل: دلنى على عمل أتقرب به إلى ربى، فقال: أحب أولياء الله ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك فى قلب ولىّ، فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. توفى سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته وفريد عصره، أصله من نهاوند ومولده ومنشأه ببغداد صحب جماعة من المشايخ، وصحب خاله السرى، والحارث المحاسبى ودرس الفقه على أبى ثور، وكان يفتى فى مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضى الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه، وقال: الأدب أدبان: أدب السر وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤى فى يده يومًا سبحة، فقيل له: أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدًا. وقال الحسن بن محمد السراج: سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس فى منامى، وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحى من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر: فقلت ومن هم؟ قال: فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى وانحلوا جسمى كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكاد أن أحرق، قال الجنيد: فانتبهت من نومى، ولبست ثيابى وجئت إلى مسجد الشونيزى بليل، فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شىء تقبل. قيل: إن الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى أبو حمزة، وأبو الحسن الثورى، وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم، وقال محمد بن قاسم الفارسى: بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى ويقول:

بحرمة غربتى كم ذا الصدود ... ألا تحنوا علىَّ ألا تجودوا

سرور السيد قد عم النواحى ... وحزنى فى ازدياد لا يبيد

فإن كنت اقترفت خلال سوء ... فعذرى فى الهوى أن لا أعود

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفًا رضوان الله عليهم أجمعين. وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات علىَّ ببركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطرينى المالكى قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحد زمانه فى الزهد والورع قامعًا لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة. قد أطاع أمره الخلائق عجمًا وعربًا، وانتشر ذكره فى البلاد شرقًا وغربًا وأتت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظًا على النوافل ملازمًا للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورًا عديدة، وكان رضى الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحًا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل ببشره وبره عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه، كما قال بعضهم:

وإنـــى لألـــــقــــى المــرء أعــــلـــم أنــــه عــــدوى وفى أحــشـــاله الضــــغن كـــامن
فـــأمنـحــــه بشـــرى فـــيــرجع قـلبـــه سليـــمًـــا وقـــد مـــاتت لـديه الضــغـــائن

وكانت جملة أهل زمانه عليه وأحوالهم فى كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيرًا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

ومـــا حـــملونى الـضـــيم إلا حـــملتـــه لأنـــى مـــــحـب والمحب حـــــمـــــول

وكان رضى الله عنه كثير المصافـاة عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبتـه رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكأنها من طيبها كانت سنة، ما قطع بره يومًا واحدًا عنى حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص منى، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة. بيض الله وجهه فى القيامة، وبلغه من فضل ربه مآربه، وكان رضى الله عنه فقيهًا فى مذهب الإمام مالك، إمام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظيـر، وله فى علم الحقيقة أقوال، وكم رأينا له من مكاشفات وأحـوال ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام، ولكنى أقول: كان أوحد عصره والسلام.

عاش رضى الله عنه نيفًا وسـتين سنة، وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضيـة، وأحوال حسنة، وكان رضى الله عنه كثير الأمراض والأسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه فى العشر الأول من ذى الحجة الحـرام، فلما كانت ليلة الحادى عشـراشتد به الأمر واحتـضر، ولم يزل فى النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفى رحـمه الله تعالى سعيـدًا حميدًا فى ليلة الجـمعة حادى عشـر ذى الحجة الحرام سنة سـبع وعشرين وثمـانمائة، ولما أخبـر الناس بوفـاته عظم مـصابه على المسـلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف فى أقطار البلدان حـتى طوائف المخالفين للملة من النصـارى وغيرهم، وصاروا يبكون ويتوجـعون ويتأسفون على فراقـه، وكيف لا، وهو إمام العصر، علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حـلف الـزمــــــان ليــــــأتين بمثلـه حـنـثـت يـمـينـك يـا زمـــــان فـكفّـــــر

رضى الله عنه ورضى عنا به، ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة، فشرعوا فى تجهيزه وغسله، فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهنى معى فى تلك السـاعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده، كيف لا، وقد كان والدًا شفوقًا وبارًا محسنًا عشوقًا، فلما انتهى غسله رضى الله عنه جـاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعـته، وضاقت بهم الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس، فلم ير أكثر جمعًا ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز. يريد بذلك اجـتماع الناس، والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم وتقـدم للصلاة شيخـه العارف بالله تعالى سيـدى سليمان الدواخلى نفعنـا الله ببركته، ودفن يوم الجـمعة بزاويته التى أنشـأها بسندفامع والده الشيخ الإمام الـعالم العلامة مـفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عـمر الطرينى المالكى فى قبر واحد. نفعنا الله ببركته، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وحشرنا وإياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين، وأفضل المسلمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ونسأله لنا التوفيق والإعانة، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمـس الدين محمد الطرينى أدام الله أيامه للمسلمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لاتنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبيّنا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار[1] رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مراراً، فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا و عطاء السلمى، وثابت البنانى، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السختيانى، وحبيب الفارسى، وحسان بن ثابت بن أبى سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزنى، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب، ثم استسقينا، فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ما عليه بدرهمين، فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ومولاى إلى كم ترد عبادك فيما لاينفعك، أنفد ما عندك أم نقص ما فى خزائنك، أقسمت عليك بحبك لى إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحى مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت قولك: بحبك لى وما يدريك أنه يحبك؟ قال: تنح عنى يا من اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بدأنى بذلك إلا لمحبته إياى؟ ثم قال: محبته لى على قدره، ومحبتى له على قدرى، فقلت له: يرحمك الله ارفق قليلاً، فقال: إنى مملوك وعلىّ فرض من طاعة مالكى الصغير، قال: فانصرف وجعلنا نقفوا أثره على البعد حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس، فقلت: يرحمك الله، أعندك غلام تبيعه منا للخدمة؟ قال: نعم عندى مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً، فلم ألق حبيبى فيهم، فقال: عودا إلىّ فى غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره، وإذا بالأسود قائم يصلى، فقلت: حبيبى ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس، فقلت له: بعنى هذا الغلام، فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة فى الليل إلا البكاء، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة، فقلت له: لابد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه، فدعاه، فجاء وهو يتناعس، فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها، فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال: ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل، فالتفت إلىّ وقال: يا مولاى الصغير لماذا اشتريتنى وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت: له: والله يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى، قال: ولمَ ذلك؟ فقلت: ألست صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى، وقد اطلعت على ذلك، قلت: نعم، وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد، فاستأذننى ودخل المسجد، فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهى وسيدى ومولاى، سر كان بينى وبينك أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشى. أقسمت عليك بك إلا ما قبضتنى إليك الساعة، ثم سجد، فانتظرته ساعة، فلم يرفع رأسه، فجئت إليه وحركته، فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه، قال: فمددت يديه ورجليه، فإذا هو ضاحك مستبشر، وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه. قال مالك بن دينار: فبقبره نستسقى إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكى عن حذيفة المرعشى رضى الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا فى طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خرب، فنظر إلىّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع، فقلت هو كما ترى، فقال: علىّ بدواة وقرطاس، فأحضرتهما إليه،

(١) مالك بن دينار: هو مالك بن دينار البصرى، أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعًا يأكل من كسب يده، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفى سنة (١٣١هـ - ٧٤٨م).

فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ ... أنا جائع أنا ضائعٌ أنا عارى
هى ستةٌ وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمينَ لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهبُ نارٍ خضتها ... فأجِرْ عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة: ثم دفع إلىَّ الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك، قال: فخرجت، فأول من لقينى رجل على بغلة، فناولته الرقعة، فأخذها فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو فى المسجد الفلانى، فدفع إلىَّ صرة فيها ستمائة درهم، فأخذتها ومضيت، فوجدت رجلاً، فسألته من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصرانى، قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: لاتمس الدراهم، فإن صاحبها يأتى الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصرانى راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد، ودخل، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال الحمد لله الذى هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وحكى أن بعضهم كان ملاحاً ببحر النيل المبارك بمصر، قال: كنت أعدى من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى، ومن الشرقى إلى الجانب الغربى، فبينما أنا ذات يوم فى الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة، فقال: السلام عليكم، فرددت عليه السلام، فقال: أتحملنى إلى الجانب الغربى لله تعالى، فقلت: نعم، فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربى، وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إنى أريد أن أحملك أمانة، قلت: وما هى؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتاً وستنسى، فإذا ألهمت، فأتنى وغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى، وصلِّ علىَّ وادفنى تحت الشجرة، وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك، فادفعها إليه، ولاتحتقره، قال الملاح: ثم ذهب وتركنى، فتعجبت من قوله، وبت تلك الليلة، فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى، فلما جاء وقت الظهر ونسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر، فسرت بسرعة، فوجدته تحت الشجرة ميتاً ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك، فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه، ودفنته تحت الشجرة، كما عهد إلىَّ ثم عدت إلى الجانب الشرقى، وقد دخل الليل، فنمت، فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل علىَّ، فحققت النظر فى وجهه، فإذا هو من صبيان الملاهى كان يخدمهم، فأقبل وعليه ثياب رقاق، وهو مخضوب الكفين وطاره تحت إبطه، فسلم علىَّ، فرددت عليه السلام، فقال: يا ملاح أنت فلان بن فلان. قلت: نعم. قال: هات الوديعة التى عندك. قلت: من أين لك هذا؟ قال: لاتسأل، فقلت لابد أن تخبرنى، فقال: لا أدرى. إلا أن البارحة كنت فى عرس فلان التاجر، فسهرنا نرقص ونغنى إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فنمت لأستريح، وإذا برجل قد أيقظنى وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولى وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق، فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت، قال: فدفعتها له، فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها فى الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار، وتركنى أتحرق وأبكى لما حرمت من ذلك، وأقمت يومى ذلك أبكى إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله فى النوم، فقال: ياعبدى أثقل عليك أن مننت على عبد عاص بالرجوع إلىَّ، إنما ذلك فضلى أوتيه من أشاء من عبادى، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكى قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا فى البادية تائه، وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت، ومن أين

أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت فى عزة ورفعة، فطالبتنى نفسى بالغربة والعزلة، فخرجت، وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لى وليًا من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو، فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لى والدة وأخوة وأخوات، فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا. إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم، فهممت أريدهم فاحتوشتنى السباع والهوام وبكين معى، وحملوا إلىَّ هذه الرياحين التى تراها، قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرق له قلبى وإذا بحية عظيمة فى فمها باقة نرجس كبيرة، فقالت: دع ولى الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه، قال: فغشى عليه، وغشى علىَّ، فما افقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله، قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتنى امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتنى نادت: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الذى مات غريباً، فإنى منتظرتك منذ كذا؟ فذكرت لها القصة إلى أن قلت أشم ريحهم، فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج إليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط، فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع. شعر:

يا نسيماً هبَّ من وادى قبا ... خبرينى كيف حال الغربا

كم سألت الدهر أن يجمعنا ... مثل ما كنّا عليه فأبى

وحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار وكان له والدة صالحة تعظه وهو لايتعظ، فمر فى بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظماً، فتفتت فى يده، ففكر فى نفسه وقال: ويحك يا دينار كأنى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً والجسم تراباً، فندم على تفريطه وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ألقيت إليك مقاليد أمرى فاقبلنى وارحمنى، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب، فقال: يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ قال: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعير، وغلين وافعلى بى كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاى يرى ذلى فيرحمنى فـفعلت به ما أراد، فكان إذا جن عليه الليل أخذ فى البكاء والعويل ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار، ولايزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بنى ارفق بنفسك، فقال: دعينى أتعب قليلاً لعلى أستريح طويلاً، يا أماه إن لى غداً موقفاً طويلاً بين يدى رب جليل ولا أدرى أيؤمر بى إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيل، قالت: يا بنى خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه، فأخذ فى البكاء والعبادة و قراءة القرآن، فقرأ فى بعض الليالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. ففكر فيها وجعل يبكى حتى غشى عليه، فجاءت أمه إليه، فنادته، فلم يجبها، فقالت له: ياحبيبى وقرة عينى أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجدينى فى عرصات القيامة، فاسألى مالكاً خازن النار عنى، ثم شهق شهقة، فمات رحمه الله تعالى، فغسلته أمه وجهزته، وخرجت تنادى: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة، فرآه يتبختر فى الجنة وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ويقول: وعزته وجلاله سألنى ورحمنى وغفر لى وتجاوز عنى ألا أخبروا عنى والدتى بذلك.

وحكى عن الحسن البصرى قال: نزل سائل بمسجد، فسأل الناس أن يطعموه كسرة، فلم يطعموه، فقال الله تعالى لملك الموت: اقبض روحه فإنه جائع، فقبض روحه، فلما جاء المؤذن رآه ميتاً، فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه، فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن فى المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير، فلم تطعموه حتى مات جوعاً، من كان من أحبابنا لانكله إلى غيرنا.

وحكى أبو على المصرى قال: كان لى جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثنى بأعجب ما رأيت من الموتى، فقال: جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب، فقال لى: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتتبعته حتى

أوقفني على باب، فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها، فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: بسم الله ادخل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت، وروحه في لبته، وقد شخص بصره، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه، فلم أجلس إليه حتى قبض، فقلت: سبحان الله هذا ولي من أولياء الله حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله، وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته، فقبلته، وقالت: أما إني سألحق بك عن قريب، فلما أردت الانصراف شكرت لي، وقالت: ارسل إليَّ زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت، فارتعدتُ من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى الجارية، فوقفت بالباب واستأذنت، فقالت: بسم الله تدخل زوجتك، فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت، فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما. شعر:

أأحبابنّا بنتم عن الدار فاشتكتْ لبُعدكُم آصالها وضحاها
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوتْ رسومُ مبانيها وفاح كلاها
كأنكُمْ يوم الفراق رحلتم بنومي فعيني لاتصيبُ كراها
وكنت شحيحاً من دموعي بقطرةٍ فقد صرت سمحاً بعدكم بدماها
يراني بسّاماً خليلي يظنّ بي سروراً وأحشائي السّقام ملاها
وكم ضحكة في القلب منها حرارة يشبّ لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياماً بطيب حديثكم تقضّت وحيّاها الحيا وسقاها
فما قلت إيها بعدها لمسامرٍ من الناس إلا قال قلبي آها

وحكى سري السقطي[1] رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت، فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

تُغلّ يدي إلى عنقي وما خانت وما سرقتْ
وبين جوانحي كبدٌ أحسّ بها قد احترقت

قال: فقلت للقيم: ما هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختلّ عقلها، فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت:

معشر الناس ما جننت ولكنْ أنا سكرانةٌ وقلبيَ صاحي
لمَ غللتُم يدي ولم آت ذنباً غير هتكي في حبّه وافتضاحي
أنا مفتونةٌ بحبِّ حبيب لست أبغي عن بابه من براحِ
ما على من أحبّ مولى الموالي وارتضاه لنفسه من جناح

قال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاءً شديداً، فقالت: يا سري هذا بكاؤك من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها، فلما رآني عظمني، فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم، فلمَ فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى، لاتنام ولاتدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين

(١) سَريّ السقطي: هو سَريّ بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة، وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد، وأستاذه، قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السريّ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة، ما رؤي مضطجعاً إلاّ في علة الموت توفي سنة (٢٥٣هـ - ٨٦٧م).

ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة، قلت: فما كان بدء أمرها؟ قال: كان العود فى حجرها يوماً، فجعلت تقول:

وحــــقِّـكَ لانقـــــضتُ الـدَّهرَ عــــــهـــــداً ... ولا كـــــــدَّرت بـعـــــد الـصــــفـــــو وداً
مـــــــلأتَ جـــــوانـحى والقـلب وجــــــداً ... فـكـيـف أقـــــــــــرُّ يـا سـكـنـى وأهـدا
فـــيـــا مـن ليـس لى مـــولىً ســـواهُ ... تُراك رضـــيـــتنى بالبـــاب عـــبـــدا

فقلت لسيدها: أطلقها وعليَّ ثمنها، فصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفاً ياسرى؟ فقلت: لا تعجل عليَّ، فقال: تكون فى المارستان حتى توفينى ثمنها، فقلت: نعم، قال سرى: فانصرفت وعينى تدمع وقلبى يخشع، وأنا والله ما عندى درهم من ثمنها، فبت طول ليلتى أتضرع إلى الله تعالى، فإذا بطارق يطرق الباب، ففتحت، فدخل عليَّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفنى ياسرى: قلت: لا، قال: أنا أحمد بن المثنى كنت نائماً، فهتف بى هاتف وقال لى: يا أحمد هل لك فى معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى منى بذلك؟ فقال: احمل إلى سرى السقطى خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية، قال سرى: فسجدت لله شكراً وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا، وانصرفنا نحوها، فسمعناها تقول:

قـــــد تـصـــبـــــــرت إلـى أن ... عـــيـل من حـــبِّك صـــبـــرى
ضــــاق من غلِّـى وقـــيـــدى ... وامـــتـــهـــانـى منك صـــدرى
لـيـس يـخـــفـى عـنـك أمـــرى ... يـا مـنـى قـلـبـى وذخـــرى
أنـت قـــــد تُـعـــتِـقُ رِقِّـى ... وتـفـكُّ الـيـــوم أســـرى

قال سرى: فبينما أنا أسمعها، وإذ بمولاها قد جاء وهو يبكى، فقلت: لا بأس عليك قد جئتك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. قلت: نزيدك. قال: والله لو أعطيتنى ما بين الخافقين ما فعلت، وهى حرة لوجه الله تعالى، فقال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس، فقال: حبيبى لاتوبخنى فالذى وقع لى من التوبيخ كفانى، وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل الله تعالى، وإنى هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردنى عن صحبتك، فقلت: نعم. ثم التفت، فرأيت صاحب المال يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذى ما قبلنى مولاى لما ندبنى إليه ورد عليَّ ما بذلت أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى فى سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى، قال سرى: فقلت: ما أعظم بركتك يا جارية. قال: فنزعنا الغل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان، فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب، ولبست خماراً من صوف ومدرعة من شعر وولت، قال سرى: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتاً، فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال، فلما رأتنى قالت: السلام عليك يا سرى، فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته مَنْ أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها، فإذا هى الجارية، فقلت لها: ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: آنسى به وحشتى من غيره، ثم توجهت إلى البيت، وقالت: إلهى كم تخلفنى فى دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقى، فعجل قدومى عليك، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها، فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتاً، رحمة الله عليه، فدفناهما فى قبر واحد. شعر:

بحــرمـــة مـــا قـــد كـــان بينى وبينـكم ... من الـودِّ إلا مـــا رجـعـــتم إلى وصـلى
ولاتحـــرمـــونى نظرةً من جـمـــالـكم ... فلـن تجـدوا عـبـداً ذليـلاً لـكم مـثـلى
فـــوالله مـــا يهـــوى فـــؤادى ســـواكمُ ... ولـو رشـــقـــوه بالأسـنّة والـنبـل

وحكى أنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور فى بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابته وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأنينه، ومازال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكى ويتأسف ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالى، فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام، فقيل له فى المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك، فائتِ الملك الفلانى فى بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التى ذكرت له فى المنام، فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم، وهو يصرف الناس، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه، فقال له الغلام: من أين أنت، وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة، وقصدى الاجتماع بالملك، فقال له الغلام: لاسبيل لك اليوم، فسل حاجتك أقضها لك إن استطعت، فقال: إن حاجتى لايقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد فى الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتى ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد داثر، وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه على الناس، فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر، فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن، فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول، فدخل أرباب الحوائج، ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم، فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس، وأنظر فى أمرك. قال: فتحير صاحب السحابة فى أمره، فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه، فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به فى دهليز القصر، فلم يجد فى طريقه إلا مملوكاً واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدح للضوء وحصيرة رثة وشىء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة، ونادى يا فلانة، قالت: لبيك. قال: أتدرين من هو الليلة ضيفنا؟ قالت: نعم هو صاحب السحابة فدعا بها الحاجة، فخرجت، فإذا هى امرأة كالشن البالى عليها مسح من شعر خشن، وهى شابة صغيرة، قال الرجل: فالتفت إلى الملك، وقال: يا أخى نطلعك على حالنا، أو نقضى حاجتك وتنصرف، فقلت: والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم أنه كان لى فى هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إلىَّ بغّض الله إلىَّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح فى الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم، فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة، وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعونى وأنا والله كاره، فتركت أمورهم على ما كانت عليه، وجعلت السماط على عادته، والحراس على حالها، والمماليك على دأبها، ولم أغيِّر شيئاً، وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور ودرعاً عن أهل الخير وتركت القصر مزيناً على حاله وفتحت له باباً وهو الذى رأيته يوصلنى إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيتها وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى واجتهدت حتى صارت كالشن البالى، والناس لايعلمون ما نحن فيه ثم إنى أقمت لى نائباً ينوب عنى طول الجمعة، وعلمت أنى مسؤول، فجعلت لى يوماً فى الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف مظالمهم كما رأيت، وأنا على هذه الحالة مدة، فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاماً ونفطر معنا، وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى، فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر، فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق، فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً واشترى بباقى ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما. قال: فقاما فى نصف الليل يصليان ويبكيان، فلما كان السحر قال الملك: اللهمّ إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وإنك قد دللته علينا،

اللهمّ ارددها عليه إنك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائه، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل الـسـ ـاء فقال لي: لك البشارة بقضـاء حاجتك وتعجيل إجابتك. قال: فودعتـهما وانصرفت والسحابة معي كمـا كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما. شعر:

استـعـمل الـصـبـر تجنى بـعـده الـعـسـلا ... ولازم البـــابَ حـــتـى تبـلُغَ الأمــــلا
ومـــرغِ الخـــدّ فى أعـــتـــابه ســـحـــراً ... واحــــمــل لمرضــــاتـه فى الحـبّ كلّ بـلا
فـــمـــا يفـــوز بوصـل يا أخيَّ ســـوى ... صب لثـقل الـهـوى والـوجـد قـد حـمـلا
هذا الحـبـيـب ينادى فى الـدّجى ســحـــراً ... فـانهض وكـن رجـلاً بالـسـعى قـد وصـلا

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجـاً، فبينما أنا سائر إذ رأيت شابًا سـاكتاً لا يذكر الله تعالى، فلما جن الليل رفع وجهه نحو الـسـماء وقال: يا من لاتسره الطاعات، ولا تضره المعاصى هب لى ما لايسرك، واغفر لى ما لايضرك. ثم رأيته بذى الحليفـة وقد لبس إحرامه والناس يلبون وهو لايلبى، فقلت هذا جاهل، فدنوت منه، فقلت له: يافتـى، قال: لبيك، قلت له: لِمَ لاتلبى؟ فقال يا شيخ: وما تغنـى التلبية، وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله إنى لأخشى أن أقول لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا انظر إليك، فقلت له: لا تقول ذلك، فإنه حليم إذا غضب رضى، وإذا رضى لم يغـضب، وإذا وعد وفى ومتى توعد عفا، فقـال ياشيخ: أتشير عليَّ بالتلبية؟ قلـت: نعم، فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خـده على التراب وأخذ حـجراً فوضعه على خده الآخر، وأسبل دموعه وقال: لبيك اللهمّ لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعى بين يديك، فأقام كذلك ساعـة، ثم مضى، فمـا رأيته إلا بمنى وهو يقـول: اللهمّ إن الناس ذبحوا ونحروا، وتقـربوا إليك، وليس لى شىء أن أتقرب به سوى نفسى، فتقبلها منى ثم شهق شهقة وخرّ ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعـرف بأبى عبد الله الأندلسى، وكان شيخاً لكل من بـالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسـول الله ﷺ، وكان يقرأ القـرآن بجميع الـروايات، فخرج فى بعض الـسنين إلى الـسـياحة، ومـعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهمـا من مشايخ العراق. قال الشبلى: فلم نزل فى خدمته، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نـتوضأ به، فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة، وقساوسة ورهبان، وهم يعـبدون الأصنام، والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القـرية، وإذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجـه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفى عنقهـا قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقـال: هذه ابنة مَنْ؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلِمَ لا يدللها أبوها ويكرمها ولايدعها تستقى الماء؟ فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمـته ولا تعجبها نفسها، فجلس الشـيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لايأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً، غير أنـه يؤدى الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولايدرون مـا يصنعون، قال الشبلى: فـتـقدمت إليه، وقلت له: ياسيدى إن أصـحابك ومريديك يتعجـبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قـال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتـها بالأمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بهـا قلبى، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض.

قال الشبلى[(١)]: فقلت: يا سيدى أنت شـيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق، وعـدد مريديك اثنا عشر ألفاً، فـلا تفضحنا وإياهـم بحرمة الكتـاب العزيز. فقـال يا قوم: جرى القلم بما حـكم، ووقعت فى بحار العـدم وقد انحلت عنى عـرى الولاية، وطويت عنى أعلام الهـداية، ثم إنه بكى بكاءً شديداً، وقـال يا قوم: انصرفـوا، فقـد نفذ

(١) الشِّبْلى: هو دلف بن جحدر الشبلى، ناسك، كـان فى مبدأ أمره واليًا فى دنباوند (من نواحى رستاق الرىّ) وولى الحجـابة للموفق العباسى، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فـاشتهر بالصلاح، له شعر جيد سلك به مـسالك المتصـوفة: أصله من خرسان، ونـسبته إلى قرية شبلة، توفى ببغداد سنة (٣٣٤هـ - ٩٤٦م).

القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه فى جملة الناس، فلم يروه، فسألوا عنه، فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات، والزوايا والخوانق، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة، وخرجت مع بعض أصحابى نكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ، فقيل لنا: إنه فى البرية يرعى الخنازير، قلنا: وما السبب فى ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار، ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير، ففعل ذلك كله، وهو فى البرية يرعى الخنازير.

قال الشبلى: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه، وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رآنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفى وسطه زنار، وهو متوكىء على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب، فسلمنا عليه، فرد علينا السلام، فقلنا: ياشيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخوانى وأحبابى ليس لى من الأمر شىء، سيدى تصرف فى كيف شاء، وحيث أراد أبعدنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يـا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاى ما كان ظنى فيك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكى ونادى ياشبلى اتعظ بغيرك، فنادى الشبلى بأعلى صوته: بك المستعان وأنت المستغاث، وعليك التكلان. اكشف عنا هذه الغمة بحلمك، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم، وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال. قال الشبلى: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاءً شديداً. قال الشبلى: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لى بذلك، وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين، فقلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨] والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨]. فقلت: ياشيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً، وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، قال الشبلى: فتركناه، وانصرفنا، ونحن متعجبون من أمره، فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع، وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا، وقال: يا قوم اعطونى ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً، فلبسه، ثم صلى وجلس، فقلنا له: الحمد لله الذى ردك علينا، وجمع شملنا بك، فصف لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك؟ فقال يا قوم: لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاى أنا المذنب الجانى، فعفا عنى بجوده، وستره غطانى، فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب؟ قال: نعم. لما وردنا القرية، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت فى نفسى: ما قدر هؤلاء عندى، وأنا مؤمن موحد، فنوديت فى سرى ليس هذا منك، ولو شئت عرفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبى، فكان ذلك الطائر هو الإيمان. قال الشبلى: ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيما مشهوداً، وفتحت الزوايا، والرباطات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.

فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب، فإذا شخص ملتف بكساء أسود، فقلت له: ما الذى تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ، فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بدخولها، فلما دخلت عليه بكت بكاءً شديداً، فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك، ومن أوصلك إلى هاهنا؟ قالت: يا سيدى لما وليت من قريتنا

جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه، فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وماهو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك، واعطيني يدك، ففعلت، فمشى قليلاً، ثم قال: افتحي عينيك، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطىء الدجلة، فقال: امضي إلى تلك الزاوية، واقرئي مني الشيخ السلام، وقولي له: إن أخاك الخضر يسلم عليك، قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي هاهنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها، وتغير لونها، فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها، فلما رأته بكت، فقال لها: لا تبكي، فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيته في المنام، وقد تزوج سبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الأشرار و الفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيّبة، فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لايكون صالحاً ويقع فى الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بنى كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخيرُ كما يطفىء الماءُ النارَ. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عُرِّيَ من حلة التقوى ومُحِيَ عنه طابع الهدى، لاتثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعى شيطانه مطيع. شعر:

كأنه التيسُ قد أودى به هرمُ ... فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثمرُ

وقيل: من فعل ما شاء لقى ما ساء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها، فقالوا له: يا عدوّ الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغنى أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟. وقيل لأعرابى كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لى إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد. وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس وهى تحلف أن لاترجع لمولاها، فسألتها عن ذلك، فقالت: ياسيدى إنه يواقعنى من قيام، ويصلى من قعود، ويشتمنى بإعراب، ويلحن فى القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلى الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله فى المسلمين مثله.

وكانت ظَلّمةُ القوادة وهى صغيرة فى المكتب تسرق دوايات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار، قال الزمخشرى[1] رحمه الله: أقمت بقمار سنين، فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر. وقمار ينسب إليها العود القمارى كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمى:

ولا ذنبَ للعودِ القماريَّ إنّه ... يُحرّقُ إن تمتْ عليه روائحه

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانُهم تبعٌ لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء فى الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وفى ذلك قيل:

إذا لم تصن عرضًا ولم تخش خالقًا ... وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قوماً، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أى وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أن لى من جلد وجهك رقعة ... لجعلت منها حافراً للأشهب

وقال آخر:

إذا رُزق الفتى وجهاً وقاحاً ... تقلّب فى الأمور كما يشاء

---

(١) الزمخشرى: هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الخوارزمى، صاحب كتاب «الكشاف» فى التفسير وهو أحد الأئمة العلماء بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٤م).

وقال أنوشروان: أربعة قبائح وهى فى أربعة أقبح: البخل فى الملوك، والكذب فى القضاة، والحسد فى العلماء، والوقاحة فى النساء. ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب. قال الشاعر:

لاتكونن فى الأمور هيوباً ... فإلى خيبةٍ يصير الهيوب

وقال علىّ رضى الله عنه: إذا هبْتَ أمراً فقع فيه، فإنَّ شراً توقيه أعظم مما تخاف منه. وقال رضى الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم، فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لاتسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لايخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لايدفعه إلا الجهل أراد السفه. قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وقيل: الجاهل من لاجاهل له. أى: من لاسفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالس، إذ جاء أعرابى، فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس بعزيز من ليس فى قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولايلبث الجهّال أن يتهضّموا ... أخا الحلم ما لم يستعنْ بجهول

وقال صالح بن جناح:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً ... وخُيِّرت أنّى شئت فالحلم أفضلُ

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً ... ولم يرضِ منك الحلم فالجهل أمثلُ

وقال الأحنف بن قيس:

وذى ضغنٍ أبَيْتُ القولَ عنه ... بحلمٍ فاستمرّ على المقالِ

ومن يحلمْ وليس له سفيهٌ ... يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنت محتاجًّا إلى الحلم إننى ... إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج

ولى فرس للخير بالخير ملجم ... ولى فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمى فإنى مقوم ... ومن رام تعويجى فإنى معوج

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ ... وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

اللهمّ إنا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف

وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه فى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر، وبقى هو فى مقاساة الضر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيًا إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوى أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ومعى شىء من الماء، وأنا أقول، إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك؟ فأشار إلىّ أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلىّ أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إلىّ أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر فى الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدى قال: لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعًا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعه فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: فى رقعتى الجلد وليس لى أم فخذ أنت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل.

وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان. فجاءنا بناقة فنحرها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إنى لا أطعم ضيفانى البائت. فبقينا عنده أيامًا، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته، وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا، ثم إنه لحقنا، وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحى هذا، فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه، وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط، فقال: لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنّة قريب من النار، ولَجاهلٌ سخىٌ أحب إلى الله من عابد بخيل». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: ٣٩]. وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكثم بن صيفى: صاحب المعروف لايقع وإن وقع وجد له متكئاً. وقيل للحسن بن سهل: لا خير فى السرف، فقال: لا سرف فى الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: «انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته». وقال على رضى الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك. وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشًا وأنعمهم بالاً وأكرمهم طباعًا، وأجلهم فى النفوس قدرًا؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس فضله. فقال:

صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه أو لئيمًا أصون عنه عرضي. وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البدرة، ويقول له: امسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدري ما يُطرّقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتني فاقة فقالت ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترى جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر. وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال هذا حائطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراح إلى بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط إزاره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي فى كتاب الأمالي:[1] أن رجلاً جاء إلى معاوية رضى الله تعالى عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة والله لأكونن أول من وصلها، ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيرها فارغة. وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد، ولم يناول أحداً شيئًا وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر، فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال له: يا هذا أعنا على الدهر، فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهمّ ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيًا، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إليّ أن سألني.

ويروي أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يومًا في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخر بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفًا فما أمست، حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا

(١) أبو علي القالي: هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان أبو علي القالي، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، تعلم في بغداد، ثم رحل إلى المغرب، وله: «النوادر» و «أمالي القالي» و «البارع»، توفي في قرطبة سنة (٣٥٦هـ - ٩٦٧م).

وعليه دين. وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها، فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: ياصاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفراً. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً، وواحد يحمل مالاً، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لايعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين. وخرج رضي الله تعالى عنه هو والحسنان، وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة، فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها وبرعاتها، ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك، فأوقرها لك تمراً. فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: بأبي أنتما. إن الله عز وجلّ عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة، وامتدحه نصيبٌ، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناءه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى ومالاً يفنى، وأعطانا مدحاً يروى وثناء يبقى، وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: ياغلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أرده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط، وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل، والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت. فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده. وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا النوروز حللاً كثيرة ومسكاً، وآنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهي لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد عليّ، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حمّلناها إليك ليلاً، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صلاته، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال، ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أنى شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثانى، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمى، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود، وإنى سميته باسمك تبركا بك، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك فى الهبة، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتى دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصارى: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفى العيش يبس، وفى المال قلة، فقال الأنصارى: جعلت فداءك لو سبقت حاتماً بيوم ما ذكرته العرب.

وقال أبو جهم بن حذيفة يوما لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال:

يقيناً ما نخاف وإنْ ظننّا ... به خيراً أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنّا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما:

بلوت الناس قرناً بعد قرن ... فلم أر غير ختّالٍ وقالِ
ولم أر فى الخطوب أشدّ وقعاً ... وأمضى من معاداة الرجالِ
وذقت مرارةَ الأشياء طرّاً ... فما شيءٌ أمرّ من السؤالِ

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده عند رجليه وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تزعم أنى لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً؟ فقال الحسن: أو عجباً مما قلت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجليك، فاستحيا معاوية، واستوى جالساً، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: اعط أبا محمد ثلاثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه، ومائة يفرقها على مواليه، ومائة يستعين بها على نوائبه، وسوغها إليه الساعة. وكان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملاً على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرفنى، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودَ معنٍ ناجِ معناً بحاجتى ... فليس إلى معنٍ سواك شفيعُ

فقال: مَن الرجل صاحب هذه؟ فأتى به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: علىَّ بالرجل صاحب هذه، فأتى به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع

معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: علىَّ بالرجل صاحب هذه ، فأتى به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر فى نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم، ولا دينار. وفيه يقول القائل:

يقولون معنٌ لا زكاةَ لماله ... وكيف يزكّى المالَ من هو باذله

إذا حال حول لم تجدْ فى دياره ... من المال إلا ذكرهُ وجمائله

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنّك تعطيه الذى أنت نائله

تعوّد بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضاً لم تطعه أنامله

فلو لم يكن فى كفّه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن:

دعينى أنهب الأموال حتى ... اعفّ الأكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار فى الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبى طالب[1] رضى الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لى، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فائتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لى بعض إخوانى اذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعيف، قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت إلى زيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أفاضَ القومُ فى ذكر الجوارى ... فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال: إنك لم تبق عزباً. فلما رجعت إلى منزلى إذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفى الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالى، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر، فقلت أيها الأمير: قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لى فى الرجوع، فأكبت عدوى وأسر صديقى، فقال: إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولَم تغنينى أيها الأمير؟ قال: إنما هذا تغنى أثاث المنزل، ومصلحة القدوم، فنالنى من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقاً يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحير الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنى قد استغنيت؟ فقال: اعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأتى طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو فى السجن، فجاء الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لى عليه، فقال: إنه فى مكان لايمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما فيه، ولم آت ممتدحاً، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقتْ خراسانُ بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ

فما قطرتْ بالشرق بعدك قطرةٌ ... ولا أخضرٌ بالمروين بعدك عود

وما لسرور بعد عزك بهجةٌ ... وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

(١) عقيل بن أبى طالب: هو عقيل بن عبد مناف (أبى طالب) بن عبد المطلب الهاشمى القرشى وكنيته أبو يزيد، أعلم أهل قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها، وأنسابها، صحابى فصيح اللسان شديد الجواب، وكان أحد الأربعة التى تتحاكم إليهم قريش فى المنافرات، أسلم بعد الحديبية، وكان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار فى مسجد المدينة، وكان فى حلب وأطرافها جماعة ينتسبون إليه، يعرفون ببنى عقيل توفى سنة (٦٠هـ - ٦٨٠م).

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التى جمعت لنا ودع الحجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق هذا الذى خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف. ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزاً، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهى لاتعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لاتعرفنى فأنا أعرف نفسى. وقال مروان بن أبى الحبوب الشاعر: أمر لى المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً فى شكره، فلما بلغت قولى:

فأمسكْ ندى كفّيك عنى ولا تزدْ ... فقد خفتُ أن أطغى وأن أتجبرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى، وأمر له بضياع تقوم بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب فى الدولة المروانية، وعلى البرامكة فى الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبى داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفى يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرٌ فقال لا ... ولكنّنى عبدٌ ليحيى بن خالدِ
فقلت شراءٌ قال لا بل وراثةٌ ... توارثنى من والدٍ بعد والدِ

وفى الفضل يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدةٍ ... رأيتَ بها غيثَ السماحة ينبُتُ
فليس بسعّالٍ إذا سيل حاجةً ... ولابمكب فى ثرى الأرض ينكت

وفى محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود مالى أراكما ... تبدّلتما عزاً بذل مؤبّد
وما بال ركن المجد أمسى مهدّماً ... فقال أصبْنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا مُتّما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزّى بفقده ... مسافة يومٍ ثم نتلوه فى غد

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: من كانت له حاجة فليرفعها إلىّ فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضى الله تعالى عنه أعرابى، فقال: يا أمير المؤمنين إن لى إليك حاجة، الحياء يمنعنى أن أذكرها، فقال: خطها فى الأرض، فكتب إنى فقير فقال: ياقنبر اكسه حلتى، فقال الأعرابى:

كسوتنى حلّةً تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمةً ... وليس تبغى بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نداهُ السهلَ والجبلا
لاتزهدِ الدهرَ فى عرفٍ بدأت به ... كلّ امرىءٍ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال: يا قنبر زده مائة دينار، فقال يا أمير المؤمنين: لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضى الله تعالى عنه: صه ياقنبر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» ولعبد الله بن جدعان:

إنـي وإن لم يـنـل مـالـي مـداخـلـتـي ... وهّـابٌ مـا ملكت كـفّـي من المـال

لا أحـبـس المـالَ إلا حـيـث أنفـقُـهُ ... ولا يُغـيِّـرني حـالٌ إلى حـال

وقال بعض العرب لولده: يا بني لاتزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُـدْ مـن الرحـمـن فـضـلاً ونعـمـةً ... عليك إذا مـا جـاء للخـيـر طـالبُ

ولا تمـنعنْ ذا حـاجـةٍ جـاء راغـبـاً ... فـإنّـك لاتـدري مـتى أنت راغـب

وقال بعضهم:

أبيتُ خـمـيصَ البطن عـريان طـاوياً ... وأوثـر بالزاد الرفـيـق عـلى نـفـسـي

وأمنـحـه فـرشي وافـترشُ الثـرى ... وأجـعل مـسـترَ الليل من دونه لـبـسي

حـذارِ أحـاديثَ المحـافـلِ في غـدٍ ... إذا ضـمّـني يومـاً إلى صـدره رمـسي

وقال يحيى البرمكي[1]: أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لاينقصك منها شيئاً، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لايبقي عليك منها شيئاً، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

لاتبـخلنْ بـدنيـا وهـي مـقـبلةٌ ... فليس يُنقِـصـهـا التـبـذير والسـرفُ

فـإنْ تـولتْ فـأحـرى أن تجـود بـهـا ... فـليـس تـبـقى ولكـن شكرهـا خلف

وقال يحيى لولده جعفر: يابني مادام قلمك يرعد فامطره معروفاً وقال بعضهم:

لاتـكـثـرى في الجـود لائـمـتي ... وإذا بـخلـت فـأكـثـرى لومي

كـفّـي فـلـست بـحـامـلٍ أبداً ... مـا عـشتُ هـمّ غـدٍ إلى يومي

وقال عليّ رضي الله عنه وكرم وجهه: لاتستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلي عن المخلوع، فقال: كان أمره كله عجباً، كان لايبالي أن يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لايخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوفروا له زورقه ذهباً وأمر له بألف ألف درهم.

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أتهجو سعيداً؟ قال يا أمير المؤمنين: أخبرك الخبر: عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيداً، فقلت: إني أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك، فقال لي: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالي، فقال: يا جارية هاتي مطرفاً، فأتته بمطرف خز، فصر لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول:

---

(١) يحيى البرمكي: هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير السريّ الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه، ولما ولي الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلده أمره فبدأ يعلو شأنه، واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته، واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في (الرقة) إلى أن مات فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. مات سنة (١٩٠هـ - ٨٠٥).

أبا خالد أعنى سعيدَ بن خالدٍ — أخا العرف لا أعنى ابنَ بنت سعيد
ولكننى أعنى ابنَ عائشة الذى — أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيدُ الندى ما عاش يرضى به الندى — فإن مات لم يرضَ الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا — وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرَّهت أن تعطى القليل ولم — تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بُثّ النّوال ولا تمنعكَ قلتُهُ — فكلّ ما سدَّ فقراً فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً؟ فقال: بل اجعله ذخراً لى، واجعل الله ذخراً لولدى، وقسمه بين ذوى الحاجات. وكان ابن مالك القشيرى من الأجواد، قيل: إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خال ذرنى ومالى ما فعلت به — وخذ نصيبك منه إننى مودى
فلن أطيعك إلاّ أنْ تُخلّدنى — فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدى
الحمدُ لايشترى إلا بمكرمةٍ — ولن أعيش بمالٍ غير محمود

وقال المهلب: عجبت لمن يشترى المماليك بماله كيف لايشترى الأحرار بفعاله. ونزل بأبى البحترى وهب بن وهب القرشى ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همَّ بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الاخيلية[1] على الحجاج، فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً — تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها — غلامٌ إذا هزَّ القناة سقاها

فقال: لا تقولى غلام، ولكن قولى همام. يا غلام: اعطها خمسمائة فقالت: يا أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إناثاً، وقال أبو الفياض الطبرى:

والعزّ ضيفٌ لايراه بربعه — من لايسرى بذلَ التلاد تلادا
والجود أعلى كعبٍ قبلنا — فمضى جواداً يوم مات جوادا

وقال آخر:

---

(١) ليلى الأخيلية: هى ليلى بنت عبد الله الرحال بن شداد بن كعب، الأخيلية، من بنى عامر من صعصعة شاعرة فصيحة ذكية، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، ووفدت على (الحجاج) مرات فكان يكرمها ويقربها، وهى فى الشعر دون الخنساء مرتبه، وكانت بينها وبين النابغة الجعدى مهاجاة، ولها "ديوان ليلى الأخيلية" توفيت سنة (٨٠هـ - ٧٠٠ م).

أيقنت أن من السماح شجاعة وعلمت أنّ من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. وقال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهبا، فانظر إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأيناه، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعته في كمي، ثم جئناه، فوصفنا له حسن ما رأيناه، فقال أترجة: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئاً، وغمزه على كمي، فأريته الغزال، فقال: بحياتي عليكما ارجعا، فخذا ما أحببتما، فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبلنا نمشي كالحبالى، فلما رآنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخذوا ما شئتم، ثم قام ووقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك. ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءً مسكاً، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي، فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله الأول. ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً، فوافق فيه الفرزدق، فقال يا أبا فراس: اختر عشراً من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده ... إن الندى ما مات طلحة ماتا

إن الندى ألقى إليك رحاله ... فبحيث بتّ من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قُبَّةٍ ضربتْ على ابن الحشرج

فقال: زدني، فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: وما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين. قال: هات ما قلت فقال:

يا طالب الجود إمّا كنت تطلبُهُ ... فاطلبْ على بابه نصرَ بنَ سيّارِ

الواهبُ الخيلَ تغدو في أعنّتها ... مع القيان وفيها ألف دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: يا له. قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره، فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي، فأوصله إليَّ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ماحاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... ولا أطيق العيال إذا كثروا

أناخَ دهري عليَّ كلكَلَهُ ... فأرسلوني إليك وانتظروا

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال:

أرسلوك إليَّ وانتظروا إذن والله لااجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل خمسين ألف درهم، فجرى القلم بخمسمائة ألف، فراجعه الخازن في ذلك، فقال: انفذه، فما بقى إلا نفاذه، وأن خروج المال أحب إليَّ من الاعتذار، فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته، وأنا أردت شيئاً وأراد الجواد الكريم أن يعطى عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة، وأمره النافذ. ووقف أعرابي على ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة، وأكدت بي الآمال إلا بفنائك، فامنحني بقدر الطاقة لابقدر المجد والشرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأترك إن قلَّتْ دراهم خالدٍ	زيارته إنِّي إذاً للئيم

فقال: أوَ قلت دراهم خالد احملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لايعرف لها حقاً. وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيى بن خالد بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء، فقبل يده وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا، فقال منصور: أنا أستخبر لك هذا. فقال يحيى: إذن يقول لك، قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً، فقد تركتها له. وقيل: إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم، ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر.

وعن الأخفش الصغير[1] قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً وأكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً، فطال عمره ونكبه دهره، فخرج عشية يستغل لأهله، فمر به عميلة الفزاري، فسلم عليه، وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسألة الناس، فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح الليل، قال: فكأنما ألقمت فاه حجراً وبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى	إلى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استُعيرت ثيابُه	تردَّى رداءً سابغ الذيل واتزر
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعاً	له سيمياءٌ لاتشقُ على البصر
كأنَّ الثريا عُلِّقتْ في جبينه	وفي أنفه الشعرى وفي جيده القمر

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي[2] من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

---

(١) الأخفش: هو علي بن سليمان بن الفضل، أبو المحاسن، المعروف بالأخفش الأصغر، نحوي، من العلماء، من أهل بغداد، أقام بمصر، وخرج إلى حلب ثم عاد إلى بغداد، من تصانيفه (شرح سيبويه) و (الأنواء) و (المهذب) توفي سنة (٣١٥هـ - ٩٢٧م).

(٢) عبيد الله بن معمر: هو عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التميمي القرشي، سيد بني تميم في عصره، من كبار القادة الشجعان الأجواد، كان من رجال مصعب بن الزبير أيام ولايته في العراق، وولي بلاد فارس، أرسله عبد الملك لقتال (أبي فديك)، قال قطري بن فجاءة يصفه: بطل يقاتل لدينه وملكه بعزيمة لم أر مثلها لأحد، ما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه توفي سنة (٨٢هـ - ٧٠١م).

هنيئاً لك المال الذى قد قبضته ... ولم يبق فى كفى غير التحسر
أبوء بحزن من فراقك موجع ... أناجى به صدراً طويل التفكر

فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن ... يفرقنا شىءٌ سوى الموت فاعذرى
عليك سلامٌ لازيارةٌ بيننا ... ولا وصلَ إلاّ أن يشاءَ ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف. ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده فى دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

ولقد قدمتُ على رجالٍ طالما ... قدم الرجال عليهم فتموّلوا
أخنى الزمانُ عليهم فكأنما ... كانوا بأرضٍ أقفرت فتحوّلوا

فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلسهم وأذهبَ مالهم ... فاليوم إن راموا السماحةَ يبخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته. وقال أبو العيناء: حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضى، فقال: إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك فى الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دونَ النّاس كلهم ... وللرجاءِ حقوقٌ كلها تجبُ
إن لم يكن لى أسبابٌ أعيشُ بها ... ففى العلا لكَ أخلاقٌ هى السبب

فقال: ياسلامة انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال، قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء، حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءُ عليهما ... عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقدُ الشباب وفرقةُ الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إنى أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد إلىّ، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، أفأعطى أم أرد؟ قال: فأطرق طويلاً، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها. وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفى ريحٌ كف شممتُها ... من الناس إلاّ ريحُ كفك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً. مضيافاً، فتغدى عنده

أعرابي يوماً، فلما كان من الغد مر على بابه، فرأى الناس في الدخول على هيئتهم الأمس، فقال: أوكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكلّ يوم كأنّه عيدُ أضحى ... عند عبد العزيز أو عيدُ فطرِ
وله ألفُ جفنةٍ مترعاتٍ ... كل قدر يمدها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص[1]، فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم. ودخل رجل على على بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم إلا ما أجرتنى من خصمى، فقال: ومَن خصمك حتى أجيرك منه؟ فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو فى الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفاً، فارجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندى شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى. هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحتى لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلىّ من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وحكى أبو قدامة القشيرى قال: كنا مع يزيد بن مزيد يوماً، فسمع صائحاً يقول: يايزيد بن مزيد، فطلبه فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتى ونفدت نفقتى، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل مَنْ للجودِ والمجدِ والندى ... فنادى بصوت يايزيد بن مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعه سنية فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرائى بعير سمين، فقال: نعم، وباعه فى النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فنحره فى النوم، فانتبه الرائى من نومه، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فنادى، هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب العير: نعم ها أنا فلان بن فلان فقال: هل بعت من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم. بعته بعيرى بنجيبه فى النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذه، وأنا ولده، وقد رأيته فى النوم، وهو يقول: إن كنت ولدى، فادفع نجيبى إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال: تمارى ثلاثة نفر فى الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم فى الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل منقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما فى الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائما فقالت له جارية

(١) سعيد بن العاص: هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، الأموى القرشى، صحابى من الأمراء والولاة الفاتحين، ربى فى حجر عمر بن الخطاب، وولاه عثمان بن عفان الكوفة، وهو شاب، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان، وكان قويًا فيه شدة، سخيًا، فصيحًا توفى سنة (٥٩هـ - ٦٧٩م).

قيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل، فخذ راحلة من رواحله، وما يصلحها، وعبداً، وامض لشأنك، قيل: إن قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه، قال بعض الشعراء:

وإذا اختبرتَ ودَّ صديقٍ فاختبر ودّه من الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد. قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعراً يقول فيه:

سألت الندى والجود حرّان أنتُما فقالا يقيناً إنّنا لعبيدُ
فقلت ومن مولاكما فتطاولا إلىَّ وقالا خالدٌ ويزيد

فقال: ياغلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمُ كريمِ الأمهات مهذّبٌ تدفّقُ يمناه الندى وشمائله
هو البحرُ من أي الجهات أتيته فلجّتُهُ المعروفُ والجود ساحله
جوادٌ بسيط الكف حتى لو أنه دعاها لقبضٍ لم تجبه أنامله

فقال ياغلام: أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبى ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: فهو حاتم بن عبد الله الطائى[1]، وهرم بن سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن أمامة الأيادى. و ضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما، فأما كعب، فجاد بنفسه، وآثر رفيقه بالماء في المفازة، ومات عطشاً، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إنى قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال: نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يا واحد العرب الذى ما في الأنام له نظيرُ
لو كان مثلك آخرٌ ما كان في الدنيا فقير

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف. وأما حاتم، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة وأبا عدى، وكان يسير في قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدى يعادى النبى ﷺ، فبعث النبىّ ﷺ عليًا إلى طيئ، فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أتى بها إلى النبىّ ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلى عنى، ولاتشمت بى أحياء العرب، فإن أبى كان سيد قومه يفك العانى، ويقتل الجانى، ويحفظ الجار، ويحمى الذمار، ويفرج عن المكروب،

(١) حاتم الطائى: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى القحطانى، أبو عدى، فارس شاعر جواد، جاهلى، يضرب به المثل في الجود، كان من أهل نجد، مات في عوارض (جبل في بلاد طيء) سنة (٤٦ ق هـ - ٥٧٨م) شعره كثير ضاع معظمه وبقى ديوان صغير.

ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، ومـا أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائى، فقال لها النبىّ ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقـاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق». وقال فيها: «ارحموا عزيز قـوم ذل وغنيا افتقر، وعالماً ضاع بين جهال». فأطلقها ومنّ عليها، فاستأذنته فى الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحـابه: «اسمعوا وعوا» فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً فى ردها عليه. فلما أطلقها النبى ﷺ رجعت إلى قومها، فأتـت أخاها عدياً وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخى: ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حـبائله، فإنى قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبـة رأيت خصالاً تعجبنى. رأيته يحب الـفقير، ويفك الاسير ويرحم الصـغير ويعرف قدر الكبير، ومـا رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وإنى أرى أن تلحق به، فإن يك نبيًّـا فللـسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن تذل فى عز اليمن.

فقـدم عدى إلى النبىّ ﷺ فالقى له وسـادة محشوة ليـفاً، وجلس النبىّ ﷺ على الأرض، فأسلم عـدى بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقـال لها أبوها: يابنية إن الكريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه، فـإما أن أعطى وتمسكى، وإما أن أمسك وتعطى، فإنه لايبقى على هذا شىء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق. قال ابن الأعرابى: كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية، وكان جـواداً يشبه جوده شعره ويصـدق قوله فعله، وكان حيثـما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية نحر كل يوم عشـراً من الإبل وأطعم الناس، واجتمعـو ا إليه، وكان قد تزوج مـاوية بنت عفير، وكـانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لـقولها. وكان لها ابن عم يقـال له مالك، فقال لهـا يوماً: ما تصنعين بحاتم، فـو الله لئن وجد مالاً ليتلفنه، وإن لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولاداً عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النسـاء يطلقن الـرجال فى الجاهلية وكان طلاقـهن أن يكن فى بيوت من شعر، فإن كـان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كـان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قِبل الـيمن حولته إلى الشام، وإن كان قِبل الشام حولته إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طـلقته، فلم يأتها، ثم قال ابن عمها: طلقى حاتماً وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالاً، وأنا أمسـك عليك، وعلى ولدك. فلم يـزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخبـاء، فقال حاتم لولده: يا عدى ما ترى مـا فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قـال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، فـجاء قوم، فنزلوا على باب الخبـاء كما كان ينزلون، وكان عـدتهم خمسين فارسـاً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريتـها: اذهبى إلى ابن عمى مالك، وقولى له: إن أضيافاً لحاتم قـد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشىء نقـريهم ولبنا نسقيهم، وقالـت لها انظرى إلى جبينه وفمـه، فإن شافهك بالمعـروف فاقبلى منه، وإن ضرب بحليته على زوره، ولطم رأسه، فـاقبلى ودعيه. فلما أتته وجدته متوسداً وطباً من لبن، فـأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكان حـاتم، فلطم رأسه بيده وضرب بحليته، وقال: اقرئيـها السلام.وقولى لها: هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتماً لأجلـه، وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم. فرجعت الجارية، فـأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها: اذهبى إلى حاتم وقولى له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتماً، فصاحت به، فقال: لبيك قـريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبا وكرامة، ثم قـام إلى الإبل، فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهمـا حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيـبهما، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذى طلقـتك بسببه. نترك أولادنا وليس لهم شىء، فقال لهـا: ويحك يا ماوية الذى خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها فى بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً، فيقصدها، ولم يكن حـاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لايجـود بهما، ثم جاد بفرسه فى سنة مجدبة.

حكى أن ملكان ابن أخى ماوية قال: قلت لهـا يوماً: يا عمة حديثنى ببعض عجـائب حاتم وبعض مكارم اخلاقه، فقالت: يا ابن أخى اعـجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذنى وإياه الجـوع وأسهرنا، فاخذت سفانة، واخذ عدياً، وجعلنا نعللهما حـتى ناما، فاقبل علىَّ يحدثنى ويعللنى بالحديث حتى أنام، فرفقت به لما به من الجوع، فامسكت عن كلامه لينام، فقال لى: أنمت؟ فلم أجبه، فـسكت ونظر فى فناء الخباء، فإذا شىء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امـرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدى أتيـتك من عند صبية يتعاوون كـالكلاب أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضرى صـبيانك، فو الله لأشبعنهم، فقامت سريعـة لأولادها، فرفعت رأسى وقلت له: ياحاتم، بما تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيـانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشـبعنك وأشبعن صبيـانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً، واخـذ المدية بيده وعمد إلى فرسه، فـذبحه، ثم أجج ناراً ودفع إليها الشفـرة، وقال: قطعى واشوى وكلى واطعمى صبيانك، فاكلت المرأة وأشبعت صبيـانها، فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مـثل حالكم، ثم أتى الحى بيتاً بيـتاً يقول لهم انهضوا الـنار، فاجتمعـوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسـائه وجلس ناحية، فوالله مـا أصبحوا وعلى وجه الأرض مـنها قليل ولا كثير إلا الـعظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعاً، وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره:

أمـــــــــاوىَّ إنَّ المـال غـــــــــادٍ ورائـح ويبـــــقى من المال الأحـــــاديـث والذكـــــرُ
وقـــــد عـلم الأقـــــوام لو أنَّ حـــــاتماً أراد ثـراءَ المـال كـــــــان لـه وفــــــــرُ

وأغار قوم على طيىء، فـركب حاتم فرسه وأخذ رمـحه ونادى فى جيشه وأهل عـشيرته، ولقى القوم، فهـزموهم وتبعهم، فـقال له كبيرهم: يا حاتم هب لى رمـحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عـرضت نفسـك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلـك. فقال: قد عـلمت ذلك، ولكن ما جواب من يقـول هب لى؟ ولما مات عظم على طيىء مـوته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فـقالت له أمه: هيهـات شتان والله ما بين خلفـتيكما، وضعتـه، فبقى والله سبعة أيام لايرضع حتى ألقمت إحدى ثدى طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر، فأنَّى لك ذلك. قال الشاعر:

يعـــيش الندى مـــا عـــاش حـــاتمُ طيِّىء وإن مـــات قـــامت للســـخـــاء مـــأتمُ

وكانت العرب تسمى الكلب داعى الضمـير، ومتمم الغم، ومشيد الذكر لما يجلب بمن الأضياف بـنباحه. والضمير: الغـريب، وكانوا إذا اشـتـد البرد وهبت الريـاح، ولم تشب النيران فـرقـوا الكلاب حوالى الحى وربـطوها إلى العمـد لتستوحش فتنبح، فـتهدى الضلاَّل وتأتى الأضياف على نباحها. والحكايات فى ذكر الأجـواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف ومـا كانوا عليه من الـسخاء والكرم أكثر من أن تحـصر واشهـر من أن تذكر. ففى مثل هـذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن الصيت وخلود جميل الذكر، فإنا لم نجد شيئاً يبقى على مر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شـىءَ يـدوم فكـنْ حـــــــديثـــــــاً جـــمـــيلَ الذكـــر فـــالـدنيـــا حـــديثُ

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وادخر نفسك فى القيامة كما ادخروا، واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو، فاختر أى الثلاث شئت.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوئ القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته. وقيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلى وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة[1] فمر به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فحّاشاً عليهم، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم تمراً، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار كم تعير وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لِمَ لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه، وأنشد بعضهم:

وهبنى جمعت المالَ ثم خزنته ... وحانت وفاتى هل أرادُ به عمرا
إذا خَزَّنَ المالَ البخيلُ فإنّه ... سيورثه غمّا ويعقبه وزراً

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً فى مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فَوَقَّعَ على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه». وقال ابن أبى فنن:

ذرينى وإتلافى لمالى فإنّنى ... أحبّ من الأخلاق ما هو أجملُ
وإنّ أحقّ الناس باللوم شاعرٌ ... يلوم على البخيل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدى بخيلاً جداً، أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج، فحدا له يوماً يقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نورهُ ... يزينه حياؤه وخيرهُ
ومسكه يشوبه كافوره ... إذا تغدّى رُفعت ستورهُ

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: ياربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، ياربيع: وكل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية[2]، ومروان بن أبى حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل، قال مروان: ما فرحت بشىء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدى، فوزنتها فرجحت درهماً، فاشتريت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما

---

(١) الحُطَيْئَة: هو جرول بن أوس بن مالك العبسى، أبو مُلَيكة، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه له «ديوان شعر». توفى سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م).

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزى، العنزى (من قبيلة عنزة) بالولاء، أبو إسحاق الشهير بالعتاهية، شاعر مكثر، سريع الخاطر، فى شعره فن وإبداع توفى سنة (٢١١هـ - ٨٢٦م).

وضعه فى القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب ينقصان دانقين، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتاز يوماً بأعرابيه، فأضافته فقال: إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً، فوهبه سبعين ألف درهم، فوهبها أربعة دوانق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال: إن من عادتهم إذا ترافقوا فى سفر أن يشترى كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها فى خيط ويجمعون اللحم كله فى قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق. وقيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبراً، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسونى؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أنبتتْ لك واحتشتْ إبراً يضيق بها فناءُ المنزل
وأتاك يوسُفُ يستعيرك إبرةً ليخيطَ قدَّ قميصه لم تفعلِ

وكان المتنبى بخيلاً جداً مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير. قال له: والله لو تدفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة مادفعت لك دانقا[1]. وقال دعبل: كنا عند سهل بن هارون، فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك ياغلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إنى لأكره من يرمى برجله، فكيف برأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أنى لا آكله، أما قلت عنده من يأكله. انظر فى أى مكان رميته فأتنى به. فقال: والله لا أدرى أين رميته، فقال: ولكنى أنا أعرف أين رميته. رميته فى بطنك، الله حسبك. وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس. قال بعضهم فى أبى دلف:

أبو دلفٍ يُضيِّع ألفَ ألفٍ ويضربُ بالحسام على الرغيف
أبو دلفٍ لمطبخه قتارٌ ولكن دونه سلّ السيوف

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره، ووجده يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخى لأهل بيتنا النخالة فإنى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغداء، فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبيح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة، وقد علق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن تشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود، لمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراسانى: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت فى ذلك من المسرفين. وقال الهيثم بن عدى: نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

---

(1) الدانق: سدس الدرهم.

يا أيها الخارج من بيته ... وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له ... فارجع وكن ضيفاً على الضيف

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان. فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبال كثروا أم قلوا. وألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذه البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت ... وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضاً:

تُجهز كفاهُ ويحدر حلقُه ... إلى الزور ما ضمّت عليه الأنامل

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا جبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها. وقال الأعرابي: لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة يوماً ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وُضِع الخوان ولاح شخصٌ ... لأختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيضٌ ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق إليه ... بيت لم يُرد فيه القيام
أبي وَابْنَا أبي والكلبُ عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعام
وقال له ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضام
إذا حضر الطعام فلا حقوق ... على لوالديَّ ولا ذمام
فما في الأرض أقبحُ من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

فأين هذا من القائل:

بخيل يرى في الجودِ عاراً وإنما ... يرى المرء عاراً أن يضنّ ويبخلا
إذ المرء أثرى ثم لم يُرج نفعه ... صديقٌ فلاقته المنية أوّلا

وقال آخر:

وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إليه ما حييت سبيلُ
أرى الناس إخوان الكريم وما أرى ... بخيلاً له في العالمين خليل

وقالوا: إذا سألت لئيماً فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً، وقال ربعي الهمداني:

جمعت صنوف المال من كلّ وجهة ... وما نلتها إلاّ بكفٍّ كريم
وإن لأرجو أن أموت وتنقضي ... حياتي وما عندي يدٌ للئيم

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

مـــنّ تـــعــــلــــمـــت هــــذا ... أن لا تجـــــــود بـــشـــئ
أمـــــا مــــــررت بعــــبـــــد ... لـعـــــبـــــد حـــــاتم طـــئ

وعما قالته الشعراء فى البخلاء وطعامهم فمن أهجى ما قيهم بيت جرير فى بنى تغلب

والتــــغــلبى إذا تـنحنح لـلقـــــرى ... حك إســـتـــــه وتمثل الأمــــثـــــالا

له أيضاً فيهم:

قـــــومٌ إذا أكـلوا أخـــفـــوا كـــلامـــهم ... واســـتــوثقـــوا مـن رتاج البـــاب والدار
قـــوم إذا اســـتنبح الـضـيــفـان كلبَــهُمُ ... قـــــالوا لأمّـــــهم بـولى عـلـى النـار
فـــتـمنع البـــولَ شـحّـــا أن تجـــود به ... ومـــــا تـبـــول لـهم إلاّ بمقـــــدار
والخـــبـــز كـــالـعنبـــر الهـندى عنـدهم ... والقـــمح خـــمـــســـون أردّبا بدينار

فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر:

أبـلجُ بـين حـــاجـــبـــيـــــه نـوره ... إذا تـغـــــدى رفـــعـت ســـتـــوره

وقال بعضهم فى بخيل:

أتـانا بـخـــيـلٌ بخـــبـــزٍ لـه ... كـــمـــثل الـدارهم فـى رقـــتـــه
إذا مـــــا تـنفـس حـــــول الخـــوان ... تطـاير فـى البـــيـت من خــفـــتـــه

وقال آخر:

تراهم خـــشـيـــة الأضـيـــاف خـــرســـاً ... يـقـــيـــمـــون الصـــلاة بـلا أذان

وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فـــبـــتـــنـا كـــأنا بـينهم أهـل مـــأتم ... علـى مـيّـتٍ مـــســتـــودعٍ بطـن ملحـــد
يحـــدّث بعـــضـنا بعـــضًـــا بمصــــابه ... ويأمـــــر بعـــضـنـا بعـــضًـــا بـالتـــجلد

وقال آخر:

وجـــيـــــرة لا نرى فـى النـاس مـــثلهم ... إذا يـكـون لهـم عـــيـــــداً وإفـطـار
إن يوقـــــدوا يوســــعـــونا من دخـــانهم ... ولـيـس يـبـلـغـنا مـــــا تـطـبـخ الـنـار

وقال آخر وأجاد:

فـصـــدق إيمانه إن قـــال مـجـتـهـــداً ... لا والرغـــيف فـذاك البـــرّ من قـــســـمـــه
فـــإن همـــمـت به فـــاعـــبث بـخـبـــزته ... فـــإنّ مـــوقـــعـــهـــا من لحـــمـــه ودمـــه
قـــد كـــان يعـــجـــبنى لو أنّ غـــيـــرته ... علـى جـــرادقـــه كـــانـت على حـــرمـــه

وقال آخر:

ذهـب الـكـرام فـــــلا كــــــرام ... وبـقى العـــضـــاريط الـلـئـــام
مـــن لايُـقـــــــيـــل ولا يـنـيـــ ... ـــل ولا يُـشَـمُّ لـه طـعـــــام

وقال آخر:

خليلي من كعبٍ أعينا أخاكما على دهره إنّ الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى نداه حزين

وقال آخر:

إذا جئته في حاجة سدّ بابه فلم تلقه إلاّ وأنت كمين

وقال آخر:

له يومان يوم ندى ويومٌ يسل السيفَ فيه من القراب
فأما جوده فعلى قحابٍ وأما سيفه فعلى الكلاب

وقال آخر:

زففت إلى نبهانٍ من صفو فكرتي عروساً غدا بطنُ الكتاب لها صدرا
فقبّلها عشراً وهام بحبها فلما ذكرت المهر طلّقها عشرا

وقال آخر:

لو عبَّرَ البحر بأمواجه في ليلة مظلمة باردة
وكفّه مملوءة خردلاً ما سقطتْ من كفه واحدة

وقال آخر:

يا قائماً في داره قاعداً من غير معنىً لا ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القتاد وخبزك كالثريا في البعاد
فلو أبصرت ضيفاً في منام لحرمت الرقاد إلى المعاد

وقال آخر:

لا تعجبنّ لخبز زلّ من يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا قد مدحت فتىً كريماً فقلتُ وكيفَ لي بفتىً كريم
بلوتُ ومرّ بي خمسون حولاً وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحدٌ يعدّ ليوم خيرٍ ولا أحدٌ يجود على عديم

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء

وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤا على ذمي واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إليَّ أمل آمل ولا يبسط نحوى رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن نـقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعـرف بها وقت استثقالك لمجـالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقـول ياغلام هات الغداء. وقال عمرو بـن ميمون: مررت ببـعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخـاصم جاراً له، فقلت: مـابالكما؟ فقـال أحدهما: إن صـديقاً لى زارنى فاشتهى رأساً فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضـعتها على باب دارى أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذى اشترى الرأس. قال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لى لحماً فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده إلا عظمة، وعيـون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطى أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أتـمشمها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقـيلاً قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت وألحـسها حتى لايدرى أحد لعام هى أم لعامين. قال: لست بصاحبـها، فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها، وهى لك زادك الله معرفة وحزماً. ووقف أعرابى على باب أبى الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعـزم عَليه، فقال له الأعرابى: أما إنى قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى. قال: كذلك كـان عهدى بها. قال. قد ولدت. قال: كان لابد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخـر. قال: ما كـان ليبقى بعـد موت أخيـه. قال: وماتت الأم. قـال: حزناً على ولديها. قـال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحـدى ووالله لاذقته يا أعرابى. وقيل: خرج أعـرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مـدة طويلة، فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيـه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جـائعاً، فـسأله عن أهله وقال: ما حال ابنى عمير؟ قال: على ما تحب قد مـلأ الأرض والحى رجالاً ونـساءً. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضـاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلهـا. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحى نبحـاً، قال: فما حال جملى زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمـه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابى ثم أقبل عليه يسـأله وقال: يا مبارك الناصـية أعد على ما ذكـرت، قال: سل عما بدا لك، قـال: فما حال كلبى إيـقاع؟ قال: مات. قال: وما الذى أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظـام جملك زريق فمات. قال: أوَمات جملى زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أوَ ماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عـمير. قال: أو مات عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذى أمـاته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أوسقطت الدار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت فى سـفر فضللت عن الطريق فـرأيت بيتاً فى الفـلاة فأتيتـه، فإذابه أعرابيـة فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضـيف. قالت: أهلاً ومرحـباً بالضيف انزل على الرحب والسـعة، قال: فنزلت فـقدمت لى طعاماً فأكلت، ومـاء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقـبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقـالت: ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً مـا لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركـبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغـد رأيت بيتاً فى الفلاة فقـصدته فـإذا فيه أعـرابية فلما رأتنـى قالت: من تكون؟ قلت: ضيـف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضـيف وما لنا وللضيف؟ فـبينما هى تكلمنى إذ أقـبل صاحب البيت فلـما رآنى قال: من هذا؟ قالت: ضـيف. قال: مرحـباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مـر بى بالأمس فتبسمت، فقال: مم تبسمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لاتعجب إن تلك الأعرابية التى رأيتها هى أختى وإن بعلهـا أخو امـرأتى هذه، فغلب على كلٍّ طبعُ أهله. وحكايات هؤلاء وأمـثالهم كـثيرة وأخـبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية. وأسأل الله تعـالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا الله العلى العظيم وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال رسول الله ﷺ: «محرم الحلال كمحلل الحرام». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه». وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول: ليس فى اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضيل عمن يترك الطيِّبات من اللحم والخبيص[1] للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليتك تأكل وتتقى الله إن الله لايكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برُّك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف إحسانك إلى من أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها: فقد نقل الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضى على غائب. فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلّما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لايقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: احكم. قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً. وسمع الحسن البصرى رجلاً يعيب الفالوذج فقال: لباب البرِّ بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعى: أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان. وأتى أعرابى بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم. وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة وهو يزيد فى السمع ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل». وكان ﷺ يحب الدباء[2] ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهى شجرة أخى يونس». وعنه ﷺ أنه قال: «عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة». وعن أبى رافع قال: كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط معاوية ويصلى خلف على ويجلس وحده. فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف على أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدى لى أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون، وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد فى العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح وهم يقولون: إن الأرز يرى منامات حسنة، ومن رأى مناماً حسناً كان فى نهارين فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبى الحرث: ما تقول فى الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا. وكانت العرب لاتعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه فاتخذ الألوان. ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتى بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقى اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طريًا فإنه لايتغير. ويقال للسكباج[3]: سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز: ابن حبة. قال بعضهم:

---

(١) الخبيص: الحلواء.

(٢) الدباء: القرع.

(٣) السكباج: لحم يطبخ بخل.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز قالوا: وما كرامته يارسول الله؟ قال: «لاينتظر به الأدام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره». وفى الحديث: «من داوم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه»، وقيل: المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان. ودخل ابن قزعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه، فقال: ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنه حشيت زبداً وعسلاً، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلاً يذم الزبد فقال له: ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول فى الباذنجان، فقال: أذناب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم. قيل له: إنه يحشى اللحم فيكون طيِّباً، فقال: لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح. وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزازان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أولم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً. وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه: إنى اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الأصبهانى، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحى ربك إلى النحل. وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عيناً لأبى مسلم الخولانى على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك:

تجنَّبْ سويقَ اللوز لاتقربنَّهُ ... فشُربُ سويق اللوز أردى أبا جهم

وقال أبو طالب المأمونى:

فما حملت كفّ امرىء متطعما ... ألذّ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة. ودخل السائب على على رضى الله عنه فى يوم شات، فناوله قدحاً فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفئاً شبعان سائر يومك. وعن نافع بن أبى نافع قال: كان أبو طالب يعطى عليًا قدحاً من اللبن يصبه على اللات، فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد فى المآكل: فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم من لايقدر عليه. قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: والذى بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف. وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفعه: «نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه». وقال عمر رضى الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضى الله عنها: ما كان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول الله ﷺ، إن كان لحماً لم يكن خبزاً وإن كان خبزاً لم يكن لحماً، وعن النبىّ ﷺ أنه قال: «يا على ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء». وروى أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما. وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء فى آداب الأكل: فقد قال رسول الله ﷺ: «من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: «بسم الله اللهمّ بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه»، وقال ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره». وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «قال: رسول

الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»، وقال ﷺ: «الأكل في السوق دناءة». وعن أنس رضى الله تعالى عنه «أن النبيّ ﷺ زجر عن الشرب قائماً قال: فسألناه عن الأكل قائما فقال: هو شرٌّ من الشوب». وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تلتفتن يميناً ولا شمالاً ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولاتبصق فى الأماكن النظيفة. ومن هذا ما رواه الزهرى أن النبيّ ﷺ نهى عن النفخ فى الطعام والشراب، وقال على رضى الله تعالى عنه: «نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حاراً». وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «ما عاب النبيّ ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه». وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة قيل: وما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك. وعن النبيّ ﷺ قال: «من أكل من سقط المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده وولد ولده من الحمق»، وعنه ﷺ: «من سقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار». وكان الحرث بن كلدة يقول: إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. وقال الحجاج لأعرابى يوماً على سماطه: ارفق بنفسك فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من لقمتك فقال: وإنك تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى، لا أكلت لك طعاماً أبداً. ووضع معاوية بين يدى الحسن بن على رضى الله عنهما دجاجة، ففكها فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالأدب والرسوم المستحسنة رضى الله تعالى عنهما. وأحضر أعرابى على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدى مشوى فجعل الأعرابى يسرع فى أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

وأما ما جاء فى كثرة الأكل: فقد روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ: «من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه». وعنه ﷺ: «لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات». وقال ﷺ: «ما زين الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه»، وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضاحكاً إلا مرة واحدة، فقال رجل من جلسائه: ما آذانى طعام قط فقال له آخر: أنت لو كانت فى معدتك الحجارة لطحنتها. وقال علي كرم الله وجهه: البطنة تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شرهاً أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعامًا تحمد مناماً، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأكّال كأكل العبدِ ... ولا بنوامٍ كنوم الفهد

وأنشد الأصمعى لرجل من بنى فهد:

إذا لم أزرْ إلاّ لآكلَ أكلةً ... فلا رفعت كفى إلى طعامى

فما أكلةٌ إن نلتها بغنيمةٍ ... ولا جوعةٌ إن جعتها بغرام

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشترى غلاماً فألقى بين يديه تمراً فأكل فأكثر فقال ﷺ: «إن كثرة الأكل شؤم». وقالوا: الوحدة خير من جليس السوء، والجليس السوء خير من الأكيل السوء. وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد، ودعت أبا الحرث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاع فطلب الأكل فقالت له: أما فى وجهى ما يشغلك عن الأكل، قال: جعلت فداءك لو أن جميلاً وبثينه قعدا ساعة لايأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا.

وأما أخبار الأكلة: فقد قيل: إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بلح. ومر ميسور المذكور يوماً بقوم وهو راكب حماراً، فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره وطبخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو فى بطنك. وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازنى ما أكلة بلغتنى عنك، قال: جعت مرة ومعى بعير لى، فنحرته وسويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئا يسيراً حملته على

ظهرى، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت: كيف تصل إلىَّ وبيننا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعى: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهاً نهماً وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود عليه الدجاج السمين المشوى لايصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل، فيأخذ بكمه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها، فقال الرشيد: ويحك يا أصمعى ما أعلمك بأخبار الناس إنى عُرِضَتْ علىَّ جباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظننته طيباً حتى حدثتنى، ثم أمر لى بجبة منها، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلىَّ، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندى جدى كأعظم ما يكون سمناً، قال: عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن، فجعل يأكل منه ولايدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذاً قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إنى صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل ويلك أما عندك شىء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شىء؟ قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى اتى عليه، ثم قال يا غلام: افرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ماهو؟ قال: نيف وثلاثون قدراً، قال: ائتنى بقدر قدر، فأتاه بها ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثه، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقعد وأكل مع الناس. وكان هلال ابن الأسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظاً عتلاً وقال أعرابى لرجل رآه سميناً: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك. وقال أبو المحسر الأعرابى: كانت لى بنت تجلس على المائدة فتبرز كفًا كأنها صلفة فى ذراع كأنه جمارة، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتنى بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لى فيبرز كفاً كأنها كرنافة، فوالله لن تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الالتقام، وعصا موسى فى سرعة الالتهام.

وقيل لأبى مرة: أى الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد أضرب فيه ضرب ولى السوء فى مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازنى: أولم لى أبى لما تزوجت، فعمل عشر جفان ثريد من جزور، فكان أول من جاءنا هلال المازنى، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها فى شدقه وفرغها فى جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام. وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات، فخرج يوما يريد الكوفة، فقال له رجل من بنى شيبان: الغداء أصلح الله الأمير، فنزل، فذبح له عشرين طائراً من الأوز، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل ثم أتى بزنبيلين فى أحدهما تين، وفى الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع. وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدى، فقال: دعوت يوماً بالفيل وأمرت، فألقى إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وألقى إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولايشبع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر العدس، فحمله وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلغنى أن بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتى، فإنى قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك علىَّ.

وأما المهازلة على الطعام: فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضى الله عنها: كان عندى رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حريرة، فجئت به، فقلت لسودة: كلى، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لألطخن وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت من الصحفة شيئاً، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها، فتناولت من الصحفة شيئاً، فلطخت به وجهى، وجعل رسول الله ﷺ يضحك. واشترى غندر

يوماً سمكاً وقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إليَّ السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعت. ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولايمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتمونى ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا. والحكايات فى ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام: فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات: ٢٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «من أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلاً؟ قال بثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذى لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لى به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لايحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مرزوقة. أى من كان مضيافاً وسع الله عليه، وقالوا: أول من سن القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الإسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائد على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لايعود منه شىء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجنى إلى أن أفد الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة فى الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً ... قراك وأرمته لديك المسالكُ
فكن باسماً فى وجهه متهللاً ... وقلْ مرحباً أهلاً ويوم مباركُ
وقدِّمْ له ما تستطيع من القرى ... عجولاً ولاتبخل بما هو هالكُ
فقد قيل بيتٌ سالفٌ متقدمٌ ... تداوله زيدٌ وعمروٌ ومالكُ
بشاشة وجه المرءِ خيرٌ من القرى ... فكيف بمن يأتى به وهو ضاحكُ

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، وقال حاتم الطائى:

سلى الطارقَ المعتبر يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
أأبسط وجهى إنه أول القرى ... وأبذل معروفى له دون منكرى

وقال آخر فى عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتىً ... وخيرهم لطارقٍ إذا أتى

ولله در القائل:

الله يعلم أنه ما سرَّنى ... شىءٌ كطارقة الضيوف النزّل
ما زلت بالترحيب حتى خلتنى ... ضيفاً له والضيف ربُّ المنزلِ

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت ربُّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره نحن سواءٌ فيه والطارقُ

وكلّ ما فيه حلالٌ له إلاّ الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أوَما سمعت قول عاصم بن وائل:

وإنّا لنقرى الضيفَ قبل نزوله ونشبعه بالبِشرِ من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل راحله ويخصب عندى والمحلّ جديبُ

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنّما وجه الكريم خصيبُ

وقال آخر:

عودت نفسى إذا ما الضيف نبّهني عقرت العشارِ على عسرٍ وإيساره

ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندى تلو صاحبه لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجلّ؟ ﴿وامرأته قائمة﴾ [هود: ٧١]. ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولاينام قبلهم، ولايشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لايحدث بما يروعهم به. كما حكى بعضهم قال: استدعانى إسحاق بن إبراهيم الظاهرى إلى أكل هريسة فى بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا، فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئاً لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لانعقل. فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولايعبس بوجهه ولايظهر نكداً، ولاينهر أحداً ولايشتمه بحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطاً وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد فى أول النهار يخدم القوم ويأنسون به، ففى آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لاتصرخ ولاتبكى إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن تصلى على ولدى، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته، فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغى لعاقل أن ينغص على أضيافه فى التذاذهم ولايكدر عليهم فى عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا، وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم، ويسهل حجابه وقت الطعام ولايمنع وارداً. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لايعرفه الأمير ويحترز عن العدو، فقال: إن عدواً يأكل طعامنا ولاينخدع لايمكنه الله منا، والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك، وأن يرى أضيافه مكان الخلاء، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فأره الكنيف فإنى ابتليت به مرة، فوضعته فى قلنسوتى. وقالوا: لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة.

وقد قصد النبيّ ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى، وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم. وكان لعون بن عبد الله المسعودى ثلاثمائة وستون صديقاً، فكان يدور عليهم فى السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضى الله عنها، فأكل طعامها وهى غائبة، وكان الحسن رضى الله عنه يوماً عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع؟ فقال له: يا لكع اتل علىّ آية الأكل، فتلا: ﴿ولا أعلى أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إلى قوله: ﴿أو صديقكم﴾ [النور: ٦١] فقال الصديق: من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، وعلى المضيف الكريم أن لايتأخر عن أضيافه ولايمنعه عن ذلك قلة ما فى يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر. ويقولون: ما ندرى أيهما أعظم وزراً الذى يحتقر ما قدم إليه أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضى الله عنه، عن النبىّ ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حكى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفرانى ببغداد، فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعى منها يوماً وألحق فيها لوناً آخر، فعرف الزعفرانى ذلك، فأعتق الجارية سروراً بذلك، وكانت سنّة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهى. ومن السنّة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لاينتظر من يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضنى: سراج لايضىء، ورسول بطىء، ومائدة ينتظر لها من يجىء، ونزل الإمام الشافعى رضى الله عنه بالإمام مالك رضى الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يرعك ما رأيت منى، فخدمة الضيف على المضيف فرض:

اعرض طعامك وابذله لمن أكلا	واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابرى العرضِ محتشماً	من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البخلاء من يعزم على الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهى أن تبقى على حالها، ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده.

وحكى عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لايأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلا بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلاً يا أخى والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحكى عن بعضهم أنه قال: غلب علىّ الجوع مرةً، فقلت: أمضى إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتنى كسرة، قال: فرجعت هارباً. ومن البخل تقديم الشىء اليسير وتفخيمه.

وحكى عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه، وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لاتستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذى يقول:

قالت أمـا ترحلُ تبغى الغنى	قلت فمن الطارق المعتم

قالت فهل عندك شيءٌ له قلت نعمْ جهد الفتى المعدمِ
فكم وحق الله من ليلة قد أطعمُ الضيفَ ولم أطعم
إنّ الغنى بالنفس ياهذهِ ليس الغنى بالمال والدرهمِ

وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغ القرى طاوى الحشى لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات له منّا إلى الصّبح شاتمٌ يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف: فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف فى أمور منها: أكل الطعام، ولايعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن. فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابى: إذا كان هذا، فكن ضيف غيرى، فإنى لا أرى أن تمدحنى فى البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك.

وحكى عن بعض التجار قال: استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشاً من تجارتى، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه، فقال: يافلان. ما هذا الخلق العامى؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة فى لقمة والتفاحة فى لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت جيداً ثم انصرفت، فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاءنى غلامه ببغلته، فاستدعانى إليه، فقال: يا فلان إنى قليل الأكل بطىء الهضم، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لاتنقطع بعدها عنى، قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى، فحصل له بقربى منه مال كثير وجاه عريض.

ومن آداب الضيف أيضاً أن لايسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لايتطلع إلى ناحية الحريم وأن لايخالفه إذا أجلسه فى مكان وأكرمه به، وأن لايمتنع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل فى بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيداً على أضيافه سيىء الخلق بهم، فبلغ ذلك من الأذكياء، فقال: الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفى. قلت: نعم فسار بين يدى إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لى، فدخلت، فأجلسنى فى صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسنى، وأعطانى مسنداً، فاستندت إليه، فأخرج لى شطرنجاً، وقال: أتتقن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه، وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدى، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدى بعد أن قدم نعلى، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: ياسيدى أنشدك الله إلا فرجت عنى كربة؟ قال: وما هى؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى دارى، فأجلسه فى الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده علىَّ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكننى من ذلك، فأقول فى نفسى لايحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه، وفى معنى ذلك يقول بعضهم:

لاينبغى للضيف أن يعترض إن كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للإنسان فى بيته إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط، إلا أن يكون بدويا، فإنها عادته. ومنها أن يتبع طريق الشرهين

كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيه الزبادى والأمراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكى وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولـده الصغير. ومنها: **قبح المؤاكلة**، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفـاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامى والمجنح والشطرنجى والمهندس والمتمنى والفضولى.

فأما **المتشاوف**: فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعـام، فلا تراه إلا متطلعاً لناحيـة الباب يظن أن ما دخل هو الطعام. وأما **العداد**: فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ويعـد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. **والجراف**: هو الذى يجـعل اللقم فى جـانب الزبدية ويجـرف بهـا إلى الجانب الآخـر. **والرشاف**: هو الذى يجعل الـلقمة فى فـيه ويرتشفها، فيـسمع لها حين البلع حس ولايخفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك. **والنفاض**: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية. **والقراض**: هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبهـا ويضعها فى الطعام بعد ذلك. **والبهات**: هو الذى يبهت فى وجه الآكلين حتى يبهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم. **واللتات**: هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام. **والعوام**: هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادى. **والقسام**: هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقـيها فى الطعام من فيه. **والمخلل**: هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره، **والمزبد**: هو الذى يحمل معه الطعام. **والمرنخ**: هو الذى يرنخ اللقمة فى الأمراق، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية. **والمرشش**: هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيـرش على مؤاكليه. **والمفتش**: هو الذى يفـتش على اللحم بأصابـعه. **والمنشف**: هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها. **والملبب**: هو الذى يملأ الطعام لباباً. **والصباغ**: هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. **والنفاخ**: هو الذى ينفخ فى الطعام. **والحامى**: هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحـميه من مؤاكليه. **والمجنح**: هو الذى يزاحم مؤاكليـه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلـس، فلا يشق عليه الأكل. **والشطرنجى**: هو الذى يرفع الزبدية ويضع زبدية أخرى مكانها. **والمهندس**: هو الذى يقـول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه ههنا، حـتى يأتى قدامه ما يحب. **والمتمنى**: هو الذى يقـول: ليتنى لم يكن مـعى من يأكل. **والفضولى**: هو الذى يقـول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقى عندك فى القدور شىء، فاطعم الناس، فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضيـاف من لايلذ له حديث إلا وقـت غسل يديه، فيـبقى الغـلام واقفـاً والإبريق فى يده والناس ينتظرونه. ومنهم من يغسل يـديه بالأشنان مرة واحدة، فـإذا اجتمع الوسخ والزفـر تسوك بهمـا. ومنهم من يدخل بالدار فيبتدئ بالهندسة أولاً، فيقول: كان ينـبغى أن يكون باب المجلس من ههنا، والإيوان كان ينبغى أن يكون من ههنا، وينتقل من الهندسـة إلى ترتيب المجلس، فـينقل الفاكهة من موضعها إلى مـوضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعـه استعفى من الطعام، وذهل عن بقيـة الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم من يخـرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فـيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قـال: أكلت فى بطنى، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شـربت فى فمى. ومنهم من يفهم عن صاحب الدعـوة أنه يقول لغلامه: اشتـر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الـثلاث يلزمه ما يشترى شـيئاً فأذوقـه، فيعجـز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكـن فى بيته شىء موجـود، وليت شعرى إذا كـان لايأكل فلأى شىء حضر. ومنهم من يرى صاحب البيت قـد أسرّ إلى صديقه شيئاً، فيقـول: ما الذى قال المولى لصاحبنا، وهو لايريد أن يعلمه، ومنهم من يسـتعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجـوع ويظن أن ذلك بسط مكارم الأخلاق، وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس. ومنهم مـن يقول لصاحب الدعوة: من يغنى لينا، فيقول: فـلان، فيقول له: غلطت لمَ لا دعوت فـلاناً، ومنهم من يـسأل صاحب الـبيت، كيف قـوته فى النكاح، فيقـول له: أنا رجل كبيـر قد ضعـفت قوتى وشهوتى، أو يقـول: ما لى قوة طائلة فى ذلك، فـيقول: أنا والله كلما مر علىّ عام تزايدت شهوتى وكثـر لهذا الفن تشوفى، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم من يشكو حـاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليـهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتـنقل زوجـة صاحب البيت ما هى فيه

مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها منه، ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن فى نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لايبطىء عنه، ومنهم من يقال له: العب الشطرنج، فيأباه ويشتغل بالدندنة، فيقع فى الفضول. ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم، ومنهم من يقول له صاحب البيت: كلْ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقى. ومنهم من يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل: فتح الله عليك، ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع فى ذلك. نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار

وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجلّ نبيّه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر: ٨٥]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنّة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس». وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود». وقال الحسن بن أبى الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال على كرم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبب إلىّ العفو حتى أنى أخاف أن لا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حبى للعفو لما تقربوا إلىّ إلاّ بالجنايات. وقال على كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال رضى الله تعالى عنه: أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه. وقال رضى الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصار له على الجاهل. وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم. وقال ابن المعتز: لاتشن وجه العفو بالتقريع به. وقيل: ما عفا عن الذنب من قرع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك عنى، فقال له: وعنك أعرض. وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقى عرفت له فضله، وإن كان مثلى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه، وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. كنا نختلف إليه فى الحلم كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفاً، فقال: ذعرتم أخى، أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدى ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيراً وتعزية ... إحدى يدىّ أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكريم سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد فى العالمين ذكره، والعرب تقول: لاسؤدد مع الانتقام، والذى يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لايجعل العقوبة شيمته، وإن كان لابد من الانتقام، فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجان عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدى بك خطيباً لَسِناً؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقفُ توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعى، ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على والتعصب لهم، فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبى، ثم قال:

فـهـبـنى مـسـيـئـاً كـالذى قلت ظالماً ... فـعـفـواً جـمـيـلاً كى يـكون لك الفـضلُ
فـإن لم أكن للـعـفـو منك لـسـوء مـا ... أتـيـت بـه أهـلاً فـأنـت لـه أهـل

فعفا عنه، وأمر له بصلة. وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً، فقال له: أنت الذى فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذى أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلى سبيله. وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن إقرارى يلزمنى ذنباً لم أفعله، ويلحق بى جرماً لم أقف عليه، وإنكارى رد عليك، ومعارضة لك، ولكنى أقول:

فـإن كنـت تبـغى بـالعـقـاب تشـفـيـاً ... فـلا تزهدن عـند التـجـاوز فى الأجـر

فقـال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، مـا أمضى لسانك، وأثبت جنانك وعـفا عنه وخلى سبيله. وركب يوماً عمرو بن العاص رضى الله عنه بغلة له شهباء، ومر على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير، فيـسأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلمَ ركبت دابة إشهاب وجهها؟ فقال: إنى لا أمل دابتى حتى تملنى، ولا أمل رفيقى حتى يملنى. فقـال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت. أمى النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتى بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فارجـع وخذه، وأرسل عنان الدابة. وقيل: إن أمه كـانت بغياً عند عـبد الله بن جدعان، فوطئـها فى طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سـفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فولدت عمراً، فادعـاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقـالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذى كان ينفق عليـها. وقالوا: كان أشبـه بأبى سفيان. وكان الواثق يتـشبه بالمأمون فى أخلاقـه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغـير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محـمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسعنا عدلكـم، فقال: إذاً لايبق على وجه الأرض منك أحد لأنكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه، ومنعـتم حقه، وسممتم الحسن رضى الله عنه، ونقضـتم شرطه، وقتلتم الحسين رضى الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم وضربتم على بن عـبد الله ظلماً بسيطاكم، فعدلنا لايبقى منكم أحداً، فقالت: فليسعنا عفوكم، قال: أما هذا فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبالغ فى الإحسان إليها.

وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إنى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لايسعه حلمى، وذنب لايسعـه عفوى، وحاجة لايسعها جودى، وهذه مـروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً: ما أشبه إستك بإست أمك، فقال: ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر إليه من شىء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب. أمابعد، يابنى عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصى ولبـاب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعـقولكم الكاسية؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود لمثله إلى أن يغيب فى الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صـدقت وقلت حـقّـا غـيـر أنى ... أرى أن لا أراك ولا تـراني
ولسـت أقـول سـوءاً فـى صـديقى ... ولـكننـى أصـد إذا جـفـاني

فركب إليه معاوية رضى الله عنه، وناشده فى الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع.

وحكى عنه رضى الله عنه أنه لما ولى الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامـتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده فـى مراده القدر المقدور، اسـتحضر ليلة خـواص أصحابه وذاكرهم، وقـائع أيام صفين، ومن كان يتولـى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم

بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب علي تسمعهم كلاماً كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لقابل، والمسالم لحارب، والفار لكرّ، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: بئسما اشرتم، وقبحاً لما قلتم أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها، إنى إذاً للئيم، لا والله لا فعلت ذلك أبداً. ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليّ الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهّد لها وطاء ليناً ومركباً ذلولاً، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها فى هودج، وجعل غشاءه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت إلى معاوية قال لها: مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب، والدهر ذو غِيَر ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لايضيء فى الشمس، وإن الكواكب لاتضيء مع القمر، وإن البغل لايسبق الفرس، ولايُقطع الحديد إلا بالحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لايستوى المحق والمبطل، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[السجدة: ١٨]، فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت عليًّا فى كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه، فقال معاوية: أوَقد سرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له فى حياته، فاذكرى حوائجك تقض. فقالت: يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفس أن لا أسأل أحداً بعد على حاجة، فقال: قد شار عليّ بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء و أعطى من غير مسألة، قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى، فانههم عن ذلك، وإلا كان لى ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بنى ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال: بل غير ذلك خير منه يابنى، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله ﷺ، وساءنى ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه، نزلت عن أرضى لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يابنى من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء، فداوه بمثل هذا الدواء.

ولما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر إليه. فبينما هو كذلك إذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه، فأتى الحجرة ودق الباب، فلم يكن من فتحه بد، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا فى قصرى، وتحت جناحى تهتك حرمتى، وأنت فى قبضتى، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل وقال: حلمك أوقعنى، فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها علىّ، قال: نعم. فعفا عنه وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى، وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناك نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

وحكى عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشاً، وأثبت جناناً من رجل سعى به إلى المنصور، أن عنده ودائع وأموالاً لبنى أمية، فأمرنى بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التى عندك لبنى أمية، فأخرج لنا منها، واحضرها، ولا تكتم منها شيئاً، فقال: يا أمير المؤمنين وأنت وارث بنى أمية؟ قال: لا، قال: فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما فى يدى من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فاجعله فى بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه، فإن بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع، ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفوا عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى بى إليك، فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا وديعة، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذى ذكرته أولاً، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه قال: هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبى له، فسعى بى عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فاقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذباً عليه وخوفاً من أن يقع فى يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليها. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ ياربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسى، فدعا له بالنطع والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لابد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجى من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط علىّ، فضحك وعفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع. وأمر زياد بضرب عنق رجل، فقال: أيها الأمير إن لى بك حرمة، قال: وما هى؟ قال: إن أبى جارك بالبصرة، قال: ومن أبوك؟ قال: يا مولاى إنى نسيت اسم نفسى، فكيف لا أنسى اسم أبى؟ فرد زياد كمه على فمه، وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذى أنت غداً بين يديه أذل موقفاً منى بين يديك إلا عفوت عنى، فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بنى تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ما أحسنت فى العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخلّى سبيله. وكان إبراهيم بن المهدى يقول: والله ما عفا عنى المأمون تقرباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرحم، ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى. وسئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصفح عن عثرات الإخوان. وفى بعض الكتب المنزلة: أن كثرة العفو زيادة فى العمر. وأصله قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾[الرعد:١٧] وقال يزيد بن مزيد: أرسل إلىّ الرشيد ليلاً يدعونى، فأوجست منه خيفة، فقال لى: أنت القائل: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أى ركن، وأى ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحلّ غضبه عن وجهه، ثم ضحك،

فقلت أحسن من هذا قولي:

خـــلافـــة اللـهِ في هـارون ثابتـــةٌ وفـي بنيـــه إلى أن يـنـفـخ الـصـــور

فقال: يا فضل اعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي رب سل مصعباً لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيـا المذنـب الخطّـاء والـعـــفـــو واسـعٌ ولو لـم يكـن ذنبٌ لما عُـــرِفَ الـعـــفـــوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردّى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن من برد الحبر. وفيه قال أبو تمام:

رقـــيقُ حـــواشي الحلـم لو أن حـلـمـــه يكـفّـــيك مـــا مـــاريـت في أنـه برد

ويقال: الحليم سليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته عليَّ أشد من كلامه. شعر:

إذا كنت تـبـغي شـيـمـةً غـيـر شـيـمـةٍ طُبِـــعْـتَ عـلـيـهـــا لم تطعـك الضـــرائبُ

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة: اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر عينها. فقالوا: إن غضب ابن عوان، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يباعدني من غضب الله؟. قال: «لاتغضب» .ويقال: من أطاع الغضب أضاع الأرب(1). قال أبو العتاهية:

ولم أر فـي الأعـــداء حين اخـــتـــبـــرتُـهم عـــدواً لعـــقل المرء أعـــدى مـن الغـــضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له: اتق الله فيغضب، ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لاتعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب. وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأولى: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً». وفي الثانية: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لايصلحهم إلا ذاك». روى أنه

(1) الإربُ: الحاجة.

أنوشروان . وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ: مَنْ كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أى الحور شاء». وروى: «ملأه الله أمناً وإيماناً» وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً أنت حر لوجه الله تعالى. «واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فأذن لهم، فقالوا: السّام عليك يا محمد، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السّام عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت وعليكم». ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له: حمزة، سرق، وقامت عليه البيّنة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن يقول شعر:

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مقاماً يشينُها

فلا خير في الدنيا وكانت خبيثةً ... إذا ما شمالٌ فارقتها يمينُها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي، فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلى سبيله. شعر:

إذا ما طاشَ حلمك عن عدوٍ ... وهان عليك هجران الصديقِ

فلست إذاً أخا عفوٍ وصفحٍ ... ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ

إذا زلَّ الرفيقُ وأنت ممن ... بلا رفقٍ بقيت بلا رفيقِ

إذا أنت اتَّخذت أخاً جديداً ... لما أنكرت من خلقٍ عتيقِ

فما تدرى لعلك مستجيرٌ ... من الرمضاء فرّ إلى الحريقِ

فكم من سالكٍ لطريقٍ أمنٍ ... أتاه ما يحاذر في الطريقِ

وشتم رجل رجلاً فقال له: يا هذا لاتغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أجيئها كبيراً، وإني لا أكافيء من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي «والكاظمين الغيظ» قال: قد كظمت غيظي، قال: «والعافين عن الناس» قال: قد عفوت عنك، قال: «والله يحب المحسنين» قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها. قال: قل، فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً ... عصفور بر ساقه التقديرُ

فتكلم العصفورُ تحت جناحه ... والصقر منقضٌ عليه يطيرُ

إني لمثلك لا أتمم لقمةً ... ولئن شُويتُ فإنني لحقيرُ

فتهاون الصقر المدل بصيده ... كرماً وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله. قال الشاعر:

أقـــــرر بـذنبـك ثم اطـلـبْ تجـــــاوزُهـم عنـهُ فــــإن جـــحــــود الذنـبِ ذنبـــان

وقال بعضهم:

يســتـوجب الـعـفـو الفـتى إذا اعـتـرفْ وتاب عـــمّـــا قـــد جناه واقـتـــرفْ
لـقـــولـه قل لـلـذين كــــفــــروا إن ينتـهـوا يُغـفَــر لهم مـا قـــد سلف

وقال آخر:

إذا ذكـــــرت أياديك الـتي سـلـفـت مع قـــبح فـــعلي وزلاتـي ومـجــترمي
أكـــــاد أقــــتـل نفــــسي ثم يـدركني علـمي بـأنك مـــجـــبـــولٌ عـلى الـكرمِ

وروى أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى سكران، فأراد أن يأخذه ليعزره، فشتمه السكران، فرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي. وغضب المنصور على رجل من الكتّاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإنّـا الـكـاتبـــــونـا وإن أســــأنـا فـــهـــبنا لـلكرام الـكاتبـــينـا

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه. وقال الرشيد لأعرابي: بمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا. لامنان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان سمح البنان، ماضي اللسان، قال: فأوما الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد. وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصراً. وقال محمود الوراق:

سـألـزم نفـسي الصـفـح عن كلِّ مـذنبٍ وإنْ عـظـمـتْ مـنـهُ علـيَّ الجـرائـم
فـمـــا الـناس إلا واحـــدٌ من ثـلاثة شـريفٌ ومـشـروفٌ ومـثـلٌ مـقـاوم
فـأمـا الـذي فـوقـي فـأعـرف قـدرَهُ واتـبـع فـيـه الحـقَّ والحق لازمُ
وأمـا الـذي دوني فـإن قـال صنت عن إجـابتـه نـفـسي وإن لام لائـم
وأمـا الذي مـثلي فـإن زلَّ أو هفـا تفـضَّلت إنّ الحـرَّ بالـفـضل حـاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فاغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إذا كنت مـخـتـصـاً لـنفـسك صـاحـبـاً فـمن قـبل أن تـلقـاه بالـودِّ أغـضـبـه
فـإن كـان في حـال القـطـيعـة منصـفـاً وإلا فـقـد جـرّبتـه فـتـجـنّبـه

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

لن يـبلغ المجـد أقـوامٌ وإن شـرفـوا حـتى يـذلّوا وإن عـزّوا لأقـوام
ويشـتـمـوا فـتـرى الألوان مـسـفـرةً لاصـفـح ذل ولـكن صـفح إكـرام

وقال آخر:

وجهلٍ رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددنا بالجهل

وقال الأحنف: إياكم ورأى الأوغاد، قالوا: وما رأى الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً. وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: لأسبنك سباً يدخل معك قبرك؟ فقال: معك والله يدخل لا معى. وقيل: إن الأحنف سبّه رجل وهو يماشيه فى الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقى معك شىء، فهات، وقله ههنا، فإنى أخاف أن يسمعك فتيان الحى فيؤذوك، ونحن لانحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يابنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لايعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه، ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وقال آخر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله ... فاقْتُلْهُ بالمعروف لا بالمنكرِ

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبِ ... حلمى أصم وأذنى غيرُ صماءِ

ويروى فى بعض الأخبار، أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته فلما مد السماط (١) أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مقر الصحن شىء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ماهذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحاً على عرضك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الذى به تقتلنى: قتله فى ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل ياحسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكى عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدى عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيمَ بن المهدى وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: لاسلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال له إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنّ ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبى إليك عظيمٌ ... وأنت أعظم منه
فخذْ بحقك او لا ... فاصفح بعفوك عنهُ
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول

(١) السماط: هو بساط من الجلد يوضع عليه الطعام.

وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إلىّ العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه وخلع عليه ورد أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطباً:

رددت مالى ولم تبخل علىّ به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
فإن جحدتك ما أوليت من كرم ... إنّى لباللؤم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لاتقتلنى، فوالله إنى لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى. فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهم كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج منى ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إمّا أن تمنّ بتركه ... علينا وإما تقتلنا معاً
أحجاج لاتفجع به إنْ قتلته ... ثماناً وعشراً واثنتين وأربعا
أحجاج لاتترك عليه بناته ... وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، فاستأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكى أن رجلاً زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يزن له ألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل: أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيراً فى أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبّل الرجل يده وقال له: سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة والأفعال الجليلة ويقتفى سنة نبيّه عليه الصلاة والسلام، فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقاً وأكرمهم خلقاً وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً وأبرهم للمقتر عليه نجحاً، صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء فى العتاب: فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعراً:

أسطو عليه وقلبى لو تمكّن من ... يدىَّ غلّهما غيظاً إلى عنقى
وأستعير له من سطوتى حنقاً ... وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت فى سفر ومعى رجل من الأعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن

عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما: أنعما عيشاً إن المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العدواة ولا خير فى شىء ثمرته العدواة. قال الشاعر:

فدعْ ذكر العتاب فربَّ شرٌّ ... طويلٍ هاجَ أوَّله العتابُ

وقيل: العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين فى الهوى ... عتابهم فى كل حقٍّ وباطلِ

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول:

عرضنا أنفساً عزَّت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوانُ
ولو أنّا رفعناها لعزَّتْ ... ولكن كل معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنت إذا ما جئت أنديتَ مجلسى ... ووجهُك من تلك البشاشة يقطرُ
فمن لى بالعين التى كنتُ مرةً ... إلىّ بها فى سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقك الغر السجايا ما لها ... حملت قذى الواشين وهى سلاف
ومرآة رأيك فى عبيدك ما لها ... صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريباً ... فكفى بنفسك لى عليك حسيباً
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا ... إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذرى أن أجبت بمثله ... أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكننى خفت انتقاص مودّتى ... فيُعد إحسانى إليك ذنوبا

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولاً قبلته ... وليس لأقوالى لديك قبولُ
وما ذاك إلا أنّ ظنّك سىءٌ ... بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلاً قول الحماسى تائهاً ... بنفسك عجباً وهو منك قليل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولاينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة ثم ولى عملاً فأثرى فقصده محمد مسلماً فرأى منه تغيراً فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروةً فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرِ
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقرِ

وقال آخر فى المعنى:

دعوتُ الله أن تسمو وتعلو علوَّ النجم فى أفقِ السماءِ
فلما أن سموت بعدتَ عنّى فكان إذاً على نفسى دعائى

وكان ابن عرادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبت على سلم فلمّا فقدته وصاحبت أقواماً بكيت على سلمِ
رجعت إليه بعد تجريب غيره فكان كبره بعد طولٍ من السقمِ

وقال مسلم بن الوليد:

ويرجعنى إليك إذا نأت بى ديارى عنك تجربةُ الرجال

وقال أبو الحسن القابسى:

إذا أنا عاتبت الملوم فإنّما أخط بأقلامى على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعاً فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل فى العتاب:

وفى العتاب حياةٌ بين أقوام وهو المحكّ لذى لَبْسٍ وإبهامِ

فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوى الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد النبيّ الأمّى وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذى من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال جل ذكره وتقدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ⑳﴾ [الرعد: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ㉞﴾ [الإسراء: ٣٤]. والآيات فى ذلك كثيرة من أشدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾ [الصف: ٢، ٣].

وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان». فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال: الوعد سحابة والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لكل شىء رأس ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلت فى شىء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

وقال آخر:

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد
فلا تعد عدة إلا وفيت بها ... واحذر خلاف مقال للذى تعد

وقال أعرابى: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال أعرابى أيضاً: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فامر له بعشرين ألفا فأبطأت عليه فقال لقائده: أقمنى حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يوماً سحابة ... أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع ... ولا غيثها يأتى فتروى عطاشها

فقال: لا تبرح حتى تُؤتَى بها. وقال صالح اللخمى:

لئن جمع الآفات فالبخل شرها ... وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى وعد إذا كان كاذباً ... ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وقيل: ماتت للهذلى أم ولد، فامر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور، فحج المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة: إنى أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لى من يطوف بى. فقال الهذلى: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه

الأحوص:

يا بيت عاتكة الذى أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسماً إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر إليه. وقال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومة تنشر عنه أطيب الذكر
والحر لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحر

وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد لا خير فى وعد بغير تمام
أنعم على بما وعدت تكرماً فالمطل يذهب بهجة الإنعام

وقال آخر:

لعبدك وعد قد تقدم ذكره فأوله حمد وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها فما لك عن تأخير مكرمة عذر

وقال آخر:

وميعاد الكريم عليه دين فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لسانى ثم أمسكت نصفه فنصف لسانى بامتداحك ينطق
فإن لم تنجز ما وعدت تركتنى وباقى لسانى بالمذمة مطلق

وقال آخر:

باتت لوعدك عينى غير راقدة والليل حى الدياجى منبت السحر
هذا وقد بت من وعد على ثقة فكيف لو بت من هجر على حذر

وقال آخر:

تذكر بالرقاع إذا نسينا ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم: فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع، كقضية الطائى وشريك نديم النعمان بن المنذر، وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئاً لصبيته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه. فلما رآه الطائى علم أنه مقتول وأن دمه مطلوب، فقال: حيا اللّه الملك إن لى صبية صغاراً وأهلاً جياعا وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعاً ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائى إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدى	ما من الموت انهزام
من لأطفال ضعاف	عدموا طعم الطعام
بين رجوع وانتظار	وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم	أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لى	بضمان والتزام
ولك اللّه بأنى	راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى: أصلح اللّه الملك، على ضمانه فمر الطائى مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وارجو أن يكون الطائى فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل، قال: فبينما هم كذلك وإذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: واللّه ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء. فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ألا وأنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ونقضت عادتى كرامة لوفاء الطائى وكرم شريك. فقال الطائى:

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى	فعددت قولهمو من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء سجية	وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: دينى، فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرماً إلى أهله وأناله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد اللّه بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد اللّه بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصاً وجعله فى زى الزهاد والنساك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر

وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوى، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوى واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته، وائتنى بما تسمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب وجلس فى مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولى الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله : أوتنصفنى فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب على وأنا فى هذه الحالة التى تراها من الحكم والنعمة والولاية ولى خاتم فى المشرق وخاتم فى المغرب، وأمرى فيما بينهما مطاع وقولى مقبول، ثم إنى ألتفت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضاً على، أفتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتنى إلى الجنة عياناً لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد . فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسره ذلك، وزاد فى إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية النعم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه فى تاريخه. قال: قال لى أبو الفتح المنطيقى: كنا جلوساً عند كافور الإخشيدى[1]، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حياً، فاحضروه ، وإن كان قد توفى فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فمضينا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق، فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسير فى الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال: اعلموا أنى مررت يوماً بوالدهما المنجم، وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوقفت عليه، فنظر إلى واستجلبنى وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتنال خيراً كثيراً، ثم طلب منى شيئاً، فأعطيته درهمين كانا معى، ولم يكن معى غيرهما، فرمى بهما إلى وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين؟ ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرنى إذا صرت إلى الذى وعدتك به ولا تنس. فقلت له: نعم، فقال: عاهدنى أن تفى لى ولا يشغلك ذلك عن افتقادى، فعاهدته، ولم يأخذ منى الدرهمين، ثم إنى شغلت عنه بما تمهد لى من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل علىّ، وقال لى: أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم، ثم زاد فى إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات فى الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال فى الوفاء بالاتفاق، حديث السموأل بن عاديا[2]، وتلخيص معناه، أن امرأ القيس الكندى لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً.

---

(١) كافور الإخشيدى: هو كافور بن عبد الله الإخشيدى أبو المسك، الأمير المشهور، صاحب المتنبى، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدى ملك مصر فنسب إليه، وأعتقه فتوفى عنده وماوالت همته تصعد حتى ارتقى إلى ملك مصر، وكان فطناً حسن السياسة، كان يدعى له على المنابر بمكة ومصر والشام إلى أن توفى بالقاهرة سنة (٣٥٧هـ-٩٦٨م) .

(٢) السموأل: هو السموأل بن غريض بن عاديا الأزدى، شاعر جاهلى حكيم، من سكان خيبر (شمالى المدينة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه (الأبلق) وله ديوان صغير. توفى فى سنة (٦٥ق هـ - ٥٦٠م).

فعـاوده، فأبى وقال : لا أغدر بـذمتي ولا أخون أمانتي ولا أتـرك الوفاء والواجب عليّ. فقـصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحـاصره ذلك الملك. وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيراً ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قـد أسرته، وها هو مـعي، فإن سلمت إلـى الدروع والسلاح التي لامـرىء القيس عنـدك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فـاختر أيهما شئت. فـقال له السموأل: ما كنت لأخـفر ذمامي وأبطل وفائي. فـاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينـظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خـائباً. واحتسب الـسموأل ذبح ولده وصبر محـافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القـيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه، فـسارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفـاتر واستحسنته عـيون البصـائر ونقلته الأصـاغر عن الأكابر وتداولتـه الألسنة من الأوائل والأواخر، ما رواه خادم أميـر المؤمنين المأمون، قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثـلثه فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما أحدهما علي بن محـمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر لـيلاً إلى دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيـراً ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتـروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيـئا، فائتوني به. قال: فأخـذتهما ومضينا حـتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعـه بـساط وكرسي حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيـت الـسـيف جندل جـعـفـراً	ونادى مـنادٍ لـلخـليـفـة فـي يحـيـى
بـكيـت علـى الـدنيـا وزاد تـأسـفـي	علـيـهـم وقـلـت الآن لا تـنفـع الدنيـا

مع أبيات أطالها ورددها، فلما فـرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فـزعاً شديداً، وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامـه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره، وقال له: من أنت، وبمـاذا استوجبت البرامكة منك؟ ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟ قـال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معـهم؟ قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عنـي نعمتي كـما تزول عن الرجال، فلـما ركبني الدين، واحـتجت إلى بيع مـسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امـرأة وصبياً وصبية، وليس معنا ما يباع ولا مـا يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المسـاجد، فدعـوت بثوبيات لي كنت قـد أعددتها لأستـمنع بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى البـاب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقـبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، ودخلت معـهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان، فـسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشـرة من ولده، وإذا غلام أمرد عذاراه خـداه قد أقبل من بعض المقـاصير بين يديه مائة خـادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خـادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهـر، قد قرن بها مثـلها من العنبر السلطاني، فوضـعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى، ثـم قال يحيى للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشـة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي، وزوجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا النثار ببنادق المسـك والعنبر، فالتـقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كـمي، ونظرت، فإذا نحن في المكان مـا بين يحيى

والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزنى الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب فى كمى، وأخذت الصينية فى يدى وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم: ائتنى بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى، ثم أمرنى بالجلوس، فجلست فقال لى: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتى، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتى به، فقال له: يا بنى هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك. فقبض موسى على يدى وأدخلنى إلى دار من دوره، فأكرمنى غاية الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد، ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء. فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لى: قم، فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالى فى هذه الحالة. إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إلىّ فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج، وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاثة عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به، فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىّ وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: علىّ بعمرو بن مسعدة، فلما أتى به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته فى ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما استأديته منه فى مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحيب الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلم تبكى؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين . قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمرى هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر. وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

سقى الله أطلال الوفاء بكفه ... فقد درست أعلامه ومنازله

وقال آخر:

أشدد يديك بمن بلوت وفاءه ... إن الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمى: كنت جالساً فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض فى الفقه مرة، وفى المذاكرة مرة، وفى أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوة لفظه إذا حدث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إنى لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال: إن تعش قليلاً، فسترى العيون طامحة إلىّ، والأعناق نحوى متطاولة، فإذا صار

الأمر إليّ، فلعلك أن تنقل إلى ركابك، فلأملأن يديك. فلما أفضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته يوم الجمعة، وهو يخطب على المنبر، فلما رآني أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عرفني وأظهر لي نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمارة؟ فقمت، فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلى يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فمرحباً وأهلاً، كيف كنت بعدي؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: والله ما هو بميراث وعيناه، ولا أثر رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى، ما خنت ذا ود قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: بوّئه منزلاً في الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأفرد لي منزلاً حسناً، فكنت في ألذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشائه، وغدائه، فيرفع منزلتي ويقبل علي ويحادثني، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت يوماً عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائماً، فقال: على رسلك، فقعدت ، فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت: يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أتراني قد ملأت يديك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، وزرنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

ومن ذلك ما روى عن أبي بكار الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتى سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي

فقلت: في هذا والله قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به، فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغناني عن الناس، فقلت: حتى أستأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبي بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه إليه. وكان يحيى بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ... ذئاباً على أجسادهن ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً. وخرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحكت شمساً عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه يجول بهذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يراني

ومن ذلك ما روى عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضى الله عنهما، أن عثمان لما قتل اصابتها ضربة على يدها، وخطبها معاوية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثناياك، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشاً في نكاح نساء بني كلب. ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك. ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهدبة عندى وديعة، فأمهله حتى آتيك بها، فقال: أسرعى، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب، فقالت أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسى بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً، وأبينها حكماً وإحكاماً، وهى قضية جمعت الأمرين: وفاءً وغدراً، وعرفاً ونكراً، وخيراً وشراً، ونفعاً وضراً، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففازونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا، وغدر الآخر، فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجاً، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجاً. وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره، فقال: ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندى بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرفه فى شيء أنه لا يخونني فعاهده، ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد فى أمور بيوته عليه، فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فائتنى بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليَّ وأخذ العهد عليَّ، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير، فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة الممجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضب أضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متآمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودنى عن نفسى. فلما سمع الأمير ذلك

استشاط غيظاً وغضباً، وهم فى الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى فى فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكاً، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه فى الطبق، وأحضره مغطى، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه، وأحضر عنده ندماء الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس فى قلبه، فلما مثل بين يدى الأمير، وأخذ منه الشراب شرع فى التدبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكاً، فأخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز فى طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق، فقالوا له: أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكاً، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله فى الطبق، وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذى تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيده. فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء كيف تحمى من المعاطب، وتنجى من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب، ويفضى بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده، وهو بشر مثله، وليس فى الحقيقة بعبده، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافياً فى طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا ممسك له من بعده ، وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسلماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف: ٥]، فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته، فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ ﴾ [النجم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ㉔ ﴾ [التكوير: ٢٤] . أى بمتهم. وفى الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه: سِرُّكَ أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره، واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل، فيحمله ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر. وأن الرجل يكون سره فى قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: القلوب أوعية والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطوته. وقال أنوشروان: من حصن سره، فله بتحصينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات. وقيل: كلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون، وقال كعب بن سعد الغنوى:

ولست بمبد للرجال سريرتى ... ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بنى مروان إذ جهدوا
مازلت أسعى عليهم فى ديارهم ... والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعا غنماً فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأسر رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم : كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائر فى الضمير طويتها ... نسى الضمير بأنها فى طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوى فقال:

إنى كتمت حديث ليلى لم أبح ... يوماً بظاهره ولا بخفيه
وحفظت عهد ودادها متمسكاً ... فى حبها برشاده أو غيه
ولها سرائر فى الضمير طويتها ... نسى الضمير بأنها فى طيه

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره، قال الشاعر:

ومستودعى سراً كتمت مكانه ... عن الحس خوفاً أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة ... فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم[1]:

أجود بمكنون التلاد وإننى ... بسرى عمن سالنى لضنين
وإن ضيع الأقوام سرى فإننى ... كتوم لأسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذى أودعنى سره ... لا ترج أن تسمعه منى
لم أجره قط على فكرتى ... كأنه لم يجر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط، فأفشاه، فلمته إذ كان صدرى به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه علىَّ. قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ... ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدر عن حديث ... وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفشى حديثى ... وسرى عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابى: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه وأنساه كأنى لم أسمعه. وكان أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر، فيفشيه عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرت الذنب يوماً لصاحب ... فلست معيداً ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما صاحب خان عهده ... وعندى له سر مذيعاً له سراً

وأين هذا من قول القائل:

---

(١) قيس بن الخطيم: هو قيس بن الخطيم بن عدى الأوسى، أبو يزيد، شاعر الأوس، وأحد صناديدها فى الجاهلية، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلى أبيه وجده حتى قتلهما، أدرك الإسلام وتريث فى قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه له «ديوان» توفى سنة (٢ق هـ - ٦٢٠م).

ولا تـودع الأســـــــــرار أذنـى فــــــــإنما   تـصـبن مـــــــــاءً فـى إنـاء مـــــــــثـلم

أو القائل:

ولا أكـــــتم الأســـــرار لكـن أذيعـــــهـــــا   ولا أدع الأســـــــــرار تـعـلـو عـلى قـلـبى

وإن قـلـيـل العــــــــــقـل مـن بات لـيـلـة   تقـلبــــــه الأســـــرار جـنبـــــاً إلى جـنب

وقال آخر:

وإنك كـلـمـــــــا اســـــتـــــودعت ســـــــراً   أنمّ مـن الـنـســـــــــــــيـم عـلـى الـريـاض

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

أنـاس أمِنـاهـم فـنـمـــــــــوا حـــــــــديـثـنـا   فلـمـــــا كـــتـــمنا الســــر عـنهم تـقـــولوا

ولله در المتنبى حيث قال:

ولـلـســــــــــر مـنى مـــــــــوضـع لا يـنالـه   نـديم ولا يفـــــــضى إلـيـــــه شـــــــــراب

وقد اقتـصرنا من ذلك على هذا القدر اليـسـير، وحسبنا الله ونعم الوكـيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

الفصل الأول: فى الغدر والخيانة

قال رسـول الله ﷺ : «أعجل الأشيـاء عقوبة البـغى». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعـة والخيانة فى النار». وقال أبو بكر الصـديق رضى الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليـه: البغى والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣]. وكم أوقع القـدر فى المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزى، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه فى خطة خسف وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوى الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى، وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كـان من أنصار النبى ﷺ فجاءه يوماً وقال: يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال له رسـول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثيـر لا تطيقه». ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فـقال رسول الله ﷺ : «يا ثعلبة أما لك فى رسول الله أسوة حسنة، والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معـى ذهباً وفضة لسارت». ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، والذى بعثك بالحق نبياً لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة ما قال »، فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، وهى تنمو كما ينمو الـدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له: حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلى بقية الصلوات فى غنمه، فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جـماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويـسألهم عن الأخبـار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فـعل ثعلبة؟» قالوا: يارسول الله اتخذ غنمـاً ما يسعها واد، فقـال رسول الله ﷺ: «ياويح ثعلبة». فانزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بنى سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهـما: «مرا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بنى سليم، فخذا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبـة، فـسألاه الصدقة، وأقرآه كـتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جـزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلى، فـانطلقا، وسمع بهما الـسلمى، فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقـة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفـسى به طيبـة، فمرا على الناس وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أرونى كتابكما، فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ اذهبا حتى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسـول الله ﷺ ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما : «يا ويح ثعلبـة»، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٨]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فـسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إن الله تعالى منعنى أن أقبل منـك صدقة»، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجـهه فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعنى»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقـبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثـم أتى إلى بكر الصديق رضى الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ

وموضعى من الأنصار، فاقبل صدقتى، فقال أبو بكر رضى الله عنه: لم يقبلها رسـول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه، ولم يقبلها، فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبل رسـول الله ﷺ ولا أبو بكر رضى الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضى الله عنه، ولم يقبلها، ثم ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضى الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقته وفقره، فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق، وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق، وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوىء الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم. قال الشاعر:

غـدرت بأمـر كنت أنت جـذبتنا إليـه وبئس الشيـمـة الغـدر بالعـهـد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلنى الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد نفسى أن أمرى لا يتم، فقلت له: ولم ذلك؟ أعز الله الأمير قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكاً بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذى الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شىء، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت- أى حاضت- فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لى إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى؟ فقال: أحكمك، فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها، وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقى الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضور وتتململ فى فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها[1] وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعاً قطعه الله ما أغدره. وتقول العرب: جزانى جزاء سنمار، وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبنى له جوسقاً فامتثل أمره، وبنى له جوسقاً كأحسن ما يكون وكان الذى بنى الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال: لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبنى أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع، فكانت العرب تقول: جزانى جزاء سنمار. وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلى رضى الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدى عليه، فقال عيسى:

---

(١) عكنتها: العُكَنُ والأعكان: الأطواء فى البطن من السِّمَن.

أيـنـي بنـو الـعـبـاس ذيي عنهم بسيفي ونـار الحـرب زاد سـعـيـرها
فـتـحت لهم شـرق البـلاد وغـربـهـا فـذل مـعـاديهـا وعـز نصـيـرها
اقطع أرحـامـاً عـلى عـزيـزة وابدى مكيـدات لهـا وأثيـرهـا
فلمـا وضـعـت الأمـر في مـسـتـقـره ولاحـت لـه شـمـس تـلألا نـورهـا
دفـعـت عن الأمـر الذى اسـتـحـقـه وأوسق أوسـاقـاً من الغـدر عـيـرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤها إلى خباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها ، وأنشد يقول:

ومن يـصنع المـعـروف مع غـيـر أهـله يلاقي كـمـا لاقى مـجـيـر أم عـامـر
أعـد لـهـا لما اسـتـجـارت ببـيـتـه أحـاليب ألبـان اللقـاح الـدوائر
وأسـمـنهـا حـتـى إذا مـا تمكنـت فـرته بـأنيـاب لـهـا وأظافـر
فـقل لـذوى المعـروف هـذا جـزاء من يجـود بمعـروف على غـيـر شـاكـر

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بقـرت شـويهـتي وفـجـعـت قـومي وأنـت لـشـاتـنـا ابـن ربـيـب
غـذيت بدرهـا ونشـأت مـعـهـا فـمـن أنبـاك أن أبـاك ذيب
إذا كـان الطبـاع طبـاع سـوء فـلا أدب يفـيـد ولا أديـب

اللهم إنا نعوذ بك من البغي وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني: في السرقة والسراق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً، فقال: لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر. وأمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت، وأنا كاره . فقال: وتصلب أيضا وأنت كاره. وسرق مدني قميصاً، فأعطاه لابنه يبيعه، فسرق منه، فجاء له، فقال: بكم بعته؟ قال: برأس المال. وقال أكتل السلمي، وكان لصاص فاتكاً:

وإنـي لأسـتـحـي مـن الله أن أرى أجـرجـر حـبلي ليـس فـيـه بعـيـر
وأن أسـأل المرء الـدنيء بـعـيـره وأجـمـال ربي فـي البـلاد كـثـيـر

قال الفرزدق:

وإن أبـا الكـرشـاء لـيس بـسـارق ولكـن مـتى مـا يـسـرق القـوم يـأكل

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه أخوتها وأتوا به خالد

ابن عبد الله القسرى، وجعلوه سارقاً، فسأله خالد، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية، فهم خالد بقطعه، فقال عمر أخوه:

أخـــالد قـــد واللـه أوطئت عـــشـــوة ... ومـــا الـعـــاشق المظلوم فـــينا بـســارق
اقـــــــــــر بمـا لـم يـأتـه المـرء إنـه ... رأى القطع خيـراً من فـضـيحـة عـاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

الفصل الثالث: فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [يوسف: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: العداوة تتوارث، وقال زياد بن عبد الله:

فلو أنى بليت بهاشمى ... خؤولته بنو عبد المدان
صبرت على عداوته ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

وبث رجل فى وجه أبى عبيدة مكروهاً، فأنشأ يقول:

فلو أن لحمى إذ وهى لعبت به ... سباع كرام أو ضباع وأذؤب
لهون وجدى أو لسلى مصيبتى ... ولكنما أودى بلحمى أكلب

وقيل لكسرى: أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً؟ قال: عدوى، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه فى عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفى وبطن. وقالوا: إياك أن تعادى من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك فى لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنح عن القبيح ولا ترده ... ومن أوليته حسناً فزده
ستلقى من عدوك كل كيد ... إذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبى خالى وما أنا بالذى ... أميل وأمرى بين خالى ووالدى
وأورث جساس بن مرة غصة ... إذا ما اعترتنى حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجال لقلب ما له جلد ... كيف العزاء وثأرى عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثأرت لأبي كليباً ... وقد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار عن جشم ابن بكر ... بجساس بن مرة ذي البتول

بيت:

سن العداوة آباء لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال: دار عدوك لأحد أمرين: إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك، وكتب سويد إلى مصعب:

فبلغ مصعباً عني رسولي ... وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلم أن أكثر من تناجي ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم، فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قصره من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يتبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض في الناس، فقال: أراه هلك ابني هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه:

ولست براء عيب ذي الود كله ... ولا بغض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعين البغض تبرز كل عيب ... وعين الحب لا تجد العيوبا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألذ من العافية. وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم. وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء. وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسل عنها ... وداو غليل قلبك بالسلو
وكيف ونظرة منها اختلاساً ... ألذ من الشماتة بالعدو

وقال ابن أبي جهينة المهلبي:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ: ما رأيت سناناً أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل: لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته ... أن البغايا من بنى مرام
أظهرن فى موت النبى شماتة ... وخضبن أيديهن بالعلام
فاقطع هديت أكفهنّ بصارم ... كالبرق أومض فى متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا فى فسادك ولا رفعة إلا فى سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة قد تقتل، وإن عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمن عدوك لو تراه ... أقل إذا نظرت من القراد
فإن الحرب ينشأ من جبان ... وإن النار تضرم من رماد

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئاً فإنه ... يشد على كف المسىء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقينا ... وعادة الله فى الماضين تكفينا
كاد الأعادى فلا والله ما تركوا ... قولاً وفعلاً وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن فى سر وفى علن ... على مقالتنا يا ربنا اكفينا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا ... بغيظه لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع: فى الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقال على رضى الله عنه: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له. وقيل: المحسود غضبان على القدر. ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد والحسد وسوء الخلق. وقيل: بئس الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقى فى النسب، وجارى فى البلد، وشريكى فى الصناعة، فذكر جميع دواعى الحسد، وقال أعرابى: الحسد داء منصف يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله». وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى رحمة الله تعالى عليه: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبلّ أن يصل حسده إلى المحسود، أولها: غم لا ينقطع. الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوى وحسده، وقال فى نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوى فى قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدنى منه، فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر فيه من الثوم،

فلما أكل البدوى منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذى قاله الوزير عن هذا البدوى صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابى هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوى ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان وائتنى بالجواب. فامتثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير فى نفسه: إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوى ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك، ويعطيك ألفى دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى افعل. قال: اعطنى الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفى دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوى بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوى، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عنى للناس أنى أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم، وإنما كان ذلك مكراً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوى واتخذه وزيراً وراح الوزير بحسده. وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قوم إن مدحتهم	كانوا الأكارم آباءً وأجدادا
إن العرانين تلقاها محسدة	ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضى الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة فى كل شىء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضى الله تعالى عنه رفعه: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول	على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه	وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل: الحاسد عدو نعمتى متسخط لفعلى غير راض بقسمتى التى قسمت لعبادى. قال الشاعر:

أيا حاسداً لى على نعمتى	أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه	لأنك لم ترض لى ما وهب
فأخزاك ربى بأن زادنى	وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى: رأيت أعرابياً قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقيل لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو، وتركت قومك؟ فقال: وهل بقى إلا حاسد على نعمتى أو شامت على نكبة، وقال الشاعر:

يا طالب العيش فى أمن وفى دعة ... رغدا بلا قتر صفواً بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد ... فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وفى نوابغ الحكم: الحسد حمك من تعلق به هلك، ولبعضهم:

إنى حسدت فزاد الله فى حسدى ... لا عاش من عاش يوماً غير محسود

وقال نصار بن سيار:

إنى نشأت وحسادى ذوو عدد ... يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدونى على ما بى لما بهم ... فمثل ما بى مما يجلب الحسدا

وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًّا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول: فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]. وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأى فى الحرب إمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف»، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر: «الله أكبر خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعنه رفعه: «الغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل». وقيل: إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدراً، فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: «واها لريح الجنة دون أحد». فقاتل حتى قتل، فوجد فى بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخى إلا ببنانه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه. فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة.

الفصل الثانى: فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله فى ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى: هل من مبارز. والثانى: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة، فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه. والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه، ويرجى الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه فى كتابه «سراج الملوك» قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا

فى بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا فى المعترك قطعة خوذة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم، فيرحل أبطال إليها ليروها. قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً. قال الشاعر:

فلا تحقرن عدوا رماك | وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحز الرقاب | وتعجز عما تنال الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتباً ورتبوا فيها ترتيباً، ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقوله تعالى: «ما استطعتم» مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبى ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى». وأفضل العدة أن تقدم بين يدى اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن فى استجادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغى أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجراة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفاً بمواضع الفرص خبيراً بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً وإلا رد الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وكان عظماء الترك يقولون: ينبغى للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحرامة الكركى، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقى الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم. اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الحيل فى الحرب أن يبث جواسيسه فى عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤمائهم، وذى الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعداً جميلاً، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، ويرمى بها فى جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء كانت الآفة فى الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب فى الحيلة. ويغلب الضعيف بإقبال دولته كما يغلب القوى ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال فى القلب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصناً للجناحين يأوى إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان. مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان. وقل عسكر انكسر قلبه فأفلح أو تراجع، اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلى القلب قصداً وتعمداً، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطلق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتى ثبات قلبى، وإصابة رأيى، ونصل سيفى، ونصرة خالقى. وخرج يزيد بن

عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك فى أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه مسلمة، فقبله بين عينيه، وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوماً، وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: فى أى موضع تريدين أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإناثها بالذكران، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبى وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبى برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه.
ويقال: إن من أعظم المكايد فى الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية فى الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً، ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه. وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف، وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب، فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصرانى على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء. قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لى من فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم، فعدهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تزحزح عن مقامه، حتى فنى أكثر العسكرين، ولم يفز واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة ودخلوا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن فى خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفراً، وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال: بينما المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعى، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً كبيراً، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعى. قال له المنصور: ما سكوتك، أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا، قال: أفيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا، قال: فسبه المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم

اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكى السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، ففرح المشركون، وصاحوا. واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادى: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل، وينادى ويقول: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج، فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعى؟ فبعث إليه، فحضر . فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذى تريد؟ قال: أن تكفى المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل فى حليته، ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعى: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذى تريد؟ قال: أريد أن تكفى المسلمين شره. قال: حباً وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به ، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب بها فى يده، ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور، فقال له ابن المضجعى: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعى إلى منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومى كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون فى الماء. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز علج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومى، فصاح المشركون سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومى، فصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادى ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه. وبقى الناس فى حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد ابن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العلج؟ فقال: ها هو بعينى، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفى المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويلا، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فتعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه فى السرج، ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ فى الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها، فإن عدوه قد يتعلم حيلته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، وليبدل زيه ويغير خيمته كى لا يلتمس عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح. وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق،

والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذى يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غداً يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم فى عدد لا يحصيهم إلا الله الذى خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمون، فبلغوا اثنى عشر ألفاً فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الأسود، فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر فى العواقب، واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى، ويتبع أثرى، ويضرب بسيفه، ويرمى سهمه حيث أضرب بسيفى، وأرمى بسهمى، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيراً بين يدى ألب أرسلان والحبل فى عنقه، فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى؟ قال: وهل تشك أننى كنت أقتلك ، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به، فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل فى عنقه، وينادى عليه من يشترى ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين، وينادون عليه بالدراهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئاً، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذى ينادى عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئاً سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال : قد أنصفك إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فعزلته الروم، وكحلوه بالنار. فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة والمكيدة. اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين، واهلك الكفرة، والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم

وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى: الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب[1] رضى الله عنه عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. قتل فى غزاة أحد، رماه وحشى مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير ممانع، وعظم قتله على النبى ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبر عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين **على بن أبى طالب**[2] رضى الله عنه وكرم وجهه. آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهى، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. روى عنه رضى الله عنه أنه قال: والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موتة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضى الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً واخرج إلى ليعلم أينا المران على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معى، وبذلك القلب ألقى عدوى. وقيل له كرم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتمونى. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لأنى كنت ألقى الرجل، فأقدّر أنى أقتله، ويقدر هو أنى قتلته، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان على رضى الله عنه حذراً فى الحروب شديد الروغان لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدراً لا ظهر لها، فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا مكنت عدوى من ظهرى، فلا أبقى الله عليه إن أبقى علىّ. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه، غدرة وهو فى صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجية، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل على بن أبى طالب. فقال لها: لك ما سألت إلا على بن أبى طالب، وكيف لى به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنة. فقال:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب على بالحسام المخذم

فلا مهر أغلى من على وإن علا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

قيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس، وذلك فى تاسع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب، ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله. ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، فأخذه، فأومأ على رضى الله عنه إلى المغيرة أن صلى بالناس، فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على علىّ، فقالوا يا أمير المؤمنين: لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضى الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام، فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وإنى أحتسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء بعد رسول الله القائل ﷺ: «من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فى فإنها أعظم المصائب»،

---

(١) حمزة بن عبد المطلب: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (١٨٢٦).

(٢) على بن أبى طالب: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٥٦٨٨).

والله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض فى هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول اللهﷺ ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمدﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمدﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه فى السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجرى على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. ألا إن قريشاً أعطت أزمتها شياطينها، فقادتها بأعنتها إلى النار،فمنهم من قاتل رسول اللهﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضى فى كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاءً شديداً، ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، فاقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إنى ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته، فإن تخلنى أقتل معاوية، فإن أنا قتلته أضع يدى على يدك، وإن أقتل، فهو الذى تريد. فقال الحسن رضى الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

ومن الأبطال **خالد بن الوليد بن المغيرة المخذومى**[1] رضى الله عنه. سيف الله وسيف رسولهﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور فى الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذى فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة فى الروم. أيد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وها أنا أموت على فراشى لا نامت عين الجبان. وكان ينشد ويرتجز ويقول:

لا ترعبونا بالسيوف المبرقهْ	أن السهام بالردى مفرّقهْ
والحرب دونها العقال مطلقهْ	وخالد من دينه على ثقهْ

رضى الله عنه.

الزبير بن العوام[2] رضى الله عنه حوارى رسول اللهﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى. قتله عمرو ابن جرموز، اغتاله وهو فى الصلاة.

عمرو بن معديكرب الزبيدى[3] فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمراً. روى عنه رضى الله عنه أنه سأله يوماً، فقال له: يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول فى السهام؟ قال: منها ما يخطىء ويصيب، قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول فى الترس؟ قال : هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول فى السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة. وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إننى عابر على هذا الجسر قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى، وقد عرفنى القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأتم وجدتمونى قتيلاً بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حياً، فحلوا فانتهوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوننى. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمى بنشابة، فغار وشب فصرعنى. ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم

---

(١) خالد بن الوليد: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٢٢٠١).

(٢) الزبير بن العوام: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٢٧٨٩).

(٣) عمرو بن معد يكرب: انظر (الإصابة) ترجمة (٥٩٧٠).

القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند فى وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى   زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو

ومنهم **طلحة الأسدى**[1] رضى الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتنبأ، وجمع جمعاً عظيماً، ففل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح. **والمقداد بن الأسود**[2] رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوى الجنان رابط الجأش، وله فى الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه. **وسعد بن أبى وقاص**[3] الزهرى الأنصارى رضى الله عنه كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى فى سبيل الله بسهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه. **أبو دجانة الأنصارى** رضى الله عنه الذى خرج يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموضع. **والمثنى بن حارثة الشيبانى** رضى الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس. **وأبو عبيد بن مسعود الثقفى** رضى الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية. **وعمار بن ياسر** رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين مع على رضى الله عنه. **هاشم بن عتبة** رضى الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية على رضى الله عنه بصفين. **مالك بن الحرث النخعى الأشتر** رضى الله عنه، مات مسموماً فى شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنوداً منها العسل. القعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه.

الطبقة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه، قاتل جرجير ملك أفريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة: صف لى عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه. ولقد قام يوماً إلى الصلاة، فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره، فوالله ما خشع له بصره وقطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور.

أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب بن الحنفية رضى الله عنه، كان أبوه يلقيه فى الوقائع ويتقى به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه، فكان يتقى عينيه بيديه. وقيل: إن أباه عليا رضى الله عنه اشترى درعاً فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: يا أبت علّم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذى حده أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات حتف أنفه بشعب رضوى. **عبد الله بن حازم السلمى** رضى الله عنه والى خراسان شجيع مضر وفارسها فى عصره، قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة. **وكيع بن أبى سويد** قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج ولى خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه. **مصعب بن الزبير بن العوام** شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد فى الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. **عمير بن الحباب السلمى** فارس الإسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس. **مسلمة بن عبد الملك بن مروان** فحل بنى أمية وفارسها ووالى حروبها، قيل: إنه جلس يوماً ليقضى بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها،

---

(١) طلحة الأسدى : هو طلحة بن أسد بن عبد الله المختار أبو محمد الرقى. انظر ترجمته فى (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر (٨/ ٥٢١).

(٢) المقداد بن الأسود: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن الأسود. انظر ترجمته فى (الإصابة) (٣/ ٤٥٤) ترجمته (٨١٨٣).

(٣) سعد بن أبى وقاص: هو سعد بن مالك أبى وقاص بن أهيب أبو إسحاق الزهرى الصحابى أحد العشرة المبشرين بالجنة. انظر ترجمته فى (الإصابة) (٢/ ٣٣) ترجمة (٣١٩٤).

فقـالت: ما رأيت أقل حيـاء من هذا قط، فكشف عن ساقه فـإذا فيهـا أثر تسـع طعنات. فقـال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخرت رجلي قـيد شبر مـا أصابتني واحدة منهن، ومـا منعني من تأخيرها إلا الحـياء، وأنت تنحليني قلته. المعتصم بطل شجـاع، فارس صنديد لم يكن في بني العـباس أشجع منـه ولا أشد قلباً. قـال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبـد الله عض على ساعدي بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمـير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيـقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فـإذا هو لا تعمل فيـه الأسنة، فكيف تعمل فيـه الأسنان، ويقال: إنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع، فـأقام المعتصم ظهره فـقصم الرمح نصفين. وكان يشد يـده على كتابة الدينار فيمـحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعي[1] كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفاً، فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه. **عبد الله بن الحر الجعفي**، شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره في الشجاعة مشهورة. **جحدر بن ربيعة العكلي**[2]، كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيـراً شاعراً، قهر أهل اليمامة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جـحدر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً، فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدراً أو أتوا به أسيراً، فتوجه الفتـية في طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا يقولـون له: إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فـبينما هو مـعهم يوماً إذا وثبوا عليـه فشدوه وثاقـاً، وقدموا به على العامل، فـوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديـه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك؟ قـال: أصلح الله الأمير: كلب الزمان، وجـفوة السـلطان وجرأة الجنان. قال: ومـا بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه ، قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر إني قاذف بك في حـاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قـتلته عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى فأمر به، فـصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قـد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفاً وأنزلوه إليه مـقيداً، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، وهو ينشد ويقول:

ليث وليث في مجال ضنك ... كلاهما ذو قوة وسفك

وصولة وبطشة وفتك ... إن يكشف الله قناع الشك

فأنت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه وضربه بسـيفه ففلق هامـته، فكبر الناس وأعجب الحـجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجـبك، ثم أمر به، فأخرج مـن الحاجز وفك عنه قيـوده وقال له: اختر إمـا أن تقيم معنا فنكرمك، ونقـرب من منزلتك وإما أن نأذن لك، فتلحق بـبلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حـدثاً، ولا تؤذي بها أحداً، قـال: بل أختار صحبـتك أيها الأمير، فجعـله من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة. وكـان من أمره ما كان. **المهلب بن أبي صفرة** كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد معي المغيرة حرباً إلا رأيت البشرى في وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان، وفي يديه شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس الـسرج، وحمل من تحتها فبـراها بـسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبـية مصعب بن الزبير، وأحمر قريش عمر بن عبيد الـله بن معمر ما لقي خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البغلة عـباد بن الحصين ما كان قط في كربة إلا فرجها وهو من فـرسان الإسلام. وكان للمهلب

(١) إبراهيم بن الأشتر: هو إبراهيم بن الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي. انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبي (٤/٣٥) ترجمة (٧).

(٢) جحدر بن ربيعة: هو جحـدر العكلي، شاعر من أهل اليمامة كان أيام الحجاج بن يوسـف يقطع الطريق وينهب الأموال مـا بين حجر واليمامة توفي سنة (١٠٠هـ).

فى الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرض	للقتل بين أسنة وصفائح

وكان فى الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: **أبو بلال مرداس** خرج فى أربعين فهزم ألفين وشبيب الخارجى الذى غرق فى الفرات، نذرت امرأته غزالة أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين تقرأ فى الأول البقرة وفى الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفاً. ومنهم **قطرى بن الفجاءة** كان رأس الخوارج، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره فى الشجاعة تدل على مكانه منها، قتل فى بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: معن بن زائدة الشيبانى قتله الخوارج بسجستان فى أيام المهدى. **الوليد بن طريف الشيبانى** قتله يزيد بن مزيد. **عمرو بن حنيف** كان من الفرسان المعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتتبع حمار وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه، فجمع رجله ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين فى يده حتى قتله. **أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى** فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره، طعن فارسين رديفين، فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة	يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مد قناته	ميلا إذاً نظم الفوارس ميلا

وسأله يوماً رجل شيئاً، فقال له: أتسأل وجدك القائل:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه	ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت	فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه فى طريقه إلا وكيل لأبى دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإنى علمته فى نفسى. **بكر بن النطاح** بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

ومما جاء فى مدح السيف: قال رسول الله ﷺ: «الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف». وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب، وممن تمثل به نهشل، فقال:

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد	كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلى لم أخنه ولم يخنى	إذا ما صاب أوساط العظام
خليلى لم أهبه من قلاه	ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريماً من قريش	فسر به وصينَ عن اللئام
وودَّعت الصفى صفى نفسى	على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بنى مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدى، فلم يجدوه، فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوباً عليه هذا البيت:

ذكــــرٌ علــى ذكــــر يصـــول بـصــــارم ذكـــــــــــر يمـــان فـى يمـــين يمـانـــى

وقال ابن الرومى:

لم أر شـــيــئـــاً حــــاضـــراً نفــعـــه لـلمـــــرء كـــــالدرهم والســـــيف
يـقـــضـى له الـدرهم حـــــاجـــاته والســـيف يـحـــمــيـــه من الحـــيف

وقال زيد بن على رضى الله عنهما:

الســـيف يعـــرف عـــزمى عـند هـزته والـرمح بـى خـــبـيـــر والـلـه لـى وزر
إنـا لنـأمـل مـــا كـــــانـت أوائلـنـا من قـــبل تـأملـه إن ســاعـــد القـــدر

وقال عبد الله بن طاهر:

يـبـيت ضـجـيـعـى الـسـيـف طوراً وتارة يعـض بهـــامــات الرجـــال مـــضــاربه
أخـــو ثـقـــة أرضـــاه فـى الروع صـــاحـــبـاً وفـــوق رضـــاه أننى أنـا صـــاحـــبـه
وليـس أخـــو العليـــاء إلا فـــتـى له بهـــا كلف مـــا تسـتـقــر ركـــائبـه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده على، فإنه السيف الذى أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا ؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك. أعرفه بقول الشاعر:

ولا عـــيب فـيـــهم غـيـــر أن ســيـوفـهم بـهن فـلـول من قـــــراع الكـتــــائب

وقال الأجدع الهمدانى:

لقـــد علمـت نســـوان همـــدان أننى لهـن غـــداة الـروع غـيــــر خـــذول
وأبذل فـى الهـيـجـــاء وجـهى وإننى له فى ســوى الهـيـجـاء غـيـــر بذول

وقال آخر:

عـــشـــرون ألف فـــتى مـــا منهم أحـــد إلا كـــألف فـــتـى مـقـــدامـــة بـطل
راحـت مـــزاودهم مملـوءة أمـــــلاً فـــفـــرغـــوها وأوكـــوها من الأجل

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: قال: نزل علينا بنو ثعلب فى بعض السنين، وكنت مشغوفاً بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها، وهى آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله فى حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج المنظوم، وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أى بنى، وهو يبتسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر

لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلمت، فرد على السلام، فوقفت أنظر إليها، فقالت: يا حضرى ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضرى إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء اللهّ عز وجل أن أضعه، فوضعته خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحى الخيلاء، فأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم، ولم يبق فى الحى غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألنى عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقاً عليه وضناً به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبياً صغيراً لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به ، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيان الحى هذه الأبيات:

تأملن فعلى هل رأيتن مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حقه ونصيبه ... من السمهرى اللدن والمرهف العضب

أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك ... سليل المعالى والمكارم والسيب

أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف ... وطرف قوى الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ ... جبال الرواسى لانحططن إلى الترب

وعرض نقى أتقى أن أعيبه ... وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب

فإن لم أقاتل دونكن وأحتمى ... لكن وأحميكن بالطعن والضرب

فلا صدق اللاتى مشين إلى أبى ... يهنئنه بالفارس البطل الندب

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

وقال آخر:

فوارس قوالون للخيل اقدمي ... وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهمُ سمر العوالي كأنما ... تشب على أطرافهن ذبال

وقال آخر:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم ... شمساً وخلت وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل ... عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريخ دعاهم لملمة ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم

قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال في وصف الجبان، إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، إن نظر إليه شزراً أغمى عليه شهراً يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح، قال الشاعر:

إذا صوت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت[١] رضي الله عنه من الجبناء[٢]، روى عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت صفية، ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن، فضربته بالعمود حتى قتلته، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريباً منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبسه، وكان

---

(١) حسان بن ثابت: هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو وليد الصحابي المشهور، شاعر رسول الله ﷺ، من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وشاعر شديد الهجاء، فحل الشعراء توفي في المدينة سنة (٥٤هـ-٦٧٤م).

(٢) تعليق: أن يوصف حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ بالجبن أمر لا يصح، فهو صحابي جليل القدر، جليل المكانة، بل والأقطع أن يضرب به المثل في الجبن، وهذا أمر لا يجوز، وخاصة أن الرواية لم تصح وأن الصحابي كان قد أصيب بعلة منعته من التصرف كيف شاء. قال ابن الكلبي: كان حسان لسناً شجاعاً، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن.

الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هي وبلغ الحجاج ذلك، فأمر منادياً أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أو لم يحضرها، فلم يلبث أن أتى له بها، فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندى من أحب الناس إلى، فاخترت ابن عمى شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت له يا سيدى: اسمع قصتى، ثم اصنع بى ما شئت. قال: هاتى ولا تخفى شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشى، فاحتاج إلى ثمنى، فحملنى إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا منى فوقع على، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل على وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلى، فلما علا بطنى وقعت فأرة من السقف، فضرط، ثم غشى عليه، فمكث زماناً طويلاً وأنا أرش عليه الماء، وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتتهمنى به، فهربت فزعاً منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمى هذا ولا تعلمى به أحداً. قالت: على أن لا تردنى إليه. قال: لك ذلك.

وحدث جار لأبى حنيفة النميرى قال: كان لأبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حساً فى داره، وهو يقول: أيها المغتر بنا المجترىء علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية الذى سمعت به. اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذى مسخك كلباً وكفانا حرباً. وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان. ورأى الإسكندر سمياً له لا يزال ينهزم، فقال له: يا رجل إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك. ووقع فى بعض العساكر ضجة، فوثب خراسانى إلى دابته ليلجمها، فصير اللجام فى الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس، وكان مرداس فى أربعين، فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبى زياد، فقال: لأن يذمنى ابن أبى زياد حياً أحب إلى من أن يمدحنى ميتاً. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبى زياد، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفى ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقول جبان القوم فى حال سكره	وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الأعوجيات فى الوغى	أنازل منهم كل ليص مناهز
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر	وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، والحمد لله الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثانى والأربعون

فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: فى المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها، يكون نعتًا حميدًا، وهذا يصح من المولى فى حق عبده، فقد قال الله تعالى فى حق نبيّه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]. وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة، وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب» فقد قال العتبى: هو المدح الباطل والكذب، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا فى مادح ترابًا، وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم. وفى حثو التراب معنيان، أحدهما: التغليظ فى الرد عليه، والثانى: كأنه يقال: له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم، اللهم اجعلنى خيرًا مما يحسبون، واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون. ومدح سارية الديلى رسول الله ﷺ وهو سارية الذى أمره عمر رضى الله عنه على السرية، وناداه فى خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه فى رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقةٍ فوق ظهرها ... أبر وأوفى ذمةً من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضى الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قط عينى ... وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصارى رضى الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

ولما حججت وزرته ﷺ، تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس، وأبكى من جملتها:

يا سيد السادات جئتك قاصدًا ... أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
والله يا خير الخلائق إنَّ لى ... قلبًا مشوقًا لا يروم سواكا
وَوَحقِ جاهك إننى بك مغرم ... والله يعلم أننى أهواكا
أنت الذى لولاك ما خُلقَ امرؤ ... كلاً ولا خُلق الورى لولاكا
أنت الذى من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقةٌ بنور بهاكا
أنت الذى لما رفعت إلى السما ... بك قد سمتْ وتزينتْ لسراكا

أنت الذى ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباكا

أنت الذى فينا سألت شفاعة ... ناداك ربك لم تكن لسواكا

أنت الذى لما توسل آدم ... من ذنبه بك فاز وهو أباكا

وبك الخليل دعا فعادت ناره ... برداً وقد خمدت بنور سناكا

ودعاك أيوب لضر مسه ... فأزيل عنه الضر حين دعاكا

وبك المسيح أتى بشيراً مخبراً ... بصفات حسنك مادحًا لعلاكا

وكذاك موسى لم يزل متوسلاً ... بك فى القيامة مرتج لنداكا

والأنبياء وكلٌ خلق فى الورى ... والرسل والأملاك تحت لواكا

لك معجزات أعجزت كل الورى ... وفضائل جلت فليس تحاكى

نطق الذراع بسمّة لك معلنًا ... والضب قد لبّاك حين أتاكا

والذئب جاءك والغزالة قد أتت ... بك تستجير وتحتمى بحماكا

وكذا الوحوش أتت إليك وسلّمت ... وشكا البعير إليك حين رآكا

ودعوت أشجاراً أتتك مطيعة ... وسعت إليك مجيبة لنداكا

والماء فاض براحتيك وسبّحت ... صم الحصى بالفضل فى يمناكا

وعليك ظلّلت الغمامة فى الورى ... والجذع حنّ إلى كريم لقاكا

وكذاك لا أثرٌ لمشيك فى الثرى ... والصخر قد غاصت به قدماكا

وشفيت ذا العاهات من أمراضه ... وملأت كلّ الأرض من جدواكا

ورددت عين قتادةً بعد العمى ... وابن الحصين شفيته بشفاكا

وكذا حبيبٌ وابن عفرا عندما ... جرحا شفيتهما بلمس يداكا

وعلى من رمدٍ به داويته ... فى خيبر فشفى بطيب لماكا

وسألت ربّك فى ابن جابر بعدما ... قد مات أحياه وقد أرضاكا

ومسست شاة لأمِّ معبد بعدما ... نشفت فدرّت من شفا رقياكا

ودعوت عام المحل ربّك معلنًا ... فانهلّ قطر السحب عند دعاكا

ودعوت كلَّ الخلق فانقادوا إلى ... دعواك طوعًا سامعين نداكا

وخفضت دين الكفر يا علم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناكا

أعداك عادوا فى القليب بجهلهم ... صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا

فى يوم بدرٍ قد أتتك ملائكٌ ... من عند ربك قاتلت أعداكا

والفتح جاءك يوم فتحك مكةٌ ... والنصر فى الأحزاب قد وافاكا

هودٌ ويونس من بهاك تجمّلا ... وجمال يوسف من ضياء سناكا

قد فُقت يا طه جميع الأنبيا ... نوراً فسبحان الذى سوّاكا

والله يا ياسين مثلك لم يكن ... فى العالمين وحق من نبّاكا

عن وصفك الشعراء يا مدثر ... عجزوا وكلوا عن صفات علاكا

إنجيل عيسى قد أتى بك مخبراً ... وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا

مـــاذا يـقـــول المادحـــون ومـــا عـــسى ... أن يجـــمـع الكـتـــاب مـن مـــعـنـاكـــا
والله لـو أنَّ البـــحـــار مـــدادهـم ... والعـــشب أقــلامٌ جـــعلن لـذاكـــا
لم تـقـــدر الـثـــقـــلان تجـــمـع ذرة ... أبدًا ومـــا اســـتـطـاعـــوا لـه إدراكـــا
لى فــيـك قلبٌ مـــغـــرمٌ يا ســـيـدى ... وحـــشـــاشـــةٌ مـحـــشـــوةٌ بهـــواكـــا
فـــإذا سـكت فـــفـــيـك صـــمـــتى كـله ... وإذا نطـقت فـــمـــادحٌ عـلـيـــاكـــا
وإذا ســـمـــعت فـــعنك قـــولاً طـيـــبًـا ... وإذا نـظـرت فـــلا أرى إلاكـــا
يا مـــالكى كن شـــافـــعى من فـــاقـــتى ... إنى فـــقـــيـــر فـى الورى لـغنـاكـــا
يـا أكـــرم الـثـــقـلين يـا كـنز الـورى ... جـــد لـى بجـــودك وارضـنى برضـــاكـــا
أنـا طامـعٌ فـى الجـــود مـنـك ولـم يكـن ... لابـن الخطـيب مـن الأنـام ســـواكـــا
فـــعـــســـاك تـشـفـع فـيـــه عـنـد حـــسابه ... فلقـــد غـدا مـــســتـمـــسكًا بعـــراكـــا
ولأنت أكـــرم شـــافـع ومـــشـــفـع ... ومن الـتـــجـــا لحـــمـــاك نال وفـــاكـــا
فـــاجـــعـل قـــراى شـفـــاعـــة لـى فى غـد ... فـــعـــســـى أرى فى الحـــشـــر تحت لواكـــا
صـلى عـلـيك الله يـا خـــيـــر الـورى ... مـــا حـن مـــشـــتـــاق إلـى مـــثـــواكـــا
وعلى صـــحـــابتك الـكرام جـــمـــيـــعـــهم ... والـتـــابـعـين وكـل مـن والاكـــا

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، و لا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته، ولكلوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ. ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه، فقال: ما مدحتك، و لكن ذكَّرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكراً، فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنى حيث انتهى من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب:

فـــتى دهـرُهُ شطران فـــيـــمـــا ينوبه ... فـــفى بـأســـه شطـرٌ وفى جـــوده شطرُ
فـــلا مِـنْ بُغـــاةِ الخـيـــر فى عـــينـه قـــذىً ... ولا من زئـيـــر الحـــرب فى أذنـه وَقْـــرُ

وقال أعرابى لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه، ولا يشتكى زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلى، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو، وسهمك الذى لا يطيش، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذى يُسقى منه ذلك البستان. وقال رجل لأبى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة: أنت والله عين الدنيا، فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى:[1]

---

(١) القاسم بن أمية: هو قاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى، شاعر، ابن شاعر حكيم، من الطائف يعد من الصحابة، عاش إلى ما بعد عثمان بن عفان، ورثاه، وله شعر فى مجالس ثعلب، والحماسة الصغرى وسمط الآلى. توفى (بعد ٣٥هـ - بعد ٦٥٥م). انظر (الإصابة) (٣٠/ ٢٢٠) ترجمة (٧٠٥٠).

قـــــومٌ إذا نزل الـغـــــريبُ بـدارهـم ... تركـــــوه ربَّ صـــــواهلٍ وقـــــيـانِ

وإذا دعـــــوتهـم لـيـــــوم كـــــريهـــةٍ ... ســـدّوا شـعـــاع الشـمس بالـفـرســان

وقال أوس بن حاتم الطائى:

فـــإن تنكحى مـــاوية الخـــيـــر حـــاتمًا ... فـــمـــا مـــثله فـــينا ولا فـى الأعـــاجم

فـــتىً لا يـزال الدهـر أكـــبـــر همِّـــه ... فِكـاكُ أســـيـــرٍ أو مـــعـــونة غـــارم

وقال ابن حمدون فى آل المهلب:

آل المهـلب مـــعـــشـــرٌ أمـــجـــادُ ... ورثـوا المكـارمَ والوفـــاءَ فـــســـادوا

شـــاد المـهـلب مـــا بنى آبـاؤه ... وأتـى بنـوه مـــا بنـاه فـــشـــادوا

وكـــذاك من طـابتْ مـغـــارسُ نـبـتـه ... وبـنـى لـه الآبـاء والأجـــداد

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة، فلما سجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قـــد ســـدّ ظهـــرها ... ولم يـبقَ إلاَّ بطـنـهـا لـك مـــخـــرجًـا

دعـــوت الذى ناداه يـونس بـعـــدمـــا ... ثوى فـى ثلاثٍ مظـلـمـــاتٍ فـــفـــرجـا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجانى أميراً ومدحنى أسيراً.

وقال سرى بن عبد الرحمن الرفاء فى خالد بن حاتم:

يـا واحـــدَ الـعـــرب الـذى دانت لـه ... قـــحطـان قـــاطـبـــةً وســـاد نزارا

إنى لأرجـــو إن لقـــيـــتُك ســـالمًا ... أن لا أعـــالج بعـــدك الأســـفـــارا

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى آل هاشم:

يـا آل هـاشـم الإله حـــبـــاكـم ... مـــا ليس يـبلـغـه الـلـســانُ المفـــصلُ

قـــومٌ لأصلـهـم الـســيـــادةُ كلّـهـــا ... قـــدمًـــا وفـــرعـــهُمُ النـبى المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعى:

ملـكَ الأمـــور بجـــوده وحـــســـامـه ... شـــرقًـــا يقـــود عـــدوَّهُ بزمـــامـه

فـــأطـاع أمـــر الجـــود فى أمـــواله ... وأطـاع أمـــر الله فـى أحـكـامـه

وقال آخر:

يلـقى الـســيـــوف بصـــدره وبنحـــره ... ويقـــيـم هامـــتـــه مـــقـــامَ المغـــفـــر

ويقـــول للـطرف اصـطـبـــرْ لـسـنى القنا ... فـــعـــقـــرت ركن المجـد إن لـم تعـــقـــر

وإذا ترادى شــــخص ضــيف مــقــبل ... مستـــســربل أثوابَ مــحلٍ أغــبــر

أومــىء إلى الكـومـــــــاء هـذا طـارق ... نحـــرتنى الأعــــداء إن لـم تنحـــرِ

وقال شاعر بنى تميم:

إذا لبـــــسوا عــمــائمـــهم طـووها ... عـلى كـــرم وإن ســفـــروا أنـاروا

يبـــيع ويشـــتــرى لـهمْ ســواهمْ ... ولـكـنْ بـالطـعـــــان هُـمُ تجــــارُ

إذا مــــا كـنـت جــــار بـنى تميم ... فـــأنت لأكـــرم الثـــقلين جـــار

وقالت امرأة من بنى نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذى يقول:

لعـــمــرى مـــا رمــاح بنى نميــر ... بطـائشـــة الـصــدور والا قـــصــار

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالى، وكـان مالاً كثيراً، وأثنى رجل على رجل، فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعًا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحـات إذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا يسأله الفـريضة، له نفس عن الفحشـاء محصورة وعلى المعالى مـقصورة كالذهب الإبريز الذى يعـز كل أوان والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضىء للحيران، والمنهل البارد العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانىء:

إذا نـحـن أثـنينـا عـليـك بـصـــــالـح ... فـــأنت كــمـــا نثنى وفـــوق الذى تثنى

وإن جــــرت الألفــــاظ يومًــــا بمدحــــة ... لغــــيــرك إنســــانًا فـــأنـت الذى نعنى

وله فى الفضل بن الربيع:

لقــــد نَـزَلْتَ أبـا العـــبـــاس منزلةً ... مــا إن تـرى خلفــهــا الأبصـــار مطرحــاً

وكلـت بالدهـر عـــينًا غــيـــر غـــافـلة ... بجـــود كــفك تـأســو كلَّ مـــا جـرحـــا

وقال زياد الأعجم فى محمد بن القاسم الثقفى:

إنَّ المنـابر أصـــبــحـت مــخـــتــالةً ... بمحـــمـــد بن القـــاسم بـن مـــحـــمـــد

قـادَ الجـيــوش لـسـبـع عـشــرة حُـجّـةٍ ... يا قـــرب ســـورة ســـؤدد مـن مـــولد

ومن بدائع مدائح المتنبى قوله:

ليـت المدائـحَ تسـتـــوفى منـاقـــبــــه ... فـــمـــا كـليبٌ وأهـل الأعـــصـــر الأول

خـــذْ مـــا تراه ودعْ شــيـئًـا ســمـعت به ... فى طـلعـــة البــــدر مـــا يغـنيك عـن زحلٍ

وقـــد وجـــدت مكان الـقـــول ذا ســعـــة ... فـــإن وجـــدت لســـانًا قـــائلاً فـــقل

ومدح أبو العتاهيـة عمرو بن العلاء، فأعطاه سبعـين ألفًا وخلع عليه خلعًا سنية حتى إنه لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء منه، فجمعهم وقـال: يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فـيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتًا، فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره، وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنـى أمنـتُ من الـزمـــــان وصــــرفـــــه ... لما عـلِقْـتُ من الأمــيــــر حــــبــــالاً

لو يستطيع الناس من إجلاله ... جعلوا له حرَّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت إليك سباسبًا ورمالا
فإذا وردن بنا وردنا خفافًا ... وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد أبو نواس [1] على الخصيب بمصر، فأذن له وعنده الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشدها، فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تزرْ أرضَ الخصيب ركابنا ... فأى فتىً بعد الخصيب تزورُ
فتىً يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدورُ
فما فاته جودٌ ولا ضلّ دونه ... ولكنْ يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

فاهتز الخصيب لها طربًا، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

وحكى أن أبا دلف سار يومًا مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف؟ قالت: نعم الذى يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلفٍ ... ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه، فقال له معقل: ما لك يا أخى تبكى؟ فقال: لأنى لم أقض حق الذى قال هذا. قال: أوكم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما فى نفسى حسرة إلا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال: هذه المدحة، فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدح صار بلا نوالٍ ... من الممدوح كان هو الهجاءُ

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش، محمد بن نصر صاحب حلب، فأجازه بألف دينار، ثم مات محمد ابن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنك حرمة لا زهادة ... وسرت إليكم حين مسّنى الضر
فجاء أبو نصر بألفٍ تصرّمت ... وإنّى عليمٌ أنْ سيخلفها نصر

فلما فرغ من إنشادها قال نصر: والله لو قال: سيضاعفها نصر لأضعفتها له، وأعطاه ألف دينار فى طبق فضة.
ومدح بعض الشعراء وقيل: هو البديع الهمذانى إنسانًا فقال:

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبًا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخنْ والشمس لو نطقتْ ... والليث لو لم يصدْ والبحر لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرم يفضى الورى من بساطه ... إلى روض مجد بالسماح مجودْ

---

(1) أبو نواس: هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمى بالولاء، أبو نواس، شاعر العراق فى عصره، ولد فى الأهواز (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، ودخل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس، قال الإمام الشافعى: لولا مجون أبى نواس لأخذت عنه العلم. له «ديوان شعر» و «الفكاهة والإئتناس فى مجون أبى نواس» توفى سنة (١٩٨هـ - ٨١٤م) انظر «وفيات الأعيان» (٢/٩٥-١٠٤) ترجمة (١٧٠).

وكم لجباه الراغبين لديه من	مجال سجود في مجالس جود

ويقال: فلان رقيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرة الدهر وتحجيله، مواهبه الإنواء، وصدره الدهناء، عونه موقوف على اللهيف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله وربيع السماح يضحك عن فواضله، إن طلب كريماً في جوده مت قبل وجوده أو ماجداً في أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الإقدام حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته. وصفى كدورته. خلق كنسيم الأشجار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت، يحل دقائق الأشكال، ويزيل جلائل الإشكال. البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يبعث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتغاير في الامتثال لأوامره، يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس، فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبّر حبّر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام وباهت في يمينه الأقلام، له أدب لو تصور شخصاً لكان بالقلوب مختصاً. قال الشاعر:

له خُلُقٌ على الأيام يصفو	كما تصفو على الزمن العقار

وقال آخر:

لو كان يحوى الروض ناضر خُلقه	ما كان يذبل نوره بشتائه
أو قابل الأفلاك طالع سعده	ما صار نحسٌ في نجوم سمائه

وقال آخر:

ووجهك بدرٌ في الغياهب مشرقٌ	وكفك في شهب السنين غمامُ
عجيبٌ لبدرٍ لا يزال أمامه	سحابٌ ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمامٌ إذا سطا	تلظّى مكان البرق منه حسام

وقال الحسين بن مطير الأسدى:

له يوم بؤس فيه للناس أبؤسٌ	ويوم نعيم فيه للناس أنعمُ
فيمطر يوم الجود من كفه الندى	ويمطرُ يوم البؤس من كفه الدم
فلو أنّ يوم البؤس خلى عقابه	على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أنّ يوم الجود خلى يمينه	عن المال لم يصبحْ على الأرض معدمُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

والله ما عجبى لقدرك أنه	قدرٌ على باغى مداه بعيد
إلاّ لكونك لست تشكو وحشة	في هذه الدنيا وأنت وحيد

ولصفى الدين الحلّى:

أثنى فتثنينى صفاتك مظهراً	عيّا وكم أعيتْ صفاتُك خاطبا
لو أنّنى والخلق جميعاً ألسنٌ	نثنى عليك لما قضينا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجري أحاديثها مجرى النجوم الزهر في الأفق
كما أحاديث الندى عنكمُ تنقلها الركبان من طرقِ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

روت عنك أخبار المعالي محاسنًا كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا وخلقك عن نبلٍ ورأيك عن سعد

وقال غيره:

من زار بابك لم تبرح جوارحُهُ تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكفّ عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ولأبي فراس بن حمدان:

لئن خُلق الأنامُ لحب كاس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان إلاّ لمجدٍ أو لبأس أو لجود

وقال آخر:

إنَّ الهبات التي جاد الكرام بها مطروقةٌ وندى كفيك مبتكرُ
ما زلت تسبق حتى قال حاسدكم له طريقٌ إلى العلياء مقتصر

ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار وأحسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى الندا وأخرى إلى البيت العتيق المنوّر
إذا نزلوا بطحاء مكّة أشرقتْ بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خُلقت إلاّ لجود أكفهُمْ وأقدامهم إلاّ لسعى مظفّرِ
إذا رام يحيى الأمر ذُلّتْ صعابه وناهيك من داعٍ له ومدبّرِ

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد:

ليت شعري أي قوم أجدبوا فأغيثوا بك من بعد العجف
نظر الله لهم من بيننا وحرمناك بذنب قد سَلف
يا أبا إسحاق سرْ في دعة وامض مصحوبًا فما منك خلف
إنما أنت ربيع باكرٌ حيثما صرّفه الله انصرف

وقال آخر:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي:

لويعبدُ الناسُ يا مهدى أفضلهم ... ما كان فى الناس إلا أنت معبود
أضحت يمينك من جودٍ مصورة ... لا بل يمينك منها صورُ الجود
لو أنّ من نوره مثقال خردلةٍ ... فى السود طرًا إذًا لابيضت السود

وقال آخر:

أوليتنى نعمًا وفضلاً زائدًا ... وبررتنى حتى رأيتك والدا
أقسمت لو جاز السجود لمنعمٍ ... ما كنت إلا راكعًا لك ساجدا

وقال آخر:

ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطرُ ... وحظك فى الدنيا جزيلٌ موفر
وكفك بحرٌ والأنامل أنهرٌ ... رعى الله كفًا فيه بحرٌ وأنهرُ
أعيذك بالرحمن من كل حاسدٍ ... فلا زالت الحساد تغبى وتصغر
لسانى قصيرٌ فى مديحك سيدى ... لأنى فقير والفقير مقصّرُ

الفصل الثانى فى هذا الباب: فى شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك، وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة. قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. أيقنوا أنها من الله، وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روى أن داود عليه السلام قال: إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتنى. وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر. ولمحمود الوراق:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... علىّ له فى مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلاّ بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسّ بالسراء عمّ سرورها ... وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلاّ له فيه نعمةٌ ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وفى مناجاة موسى عليه السلام: إلهى خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك منى، فكانت معرفته بذلك شكره لى. وأما شكر اللسان، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى: ١١]. ويروى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بالنعم شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: تذكروا النعم، فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذى فى الجوارح، فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. فجعل العمل شكراً. وروى أن النبى ﷺ «قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً». وقال أبو هارون: دخلت على أبى حازم، فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شرا سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيته. وفى حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع

أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعًا إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك، فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان علمنا أنه قد خلّ بالشكر، إما أنه لا يزكي ماله أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقًا عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك، فيدخل في قول النبي ﷺ: «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء من أعطى أربعًا لم يمنع من أربع: من أعطى الشكر لا يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. و قال المغيرة بن شعبة: اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجدد ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكرًا لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم. ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدري أشكر لله منك، وكان راكبًا على فرس ذلول فخرّ ساجدًا لله تعالى، ثم قال: لولا أني أبجلك لسألتك عن أن تنزع مني ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به دودة، فتفكر في خلقها، وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت له: يا داود تعجبك نفسك، وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك. وقال على رضى الله عنه: احذروا إنفار النعم فما كل شارد مردود. وعنه عليه السلام: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر. وقيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجّبا

وقال ابن عائشة: كان يقال: ما أنعم الله على عبد نعمة، فظلم بها إلا كان له حقًا على الله تعالى أن يزيلها عنه، وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى:

أعارك ماله لتقوم فيه ... بواجبه وتقضى بعض حقه

فلم تقصد لطاعته ولكنْ ... قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أنّ لى في كل منبت شعرة ... لسانًا يطيل الشكر كنت مقصرًا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المن. وروى إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرن لك معروفًا هممت به ... فإنّ همّك بالمعروف معروف

ولا ألومك إن لم يمضه قدرٌ ... فالشرُّ بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان[1]:

وما نعمة مكفورة قد صنعتها ... إلى غير ذى شكر تمانعنى أخرى

سآتى جميلاً ما حييت فإننى ... إذا لم أفد شكراً أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة، فإذا فقدت عرفت. وقيل: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تميمة. وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشة، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمةٌ يا فخر كلّ خليفة ... ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرض

شكرتك إنّ الشكر دينٌ على الفتى ... وما كلٌّ من أوليته نعمة يقضى

وأحييت لى ذكرى وما كان خاملاً ... ولكنّ بعض الذكر أنْبَهُ من بعض

وسمعه الرشيد فقال: هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه، ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: «من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إنى أنعمت على بنى سام فلم يشكروا، اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن على بن الحسين رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام، فيحمد الله تعالى، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكرين». وعن محمد بن على: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب عبد ذنبًا فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفر. وأولى رجل رجلاً أعرابيًا خيرًا، فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكر لا إنّى أجازيك منعمًا ... بشكرى ولكنّ كى يزاد لك الشكرُ

وأذكر أيامًا لدىَّ اصطنعتها ... وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال آخر:

أوليتنى نعمًا أبوح بشكرها ... وكفيتنى كلّ الأمور بأسرها

فلأشكرنك ما حييت وإن أمتْ ... فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(1) أبو فراس: هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى الربعى، أبو فراس الحمدانى، أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة، كان الصاحب ابن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك - يعنى امرأ القيس وأبا فارس - وله وقائع كثيرة، قاتل بين يدى سيف الدولة توفى سنة (٣٥٧هـ - ٩٦٨م).

وقال آخر:

أيا ربِّ قد أحسنت عوداً وبدأةً ... إليَّ فلم ينهض بإحسانك الشكرُ

فمن كان ذا عذرٍ لديك وحجةٍ ... فعذرى إقرارى بأن ليس لى عذر

وقال محمود الوراق:

إلهى لك الحمد الذى أنت أهله ... على نعم ما كنت قط لها أهلاً

إنْ زدت تقصيراً تزدنى تفضلاً ... كأنى بالتقصير أستوجبُ الفضلا

وقد أحسن نصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله:

فعاجوا وأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال رجل من غطفان:

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً ... به الزيادة عند الله والناس

وقيل: اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

الفصل الثالث: فى المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما وفد النجاشى على رسول الله ﷺ، قام يخدمهم بنفسه، فقيل له: يا رسول الله: لو تركتنا كفيناك، فقال: كانوا لأصحابى مكرمين. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال:

أذكر صنيعى إذ فاجاك ذو سفه ... يوم السقيفة والصِّدِّيق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته: ادن منى، فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عنى سفيهًا من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد فى عطائه، وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال رجل لسعيد بن العاص، وهو أمير الكوفة: لى يدٌ عندك بيضاء. قال: وما هى؟ قال: كبت بك فرسك، فتقدمت إليك قبل غلمانك، فأخذت بعضدك وأركبتك، وأسقيتك ماء، قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك، قال: قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذ حجبك عنا.

وقال قطرى بن الفجاءة الخارجى: أسره الحجاج ثم مَنَّ عليه، فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله، فقال: هيهات شديدًا مطلقها وأرق رقبة معتقها، ثم قال:

أأقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه ... بيد تقر بأنها مولاته

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... فى الصف واحتجت له فعلاته

أأقول جار علىَّ لا إنّى إذا ... لأحق من جارت عليه ولاته

وتحدّث الأقوام أن صنائعًا ... غرست لدىَّ فحنظلت نخلاتُه

واجتاز الشافعى رحمه الله تعالى بمصر فى سوق الحدادين، فسقط سوطه، فقام إنسان، فأخذه ومسحه وناوله إياه فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير، قال: ادفعها إليه واعتذر له، واستشهد عبد الملك عامر الشعبى، فأنشده

لغير ما شعر حتى أنشد لحسان:

من سرَّه شرفُ الحياة فلم يزل في عصبة من صالحي الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيِّهم بالمشرفيِّ وبالقنا الخطّار
الناظرين بأعين محمرَّة كالجمر غير كليلة الأبصار

فقام أنصارى، فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على ستين من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها، فقال عبد الملك: وله عندى ستون ألفًا، وستون من الإبل. وعن على كرم الله وجهه: أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم. وقال المدائنى[1]: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأيته ماشيًا فى سفر، فسألته عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشى الناس، فكان حقًا على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس.

ومما جاء فى المكافأة: ما حكي عن الحسن بن سهل[2] قال: كنت يومًا عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج، فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم، فكان آخرهم قيامًا أحمد بن أبى خالد الأحول، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه، وقال: يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثًا، فإذا فرغت من شغلى هذا، فذكرنى أحدثك به، فلما فرغ من شغله، وطعم قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبى، أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول، قال: نعم يا بنى. لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيرًا لا يملك شيئًا، فاشتد بى الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى: إنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم أيام ما عندنا شىء نقتات به، قال: فبكيت يا بنى لذلك بكاءً شديدًا، وبقيت ولهان وحيران مطرقًا مفكرًا، ثم تذكرت منديلاً كان عندى، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا، فقلت: ادفعوه لى، فأخذته، ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له: بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهمًا، فدفعتها إلى أهلى، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها، ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكبًا، فلما رآنى سلم علىَّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهمًا، فنظر إلىَّ نظرًا شديدًا، وما أجابنى جوابًا، فرجعت إلى أهلى كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد، فقالوا: بئس والله ما فعلت. توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك، فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه، فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل، فقال لى: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم ألتفت لقوله، فاستقبلنى آخر، فقال لى، كمقالة الأول، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد، فقال لى: أين تكون قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج، فلما رآنى دعانى، وأمر لى بمركب، فركبت وسرت معه إلى منزله، فلما نزل قال: علىَّ بفلان وفلان الحناطين، فأحضرا، فقال لهما: ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم؟ قالا: نعم، قال: ألم اشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا: بلى، قال: هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما، ثم قال لى: قم معهما، فلما خرجنا قالا لى : ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنىء، فدخلنا مسجدا، فقالا لى: إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شىء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله، فتنتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف؟ فقلت لهما: وكم

(١) المدائنى: هو محمد بن عبد الله، أبو الحسن المدائنى، راوية مؤرخ، كثير التصاريف من أهل البصرة، سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفى، أورد ابن النديم نيف ومئتى كتاب من مصنفاته فى المغازى، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، والخلفاء، توفى سنة (٢٢٥هـ - ٨٤٠م).

(٢) الحسن بن سهل : هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى، أبو محمد، وزير المأمون العباسى، وأحد كبار القادة والولاة فى عصره، اشتهر بالذكاء، والأدب، والفصاحة، وحسن التوقيعات، والكرم، وهو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ فى إكرامه، أصيب بمرض السوداء، فتغير عقله حتى شد فى الحديد، ثم شفى، توفى سنة (٢٣٦هـ - ٨٥١م).

تبذلان لى؟ فقالا: مائة ألف درهم، فقلت: لا أفعل، فمازالا يزيدانى وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى: ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت: حتى أشاور أبا خالد. قالا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالا: نعم. قال: اذهبا، فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لى: أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به، فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمرى وجب عليك له، فقال: والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليه، ففعل ذلك رضى الله عنه، وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يومًا مجلس المأمون ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآنى قال لى: عباس، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكر به إلىَّ فى غد واحترز عليه كل الاحتراز. قال العباس: فدعوت جماعة، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت فى نفسى: مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى، فأمرتهم، فتركوه فى مجلس لى فى دارى، ثم أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق، فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلانًا؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لى معه قضية. فقال: ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه، فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى إن الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت فى جملة القوم، فبينما أنا هارب فى بعض الدروب، وإذا بجماعة يعدون خلفى، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثنى أغاثك الله، قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: هو ههنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لى مكانًا فى داره، ولم يحوجنى إلى شىء، ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنته إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى، فلعلى أقف منهم على خبر، فأخذ علىَّ المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلمانى، فلم أر لهم أثرًا، فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفنى، ولا يسألنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت علىَّ هذه المدة، ولك علىَّ عهد الله أنى لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت، قال: فدعا غلامًا له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلانى، ثم جهز آلة السفر، فقلت فى نفسى: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحى، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى السحر، وقال لى: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت فى نفسى: كيف أصنع، وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركوبًا، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءنى بسيف ومنطقة، فشدهما فى وسطى، ثم قدم بغلاً، فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش، ودفع إلى نسخة ما فى الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم إلىَّ الفرس الذى كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىَّ من التقصير فى أمرى، وركب معى يشيعنى، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعة بلا كلفة

عليك، ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذى أنا فيه غيّر عليك حالى، وما كنت تعرفه منى، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته. فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذى أصارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك، فنسبت إلىَّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين، وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم، وهو قاتلى لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك، فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك. قال العباس: قلت يصنع الله خيراً. ثم أحضر حداداً فى الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكى ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: علىَّ بالفرس الفلانى، والفرس الفلانى والبغل الفلانى، والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل: وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم، وكيسًا فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه فى الشرطة: خذ هذا الرجل وشيِّعه إلى حد الأنبار. فقلت له: إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبى جسيم. وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرد وأقتل. فقال لى: انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضورى حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، فإن أناسلمت فى غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت، فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد فى إخراجه من بغداد. قال الرجل: فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحنط وجهّز له كفنًا. قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون فى طلبى ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا. فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع منى، فقال: لله علىَّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب. ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أننى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى، وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عنى، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى. وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غيره. هلا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن إليه، فطيِّب نفسه وسكن روعه واتنى به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه، ثم قام، فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتى حضر الغداء، وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى: يا عباس هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده بن القاسم الأنبارى[1] رحمه الله تعالى، أن سواراً صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين، قال: انصرفت يومًا من دار الخليفة المهدى، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام، فلم تقبله نفسى،

---

(١) محمد بن القاسم: هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنبارى، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة. ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار، كان يتردد إلى أولاد الخليفة، الراضى بالله يعلمهم. من كتبه: «الزاهر فى اللغة» و «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» و «إيضاح الوقف والإبتداء فى كتاب الله عز وجل» توفى سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فأمرت به، فرفع، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة، فلم يأخذنى النوم، فنهضت وأمرت ببغلة، فأسرجت وأحضرت فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال، فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد، قلت: أمسكها معك واتبعنى، فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم، فعطشت، فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى، فشربت، وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتى إذ أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى، وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشىء، فقلت: قل، قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصر كان لأبى، فباعه، وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها، وعميت، فقدمت هذه المدينة، فأتيت صاحب هذا الدار لأسأله شيئًا يصلنى به وأتوصل إلى سوار، فإنه كان صديقًا لأبى، فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إلىَّ، فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به، فأقعده بين يديك، ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلى، ثم مضيت، وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشىء أظرف من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه فأذن لى، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفى دينار، فأحضرت، فقال: ادفعها إلى الأعمى، فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفًا، فحادثنى ساعة، وقال امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم معه خمسون ألفًا، وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت منه ذلك، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى، وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته، فقال: قد فكرت البارحة فى أمرك، فقلت: يقضى دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضًا، وقد أمرت لك بخمسين ألفًا أخرى، قال: فقبضتها وانصرفت، فجاءنى الأعمى، فدفعت إليه الألفى دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه، وكافأك على إحسان أبيك، وكافأنى على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئًا آخر من مالى، فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسنًا وأرجح معنى: ما حكاه القاضى يحيى بن أكثم رحمة الله عليه قال: دخلت يومًا على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدى وهو مطرق مفكر، فقال لى: أتعرف قائل هذا البيت؟

الخيرُ أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبثُ ما أوعيت من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: علىَّ بعبيد، فلما حضر بين يديه قال له: أخبرنى عن قضية هذا البيت، فقال: يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجًا، فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقال لى رجل من القوم: تقدم ترما بالناس، فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير، فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع فى أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانيًا، فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدى هذا العالم بنفسى وأتقوب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا، فأخذت قربة من الماء، فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت. فلما رآنى قربت منه سكن، وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعنى فيها، فلما رأى القربة فتح فاه، فجعلت فم القربة فيه، وصببت الماء كما يصب الماء فى الإناء، فلما فرغت القربة تسيب فى الرمل ومضى، فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه. ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئًا من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق، فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت، وجلست أذكر الله تعالى، فأخذتنى عينى، فنمت مكانى، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسًا، وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً، ولم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتنى حيرة

وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضل مركبه ... ما عنده من ذى وشاد يصحبُهْ
دونك هذا البكر منّا تركبه ... وبكرك الميمون حقًا تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه ... عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت، فإذا أنا ببكر قائم عندى، وبكرى إلى جانبى، فأنخته وركبته وجنبت بكرى، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضلّ المدلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدًا فقد بلّغتنا مننا ... بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر إلىّ وهو يقول:

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضًا ... والله يكشف ضرّ الحائر الصادى
فجدت بالماء لما ضنّ حامله ... تكرّمًا منك لم تمنن بإنكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمنّ به ... فاذهب حميدًا رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات، فكتبت عنه، وقال: لا يضيع المعروف أين وضع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

فى الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفى بالأعراض والوقوع فيها. وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجى الإنسان بهتانًا وظلمًا أو عبثًا أو إرهابًا. قال المتوكل لأبى العيناء: كم تمدح الناس وتذمهم، قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضى الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه، فقال: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾[ص: ٤٤] وغضب على آخر، فقال: ﴿مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم﴾[القلم: ١١، ١٢]، قيل الزنيم: الملصق بالقوم وليس منهم، وقال دعبل[1] فى المأمون بعد البيعة له، وقتل الأمين:

إنّى من القوم الذين همو همو ... قتلوا أخاك وشرّفوك بمقعد

شادوا لذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون: ما أبهته ليت شعرى متى كنت خاملاً، وفى حجر الخلافة ربيت وبدرها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس، فقيل له: أتبكى على جعفر وأنت هجوته؟ فقال: كان ذلك لركوب الهوى، وقد بلغه والله أنى قلت:

ولست وإن أطنبت فى وصف جعفر ... بأول إنسان خرى فى ثيابه

فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه. ومن العبث بالهجو ما روى أنّ الحطيئة هم بهجاء. فلم يجد من يستحقه فقال:

أبت شفتاى اليوم إلاّ تكلما ... بسوء فلا أدرى لمن أنا قائله

أرى بى وجهًا قبّح الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

وعبث بأمه فقال:

تنحّى فاجلسى عنّا بعيدًا ... أراح الله منك العالمينا

أغربالاً إذا استودعت سرًّا ... وكانونا على المحدثينا

حياتك ما علمت حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحين

وقال رجل: ما أبالى أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: أرحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل لآخر: إن هجوتنى أتموت ابنتى؟ قال: لا، قال: أفتخرب ضيعتى؟ قال: لا، قال: فرجلى مع ساقى إلى حلقى فى حر أمك، قال: ولم تركت رأسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك. وكان الرجل من نُمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير وأمال بها عنقه، فلما هجاهم جرير بقوله:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

---

(١) دعبل: هو دعبل بن على أبو على الخزاعى الشاعر المشهور، له شعر فى الرقائق وكتاباً فى (طبقات الشعراء) أصله من الكوفة وقيل: اسمه محمد وكنيته، أبو جعفر، ودعبل لقب له، والدعبل: الشىء القديم، وكان خبيث اللسان، قبيح الهجاء، ولد سنة (١٤٨هـ) وتوفى سنة (٢٤٦هـ) وقيل: قتله المعتصم.

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل: يقول من بني عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير.
وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

يا طلوع الرقيب من غير إلف يا غريمًا أتى على ميعاد
يا ركودًا في وقت غيم وصيف يا وجوه التجار يوم كساد

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبي. واستماحه. فلم يسمح له بشيء فانصرف مغضبًا، فوجه إليه داود بن يزيد بن حاتم، فترضاه: وأحسن إليه، فقال في ذلك:

داواد محمودٌ وأنت مذمّمٌ عجبًا لذاك وأنتما من عود
ولربّ عود قد يشقّ لمسجد نصفًا وباقيه لحشّ يهودي
فالحش أنت له وذاك بمسجد كم بين موضع مسلح وسجود
هذا جزاؤك يا قبيص لأنه جادت يداه وأنت قفل حديد

وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيثٌ يغيث بوبله وأنت جرادٌ لست تبقي ولا تذر
له أثرٌ في المكرمات يسرنا وأنت تعفي دائمًا ذلك الأثر

وقال المبرد في حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلَّا له. ولما قعد حماد بن عجرد لتاديب ولد الأمين. قال بشار بن برد:

قل للأمين جزاك الله صالحة لا يجمع الله بين السخل والديب
السخل يعلم أن الذئب آكله والذئب يعلم ما بالسخل من طيب

وقال فيه أيضًا:

يا أبا الفضل لا تنمْ وقع الذئب في الغنم
إنّ حماد عجرد شيخُ سوء قد اغتنم
بين فخذيه حربةٌ في غلاف من الأدم
إن رأى ثمّ غفلةً يجمع الميم بالقلم

فشاعت الأبيات، فأمر الأمين بإخراج حماد.

وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك، قال: كيف تهجوني وأبوك أبي، وأمك أمي؟ قال أقول:

بني أمية هبُّوا طال نومكمو إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الماء والعود

فدخل يعقوب على المهدي، فأخبره أن بشاراً هجاه، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها، فسمع أذانًا في ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا، وإذا به بشار وهو سكران، فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك، ثم أمر به فضربه سبعين سوطًا حتى أتلفه بها وألقى في سفينة، فقال عين الشمقمق تراني حيث يقول:

إن بشـار بن بردٍ تيس أعمى فى سفينة

فلما مات أُلقيت جثته فى الماء. فحمله الماء، فأخرجه إلى الدجلة، فجاء بعض أهله، فحملوه إلى البصرة، وأخرجت جنازته، فما تبعه أحد، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه. وخاصم أبو دلامة رجلاً، فارتفعا إلى عافية القاضى، فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول:

لقد خاصمتنى دهاة الرجال وخاصمتها سنّة وافيهْ
فما أدحض الله لى حُجَّة ولا خيَّب الله لى قافيهْ
ومن خفت من جوره فى القضاء فلست أخافك يا عافيهْ

فقال عافية: لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتنى قال له أبو دلامة: إذًا والله يعزلك. قال: ولمَ؟ قال: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح، قال: فبلغ ذلك المنصور، فضحك وأمر له بجائزة. ودخل أبو دلامة على المهدى وعنده إسماعيل بن على، وعيسى بن موسى والعباس بن محمد، وجماعة من بنى هاشم، فقال له المهدى: والله لئن لم تهج واحداً ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك. فنظر إلى القوم وتحير فى أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد، فيغمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة، فازددت حيرة، فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى، فقلت:

ألا أبلغ لديك أبا دلامه فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامةً وجمعت لؤمًا كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلتُ قردًا وخنزيرًا إذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحداً إلا أجازه.

وقال ابن الأعرابى: إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم:

لم تندُ كفاك من بذل النوال كما لم يند سيفك مذ قلّدته بدم

وهجا بعضهم القمر، فقال: يهدم العمر ويوجب أجرة المنزل ويشحب الألوان، ويقرض الكتان، ويضل السارى، ويعين السارق ويفضح العاشق. ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره:

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسرًا إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره نارًا وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت، فقال فيها ابن المنجم:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها وهجة تتضرّمُ
فما هو إلا كافر طال عمرهُ فجاءته لما استبطأته جهنّمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال:

دار سكنت بها أقلّ صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها
الخير عنها نازح متباعد والشر دانٍ من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته كم أعدم الأجفان طيب سناتها

وتبيت تسعدها براغيث متى   غنّت لها رقصت على نغماتها
رقصٌ بتنقيط ولكن قافه   قد قدّمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عينَ   الشمس ما طربى سوى غنّاتها
أين الصوارمُ والقنا من فتكها   فينا وأين الأسْدُ من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز   أبصارنا عن وصف كيفياتها
وبها خفافيش تطير نهارها   مع ليلها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصّرت   عنه العتاق الجرد فى حملاتها
وبه خنافس كالطنافس أفرشت   فى أرضها وعلت على جنباتها
لو شم أهل الحرب منتنَ فسوِها   أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردانٍ وأشكال لها   مما يفوت العين كنهُ ذواتها
أبدًا تمص دماءَنا فكأنها   حجّامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليمانى منا   قد قلّ ذرّ الشمس عن ذراتها
ما راعنى شيءٌ سوى وزغاتها   فتعوذوا الله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظننتها   ورقُ الحمام سجعن فى شجراتها
وبها زنانير تظن عقاربًا   حر السموم أخف من زفراتها
وبها عقارب كالأقارب رتّعٌ   فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة   ولا حياة لمن رأى حيّاتها
منسوجةٌ بالعنكبوت سمارها   والأرض قد نسجت على آفاتها
فضجيجها كالرعد فى جنباتها   وترابها كالرمل فى خشناتها
والبوم عاكفةٌ على أرجائها   والدود يبحث فى ثرى عرصاتها
والجن يأتينا إذا جن الدجى   تحكى الخيول الجرد فى حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها   وجهنم تعزى إلى لفحاتها
شاهدت مكتوباً على أرجائها   ورأيت مسطوراً على جنباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا   تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبدًا يقول الداخلون ببابها   يارب نجّ الناس من آفاتها
قالوا إذا ندب الغراب منازلاً   يتفرّق السّكان من ساحاتها
وبدارنا ألفا غراب ناعق   كذب الرواة فأين صدقُ رواتها
صبراً لعل الله يعقبُ راحةً   للنفس إذا غلبت على شهواتها
دارٌ تبيت الجنّ تحرس نفسها   فيها وتندب باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفرداً والعين من   شوق الصباح تسح من عبراتها

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

وأقول يارب السموات العلا ... يا رازقا للوحش فى فلواتها
أسكنتنى بجهنم الدنيا ففى ... أخراى هب لى الخلد فى جناتها
واجمع بمن أهواه شملى عاجلاً ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ولبعضهم فى بلان:

أشكوا إلى الله بلانا بليت به ... مست أناملة ظهرى فأدمانى
فلا يدلك تدليكا بمعرفة ... ولا يسرح تسريحا بإحسان

وللشيخ شمس الدين البدوى فى بلان أيضًا:

وبلانٌ له ظهرٌ يباهى ... به حدّ الشفار المرهفات
هرى جسمى فالبه نجيعا ... على حلل الستور السابلات
ورام يلين أعضائى برفق ... فأيبسها وكسر فوقحانى
ولم انظر له أبدًا حميلاً ... وذلك من عظيم المهلكات
وأعمى مقلتى بصنان إبط ... يفوح به على كل الجهات
فلا تجعل إلهى مثل هذا ... يغسلنى إذا حانت وفاتى

ولبعضهم فى حمام:

وحمام دخلناه لأمر ... حكى سقرًا وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولوا أخرجونا ... فإن عدنا فإنا ظالمون

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أيجمل يا نظام الملك أنى ... أعاود من ذراك كما قدمتُ
وأصدر عن حياضك وهى نهبٌ ... بأفواه السقاة وما وردتُ
يدل على فعالك سوءُ حالى ... ويخبر عن نوالك إن كتمت
إذا استخبرت ماذا نلت منه ... وقد عمَّ الورى كرماً سكتُ

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أبا جعفر لست بالمنصف ... ومثلك إن قال قولاً يفى
فإن أنت أنجزت لى ما وعدت ... وإلا هجيت وأدخلت فى
وقد علم الناس ما بعد فى ... فغط الحديث ولا تكشف

---

(١) الخوارزمى: هو محمد بن موسى الخوارزمى، فلكى، رياضى، مؤرخ، جغرافى، من أهل خوارزم، أقامه المأمون العباسى قيماً على خزانة كتبه، وعهد إليه بجميع الكتب اليونانية، وترجمتها وأمره باختصار (المجسطى) لبطليموس، فاختصره وسماه (السندهند) أى (الدهر الداهر) وله مصنفات منها «الجبر والمقابلة» و«تقويم البلدان» و«صورة الأرض من المدن والجبال» عاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله وتوفى حوالى (٨٥٠م).

وممن عرض بالهجو فى شعره الخوارزمى[1] قال فى أبى جعفر:

أعـــد مـــدحى علىّ وخـــذ ســـواه ... فـقـد أتعبـتنى بامسـتريح
ولا تغـضب إذا أنشـدت يومـاً ... سـواه وقيـل هذا صـحيح

ومدح السراج الوراق إنسانًا فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

أعـدْ مـدحـاً كـذبت عليك فيـه ... وقـد عـوقبت بالحـرمان عنه
ولكنى سـأصـدق فيك قـولاً ... فـلا يصـعبْ عليك الحقّ منه

مضـوا ليحـجّوا كـأنهـا ... تكاد لفـرط البشـر أن توضح السّبـلا
وعـادوا كـأنّ القـار فـوق وجـوههم ... فـلا مـرحـبًا بالقـادمين ولا سـهلاً
وجـاءوا ومـا جـادوا بعـود أراكـة ... ولا وضـعـوا فى كف طفلٍ لنا بقـلاً

وقال آخر:

إذا رمتُ هجـواً فـى فـلان تصـدنى ... خـلائقُ قـبحٍ عنه لا تـتـزحـزح
تجـاوز قـدر الهـجـو حـتىّ كـأنه ... باقـبح مـا يهـجى بـه المرء يُمـدّح

وهجا بعضهم امرأة فقال:

لهـا جـسم برغـوثٍ وسـاق بعـوضـة ... ووجـه كـوجـه القـرد بل هـو أقـبحُ
تُبـرق عـينيـهـا إذا مـا رأيتـهـا ... وتعـبس فـى وجـه الضـجـيع وتكـلح
لهـا منظرٌ كـالنار تحـسب أنهـا ... إذا ضـحكت فى أوجـه الناس تلفح
إذا عـاين الشـيطان صـورة وجـهـهـا ... تعـوّذ منهـا حين يمسى ويصـبح

ولبعضهم فى عظيم أنف:

لك وجـهٌ وفـيـه قطعـة أنف ... كـجـدارٍ قـد دعّـمـوه ببـغـله
وهو كـالقـبـر فـى المثـال ولكن ... جـعلوا نصـفـه علـى غـيـر قـبله

وفيه أيضًا:

رأينـا لـلزكـى جـدار أنف ... يضـاهى فى تشـامـخـه الجـبـالا
تـصـدّى لـلهـلال لكـى يراهُ ... فـلولا عظمـه لـرأى الهـلالا

ولبعضهم فى أبخر مخنث:

قـالوا فـلان بـه نتنٌ فـقـلت لـهم ... يا قـوم قـد حـار فكرى فـى مـساويه
يا قـوم لا تعـجـبـوا من نـتن نكهـتـه ... فـالأير يـدفع مـا فـيـه إلى فـيـه

ولصفى الدين الحلى:

رأى فـرسـى اصطبل عـيـسى فـقـال لى ... قـفـا نبك من ذكـرى حـبـيب ومنزل

به لـم أذق طعم الـشـعـيـر كـأنـنى / بـسـقـط اللوى بين الـدخـول فـحـومل
تقـعـقـع من برد الشـتـاء أضـالـعى / لما نـسـجـتـهـا من جنوبٍ وشـمـال

وله أيضًا:

ليـهـنك إنَّ لى ولـدًا وعـبـدًا / سـواءٌ فى المقـال وفـى المقـام
فـهـذا سـابقٌ مـن غـيـر سبنٍ / وهـذا عـاقـلٌ مـن غـيـر لام

وله فى طبيب يدعى إسحاق:

مـبـاضع إسـحـاق الـطـبـيب كـأنهـا / لهـا بـفـنـاء العـالمين كـفـيلُ
مـعـودة أن لا تـسلّ نصـالهـا / فـتـغـمـد حـتى يـسـتـبـاح قـتـيل

وله فى أحمق طويل اللسان:

لو أنّ قـوة وجـهـه فى قـلبـه / قـنَـصَ الأسـودَ وجـنـدل الأبـطـالا
أو كـان طول لـسـانه بـيـمـينه / أفـنى الـكـنـوز وأنفـد الأمـوالا

وهجا أعرابى رجلاً ثم مدحه فقال:

إنّى مـدحـتـك فى فـسـاد قـريحـتى / وعـلمـت أن المـدح فـيـك يـضـيـعُ
لـكن رأيـت المـسك عـنـد فـسـاده / يدنـى إلى بـيـت الخـلا فـيـضـوع

وله أيضاً يقول:

وقال بعضهم فى حجّاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئًا:

وقيل لبعضهم: ما تقول فى فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما.

وقيل لرجل: كيف وجدت فلانًا؟ قال: طويل اللسان فى اللؤم، قصير الباع فى الكرم، وثابًا على الشر منّاعًا للخير.

هجـون زهيـرًا ثم إنى مـدحـتـه / ومـا زالت الأشـراف تُهـجى وتُمـدح

وسمع أعرابى قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا﴾[التوبة:٩٧]. فانتفض، ثم سمع قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب

ولقـد قـتـلتك بـالهـجـاء فلـم تمتْ / إنّ الـكـلاب طويـلـة الأعـمـار

من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾[التوبة:٩٩]. فقال: الله أكبر هجانًا ثم مدحنا، وكذلك قال الشاعر:

إذا رضـيـت عـنى كـرامُ عـشـيـرتى / فـلا زال غـضـبـانًا علىّ لئـامـهـا

استب رجلان، فقال أحدهما للآخر: لو قطع زبك وعلق، لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العبدى:

وقال المتوكل لأبى العيناء: ما بقى أحد فى المجلس إلأ هجاك، وذمك غيرى فقال:

فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضى الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك، وما أحسن ما قيل فى ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: يابنى عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سئل عنه أقرّبه، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ بمَ يعرف المؤمن؟ قال: «بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه». وقيل: لكل شيء حلية وحلية النطق الصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاةٌ لأربابه ... وقربة تدنى من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبى صفرة: ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعز له من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطلع على خزائن الغيب، ولكان أميناً فى السماوات والأرض. وقيل: من لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى. وقال عتبة بن أبى سفيان: إذا اجتمع فى قلبك أمران لاتدرى أيهما أصواب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذى يزن: «وضع الخد للحق عز» وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمرله بمائة ناقة، فقبل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشى غيرك إلا واحداً، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسى، فقال: والله لاضرك الصدق عندى أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدوانى فى وصيته: إنى وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا، يعنى من لزم الصدق وعوّد لسانه وُفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض. فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ. فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخى صدقت فأنكحك الصدق.

وخطب الحجاج فأطال، فقام رجل. فقال: الصلاة، فإن الوقت لاينتظرك والرب لايعذرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقيل له، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

الفصل الثانى: من هذا الباب: فى الكذب وما جاء فيه

قال الله تعـالى فى الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ١٠]. وقـال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور. والفـجور يهدى إلى النار. وتحروا الصدق فإن الصدق يهـدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة». وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الـله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جـاء به». ويقال: راوى الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب وعـمود الكذب البهـتان. وقيل: أمران لاينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشـدة الاعتذار. وقال الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وهى لكل واصف كـذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمـعى: قلت لكذاب أصدقت قط؟ قال: لولا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبى الجنود:

لـى حـيلة فـيـمن ينمّ	وليس فـى الـكذّاب حـيلة
مـن كـان يـخلـقُ مـا يقـولُ	فـحـيلتى فـيـه قليلة

ويقال: فـلان أكذب من لمعان الســراب، ومن سحاب تموز. وكـان بفارس محـتـسب يعرف بجـراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتى، وإنى والله لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالنى من نفعه. وقال فيلـوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حـسب الـكذوب من الـبليـة	بعـض مـا يـحكى عـليـه
فـمتى سـمعت بـكذبة	مـن غـيـره نـسـبت إليـه

وأضاف صيرفى قوماً. فاقبل يحدثهم، فـقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وعن عبد الله بن الســدى قال: قلت لابن المبارك حدثنا حديثاً، قـال: ارجعوا، فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحـدثتكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شىء حتى أنينه فى سقمه، وحتى أن الصبى يبكى، فتقول له أمه: اسكت وأشترى لك كذا، ثم لا تفعل، فـتكتب كذبة، وقال الفضيل: ما مـن مضغة أحب إلى الله تعالى من اللـسان إذا كـان صدوقاً. ولا مضغة أبغض إلى الله تعـالى من اللسان إذا كان كذوباً. وعن ابن مسعود رضى الله تعـالى عنه مرفوعاً: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب» قال الشاعر:

لايـكذب المرء إلاّ من مـهـانـتـه	أو فـعلـه الـسـوء أو مـن قلّـة الأدب
لبـعضُ جـيـفـةِ كلبٍ خـيـر رائحـة	مـن كـذبـة المرء فـى جـد وفـى لعب

ولما نصب معـاوية رضى الله تعالى عـنه ابنه يزيد لولاية العهـد أقعده فى قـبة حـمراء وجعل الناس يسـلمون على معاوية، ثم يـسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففـعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لاتقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى

إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيراً عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: ياهذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لايكون عند الله وجيهاً. وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوي بذلك جاشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم، قالوا: جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصاً أقلع وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمر بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال. قيل: إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضي الله تعالى عنه، والحمد لله وحده.

فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول: فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ⑭﴾ [لقمان: ١٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ㉓ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ㉔﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. وعن على رضى الله تعالى عنه: لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إنَّ رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين.

وحكى أبو سهل عن أبى صالح، عن أبى نجيح، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار» وقال رسول الله ﷺ: «إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق». وكان رجل من النساك يُقبِّل كل يوم قدم أمه، فأبطا يوماً على إخوته، فسألوه، فقال: كنت أتمرغ فى رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه، يارب أوصنى قال: أوصيك بأمك حسناً، قال له سبع مرات، قال حسبى، ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضاى، وسخطها سخطى. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لابن مهران: لاتأتين أبواب السلاطين، وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولاتصحبن عاقاً، فإنه لن يقبلك وقد عق والديه. وقال فيلسوف: من عقّ والديه عقه ولده. وقال المأمون: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ على بره له أنه كان لايتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهم السجان من الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح. فلم يزل قائما وهو فى يده إلى المصباح حتى استيقظ أبوه من منامه.

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه. فما زال الولد واقفاً بالشربة فى يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن لى أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى وبات آخر يصلى ولايسرنى ليلته بليلتى. وقيل: إن محمد بن سيرين كان يكلم امه كما يكلم الأمير الذى لايتنصف منه. وقيل لعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه، فأكون قد عققتها.

الفصل الثانى: فى الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ريح الولد من الجنة. وكان يقال: ابنك ريحانتك سبعاً ثم حاجبك سبعاً، ثم عدو أو صديق. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: قلت لسيدى رسول الله ﷺ يا رسول الله: هل يولد لأهل الجنة؟ قال: «والذى نفسى بيده إن الرجل يشتهى أن يكون له ولد، فيكون حمله ووضعه وشبابه الذى ينتهى إليه فى ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كى لايفسق. وقال عمر رضى الله تعالى عنه: إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج الله منى نسمه تسبحه وتذكره. وقال رضى الله تعالى عنه: أكثروا من العيال، فإنكم لاتدرون بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاثة: شم الصبيان، وملاقاة الإخوان، والخلوة مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه

يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب، فقال: انبذها عنك، فإنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء ويورثن الضغائن. قال: لاتقل يا عمرو ذلك، فوالله ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الإخوان إلا هن. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حببتهنّ إليّ. وقيل لرجل: أى ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر. ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر. وقال ابن عامر لامرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلاماً فلك حكمك، فلما ولدت قالت: حكمى أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالوذج، وأن تعق بألف شاة، ففعل لها ذلك. وغضب معاوية على يزيد. فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم. وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزراً، فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقرأه السلام، واحمل إليه مائتى ألف درهم، ومائتى ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: عليّ به، فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة؟ فحكاها له، فشكر صنيعه، وشاطره الصلة.

وحكى الكسائى أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه، قال: فلم يلبث قليلا أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضا أبصارهما حتى وقفا فى مجلسه، فسلما عليه بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فاستدناهما، وأسند محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرنى أن ألقى عليهما أبواباً من النحو، فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً، وقال: كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمرىْ أفقٍ وفرعين شامة ... يزينهما عرقٌ كريمٌ ومحتدُ
سليلى أمير المؤمنين وحائزى ... مواريث ما أبقى النبى محمدُ
يسدّان أنفاق النفاق بشيمة ... يزينهما حزمٌ وسيفٌ مهنّدُ

ثم قلت: ما رأيت - أعز الله أمير المؤمنين - أحداً من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسناً، ولا أحسن ألفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً، وأمّن الرشيد على دعائه، ثم ضمهما إليه، وجمع عليهما يديه، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج وقال: كأنكم بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشتّت أمرهما، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء، وتهتك الستور. وكان يقال بنو أُمية دنّ خل أخرج الله منه زقّ عسل، يعنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه. وسب أعرابي ولده وذكر له حقه، فقال: يا أبتاه إن عظيم حقك عليّ لايبطل صغير حقى عليك. قال سيدى عبد العزيز الديرينى رحمه الله تعالى:

أحب بنيتى ووددت أنى ... دفنت بنيتى فى قاع لحد
مآبى أن تهون عليّ لكنْ ... مخافة أن تذوق الذلّ بعدى
فإن زوّجتها رجلاً فقيراً ... أراها عنده والهم عندى
وإن زوّجتها رجلاً غنياً ... فيلطم خدّها ويسبّ جدى
سألت الله يأخذها قريباً ... ولو كانت أحبّ الناس عندى

وقال هارون بن على بن يحيى المنجم:

أرى ابنى تشابه من على ... ومن يحيى وذاك به خليقُ
وإن يشبههما خُلقاً وخَلقاً ... فقد تسرى إلى الشّبه العروق

وقال أبو النصر مولى بنى سليم:

ونفرح بالمولود من آل برمك ... ولا سيما إن كان من ولدِ الفضلِ

وقال الحسن بن زيد العلوى:

قـــالوا عـــقـــيم لـم يولـد له ولـدٌ ... والمرء يخلـفـــه مـن بـعـــده الولـدُ

فـقـلت من عـلقت بـالحـرب همـــتــه ... عـــاف النســاء ولم يكثـــر له عـــدد

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يرقص ولده ويقول:

أزهـرٌ مـن آل بنـى عـــتـــيق

مـــبـــاركٌ من ولـد الصّـــديقِ

ألـذّه كـــمـــا ألـذّ ريقى

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يـا حـــبّـــذا ريح الـولـد ... ريح الخـــزامى فـى البـلـد

أهـــكـــذا كـــلّ ولـــد ... أم لـم يـلـد مـــثلى أحـــد

وكان أعرابى يرقص ولده ويقول:

أحـبّـــه حـبّ الشـحـيـح مـــاله

قـــد ذاق طـعم الـفـــقـــر ثم نـاله

إذا أراد بـــذلـــه بـــدا لـــه

وكان لأعرابى امرأتان. فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاماً، فرقصته أمه يوماً وقالت معايرة لضرتها:

الحـــمـــد لله الحـمـيـد العـــالى ... أنـقـــذنى الـعـــام من الجـــوالى

مـن كـل شـــوهـاء كـــشن بـالـى ... لاتـدفع الـضـــيم عـن العـــيـــال

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول:

ومـــا عـلـىّ أن تـكـون جـــارية ... تـغـــسل رأسـى وتكـون الغـــاليـــه

وتـرفع الـســاقـط من خـــمـــاريه ... حـــتى إذا بـلـغت ثـمـــانيـــه

أزّرتـهـــا بنقـــبـــة يمانيـــه ... أنكـحـــتـهـــا مـــروان أو مـــعـــاوية

أصـــهـــار صـــدقٍ ومـــهـــورٍ غـــاليـــه

قال فسمعها مروان، فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ويخان عهدها، فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لانحرم الصلة، فبعث إليها بمائتى ألف درهم والله أعلم.

ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق قيل: نظر أعرابى إلى ولد له قبيح المنظر، فقال له: يا بنى إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو فى المكتب: فى أى سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد ووالدى بلا ولد، فقال: لعمرى من كنت أنت ولده، فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشترى له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق، ثم رجع فقال: يا أبت عشرون فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتى فيك يا بنى. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة، فبينما هو يوماً يمشى مع أبيه إذ برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله، فأى عبد تعنى، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذ برجل ينادى شاباً يا حمزة، فقال حمزة ابن الأعرابى كلنا حماميز الله، فأى حمزة

تعنى، فقال له أبوه ليس يعنيك يا من أحمد الله بـه ذكر أبيه. وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله فى حاجته، فأبطأعليه، ثم عاد ولم يقضها، فنظر إليه ثم قال:

عقله عقلُ طائرٍ ... وهو فى خلقه الجملْ

فأجابه:

مشبَّهٌ بك يا أبى ... ليس لى عنك منتقل

ونهى أعرابى ابنه عن شرب النبيذ، فلم ينته وقال:

أمن شربةٍ من ماء كرمٍ شربتها ... غضبت علىَّ الآن طابت لى الخمرُ

سأشرب فاسخط لارضيت كلاهما ... حبيبٌ إلى قلبى عقوقك والسكر

وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء فى صلة الرحم: قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منهاة للولد مثراة للمال». وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت، مكتوب عليه بالعبرانية، أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسماتى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته، أى قطعته. وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً صلة الرحم». وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور، عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه كعب الأحبار أنه قال: والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوباً، يا ابن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك، أزد فى عمرك، وأيسر لك فى يسيرك، وأصرف عنك عسيرك. وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب جلّ وعلا، وصلة الرحم تزيد فى العمر». وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث: من هذا الباب: فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضى الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الاعداء، وتنازع الأكفاء، لكان تعلمها من أحزم الرأى، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: ولولا رهطك لرجمناك، فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضى الله عنه: تعلموا العربية، فإنها تزيد فى المروءة، وتعلموا النسب، فربّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها.

وسئل عيسى عليه السلام: أى الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، وقال: أى هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم. كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله ، دين قريش قالوا: نزعة عرق أبى كبشة، حيث خالفهم فى عبادة الشعرى. وقال خالد بن عبد الله القشيرى: سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال: نسبى الإسلام الذى من ضيعه، فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حر. ومن كلام على كرّم الله وجهه: أكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذى به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم وعُد سقيمهم، وأشركهم فى أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال: إذا كان لك قريب، فلم تمش إليه برجلك ولم تعطه من مالك، فقد قطعته. ويقال: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده». قال بعضهم:

وإذا رزقت من النوافل ثروةً ... فامنح عشيرتك الأدانى فضلها

واعلم بأنك لم تسوّد فيهمُ ... حتى ترى دمث الخلائق سهلها

فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهى الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ: ربعة من القوم لا بائناً من طول ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العينين، مفلج الثنايا، دقيق المسربة، أزهر الجبين، واضح الخد، أقنى الأنف، كأن عنقه إبريق فضة، ظاهر الوضاءة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، شثن الكفين مسيح القدمين، واسع الصدر، من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شيبه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة، كأنه زر حجلة، أو بيض حمامة، لونه كلون جسده، أبلج الوجه، حسن الخلق وسيماً قسيماً فى جبينه زجج وفى عينيه دعج، وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدرن. قال أنس رضى الله عنه: ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه حسان بن ثابت رضى الله فقال:

وأحسن منك لم تر قطُّ عينى ... وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه واجعله شفيعاً لمن يصلى عليه. وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد خلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاهم منظراً. وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

حكى أنه كان جالساً بفناء داره يوما بالبصرة، إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفىء مصباحنا، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق والورد يتشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فكانت تقول: ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى، إلا الوليد، فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها فى عهد يوسف قطّعت ... قلوب رجالٍ لا أكفَّ نساءِ

وقال كثير:

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى ... فى الحسن عند موفقٍ لقضى لها

ومما جاء فى محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم:

ما قيل فى الشعر: كان يقال من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليتحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين.

قال بكر بن النطاح:

بيضاءُ تسحب من قيام شعرها ... وتغيب فيه وهو وجهٌ أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليلٌ عليها مظلم

وللمتنبى:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليلة فأرَتْ ليالى أربعا
واستقبلت قمرَ السماء بوجهها ... فأرتنى القمرين فى وقت معا

وله أيضا:

لبســن الوشى لا متـجـمـلات ولـكـنْ كى يصـنّ بـه الجـمـالا

وضـفـرن الغـدائر لا لحـسـنٍ ولكـنْ خـفـن فى الشـعـر الضـلال

وقال الصفدى:

لولا شـفـاعـة شـعـره فى صـبـه مـا كـان زار ولا أزال سـقـامـا

لكـن تنازل فى الشـفـاعـة عنده فـغـدا على أقـدامـه يـتـرامى

وقال ابن الصائغ:

ثنى غـصـناً ومـدّ عليـه فـرعـاً كـحـظى حين أطلب منه وصـلا

وبـلـيـلـه عـلـى الأرداف منـه فلم أر مـثـل ذاك الفـرع أصـلا

وقال آخر:

أرخى ثلاثـاً يـوم حـمـامـه ذوائبـاً تعـبق منهـا الغـوالى

فـثـقلت والـقـصـد ذوائباته واسـهـرى فى ذى الليـالى الطوال

وقال آخر:

بدت ثـريا قـرطهـا وشـعـرها مـتـصلٌ بكعـبـهـا كـمـا ترى

يا عـجـبـاً لشـعـرها لما ابتـدى من الـثـريا فـانـتـهى إلى الثـرى

وقال ابن المعتز:

تـوارت عـن الـواشـى بـلـيـل ذوائـب لهـا من مـحـيـا واضح تحتـه فـجـرُ

يغـطّى عليـهـا شـعـرها بظـلامـه وفى الـليلة الظلمـاء يفـتـقـد البـدرُ

وعما قيل فى الأصداغ:

قال ابن المعتز:

ريمٌ يتـيـه بـحـسـن صـورتـه عـبـث النعـاس بلحظ مـقلتـه

وكـأنّ عـقـرب صـدغـه وقـفـت لمّا دنـت من ورد وجـنـتـه

وقال العادلى:

وعـهـدى بالعـقـارب حين تشـتـو يخـفـف لدغـهـا ويقلّ ضـراً

فـمـا بـال الشـتـاء أتـى وهذى عـقـارب صـدغـهـا تزداد شـراً

وقال آخر:

ومـا ضـره نـارٌ بخـديه الهـبـت ولـكن بـهـا قـلبُ المحب يـعـذبُ

عناقـيـد صـدغـيـه بـخـديّه تلـتـوى وأمـواج ردفـيـه بـخـصـريه تلـعب

شـربت الهـوى صـرفـاً ولالاً وإنّمـا لـواحظـه تسـقى وقـلبى يشـربُ

وقال آخر:

حلّ القـبـا ولوى صـدغـيـه فـانعـقـدا واحـيـرتـى بين مـحلول ومـعـقـود

وأسـكرتنى ثـنـاياه وريـقـتـه هل هـذه الخـمـر من تلك العنـاقـيـد

(ومما قيل فى مدح العذار) قال أبو فراس بن حمدان:

يا من يلوم على هواه جهالةً ... انظرْ إلى تلك السوالف تعذرِ

حسنت وطاب نسيمها فكأنها ... مسكٌ تساقط فوق خدٍ أحمرِ

وقال محمد بن وهب:

صدودك والهوى هتكا استتارى ... وساعدنى البكاء على اشتهارى

وكم أبصرت من حسن ولكنْ ... عليك لشقوتى وقع اختيارى

ولم أخلع عذاراً فيك إلاّ ... لما عاينت من خلع العذار

وقال آخر:

ومعذّر رقت حواشى خده ... فقلوبنا وجداً عليه رقاقُ

لم يكس عارضه السواد وإنّما ... نفضت عليه سوادها الأحداق

وقال آخر:

ومهفهفٍ راقت نضارة وجهه ... والعين تنظر منه أحسن منظر

أصلى بنار الخد عنبر خاله ... فبدا العذار دخان ذاك العنبر

وقال آخر:

أصبحت سلطان القلوب ملاحةً ... وجمال وجهك للبرية عسكرُ

طلعت طلائع وجنتيك منيرةً ... بالنصر يقدمها اللواء الأخضرُ

وقال آخر:

يا ذا الذى خط العذار بخدّه ... خطين هاجا لوعةً وبلابلا

ما صح عندى أن لحظك صارمٌ ... حتى حملت بعارضيك حمائلا

وقال آخر:

من لا رأى كعبة الحسن التى حرست ... بالنمل حيث مقام النحل فى فمه

فلينظر النمل أضحى فوق عارضه ... يطوف سبعاً حول مبسمهِ

وقال بدر الدين الدمامينى:

تحدّث ليلُ عارضه بأنى ... سأسلوه وينصرم المزارُ

فأشرق صبحُ غرّته ينادى ... حديث الليل يمحوه النهار

وقال آخر:

وقالوا تسلّى فقد شانه ... عذارٌ أراحك من صدّه

فقلت وهمتم ولكننى ... خلعت العذار على خدّه

قال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

على وجنتيه جنةٌ ذاتُ بهجةٍ ... ترى لعيون الناس فيها تزاحما

حمى ورد خديه حماة عذاره ... فيا حسن ريحان العذار حماحمى

وقال ابن نباتة[1]:

ويهجتي رشأ يميس قوامه ... فكأنه نشوان من شفتيه
شغف العذار بخدّه ورآه قد ... نعست لواحظه فدبّ عليه

وقال الموصلي:

لحديث نبتِ العارضين حلاوةٌ ... وطلاوةٌ هامت بها العشاق
فإذا نهاني المرء قلت ترفقوا ... فإليكم هذا الحديث يساق

وقال آخر:

أصبحتُ مكسوراً بسهم لحاظه ... ومقيداً من صدغه بلسانه
حتى بدا سيف العذار مجرداً ... فخشيت يقتلني ونا من شانه

وقال آخر:

يا صاح قد حضر المدامُ ومُنيتي ... وحظيتُ بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني ... واجعل حديثك كله فى الكاس

وقال ابن نباتة:

رضعت سلاح الصبر عنه فما لهُ ... يغازلُ بالالحاظ من لايغازله
وسال عذارٌ فوق خديه سائلٌ ... على خدّه فليتق الله سائله

(ومما قيل فى ذم العذار) قال الشاعر:

غدا لما التحى ليلاً بهيماً ... وكان كأنه قمرٌ منيرُ
وقد كتب السواد بعارضيه ... لمن يقرا وجاءكم النذيرُ

وقال آخر فى ذمه:

قلت لأصحابي وقد مرّ بى ... منتقباً بعد الضيا بالظلم
بالله يا أهل ودّى قفوا ... ثم انظروا كيف زوال النعم

وقال آخر:

ما زال ينفث ريحاناً بعارضه ... حتى استطال عليه صار يحلقه
كأنما طور سينا فوق عارضه ... طول الزمان فموسى لايفارقه

وقال آخر:

ومازال يحلف لى بكل أليّة ... أن لايزال مدى الزمان مصاحبى
لما جنى نزل العذار بخدّه ... فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

قال ابن المعتز:

يارب إن لم يكن فى وصله طمعٌ ... ولم يكنْ فرجٌ من طول جفوته
فاشف السقام الذى فى لحظه مقلته ... واستر ملاحة خدّيه بلحيته

(1) ابن نباتة: هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباته التميمي السعدى (أبو نصر)، شاعر طاف البلاد، ومدح الملوك والوزراء، وله فى سيف الدولة بن حمدان القصائد والمدائح، توفى ببغداد فى شوال سنة (٤٠٥هـ) ومن مصنفاته (ديوان شعر كبير) ودفن فى مقبرة الخيزران من الجانب الشرقى.

ومما قيل فى الجبين والحواجب: قال خالد الكاتب:

لهـــا ظبـــاء الرمـل عينٌ مــــريضـــةٌ ... ومن ناضـــر الريحـــان خـضـــرة حـــاجبِ
ومن يـانع الأغـــصـــان قـــدٌ وقـــامـــة ... ومن حـــالـك الحـــبـــر اســـوداد الـذوائب

وقال آخر:

غـــزانى الهـــوى فى جـــيـــشـــه وجنوده ... وهـبَّ علـى الجـــيـش مـن كل جـــانـــب
بميـــســـــــرة أجنادهـا أعـين المهـــا ... ومـــيـــمنـةٍ تقـــضى بـزجّ الحـــواجب

وقال آخر:

أيا قـــمـــــراً تبـــسّم عـن أقـــاحِ ... ويـاغـــــــــصناً يميـل مـع الـريـاحِ
جـــبـــيـنـك المقـــبل والـثـنايا ... صـــبـــاحٌ فى صـــبـــاح فى صـــبـــاح

ومما قيل فى العيون: قال الأصمعى ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع فى قوله:

وكـــأنهـــا دون النـــســـاء أعـــارها ... عـــينيـــه أحـــور من جـــآذر جـــاسم
وسنـان أقـــصـــده النعـــاس تلاعـــبت ... فـى جـــفـــنـة سـنـةٌ ولـيـس بـنـائم

وقال ابن المعتز:

عليمٌ بمـا تحت العـــيـــون مـن الهـــوى ... ســـريعٌ بكـســـر الـلحظ والـقلب جـــازع
فـــيـــجـــرح أحـــشـــائى بـعينٍ مـريـضـةٍ ... كـــمـــا لان متن الســـيف والحـــدّ قـــاطع

وقال الأخطل[1]:

ولا تـــلـــمـــم بـــدار بـــنـــى كـــلـــيـــبٍ ... ولاتـقـــــرب لـهـــــا أبـداً رحـــــالا
ترى فـــيـــهـــا بـوارق مـــرهفـــاتٍ ... يَكَدْن يَكِدْن بـالحـــــرق الـرجـــــالا

وقال أبو فراس وأحسن:

وبيضٍ بألحـــاظ العـــيـــون كـــأنما ... هززن ســـيـــوفـــاً واســـتللن خناجـــرا
تصـــدين لـى يومـــاً بمنعـــرج الـلوى ... فـــغـــادرن قلبـى بالتـــصـــبـــر غـــادرا
ســـفـــرن بـدوراً وانتـــقـــبن أهلـة ... ومـــــن غـــصـــونـاً والتـــفـتن جـــآذرا

وقال آخر:

ومـــريض جـــفـن ليس يـصـــرف طرفـــه ... نحـــو امـــرئ إلا رمـــاه بحـــتـــفـــه
قـــد قـلت إذ أبصـــرته مـــتـــمـــايلاً ... والردف يـجـــذب خـــصـــره من خلـفـــه
يا مـن يـسـلم خـــصـــره مـن ردفـــه ... سلـم فـــؤاد مـــحـــبّـــه من طرفـــه

وقال أبو هتان:

أخـــو دنـف رمـــتـــه فـــاقـــصـــدته ... ســـهـــامٌ من جـــفـــونـك لاتطـيشُ
فـــواتك لأيقـــال ســـوى احـــورار ... بـهـن ولا ســـــــــوى الأهـداب ريـشُ
أصبن فـــؤاد مـــهـــجـــتـــه فـــأضـــحى ... ســـقـــيـــمـــاً لا يموت ولايـعـــيـش
كـــئـــيـــبـــاً إن ترحل عـنـه جـــيـش ... مـن الـبـلـوى أنـاخ بـه جـــيـــــوش

(١) الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن سيحان، أبو مالك التغلبى النصرانى المعروف بالأخطل الشاعر، سمى بالأخطل لخطل لسانه، وقيل لطول أذنيه ويعرف بذى الصليب، أكثر من مدح أمراء بنى أمية ودعا إليهم وهجا خصومهم ولد سنة (١٩هـ - ٦٤٠م) ومات سنة (٩٠هـ - ٧٠٨م).

وقال آخر:

وجاؤا إليه بالتعاويذ والرّقى ... فصبّوا عليه الماء من شدّة النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرةٌ ... ولو أنصفوا قالوا به أعين الإنس

وقال عز الدين الموصلى:

لها عينٌ لها غزوٌ وغزلٌ ... مكحّلةٌ ولى عينٌ تباكتْ
وحاكت فى فعائلها المواضى ... فيا لك مقلةٌ غزلت وحاكت

وقال برهان الدين القيراطى:

شبّه السيف والسنان بعينى ... من لقتلى بين الأنام استحلا
فأتى السيف والسنان وقالا ... حدّنا دون ذاك حاشى وكلاّ

وله أيضا:

بأبى أهيف المعاطف لدنٌ ... حسد الأسمر المثقفُ قدّه
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً ... كلمتنى سيوفهن بحدّه

وقال بدر الدين بن حبيب:

عيناه وقد شهدت بأنى مخطىء ... وأتت بخط عذاره تذكارا
يا حاكم الحبّ اتئد فى قتلتى ... فالخطّ زورٌ والشهود سكارى

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدت جفون معذبى بملالة ... منى وأن وداده تكليفٌ
لكننى لم أنا عنه لأنه ... خبرٌ رواه الجفن وهو ضعيف

وقال الشيخ عز الدين الموصلى:

يا مقلة الحبّ مهلاً ... فقد أخذت بثارك
وأنت يا وجنتيه ... لا تحرقينى بنارك

وقال ابن الصائغ:

لمثلى من لواحظها سهامٌ ... لها فى القلب فتكٌ أىّ فتك
إذا رامت تشكّ به فؤاداً ... يموت المستهام بغير شكّ

وقال الصلاح الصفدى:

يا عاذلى على عينٍ محجبة ... خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى
وخذ فؤادى ودعه نصبُ مقلتها ... لاترم نفسك بين السهم والهدف

وقال آخر:

بسهم أجفانه رمانى ... فذبتُ من هجره وبينه
إن متّ ما لى سواه خصمٌ ... لأنه قاتلى بعينه

وقال آخر:

سهام الجفن كم قتلت لنفس ... مبرأةٌ من السلوى زكيةٌ
فما أقوى جفونك وهى مرضى ... وأقدرها على قتل البرية

وعما قيل فى الخال: للصلاح الصفدى:

بروحى خدّه المحمر اضحى عليه شامةٌ شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديماً فنقّطه بدينار وجبّه

ولابن الصائغ:

بروحى أفدى خاله فوق خدّه ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمالِ
تبارك من أخلى من الشعر خدّه وأسكن كل الحسن فى ذلك الخالِ

للشيخ جمال الدين بن نباتة:

لله خالٌ على خدِ الحبيب له فى العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثه حبّة القلب القتيل به وكان عهدى بأنَّ الخالَ لايرثُ

وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله ألبستنى فى الحزن ثوب سماته
أحرقت قلبى فارتمى بشرارةٍ علقت بخدك فانطفت فى مائه

للشيخ تقى الدين بن حجة:

قلت لِلخال إذ بدا فى نقا جيده السعيد
فزت يا عبد قال لى أنا عبدٌ لكل جيد

وقال ابن أيبك:

فى الجانب الأيمن من خدودها نقطة مسك أشتهى شمّها
حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنها عمّها

وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائد الطير كم ذا باللحظ تضنى وتسبى
نصبت نقطة خالٍ فصدت طائر قلبى

وعما قيل فى الخدود: قال ابن المعتز:

صل بخدى خديك تلقَ عجيباً من معان يحار فيها الضميرُ
فبخديك للربيع رياضٌ وبخدىَّ للدموع غدير

وقال آخر:

ورد الخدود ونرجس اللحظات وتصافح الشفتين فى الخلوات
شىءٌ أسرُ به وأعلم أنه وحياته أحلى من اللذات

وعما قيل فى الثغور: قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحى من ولى فولى بمهجتى وولّى منامى وهو كالوصل شاردُ
حمى ثغره منى بسيف لحاظه وحتّام يحمى ثغره وهو بارد

وقال آخر:

أنفقت كنز مدامعي في ثغره … وجمعت فيه كل معنى شاردِ
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة … فمضى وراح تغزلي في البارد

وقال آخر:

رأى ثغر من أهوى عذولي فقال لي … ولم يدر أن اللوم في خده يغري
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه … وأحسن ما كان الرباط على ثغر

وقال ابن ريان:

لاحت على مبسمه المشتهى … ثلاث شامات غدت في التشام
لاتعجبوا إن كثرت حوله … فالمنهل العذب كثير الزحام

ومما قيل في طيب الريق والنكهة: قال ذو الرمة:

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلةٌ … عروبٌ كإيماض الغمام ابتسامها
كأن على فيها وما ذقت طعمه … زجاجة خمر طاب فيها مدامها

وقال شهاب الدين الكردي:

ذكرت ريح حبيبي … بشرب راح تعطر
وليس ذا بعجيبٍ … فالشيء بالشيء يذكر

وقال غيره:

رشفت ريقاً حلواً … ولم يكن لي صبرٌ
وسوف أحظى بوصلٍ … فأوّل الغيث قطرٌ

وقال الصلاح الصفدي:

نقل الأراك بأنّ ريقة ثغره … من قهوة مزجت بماء الكوثر
قد صح ما نقل الأراك لأنهُ … يرويه نصًّا عن صحاح الجوهري

وقال آخر:

ثلاث تجمعن في ثغرها … ملاحٌ أدلتها واضحة
فإن قيل ماهي قلّ لي أقلّ … هي الطعمُ واللونُ والرائحة

وقال آخر:

يارُبَّ ممتنع الوصال محجبٍ … بسطوره كالبدر بين غيومه
دارت مراشفه عليّ وكأسه … فسكرت في الحالين من خرطومه

وقال آخر:

أريقاً من رضابك أم رحيقاً … رشفت فكدت منه لن أفيقا
وللصهباء أسماءٌ ولكنْ … جهلت بأنّ في الأسماء ريقاً

ومما قيل في حسن الحديث: قال البحتري:

ولما التقينا والنقا موعدٌ لنا … تعجب رائي الدّر حسناً ولاقطه
لمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها … ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال سلم الخاسر:

ظللنا فـبـيتنا عند أمّ محمد ... بيوم ولم نشرب شراباً ولا خمراً
إذا صمتتْ عنّا ضجرنا لصمتها ... وإن نطقت هاجت لألبابنا سكرا

وقال ابن الرومى:

يمسى ويصبح معرضاً فكأنّه ... ملكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانه
ليست إساءته بناقصة له ... درّ يساقطه إلىّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات: وهى من طارف الشعر ووافره وناقده، وجيد الكلام، وبارع الوصف:

وكلّ حديث الناس إلا حديثها ... رجيعٌ وفيما حدثتك الطرائف
جرحن بأعناق الظباء وأعين الـ ... ـجآذر وارتجت بهن الروادف
رجحن بأرداف ثقال وأسوق ... جزالٍ وأعضاءٍ عليها المطارف

ومما قيل فى رقة البشرة: قال ابن المعتز:

نضت عنها القميص لصبّ ماءٍ ... فَوَرّد خدّها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت ... بمعتدل أرقّ من الهواء
ومدت راحة كالماء منها ... إلى ماء عتيدٍ فى إناء
فلما قضت وطراً وهمّت ... على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على تدانٍ ... فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليلٍ ... وظلّ الماء يقطر فوق ماء

وقال آخر:

تغيّر عن مودته وحالا ... وكان مواصلاً فطوى الوصالا
وعلّمه التدلل كيف هجرى ... فليت الوصل كان له دلالا
ترى من فوق حقويه قضيباً ... إذا ما حركته خُطاه مالا
إذا كلمته أثّرت فيه ... وإن حركته فالخمر سالا

وقال بشار:

وما ظفرت عينى غداة لقيتها ... بشىء سوى أطرافها والمحاجر
كحوراء من حور الجنان غريرةٍ ... يرى وجهه فى وجهها كلّ ناظر

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرت إلى وجهه نظرةً ... فأبصرت وجهى فى وجهه

وقال آخر:

توهمه قلبى فأصبح خدّه ... وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومر بفكرى جسمه فجرحته ... ولم أر جسماً قط تجرحه الفِكر

وقال آخر:

سقى الله روضاً قد تبدى لناظرٍ به شادنٌ كالغصن يلهو ويمرح
وقد نضحت خداه من ماء ورد وكل إناءٍ بالذى فيه ينضح

وقال آخر:

وأهيف خدّه كُسِىَ احمراراً وحار الحسن فهو بلا شبيه
فلو أخجلته بالقول جهدى لحمرة خدّه ما بان فيه

وبما قيل فى التقبيل: لمظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجنته وفاح من عارضيه العنبر العبق
وجال بينهما ماءٌ ولا عجبٌ لاينطفى ذا ولا ذا منه يحترق

وقال آخر:

سألته فى ثغره قبلةْ فقال ثغرى لم يجزْ لثمه
فهاكها فى الخد واقنع بها ما قارب الشىء له حكمه

وقال صاحب حماة:

قال الذى تيمنى قولوا لمن خبّلته
يروم منى قبلةً لو مات ما قبلته

وللشيخ عز الدين الموصلى:

كالزرد المنظوم أصداغه وخدّه كالورد لما ورد
بالغت فى اللثم وقبلته فى الخد تقبيلاً يفك الزرد

وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه فلم أدر أيهما أنورُ
سوى أن ذاك بعيد المزار وهذا قريبٌ لمن ينظرُ
وذاك يغيب وذا حاضرٌ وما من يغيب كمن يحضر
ونفع الهلال قليلٌ لنا ونفع الحبيب لنا أكثر

وقال ابن صابر:

قبّلتُ وجنته فألفتَ جيدهُ خجلاً وماس بعطفه المياسِ
فانهلّ من خديه فوق عذاره عرقٌ يحاكى الطلّ فوق الآس
فكأننى استقطرت ورد خدوده بتصاعد الزفرات من أنفاسى

وقال آخر:

قبّلت رجلَ حبيبى فازورّ واحمرّ خداً
وقال تلثم رجلى لقد تنازلت جداً
فقلت ما جئت بدعاً ولا تجاوزت حداً
رجلٌ سعت بك نحوى حقوقها لا تؤدى

ومما قيل في الوجه الحسن: قال بن نباتة:

إنسيةٌ في مثال الجن تحسبها ... شمساً بدت بين تشريق وتغميم

شقت لها الشمس ثوباً من محاسنها ... فالوجه للشمس والعينان للريم

وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تصدّ من غير علة ... بالعزّ أضحت مدلة

كأنها حين تدنو ... شمسٌ عليها مظلّه

وإن أضاءت بليلٍ ... تفوق نور الأهلّه

وقال آخر:

أقسم بالله وآياته ... ما نظرت عيني إلى مثله

ولا بدا وجهه طالعاً ... إلا سألت الله من فضله

وقال آخر:

أقيمي مكان البدر إن أفل البدر ... وقومي مقام الشمس قد أمّها الفجر

ففيك من الشمس المنيرة نورها ... وليس لها منك التبسم والثغر

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذاتُ حسنٍ إن تغبْ شمس الضحى ... فلنا من وجهها عنها خلف

أجمع الناس على تفضيلها ... وهواهم في سوى هذا اختلف

(أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح):

لو أن إجماعنا في فضل سؤدده ... في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

وقال آخر:

يا مفرداً في الحسن والشكل ... من دل عينيك على قتلي

البدر من شمس الضحى نوره ... والشمس من نورك تستملي

وقال آخر:

ففي أربع منّي حلت منك أربع ... فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

أوجهك في عيني أم الريق في فمي ... أم النطق في سمعي أم الحبّ في قلبي

فلما سمعه إسحق بن يعقوب الكندي قال هذا تقسيم فلسفي وجعله العلوي خمسة فقال:

وفي خمسة منّي حلت منك خمسةٌ ... فريقك منها في فمي طيّب الرشف

ووجهك في عيني ولمسك في يدي ... ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي

وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغبيّ تأمل ... من غدا في صفاته القلب ذائبْ

وتعجّب لطرةٍ وجبينٍ ... إنّ في الليل والنهار عجائبْ

وقال محمود المخزومي:

رأيتك في الشمس المنيرة غدوةً ... فكنت على عينيّ أبهى من الشمس
لأنك تزهو إن بدا الليل بهجةً ... وشمس الضحى ليست تضيء إذا تمسي

وقال آخر:

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها ... وتكفيك فقد البدر إن غرب البدر
وحسبك من خمرٍ مذاقة ريقها ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمر

ومما قيل في البنان المخضّب قال ابن الرومي:

وقفتْ وقفةً بباب الطاق ... ظبيةٌ من مخدرات العراق
بنت سبعٍ وأربعٍ وثلاثٍ ... أسرت قلب صبّها المشتاق
قلت من أنت ياغزال فقالت ... أنا من لطف صنعة الخلّاق
لا ترم وصلنا فهذا بنانُ ... قد صبغناه من دم العشّاق

وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها ... في خدها وقد اعتلقت خطابها
فظننت أن بنانها من فضةٍ ... قطفت بنور بنفسجٍ عنّابها

وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت ... عبراتنا عنّا بدمع ناطق
فرقن بين محاجر ومعاجر ... وجمعن بين بنفسج وشقائق

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيت بنانها ... مخضبةً تحكي عصارة عندم
فقلت خضبت الكفّ بعدي أهكذا ... يكون جزاء المستهام المتيّم
فقالت وأذكت في الحشى لاعج الجوى ... مقالة من بالودّ لم يتبرم
بكيت دماً يوم النوى فمسحته ... بكفي فاحمرّت بناني من دمي

وقال آخر:

دنوت عشية التوديع منّي ... ولي عينان بالدّم تجريان
فلم يحسن إكراماً جفوني ... ولكن رمن تخضيب البنانِ

ومما قيل في النحور: قال دعبل:

أتاح لك الهوى بيضاً حساناً ... تباهي بالعيون وبالنحور
نظرت إلى النحور فكدت تقضي ... فكيف إذا نظرت إلى الخصور

ومما قيل **في نعت النهود:** قال العباس بن الأحنف:

والله لو أن القلوب كقلبها ... ما رقّ للولد الضعيف الوالد
جال الوشاح على قضيبٍ زانه ... تفاح صدرٍ ما حوته ناهد

وقال آخر:

ومحبوبةٍ عند الوداع رأيتها ... تنشف دمعاً بالرداء الممسّك
وتبكي حذار البين منها بدمعةٍ ... تسيل على الخدين فى حسن مسلك
فتحسّت مجرى الدمع من وجناتها ... بقية طل فوق وردٍ ممعّك
وقد سفرت عن غرّة بابليةٍ ... وصدرٍ به نهدٌ بحقٍ مفكك

وقال عمر بن كلثوم:

تراك إذا دخلت على خلاءٍ ... قد امتدت عيون الكاشحينا
لنهدٍ مثل حق العاج حصناً ... حصيناً من أكف اللامسينا

وقال آخر:

بصدرها كوكباً در كأنهما ... ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتهما بستورٍ من علائلها ... فالناس فى الحل والركنان فى الحرم

وقال آخر:

صدور فوقهن حقاق عاجٍ ... ودرٌّ زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوه ... أهذا الحلى من هذى الحقاق
وما تلك الحقاق سوى ثدى ... جعلن من الحقاق على وفاق
نواهد لايعدّ لهن عيبٌ ... سوى منع المحب من العناق

وقال آخر:

لقد فتكت عيون الغيد فينا ... بيضٍ مرهفات وهى سودُ
وتطعننا القدود إذا التقينا ... بسمرٍ من أسنتها النهود

ومما قيل فى الأرداف والخصور: قال ابن الرومى:

وشربت كأس مدامة من كفها ... مقرونة بمدامة من ثغرها
وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجباً ولكنّى بكيت لخصرها

وقال الطنبغا المحاربى:

ردفه زاد فى الثقالة حتى ... أقعد الخصر والقوام السويّا
نهض الخصر والقوام وقالا ... فضعيفان يغلبان قويّا

وقال آخر:

ياخصرهُ كم جفاءٍ ... تُبدى وأنت نحيل
يا ردفه ملت عنّى ... ما أنت إلاّ بخيل

القيراطى:

بدت روادف بدرى ... تحت الحنين لعينى
فقلت يا بدر هذا ... حقّا خيالُ لحيتى

وقال آخر:

أسائلها أين الوشاح وقد سرت ... معطلة منه معطرة النشر
فقالت وأومت للسوار نحلته ... إلى معصمي لما تلقلق في خصري

وقال آخر:

بيض وسمر مقلتاه وقده ... بدر وليل وجنتاه وشعره
أقسى من الحجر الأصم فؤاده ... وارق من شكوى المتيم خصره

وقال آخر:

رخيمات المقال مدللاتُ ... جواعل في الثرى قضباً جدالا
جمعن فخامة وخلوص جيد ... رقداً بعد ذلك واعتدالا

ومما قيل في المعاصم: قال عمر بن أبي ربيعة:

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم ... ورنوا بنجل للقلوب كوالم
حسروا الأكمّة عن سواعد فضة ... فكأنما انتصبت متون صوارم

ومما قيل في اعتدال القوام: قال صلاح الدين الصفدي:

تقول له الأغصان مذ هزّ عطفه ... أتزعم أنَّ اللين عندك ما ثوى
فقم نحتكم للروض عند نسيمه ... لتقضي على من مال منا إلى الهوى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن المرأة من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذي الرمّة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الوبر، وقال القاضي مجد الدين بن مكانس:

أقول لحسِّي قم ومل يا معذبي ... كميلة خود غيّر السكرُ حالها
ولا تلهُ عن شيء إذا ما حكيتها ... فقام كغصن البان ليناً وما لها

وقال آخر:

ومُحكِم أعطافه ... في قتل صب ما غوى
فاعجب لعادل قده ... في النفس يحكم بالهوى

وقال آخر:

ومهفهف عني يميل ولم يملْ ... يوماً إليَّ فصحت من ألم الجوى
لمَ لا تميل إليَّ ياغصن النقا ... فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

ومما قيل في الساق: قال ذو الرمّة:

لم أنسه إذا قام يكشف عامداً ... عني ساقه كاللؤلؤ البرّاق
لاتعجبوا إنْ قام فيه قيامتي ... إنَّ القيامة يوم كشف السّاق

وقال آخر:

جاءت بساق أبيض أملس ... كلؤلؤ يبدو لعشّاقها
فافتتنت فيها جميع الورى ... وقامت الحرب على ساقها

وقال ابن منقذ:

بدرٌ ولكنّه قريبٌ ... ظبيٌ ولكنّه أنيس
إن لم يكن قدّه قضيباً ... فما لأعطافه تميسُ

وبما قيل في مشى النساء: قال بعضهم:

يهززن للمشى أطرافاً مخضّبةً — هزّ الشمال ضحى عيدان نسرين
أو كاهتزاز رديني تداوله — أيدى الرجال فزاد المتن في اللين

وقال آخر:

يمشين مشى قطا البطاح تأوداً — قبّ البطون رواجح الأكفالِ
فكأنهن إذا أردن زيارةً — يقلعن أرجلهنّ من أوحالِ

ومما قيل في العناق وطيبه: لابن المعتز:

ما أقصر الليل على الراقد — وأهون السقم على العائد
كأنّنى عانقت ريحانةً — تنفّست فى ليلها البارد
فلو ترانا فى قميص الدّجى — حسبتنا فى جسدٍ واحد

وقال آخر:

وموشحٍ نازعت فضل وشاحه — وأعرته من ساعدىّ وشاحا
بات الغيور يشقّ جلدة وجهه — وأمال أعطافاً علىّ ملاحا

وقال ابن المعدل:

أقول وجنْحُ الدّجى مسبلُ — وللّيل فى كلّ فجٍ يدُ
ونحن ضجيعان فى مسجدٍ — فلله ما ضمّنا المسجدُ
أيا غدُ إن كنت لى محسناً — فلا تدنُ من ليلتى يا غدُ
ويا ليلة الوصل لاتقصرى — كما ليلة الهجر لاتنفد

وقال آخر:

ليلٌ رقيق الطرتين تظلّمت — كواكبه من بدره المتألق
لهونا بغزلان الصريمة تحته — نميت الهوى ما بين صدرٍ ومرفق

قال ابن المعتز:

وكم عناقٍ لنا وكم قبلٍ — مختلسات حذار مرتقبِ
نقر العصافير وهى خائفةٌ — من النواطير يانع الرطبِ

وقال ديك الجن:

ومعدولة مهما أمالت إزارها — فغصنٌ وأما قدّها فقضيبُ
لها القمرُ السارى شقيقٌ وإنها — لتطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخٍ سدوله — وغصن الهوى غض النّبات رطيب
لأنت المنى يا زين كل مليحةٍ — وأنت الهوى أدعى له فأجيبُ

وقال على بن الجهم[1]:

سقى الله ليلاً ضمّنا بعد فرقة — وأدنى فؤاداً من فؤاد معذّبِ
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة — من الخمر فيما بيننا لم تسرّبِ

---

(١) على بن الجهم: هو على بن الجهم بن بدر أبو الحسن السامى الخراسانى الأصل، البغدادى الشاعر المشهور صاحب الديوان المشهور، كان ناصبيا منحرفاً عن على رضى الله عنه، وكان يسب أباه لأنه سماه علياً بغضاً منه لعلى رضى الله عنه، ولا رضى عن باغضه، وقع بينه وبين المتوكل عداوة لكونه هجاه، فنفاه وكتب إلى ابن طاهر الأمير فصلبه يوماً كاملا ثم أطلقه مات سنة (٢٤٩هـ).

وقال آخر:

يا ليل دُمْ لا أريد براحاً | حسبى بوجه معذبى مصباحا
حسبى به نوراً وحسبى ريقه | خمراً وحسبى خدّه تفاحا
حسبى بمضحكه إذا استضحكته | مستغنياً عن كل نجم لاحا
طوّقته طوق العناق بساعد | وجعلت كفّى للشام وشاحا
هذا هو اليوم النعيم فخلنا | متعانقين فلا نريد براحا

وقال آخر:

ولم أنس ضمّى للحبيب على رضاً | ورشفى رضاباً كالرحيق المسلسل
ولا قوله لى عند تقبيل خدّه | تنقّلْ فلذات الهوى فى التنقُّل

ومما قيل فى السمن: قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد ابن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمنٍ | لكننى أعشق السُّمر المهازيلا
إن امرؤٌ أركب المهر المضمّر فى | يوم الرهاب وغيرى يركب الفيلا

ومما قيل فى مدح الألوان والشباب: مدح البياض: قال رسول الله ﷺ: «البياض نصف الحسن»، وكان ﷺ أبيض أزهر اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر:

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم | شمّ الأنوف من الطراز الأول

ومما قيل فى مدح السواد: قيل لبعضهم: ما تقول فى السواد؟ قال: النور فى السواد أراد بذلك نور العينين فى سوادهما، وقال بعضهم:

قالوا تعشّقتها سوداء قلت لهم | لون الغوالى ولون المسك والعودِ
إنى امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً | عندى ولو خلت الدنيا من السودِ

وقال الحيقطان:

لئن كنت جعد الرأس واللون فاحمٌ | فإنّى بسيط الكفِ والعرض أزهرُ
وإن سواد اللون ليس بضائرى | إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم: نعم، فتمثل المأمون ببيت نصيب، فقال:

إن كنت عبداً فنفسى حرّةٌ كرماً | أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

ثم قال ياعم: أخرجنا الهزل إلى الجد: فأنشد إبراهيم:

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم | ولا بالفتى الأريب الأديب
إن يكن للسواد فيك نصيبٌ | فبياض الأخلاق منك نصيبى

وقال آخر:

لام العواذل فى سوداءَ فاحمة | كأنها فى سواد القلب تمثال
وهام فى الخال أقوامٌ وما علموا | أنى أهيم بشخصٍ كله خال

وقيل لمدنى: كيف رغبتم فى السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسودناها.

وقال آخر:

يكون الخال فى خد قبيح ... فيكسوه الملاحة والجمالا

فكيف يلام ذو عشقٍ على من ... يراها كلها فى الخد خالا

وقال آخر:

فاستحسنوا الخال فى خد فقلت لهم ... إنّى عشقت مليحاً كله خال

وقال أبو حاتم المدنى ينشد:

ومن يك معجباً ببنات كسرى ... فإنّى معجباً ببنات حامِ

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم، فقالت الحبشية: أنا حبة مسك، وأنت عدل ملح، وقد قال الشاعر:

أحب لحبِّها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلابِ

وقال آخر:

أشبهك المسك وأشبهته ... قائمة فى لونه قاعده

لاشكّ إذ لونكما واحدٌ ... أنكما من طينةٍ واحده

ومما قيل فى الصفرة: قال الشاعر:

أصفراء كان الهجر منك مزاحاً ... ليالى كان الود منك مباحا

كأنّ نساء الحى ما دامت فيهمُ ... قباحاً فلمّا غبت صرن ملاحا

وقال آخر:

قالوا به صفرةٌ شانت محاسنه ... فقلت ما ذاك من عيبٍ به نزلا

عيناه مطلوبةٌ فى ثار من قتلتْ ... فلست تلقاه إلاَّ خائفاً وجلا

ومما قيل فى طول اللحية: قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب، فقال له: يا هذا إنك من لحيتك فى مؤنة، فقال أجل، ولذلك أقول:

لها درهمٌ للدهن فى كل جمعةٍ ... وآخر للحنّاء ينتدبان

ولولا نوالٌ من يزيد بن مزيدٍ ... لأصبح فى حافاتها الحمنان

وقال إسحاق بن خلف فى قصير طويل اللحية:

ماشيت داود فاستضحكت من عجب ... كأنّه والد يمشى بمولود

ما طول داود إلا طول لحيته ... يظن داود فيها غير موجود

وقال ابن المقفع:

تأملت أسواق العراق فلم أجدْ ... دكاكينهم إلاَّ عليها المواليا

جلوساً عليها يغضون لحاهم ... كما نفضت عجف البغال المخاليا

ومما قيل فى عظم الخلقة والطول والقصر: قيل: خرب القهندز فبرزت منه جماجم أموات، فتصدعت جمجمة فانتشرت أسنانها، فوزن السن منها، فكان وزنها أربعة أرطال، فأتى بها إلى ابن المبارك، فجعل يقلبها ويتعجب من

عظمها، ثم قال:

إذامــــا تـذكـــــرت أجــــــــامـــــــهم تصـــــاغـــــرت الـنفس حــــتى تهـــــون

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاية رجلين أحدهما طويل والثانى قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن عبادة، فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل، فبلغت ثدييه، فلاموا قيسًا على نزع السراويل فقال:

أردت لكيـــــمــــا يـعلـم النـاس أنهــــا ســــراويـل قـيـسٍ والـوفــود شـــهــود

وكى لايقـــولـوا خـــان قـــيـسٌ وهذه ســـراويل عـــاد أحـــرزتهـــا ثمـــود

وإنّى مـن القـــوم اليــمـــانين ســيّــدٌ ومـــا الناس إلا ســـيـــدٌ ومـــســـود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية، فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده، فغلبه فى الحالتين وانصرفا مغلوبين.

وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسى أمر امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسى قصيراً مقتحماً، واللخمى طويلاً جسيماً. فقالت بنت امرؤ القيس: يا هذا القصير اطلق أبى، فسمعه سلمة بن مرة، فقال:

لقـــد زعـــمت بنت امـــرئ القـــيس أننى قــصـيـــرٌ وقــد أعـيــا أباها قـــصـــيـرها

وربّ طويـلٍ قـــــد نزعـت ســــلاحــــه وعــــانقــتــــه والخـيـل تدمى نحـــورها

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله وعرضها على قلة العقل وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق، والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل فى القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وحش الصورة بشع المنظر، فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته، فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومر أبى الأسود الدولى بمجلس لبنى بشير فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى الصائغ، فقالت له اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدرى كيف أصوره، فأتت بك إلىّ لأصوره على صورتك، وفى الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُمــــسخ الخنـزير مـــســـخــاً ثـانيــاً مـــا كـــــان إلاّ دون قـــبح الجــــاحظ

رجلٌ ينوب عن الجــــحــيـم بوجــــهـــه وهــو العـــمى فـى عين كـلّ مـــلاحـظ

ولـو أنّ مــــــرآةً جلـت تمـثــــالـه ورآه كــــــان لـه كـــــأعـظـم واعـظ

وقال الأصمعى: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح، فقلت: يا هذه أترضين أن تكونى تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه، فجعلنى ثوابه، وأسأت فيما بينى وبين ربى، فجعله عذابى. أفلا أرضى بما رضى الله به. وحج مخنث، فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبى ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لى دمل فى أقبح المواضع، فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر، فدخل اليمن، فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لـم أر وجـــــهـــــاً حـــــسـنـاً مـــنـذ دخـلـت الـيـــــمـنـا
فـــيـــا شــــقــــاء بلـدة أحـــســن من فـــيـــهـــا أنـا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة، فقال لها: قد عرفت أنى رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت لاشك فى احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة.

وقال الشاعر فى رجل كبير الأنف:

لك وجـــهٌ وفـــيـــه قطعـــة أنف كـــجـــدار قـــد أدعـــمـــوه ببـــغـله
وهو كـــالقـــبـــر فـى المثـــال ولـكن جـــعلوا نـصـبـه عـلى غـيـر قـبـله

وقال آخر:

لـــك أنـــف مـــن أنـــوف أنـــفـــت مـــنـــه الأنـــوف
أنـت فـى الـقـــــدس تـصـلـى وهـو فـى الـبـــيـت يـطـوف

وما قيل فى الثقلاء: قال مطيع بن إياس:

قـلت لـعـــبـــاس أخـــينا يـا ثـقـــيـل الـثـــقـــلاء
أنـت فى الـصـــيـف ســـمـــومٌ وجـلـيـــدٌ فى الـشـــتـــاء
أنـــت فـى الأرض ثـقـــيـــلٌ وثـقـــيـلٌ فى الـســـمـــاء

وما قيل فى الملابس وألوانها والعمائم ونحوها: قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى: ١١]. وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وقال ﷺ: «تعمموا تزدادوا جمالا». وقال ﷺ: «العمائم تيجان العرب». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة، وعليهم عمائم صفر قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فتخلف عن الجيش، وأتى إلى رسول الله ﷺ عليه عمامة سوداء من خز، فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر، وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبى ﷺ جبة ديباج. فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد، فقيل له فى ذلك، فقال: إنى أجالس ربى. وقيل: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة. وقيل: البس البياض والسواد، فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل.

وما قيل فى لبس السواد قول أبى قيس:

رأيـتـك فـى الـســـواد قـلـت بـدراً بـدا فى ظـلـمـــة الـلـيل الـبـــهـــيـم
والقـــيـت الـــســـواد فـــقـلت شـــمـس مـحـت بشـعـــاعـهـــا ضـوء الـنـجـوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُرَ العراق، فباع الجميع إلا السود، فشكا إلى الدارمى ذلك، وكان الدارمى قد نسك وتعبد، فعمل بيتين، وأمر من يغنى بهما فى المدينة، وهما هذان البيتان:

قل لـلمليـــحـــة فى الخـــمـــار الأســـود مـــاذا فـــعـلت بزاهد مـــتـــعـــبِّـــد
قـــد كـــان شـــمَّـــر لـلصـــلاة إزاره حـــتى قـــعـــدت له ببـــاب المسـجـد

قال: فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم يبق فى المدينة مليحة إلا

اشترت لها خماراً أسود، فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها، وقال آخر في لابسة الأحمر:

وجــــارية أذبتـــــهـــــا الـشطاره ترى الشـمس مـن حـسـنهـا مسـتـعـاره
بدت فـي قـمـيص لهـا أخـضـر كـمـا سـتـر الورق الجـلناره
فـقلت لـهـا مـا اسم هـذا اللبـاس فـأبـدت جـوابـاً لطيف الـعـبـاره
شـقـقـنا مـرائـر قـومٍ بـه فـنحـن نسـمـيـه شقّ المراره

وقال آخر في لابسة ثوب خمري:

وشـمس مـن قـضـيبٍ في كـثـيبٍ تـبـدّت في لبـاس جلـناري
سـقـتني ريقـهـا صـرفـاً وحـيّت بوجـنتـهـا فـهـاجت جـلّ ناري

وقال الصنوبري في لابسة أخضر:

في ثـوبهـا الخـمـري قـد أقـبـلت بوجـنة حـمـراءَ كـالجـمـر
فـمـلت سـكراً حـين أبصـرتـهـا لاتـنكـروا سـكرى من الخـمـر

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس مـا يديم الملك نظره إليك به، واعلـم أن الوشي لايلبسه إلا الأحمق أو ملك. وعليك بالبياض. وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل عليّ عاقلاً، فأتاه برجل: فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيته يلبس الكتان في الصيف والقطن في الشتاء، والملبوس في الحر، والجديد في البرد. وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولاتحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة وسرواييل مجوهرة، وتكة من أنابيب الزمرد، وقيل: الأقبية لباس الفرس، والقراطق لبس الهند، والأزر لباس العرب. وسئل بعض العرب عن الثياب، فقال: الصفر أشكل، والحمر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل، وقال أفلاطون: الصبغ الشقائقي، والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتي والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها، وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه، وقال بعض الأعراب: رأيت في البصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع، ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة، فازدراه، فقال يا أمير المؤمنين: إن العباءة لاتكلمك وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه: قال الأصمعي: رأيت أعرابياً فاستنشدته، فأنشدني أبياتاً، وروى أخباراً، فتعجبت من جماله وسوء حاله، فسكت سكتة ثم قال:

أأخيّ إن الحـادثـا ت عـركـتني عـرك الأديم
لاتـنـكـرنْ أن قـد رأيـت أخـاك في طـمـري عـديم
إن كـان أثـوابي رثـاثـاً فـإنّـهـنّ عـلـى كـريم

قال بعضهم: وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:

عليّ ثـيـابٌ لو تـقـاس جـمـيـعـهـا بـفلـسٍ لكـان الفـلس منهـنّ أكـثـرا
وفـيـهـنّ نفسٌ لو يـقـاس ببـعـضـهـا نفـوس الورى كـانـت أجلّ وأكـبـرا
ومـا ضـرّ نصلُ السـيف أخـلاق غـمـده إذا كـان عـضـبـاً حـيث وجّـهـه يرى

ودخل بعضهم. على الرشيد فازدراه، فأنشده:

ترى الرجل الخفيف فتزدريه | وفى أثوابه أسدٌ هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه | فيخلف ظنّك الرجل الطرير
لقد عظم البعير بغير لب | فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبى بغير وجه | ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى | فلا عارٌ عليه ولا نكير
فإن آك فى شراركمو قليلاً | فإنّى فى خياركمو كثير

ويقال: كلُ ما تشتهيه نفسك والبس ما تشتهيه الناس وقد نظمه من قال:

إنّ العيون رمتك إذ فاجأتها | وعليك من مهنِ الثياب لباسُ
أمّا الطعام فكل لنفسك ما اشتهت | واجعل لباسك ما اشتهته الناسُ

وفى هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى التختم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب

وما أشبه ذلك

ما جاء فى التختم: عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم فى يمينه. قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام:

كف الرسالة ليس يخفى حسنها | وتمام حسن الكف لبس الخاتم

وذكر السلامى أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه، والخلفاء بعده، فنقله معاوية رضى الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين، فبقى إلى أيام الرشيد رضى الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار، وأخذ الناس بذلك، وعن على رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «تختموا بخواتم العقيق، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها فى بطن جائع، واستعمل خاتمًا من ورق وانقش عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. وكان خاتم على رضى الله عنه من ورق، ونقشه: نعم القادر الله. وكان لأبى نواس خاتمان أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته | بعفوك ربى كان عفوك أعظما

والآخر حديد صينى عليه: أشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، وأوصى عند موته أن يغسل الفص ويجعل فى فمه. قال جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج. وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروزج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصينى للحرز، وقيل للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء فى الحلى: قيل: إن قرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما، ولم يدر قيمتهما.

وقال محمد: بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفى، كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب، فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت يا أمير المؤمنين: هما أعظم من أن يكتب بوزنهما، فقال: صدقت. وبعث معاوية إلى عائشة رضى الله تعالى عنها طوقًا من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار، فقسمته بين أزواج النبى ﷺ. وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنى ملكه زيدت فى تاجه خرزة، وكان يقال لها خرزات الملك.

ذكر ما جاء فى الطيب والتطيب: قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك». وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن فى الجنة لمرعى من مسك مثل مراعى دوابكم هذه». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ. فنام فعرق فجاءت أمى بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ وقال: يا أم سليم: ما هذا الذى تصنعين؟ فقالت: هذا عرقك نجعله فى طيبنا، وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرًا ما اخترت على العطر إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه، وناول المتوكل فتى فأرة المسك فقال:

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب | لقد طيبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر مالاً جزيلاً، فقال: هذه غالية فسميت بذلك. وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء فقال: علمينى كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل تريد أن تعلمه جواريك هو لك منى كلما أردته، ثم قالت: والله إنى ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيب الطيب عرف أم أبان ... فار مسك بعنبر مسحوق

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ريحه، وعن الحسن بن زيد الهاشمى، عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلى جسده. فإذا مر فى الطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم مر المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لى لكان رأس مالى. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك، أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبى: الرائحة الطيبة تزيد فى العقل، وقال على كرم الله وجهه: تشمموا النرجس ولو فى العام مرة، فإن فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبى يقول: إذا ورد الورد صدر البرد. وكانت الصحابة رضى الله عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب. وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرقًا طيبًا، قيل: ولذلك سميت طيبة. وأقول: والله ما طابت طيبة إلا بالقلب الطاهر ﷺ وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطب فى طيبة عند طيب ... به طيبة طابت فأين أطيب

وقيل: إن فأرة المسك دويبة شبيهة بالخشف تصاد لسرتها، فإذا صادها الصياد عصب السرّة بعصابة شديدة، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرة فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكًا ذكيًا بعد أن كان لا يرام نتنًا. وقد يوجد جرذان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها.

وحكى أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لا يدرى أحد معدنه، فلا يأكله شيء إلا مات ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارًا فيه. وقال الزمخشرى عفا الله عنه: سمعت ناسًا من أهل مكة يقولون: هو من زبد بحر سرنديب. وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، وأدونه الأسود. وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ليس فى العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر. وأما العود، فأجوده المندلى وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند. وأجوده أصلبه وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم، فإن انطبع، فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعًا فلا يقمل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد. فإذا خرج ظاهرًا وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر والبان:

لو كنت أحمل جمرًا حين زرتكم ... لم ينكر الكلب إنى صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يقدمنى ... والعنبر الند مشبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب بأيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرض الورد فى مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب. فالنرجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك. والبنفسج يقوى بالعنبر، والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوى القلب، والعنبر يقوى الدماغ، والكافور يقوى الرئة، والعود يقوى المعدة، والغالية تحل الزكام،

والصندل يحل الأورام، وعن أبى هـريرة رضى الله تعالـى عنه عن النبى ﷺ قـال: «لا تردوا الطيب فـإنه طيب الريح خفـيف المحمل». تبخـر بعض الأمراء وعنده أعرابى. فـفرطت من الأمـير ريح خفيـفة، فأراد أن يعـلم هل فطن بها الأعرابى أم لا؟ فـقال: ما أطيب هذا المثلث! قـال: نعم، ولكنك ربعتـها. وقال الأحنف: إن شم رائحـة المسك يحيى القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شمت أنفى من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار، ومائة مثـقال مسك، ومائة مثقال عنبر، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين

وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: ما بعث الله نبيًا إلا شابًا ولا أُوتى العلم عالمًا إلا شابًا، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقد أخبر الله تعالى به، ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]. وقال أنس رضى الله تعالى عنه: «قبض رسول الله ﷺ وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء». وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه، وعتاب بن أسيد ولاه مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها. والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء وأكثر الوسائل لقلوبهن. ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجال مع النساء مواقعًا ... من كان أشبههم بهن خدودا

وما بكت العربُ على شيء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميدًا وزمانه حبيبًا لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله فى جنات خلده الشباب، كما قال رسول الله ﷺ: «جردًا مردًا أبناء ثلاثين» وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثانى: فى الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وفى الخبر أن الله تعالى يقول: «الشيب نورى وأنا استحى أن أحرقه بنارى». وعن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبى ﷺ شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ، فقال عليه الصلاة والسلام: «كبر كبر». وبهذه الرواية: «من وقر كبيرًا لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزتى وجلالى وفاقة خلقى إلى إنى لأستحى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أن أعذبهما. ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكى ممن يستحى الله منه وهو لا يستحى من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار». وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتى سنة، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه، وقال النخعى: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه: « من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار». وعن أنس رضى الله عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام، يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل فى بيت له بابان، فقام وسط البيت ساعة، ثم خرج من الباب الثانى. ويقال: أطع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشىء: الإسلام، والقرآن، والشيب. قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه ... فيك أعاجيب لمن يعجب

مـا عـذر من يعـمـر بنيـانه وعـمـره منهـدم يخـرب

وقال الشعبى: الشيب علة لا يعاد منها ومصيبة لا يعزى عليها، وقال الفرزدق:

ويقـول كـيف يميل مـثلك للظلم وعليك من عظم المشيب عـذار
والشـيب ينقص فى الشـباب كـأنه ليل يصـيح بعـارضـيـه نهـار

وقال أبو دلف فى بياض اللحية:

تكوّننى همٌّ لبـيـضـاء نابتـه لهـا بغـضـةٌ فى مـضـمـر القلب ثابتـه
ومن عـجبٍ أنى إذا رمت قـصـّهـا قـصـصـت سـواها وهـى تضـحك نابتـه

وقال أيضا:

أرى شـيب الرجـال مـن الغـوانى بمـلغ شـيـبـهـن من الرجـال

وقال ابن المعتز:

فـظللـت أطلـب وصلـهـا بتـذلـلٍ والشـيب يغـمـزها بأن لا تـفـعلى

قيل: صاح شاب بشيخ أحدب. بكم ابتعت هذا القوس يا عماه؟ فقال: يا بنى إنى أعطيتها بغير ثمن. ومر رجل أشمط بامرأة عجيبة فى الجمال، فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت كأنك تخطبنى؟ قال: نعم، فقالت: إن فىّ عيبًا، قال: وما هو؟ قالت: شيب فى رأسى، فثنى عنان دابته، فقالت: على رسلك، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء، ولكنى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى، فأنشد، ويقال إنه لابن المعتز:

رأين الغـوانى الشـيب لاح بمفـرقى فـأعـرضن عنى بالخـدود النواضـر

وقال آخر:

سـألتـهـا قـبلةً يومًـا وقـد نظرت شـيـبى وقـد كـنت ذا مـالٍ وذا نـعم
فـأعـرضـت ومـالـت وهى قـائلة لا والذى أوجـد الأشـيـاء من عـدم
مـا كـان لى فى بيـاض الشـيب من أرب أفى الحـيـاة يكون القطن حشـو فـمى

وقال آخر:

قـالت أرى مـسكة الشعـر البهيم غـدت كـافـورة قـد أحـالتـهـا يد الزمن
فـقـلت طيب بطيب والتنقل فـى مـعـادن الطيب أمـر غـيـر ممتـهن
قـالت صـدقـت ومـا أنكرت ذاك بذا المسك للشم والكـافـور للكفـن

وقال آخر:

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت من تعجبها ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وقال ابن نباتة:

تبسم الشيب بوجه الفتى ... يوجب سح الدمع من جفنه
وكيف لا يبكي على نفسه ... من ضحك الشيب على ذقنه

وقال ابن المعتز:

فما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رأت وضحًا في الرأس مني فراعها ... فريقان مبيض به وبهيم
تفاريق شيب في السواد لوامع ... فيا حسن ليلٍ لاح فيه نجوم

ويقال في الرجل: إذا شاب، ليله عسعس وصبحه تنفس:

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا ... بسيفيهما فالشيب لا شك غالب

وقال آخر:

أكان شيب العبد من نقرة القفا ... وشيب كرام الناس شيب المفارق

وقال العتبي:

قالت عهدتك مجنونًا فقلت لها ... إن الشباب جنون برؤه الكبر

وقال علي بن ربيع:

كبرت ودق العظم مني وعقني ... بني وزالت عن فراشي العقائد
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا ... يقودونني بيت البيوت الولائد

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غصنًا ... كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني ... فما نفع البكاء ولا النحيب

فيا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عين على وحافظ ... وكم كان من واشٍ لها ورقيب
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبهم ... ولم يحفظونى واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان فى كمى فسقط. قال الشاعر:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت فى زمن الشباب
لقد كذَبَتْك نفسك ليس ثوبٌ ... دريسٌ كالجديد من الثياب

ومما جاء فى الخضاب: قال ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوكم وأعجب لنسائكم»، وعن أبى عامر الأنصارى رضى الله عنه: رأيت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم. وقيل: خضاب الحناء يصفى البصر ويذهب بالصداع ويزيد فى البهاء.

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... وليس إلى رد الشباب سبيل

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن. فقال له: لو خضبت شعرك، فلما رجع إلى مكة اختضب. فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام. فقال:

ولو دام لى هذا الخضاب جددته ... وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة ... ولابد من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر:

يا خاضب الشيب الذى ... فى كل ثالثةٍ يعود
إن الخضاب إذا نضا ... فكأنه شيب جديد
فدع المشيب وما يريـ ... ـد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الوراق:

فما منك الشباب ولست منه ... إذا سامتك لحيتك الخضابا

الفصل الثالث: في العافية والصحة

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية». وعنه ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له ألم أصح بدنك وأروك بالماء البارد»؟ وقال على رضى الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]. هو الأمن والصحة والعافية. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهم أعلم بذلك، وقال ابن عيينة: من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة فى مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئًا من النعم مع العافية. ويقال: البحر لا جوار له، والملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها، قال ابن الرومى:

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ... ولم تخل من قوت يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فإنما ... على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

ويقال: صحة الجسم أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأى وطاء وأى عطاء. وقال حكيم: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض وإن كان شيء مثل الموت فالفقر. وقال على رضى الله تعالى عنه: ما المبتلى الذى اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء. وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء فى شدة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ها هنا؟ اذهبى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة، فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها، فهربت الفارة البرية وهزت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديدًا ألا وإن الفقر والعافية أحب إلىّ من غنى يكون فيه الموت، ثم فرت إلى البرية. وكان عند رومى خنزير فربطه إلى اسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجنبه آتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام. فقالت له: يا بنى لا تقربه، فإن وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه، وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه انظرى هل بقى فى خلال أسنانى شيء من ذلك العلف فاقلعيه. فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع: فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضى الله تعالى عنه: أفضل الناس ثوابًا يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أطولكم أعمارًا فى الإسلام إذا سددوا». وزعموا أن تبعًا الفزارى كان من المعمرين، وإنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية، فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم عليه السلام فى الجاهلية، وستين فى الإسلام. قال له: أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك قال: رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة ويومًا فى أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع، وبين قوى يظلم، وضعيف يظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحى يموت وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزى: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمسًا وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمسًا وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنتين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام، فروى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال:

عاش نوح عليه السلام ألفًا وأربعمائة وخمسين عامًا. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بنى آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها. وعاش أكثم بن صيفى ثلاثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام، وعاش سطيح سبعمائة سنة، وعاش قس ابن ساعدة الأيادى سبعمائة سنة، وكان من حكماء العرب. وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائةوعشرين سنة، وأدرك الإسلام. وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة، وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية، ومن المعمرين: عمرو بن معد يكرب الزبيدى، ومن المعمرين: عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وإن امرأته بلغت من العمر كذلك، ولقد رأيت منه ما لم أره من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس، ورأيت له ولداً شيخًا هو أشد قوة من ولده، وذلك فى صفر تسع وعشرين وثمانمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم: ٦٥]. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاسًا من الأرض مكتوبًا عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له، ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين، وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: لم يرن إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض، ورنة حين ولد محمد ﷺ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أولها بسم الله الرحمن الرحيم. وعن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم فى الميزان. فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ابتداء من كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى: ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»، وينبغى أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه، يا أخى، يا فقير، يا سيدى، يا صاحب الثوب الفلانى أو البغل الفلانى أو الفرس الفلانى أو السيف الفلانى وما أشبه ذلك. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال، فقال له: أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه، فقال: سل يا أمير المؤمنين، قال أسألك عن شىء له اسم ولا كنية له، وعن شىء له كنية ولا اسم له، قال: المنارة، وأبو رياح، فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه. وقيل لعثمان «ذو النورين» رضى الله تعالى عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام، وقيل: لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبى غيره. وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضى الله تعالى عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أى ترمد عينه الباقية ولا تعتل عينه المردودة، فقيل: ذو العينين. وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى فألعب بها، وكان رسول الله ﷺ يقول: يا أبا هريرة، واختلف فى اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل: عبد شمس، وقيل: عمير، وقيل: سليمان، وقال الشعبى رضى الله تعالى عنه كنية الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبو دجانة الأنصارى رضى الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم وولى رياسة الجيوش والدواوين، ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا، فقال:

واليوم يوم المهرجان	هديتى فيه اللسان
لك دولتان حديثة	وقديمة ورياستان
لك فى الورى من هاشم	نبت وبيت خسروان
علم الخليفة كيف أنـ	ـت فصرت فى هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا. المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرة، والحرث ابن فهر غمسوا أيديهم فى خلوق ثم تحالفوا. شيبة الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد، قال حذافة:

بنو شيبة الحمد الذى كان وجهه	يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له: عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوفًا له فجعلوا يقولون: من هذا الذى وراءك فيقول: عبد لى. سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخبر الإسراء أو لأنه من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم: لا

عبدالله اليوم سراً، فظهر بالإسلام، وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عبادة، رضى الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرمى والعوم. طلحة بن عبد الله رضى الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخائه، رشح الحجر، وأبو الريان عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره، عكة العسل سعيد ابن العاص رضى الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه، كان يقال له: مرة الحبر ومرة البحر. الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق. الفياض عكرمة بن ربعى لقب بذلك لسخائه. المصطلق خزيمة بن سعد الخزاعى قيل له المصطلق لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رأوه قالوا: راح يكذب. وأصل الغزال كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين وكان يتتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزالاً. سليمان التميمى كان داره ومسجده فى بنى تميم ولم يكن منهم وهو شيبانى. أبو عمرو الشيبانى لم يكن من بنى شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيبانى. اليزيدى كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه. ذو القروح امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته، وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب، وهى مفاخرهم، وقال بعضهم:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقيل فى قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، أى كنياه، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه، فقال انفلق أبا خالد، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب: فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]. سماه الله تعالى فسوقًا. واتفق العلماء رضى الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك. كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك، وقل من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير نكير. غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين. وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل وذهب التفاوت وانقلب النقص والشرف شرعًا واحدًا فمنكر، وهب أن العذر مبسوط فى ذلك، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير ولا قبيل ولا له فيه ناقة ولا فصيل بل هو محتو على ما يضاد الدين، وينافى كمال الدين وشرف الإسلام، وهى لعمر الله الغصة التى لا تساغ والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطاع، نسأل الله تعالى إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا ويوقظ غافلنا.

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد كقول رسول الله ﷺ فى على رضى الله تعالى عنه أبو تراب، وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة، فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ فى التراب، فقال له: «اجلس أبا تراب، وكان أحب أسمائه إليه. وكقولهم أبى لهب لحمرة خديه ولونه. وقال الزمخشرى رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس وأبى العمامة. وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية يا أبا الطويلة. وسمعت عرب البحيرة يكنون بأسماء بناتهم، كأبى زهو، وأبى سلطانة، وأبى ليلى ونحو ذلك، ولا حرج فى ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلانة منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة. وأبو رقية تميم الدارى، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب، وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع، وكان لأنس أخ صغير وله نغير يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينًا. فقال: «ما شأنه؟» فقالوا: مات نغيره. فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب. فسأله عن اسمه. فقال: لا أدرى. فقال:

تسميت لا أدرى فإنك لا تدرى ... بما فعل الحب المبرح فى صدرى

وعن عليّ رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ولا تقبحوا له وجهًا» وعنه: «ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر من اسمه محمدًا أو أحمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا كان خيرًا لهم، وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمدًا أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل فى كل يوم مرتين وكل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف».

ومما جاء فى مدح الأسماء منظومًا: قال بعضهم فى مليح اسمه إبراهيم:

رأيت حبيبى فى المنام معانقى ... وذلك للمهجور مرتبة عليا
وقد رق لى من بعد هجرٍ وقسوةٍ ... وما ضر إبراهيم لو صدق الرؤيا

وفيه أيضًا:

لا زال بابك كعبةً محجوجة ... وترابها فوق الجباه وسيم
حتى ينادى فى البقاع بأسرها ... هذا المقام وأنت إبراهيم

وفيه أيضًا:

يا سمى الخليل إن فؤادى ... فيه من لوعة الغرام جحيم
وعجيب يا قاتلى أن قلبى ... فيه نار وأنت فيه مقيم

ولبعضهم فى مليح اسمه عمر:

يا أعدل الناس اسمًا كم تجور على ... فؤاد مضناك بالهجران والبين
أظنهم سرقوك القاف من قمر ... وأبدلوها بعينٍ خيفة العين

وفيه أيضًا:

ما عليهم فى الهوى لو نظروا ... حين سموك فقالوا عمر
أبدلوا قافك عينًا غلطًا ... أخطأوا ما أنت إلا قمر

ولبعضهم فى مليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان:

وافى إلىّ بشمعةٍ وضياؤها ... وضياؤه حكيا لنا القمرين
ناديته ما الاسم يا كل المنى ... فأجابنى عثمان ذو النورين

ولبعضهم فى مليح اسمه يوسف:

يا من سبى الشعراء ثمل عذاره ... النجم يشهد لى بأنى مدنف
صيرت قلبى من صدودك فاطراً ... فامنن علىّ بزورةٍ يا يوسف

وللصفى الحلى فيمن اسمه داود:

وثقت بأن قلبى من حديد ... وفيه على الهوى بأس شديد
فلان على هواك ولا عجيب ... إذا داود لان له الحديد

وله فيمن اسمه موسى:

أتى موسى بآية خال خده ... حوته صوارم الحدق المراض
فآية ذا بياض فى سواد ... وآية ذا سواد فى بياض
فجاء بضد ما قد جاء موسى ... كليم الله فى الحقب المواضى

وللقيراطى فى مليح اسمه بدر:

سموه بدراً وذاك لما ... أن فاق فى حسنه وتما
وأجمع الناس إذا رأوه ... بأنه اسم على مسمى

ولمؤلفه رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى:

وعظ الأيام إمامنا الحبر الذى ... يسكب العلوم كبحر فضل طافح
فشفى القلوب بعلمه وبوعظه ... والعلم يشفى إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت:

خصال خليل كلهن حميدة ... وأوصافه تزرى بكل جميل
فلا خير فى بلتاج إن لم يكن بها ... ولا خير فى الدنيا بغير خليل

وقال آخر فى مقبل:

يا من تحجب عن محب صادق ... ما زال عنه كل يوم يسأل
من لى بيوم فيه تسمح باللقا ... ويقال لى هذا حبيبك مقبل

ولبعضهم فى مليح اسمه محسن:

وأهيف يعلو على عشاقه ... برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن ... وكم دموع فى الهوى أسالها

ولصفى الدين الحلى فى اسم حسين:

حبيبي وافر والشوق منى ... طويل والهوى عندى مديد
واعجب أننى أهوى حبيبًا ... وشوق فى محبته يزيد

وما قيل فى أسماء النساء فى فاطمة:

عجبت من فاتنة لم تزل ... لمرتجى الوصل لها فاطمة
تنكر ما القاه من وجدها ... وهى بشوقى والجوى عالمة

وقال ابن مكانس فى اسم عائشة:

يا دهر خبرنى بحقك واشفنى ... فسهام فكرى فى أمورك طائشة
أيحل أنى فى المحبة ميت ... وحبيبتى من بعد موتى عائشة

وقال شمس الدين البديرى فى اسم حليمة:

ولما رأتنى فى هواها متيمًا ... أكابد من حر الغرام أليمه
فجادت بطيب الوصل منها ولم تجز ... ومن أين تدرى الجور وهى حليمه

ولبعضهم فى اسم بركة دوبيت:

لما نصب الهوى لقلبى شَرَكَهْ ... ناديت وقلبى تارك من تركه
يا قلب افق ولا تمل لشركه ... تغنيك منين ساعةٍ من بركه

مردوفًا أيضًا:

لما نصب الهوى لقلبى شركه ... فى كل طريق
ناديت وقلبى تارك من تركه ... لو كان يفيق
يا قلب أفق ولا تمل للشركه ... ما الشرك يليق
تغنيك منين ساعةٍ من بركه ... عن كل صديق

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فيما جاء فى الأسفار والاغتراب وما قيل فى الوداع

والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء فى الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان: فقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ [الملك: ١٥]. وفى الأثر: سافروا تغنموا، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر، وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقًا عليه. فقال يومًا:

ألا خلّنى أمضى لشأنى ولا أكن ... على الأهل كلا إن ذا لشديد
تهيّبنى ريب المنون ولم أكن ... لأهرب عما ليس منه محيد
فلو كنت ذا مال لقرب مجلسى ... وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فدعنى أجول الأرض عمرى لعله ... يسر صديق أو يغاظ حسود

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة، وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»، وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال، فضرب به المثل، وقال قيس بن الحطيم:

هممنا بالإقامة ثم سرنا ... مسير حذيفة الخير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضى الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة. وقال المأمون: لا شىء ألذ من السفر فى كفاية وعافية، لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها، وتعاشر قومًا لم تعرفهم. ومما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان:

قال الفرزدق:

وفى الأرض عن دار القلى متحول ... وكل بلاد أوطنتك بلاد

وقال آخر:

وما هى إلا بلدة مثل بلدتى ... خيارهما ما كان عونًا على دهر

وقال آخر:

وإذا البلاد تغيرت عن حالها ... فدع المقام وبادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضًا واجبًا ... فى بلدةٍ تدع العزيز ذليلا

وقال الصفي الحلي:

تنقل فلذات الهوى في التنقل ... ورد كل صافٍ لا تقف عند منهل
ففي الأرض أحباب وفيها منازل ... فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
ولا تستمع قول امرىء القيس إنه ... مضل ومن ذا يهتدي بمضلل

وقال عبد الله الجعدي:

فإن تجف عني أو تزرني إهانة ... أجد عنك في الأرض الفريضة مذهبا

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء: قال جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقيل: لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان جدك صانعًا في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وجد مغلولٍ بصنعاء موثقٍ ... بساقيه من ماء الحديد كبول
قليل الموالي مسلم بجزيرة ... له بعد نومات العيون أليل
يقول له الحداد أنت معذب ... غداً له غدٍ أو مسلم فقتيل
بأكبر مني لوعةً يوم راعني ... فراق حبيبٍ ما إليه سبيل

وقال الشاعر:

وما أم خشف طول يوم وليلةٍ ... ببلقعةٍ بيداء ظمآن صاديا
تهيم ولا تدري إلى أين تبتغي ... مولهةٌ حزنًا تجوب الفيافيا
أضر بها حر الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
إذا أبعدت عن خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاوياً
بأوجع مني يوم شدوا حمولهم ... ونادى مناد البين أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله باكٍ على أحبابه جزعا ... قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركني ... حتى يجرعني من بعدهم جرعا
إن الزمان رأى إلف السرور لنا ... فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً ... فلا زيادة شيء فوق ما صنعا

فقال والله لأعينك فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وقال آخر:

وقفت يوم النوى منهم على بعد ... ولم أودعهم وجداً واشفاقا

إنى خشيت على الأظعان من نفسى ... ومن دموعى إحراقاً وإغراقا

وقال عمر بن أحمد:

أنى الرحيل فحين جد ترحلت ... مهج النفوس له عن الأجساد

من لم يبت والبين يصدع قلبه ... لم يدر كيف تفتت الأكباد

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال المثلى يقال أحسنت، ففررنا منه فقال: أقسمت عليكم إلا رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنت فقولوا أحسنت وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو ... وحمّلوها وسارت بالدّمى الإبلُ

وقلّبت بخلال السجف ناظرها ... يرنو إلىّ ودمع العين ينهمل

وودعت ببنان زانه عنهم ... ناديت لا حملت رجلاك يا جمل

يا حادى العيس عرّج كى أودعهم ... يا حادى العيس فى ترحالك الأجل

إنى على العهد لم أنقض مودتهم ... يا ليت شعرى لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت! ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

وقال آخر:

لما علمت بأن القوم قد رحلوا ... وراهب الدير بالناقوس مشتغل

شبكت عشرى على رأسى وقلت له ... يا راهب الدير هل مرت بك الإبل

فحنّ لى وبكى بل رقّ لى ورثى ... وقال لى يا فتى ضاقت بك الحيل

إن الخيام التى قد جئت تطلبهم ... بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى(1):

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا ... إلا وقد حملوا فيها الطواويسا

من كل فاتكة الألحاظ مالكة ... تخالها فوق عرش الدر بلقيسا

إذا تمشت على صرح الزجاج ترى ... شمساً على فلك فى حجر إدريسا

أسقفة من بنات الروم عاطلة ... ترى عليها من الأنوار ناموسا

وحشية ما لها أنس قد اتخذت ... فى بيت خلوتها للذكر ناووسا

---

(1) محيى الدين بن عربى: هو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محى الدين أبو بكر الطائى الحاتمى الأندلسى، المعروف بابن عربى، صاحب التصانيف الكثيرة فى التصوف. ولد فى الأندلس (٥٦٠هـ) وتوفى سنة (٦٣٨هـ). له كتب كثيرة منها: (مفاتيح الغيب) و«النسخة الحق» و«فصوص الحكم» و«التجليات» وغيرها.

إن أومأت تطلب الإجميل تحسبهم ... قناقسًا أو بطاريقًا شماميسا
ناديت إذ رحلوا للبين ناقتها ... يا حادى العيس لا تحدو بها العيسا
غيبت أجناد صبرى يوم بينهم ... على الطريق كراديسًا كراديسا
ساروا وأصبحت أبكى الربع بعدهم ... والوجد فى القلب لا ينفك مغروسا

وقال آخر:

ولما تبدت للرحيل جمالنا ... وجدّ بنا سير وفاضت مدامع
تبدت لنا مذعورة من خبائها ... وناظرها باللؤلؤ الرطب دامع
أشارت بأطراف البنان وودَّعت ... وأومت بعينيها متى أنت راجع
فقلت لها والله ما من مسافرٍ ... يسير ويدرى ما به الله صانع
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ... فسالت من الطرف الكحيل مدامع
وقالت إلهى كن لى عليه خليفة ... فيا رب ما خابت لديك الودائع

وقال آخر:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه ... هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك دموعى وهى دامية ... ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

وقال البغدادى(١):

قالت وقد نالها للبين أوجعه ... والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت ... قواه عن حمل ما فيه واضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى ... من شق الهوى بالبين يجمعه
كأننى يوم ولت حسرةً وأسى ... غريق بحرٍ يرى الشاطىء ويمنعه

وقال ابن البديرى:

قفا حاديًا ليلى فإنى وامق ... وتعجلا يومًا على من يفارق
وزما مطاياها قبيل مسيرها ... ليلتذ منها بالتزود عاشق
ولا تزجرا بالسوق أظعان عيسها ... فإن حبيبى للظعائن سائق
ولما التقينا والغرام يلذبنا ... ونحن كلانا فى التفكر غارق
وقفنا ودمع العين يحجب بيننا ... تسارقنى فى نظرةٍ وأسارق
فلا تسألا ما حل بالبين بيننا ... ولا تعجبا أنا مشوق وشائق

---

(١) البغدادى هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن سعد، العلامة موفق الدين البغدادى، الشافعى، النحوى، المتكلم، الطبيب، الفيلسوف المعروف بابن اللباد، ولد ببغداد فى أحد الربيعين سنة (٥٥٥هـ) وتوفى ببغداد سنة (٦٢٩هـ) وله تصانيف منها «كتاب أخبار مصر» و«كتاب فى القياس».

وقال أيضًا:

تذكرت ليلى حين شط مزارها ... وعادت منازلها خليات بلقع
بكيت عليها والقنا يقرع القنا ... وسمر العوالى للمنايا تشرع
وخالفت لوامى عليها وعذلى ... وخالفت سهدى والخليون هجع
ولم استطع يوم النوى رد عبرة ... فؤادى أسى من حرها يتقطع
فقال خليلى إذ رأى الدمع دائمًا ... يفيض دمًا من مقلتى ليس يدفع
لئن كان هذا الدمع يجرى صبابة ... على غير ليلى فهو دمع مضيع

وقال آخر:

مددت إلى التوديع كفًا ضعيفة ... وأخرى على الرمضاء فوق فؤادى
فلا كان هذا آخر العهد منكمو ... ولا كان ذا التوديع آخر زادى

وقال آخر:

ولما وقفنا للوداع عشية ... وطرفى وقلبى دامع وخفوق
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة ... كأنى سحاب والوشاة بروق

ولمؤلفه رحمه تعالى:

يا سادةً فى سويد القلب مسكنكم ... وفى منامى أرى أنى أعانقهم
أوحشتمونا وعز الصبر بعدكمو ... يا من يعز علينا أن نفارقهم

وقال آخر:

لو أن مالك عالم بذرى الهوى ... ومحله من أضلع العشاق
ما عذب العشاق إلا بالهوى ... وإذا استغاثوا غاثهم بفراق

وقال ابن الوردى[1]:

دهرنا أضحى ضنينا ... باللقا حتى ضنينا
يا ليالى الوصل عودى ... أجمعينا أجمعينا

وقال الشريف الرضى:

عللانى بذكرهم واسقيانى ... وامزجا لى دمعى بكأس دهاق
وخذا النوم من جفونى فإنى ... قد خلعت الكرى على العشاق

---

(١) ابن الوردى: هو محمد بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس الإمام زين الدين بن الوردى المعرى، الحلبى، الشافعى، فقيه، أديب، ناثر، لغوى، نحوى، مؤرخ، ولد بمعرة النعمان بسوريا، وولى القضاء بمنبج وتوفى بحلب سنة (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) وقد جاوز الستين، له تصانيف كثيرة منها «شرح ألفية بن مالك» و«خريدة العجائب وفريدة الغرائب».

وقال آخر عند ذلك:

قالوا أترقد إذ غبنا فقلت لهم ... نعم وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرفٍ هداني نحو حسنكمو ... أني أعذبه بالدمع والسهر

وقال الموصلي:

فسدت لطول بعادكم أحلامنا ... وعقولنا وجفا الجفون منام
والطيف قد وعد الجفون بزورةٍ ... يا حبذا إن صحت الأحلام

ومما قيل في البكاء: قال الشاعر:

رجوت طيف خياله ... وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني ... والمرسلات دموعي

وقال آخر:

ارحم رحمت لوعتي ... وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لا تسل ... عن حالها يا ما جرى

وقال آخر:

إن عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السهد في كراها وينهى
بدموعٍ كأنهن الغوادي ... لا تسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر:

يا قلب صبراً على الفراق ولو ... روعت ممن تحب بالبين
وأنت يا دمع إن ظهرت بما ... أخفيه من قلبي سقطت من عيني

وقال آخر:

خاض العواذل في حديث مدامعي ... لما غدا كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكمو ... حتى يخوضوا في حديث غيره

وقال ابن الموازر:

رحت يوم الفراق أجري دموعي ... حسرةً إذ قضى الفراق ببيني
قيل كم إذ تجري دموعك تعمى ... أوقف الدمع قلت من بعد عيني

وقال آخر:

لما لبست لبعده ثوب الضنى ... وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت وقف مدامعى من بعده ... وجعلته وقفا عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أر مثلى غارَ من طول ليله ... عليه كأنه الليل يعشقه معى
وما زلت أبكى فى دجى الليل صبوةً ... من الوجد حتى ابيضَّ من فيض أدمعى

وقال الموصلى:

عين أفاضت دموعى ... لطول صد وبين
ووجنة الخد قالت ... رأيت غسلى بعينى

وقال آخر:

وما فارقت ليلى من مرادٍ ... ولكن شقوة بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكل إلفٍ ... إذا ماتت حبيبته بكاها

وفى بعض الكتب السماوية: إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة.

ومما جاء فى الحنين إلى الوطن: أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها، روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر وقد أعذق والنمام وقد أورق، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ، وقال بلال[1] رضى الله تعالى عنه:

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلةً ... بوادٍ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنةٍ ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ومن حب الوطن: ما حكى أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه. فمنع أهل مصر أولياؤه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه، فقبره بالأرض المقدسة، وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبًا لوطنه، واعتلّ سابور ذو الأكتاف وكان أسيرًا ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك،وكانت قد عشقته، ما تشتهى؟ قال: شربةمن ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته، وقال الجاحظ: كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلاد ألفناها على كل حالة ... وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التى لا هواء بها ... وما ماؤها عذب ولكنها وطن

(١) بلال بن رباح: هو بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ويكنى أبا عبد الله وكان من السابقين الأولين الذين عذبوا فى سبيل الله قال عنه رسول الله ﷺ: «بلال سابق الحبشة»، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، مؤذن رسول الله ﷺ أعتقه أبو بكر وذهب إلى الشام مؤثراً الجهاد على الأذان إلى أن وافاه الأجل سنة (٢٠هـ) وكان سنه عند موته بضع وستون سنه.

ووصف بعضهم بلاد الهند، فقال: بحرها در وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر، وقال عبد الله بن سليمان فى نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: قد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران، وكان يقال: البصرة خزانة العرب وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية. وأنا أقول مصر كنانة الله فى أرضه والسلام.

ومما جاء فى ذم السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، وقال بعضهم:

كل العذاب قطعة من السفر ... يا رب فارددنا على خير الحضر

وقيل لأعرابى: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومر إياس بن معاوية[1] بمكان، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره، وأراد أعرابى السفر، فقال لامرأته:

عدى السنين لغيبتى وتصبرى ... وذرى الشهور فإنهن قصار

فأجابته:

فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا ... وارحم بناتك إنهن صغار

فأقام وترك السفر. ويقال: رب ملازم لمهنته فاز ببغيته.

وقال ابن الهيثم:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) إياس بن معاوية: هو إياس بن معاوية بن قُرَّة بن إياس بن هلال المزنى، أبو واثلة البصرى، قاضيها، كان يضرب به المثل فى الذكاء والدهاء والعقل، توفى سنة (١٢١هـ).

فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وقيل: الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء. فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بداً من ترك الحياء ومن فقد حياءه فقد مروءته، ومن فقد مروءته مقت، ومن مقت ازدرى به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفى الحديث: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدى به أمانته، ويستغنى به عن خلق ربه». وقال على كرم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر، وقيل: من حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه قال الشاعر:

لا تلمنى إذا وقيت الأواقى ... بالأواقى لماء وجهى واقى

وقال لقمان لابنه: يا بنى أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئًا أمر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذى سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به. وكان العباس رضى الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أزدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسى فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدو لحاجة ... إلى كل ما يلقى من الناس مذنب
وكانت بنو عمى يقولون مرحبًا ... فلما رأونى معدماً مات مرحب

وقال آخر:

المال يرفع سقفًا لا عماد له ... والفقر يهدم بيت العز والشرف

وقال آخر:

جروح الليالى ما لهن طبيب ... وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء فى حال فقره ... تحمقه الأقوام وهو لبيب
ومن يغترر بالحادثات وصرفها ... يبيت وهو مغلوب الفؤاد سليب
وما ضرنى إن قال أخطأت جاهل ... إذا قال كل الناس أنت مصيب

وقال آخر:

الفقر يزرى بأقوامٍ ذوى حسبٍ ... وقد يسود بغير السيد المال

وقال آخر:

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى ... سنيًا وأن الفقر بالمرء قد يزرى
وما رفع النفس الدنية كالغنى ... ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وقال آخر:

إذا قل مال المرء لانت قناته ... وهان على الأدنى فكيف الأباعد

وقال ابن الأحنف:

يمشى الفقير وكل شىء ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضًا وليس بمذنب ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة ... خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يومًا فقيرًا عابرًا ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

وقال آخر:

فقر الفتى يذهب أنواره ... مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله ما الإنسان فى قومه ... إذا بلى بالفقر إلا غريب

وقال آخر:

إن الدراهم فى المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابةً وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحةً ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يومًا عليه بما لا يشتهى وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب.

وقال الكنانى:

أصبحت الدنيا لنا عبرة ... فالحمد لله على ذلكا
قد أجمع الناس على ذمها ... وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشري:

وإذا رأيت صعوبة في مطلب ... فاحمل صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه ... حجر يلين قوة الأحجار

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن أحتاج إلى لئيم، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظ عرى مالك تحظى به ... ولا تفرط فيه تبقى ذليل
وإن يقولوا باخل بالعطا ... فالبخل خير من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلة ... يرى عزيز القوم فيها ذليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنمسين.

فأما المطمعون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن ائتمنه، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، وبرطل من جملة المال صاحب جاه، فيدفعه ويقول: هذا رباني، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعول أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزونًا لديه، واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أوهمه أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال: ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كذبهم ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرًا ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفًا قال: فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان. وإن كان منكورًا غافل صاحب المكان وخرج هاربًا، ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة، فيعملون يومًا أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعًا ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما

شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة فى قماشه أو فى العدة التى معه؛ فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً. وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط فى جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئًا وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغير الحال الأول فى الباطن. فينبغى لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون: فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة. فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر فى ذهن صاحب المال أنه يكتسب فى كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالى إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك، لم لا تشركنا فى متاجرك هذه وأرباحك؟ فيقول له: أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدرى أنه مثل البازى إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئًا واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندى علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل فى المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتمسون: فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكى يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام والتلطف فى المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد. وربما يأتى معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلمًا إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوض إليهم الوصايا، ويجلهم العوام، وتقبل شهادتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم. قال الشاعر:

صلى وصام لأمر كان أمّله ... حتى حواه فما صلى ولا صاما

وقيل: لا فقير أفقر من غنى يأمن الفقر. قال الشاعر:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى ... وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بنى عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقًا، وأساء به الظن من كان ظنه حسنًا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًا من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب، فإن كان شجاعًا سمى أهوج، وإن كان مؤثراً سمى مفسداً، وإن كان حليمًا سمى ضعيفًا، وإن كان وقوراً سمى بليدًا، وإن كان لسنًا سمى مهذاراً، وإن كان صموتًا سمى عيياً، قال ابن كثير:

الناس أتباع من دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلت به القدم

المال زين ومن قلت دراهمه ... حى كمن مات إلا أنه صنم

لما رأيت أخلائى وخالصتى ... والكل مستتر عنى ومحتشم

أبدوا جفاءً وإعراضًا فقلت لهم أذنبت ذنبًا فقالوا ذنبك العدم

وكان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء، فزور عنه يهودى كتابًا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورًا من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودى إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودى، فأعطته درجًا بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذى كان فى الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية فقتلهما أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعًا سنية وندم على فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا

عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا

يا أيها المعرضون عنى عودوا فقد عاد لى الزمان

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى، قال بعضهم:

إنما قوة الظهور النقود وبها يكمل الفتى ويسود

كم كريم أزرى به الدهر يومًا ولئيم تسعى إليه الوفود

والأطباء يعلمون أمراضًا من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التى يغلى فيها الذهب.

قال الشاعر:

احرص على الدرهم والعين تسلم من العيلة والدين

فقوة العين بإنسانها وقوة الإنسان بالعين

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوى القلب قوى سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالضد إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكًا رأى شيخًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه فى ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بنى شيئان إذ أنت حفظتهما لا تبالى بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام فى هذا المعنى كثير. وقد اقتصرت منه على النزر اليسير. وقد كان فى الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرًا.

فمن ذلك: ما حكى عن أحمد بن طولون(1) أنه دخل يومًا بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهرة فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: علىّ بألف مثقال من المسك، فنثره على أوراق النرجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف.

حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب (بالعجائب والطرف): أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح فى سنة ثمان من الهجرة، وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمى يوم القادسية

(1) سبق ترجمته.

منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفًا، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتى ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريقًا مرصعًا بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا آخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبى وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار، ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتى ألف دينار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلالم. ودفع مصعب ابن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مرلاه فصًا من ياقوت أحمر، وقال له: انج به، و كان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب، وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته ظهر على كنز، فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار، فقال: إلى من أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يدًا، وأولانا جميلاً. ادع لى عبد الله بن أبى دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار. ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له من آلة الشرب يوم قتل، سبعمائة صينية من ذهب وفضة. ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام ابن عبد الملك بعد موته اثنى عشر ألف قميص وشى، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار، ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة، خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردبًا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتى ألف دينار، وعشرة بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونًا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادى الصينى والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية مملوءة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهبًا كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهبًا بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة ذهبًا وألفى حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهبًا وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهبًا، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظًا به، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه، فضرط، فضحكوا عليه، فكثروه استهزاء وسخرية، ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزًا لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم، وفنيت أموالهم،

فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه. قال بعضهم:

هب الـدنيـــا تقـــاد إليك عــــفـــواً   أليـس مــــصــــيــــر ذلـك للـزوال

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيـا من عـــاش فى الـدنيـــا طويـلا   وأفنـى العـــمـــر فـى قـــيـل وقـــال
وأتعـب نفـــسـه فـيـــمـا سـيـفـنى   وجـــمـــع من حـــرام أو حـــلال
هب الـدنيـــا تقـــاد إليك عـــفـــواً   أليـس مــــصــــيــــر ذلـك للـزوال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦﴾ [العلق: ٦، ٧]. على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا فى المال. وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة. وحدث الحسن رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين عامًا»، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم، قال: فإذاً أنت من الأغنياء. وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان النبى ﷺ يبيت طاويًا ليالى ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفنى فقيرًا ولا تتوفنى غنيًا واحشرنى فى زمرة المساكين». وقال جابر رضى الله تعالى عنه: دخل النبى ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها، وهى تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ [الضحى: ٥]. وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى». وفى الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته: أدنوا إلىَّ أحبائى، فتقول الملائكة: ومن أحباؤك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائى، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادى الصالحين إنى ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم علىَّ ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إلىَّ وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان. وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذى نفسى بيده ليدخلن فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذى طمرين[1] لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره - أى لو قال: اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة - ولم يعطه من الدنيا شيئًا». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج فى صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جدًا، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك فى معيشتك، قال: فالتفت يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهبًا، فإذا هى تبرة فى كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إلىَّ وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فهبته والله أن أردها عليه، وقال عون بن عبد الله[2]: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر منى همًا لأنى كنت أرى ثيابًا أحسن من ثيابى ودابة أحسن من دابتى، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله ... كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ... ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه ... فلا يتخذ شيئًا يخاف به فقدا

---

(١) الطمر: الثوب البالى.

(٢) عون بن عبد الله: هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الإمام القدوة العابد، أو عبد الله الهذلى الكوفى، أخو فقيه المدينة عبيد الله، كان مرجئاً ثم تركه انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبى (١٠٣/٥) ترجمة (٣٧).

وكان من دعاء السلف رضى الله تعالى عنهم: «اللهم إنى أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن ورثه لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره.

ولما فتحت بلخ فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدى الله تعالى أى: بعد العرض، قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل … حزينًا على الدنيا رهين غبونها
إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن … على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت فى غدٍ … لكل غدٍ رزق من الله وارد

وقال هارون بن جعفر الطالبى:

بوعدت همتى وقوربت مالى … ففعالى مقصر عن مقالى
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع … وهو من بين ما اكتسوا سربالى
ولقد تعلم الحوادث أنى … ذو اصطبار على صروف الليالى

وقال أعرابى: من ولد فى الفقر أبطره الغنى، ومن ولد فى الغنى لم يزده إلا تواضعًا، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه، وأعظم أجر من رضى به، وصبر عليه، اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئًا قط، فقال لا. وأتى أعرابى إلى على رضى الله تعالى عنه، فسأله شيئًا، فقال: والله ما أصبح فى بيتى شيء فضل عن قوتى، فولى الأعرابى وهو يقول: والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة، فبكى على رضى الله تعالى عنه بكاءً شديدًا، وأمر برده، وقال يا قنبر: ائتنى بدرعى الفلانية، فدفعها إلى الأعرابى، وقال: لا تخدعن عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهمًا، فقال: يا قنبر والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهبًا وفضة، فتصدقت به، وقبل الله منى ذلك، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدى. وقال على رضى الله تعالى عنه: إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح. وقال مسلمة لنصيب: سلنى. فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضى الله تعالى عنه فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى، فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا، ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح واللئيم إذا سئل ارتاع.

ولما وفد المهدى من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء، فقال أبو دلامة:

إنى نذرت لئن رأيتك قادمًا ... أرض العراق وأنت ذو وقر
لتصلين على النبى محمد ... ولتملأن دراهمًا حجرى

فقال المهدى: صلى الله على محمد، فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى وأبطاك عن الثانية، فضحك وأمر ببدرة، فصبت فى حجره. وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول:

طحنتنا كلاكل الأعوام ... وبرتنا طوارق الأيام
فأتيناك نمو غد أكفًا ... لالتقام من زادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيت الحرام

فبكى الرشيد، وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة وملأوا حجرها دراهم ودنانير. وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله، فقال: أخ فى الله وجار فى بلد الله وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسينى فى الله. قال الشاعر:

ليس فى كل وهلة وأوان ... تتهيأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها ... حذرًا من تعذر الإمكان

وقال البصرى:

اضحت حوائجنا إليك مناخة ... معقولة برحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها ... حتى تثور بنا بغير عقال

وعن على رضى الله تعالى عنه قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدلجوا فى حاجة من هو نائم، فوالذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نابته نائبة

جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل. وقال لجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها. وكان لبيد[1] رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العتاق إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات:

أرى الجزار يشحذ مديتيه | إذا هبت رياح بني عقيل
طويل الباع أبلج جعفري | كريم الجد كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعبري بما نواه | على العلات بالمال القليل

فدعا لبيد بنتًا له خماسية وقال: يا بنية إنى تركت قول الشعر، فأجيبى الأمير عنى فقالت:

إذا هبت رياح بنى عقيل | تداعينا لهبتها الوليدا
طويل الباع أبلج عبشمي | أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبًا | عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً | نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد | وظنى فى ابن عتبة أن يعودا

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت وقلت عد، فقالت: يا أبت إن الملوك لا يستحيا منهم فى المسألة، فقال: والله أنت فى هذا أشعر منى. ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك، فأنشده:

والله ما ندرى إذا ما فاتنا | طلب إليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد | أحدًا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا | أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار، فعاد إليه من قابل، وقال: يا أمير المؤمنين إن الروى لينازعنى وإن الحياء يمنعنى، فأمر له بألف دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك. وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور، فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض وبعض البقاع أعز من بعض، فقال: صدقت، وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروى أن أبا دلامة الشاعر كان واقفًا بين يدى السفاح فى بعض الأيام فقال له: سلنى حاجتك، فقال: كلب صيد، فقال: اعطوه إياه، فقال: ودابة أصيد عليها، فقال: اعطوه دابة. فقال: وغلامًا يقود الكلب ويصيد به، قال: اعطوه غلامًا، قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: اعطوه جارية، فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولابد لهم من دار يسكنونها. قال: اعطوه دارًا تجمعهم، قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعته عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة، فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة، فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأله، ولو سأل

---

(١) لبيد بن ربيعة: هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر أبو عقيل الهوازنى العامرى الشاعر المشهور أحد أشراف قومه، عاش مائة وخمسين سنة، وقيل لم يقل شعراً بعد إسلامه وقال: (أبدلنى الله به القرآن) وقيل قال بيتاً واحداً وهو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه | والمرء يصلحه القرين الصالح

توفى سنة (٤١هـ - ٦٦١م).

ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يومًا: سر بنا نتفرج، فسارا، فبينما هما فى الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له، فنفرت دابته، فألقته على الأرض صريعًا، فأمر بضرب عنق ذلك الرجل، فقال يا أمير المؤمنين: إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور وهو عالم به، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ولأنت علىّ ما لم تفعل أقدر منى على رد ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعد علىّ ما قلت، فأعاده، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه؟ والنبى ﷺ يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسنه». والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلم هم المأمون بالانصراف قال الرجل يا أمير المؤمنين: بيتان قد حضرانى، ثم أنشد يقول:

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ... ولا عفا قط إلا وهو مقتدر

وكلما قصده زاد نائله ... كالنار يؤخذ منها وهى تستعر

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى فى حاجة دهرًا، فلم يوصل إليه، فكتب أربعة أسطر فى ورقة ودفعها للحاجب، فكان فى السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة، وفى السطر الثانى: الضرورة والأمل أقدمانى عليك، وفى السطر الثالث: الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء، وفى السطر الرابع: أما نعم فمثمرة، وأما لا فمريحة. فلما قرأها كسرى دفع له فى كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جارًا لابن عبيد الله، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد فى طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من الذى ينفق علينا؟ قال: إن لى على ابن عبيد الله دينًا ومعى به إشهاد عليه شرعى، فخذى الإشهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأت الأحمال محدجة ... والبين قد جمع المشكو والشاكى

من لى إذا غبت فى المحل قلت لها ... الله وابن عبيد الله مولاكى

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة، فقرأها، وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه.

وحكى أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة، ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه، فقال يا مطيع: إن شئت أعطيناك وإن شئت مدحناك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناء من أمير خير كسب ... لصاحب نعمة وأخى ثراء

ولكن الزمان برى عظامى ... وما لى كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدراهم من دواء. وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير. قال الشاعر:

هززتك لا إنى جعلتك ناسيًا ... لأمرى ولا إنى أردت التقاضيا

ولكن رأيت السيف من بعد سله ... إلى الهز محتاجًا وإن كان ماضيا

وقال آخر:

مـــاذا أقـــول إذا رجـــعـــت وقـــيـل لي ... مـــاذا لقـــيـت مـن الجـــواد الأفـــضل
إن قـلـت أعـطـانى كـــــذبـت وإن أقـل ... بـخل الجـــواد بمـالـه لـم يجـــمـل
فـاخـــتـر لنـفـسـك مـــا أقـول فـإننى ... لا بـد أخــبـــرهـم وإن لم أســـأل

وقال آخر:

لنـوائب الدنيـا خـبـأتك فـانتـبـه ... يـا نـائمًـا مـن جـمـلة النـوام
أعلـى الصـراط تـزيل لوعـة كـربـتى ... أم فـى المعـاد تجـود بـالأنعـام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب:

ذكر شيء مما جاء في ذم السؤال والنهي عنه: روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مـالك الأشجعى رضى الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أوسبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فبسطنا أيدينا وكنا حديثى عهد بالمبـايعة، فقلنا قد بايعناك يا رسـول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قـال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسر كلمة خفية وهى: ولا تسألوا الناس شيئًا، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهـم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه»، رواه مسلم. وقـال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء فـى وجهه، وكـان لقمـان يقول لولـده: يا بنى إياك والسؤال فـإنه يذهب ماء الحياء من الوجـه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لإن تدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنى قد نشأ فى الفقر. وقيل لأعرابى: ما السقم الذى لا يبرأ والجرح الذى لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم. وقال أبو محلم السعدى:

إذا رمـــاك الدهـر فى الضـيق فـانتـجع ... قـديم الغـنى فى النـاس إنك حـامـدهْ
ولا تـطلـبن الخـيـر ممن أفـــاده ... حـديـثًـا ومـن لا يورث المجـد والده

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفـواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه». قال الشاعر:

مـــا اعـتـــاض باذل وجـهـه بسـؤاله ... عـوضًـا ولو نـال الغـنى بسـؤال
وإذا الســؤال مـع النـوال وزنـتـه ... رجـح الســؤال وخـف كـل نـوال

وقال أحمد الأنبارى:

لموت الـفـتـى خـيـر مـن البـخل للغـنى ... وللبـخل خـيـر من سـؤال بـخـيـل
لعـمـرك مـا شىء لـوجـهك قـيـمـة ... فـلا تـلق إنـسـانًـا بـوجـه ذلـيـل

وقال سلم الخاسر:

إذا أذن الله فـى حـــاجـــة ... أتـاك الـنـجــاح عـلـى رسـلـه

فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفى هذا المعنى قيل:

لا تسألن من ابن آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقال محمود الوراق[1]:

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب

فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن ... ياذا الضراعة طالبًا من طالب

وقال ابن دقيق العيد:

وقائلة مات الكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشديد بنابه

فقلت لها من كان غاية قصده ... سؤالاً لمخلوق فليس بنابه

إذا مات من يرجى فمقصودنا الذى ... ترجينه باقٍ فلوذى ببابه

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرت لصحبى ما وجدتهمو ... لجأت لله لبانى وأغنانى

واهًا على بذل وجهى للورى سفهًا ... فلو بذلت إلى مولاى والانى

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلانًا حاجة أقل من قيمته، فردنى رد أقبح من خلقته. وسأل عروة مصعبًا حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيخًا يفزعون إليه وأنا أفزع منك. ويقال: لا شئ أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

بلوت بنى الدنيا فلم أر فيهم ... سوى من غدا والبخل ملء إهابه

فجردت من غمد القناعة صارمًا ... قطعت رجائى منهم بذبابه

فلا ذا يرانى واقفًا فى طريقه ... ولا ذا يرانى قاعدًا عند بابه

غنى بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشىء لا به

إذا ظالمًا يستحسن الظلم مذهبًا ... ولج عتوًا فى قبيح اكتسابه

فكله إلى صرف الليالى فإنها ... ستبدى له ما لم يكن فى حسابه

فكم قد رأينا ظالمًا متمردًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابه

فعما قليل وهو فى غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه

فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقى فى كتابه

---

(١) محمود الوراق: هو محمود بن الحسن الوراق البغدادى شاعر مجود أكثر من الشعر الحسن فى المواعظ والحكم، روى عنه (ابن أبى الدنيا) توفى نحو (٢٢٥هـ - ٨٤٠م)

وجوزى بالأمر الذى كان فاعلاً | وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر:

لا تسألن إلى صديق حاجة | فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشيء القليل فإنه | ما صان عرضك لا يقال قليل
من عف خف على الصديق لقاؤه | وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما فى كفه | ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر:

ليس جوداً أعطيته بسؤال | قد يهز السؤال غير جواد
إنما الجود ما أتاك ابتداء | لم تذق فيه ذلة الترداد

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موت البلى | إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا | أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه:

قنعت بالقوت من زمانى | وصنت نفسى عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا | فضل فلانٍ على فلان
من كنت عن ماله غنيّا | فلا أبالى إذا جفانى
ومن رآنى بعين نقصٍ | رأيته بالتى رآنى
ومن رآنى بعينٍ تم | رأيته كامل المعانى

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فسرها بعضهم بالهدية، وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا فإنهـا تجلب المحبة وتذهب الشحناء». وقال ﷺ: «الهـدية مشتركة». وقـال ﷺ: «من سألكم بالله فاعطوه ومن استعاذكم فأعيـذوه ومن أهدى إليكم كرعًا فاقبلوه». وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليـها ما هو خير منها. وفى الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قـدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجرًا. وقال الفضل ابن سهل: ما استرضى الغضبان، ولا استعطف الـسلطان، ولا سلبت السخائم ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقى المحذور بمثل الهدية. وأتى فـتح الموصلى بهدية وهى خمسون دينارًا فـقال: حدثنا عطاء، عن النبى ﷺ: أنه قال: «من أتاه الله رزقًا من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى». «وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر: فردها، فقال: يا عمر لم رددت هديتى؟ فقال رضى الله عنه: إنى سمعتك تـقول خيركم من لم يقبل شيئًا من الناس. فقال: يا عمـر إنما ذاك ما كان عن ظهر مـسألة، فأمـا إذا أتاك من غير مـسألة فإنما هو رزق ساقـه الله إليك». وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فـإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل الصدور». ويقال: فى نشر المهاداة طى المعاداة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها:

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانيـة أشياء متباينة فى يوم واحد. فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفـرس من ملك العرب، وجوهر من ملك الصـين، وإستبرق من ملك الروم، ودرة من مك الـبحر، وجرادة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض. فتأمل ذلك، وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فـقال المأمون: أهدوا له ما يكون ضعـفها مائة مـرة ليعلم عز الإسلام ونعمـة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها قال: مـا أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور. وقال: وكم فى الهدية من ذلك؟ قالو: مائتا رطل مسكًا ومائتا فروة سمور.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضـد بالله فى يوم نيروز فى سنة، اثنتين وثمانين ومائتـين هدية كان فيها عشـرون صينية ذهب فى عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة فى عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشى قيـمتها خمسة آلاف دينار، وعـملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفـقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد عـلى الله هدية فى بعض السنين من جملتها عشرة بازات منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقًا على عشر بغال فـيهم طرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنـسانًا ومائة رطب من مسك، ومائة رطل عود هندى، وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة إفرنجة وما والاها إلـى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين. خمـسين سيفًا وخمسـين رمحًا وعشرين منسـوجًا بالذهب، وعشرين خادمًـا صقليًا، وعشرين جـارية صقلية، وعشرة كـلاب كبار لا تطيقها الـسباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون فى كل سـاعة من سـاعات النهـار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظـرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صـياحًا منكرًا وصفقت بأجنحتها حـتى يعلم ذلك، وخرزًا يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمـارة وحشية عظيمة الخلقة فى قدر البغل، وآذانها شبه آذن البغل، وهى مخططة تخطيطًا عامًا لجميع خلقتها.

وأهدى قـسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله فى سـنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيـمتها على ثلاثين قنطارًا من الذهب الأحمر كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكى أن الخيزران[1] جارية المهدى كانت أديبة شاعرة، فعزم المهدى على شراب دواء، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال، وكتبت إليه تقول:

إذا خــرج الإمـــام مـن الـدواء ... وأعـقب بالـسلامـة والـشـفـاء
وأصلح حـالـه من بعـد شـرب ... بهـذا الجـام مـن هذا الطلاء
فـينعم للتي قـد أنفـذتـه ... إليـه بزورة بعـد العشـاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين. وأهدى الصابى إلى عضد الدولة[2] إسطرلابا فى يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدي إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجـان جـديد أنت تبليـه
لكن عبـدك إبراهيم حين رأي ... سمـو قـدرك عن شئ يدانيـه
لم يرض بالأرض يهـديها إليك وقد ... أهدي لك الفلك الأعلي بما فيـه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها بأن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرة أبو الهذيلى إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شئ بجمال أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التى أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية، ويذكرها. قال لشاعر:

وإن امـرأ أهدي إلـي صنيـعـة ... وذكـرنيـهـا مـرة للئـيم

وقال سفيان الثورى: إذا أردت أن تتزوج فاهد للأم. وكان سفيان يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثيابًا من ثياب مصر وعنده قوم، فذكروا الخبر، فقال: إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب أما فى ثياب مصر فلا. وكتب الحمدونى إلى جارية اسمها برهان. وقد حج مواليها، فقال:

حـجـوا مـواليك يا برهـان واعـتـمـروا ... وقـد أتتك الهـدايا من مـواليك
فـأطرفـيني بما قـد أطرفـوك به ... ولا تكـن طرفـتي غـيـر المساويك
ولست أقـبـل إلا مـا جلوت بـه ... ثنيـتـيـك ومـا رددت في فـيك

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تـفـضـل بالـقـبـول علـيَّ إنـي ... بعـثت بما يقـل العـبـد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية فى يوم نيروز، وكتب إليه يقول: هذا يوم سجرت فيه العادة بالطاف العبيد للسادة، وقدر الأمير يجل عما تحيط به المقدرة، وفى مؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة، وقد وجهت ما حضر علمًا بأنه لا يستكثر ما جل ولا يستقل لعبده ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطوله بإهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيت كـثـيـر مـا يهـدى إليكم ... قليـلا فـاقـتـصـرت على الدعـاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم ولى المظالم، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذى ولى علينا من يعرف حقوقنا، فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه، فقال: حدثنى خيثمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» وقال الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها، الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الخيزران: هى الخيزران بنت عطاء كانت من جوارى المهدى وأعتقها وتزوجها فولدت له المهدى والرشيد وهى ملكة حازمة متفقهة يمانية الأصل تلقت الفقه عن الإمام الأوزاعى، ولعبت دوراً عظيمًا فى خلافة ولدها الهادى وشاركته فى شئون الدولة توفت سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩م).

فى العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل: فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قل». وقال على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه: قليل مدام عليه خير من كثير مملول. وفى التوراة: حرك يدك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن أدهم يسقى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلى بالليل. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ما ينفى عنى حجة العلم؟ قال: العمل. وعنه ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى». وقال الأوزاعى: إذا أراد الله بقوم سوءًا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل. وأنشد يقول:

ومن المرء إلا حيث يجعل نفسه ... ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شئ أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عظنى. فقال له الولى: بلغنى رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك. فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه. وقيل: من جد وجد، وأنشدوا فى المعنى:

إنى رأيت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد فى أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وتقول العرب: فلان وثاب على الغرض، وقال بعضهم:

وإنى إذا باشرت أمرًا أريده ... تدانت أقاصيه وهان أشده

وعن أنس رضى الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث. يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعى الأركان إلى الله، والنية سعى القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، هذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. أى دروع من الحديد، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه فى أمر داود، فإذا سمعه عابه بشئ يصلحه من نفسه، فسمع يومًا من يقول: إنى لا أجد فى داود عيبًا إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام فى محرابه وتضرع بين يدى الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع، فاحترفها واستعان بها على أمره وسار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ: «وجعل رزقى تحت ظل رمحى فكانت حرفته الجهاد وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف» وقال ﷺ «إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام: «من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة. ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئًا وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده إن الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «من بات كالاً فى طلب الحلال أصبح مغفورًا له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إن ها هنا أقوامًا يقولون نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة. وقال أيضًا: إنى لأرى الرجل فيعجبنى، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عينى، واشترى سليمان وسقًا من طعام وهو ستون صاعًا فقيل له فى ذلك فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، قال بعضهم فى السعى:

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيح

وقيل: إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر[1]، وكان الناس إنما يزنون بالشاهينى. وعن أنس رضى الله عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: سعر لنا، فقال: إن الله الخالق القابض المسعر الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال».

وأما ما جاء فى العجز والتوانى: فقد روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال: من أطاع التوانى ضيع الحقوق، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه.

قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ... ويقضى إله الخلق ما كان قاضيًا

ومثله قوله:

على المرء أن يسعى ويبذل نفعه ... وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمده من جزعه وعوده قلة الصبر. ونساه ما فى العواقب، وليس للعجز ضد إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأمانى ومن التوفيق بغض التوانى: وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا فى طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح». وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس، وقال على رضى الله تعالى عنه: التوانى مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة والتوانى هلكة والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف. وقيل: من العجز والتوانى تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأن التوانى أنكح العجز بنته ... وساق إليها حين زوجها مهرًا

فراشًا وطيئًا ثم قال لها اتكى ... فإنكما لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ... ولا ترغبن فى العجز يومًا عن الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضى الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السختيانى يقول: يا فتيان احترفوا فإنى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعنى الأمراء. وقال رجل للحسن: إنى أنشر مصحفى فاقرؤه بالنهار كله، فقال: اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك وما لا بد منه. ومر رحمه الله تعالى بإسكاف، فقال يا هذا: اعمل وكل، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

---

(١) عبد الله بن عامر: هو عبد الله بن عامر كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف يكنى أبا عبد الرحمن، وأمه دجاجة بنت أسماء بن الصلت، ولد بمكة بعد الهجرة بأربع سنين ولما شب ولاه عثمان بن عفان البصرة، وكان رجلاً سخيًا شجاعًا، وصولاً لقومه فتحت على عهده سجستان صلحًا وأرض الدوار وغزا أرض البارز وقلاع فارس وافتتح جُور والكاريان الفنسجان وهما من دار ابجرد، ثم تاقت نفسه إلى خراسان ففتحها وفتح أبو شهر عنوة وغيرها، وهو أول من لبس الخز بالبصرة، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء فذلك قائم إلى اليوم، توفى قبل معاوية بسنة وذلك سنة (٥٩هـ).

أعــاذلتى مــا أحــسن الــليل مــركــبًــا ... وأحــســن منه فى الملمــات راكــبــه
ذرينى وأهوال الــزمــان أقــاسـهــا ... فــأهوالــه العظمى تليــهــا رغــائبــه
أرى عــاجــزًا يدعى جــليــدًا لــقــســمــه ... ولو كــلف التــقــوى لــكلت مــضــاربه
وعــفًــا يــسمى عــاجــزًا بعــفــافــه ... ولولا التــقــوى مــاأعــجــزته مــذاهبــه
ولــيس بــعــجــز المرء أخطأه الــغنى ... ولا باحــتــيــالٍ أدرك المال كــاسبــه

وقال آخر:

فــلا تــركن إلــى كــسل وعــجــز ... يحــيل علــى المقــادر والقــضــاء

وقال أعرابى: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم، فيمثل له التوانى فى صورة التوكل، ويريه الهوينا بإحالته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بنى إياك والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقًا وإذا ضجرت لم تصبر على حق. وقال أبو العتاهية:

إذا وضــع الراعــى عــلــى الأرض صــدره ... فــحــق على المعــزى أن تــتــبــددا

فالتوانى: هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير، وهذا من أقبح الأفعال.

وأما التأنى: فإنه خلاف التوانى، وهو الرفق ورفض العجلة والنظر فى العواقب. وقد قيل: من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئًا إلا زانه، ولا يفارق شيئًا إلا شانه». وفى التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: العقل أصله التثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوبًا: التأنى فيما يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة فى إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا: يد الرفق تجنى ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة، وأنشدوا فى ذلك:

قــد يدرك المتــأنى بعــض حــاجــتــه ... وقــد يــكون مع المســتــعــجل الــزلل

وقالوا: التأنى حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأنى: فبما يدرك؟. وقال المهلب: أناة فى عواقبها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت. وقالوا: من تأنى نال ما تمنى. والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روى عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعلف ناضحه. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطًا. وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطًا. ووقف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على خياط، فقال له: يا خياط نكلتك النواكل، صلّب الخيط ودقق الدروز، وقارب الغروز، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه، واحذر السقاطات، فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة». وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع. وفى الحديث: «أكذب أمتى الصواغون الصباغون وكذب الدلال مثل». وقالوا: لكل أحد رأس مال ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبل سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«التجار هم الفجار، فقيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع؟ قال: نعم. ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحنثون». وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما هلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ونقصوا الكيل والميزان.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]. قيل: هم الحاكة والأساكفة. وقيل: إن حائكًا سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفًا ما الذى يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم، ثم قال: يتصدق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا. قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كل منا ينسج لنفسه في بيته. وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادمته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا الحاكة، فإن الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياكين، فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق، فقالت نزع الله البركة من كسبكم، وقال أبو العتاهية[1]:

ألا إنما التقوي هي العز والكرم ... وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقي نقيصة ... إذا صحح التقوي وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب. والله الموفق للصواب، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق المعروف بأبي العتاهية، مولده بعين التمر، موقعها بالحجاز قرب المدينة، ومنشأة الكوفة ثم سكن بغداد، لقب بأبي العتاهية، لاضطراب كان فيه، وقيل كان يحب للمجون والخلاعة وأكثر شعره حكم وأمثال، وكان سهل القول، بعيد عن التكلف، مولده سنة (١٣٠هـ) مات ببغداد سنة (٢١١هـ) انظر «تاريخ بغداد» للخطيب (٦/ ٢٥٠) ترجمة (٣٢٨٨).

في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ» وكان معاوية رضى الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق، فجاء أعرابى فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فقال ﷺ: «إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكى عن شيخ من همدان قال: بعثني أعلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف الشرافة من كوة، فخر له من حول القصر سجدًا، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحمًا، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الأبيات:

أف للدنيا إذا كانت كذا ... أنا منها في بلاءٍ وأذي

إن صفا عيش امرئ في صبحها ... جرعته ممسيًا كأس الردي

ولقد كنت إذا ما قيل من ... أنعم العالم عيشًا قيل ذا

وقال يونس بن ميسرة[(١)]: لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك:

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه

ومثله:

وما مر يوم أرتجي فيه راحة ... فأخبره إلا بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابى:

عن الأيام عد فعن قليل ... تري الأيام في صور الليالي

وقال رضى الله عنه: ما قال الناس لشئ طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعهد

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غارًا، فوجد فيه رجلاً ميتًا وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمرى إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم فى رغيف فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها فمت مكانى، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما أماتنى. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق فى كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة فى يوم شات وهو جالس فى قبة مغشاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود. ثم رأيته بعد ذلك فى رأس الجسر وهو يسأل الناس.

---

(١) يونس بن ميسرة: هو يونس بن ميسرة بن حليس أبو عبيد وأبو حلبس الجيلانى الأعمى عالم دمشق طال عمره، حدث عن معاوية وعبد الله بن عمرو، روى عنه الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز، كان يقرىء القرآن فى الجامع وله كلام نافع فى الزهد والمعرفة قتل شهيدًا سنة (١٣٢هـ).

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد[1] ونزل في داره وقعد على فرشه. دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهراً أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار تأوي كل ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز، فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

وقال أبو العتاهية:

لئن كنت في الدنيا بصيراً فإنما ... بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

وقال عبد الملك بن عمير[2]: رأيت رأس الحسين رضى الله عنه بين يدى ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدى المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدى مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدى عبد الملك، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

وقال الشاعر:

إن للدهر صرعة فاحذرها ... لا تبيتن قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافي فيردى ... ولقد كان آمنًا مسروراً

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر[3] في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضى الله تعالى عنه:

تاه الأعيرج واستعلى به البطر ... فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السِّير خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير طهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا رحم المهيمن نفس حر ... تصدق بالوفاء على أخيه

قال: فرثى له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا. ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذى كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

---

(١) مروان محمد: هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموى آخر خلفاء بنى أمية، عرف بمروان الجعدى وبمروان الحمار، لأنه قيل: أصبر في الحرب من حمار، وكان بطلاً مقداماً داهية، جباراً، دوخ الخوارج بالجزيرة ولد بالجزيرة سنة (٧٢هـ) وقتل سنة (١٣٢هـ) وعمره يناهز تسع وخمسون سنة قتله عامر بن إسماعيل أحد بنى الحارث بن كعب، وبعث برأسه إلى العباس بالحيرة.

(٢) عبد الملك بن عمير: هو عبد الملك بن عمير بن سويد بن جارية القرشي، ويقال: اللخمى أبو عمرو ويقال: أبو عمر الكوفي المعروف بالقطبى، رأى على بن أبي طالب، وأبا موسى الأشعرى، وهو صالح الحديث، روى أكثر من مائة حديث، وهو ثقة في الحديث توفى سنة (١٣٦هـ).

(٣) محمد بن عبد الله: هو محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى الخراسانى الأمير أبو العباس، كان رئيساً محتشماً، جواداً، ممدّحاً، أديباً شاعراً من أهل الإمرة والتقدم، ولاه المتوكل على الله إمرة بغداد، وعظم سلطانه في دولة المعتز بالله. ولد سنة (٢٠٩هـ -٨٢٤م) وتوفى بمرض الخوانيق سنة (٢٥٣ هـ- ٨٦٧م).

ألا قل للوزير فديته نفسي | مقال مذكّر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش | ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر له بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعته: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثم قلده عملاً يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أى الزمان أدركته أفضل، وأى الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذامًا، وأما الزمان فيرفع أقوامًا ويضع آخرين، وكلهم يذكر أن يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبك من زمن لم أرض خلته | إلا بكيت عليه حين ينصرم

وقال آخر

يا معرضًا عني بوجه مدبر | ووجوه دنياه عليه مقبلة
هل بعد حالك هذه من حالة | أو غاية إلا انحطاط المنزلة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير(١):

ذهب الذين إذا رأونى مقبلاً | بشوا إلىّ ورحبوا بالمقبل
وبقيت فى خلف كان حديثهم | ولغ الكلاب تهارشت فى المنزل

وقال آخر فى معناه:

يا منزلاً عبث الزمان بأهله | فأبادهم بتفرق لايجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة | كان الزمان بهم يضر وينفع
أيام لا يغشي لذكرك مربع | إلا وفيه للمكارم مرتع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم | وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى(٢):

وإنى رأيت الدهر منذ صحبته | محاسنه مقرونة ومعايبه
إذا سرني في أول الأمر لم أزل | على حذر من أن تذمّ عواقبه

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم | والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزيّن بعضه | بعضًا ليدفع معورٌ عن معور
حلف الزمان ليأتين بمثلهم | حنثت يمينك يا زمان فكفر

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتى الخير، وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا، والشر إلا إقبالاً والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعًا، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرًا، أو غنيًا

(١) عبد الله بن عروة: هو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى، أبو بكر المدنى وأمه فاختة بنت الأسود أبى البخترى، روى عن الحسن بن على بن أبى طالب، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب، وروى له الجماعة سوى أبو داود.

(٢) إسحاق بن إبراهيم: هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمى الموصلى أبو محمد، صاحب الموسيقى والشعر الرائق، والتصانيف الأدبية مع الفقه واللغة، ولد سنة بضع وخمسين ومائة وتوفى سنة (٢٣٥هـ).

بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وقراً، أو متمرداً كان بسمعه عن سماع المواعظ وقراً. وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه».

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل. بيت:

ما من مسيءٍ وإن طالت إساءته ... إلا ويكفيك يوم من مساويه

وقال الأمين:

يا نفس قد حُقَّ الحذر ... أين المفر من القدر
كل امرئ مما يخا ... ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزما ... ن يغص يوماً بالكدر

وقال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت ... محاسنه والجسم بان شحوبه
فقلت لها هاتي من الناس واحداً ... صفا وقته والنائبات تنوبه

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمر غيره ... ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً ... لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كل ما يبكي العيون أقله ... وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وأيم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرّد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمان به فساد ... وهم فسدوا وما فسد الزمان

وكفى بالقرآن واعظاً. قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني: في الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على التثبت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] . وقوله تعالى ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقوله تعالى ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر». وقوله ﷺ: «بالصبر يتوقع الفرج». وقوله: «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد. وفات المستعجل غرضه أو كاد». وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يؤمله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط». رواه الترمذى، وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبى ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: احفظوا عنى خمسًا. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحى أحد منكم إذا سئل عن شئ وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد وإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلمًا، فمات فى حبسه مات شهيداً فإن ضربه فمات، فهو شهيد».

وروى فى الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يا رسول الله: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، أليس تمرض، أليس يصيبك الأذى، أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به يعنى جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك، وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفى محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به. فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبى ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة رضى الله عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته فقال: اللهم عليك بأبى جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأمية بن خلف، فقال على رضى الله عنه: والذى بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر». وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء فى الرخاء».

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت وردت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق، ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه، فسعى فى إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبارنى إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، فقال: لقد آذاك من سرقها. قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك فى بيضها. قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل للملك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل فى ذلك من المنظوم:

وإذا مسك الزمان بضر	عظمت دونه الخطوب وجلت
وأتت بعده نوائب أخرى	سئمت نفسك الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني	فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنت قواك وجلت	كشفت عنك جملة وتخلت

ولمحمد بن بشر الشارجي:

إن الأمور إذا استدت مسالكها   فالصبر يفتح منها كل ما رتجا
لا تيأس وإن طالت مطالبه   إذا استعنت بصبر أن ترى فرجًا

ولزهير بن أبي سلمى[(1)]:

ثلاث يعز الصبر عند حلولها   ويذهل عنها عقل كل لبيب
خروج اضطرار من بلاد يحبها   وفرقة إخوانٍ وفقد حبيب

وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلد للعدا   ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضرًا   ويطرح في البيدا إذا ما تغيرا

ولابن نباتة:

صبرًا على نوب الزما   ن وإن أبى القلب الجريح
فلكل شيء آخر   إما جميل أو قبيح

وقال أبو الأسود[(2)] وأجاد:

وإن امرؤٌ قد جرب الدهر لم يخف   تقلب عصريه لغير لبيب
وما الدهر والأيام إلا كما ترى   رزية مال أو فراق حبيب

ومن كلام الحكماء: ما جوهد الهوى بمثل الرأى، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسب البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:

ويوم كأن المصطلين بحره   وإن لم يكن نارٌ قيامٌ على الجمر
صبرنا له صبرًا جميلاً وإنما   تفرَّج أبواب الكريهة بالصبر

قال ابن طاهر:

حذرتني وذا الحذر   ليس يغني من القدر
ليس من يكتم الهوى   مثل من باح واشتهر
إنما يعرف الهوى   من على مره صبر
نفس يا نفس فاصبري   فاز بالصبر من صبر

وكان يقال: من تبصر تصبر. وكان يقال: إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر. ولله در القائل:

الدهر أدَّبني والصبر رباني   والفوت أقنعني واليأس أغناني
وحنكتني من الأيام تجربة   حتى نهيت الذى قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إنني رأيت الصبر خير معول   في النائبات لمن أراد معولاً
ورأيت أسباب القناعة أُكِّدت   بعرى الغنى فجعلتها لي معقلاً
فإذا نبا بي منزل جاوزته   وجعلت منه غيره لي منزلاً
وإذا غلا شيء علي تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

---

(1) سبق ترجمته.

(2) أبو الأسود ظالم بن عمرو: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدِّيل بن بكر الديلى، ويقال الدؤلى؛ وفي اسمه ونسبه ونسبته اختلاف كثير، صحب علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو بصرى، كان من أكمل الرجال رأيًا وأسدّهم عقلاً، ثقة، كان أول من تكلم في النحو، ولد في أيام النبوة، وأسلم في حياة النبي ﷺ وتوفي سنة تسع وستين في طاعون الجارف الذى وقع بالبصرة.

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة ... فافرغ لها صبراً ووسِّع لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيوماً ترى يسراً ويوماً ترى عسرا

وقال بعضهم:

وما مسّنى عسرٌ ففوّضت أمره ... إلى الملك الجبّار إلاّ تيسّرا

وما أحسن ما قيل:

الدهر لايبقى على حاله ... لابدّ أن يقبلَ أو يدبر
فإن تلقاك بمكروهة ... فاصبْر فإنَّ الدهر لايصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همى وكادت نفسى أن تزهق وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علىَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الصبر ستر للكروب وعون على الخطوب». وروى عن ابن عمه على رضى الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لاتدبر وسيف لايكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر فى الدنيا وأجمله ... عند الإله وأنجاه من الجزع
من شدَّ بالصبر كفّا عند مؤلمة ... ألوت يداه بحبلٍ غير منقطع

فقلت له: بالله عليك زدنى، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرنى شىء عن النبى ﷺ ولكنى أقول:

أما والذى لايعلم الغيب غيره ... ومن ليس فى كلِّ الأمور له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مرّاً مذاقه ... لقد يجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة، ثم أُخرجت فى ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع فى نفسى أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لى يوقظنى ويؤدبنى ويسلينى. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط ويجلد جلداً بليغاً، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لِمَ لاتصيح؟ فقال: إن فى هذا القوم الذين وقفوا علىَّ صديقاً لى يعتقد فىَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبنى بعينه، فأخشى إن ضججت يذهب ماء وجهى عنده ويسوء ظنه بى، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتى خطوبهُ ... ويحمد منه الصَّبر مما يصيبه
فمنْ قلّ فيما يلتقيه اصطباره ... لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكلفنى إلا ما كلفوا به، فقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وإنى والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبى ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضى الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ويقال: ما الذى صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولى العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه.

أما نوح عليه الصلاة والسلام: فقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة يُضرب ثم يُلف

فى لبد ويُلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بنى انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولايغرّك، فقال له ابنه: يا أبت مكّنى من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم، وإلا فصبرنى إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٦، ٣٧]. قال: يارب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتى وأغرق أهل معصيتى، قال: يارب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير، قال: يارب، وأين الخشب، قال: اغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم وكفّوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبى على من عصانى، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا من آمن معه. وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعاً، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام. وفى تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فإنه لما كسر أصنام قومه التى كانوا يعبدونها، لم يروا فى قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً فى سفح جبل عال ونادى مناد ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوى رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقيل كان عمره يومئذ ست وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى. فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذباً، قال كعب: ما أحرقت النار غير كتافه، وأقام فى ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى فى ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءته قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال، وقصته مشهورة، وتفاصيل القصة فى كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه وسبادرته إلى طاعة مولاه وصبره على ما قدره وقضاه عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه، وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه، فإنه صبر على بلية الذبح.

وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إنى أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والحبل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرنى بذبحك، فانظر ماذا ترى، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]، يا أبت اشدد وثاقى كى لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لايصل إليها رشاش الدم فتراه أمى فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىّ وإذا لقيت أمى، فاقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكى ويقول: نعمَ العون أنت يابنى على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين،

فقال يا أبت: اطعن بها طعناً. وقال السدى: جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لاتعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتثاله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام: فإنه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: فصبر جميل. وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه فى ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك فى الدنيا مع ملك النبوة فى الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له فى مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لأطيلن بلاءك، فقال إبليس لعنه الله: يارب سلطنى على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفوها فى البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلى، فتمثل له فى صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيوب أنت تصلى ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع فى البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذى أعطانى ذلك كله، ثم قبله منى. ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً، فقال: يارب سلطنى على جسده، فسلطه، فنفخ فى إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقى أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً فى صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمى فيبرأ، فجاءته، فأخبرته، فقال لها: إن شفانى الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة. تأمرينى أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقى. ليس له من يقوم به، فلما رأى أنه لاطعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خر ساجداً لله تعالى وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طوّل هذه المدة وهى على ما قيل ثمانى عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بألطافه عليه، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه فى يمينه تحلة قسمه، ومدحه فى نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]. فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم وسمّاهم بسبب صبرهم أولى العزم، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم. وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهى الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه صبراً وأجراً، والشقى من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة، وأتحف النفع فى نهج هذه العبارة، ما روى عن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: أكتم على أمرى، حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت فى أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معى، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقى،

فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني فقلت: إلهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتني غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قُم.فصلّ ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالمنزل الأدنى، تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثني، وفكّ أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقمت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت، فقمت، فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبري فرجاً، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعني وانصرف يقصد الحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، ياداود من صبر علينا وصل إلينا، وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذا رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يامن ألحّ عليه الهمّ والفكر ... وغيّرت حاله الأيام والغِير
أما سمعت لما قيل في مثلٍ ... عند الأياس فأين الله والقدر
ثمّ الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا
وكلّ ضيقٍ سيأتي بعده سعةٌ ... وكلّ فوتٍ وشيكٌ بعده الظفر

ولما حُبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فرد عليه جواب رقعته يقول:

صبراً أبا أيوب صبرَ مُبرَّحٍ ... وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إنّ الذي عقد الذي انعقدتْ به ... عقد المكاره فيك يملك حلّها
صبراً فإن الصبر يعقب راحةً ... ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي بل لا أقول لعلّها
ويحلّها من كان صاحب عقدها ... كرماً به إذ كان يملك حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً:

وأنشدوا:

إذا ابتليت فثقْ بالله وارضَ به ... إنّ الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لاتيأسنّ فإنّ الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... فما ترى حيلةٌ فيما قضى الله

الفصل الثالث: من هذا الباب: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى عليه: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وقيل: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لابد أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلٌ أهون من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح. وقال العتبي: إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لاترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكي.

وقيل: تزوج مغن بنائحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا فى الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفى ذلك، فإن كان فرح دعونى، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه[1]: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. وقال مطرف: ما نزل بى مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرته. وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لايترك له مالا ولا ولداً». ومر موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عز وجلّ قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجباً، فقال: أى رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه إنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلى، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظماً، فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقّداً، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمى له المنشار، وقطعت رجله، فقال ضعوها بين يدى ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى، ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالى، فعرسنا فى بطن واد، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير وبعير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصبى، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهى برجليه، فذهبت عيناى، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث الممضة[2] مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة. قال البحترى: يسلى محمد بن يوسف على حبسه:

وما هذه الأيام إلا منازل ... فمن منزل رحب إلى ضنك
وقد دهمتك الحادثات وإنما ... صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّبك
أما فى نبى الله يوسف أسوةٌ ... لمثلك محبوسٌ عن الظلم والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهةً ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وقال على بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى ... حبسى وأى مهند لايغمد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار فى أحجارها مخبوءةٌ ... لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والحبس ما لم تغشه لدنيّة ... شنعاءَ نعم المنزل المتودّد
بيتٌ يُجدد للكريم كرامةً ... ويُزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن فى الحبس إلاّ أنه ... لاتستذلك بالحجاب الأعبد

---

(١) وهب بن منبه: هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذى كبار، أبو عبد الله الأبناوى اليمانى الذمارى الصنعانى، ولد فى زمن (عثمان بن عفان) سنة (٣٤هـ)، توفى سنة (١١٤هـ) وقيل سنة (١١٣هـ).

(٢) الممضى: وجع المصيبة.

غـرّ الـليـالي باديـاتٌ عُـوّدٌ ... والمـال عـاريـةٌ يعـار وينـفـد

ولكـل حيٍّ معـقـبٌ ولـربمـا ... أجلى لك المكـروه عـمّـا يحـمـد

لاييـئسنك من تفـرّج نكـبـةٍ ... خـطبٌ رمـاك بـه الـزمـان الأنكـد

كـم من عـليلٍ قـد تخـطّاه الـردى ... فنجـا ومـات طبـيـبـه والـعـوّد

صـبـراً فـإن اليـوم يـعـقـبـه غـدٌ ... ويـد الخـلافـة لاتطـاولهـا يـد

قال وأنشد إسحاق الموصلى فى إبراهيم بن المهدى حين حبس:

هى المـقـادير تجـرى فـى أعنّتـهـا ... فـاصـبـر فليس لهـا صـبـرٌ على حـال

يومـاً تريك خـسـيس الأصل تـرفـعـه ... إلى الـعـلاء ويومـاً تـخـفض العـالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضى الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل:

ليـهن أبا إسـحـاق أسـبـاب نعـمـةٍ ... مـسـجـددةٍ بـالعـزل والعـزل أنـبلُ

شـهـدت لـقـد منّوا عـليك وأحـسـنوا ... لأنـك يوم الـعـزل أعـلى وأفـضـل

وقال آخر:

قـد زاد ملك سـليـمـان فـعـاوده ... والشـمس تـنحـطُّ فى المجـرى وترتـفع

وقال أبو بكر الخوارمى[1] لمعزول: الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال، وعافى فى الكبير وهوالحال:

ولا عـار إن زالـت عن الحـر نعـمـةٌ ... ولـكنّ عـاراً أنْ يـزول التـجـمُّـل

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظل يتحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته؟ فقال: عولت على أربعة أشياء: أولها أنى قلت القضاء والقدر لابد من جريانهما، والثانى: أنى قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أنى قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أنى قلت لعل الفرج قريب، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أبو بكر الخوارزمى: هو محمد بن موسى بن محمد أبو بكر الخوارزمى، البغدادى، إمام الحنفية، توفى فى جمادى الأولى سنة (٤٠٣هـ).

ما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة

والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ⑦﴾ [الطلاق: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ㉘﴾ [الشورى: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]. ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء». وقال على رضي الله عنه، عن النبي: «أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى». وقال الحسن: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥﴾ [الشرح: ٥، ٦]، قال النبي ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوبُ ... وضاقت بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في مكامنها الخطوب
ولم نر لانكشاف الضرِّ وجهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يمن به اللطيف المستجيبُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريب
فيأمن خائف ويغاث عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب

وقال آخر:

تصبَّر أيها العبد اللبيب ... لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنّها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صدّع البين المشتّت شملنا ... فللبين حكمٌ في الجموع صدوع
وللنجم من بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمةٌ زالت عن الحرِّ وانقضت ... فإنَّ بها بعد الزوال رجوع
فكن واثقاً بالله واصبْر لحكمه ... فإن زوال الشر عنك سريع

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن اخرج الحسن بن الحسن بن

على من السجن وكان محبوساً واضربه فى مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال: يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلى العظيم، سبحان رب السموات.ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه فى سجنه مظلوماً أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين فى أمره، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى.

وقال الربيع لما حبس المهدى موسى بن جعفر، رأى فى المنام علياً رضى الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد: ٢٢] ، قال الربيع، فأرسل المهدى إلىَّ ليلاً فراعنى ذلك، فجئته، فإذاهو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقص علىَّ الرؤيا ثم قال: ائتنى بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ علىَّ كذا فعاهدنى أن لاتخرج علىَّ ولا على أحد من ولدى، فقال: والله ماذاك من شأنى، فقال: صدقت، ثم قال: ياربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا على الطريق، وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرٍّ وإن طالت بليتُهُ ... يوماً تفرج غمَّاه وتنكشفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلى فمربى إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى درهم بل كان عندى زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتى لبعض معارفى فباعهما بتسعةدراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لى كتابا وقال هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا، فأدخلته إلى دارى وزدت فى الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا نأكل ثم وهبت لضيفى شيئاً يشترى به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه فى الحمام، فلما خرج استؤذن لى عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسى وبيده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذى اقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدرى لم أحضرتك؟ قلت: لا أدرى، قال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لى: يايزيد من القائل فيك هذه الأبيات:

سلَّ الخليفة سيفاً من بنى مضر ... يمضى فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لاينثنى عمَّا يهمُّ به ... قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

فقلت والله لا أدرى يا أمير المؤمنين، فقال سبحان الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله؟ فسألت فقيل لى هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فرد علىَّ السلام فأنشدته ما لى فيه من شعر، فأمرلى بمائتى ألف درهم وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل:

الأمن والخوف أيامٌ مداولةٌ ... بين الأنام وبعد الضيقِ تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبى مسلم فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم أفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم وشدد فى طلبه فأتى به إليه فى شهر رمضان عند المغرب وكان فى يد يزيد بن أبى مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال:نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكننى منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرنى منك، فقال: والله ما أجارك ولا أعادك، وإن سبقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكُتِّف ووضع فى النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلى، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه

ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول اطلق القاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادعى عليه بالقتل وأقر به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له إن صدقتني أطلقتك، فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوزة غرتني وقالت إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم فيّ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد عليّ واحد من الجماعة، وقال: لابد منها وقاتلني فقتلته، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدي فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمري، فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبداً. وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرني إلى غد، قال: وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج في السجن يقول:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلّ يوم في خليقته أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]. وأمر بإطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتمد، كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لاتبرحوا حتى أغفى سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعا مرعوباً وقال: امضوا إلى السجن واتوني بمنصور الجمال فجاءوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال: سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق عليّ الكسب ببلدي فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريف فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول اطلق منصوراً الجمال من السجن وأحسن إليه، وأخذ الطاعون أهل بيت فسد بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايق أمرٌ فانتظرْ فرجاً ... فأضيق الأمرِ أدناه إلى الفرج

وقال آخر:

فلا تجزعنْ إن أظلم الدهر مرّةً ... فإنّ اعتكارَ الليل يؤذن بالفجرِ

وقال آخر:

لعمرك ما كلّ التعاطيل ضائر ... ولا كلّ شغلٍ فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى ... عليك سواءٌ فاغتنمْ لذّة الدعه
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... الا ربَّ ضيقٍ في عواقبه سعه

وقال الرياشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والغِيَر ... وأمر الله يُنتظر
أتيأس أن ترى فرجاً ... فأين الله والقدر

إلا سرّى عنى وهبت ريحُ الفرج.

ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتونى بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة وعيحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا فى جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله يا الله يا غياث المستغيثين، يكررها مراراً، فلما استقر صوته فى أسماعنا، ناديناه: لبيك، لبيك، وهو ينادى يا الله، يا الله، يا غياث المستغيثين فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً فى آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً وأرقه فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة، فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سيدى أبوبكر الطرطوشى فى كتابه (سراج الملوك) قال: أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث فى حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه فى الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: اعطنى بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها فى طبقه وأراد أن يمضى فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال سمعاً وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لاتجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعى لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية فضاع لى هميان فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لى غيرها من المال، ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشترى بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب، فقلت فى نفسى: أشترى بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى استفضل شيئاً أسد به رمق أهلى ويبقى رأس المال أتكسب به، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم، فهذا الذى أوجب جزعى، قال أبو حفص وكان رجل ضد الجند جالساً إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص: يا سيدى أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى، فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندى: وكنت فى تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال: وما علامة الهميان وأى موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندى: إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندى له همياناً ووضعه بين يديه فحين رآه صاح وقال: هذا هميانى والله وعلامة صحةقولى أن فيه من الفصوص ما كيت وكيت، ففتح الهيمان فوجده كما ذكر فقال الجندى: خذ مالك بارك الله لك فيه، فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حل منها ونفسى طيبة بذلك، فقال الجندى ما كنت لآخذ على أمانتى مالاً، وأبى أن يأخذ شيئاً ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء، اللهم اغن فقرنا ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكى أن الملك ناصرالدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ولم يجدوا له شفاء، فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان فى بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذى فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرئ أحسن

ما كان، ويضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لاتقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجاً عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخر عليه الحائط فمات لوقته. وقال: وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك عليّ، فقال له الرجل: وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشترى ما نحتاج إليه، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد السيرفي المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكرّ الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً، فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهاراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً فاستحى أن يدخلها نهاراً فتشمت به الأعداء- نعوذ بالله من شماتتهم- وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له من هذا قال فلان يعني نفسه، فأظهروا له سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة، والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنفساء، فائتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا، فلما سمع ذلك ازداد غماً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان ثَمَّه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعرفه فأجابه، وشكر الله على سلامته، فقال له افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال: ياعدو الله ائتنى بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمتك متعدياً وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا غيرك فما هذا الكلام، قال: هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي، فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد عليّ بعد العشاء واشترى مني عشاءه وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً، فقال مالك؟ قال: أين مالي ياخائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة، قال فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود. فسبحان من لايخيب من قصده ولا ينسى من ذكره.

(ولنلحق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في التهنئة والبشائر)

كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبراً استبشر به: سمعت عنك خبراً ساراً كتب فى الألواح وامتزج بالأرواح، وعد فى جملة البشائر العظام، وجرى فى العروق وتمشى فى العظام. وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع وكان يقول له: إنى لأرى فيك آثارالخلافة ولا تموت حتى تليها، فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق فلما ولى أتاه فقام بين الصفين،وقال يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملائكته وبارك لك فيما ولاك ورعاك فيما استرعاك وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات:

وإن الدر زاد حسن وجوه	كان للدرّ حسن وجهك زينا
وتزيدنّ أطيب الطيب طيبا	إن تمسّه أين مثلك أينا

ودخل على المهدى أعرابى فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها. قال: أتانى آت فى منامى فقال: ائت أمير المومنين فأبلغه هذه الأبيات:

لكم أرث الخلافة من قريش	تُزَفُّ إليكمو أبداً عروسا
إلى هرون تُهدى بعد موسى	تميس وما لها أن لا تميسا

فقال المهدى يا غلام: عليَّ بالجواهر، فحشا فاه حتى كاد ينشق، ثم قال: اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى بخانق صبياننا.

وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة:

ألم تر أنَّ الشمس كانت مريضةً	فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبّست الدنيا جمالاً بملكه	فهارون واليها ويحيى وزيرها

وغناه بهما من وراء الحجاب، فوصله بمائة ألف دينار ويحيى بخمسين ألفاً. ودخل عطاء بن أبى صيفى على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية، فقال: رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية. ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقة، فإذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً وهى تقول: لا والذى أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال: قد خلص الله عمر بن هبيرة، فطيبى نفساً وقرى عيناً. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان

الفصل الأول: فى مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيراً

عن على رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة رضى الله تعالى عنها، اشترى لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضى بذلك فعلت، فسئل زيد فقال: ذلك الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم: عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى. وعن ابن مسعود الأنصارى قال: ضربت غلامًا لى فسمعت من خلفى صوتًا: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه». فالتفت فإذا هو النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار.

وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: حدثنى أبو القاسم نبى التوبة ﷺ: «من قذف مملوكه وهو برئ مما قال جلد له يوم القيامة حدًا». وقيل: أراد رجل بيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت منى ما أخرجتك من يدى، فأعتقها وتزوجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشًا لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، على ابن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضى الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادى عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة، فقال على رضى الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قول ذل، وغنى قوم افتقر. إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن على ومحمد بن أبى بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى:

نهيتكمو أن تحملوا فوقَ خيلكم ... هجينًا لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفّاه ويسقط سوطه ... ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوى المرآن هذا ابن حرّةٍ ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلى، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلةً ... ولا كلّفت خبزًا ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ ريّان الطعان بكفّه ... فيوردها بيضًا ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بنى ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سرّ ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدًا فقال: يأكل فارهًا ويعمل كارهًا ويبغض قومًا ويحب نومًا. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

ومالي غلامٌ فادعو به سوى من أبوه أخو عمتى

وقال أكثم :

الحرُّ حرٌّ وإن مسّه الضرُّ والعبدُ عبدٌ وإن ألبسته الدرُّ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّةٌ رأى خللاً فيما تولّي الولائد
فلا يتخذ منهنّ حرٌّ قعيدة فهنّ لعمر الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يومًا يشترى له عنبًا وتينًا، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضى حاجتين في حاجة، فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفّار. وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادى أن رجلاً من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلامًا أسود فرباه وتبناه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذَكَره وتركه يتشحط في دمه، ثم أدركته عليه رقة، وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت، قال: أجل والله الذى لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذَكَرك مثل ما جببتني لأرمين بهما، فقال: الله الله يا ولدى في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاهق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا، وقال: إن جبك لنفسك ثارى، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادى، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود، فما ترى أردأ من العبيد ولا أقل خيرًا منهم. وأكثرهم رداءة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره، كأن لم ير منك شيئًا، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيرًا. وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقيل : إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدى لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم الأم من الزنوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أبًا وربما يعرف الزنجي أبويه. ويقال في المولد: بغل لأنه مجنس والبغل تكون أمه فرسًا وأبوه حمارًا، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك نادر والنادر لا حكم له، وأنا استغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب

من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أو ابد وعوائد كانوا يرونها فضلا، وقد دل على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]. قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الآخير ذكراً بحروا أذنها أى شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا أعتق عبداً وقال: هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث. وأما الوصيلة ففى الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام، فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، فالخمر: ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمراً، والميسر: القمار، والأنصاب: حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحدها نصب، والأزلام: سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهى لم يمض. ومن أوابدهم: وأد البنات أى دفنهن أحياء. كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم غيظه، واسودَّ وجهه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محيى الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وأما الرفادة فى الحج: فكانت خرجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى، فيصنع به طعامًا للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصيًا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطمومة، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر فى الكعبة.

واعلم وفقنى الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمى وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل. فأما سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هنتاه مثلى يكون من عبيد الله؟! وأما عبد الله بن زياد التميمى، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودى من نواحى المسجد كثّر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططا. وأما ابن سماك، فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتى علىّ لا صليت له أبداً. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل، فقال: إنما كانت يمينى يمينًا قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثًا مستبشعًا ومثلا بين العالمين مستشنعًا،

نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم، وأعاننى على الانتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم، فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت فى جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب فى الجاهلية: كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية فى حمير، وبنى كنانة، وبنى الحرث بن كعب، وكندة، وكانت المجوسية فى بنى تميم، منهم زرارة بن عدى، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًا، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنمًا من حيس فعبدوه دهرًا طويلا، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل: إن أول من غيّر الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطونى منها صنمًا أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنمًا يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنمًا على بئر فى جوف الكعبة يقال له: هُبل، وأيضًا اتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنمًا يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله. واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها وكانت لقريش وبنى كنانة العزى، وكان حجابها بنى شيبة. وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف. وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر، فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عبادًا فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه، فكرهوا ذلك، فقال: اجعلوه فى مؤخر المسجد، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شىء غير الله، فقالوا له: من نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة فى مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحًا عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح: ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زمانًا طويلاً، فأخرجهما الشيطان لمشركى العرب فعبدوها.

وذكر الواحدى فى «الوسيط» أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها. وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم. وقال الواقدى: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على سورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أى ذلك كان.

ذكر أوابدهم: الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنًا منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خانتنى امرأتى، وإن وجده على حالته قال: لم تخنى. الرتيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها. التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقأ

عينه الأخرى. العر: داء يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يكـوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العر. ضرب الثور عن البقر، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب. الهامة: كـانوا يزعمون أن الإنـسـان إذا قتـل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسـمى الهامة وهو كالبـومة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعـرب مذاهب فى الجاهليـة فى النفس وتنازع فى كيفـياتها، فـمنهم من زعم أن النفس هى الدم وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه. وقالوا: إن الميت لا يوجـد فيه الدم وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حيى فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهبت حرارته وحل به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسـان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوراً فى صـورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له وفى ذلك يقول بعضهم:

سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ

ثم جاء الإسـلام، والعرب ترى صحـة أمر الهام، حتى قـال النبى ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صـفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صـغيراً ويكبر حتى يصـير كضرب من البوم ويتوحش ويـصـرخ، ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلـم ما يكون من خبره فتخبر الميت. والصفر: زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شـرسوفه الصفر وهى حية تكون فى البطن. تثنية الضـربة: زعموا أن الحية تموت فى أول ضربة، فإذا ثنيت عاشت.

الغيلان والتغول للعرب: فى الغيلان والتغـول أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغـول يتغول لهم فى الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشئوم وأنه خرج منفرداً لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسـان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل.

وحكى أن سيـدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنه رآه فى سفره إلى الشـام فضربه بالسيف. وقـال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون فى ضروب من الصور والثـياب وفيه خلاف، وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب فى قولهم، فهو نوع من الأشـخـاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر فى أكناف اليمن وصعيد مـصر فى أعاليه، وربما أنه يلحق الإنسـان فينكحـه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمـسكه فيقول أهل تلك النواحى التى ذكـرناها أمنكوح هو أو مذعـور؟ فإن كان قـد نكحه أيـسوا منـه، وإن كان قد ذعـر سكن روعه وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشيًا عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه.

ذكر الهواتف: أما الهواتف: فقـد كانت كثرت فى العرب وكان أكثرهـا أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى.

ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف: ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجًا، فصاحبنا رجل وجعل يقول فى طريقه:

* ليت شعرى هل بغت على *

فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق، فأجابه صوت فى الظلام:

نعم نعـم وناكـهـا حـجـيـة وهو رجل أحـمـر ضـخم فى قـفـاه كـيـه

فـبكت الرجل، فلما سـرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قـال: دخل جيرانى يسلمون علىَّ فإذا فيـهم رجل أحمر ضخم فى قفاه كيه، فـقلت لأهلى من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيراً، فـسألتها عن اسمه،

فقالت: حجبة، فقلت: الحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السن، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه، وقال: أبدليني بأحسن منها، ،فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأماجز النواصي: فكانوا إذا أسروا رجلا ومنُّوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية،فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها. ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبكار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن. وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال. ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها.

وللكهنة أخبار فمنهم: سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلا صعابًا تقود خيلا عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها، فلما أصبح أعلَمَ كسرى بذلك، فتصبر كسرى تشجعًا، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غمًا على غمهم، فكتب كسرى كتابًا إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إلىَّ رجلاً عالمًا بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح الغسانى، فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملك فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبذان فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له: سطيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك وائتنى بالجواب، فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا قطعت الدجلة وانتشرت فى بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وفاض وادى سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما ولا العجم لعبد المسيح مقامًا، يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكًا وملكات بعدد الشرفات وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمى رأى منامًا هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح، فأحضرهما وقال لسطيح: إنى رأيت منامًا هالنى فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض نهمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئًا ما تفسيره، قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا الغائظ موجع فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين. قال: ومن ذا الذى يملك بعدهم؟ قال أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال نبى زكى يأتيه الوحى من العلى، قال: وممن يكون هذا النبى؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون فى قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر قال: والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق. ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطيح. ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، فرضى أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعى الكاهن حكمًا، فخبئوا إليه شيئًا وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبيئًا فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتم لى كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتًا ونسبًا، فقال والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجًا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هندًا رجع هربًا، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها: من هذا الذى خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحدًا قط وما انتبهت حتى نبهتنى، قال: فارجعى إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقًا دسّيت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يك كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد قالوا: غدًا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إنى أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى بسيما تكون عليَّ سبّة. فقال لها: لا تخشى فسوف أختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها، قال: خبأتم لى تمرة فى كمرة. قال: إنى أريد أن أبين من هذا. قال: حبة بر فى إحليل مهر، قال: فانظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضى حتى بلغ هندًا فقال: انهضى غير رسحاء[1] ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده وقالت إليك عنى فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه.

وأما القيافة: فهى على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرًا فيلحقه بأحدهم.

وحكى: عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبًا على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال ولد التاجر: فوقع فى نفسى من ذلك شىء فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت: يا ولدى إن أباك كان شيخًا كبيرًا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك، ولولا أن هذا شىء ستعلمه غدًا فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا. وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن فى قطية وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبى ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله إلى ههنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعنى فى علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر. واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هى ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خنثى فأصابا جميعًا. ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعد. وقال رجل شردت لى إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لى فى الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدرى قيامها لأى شىء؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحيت ثم خرجت فوجدت إبلى ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين، فمرا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض فضحك منها مالك هزوًا وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

---

(١) الرسحاء: القبيحة من النساء.

وأما الزجر والعرافة: فأحسنه ما روى أن كسرى أبرويزبعث إلى النبى ﷺ حين بعث زاجراً ومصوراً، فقال للزاجر انظر ما ترى فى طريقك وعنده، وقال للمصور ائتنى بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك. وبعث صاحب الروم إلى النبى ﷺ رسولاً وقال له: انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبى ﷺ على نشز عال واضعًا قدميه فى الماء وعن يمينه على رضى الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال: ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمى، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة. وقال المداينى: وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز ابن مروان، حين أتاها فخرج هاربًا ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أنى أرجع إلى الفسطاط. فمات ولم يرجع. وكانت نائلة بنت عمار الكلبى تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبى فانظرى إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكنى رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها فى حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب ابن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه فى حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس فى إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عراف وقيل قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندى واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

وروى المداينى أن عليًا رضى الله عنه بعث معقلاً، فى ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك فى وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين يتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشًا فذهب به، فقال شداد بن أبى ربيعة الخثعمى الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تُغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

وحكى: أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبًا فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكًا ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت ستعزل من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك فى المرة الأولى دخلت على والشقة بيدى أدير طولها وعرضها، ودخلت على الآن والشقة فى يدى أريد قطعها لأنى قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوى: فكان كذلك.

وحكى: أن سيف بن ذى يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة فى مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضئ كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان فى عسكر ذى يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، قال: فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكى: أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال: نعم ويخلع عليه. قال: فقلت له: بأى شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتنى التفت يمينًا وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روى أن النبى ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. وروى أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار. وقال الأصمعى: سألت ابن عون عن الفأل؟ فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما

أشبه ذلك.

وأما الطيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «من عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلاّ طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وعنه ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له». وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر». وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من أتى كاهنًا فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضًا في دبرها فقد برئ مما نزل على محمد». وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول:

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه ... إلا كواذب ما يجرى به الفالُ
والفال والزجر والكهان كلهم ... مضللون ودون الغيب أقفالُ

وقال لبيد:

لعمرى ما تدرى الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وقال آخر:

تعلّم أنه لا طير إلاّ ... على متطيّر وهو الثبور
بلى شيءٌ يوافق بعض شيء ... أحايينًا وباطله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها: العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ
مكر مفر مقبلٍ مدبرٍ معًا ... كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علِ

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذ كان أصح الطير بصرًا، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب البين صاح فقل به ... ترفّق رماك يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشّاق أقبح منظرٍ ... وأبشع في الأبصار من رؤية اللّحدِ
تصيح ببين ثم تعشر ماشيًا ... وتبرز في ثوب من الحزن مسود
متى صحت صحّ البين وانقطع الرجا ... كأنك من يوم الفراق على وعد

واعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالإبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل. وفي ذلك قال بعضهم مفردًا وأجاد:

زعموا بأن مطيّهم سبب النوى ... والمؤذنات بفرقة الأحباب

وقالوا: مَنْ تطير من شيء وقع فيه.

وحكى عن إبراهيم بن المهدى قال: أرسل إليّ محمد بن زبيدة فى ليلة من ليالى الصيف مقمرة يقول: يا عم إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبى جعفر وجاريته نعيم فقال لها: غنينا شيئًا فقد سررت بعمومتى فغنت وهى تقول هذه الأبيات:

همو قتلوهُ كى يكونوا مكانه	كما فعلت يومًا بكسرى مرازبه
بنى هاشمٍ كيف التواصلُ بيننا	وجند أخيه سيفه ونجائبه

قال: فغضب وتطير وقال لها: ما قصتك ويحك انتبهى وغنى ما يسرنى. فغنت تقول:

كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصراً	وأكثر حزمًا منك ضرِّج بالدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء فى هذه الليلة غنّى غيره فغنت تقول هذه الأبيات:

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم	حتى تفانوا وريب الدهر عدّاءُ
تبكى فراقهم عينى فأرقها	إنّ التفرّق للمشتاق بكاءُ

قال: فانتهرها وقال لها قومى إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاى لم يجر على لسانى غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه. ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدى: فالتفت إلى وقال: يا عمى أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفًا يقول: قضى الأمر الذى فيه تستفتيان. فقال لى: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئًا وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدى به. وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه فى أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشمقمق يقول:

ما كان مندقّ اللواء لريبةٍ	تخشى ولا أمرٍ يكون مبذّلا
لكنّ هذا الرمح ضعّف متنه	صغر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسر خالد وأمر لأبى الشمقمق بعشرة آلاف درهم. ودخل الحجاج الكوفة متوجهًا إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شاهت الوجوه وتبت الأيدى وبؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإنى على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر، وإنى لأعجب من لوط وقوله لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد، فأى ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذًا فى أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسىء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدى لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لى ولكم. وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيرًا فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لى به ولكن ائذن لى فى الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتنى فضربتنى وحبستنى وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحًا على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكى أيضا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذى الليـــــالى علمنا أنْ ســـــتطوينا فـشـــعشـعـينا بماء المزن واســـقـينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكى: أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا فى يوم عيد وخرجا للتفرج، فتجاولا فى الكلام ثم قال محمود: يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير قال فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدرًا فى الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما الفراسة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال على رضى الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على على رضى الله تعالى عنه بشىء فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان فى الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسى منه، فتفرس ذلك منى فقرأ ﴿واعلمُوا أنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي أنفُسِكُم فاحذَرُوه﴾ [البقرة: ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله فى قلبى فتفرس ذلك أيضًا فقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما: إنه نجار وقال الآخر: إنه حداد، فسألاه عن صنعته فقال: كنت حدادًا وأنا الآن نجار.

وحكى أن شخصًا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإنى أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل فى دين النصرانية قال: من رآه: ولقد رأيته متكئًا على دكة وبيده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فسلم على وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باق على حاله أم لا؟ فقال له: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]. قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت. وكان الحسن ابن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن فى الأرض أحرز منه، كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطئ وكان حرزه للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول فى هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ. وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشىء ما عند الله خير وأبقى فاعلم إن فى جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قومًا يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شىء، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنسانًا يمشى ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيرًا يعدو ويهرول فاعلم أنه فى حاجة غنى. وإذا رأيت رجلاً خارجًا من عند الوالى وهو يقول يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع. ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان، وكانت الفرس: تقول إذا فشا الموت فى الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا فى الفأر دل على الخصب، وإذانعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب، وإذا قوقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار. والله أعلم بكل شىء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا. وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا فى كتاب مبين.

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «أشراف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل». وروى أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بنى لا تكثر النوم

بالليل فإن صاحب النوم يجئ يوم القيامة مفلسًا. وكان زمعة بن صالح يصلى ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيهـــا الركب المعـــرسـونا ... أكل هــذا الليــل ترقــدونا

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. (وأنشدوا):

يا أيهـــا الراقـــد كم ترقـــدُ ... قم يا حـبيـبى قـد دنا الموعـدُ
وخـــذ من الليل وســاعـاته ... حظًا إذا مـا هجع الرقـــدُ
من نام حـتى ينقـضى ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجـهـد
قل لذوى الألبـاب أهل التـقى ... قنطرة الحـشـر لكم موعـد

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم:

ألا إن نومـات الضـحى تورث الفـتى ... غمـومًا ونومـات العـصـير جنون

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يومًا بابنه وهو نائم نومة الضحى فركزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أتنام فى ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحمق، فنومة الخرق: نومة الضحى ونومة الخلق: هى التى أمر النبى ﷺ بها أمته فقال: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل»، ونومة الحمق: النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثورى لطبيب: دُلنى على شيء إذا أردت النوم جاءنى، فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لأن تختلف السياط على ظهرى أحب إلى من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ويقول اللهم إن النار منعتنى النوم وأنشدوا فى المعنى:

غـيرت موضع مرقـدى ... يومًا ففـارقنى السكونُ
قل لى فـأوّل ليلـتى ... فى حـفـرتى أنى أكـونُ

وأنشد أبو دلف:

أمـالكتى ردّى علىّ رقـاديا ... ونومى فقـد شـرّدته عن وسـاديا
أمـا تتـقين الله فى قتل عـاشق ... أمتّ الكرى عنه فأحـيا اللياليـا

وأنشد أبو غانم الثقفى:

رقـدت رقـاد الهـيم حـتى لو أننى ... يكون رقـادى مـغنمًـا لغنيت

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبدًا أسود قيل: إنه نام أسبوعًا وقيل إنه تماوت على أهله وقال اندبونى لأعلم كيف تندبونى إذا أنا مت فسجى ونام وندب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا: فقد قيل فيها أقاويل وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح. ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان فى نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذى يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيونًا ومياهًا كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكًا، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى فى منامه أجداثًا وأمواتًا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهى والثياب المصبغة. والذى يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزءً من ستين جزء من النبوة، وكان النبى ﷺ أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجئ على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا فى صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى: أن النبى ﷺ رأى فى الجنة غرفًا فقال: لمن هذه؟ فقيل: لأبى جهل بن هشام فقال: ما لأبى جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلمًا، فتأولها به وكذلك تأول فى قتل الحسين لما رأى أن كلبًا أبقع يلغ فى دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عامًا. وكذلك حين قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه: إنى رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجًا فى الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله اقبض بعدك بستين ونصف. ورأت عائشة رضى الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فأولها أبوها بموته، وموت النبى ﷺ، وموت عمر رضى الله تعالى عنهما، ودفنهم فى حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكى: أن أم الشافعى رضى الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشترى خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكى أيضا: أن عاملا أتى عمر رضى الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة والله لا وليت لى عملاً فعزله. ثم اتفق أن عليًا رضى الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما من مهر فى تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون زيتًا، فاستوى جالسًا فقال: ما التى تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفى رواية جارية، وأنا أطؤها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن فى يدى خاتمًا اختم به فروج النساء وأفواه الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارة لى قد ذبحت فى بيت من دارعا، فقال هى امرأة نكحت فى ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم فى تلك الليلة وجامع زوجته فى ذلك البيت. وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت فى النوم كأنى أسد الزقاق سداً وثيقًا شديداً، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغى أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون فى جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقًا فسلموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت فى النوم كأن القمر دخل فى الثريا، ونادى مناد من خلفى أن ائتى ابن سيرين فقص عليه، فتقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيتى هذا؟ فأعادت عليه فقال لأخته: هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنى آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقى صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحكى: أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصى، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف منى فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحكى أن رجلا رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبى الله صلبك حق؟ قال: نعم، فعبره على بعضهم، فقال تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء: ١٥٧] ولكن هو عائد على الرائى فكان كذلك. ورأى ابنة مغيث آت فى المنام فقال لها:

لك البشرى بولد أشبه شيء	بالأسد إذا الرجال في كبد
تغالبوا على بلد	كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبى عبيد وذلك فى عام الهجرة. وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأنى بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلى أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه: رأيت عليًا رضى الله تعالى عنه فى المنام فقال لى: ناولنى كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة، فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: من رآنى فى منامه فقد رآنى حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل بى، وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: رأيت كأن رأسى قد قطع وأنا انظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأى عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفى وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته، وقال رجل لعلى بن الحسين: رأيت كأنى أبول فى يدى، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: رأيت كأنى نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغى لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ. وقال النبى ﷺ «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة فى الدنيا والآخرة» وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: تضرعت إلى ربى سنة أن يرينى أبى فى النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألنى عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقى الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤]. وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورّى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة». ولما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر: لابأس عليك حتى تشربه، فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أوكم تؤمني؟ قال: كيف آمنتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أمانًا ولم أشعر. وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصراني: لو أسلمت، فقال: ما زلت محبًا للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر، فقال: أسلم واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حددناك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختار الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذبًا لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلا جوهرة، فخبأها في مكانه في عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها، فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقًا فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسها، فدفع المدعي عليه العكازة للمدعي وقال: اللهم إن كنت تعلم أني رددت الجوهرة إليه، فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن احكُم بينَ النَّاسِ بالبيِّنة واليَمين. فبقي ذلك إلى قيام الساعة. وكان المختار بن أبي عبيدة الثقفي في من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما في الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى: أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها، وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبي الله إن لي جيرانًا يسرقون أوزي، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شابًا جميلا، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك من أهلك؟ قال: ما يخفى عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي، فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا

يحاسبنى احب إلىّ من هذا الذى يحصى علىّ مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

وبلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقومون فى جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب فى ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشربةماء، فجئ له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذى ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدده فاقر، فسئل عن ذلك، فقال إن اللص قوى القلب، والبرئ يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

وقصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالاً، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضى إياسًا، فقال: أعلم بأنك جئتنى قال: لا، قال: فعد إلىّ بعد يومين، ثم إن القاضى إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: اعلم أنه قد تحصلت عندى أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإنى مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغنى من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًا وكرامة. قال: فاذهب وهيء موضعًا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضى إياس: امض إلى صاحبك، وقل له ادفع إلىّ مالى وإلا شكوتك للقاضى إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضى إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لى ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله فى الناس مثلك. ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله: إنى لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك علىّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلانى، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقٌ فيه حب، ورقعة مكتوب فيها: من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار وكان لشيرويه غرام فى الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لمَ تخلفت؟ فقال: عاقنى عائق، فقال: اقرأوا عليه كتاب البيعة، فقال يا أمير المؤمنين: هذه البيعة فى عنقى إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس. وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعنى غير غلام من بنى الحرث بن كعب، فإنى ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولمَ؟ قال: رأيت رجلا يقبلها، فاعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت ألم تخبرنى أنك رأيت رجلا يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعل لى جعل على أن ألطم سيد بنى تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

وقال الشعبى: وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لى: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكنى رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إلىّ، فلما قرأها عبد الملك قال لى: أتدرى ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدرى ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدنى عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألنى عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبى. فقال: لله أبوه ما عدا مافى نفسى.

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلاً، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورعًا، فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً فى خفية، فكتب على حائط قريب فى مجلسه هذه الأبيات:

يـا روحُ مـن لـبـنيّات وأرمـلـة إذا نـعـاكَ لأهـل المغـرب الـناعـي

إن ابن مـروان قـد حـانت منيّتـه فـاحـتلْ بنفـسـك يا روح بن زنـبـاع

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، وقال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

ومن الحيل الطريفة: ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة ولي مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ : قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون: إيه يا حجاج؟ قال: فقلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليَّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فاكتم عليَّ ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك عليَّ ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب، قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: مَن جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم،

فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا، قالوا: أشرت بالرأى، ثم أتى قريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودى لكم، وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه علىَّ. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقى منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بنى قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤس بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم: إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنّا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التى عمّ نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء فى التيقظ والتبصر فى الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيده له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشى، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعًا فى خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتًا من الشعر مضروبًا، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعدًا، فدنا منه وقال له: مَن الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما: هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت، قال: فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتنى بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشيت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلى إلى المرأة، ثم قال للرجل: اوقد لى نارًا، ففعل، فجعل عمرينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضى الله عنها: بشّر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا

تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولى شيئًا من أمور المسلمين ينبغى له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسئول ومتى غفل عنها خسر الدنيـا والآخرة. ثم قام عمر رضى الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتهـا أم كلثوم. وأطعمت المرأة، فلما استـقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عـمر رضى الله عنها للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما فى البرمة، وفى غد ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضى الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرًا في كثيـر من الليالى، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثًا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبدًا أسودًا قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالـدخول من الباب، فلم يقـدر من تحصين البـيت، فتـسور على السطح ونزل إليـهم من الدرجة، ومـعه الدرة، فلمارأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمـسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين قد أخطأت وإنى تائب، فاقبل توبتى، فقـال: أريد أن أضربك على خطيئتـك. فقال: يا أميـر المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة، فـأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأنت تجـسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت أتيت من الـسطح، وقال تعالى: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسُوا وتسَلِّمُوا على أهلها﴾ [النور: ٢٧]، وأنت دخلت وما سلمت، فهـب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدكَ أن لا أعود، فاستتوبه، واستحسن كلامه.

وله رضى الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عـنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، وكان زياد بن أبيه يسـلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلا كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زيادًا لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إلىَّ، وأنا أعرَفُ بك منك بنفسـك؟ والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التى عليك وهى لفلان، وقد أعارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسـلك بعدهما ذلك الطريق، واقتفى بآثار ذلك الفريـق إلا المنصور ثانى خلفـاء بنى العباس ولى الخـلافة بعـد أخيه الـسفاح، وهى في غـاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحى من يكشف له حقـائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهـات ولقد ابتلى في خـلافته بأقـوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمـردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعـالى أعانه بتيقظـه وتبصره ما ثبت له في الخلافـة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القـاصدين علم، لكنه بث العيـون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعـاندين فقطع رؤوس عادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعـاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخـلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب، فمن آثار يقظتـه وفطنته ما نقله عنه عقبة الازدى قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لى: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إنـى لأري لك هيبة وفيك نجابة، وإنى أريدك لأمر وأنا به معنى، فإن كفيـتنيه رفعتك، فقلت: إنى لأرجو أن أصـدق ظن أمير المؤمنين، فقـال: اخف نفـسك واحضـر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضـرت، فلم يترك عنده أحـدًا، ثم قال لى: اعلم أن بنى عمـنا هؤلاء قد أبوا إلا كيـد ملكنا واغتيـاله ولهم شيـعة بخراسان بقرية كـذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخـذ معك عينًا من عندى، وألطافًا، وكتبًا، واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب، فاقدم عليه متخشعًا، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول لا اعـرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيرونى سرًا، وسيروا مـعي ألطافًا وعينًا، وكلما جبهك، وأنكر اصبر عليه، وعاوده، واكـشف باطن أمره، قال عقبة: فأخذت كـتبه والعين والألطاف، وتوجـهت إلى جهة الحجـاز حتى قدمت على عـبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب،

فانكرها ونهرنى وقـال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقـبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القـرية وأسماء أولئك القوم، وأنا معى الطافًا، وعينًا، فأنس بى، وأخذ الكتب وما كان معى. قـال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقـال: أما كتاب، فلا أكتـب إلى أحد، ولكن أنت كتابى إليهم، فـأقرئهم السلام وأخبرهم أن ابنيّ مـحمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا، قال عقبـة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لى المنصور: إنى أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقـانى بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإنى أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضـر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدى، وقف قدامه، فـإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغـمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عـينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصوريـريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحـسن، فأجلس عبد الله إلى جـانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن بما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لا تريدنى بسوء ولا تكيد لى سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبة: فلحظنى المنصور بعينه، فقمت حتى وقفت بين يدى عبد الله بن الحسن، فأعرض عنى، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، فرفع رأسه وملأ عينيه منى ثم وثب حـتى جثى بين يدى المنصور وقال: أقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله. فـقال له المنصـور: لا أقالنى الله إن لم أقـتلك، وأمر بحـبـسه وجعل يتطلب ولديه مـحمـد وإبراهيم ويـتـعلم أخبـارهما. قال علي الهاشـمى صاحب غدائه، دعانى المنـصور يومًا فإذا بين يديه جـارية صفراء، وقد دعـا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقينى، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتينى لأصلن رحمه ولأتابعنّ البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمـد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب. وهى تقول : لا أعرف له مكانًا، فأمـر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها، فقال: كفوا عنهـا، فلما رأى أن نفـسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجـهها وأن تسقي الـسويق، ففعلوا بها ذلك، وعـالج المنصور بعضه بيده، فـلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلمـا رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجـامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم قال: صدقت. هى والله أمتى ابتـعتها بمالى ورزقى يجري عليها في كل شهر، وكسـوة شتائها وصيفها من عندى، سيرتها وأمرتهـا أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركـم، ثم قال لها: أتعرفين فـلانًا البقال؟ قالت: نعم يا أمـير المؤمنين هو فى بنى فلان، قـال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تـسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهـذا؟ قالت: كان محمد بن عـبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخـذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فلما سمـعت الجارية هذا الكلام من المنصـور ارتعدت من شـدة الخوف، وأذعنت له بالحـديث وحدثته بكـل ما أراد. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتبا على حروف المعجم

حرف الهمزة: (الأسد) من السباع، والأنثى أسدة، وله أسماء كثيرة، فمن أشهرها: أسامة، والحرث، وقسورة، والغضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام. ومن كناه: أبو الإبطال، وأبو شبل، وأبو العباس، وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان، وشكل جسده كالبقر، وله قرون سود نحو شبر، ومنها ما هو أحمر كالعناب وغير ذلك، وتلده أمه قطعة لحم، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه، فتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته، ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلوقة سبعة أيام، ثم تفتح ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس يقال: أنه لا يعاود فريسته، ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب وفي ذلك يقول بعضهم:

سأترك حبكم من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشًا، وريقه قليل جدًا، لذلك يوصف بالبخر[1]، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته الإقدام على الأمور، وعدم الاكتراث بالغير، ومن جبنه: أنه يفر من صوت الديك والسنور، والطست، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه: أنه لا يقرب المرأة خصوصًا إذا كانت حائضًا. وقيل: أربع عيون تضيء بالليل، عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى.

وروى أنه لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿والنجمُ إذا هوى﴾ [النجم: ١] قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم يعنى نفسه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في عير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء، زأر الأسد، فجعلت فرائصه ترتعد، فقالوا له: من أى شيء ترتعد فرائصك[2]، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء؟ فقال: إن محمدًا دعا عليَّ: ووالله ما أظلت السماء من ذى لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء، فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم، فحاطوا أنفسهم بمتاعهم، وجعلوه بينهم، وناموا، فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه، فضغطه ضغطة كانت إياها، فسمع وهو بآخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمدًا أصدق الناس. ولبعضهم في الأسد:

عبوس شموس مصلخد مكابد ... جرئ على الأقران للقرن قاهر
براثنه شثن وعيناه فى الدجى ... كجمر الفضى فى وجهه الشر ظاهر
يديل بأنياب حداد كأنها ... إذا قلص الأشداق عنها خناجر

فائدة: إذا أقبلت على واد مسبع، فقل: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد[3]، وسبب ذلك ما قيل: إن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود، فجعل يأمر بقتل الأطفال، فخافت أم دانيال عليه، فجاءت إلى بئر، فألقته فيه، فأرسل الله له أسدًا يحرسه، وقيل: إن بختنصر توهم ذلك في دانيال، فضرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما، فلم يؤذياه، وصارا يبصبصان حوله، ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب، فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا. قال أرمياء: فسرت إلى ذلك الموضع، فلما وقفت على رأس الجب ناديته، فعرفنى فقال: من أرسلك إليَّ؟ قلت: أرسلنى الله إليك بطعام

---

(١) البخر: النتن يكون فى الفم وغيره.

(٢) الفريصة: لحمة عند نُغض الكتف فى وسط الجنب عند منبض القلب، وهما فريصتان ترتعدان عند الفزع.

(٣) طلب العوذ لا يكون إلّا من الله.

وشراب، فقال: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا وبالصبر نجاة وغفرانًا، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال: ثم صعد به أرمياء من الجب، وأقام عنده مدة، ثم فارقه ورجع.

وحكى أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مرّ بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام، فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفره ومعه رفقة، فخرج عليهم الأسد، فقال لهم: قولوا اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام واحفظنك بركنك الذى لايرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله قال: فولّى الأسد هارباً. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام فى سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فسلّط الله عليه الحمى، وهى أول حمّى نزلت فى الأرض، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير، فعطس فخرج منه الفأر، فلما كثر وزاد ضرره، فشكوا ذلك لنوح عليه السلام، فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد، فعطس، فخرج منه الهر، فحجب الفأر عنهم، ويحرم أكل السبع لنهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج، وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

(الإبل) قيل: ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل. إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت. وفى حديث: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وهى من الحيوان العجيب، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل: إن قطاراً كان ببعض حبله دهن، فمرت فارة، فجذبته، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهى مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٢]. ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل: إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر. وفى الحديث: «لاتسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى أى مما يوسع به على الناس». حكاه ابن سيده. والذى يعرف: لاتسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن، قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان: ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه، فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حُمِّل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغائه شقشقة لاتعرف من أى شيء هى من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل: إنه لاينزو لا على أمه ولا على أخته حتى قيل: إن بعض العرب ستر ناقته بثوب ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله، فأكله، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة، ولذلك كثر صبره. وقيل: يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة فى العين كحلاً، وفى معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيبه، ويحل أكله بالنص والإجماع، وأما تحريم يعقوب عليه السلام أكلها فباجتهاد منه، وذلك أنه كان يسكن البوادى، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد ما هو يلائمه إلا ترك أكل لحومها، فلذلك حرمها. وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها، فاختلف العلماء فى ذلك، فذهب الأكثرون إلى أنه لاينقض، وعليه الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبى، وابن عباس، وأبو الدرداء، وأبو طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة، وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك، والشافعى، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وخالف فى ذلك أحمد وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة، واختاره البيهقى، وهو مذهب الشافعى القديم.

خواصه: قال ابن زهير وغيره: أكله يزيد فى الباه وفى الإنعاظ بعد الجماع، وبوله يفيق السكران، ووبره إذا أُحرق وذرّ على دم سائل قطعه، وقراده إذا ربُط على كم عاشق يزول عشقه.

(الأرضة) بفتح الهمزة والراء، دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال: إنها الدابة التى دلّت الجن على موت سليمان عليه الصلاة والسلام، ومن شأنها أنها تبنى لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه، وله فى إحدى جهاته باب مربع، ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوها، وهو أصغر منها، فيأتى من خلفها ويحتملها ويمشى بها إلى جحره لأنه لو أتاها مستقبلاً لايغلبها.

(الأرنب) حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى وله شدة شبق وربما تسفد وهى حبلى، ويكون عاما ذكراً وعاماً أنثى. ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان، فيأتى الصياد، فيظنها مستيقظة، قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه، واصطبح به لم تقض له حاجة فى ذلك اليوم، ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران، وعند ولادتها يتحل شعرها وهى تحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله، وفيه قوة وشدة وفى سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير فى الكامل أن صديقا له اصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج. وقيل: التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب، فأكلها، فانطلقا يتخاصمان إلى الضب، فقال الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سميعاً دعوت. قالت: أتيناك لنختصم قال: عادلاً وحكيماً. قالت: فاخرج إلينا، قال: فى بيته يؤتى الحكم. قالت: إنى وجدت تمرة حلوة قال: فكليها. قالت: اختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت، قالت: فلطمنى. قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت، فذهبت أقواله أمثالاً.

ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطأة أتى شريحاً القاضى فى مجلس حكمه، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع منى. قال: للاستماع جلست. قال: إنى تزوجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين، قال: شرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم، قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنا أريد الخرج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: فى حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ: من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر، ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحرى من السموم فلا يحل أكله.

(الأفعى) الأنثى من الحيات والذكر أفعوان، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع، والأسود، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعى سجستان، ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً فى رجله فانصدعت جبهته.

وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع، فمات قبل أمه، وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال له: نعم. قال: صف لى أفاعيها قال يا أمير المؤمنين: هى دقاق الأعناق، صغار الأذناب، مقلصة الرؤوس، رقش برش، كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف، وقيل: إنها تندفن فى التراب أربعة أشهر فى البرد، ثم تخرج، وقد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر، فتحك عينيها به، فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك، وقال الزمخشرى: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين تلقى نفسها على هذه الشجرة، وتحك عينيها بها فتبصر، وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان وإذا قُلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام، وهى أعدى عدو للإنسان، وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشًا عظيم القرنين، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين، وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم، وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر، وقيل: إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها، وقيل: إن جلدها ينسلخ عنها فى كل سنة مرة وقيل:

إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهى تبيض على عدد أضلاعها، أى ثلاثين بيضة، فيجتمع عليها النمل، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً. ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ولا ترده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر، فلا تكاد تصبرعنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت، فتعرضت للقتل، والذكر لا يقيم فى الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأى جحر وجدته دخلت فيه، وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور وإذا قلعت عادت. ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتقرب منها، وتحب اللبن حباً شديداً، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه، ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوى قال: كنا فى طريق مكة، فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا، قطار جمال على أحدها ذلك الرجل قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير، فوجدته قد برئ، فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذونى جعلونى فى أواخر بيوتهم، فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذ أتوا يوماً بأفاعى اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك، فقلت فى نفسى: هؤلاء اعتادوها، فلا تضرهم، فلعلى إن أكلت منها مت فاسترحت، فاستطعمتهم، فأطعمونى واحدة، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم، فنمت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت، وقد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر، وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً، فأكلت، وأقمت عندهم أياماً، فلما نشطت، ووثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

فائدة: قيل إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى، وإنما وجد فى زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً فى بعض متفرجاته إذ جاءته حية، فانسابت بين يديه، وتمرغت وصارت تتقلق مثل الذى يشتكى، فأراد بعض الجند قتلها، فمنعهم الملك، ثم قال لهم: انظروا أمرها، فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده، قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال: فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح، فقتلها، وتركوها ورجعوا، فأخبروا الملك بذلك، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفى فمها بزر فنشرته بين يدى الملك، وذهبت، فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره قال: ففعلوا ذلك، فطلع منه الريحان قال: فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال: وكان به زكام، فشمه فبرئ.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً، ولم يكن عنده ما يرضيهم به، فاغتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً فى ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه. فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها، فإذا هى مطمورة، فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار، فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره.

ومن ألطف ما اتفق له أيضاً: أنه كان بتلك البلد خياط أطروش[1]، وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده وديعة مال قال، فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للملوك قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة فلما حضر بين يدى عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندى سوى اثنى عشر صندوقاً، ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها، فأحضرها فأخذها عماد الدولة، ووسع بها على جنده، وتعجب من هاتين القضيتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت، فالإنذار لها متعين. وفى الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فلينفضه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه».

الخواص: يقال إن دمها يجلو البصر وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن والأيسر للأيسر، ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

(الأنيس) وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم وهو طير له لون حسن غذاؤه الفاكهة ومأواه الأنهار والبساتين والغياض وله صوت حسن كالقمرى.

---

(١) أطروش: أصم.

(الأوز) طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: فى جوفه حصاة تنفع المبطون ودهنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب إذا طلى به، ولسانه ينفع لقطار البول وغذاؤه جيد إلا أنه بطئ الهضم.

(الأيل) بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل، وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر والصيادون يعرفون ذلك، فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتى لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته، فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم، وهو الذى يسمى بالبنزهير الحيوانى، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين وينبتان فى أول الأمر مستقيمين، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ولا يزال يزيد إلى ست سنين، فحينئذ يصيران كنخلتين، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة، ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة، فإنه يحب الطرب والصيادون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه، فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

الخواص: إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التى فيه، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شئ منه ذهب نومه، ومن خواصه: أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرف الباء الموحدة: (باز) كنيته أبو الأشعث وهو من أشد الحيوان تكبراً، وأضيقها خلقاً، قال القزوينى: إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين، ولأجل ذلك تختلف ألوانها، وهو أصناف منها البازى، والباشق، والشاهين، والبيدق، والصقر، والبازى أحرّها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة والظل والظليل، وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه، لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه، واحمرت عيناه مع حدة فيهما. قال الشاعر:

لو استضاء المرء فى إدلاجه ... بعينه كفته عن سراجه

ودونه الأزرق الأحمر العينين والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة: أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجو، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد، فأرسل بازاً، فغاب قليلاً ثم أتى وفى فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك، فقال مقاتل يا أمير المؤمنين: روينا عن جدك ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش، فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

(بالة) سمكة عظيمة.. قال القزوينى: يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره: خمسون، ويقال لها: العنبر وهى تظهر فى بعض الأحايين لأصحاب المراكب، فإذا رأوها طبلوا بالطبول حتى تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتنزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك، فيقذفها الريح إلى الساحل، فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

(ببغاء) هى أصناف كثيرة منها الأخضر والرمادى والأصفر والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها.

حكي: أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تفصح وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة وزبلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر.

(بجع) طائر أبيض اللون يميل إلى الصفرة طويل المنقار كبير البطن أكثر أكله السمك.

(بح) طائر لطيف يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

(براق) هو الدابة التى ركبها النبى ﷺ وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون.

(برذون) نوع من الخيل دون الفرس العربى، وفى الحديث أن النبى ﷺ ركبه وكذا عمر رضى الله تعالى عنه فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه. وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول:

لصاحب الأحباس برذونة ... بعيدة العهد عن القرط
إذا رأت خيلاً على مربط ... تقول سبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا ما مشت ... كأنما تكتب بالقبطى

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعافه وكذا الجرح.

(برغوث) تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر وأبو عدى وأبو وثاب وهو يثب إلى ورائه.

حكي: أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيلْ السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولاً من التراب لاسيما فى الأماكن المظلمة وسلطانه فى أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم، وقال بعضهم دبيبها من تحتى أشد من عضها وليس ذلك بدبيب ولكن البرغوث خبيث يستلقى على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشى تحت جنبيه وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يفلى ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل، فقال له أنس فى ذلك فقال: أبدأ بالفرسان وأكر على الرجالة، وأنشد أعرابى:

ليل البراغيث أعيانى وأنصبنى ... لا بارك الله فى ليل البراغيث
كأنهن وجلدى إذ خلون به ... أيتام سوء أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأزدى:

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن ... بوادى الغضى ليلى علىّ يطول
تؤرقنى حدب قصار أذلة ... وإن الذى يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليل منهن جولة ... تعلقن فى رجلى حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرة ... علينا ولا ينعى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل ابيتن ليلة ... وليس لبرغوث علىّ سبيل

وقال ابن أيبك الصفدى:

أشكو إلى الرحمن ما نالنى ... من البراغيث الخفاف الثقال
تعصبوا بالليل لما دروا ... أنى تقنعت بطيف الخيال

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبى ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث من يقبض روحه فقال: أله نفس؟ قيل: نعم. قال: الله يتوفى الأنفس حين موتها.

ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه إذا أوى أحدكمْ إلى فراشه فليقرأ: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة فى دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به فى البيت فإنها تفر من ذلك. وقيل يرش البيت بماء السذاب، وقيل: مشاق المراكب يحرق فى البيت مع قشور النارنج.

(بعوض) قيل: إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ويزيد عليه بأربعة أجنحة وله خرطوم مجوف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له فى إخراج الدم وعنده شره فى مصه حتى قيل إنه لا يمص شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ: من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً وأن ذلك الدم غذاء لها وأنها إذا طعنت فى ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحد لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنازل البستان طوبى	لعيشك لم تشك فيه البعوض
يململه فليس له قرار	ويثخنه فليس له نهوض
حماه قرصه وطنينه أن	يبيت وعينه فيها غموض
كذلك حين تهدى بالأغانى	تكر وفى مسامعك العروض

ومن الحكم التى أودعها الله تعالى إياها أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر وحاسة اللمس والبصر والشم ومنفذ الغذاء وجوفاً وعروقاً ومخاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئاً سدى، وقال الزمخشرى فى تفسير سورة البقرة فى ذلك:

يا من يرى مد البعوض جناحها	فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها فى نحرها	والمخ من تلك العظام النحَّل
ويرى خرير الدم فى أوداجها	متنقلاً من مفصل فى مفصل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها	فى ظلمة الأحشا بغير تمقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها	فى سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حس ما هو دونها	فى قاع بحر مظلم متهول
امنن على بتوبة تمحو بها	ما كان منى فى الزمان الأول

(بغل) معروف وكنيته أبو قموص وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له صلابة الحمار وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له.

روى ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن على كرم الله وجهه أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع فى نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر.

(بقر) هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان وهو من أنواع الجواميس وهى أكثر ألباناً وكل حيوان إناثه أرق أصواتاً من ذكوره إلا البقر وأنثاه يضربها الفحل فى السنة مرة وإذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت وإذا طلع عليها

الفحل التـوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صـلابة ذكره. قال المسعـودى: رأيت بالرى البقر تحمل كـالبعير فـتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل.

(عجيبة) حكى فى الأحياء أن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليـها فغرقها، فجلس صاحبـها يندبها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبهـا فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها.

فائدة: ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهـب بن منبه أنه قـال: لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضـطربت كالسفينة، فخلق الله تعالى ملكاً فى نهاية العظم والقـوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبـيه فدخل وأخرج يداً من المشرق ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمـسكها ثم لم يكن لقدميه قـرار فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء فى وسطها سبعة آلاف ثقب فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمى الملك ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيمـاً يقال له كيوثاء له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألـسنة وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ثم لم يكن للثـور قرار فخلق الله تعالى حوتاً يقـال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء علـى ماء أيضاً ثم جعل الماء على الثرى، ثم جعل الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحـمر طرد العقارب وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغـيث إليه وإذا شرب لبنها زاد فى الإنعاظ وقرنها إذا سـحق وجعل فى طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحـمى، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلى به على الأثر الأسود فى البدن أزاله، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت فى عسل وأكلت فإنهـا تزيد فى الباه وشعرها إذا أحرق وامتيك به نـفع من وجع الأسنان وإذا خلط مع السكنجبين وشرب نفع من الطحال على ما ذكروه.

(بومة) وكنيتها أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعـها أن تدخل على كل طير فى وكره وتأكل أفراخه ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون فى أشـراكهم حتى يقع عليهاالطير. ونقل المسعودى عن الجاحظ أن البومـة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهى أصناف وكلها تحب الخلوة بنفـسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم، فمن لبسـه لم ينم ما دام فى يده وعكسها المغموضة، وإذا أردت معرفة ذلك فالقهما فى الماء، فالراسبة للنوم والطافية لليقظة، وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهى نائمة تحدثت بجميع ما فعلته فى نومها.

(بوقير) طير أبيض يأتى منه فى كل سنة طائفـة إلى جبل بالصعيد يقـال له جبل الطير، فيه كـوة، فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شئ فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئاً كانت الـسنة مـجدبة وأهل تلك الناحيـة تعرف ذلك، وهذا الجبل بالقـرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبى ﷺ.

حرف التاء: (تمساح) حيوان عجـيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستـون ناباً، وقيل ثمانون، وبين كل نابين سن صغيرة وهى أنثى فى ذكر إذا أطبق فمه على شئ لا يفلته حتى يخلعه من موضعه وله لسان طويل وظهر كالسلحفاة ولا يعمل الحديد فيه وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مـصر. وقال المسافرون: إنه يوجد ببحر الهند وطوله فى الغالب ستة أذرع إلى عشرة فى عرض ذراعين أو ذراع، ويقيم فى البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك فى زمن الشتاء ويتقـوط من فيه فى الغالب، ويحصل فى فيـه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فـيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيـراً يقال له القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل ما فيـه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقـال جازاه مجازاة التمساح، وزعم الباحـثون عن أحوال التمساح أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد

ستين مرة بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً ويعيش ستين سنة، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً وما نزل البحر صار تمساحاً، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها، فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت، وما ذلك إلا لأنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء يقال إنه يتبلط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه فى فيه فيبتلعه لنعومته فإذا حصل فى جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله.

الخواص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر فى أذن من به صم نفعه.

(تنين) ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يبتلع الحيوان، وأول أمره يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها فى البحر فتقيم فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها فى النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج.

وروى ابن أبى شيبة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسلط الله على الكافر فى قبره تسعة وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء».

حرف الثاء: (ثعلب) وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل فى طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد. ومن حيلته أنه إذا تعرض للقنفذ نفش شوكه فيسلح[1] هو عليه فيلم شوكه فيقبض على مراق بطنه ويأكله وسلحه أنتن من سلح الحبارى.

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها فى فيه ونزل فى الماء والبراغيث تطير قليلاً قليلاً حتى تجتمع فى تلك الصوفة فيلقيها فى الماء ويخرج وفروه أدفى الفراء وفيه الأبيض والرمادى وغير ذلك، وذكر فى عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزى فى آخر كتاب (الأذكياء) والحافظ أبو نعيم فى (حلية الأولياء) عن الشعبى أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فنم عليه الذئب فقال الأسد: إذا حضر فأعلمنى، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبر بما قاله الذئب فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس؟ قال: كنت أتطلب لك الدواء. قال: وأى شئ أصبته؟ قال: قيل لى خرزة فى عرقوب أبى جعد. قال: فضرب الأسد بيده فى ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئاً فخرج ودمه يسيل على رجله وانسل الثعلب فمر به الذئب فناداه: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات. وقيل: خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضباً وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب: اقسم علينا فقال: حمار الوحش لى والغزال لأبى الحرث والضب للثعلب فضربه الأسد فى رأسه فرضخها فقال الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لأبى الحرث يتغذى به والغزال لأبى الحرث يتعشى به والضب لأبى الحرث يتنقل به فيما بين ذلك فقال له الأسد: لله درك من فرضى، ما أعلمك بالفرائض من علمك هذا؟ قال: علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا، وأشار إلى الذئب.

وحكى: أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له: أما تنزل نصلى جماعة؟ فقال: إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هارباً فناداه: أما تأتى لنصلى؟ فقال: قد انتقض وضوئى فاصبر حتى أجدد لى وضوءاً وأرجع.

ومن العجيب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الافعى

---

(١) يسلح: يخرج ما فى بطنه من البراز.

فيأكلها والأفعى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنانير والزنانير تصيد النحل والنحل تصيد الذباب والذباب يصيد البعوض والبعوض يصيد النمل والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذى أتقن ما صنع.

الخواص: رأسه إذاترك فى برج حمام هرب الحمام منه ونابه يشد على الصبى يحسن خلقه ومرارته تجعل منها فى أنف المصروع يبرأ ولحمه ينفع من اللقوة والجذام وخصيته تشد على الصبى تنبت أسنانه وفروه أنفع شئ للمربوط ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ.

(ثعبان) هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى وهو عجيب الشأن فى هلاك بنى آدم يلتوى على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة: قيل إن عبد الله بن جدعان كان فى ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريراً يفتك ويقتل وكان أبوه يعقل عنه فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد فى صدره شيئاً كهيئة الثعبان فدنا منه وقال لعله يثب على فيقتلنى وأستريح، قال: فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب وعيناً ياقوتتان ثم وجدمن داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم وإذا بهم رجال من جرهم وفى وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق قال رسول الله ﷺ: «لقد كنت أستظل بجفنة عند عبد الله بن جدعان من الهجير، قالت عائشة: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: لا لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين».

حرف الجيم: (جراد) حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائماً هارباً وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلقى بيضه فيها وله ستة أرجل وطرفاً أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا إبل، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية، وهو من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيسه كالعسكرى إذا ظعن أميره تتابع خلفه، وفى الحديث أن جرادة وقعت بين يدى رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ولنا تسعة وتسعون بيضة ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء». قال: فجاء جبريل فقال: إنه قد استجيب لك فى بعضها وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى خلق ألف أمة، ستمائة منها فى البحر وأربعمائة فى البر وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه. قيل كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول من أنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.

(جرو) بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه فتأخر، قال: فلقيه النبى ﷺ بعد ذلك فقال: ما أخرك عن وعدك فقال: ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها، وروى مسلم والطبرانى عن خولة بزيادة ولفظها أن جرواً دخل تحت سرير فى بيته ﷺ فمات، فمكث النبى ﷺ أياماً لا يأتيه الوحى قال: لعله حدث فى البيت شئ فخرج للمسجد فنزل عليه الوحى قالت خولة فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير.(١)

عجيبة: حكى أن رجلاً لم يولد له ولد فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت: يؤاخذك الله بذلك فقال: لو آخذ لفعل فى يوم كذا وصار يعدد أفعاله لها فقالت له إن صاعك لم يمتلئ ولو امتلأ أخذك قال: فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو قال: فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبى لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كان يلعبان بها؟ قال: جرو كلب. قال: ائتنى به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال له اذهب خلفه فأى بيت دخله ادخل معه فإن أولادك فيه قال: فجعل الجرو يجوب الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه فلما رأته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك من هذا اليوم تقول ما

---

(١) قممت: كنست.

تقول الآن امتلأ صاعك وسيأتى الكلام على الكلب فى حرف الكاف إن شاء الله تعالى.

(جعل) دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعض البهائم فى وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد فى بطنه لون حمرة للذكر قرنان يوجد كثيراً فى مراح البقر والجاموس قيل: إنه يتولد من أخثائهما ومن شأنه جمع الروث وادخاره ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ويعيش بعوده للروث وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً وهو يمشى القهقرى، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعه وذلك من شدة شهوته للغائط.

حرف الحاء: (حجل) طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر وهو صنفان نجدى وتهامى، النجدى أغبر والتهامى أبيض وله شدة الطيران وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب وله شدة شبق وأفراخه تخرج من البيض كاسية ويعمر فى الغالب عشرين سنة وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قرقرته ولذلك يتخذه الصيادون فى أشراكهم.

غريبة: قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآها ضحك فقال: مم تضحك؟ قال: كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابى فمر بى تاجر فأخذته فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقتله فلما علم أنه لابد لى من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال: اشهدا لى أنه قاتلى ظلماً فقتلته، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما فقال أبو نصر والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل ثم أمر به فضربت عنقه.

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة جاد ذهنه وقل نسيانه وقوى بصره.

(حدأة) بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة أخس الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادى، وهى لا تصيد إلا خطفاً وفى طبعها أنها تقف فى الطيران وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها ويقال إنها طرشاء وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهى سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب.

عجيبة: روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال: أصابتنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت: يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك، قال: فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر فقمت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً وجوهرة ملفوفة فى قطن قال فاتجرت بذلك واشتريت لى عقاراً وتزوجت.

الخواص: مرارتها تجفف فى الظل وتنقع فى إناء زجاج، فمن لسع وقطر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب.

(حرباء) دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس العجل. إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت، ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ولها كنى كثيرة منها أم قرة، ويقال لها جمل اليهود وهى أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها. ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها، فذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه، والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين ويقال إن الصبيان ينادونها أم حبين انشرى بردبك إن الأمير ناظر إليك وضارب بسوطه جنبيك، فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها فإذا ازدادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة، وإذا مشت

تطأطئ برأسها وتتلون ألواناً ولذا يقال يلتون كالحرباء.

(حمار أهلى) معروف ليس فى الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً وكنيته أبو محمود وأبو جحش وغير ذلك، وهو أنواع، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة، ومنه ما هو بضد ذلك، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق.

لطيفة: فى الحديث عن النبى ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال: ما اسمك؟ فقال: يزيد من شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبى ولم يبقى من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقعك لتركبنى وأنا عند يهودى يجيع بطنى ويضرب ظهرى، وكنت أعثر به عمداً فسماه النبى ﷺ يعفوراً وقال له: أتشتهى الإناث؟ قال: لا. وكان ﷺ يركبه فى حوائجه وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته، فلما مات النبى ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردى فيها جزعاً على النبى ﷺ فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر، وقد ذكره السهيلى فى التعريف والإعلام، وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض. فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له فى ذلك فقال: عير هى من نسل الأكراد يحمل الرحل ويبلغ العقبة ويمنعنى أن أكون جباراً فى الأرض. وقال آخر: أقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة وأخفضها مهوى وأقربها مرتعاً. وكان حمار أبى يسارة مثلاً فى الصحة والقوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة، وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة. ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال: لا تركب الحمار فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك وإن كان بليداً أتعب رجلك وقيل: ما ينبغى لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال. وقال أعرابى الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى وإن تركته ولى: كثير الروث قليل الغوث سريع إلى الفرارة بطئ فى الغارة لا توقى به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب فى الإناء، قال الزمخشرى:

إن الحمار ومن فوقه ... حماران شرهما الراكب

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد.

قيل: كان لرجل بالبادية حمار وكلب وديك فالديك يوقظه للصلاة والكلب يحرسه إذا نام والحمار يحمل أثاثه إذا رحل. قال: فجاء الثعلب فأكل الديك فقال: عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عسى أن يكون خيراً، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيراً، قال: ثم إن جيرانه من الحى أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فقيل لهم إنما أخذوا بأصوات دوابهم فقال: إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى فمن عرف لطف الله رضى بفعله.

(حمام) هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما برى وهو الذى يوجد فى القرى والآخر أهلى، وهو أنواع وأشكال، فمنه الرواعب والمراعيش والشداد والغلاب والمنسوب، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار، ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطير منه، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعترى الحمار إذا رأى الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يوماً ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يوماً ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى واتخاذها فى البيوت لا بأس به، غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها والارتقاء بها على الأسطحة وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانه حين رأى شخصاً يتبع حمامه»، فإن لم يحصل شئ مما ذكر جاز اتخاذها. قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم واللعب بها من عمل قوم لوط». وقال النخعى: من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شئ أبله من الحمام، فإنه تؤخذ أفراخه، فتذبح فى مكان ثم يعود فى ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ.

وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تبتاع بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شئ من الطير غيره، وهو الهادر الذى جاوز الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدثت أن برذوناً أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمراً، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير، والفرخ بعشرين، فمن كان له زوج منه قام فى الغلة مقام ضيعة وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة، ويقطع الرعاف ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزبل الأحمر منه ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صينى نفع من الحصاة.

حرف الخاء: (الخطاف) أنواع كثيرة، فمنه نوع دون العصفور رمادى اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ونوع أصفر يألف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل ويقال: إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة، فخلق الله له هذا الطير يؤنسه، فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت، وهى تبنى بيتها فى أعلى مكان بالبيت وتحكم بنيانه وتطينه، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت فى التراب والماء وأتت فطينته، وهى لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه وعنده ورع كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها فى أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئاً، ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كن زاهداً فيما حوته يد الورى	تبقى إلى كل الأنام حبيباً
وانظر إلى الخطاف حرم زادهم	أضحى مقيماً فى البيوت ربيباً

ومن شأنه إنه لا يفرخ فى عش عتيق بل يجدد له عشاً، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران، فيذهب، فيأتى بحجر اليرقان، ويلقيه فى عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله. ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرغ فيها، فيفيق من غشوته ويفتح عينيه.

لطيفة: قيل: إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: تتمنعين منى ولو شئت قلبت هذه القبة. قال: فسمع سليمان، فدعاه وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبى الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافاً، ودمه يسكن الصداع.

(خفاش) طير يوجد فى الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا فى ضوء القمر وقُوتُهُ البعوض، وهذا الوقت هو الذى يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه، فيأكله الخفاش، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين فى ساعة وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله، لأنه قيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى فى طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهى تكرهه لأنه مباين لخلقتها ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل: إنه يرضعه وهو طائر.

(خنزير) حيوان معروف وله كنى كثيرة، منها أبو جهم وأبو زرعة وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب، ويأكل العشب والعلف، وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهى سائرة فيرى فى مشيها ستة أرجل، فيتوهم الرائى أنه حيوان بستة أرجل وهو ليس كذلك والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقل بالنزو على الأنثى وتحرك أذنابها فى زمن هيجانها وتطاطئ رأسها وتتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل: أربعة باختلاف البلاد، وقيل: ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أفسد الحيوان، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير فى نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع مالاقاه، وإذا التقى نساباه من الطول مات لأنهما حينئذ يمنعانه من الأكل. ومن

عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عض كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق، ومن عجيب أمره أيضاً أنه إذا ربط على ظهره حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شئ من لحمه على ما ذكروا.

(خنفساء) دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء، فقال: ما يصنع الله بهذه، فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها، فبينما هو ذات يوم إذا بطرقى يقول: من به وجع كذا إلى أن قال: من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به، قال: ائتونى بخنفساء، فضحك منه الحاضرون، فقال: ائتوه بالذى يطلب، فأتوه بها، فأخذها، فأحرقها، وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى وأن فى أخس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شئ.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت فى برج الحمام كثر الحمام فى ذلك البرج والاكتحال بما فى جوفها من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة والبياض، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(خيل) جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال فى مشيتها، وهى من الحيوان المشرف، ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبى عليه الصلاة والسلام، فقال: «الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة». وقال: «عليكم بإناث الخيل، فإن ظهورها عز وبطونها كنز». وروى عن ابن عباس أو على رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب، وقال: إنى خالق منك خلقاً، فاجتمعى، فاجتمعت، فأتى جبريل، فأخذ منها قبضة، فخلق الله منها فرساً كميتاً، وقال: خلقتك عربياً وفضلتك على سائر البهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين، ثم وسمه بغرة وتحجيل، فلما خلق الله تعالى آدم قال: يا آدم اختر أى الدابتين: الفرس أو البراق، فقال: الفرس يارب، فقال الله تعالى: اخترت عزك وعز أولادك، وفى الحديث: «ما من فرس إلا ويقول فى كل يوم اللهم من جعلتنى له فاجعلنى أحب أهله إليه» وقيل: الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وهى المغزو عليها، وفرس لك وهى التى تسابق عليها، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء. وفى الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا فى مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله». ولقد سابق النبى ﷺ على الخيل، وقيل: إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى، ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى تعالى حتى تبعتها أحصنهم، فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها، وقيل: إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره، وهم خلفه، فأعمى أعينهم عن الماء، فكانوا يرون بلقعاً، والخيل تراه ماء، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهى أصناف منها: الصافنات، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف، وقيل غير ذلك وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام، فعرضها يوماً ففاتته الصلاة، قيل صلاة العصر، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح، فكانت فرسه وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهدى وقيل: إن الفرس لا يحب الماء الصافى ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها فى الماء الكدر، فرحاً به، فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى فيفزعه، ولا يراه فى الماء الكدر، وقد قيل فى الحث على حب الخيل:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها ... فإن العز فيها والجمالا

إذا ما الخيل ضيعها أناس ... ربطناها فأشركت العيالا

نقاسمها المعيشة كل يوم ... وتكسبنا الأباعر والجمالا

حرف الدال: (دابة) اسم لكل ما دب على الأرض وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سبأ، فقيل: الأرضة، وقيل السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له

يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب، فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟ فقال: أذن لى رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء فقال: طلبت مالم يخلق قال: وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال له يا أخى يا عزرائيل أمهلنى حتى يفرغ قال ليس فى أمر ربى مهلة قال: فقبض روحه، وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتى، فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكأ على عصاه، واستمر ذلك مدة، والجن تتوهم أنه مشرف عليها، فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد، فسلط على العصا الأرضة فأكلتها، فخر ميتاً، فتفرقت الجن عنه، وقيل إن واحداً منهم مر عليه، فسلم، فلم يجبه فدنا منه، فلم يجد له نفساً، فحركه، فسقطت العصا، فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب، قال الله تعالى: ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]. قال: فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

وأما الدابة التى من أشراط الساعة، فاختلف فى أمرها، فقيل: تخرج من الصفا، وهو الصحيح، وقيل: من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهى مختلفة الألوان وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تلحق المؤمن، فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن وتدرك الكافر، فتسمه بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر. وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقل الخير.

(داجن) وهو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج وغير ذلك، وفى حديث الإفك: «ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن وتنام فتأتى الداجن، فتأكل العجين».

(دب) من السباع وكنيته: أبو جهل وأبو جهينة وغير ذلك، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يمص يديه ورجليه، فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق وينعزل بأنثاه، وتضع جرواً واحداً، وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم، ثم لا تزال تلحسه وترفعه فى الهواء حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ويصير له جلد، وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به، وقيل: إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز، ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجر الغصن العتل الضخم الذى لا يقطع إلا بالفأس، والجهد، ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله.

(دجاجة) وكنيتها أم ناصر الدين وأم الوليد وغير ذلك، وإذا هرمت لم يبق لبيضها مخ، وتوصف بقلة النوم. وقيل إن نومها بقدر ما تتنفس وعندها خوف فى الليل، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً وتخشى الثعلب. قيل إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع، وقيل: يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام، وفى الحديث «أن النبى ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ الدجاج للفقراء» ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من المنى وجعل دم الحيض غذاء له، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل ويصفى اللون، ويزيد فى المنى ويقيم الباه والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر.

(دج) طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلونه.

(دود) اسم جنس، ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولاً مثل بزر التين ثم تصير دوداً، وذلك فى أوائل فصل الربيع، ويكون عند خروجه مثل الذر فى قدره ولون، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان

مصروراً فى حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته، فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض. قال: ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر إصبع، وينتقل من السواد إلى البياض وكل ذلك فى مدة ستين يوماً. قال: ثم يأخذ فى النسج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفد ما فى جوفه ثم يخرج شيئاً كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب، وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة، ثم يفترقان. قال ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينشران البزر عليها، ثم يموتان، هذا إذا أريد منهما البزر وإن أريد الحرير تركا فى الشمس بعد فراغهما من النسج، فيموت، وهو سريع العطب، حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ومس المرأة الحائض والرجل الجنب، ورائحة الدخان والحر الشديد والبرد الشديد، ونحو ذلك، قال أبو الفتح البستى:

ألم تر أن المرء طول حياته ... معنى بأمر لا يزال يعالجه

كذلك دود القز ينسج دائماً ... ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

وقال آخر:

يفنى الحريص بجمع المال مدته ... وللحوادث ما يبقى وما يدع

كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(ديك) وكنيته أبو حسان وأبو حماد وغير ذلك، ويسمى الأنيس والمؤانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدى إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر منها أنه يساوى بين أزواجه فى الطعمة، ويذكر الله تعالى فى الليل حتى قيل إنه ليوقته ويقسمه، وربما لا يخرم فى توقيته، وفى الحديث: «إذا سمعتم صياح الديك، فاذكروا الله تعالى، فإنه يصيح بصياح ديك للعرش». وروى الغزالى عن ميمون بن مهران أن لله ملكاً تحت العرش على صورة الديك، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه، وقال: ليقم المسلمون، فإذا مضى الثلث الثانى ضرب بجناحيه وقال: ليقم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقم الغافلون، وعليهم أوزارهم، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثانى خفق بجناحيه وقال: قدوس قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبى بإسناده عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار». وفى الحديث: «لا تسبوا الديك، فإنه يؤقت للصلاة». وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب فى أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شئ يضحى عليه، فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلى، فأرادت المرأة أن تمسكه، ففر، فتبعته، فصار يخترق من سطح إلى سطح، وهى تتبعه، فسألها جيرانها وهم هاشميون عن موجب ذبحه، فذكرت لهم حال زوجها، فقالوا ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحاق إلى هذا القدر، فأرسل إليه هذا شاة وهذا شاتين وهذا بقرة وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار، فلما جاء ورأى ذلك قال: ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك لكريم على الله، فإن إسماعيل نبى الله فدى بكبش واحد، وهذا فدى بما أرى.

حرف الذال: (ذباب) وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أنه يلقى رجيعه على الأبيض يسود وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء، وفى الحديث: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم، فليغمسه، فإن فى أحد جناحيه دواء وفى الأخرى داء»، وإن من طبعه أن يلقى نفسه بالجناح الذى فيه الداء.

وحكى أن المنصور كان جالساً، فالح عليه الذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب من العلماء، فقالوا: مقاتل ابن سليمان، فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به الجبابرة. قال: صدقت، ثم أجازه. ومن خصائص النبى ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط، وقال المأمون: قالوا إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة

الزنبور سكن ألمه، فلسعني زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة، فما سكن له ألم، فقالوا هذا كان حتفاً قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك، وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون، وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل: إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

(ذئب) حيوان معروف وكنيته أبو جعدة وأبو جاعد، وأبو ثمانة لونه رمادى وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل، فيغمضها، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول فى سفاده كالكلب. وإذا جاع عوى، فتجمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس فى الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب، فإن لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت، وقيل: إذا أدماه الإنسان، فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشد الناس قلباً وأتمهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه، فيكون فى ذلك هلاكه، فيحتال له بكل حيلة، وقيل: لا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء، والله أعلم.

حرف الراء: (رخ) طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين، قال أبو حامد الأندلسى: ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا فى طرفها لمعاناً وبريقاً، فتقدموا إليه، وإذا هم بشئ مثل القبة قال: فجعلوا يضربون فيه الفؤوس إلى أن كسروه، فوجدوه كهيئة البيضة، وفيه فرخ عظيم قال، فتعلقوا بريشه وجروه، ونصبوا القدور، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له: حطب الشباب فلما أكلوا ذلك الطعام اسودت لحية ولمة كل ذى شيب قال، فلما أصبحوا جاءهم الرخ، فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب، وأتى فى رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعدما ساروا فى البحر وألقاه على سفينتهم، فسبقت السفينة، وكانت مشرعة بتسع قلوع، ووقع الحجر فى البحر، فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم قال: وقد كان بقى معهم أصل ريشة قيل: إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة، فسبحان الخالق الأكرم.

(رخم) طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشر الطيور ويقال: إنها صماء وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما مات تكلمت بموته، وكانت تعرف مكانه، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

حرف الزاى: (زرافة) حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها، وهى ألوان عجيبة يقال: إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع، فينزو الضبع على الناقة فيأتى بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة، والصحيح أنها خلقت بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

(زنبور) حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة فى بنيانه بيته وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع، فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته أنه إذا وضع فى الزيت مات وفى الخل عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

حرف السين: (سعلاة) نوع من المتشيطنة. قال السهيلى: هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال: وربما صادها الذئب وأكلها وهى حينئذ ترفع صوتها وتقول: أدركونى فقد أخذنى الذئب، وربما قالت: من ينقذنى منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك، فلا يلتفتون إلى كلامها.

(سقنقور) دابة شكلها كالوزغة إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال زاد فى الباه وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال: إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب، ويحشونه من ملح مصر، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعاً عظيماً.

(سمندل) حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجيب أمره أنه يبيض فى النار، ويفرخ فيها ويؤخذ وبره، فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت فى النار، فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكى أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشب بالزيت وجعلت فى النار، وأوقدت ساعة ولم تحترق.

(سنجاب) حيوان كهيئة الفأر يوجد فى بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر الفأر وهو ناعم، فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق.

(سنور) حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات، كناه وأسماؤه كثيرة.

حكى أن أعرابياً صاد سنوراً، فرآه شخص، فقال: ما تصنع بهذا القط، ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الهر؟ قال: أبيعه. قال: بكم؟ قال: بمائة درهم، فقال: إنه يساوى نصف درهم، قال: فرمى به، وقال: لعنه الله ما أكثر أسماؤه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه وتراهُنّ يترددن صارخات فى طلب السفاد، فكم من حرة خجلت وذى غيرة هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته، وطيب فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة، وقيل: إن الهرة تحمل خمسين يوماً، وهو يجمع بين العض والناب والخمش بالمخلاب، وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان فى بعض الأحوال، فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وبره بلعابه حتى يصير كأنه الدهن يسرى فى جلده، وقيل: إذا بال الهر شم بوله ودفنه قيل: لأجل الفار، فإذا شمه علم أن هناك هراً، فلم يخرج، وأما سنور الزباد، فهو بأرض بالهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه.

(سوس) هو دود الحبوب والفاكهة. ومن الفوائد التى تكتب فى الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم، فقال:

ألا كلّ من لايقتدى بأئمة	فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسمٌ	سعيدٌ أبو بكرٍ سليمانُ خارجه

حرف الشين: (شاد هوار) حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش، وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن، وأخرى تورث الفرح والضحك، وأنه أهدى إلى بعض الملوك شىء من شعبها، فرأى ذلك، ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض فى قصبة أنفه إثنا عشر ثقباً إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار، فتأتيه الحيوانات لتسمعه، فتدهش، فيغفل بعضها من الطرب، فيثب عليه، فيأخذه، ويأكله، وهى تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه وصاح بها صيحة، فتهرب وتتركه.

(شاهين) طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة واسع العينين، ومزاجه أيبس من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى، ولذلك ينقض على الطير بشدة، فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة، فيموت، وقيل: أول من صاد به قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق فى بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه، وسار. قال: فطار واحد منها وانقض على صيد، فأخذه، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به.

(شحرور) طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات مطربة.

حرف الصاد: (صرد) حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم

عاشوراء.

(صعو) طير من صغار العصافير أحمر الرأس.

حرف الضاد: (ضأن) نوع من الحيوانات ذوات الأربع، وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين، وفيها البركة، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة، وليس فيها بركة، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القُصاص: مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دُبر، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قُبُل ومن دُبر، ويقال الضأن من دواب الجنة، وهى صفوة الله من البهائم، ويقال فى المدح: هو كبش من الكباش وفى الذم هو تيس من التيوس، وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقول لى الإخوان حين طبختها ... أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ومن العجب أنه يأتى غنم من الهند للكبش منها ألية فى صدره وأليات فى كتفيه، وألية على ذنبه، وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشى، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافدت وقت المطر لاتحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً، وجنوبية حملت أنثى، والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينفع للسوداء، ويزيد فى المنى والباه، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر والله أعلم.

(ضب) حيوان يجعل جحره فى الأرض الصلدة وعنده بله، فربما لايهتدى لجحره إذا خرج منه، فلذلك لايحفره إلا بقرب كدوية أو إشارة، وهو من الحيوان الذى يعمر. قيل: إنه يعيش سبعمائة سنة، ومن طبعه أنه يصبر على الماء، يقال: إنه لايشرب، فإنه يبول فى كل أربعين يوماً قطرة، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر، وتجعلها فى الأرض، وتتعاهدها فى كل يوم إلى أربعين يوماً، فيخرج، وبيضها قدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمى، ولذلك يجعل العقارب في جحره حتى يمتنع بها، ويخرج من جحره كليل البصر، فيستقبل الشمس، فيحصل له بذلك حدة فى بصره، وإذا عطش نشق النسيم فيروى، وبينه وبين الأفاعى مناسبة، وذلك أنه لايخرج زمن الشتاء.

فائدة: قيل: إن أعرابيا أتى النبى ﷺ وفى كمه ضب قد صاده، وقال: لولا أن تسمينى العرب عجولاً لقتلتك، وسررت الناس بقتلك، فقال عمر: دعنى يارسول الله أقتله، فقال عليه الصلاة والسلام: مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟ قال: ثم أقبل الأعرابى على النبى ﷺ وقال: والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه من كمه قال: فعند ذلك قال النبى ﷺ يا ضب: فأجابه بلسان فصيح لبيك وسعديك يارسول رب العالمين، فقال: من تعبد؟ قال: الذى فى السماء عرشه، وفى الأرض سلطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمته، وفى النار عذابه، فقال: من أنا ياضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك، قال: فقال الأعرابى عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدى من البرية يشهد لك بالرسالة. أنا أولى منه بذلك، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله حقاً، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضا منى إليك، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه أحداً أكثر محبة منى إليك، ولأنت الساعة أحب إلىّ من أهلى وولدى وما تملك يدى، فقد آمن بك شعرى وبشرى وداخلى وخارجي وسرى وعلانيتى، فقال النبى ﷺ: الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلو ولا يعلى عليه، ولكن لايقبله الله إلا بصلاة، ولايقبل الصلاة إلا بقراءة. قال: فعلمنى يا حبيبى. قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقال: من قرأها ثلاث مرات، فكأنما قرأ القرآن. قال: إلهنا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: ياحبيبى ليس فى بنى سليم أفقر منى، فقال لأصحابه: اعطوه، فأعطوه حتى أثقلوه، فقال عبد الرحمن بن عوف يارسول الله: عندى ناقة عشارية أعطيها له، فقال: إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعيناها من الياقوت الأحمر، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال:

فخرج الأعرابى من عنده، فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبى ﷺ فأخبرهم بقصته، فأسلموا عن آخرهم، وأمر النبى ﷺ خالد بن الوليد عليهم، وهذه القصة ذكرها الدارقطنى بتمامها، والبيهقى والحاكم، وابن عدى.

الخواص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد فى الباه، وكعبه يشد على وجه الفرس يبرأ، وإذا جعل على وجه فرس لايسبقه شىء، وبعره يلهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لايعطش زماناً طويلاً.

(ضبع) حيوان معروف ومن كناه أم عامر ومن طبعه حب الآدمى حتى قيل: إنه ينبش القبور و إذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علّق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها فى خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر، وجعل الخاتم فى قليل ماء وشربه زال سحره.

(ضفدع) حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى، ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود، ثم ينمو، ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نق جعل فكه الأسفل فى الماء والأعلى من خارج وفى صوته حدة. قال سفيان: ليس من الحيوان أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع، وفى الآثار أن داود عليه السلام قال: لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلى، فنادته ضفدعه ياداود تمنّ على الله بتسبيحك، وأنا لى تسعون سنة ما جف لسانى عن ذكر الله تعالى قال: فما تقولين فى تسبيحك؟ قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: ما عسى أن أقول. وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الطاء: (طاوس) طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهو فى نفسه والعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس من الحيوان، والأنثى تبيض حين يمضى لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه، وتبيض الأنثى مرة واحدة فى كل شهر، ففى السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر، ويسفد الذكر فى أيام الربيع، ويرمى ريشه فى أيام الخريف، كالشجر فإذا بدأ طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضنه ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل: إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله، فذبح عليها طاوساً، فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً، فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً، فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً، فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويميس عجباً كالطاووس، فإذا جاء مبادىء السكر لعب وصفق بيديه كالقرد، فإذا قوى سكره قام وعربد، كهيئة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تتشاءم بإقامته بالدور، قيل: لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شىء قدير.

حرف الظاء: (ظبى) واحد الغزلان، وهو ثلاثة أصناف: الأول الآرام، وهو ظباء الرمل ولونها رمادى وهى سمينة العنق، والثانى العفر لونها أحمر وهى قصيرة العنق والثالث الأدم وهى طويلة العنق وتوصف بحدة البصر، وقيل: إن الظبى يقضم الحنظل ويمضغه مضغاً وماؤه يسيل من شدقيه ويرد الماء المالح فيشرب الماء الأجاج ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها فى العذب، فأى شىء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها، وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان فى طعام الصبى يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً.

(ظربان) دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح تزعم العرب أن من صادها وفسا فى ثوبه لاتزول الرائحة منه حتى يبلى الثوب. ويحكى من شؤمها أنها تأتى بيت الظبى، فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه، وتأكله بعد ذلك.

حرف العين: (عجل) حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمى بذلك لاستعجال بنى إسرائيل بعبادته والسبب فى ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامرى فى قلبه من حب عبادة البقر شىء فابتلى الله به بنى إسرائيل، فقال: ائتونى بحلى قال: فأتوه بجميع حليهم فصنع منه

عجلاً جسداً وألقى عليه قبضة من التراب الذى كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ويظنون أنه تكلم، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم.

فائدة: نقل القرطبي عن سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمهما الله أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان فيقرأون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذوا العجل، فهذه الحالة هى حالة عباد العجل وإنما كان النبى ﷺ مع أصحابه فى جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة، فينبغى لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها ولايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

(عقرب): هو من الحشرات. قال الجاحظ إنها تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثير العدد، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكثرون ويطوفون بالأرض، ولها ثمانية أرجل، ومن عجيب أمرها أنها لاتضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنافس تأوى إليها وربما لسعت التنين العظيم فتقتله.

غريبة: قال ذو النون المصرى، بينما أنا فى بعض سياحتى إذ مررت بشاطيء البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطيء البحر، فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب، قال ذو النون: فاتزرت بمئزرى وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة، فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم، قال: فلصقت العقرب برأس التنين ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت:

يا راقداً والجليلُ يحفظه ... من كل سوءٍ يكون فى الظلمِ
كيف تنام العيونُ عن ملكٍ ... يأتيك منه فوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال: فلما سمع ذلك قال: أشهدك على أن قد تبت عن هذه الخصلة، ثم جرينا ذلك التنين ورميناه فى البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يسالمك الزمان فحاربِ ... وباعدْ إذا لم تنتفع بالأقاربِ
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعى من سموم العقارب
فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهدٌ ... وخرّب فأرٌ قبل ذا سدّ مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترزْ ... عليه من التضييع فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معركٌ ... يكرُّ علينا جيشه بالعجائب

فائدة: إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهى: سلام على نوح فى العالمين وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين أعيذك من حاملات السم أجمعين لادابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباده المحسنين إن ربى على صراط مستقيم نوح قال لكم من ذكرنى لاتلدغوه إن ربى بكل شيء عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم. وقال بعض العلماء: من قال عقدت زبان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب والحية والسارق.

وفى البخارى «أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وقال: يارسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة فقال له النبى ﷺ: أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق لم تضرك»، وروى الترمذى «أن من قال حين يمسى أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال سلام على نوح فى العالمين لم تضره الحية والعقرب»، والسر فى ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب فى السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لايضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من بخر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقر هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شىء من ورق الزيتون برئ أيضاً لوقته.

(عقعق) طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة وهو لايأوى إلا الأماكن العالية وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفاً عليه من الخفاش لايفسده.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن والصق على موضع النصل والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه.

(علق) دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمى فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه. ومن خواصه أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته.

(عنقاء) اختلف فيها فقال بعضهم: هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون وقال بعضهم هو طير غريب الشكل يبيض بيضاً كالجبال ويبعد فى طيرانه، رسميت بذلك لانه كان فى عنقها طوق أبيض، قال القزوينى: إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحداة الفأر، قال: وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبى ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء وهى جزيرة لايصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفى سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشرى فى «ربيع الابرار»، أن الله تعالى خلق فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له: العنقاء له وجه كوجه الإنسان، واربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أنى خلقت خلقاً كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التى حول بيت المقدس قال: فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفى موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق، فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسى، فشكوها له، فدعا عليها، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت.

(عنكبوت) دويبة لها ثمانية أرجل وستة عيون وهى من الحيوان الذى صيده الذباب وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير وتصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

فائدة: قيل إن امرأة ولدت جارية، ثم قالت لخادم لها اقتبس لها ناراً، فخرج، فوجد بالباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك؟ فقال: بنتاً، فقال: لاتموت حتى تبغى بألف رجل ويتزوجها خادماً ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم، وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل، فصبر حتى قامت أمها لتقضى بعد شؤونها وعمد إلى البنت، فشق بطنها بسكين وهرب، قال فجاءت أمها، فوجدتها على تلك الحالة، فدعت بمن يعالجها حتى شفيت، فلما كبرت بغت، قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر، فأقامت هناك تبغى قال، وأما الرجل فإنه صار من التجار، وقدم لتلك المدينة ومعه مال كثير، فقال لامرأة عجوز هناك اخطبى لى امرأة حسنة أتزوج بها قال: فوصفتها له وقالت: ليس هنا أحسن منها، ولكنها تبغى، فقال للعجوز ائتنى بها، قال: فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها: حباً وكرامة، فإنى قد تبت من البغى، فتزوج بها، وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يود أن يراها متجردة، فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان فى بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هى الحمام، وعرضت له حاجة، فرجع إلى الدار، وصعد إلى قصرها، فلم يرها، فسأل عنها، فقيل له هى فى الحمام، فدخل عليها، فرآها

متجردة، ورأى في بطنها أثر كالخياطة، فقال: ما هذا؟ قالت: لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادماً وأنه يوم ولادتي غافل أمي وشق بطني بسكين وهرب وأنها حين رأتني كذلك دعت بعض الأطباء، فخاط بطني وعالجني حتى اندمل جرحي، وشفيت، وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم، وحكى لها السبب، وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لاينسج عليه العنكبوت، فقالوا: كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لاينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور، وبذل لهم ما أرادوا، فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه لاتخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت، قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه، فرماه وقال لها هذا الذي يكون موتك منه قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة: أهذا الذي يقتلني، فشدخته، فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى ورمت ساقها، ثم وصل الورم إلى قلبها، فقتلها، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فائدة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبي ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبي ﷺ لخالد الهذلي، فقتله، وحمل رأسه، ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً، وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها، ويجلو الفضة إذا دلكت به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

(ابن عرس) حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة وهو عدو للفأر وعنده الحيل، قيل: إنه عدا خلف فأر، فصعد منه على شجرة، فصعد خلفه، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة، ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر، فسقط، فأخذته أنثاه. ومما حكى أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجيبة: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبسه تحت طاسة، فجاء أبوه، فوجده، فذهب وأتى بدينار، فوضعه، فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير، فلم يفلته، ثم أتى بخرقة، فلم يفلته، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به فلم علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء، فأفلته له.

حرف الغين: **(غراب)** وكنيته أبو حاتم وله كنى غير ذلك، وهو أنواع كثيرة، منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق وهذا النوع يحكي جميع ما سمعه، والعرب تتفاءل بصياح الغراب، فتقول: إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير، وهو كالإنسان عند الجماع، وفي طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، وتحضن ذلك والأب يسعى في طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر، فتتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ثم لاتزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ومنه قول الحريري:

يا رازق النّعاب في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه أنه لايتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ويقم من الأرض ما وجد ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء، فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب ألفة وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها ومعه الذئب لايضره.

الخواص: إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلي به الشعر سوّده، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين. وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء، وإن صر في خرقة على من به السعال زال.

(غرغر) دجاج بني إسرائيل يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة، فطغت وبغت وتجبرت وكفرت، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك وجوزهم المقل ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة، وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الفاء (فاختة) طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها، وفي طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت، وهي من الحيوان الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة.

الخواص: دمها ينفع من الآثار في العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

(فأرة) وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة، فوجدها قد جذبت الفتيلة، وأحرقت طرف سجادته، فقتلها، وأمر بقتلها، وهي التي قطعت حبل سفينة نوح، وأذاها لايكاد ينحصر ومنه: أنها تأتي إلى إناء الزيت، فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت، فتشربه، وربما وضعت فيه حجراً، فكسرته، ويقال إنها بقايا الممسوخين الذي كانوا يهودا ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء، فإن لم تشربه فهي منهم.

الخواص: عينه تشد على الماشي يسهل تعبه، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفار.

(فرس البحر) حيوان غليظ أفطس الوجه ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقر وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجلده يوجد بالنيل ووجهة أوسع من وجه الفرس يصعد البر ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره.

(فهد): حيوان شرس الأخلاق. قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر في طبعه مشابهة بطبع الكلب، ونومه ثقيل، وفي طبعه الحنو على أنثاه وقيل: أول من صاد به كليب بن وائل وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

(فيل) حيوان يوجد بأرض الهند، وكنيته أبو الحجاج، والأنثى أم سبل وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع ولايقربها الذكر في مدة حملها، ولا بعده بثلاث سنين ولايلقح إلا ببلاده وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لايثنيان، فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات، فإنها تأكله، وهو عند شدة غلمته كالجمل، ويهيج في زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل: إن ثدييه في صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان، وأعظمه جرماً، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة من، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولايحس بمروره لخفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل، وقرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح، وصياحه ليس في مقدار جرمه، وقيل: إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه، إلا منخريه ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذي في خرطومه لاينفذ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق لاينال ماء ولا مرعى، وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه، فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل: جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور.

حكي عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارباً وكبر المسلمون، وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إني رأيت الفيل بعدكم	تبارك الله لي في رؤية الفيل
رأيت بيتاً له شيءٌ يحركه	فكدت أفعل شيئاً في السراويل

وقيل إذا اغتم الفيل لم يكن لسوامه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته والآخر في يد راكبه، فإذا أراد شيئاً غمزه به في لحمه وأول شيء يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك.

قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رأته الفيلة سجدت له، فما وفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولايعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وإن عظام الفيل كلها عاج إلا أ ن جوهر نابه أكرم وأثمن، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة في قوله: نحن

أكثر منكم عاجاً وساجاً وديباجاً وخراجًا، وقيل: إن الفيلة لاتتسافد فى غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة فى كل يوم عشر أيام متوالية، ثم جلس على ماء جار، وقال: اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم عز الظالم وقلّ الناصر، وأنت المطلع العالم، اللهم إن فلانا ظلمنى وأساءنى ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه، فأهلكه اللهم سربله سربال الهوان، وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات، اللهم اخفضه مرتين، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بقه وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

حرف القاف: (قاقم) دويبة تشبه السنجاب إلا أ نه أبرد منه مزاجاً، وهو أبيض يقق وجلده أعز قيمة من السنجاب.

(قاوند) طير يكون بساحل البحر يبيض فى الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك، فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال ما يمسك الله البحر فى هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له لأنه يقال إنه يبر والديه.

خواصه: أنه يقيم المقعد ويحلل البلاغم المزمنة وينفع الأمراض الباردة وأوجاع الأعصاب.

(قرد) حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك، وهو قبيح المنظر، مليح الذكاء، سريع الفهم، يتعلم الصنائع. قيل: إنه أهدى للمتوكل قرد خياط، وآخر صائغ، وأهل اليمن يعلمون القرد البيع والجلوس فى الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل ويصر القرطاس، وهو ذو غيرة، وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومى يوماً إلى أبى الحسن الأخفش وهو يحاكى مشية القرد فقال:

هنيئاً يا أبا الحسن المفدّى	بلغت من الفضائل كلّ غاية
شركت القرد فى قبح وسخف	وما قصّرت عنه فى الحكاية

(قنفذ) بالذال المعجمة وكنيته أبو سفيان، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم، فيرمى العنقود، ثم ينزل، فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفراخ تمرغ فى الباقى فيتعلق بشوكه، فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعى، فإذا لدغته لايؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه، وإذا تأذي منها ذهب فأكل السعتر البرى، فيزول أذاها، وهو الحيوان الذى يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل.

حرف الكاف (كركند) حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لايستطيع رفع رأسه منه لثقله، وهو مصمت قوى يقاتل به الفيل، فيغلبه، ولا تعمل ناباه شيئًا معه وعرض قرنه شبران، وليس بطويل جداً، وهو محدد الرأس شديد الملامسة، وإذا نشر قرنه ظهرت فى معاطفه صور عجيبة كالطواويس، والغزلان، وأنواع الطير، والشجر وبنى آدم، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة والمناطق للملوك، ويتغالون فى ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون، قوى الحافر، ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه فى بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له وهربا منه، ويسمى الحمار الهندى، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته، فيقتله، ولا يأكل منه شيئاً.

(كروان) طير معروف لاينام غالب الليل خصوصاً فى القمر، وعنده ذكاء. قيل: إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة.

(كركى) طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف، فمشتاه بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق، وهو من الحيوان الرئيس، قيل: إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقه ونام، وقام عليه واحد يحرسه وهو يصوت تصويتاً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته، قال القزوينى: وإذا مشى وطىء الأرض بإحدى رجليه، وبالأخرى قليلاً خوفا

من أن يحس به، وإذا طار سار سطراً يقدمه واحد كهيئة الدليل، ثم تتبعه البقية.

(كلب) معروف وهو نوعان أهلى وسلوقى، وهذان النوعان سواء إلا أن الأنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حليم، وعنده رياضة، وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس.

وحكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم فى منزله، ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها، فوثب الكلب عليهما، فقتلهما، فرجع صاحب المنزل، فوجدهما قتيلين، فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمّتي ويحوطني ويحفُظ عهدى والخليل يخونُ

فواعجباً للخل يهتك حرمتى وواعجباً للكلب كيف يصون

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب له، فضربه ورماه بحجر، فلم ينته، ولم يرجع، فلما قعد ربض الكلب بين يديه، فجاء عدو له فى طلبه، فلما رآه خاف على نفسه، فإذا بئر هناك قريبة القعر، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما، وصار الكلب ينبح حوله فلما انصرف العدو أتاه الكلب، فمازال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتنفس الرجل، ومر به أناس، فتناولوه وردوه إلى أهله، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه، وجعل عليه قبة يسمى ذلك قبر الكلب وفى ذلك قيل:

تفرّق عنه جارُه وشقيقُه وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن، وكان معه كلب فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأناً، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلاً، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب وضربوه، فأقر بقتله، فقتل، وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة، وقيل: إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع اثنا عشر جرواً، وذلك فى النادر، والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحداً، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة، ووصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد، فارسل من جاء به إليه، فجوّع أسداً وأطلقه عليه، فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين، وقيل: كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى لأنه يرى من نعمته ويؤس نفسه ما يفتت كبده، وقيل لرجل: ما بال الكلب يرفع رجله إذْ بال؟ قال: يخاف أن يلوث ذراعيه. وقيل: أوَ للكلب ذراعان؟ قال: هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروى أحاديث مثلثة، فسار إليه، ودخل عليه فوجده يطعم كلباً، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت فى نفسى، وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلىَّ، ثم قال: حدثنى أبو الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة، فلم يلج الجنة»، وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصدنى هذا الكلب، فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله: هذا الحديث يكفينى، ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذى: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع، وكان أشدها الكلب، قال: فنزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره أن يضع يده عليه، ففعل، واطمأن إليه، وألفه وصار يحرسه، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة، وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعملون بالليل، فيفسدون ما صنعه فى السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلبا حارساً، ففعل، قال: فكان الكلب إذا أتاه مفسد قام عليه، فيتيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل: كان كلب أهل الكهف أسمر، واسمه قطمير، وقيل: أصفر، وقيل: خلنجى اللون، وليس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو وكبش إسماعيل وناقة صالح وحمار العزيز وبراق النبى ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب، وخفت منه فاقرأ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ (الرحمن: ٣٣). وقل بعد ذلك: لا إله إلا الله، فإنك تكفاه.

حرف اللام (لغلغ) طير معروف. قيل: إنه من طيور الفواخت ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء، فيأكل ما قسّم الله له من الرزق، ويأكل منه من له فيه رزق، ثم يرحل إلى بلاده.

حرف الميم: (مالك الحزين) طير يوجد بالضحضاح غذاؤه السمك وسمي بذلك لأنه قيل: إنه لايشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء، وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لايستطيع العوم، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال: إن غذاءها التراب، فإذا أكلت لاتشبع خوفاً من أن يفرغ.

(حرف النون): (نمل) قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوّى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لاتكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض، وسعت في مناكبها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها لايغفل عنها المنان، ولايحرمها الديدان، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر، لا إله إلا هو ولا معبود سواه». وقيل: إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف، وقيل: إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت، فتفسد إلا الكزبرة، فإنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك، وقيل: إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل شيء استعانت برفقتها، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها، وقيل: إذا انفتح باب قرية النمل، فجعلت فيه زرنيخاً أو كبريتاً هجرتها، والله أعلم.

(نحل) حيوان له له نظر في العواقب وله معرفة بفصول السنة، وأوقاتها وأوقات المطر، وفي طبعه الطاعة لأميره والانقياد له، ومن شأنه في تدبير معاشه أنه يبني له بيتاً من الشمع شكلا مسدساً لايوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة إذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهر، والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافي، وأتى، فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفي طبعه النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعند الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم والريح، والمطر والدخان والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائدة: قيل مرض شخص، فقال: أئتوني بماء وعسل، فأتوه بذلك، فخلط الجميع وشربه فشفي، وروى أن شخصاً شكا النبي ﷺ بطن أخيه، فأمره بشرب العسل، فشربه، ثم جاء ثانياً، فأمره بشربه، ثم جاء في الثالثة، فقال يارسول الله: إن بطنه لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً، فسقاه الثالثة فشفي».

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٩] أهل البيت فإنهم النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك الحاضرون عليه، وأبهته.

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص، واكتحل به نفع من نزول الماء في العين والتلطخ به يقتل القمل، ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

(نسر) هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، قيل: إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل: إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل، وعنده شره، قيل: إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب، فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه، وهو لايحضن البيض، وإنما يبيض في الأماكن

العالية ويبقيه فى الشمس، فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن، ومن طبعه أنه لو شمّ الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل: إنه ليموت كمداً، ويقال للأنثى منه أم قشعم، وفى الحديث: «أتانى جبريل عليه السلام فقال يا محمد: لكل شىء سيد، فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربى، وسيد العربى القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل فى جلد الذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضى الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

(نعام) يذكر ويؤنث، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً ثلثاً للحضن وثلثاً تأكله فى حضنها، وثلثاً تكسره وتفتحه فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحمق أنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها، فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائدة: روى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه أن الله تعالى لما خلق القمح وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له: هذا رزقك ورزق أولادك قم فاحرث وازرع، قال: ولم يزل الحب على ذلك مدة، ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق وكان فى زمن العزيز على قدر الحمص، وقيل: كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام، فإنه يبرك إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل: إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل، وهى لاتشرب الماء كالضب ويقال: إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها فى شىء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوّان والجمر، وفى طبعها الأذى، يقال: أنها تخطف الحلق من أذن الصغير، وقيل إن الذئب لايتعرض لبيض النعام وأفراخه مادام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رآياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى، فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولايزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وقيل: أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح وتقول العرب صنفان من الحيوان أصمان لايسمعان النعام والأفاعى، وسأل أبو عمرو الشيبانى بعض العرب عن الظليم هل يسمع، فقال: يعرف بعينه وأنفه ولايحتاج معهما إلى سمع.

(نمر) حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صنفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحب الشراب وعنده شراسة فى خلقه، ويقال: إن أنثاه لاتدع ولدها إلا مطوقاً بحية ولايضرها نهشها، وذلك لأجل الصياد حتى لايظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ، وفى طبعة عداوة الأسد، وعنده شرف فى نفسه يقال: إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولايملك نفسه عند الغضب، وأدنى وثبة عشرون ذراعاً وأكثرها أربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئًا صار مهاباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره.

(حرف الهاء): (هدهد) طير معروف، وهو من رمل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدة البصر حتى قيل: إنه يرى الماء تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه، فرآها سليمان عليه الصلام والسلام، فتفقده وطلبه، فلما حضر قال يا نبى الله: إنى رأيت كيت وكيت، وقص عليه القصة، ويقال: إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه، يا نبى الله: اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج الحمام لم يقربه شىء يؤذيه، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الواو): (ورشان) طير يتولد بين الحمام والفاختة، وهو حسن شديد الحنو يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنوه، وقال بعضهم: إنه يقول فى صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب، والهدهد يقول: إذا

نزل القضاء عمى البصر، والفاختة تقول: ليت هذا الخلق مـا خلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قـدموا خيراً تجدوه عند ربكم، والحمامـة تقول: سبحان ربى الأعلى، والبازى يقـول: سبحان ربى وبحمده، والسـرطان يقول: سبحـان المذكور بكل لسان، والدراج يقـول: الرحمن على العرش استـوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمد صوته فى الضالين كالقارئ.

(حرف الياء): (يأجوج ومأجوج): سموا بذلك لكثرتهم، وقيل: بل هو اسم أعجمى غـير مشتق، قال مقاتل: وهم ولد يافث بن نوح عليه الصـلاة والسلام، وقول من قـال: إن آدم نام، فاحتلم، فالتـصق منيه بالتراب. فـتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام، وفى الحديث: «يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لايموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسـمة» انتهى. وهم أصناف منهم: ماطوله عشرون ذراعـاً، وما طوله ذراع وأقل وأكثر. وعن على بن أبى طالب كرم الله وجـهه: إن لهم مخالب الطيـر، وأنياب السباع، وتداعى الحـمام، وتـسافد البـهائم، ولهم شعور تقيـهم الحر والبرد، وإذا مشوا فى الأرض كان أولهم بالشـام وآخرهم بخراسان، يشربون ميـاه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخـول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويأكلون كل شىء يمرون به، ومن مات منهم أكلوه، ويقال: إن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة، والأخرى وبرة، فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى، وفى الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام: سُئل هل بلـغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «دعوتـهم ليلة أُسرى بى، فلم يجيبوا، فهم خلق النار». وفى الحديث أيضاً: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار، فيقول يارب، وما بعث النار؟ فيقـول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسـعة وتسعون للنار وواحدة للجنة. قال: فـاشتد الأمر على المسلمين: فقال رسول الله ﷺ: ابـشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنك واحـداً، وفى الحديث أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالردم. فقال: صفه، فـقال يارسول الله: انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت فى بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتنى، فارتعدت منها قال، فقال صاحب البيت لا بأس عليك إن هذه الضـجة أصـوات قوم يذهبـون هذه الساعـة من خلف هذا الردم، أتريد أن تنظر إليـه فإذا لبنة مـثل الصـخرة ومساميره مثل جذوع النخل، كله من حديد كـأنه البرد المخبر، فقال رسـول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم، فلينظر إلى هذا الرجل»، قال المفـسرون: وهذا هو السـد الذى بناه ذو القرنين، وهذه الأمـة خلفه تطلب المجىء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم، فيعيده الله كـما كان إلى أن يقضى الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دوداً يطلع فى حلاقيمهم، فيهلكهم الله به، والأخبار فى ذلك كثيرة.

(يحمور) دابة وحشية لهـا قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشـر بهما الشجر، وقيل: هو كـالأيل يلقى قرنيه فى كل سنة، وهما صامتان. وقال الجوهرى: هو الحمار الوحشى.

نادرة: قيل: ترافق رجـلان فى طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قـال أحدهما للآخر: قـد صار لى عليك حق، وإنى رجل من الجان ولى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة، فهناك عجوز عندها ديك، فاشـتره منها واذبحه، فـقال له الآخر: وأنا أيضـاً لى إليك حاجة، قال: ومـا هى؟ قال: إذا ركب الجنى إنسـاناً مـا يعمل له قال: تشد إبهـاميه بسيـر من جلد اليحمور وتقـطر فى أذنيه من ماء الـسذاب فى اليـمنى أربعاً، وفى اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت تفرقاً ودخل الأنسى ففعل ما أمره به الجنى من شراء الديك، وذبحه، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقـالوا له: أنت ساحر. ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة، قال: ائتونى بسـير من جلد اليحمور وقليل من ماء السـذاب، ودخلت على الصبية، فشددت وقطرت مـاء الـسذاب فى أذنيها، فسمعت صوتها يقول: آه علمتـك على نفسى، ثم مات من ساعته، وشفى الله تلك الشابة.

فصل: فى خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لايلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً، وكل حيوان يعوم بالطبع، إلاّ الإنسان والقرد وكل ذى عين، فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه فى الجهتين، والفرس لاطحال له والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا ألسنة لها، والسمكة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن وما لا قرن له فله حافر، والحيوان المتهم باللواط القرد، والخنزير والحمار، والسنور، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور، والذى يدخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر والغراب والنحل والنمل، والذى يحيض من الحيوان الإنسان والفرس والكلب والأرنب والضبع والخفاش، ويقال أيضاً: الرعاد من السمك فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيراده فى هذا الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء: أن الله ـ سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهى أنواع منها: ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدان كالأسود ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى، ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه، وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه نصف الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق، ومنها ما وجهه كالآدمى وظهره كالسلحفاة وفى رأسه قرن وكلامهم مثل عوى الكلاب ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر وآذان طوال، ويقال: إن هذه الأمم تنكاحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة فى البحر، وأربعمائة وعشرون فى البر، وفى الإنسان من كل خلق، فلذلك سخّر له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق والضحك والبكاء، والفكرة، والفطنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والنعيم والعذاب، وإياه خاطب وله قرب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفى الحديث: «لاتضربوا الوجوه، فإنها على صورة إسرافيل». وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب (تحفة الألباب): دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل، فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائة مثقال، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع. وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام. قال: ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً وكان يسمى: دنقى أو دبقى وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيّراً متواضعاً، كان إذا لقينى يسلم علىَّ ويرحب بى ويكرمنى، وكان رأسى لا يصل إلى ركبتيه رحمة الله تعالى عليه، ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل: إنها ضمته إليها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لايوصف طوله، قيل: إنه كان يخوض فى الطوفان، فلم يبلغ ركبتيه، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتاز المدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهراً طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام، وكان جباراً فى أفعاله يسير فى الأرض براً وبحراً ويفسد ما شاء، ويقال: إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذى على رأسه، فانثقب من وسطه وانخرق فى عنقه، وأخبر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بذلك، فخرج إليه وضربه بعصا فقتله، ويقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، وقفز فى الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه، فتبارك الله أحسن الخالقين، ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان، وفى كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران

كالمتجلين. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: هي أول من بغى في الأرض وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر، وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها، فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلمت بشيء من الكهانة، فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل، فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجاً بسنتين.

ومن ذلك ما حكي عن بعض فقهاء الموصل: أنه شاهد ببلاده الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع وهو صبي لم يبلغ الحلم وكان يأخذ بيده الرجل القوي ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه، فقيل له في عقله خبل، فتركه.

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأياد أربعة، وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت، فقيل لي: أحسن الله عزاءك في أحد الشقين، فقلت: وكيف صنع به؟ فقيل: ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً.

ومنه: ما أرسله بطاركة الأرمن إلى ناصر الدولة، وهو رجلان في جسد واحد، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان وتعطشان معاً؟ قال: نعم. فقالوا له: لايمكن فصلهما، ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما، فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما.

ومن ذلك: ما ذكر أنه أهدي إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما، وإذا بعد ألصقهما، وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه: ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لايبعد، فإنه يوجد كثيراً في السنور الدبركي، وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد، وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو، فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد، ثم انقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين، وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين، والمخرج واحد، فكثير، وعجائب الله في مصنوعاته غير متناهية، فللّه الحمد على ما أنعم به علينا لانحصي ثناء عليه.

ومن ذلك: إنسان الماء وهو حيوان يشبه الآدمي، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء، ويستبشر الناس في تلك السنة بالخصب.

ومن ذلك: بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهن كلام لايفهم، وضحك ولعب، ولهن رجال من جنسهن ويقال: إن الصيادين يصطادونهن ويجامعونهن، فيجدون لذة عظيمة لاتوجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدونهن في البحور ثانياً، ويقال: إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ما ذكر.

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي قال: حدثني بعض التجار أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال، وأخرجوها، ففتحت أذنها، فخرجت جارية حسناء بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن صرتها إلى نصف ساقيها شيء كالثرب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار، فأخذها الرجال إلى البر، فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها، وتعض يدها وتصيح كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فألقوها في البحر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وحكي القزويني عن بعض البحريين: أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار، وأنهار، فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكمنوا في جانب البحر، فلما جاء

الليل خرج بنات الماء على عادتهن، فوثبوا عليهن، فأخذوا منهن اثنتين، فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما فوثق بصاحبته، فأطلقها، فوثبت فى البحر، وأما الآخر فبقى مع صاحبته زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها، فأطلقها، فاغفلته وألقت نفسها فى البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المراكب وألقت لصاحبها صدفاً فيه در وجوهر، فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية: ما ذكره ابن زولاق فى (تاريخه) أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نجلاء العينين كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حبا شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه، ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها فى البحر، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها، فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كثيراً فيه در، ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، وما لم نشاهده ونسمع به أكثر، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فالعاقل يعرف الجائز، والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله: والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله، وذلك لقلة عقله، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسماوات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]. فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحدُهُ الجاحدُ
وفى كلِّ شىءٍ له آية تدلُّ على أنه الواحدُ

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الياقوت والفولاذ، ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شيء، فلا تكن مكذباً بما لاتعلم وجه حكمته، فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]. قال صاحب (تحفة الألباب): إن فى بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم. وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب سير الملوك، وذكر فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء، ولا يعيش فى أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهم، فيحبلن من ذلك، وتلد كل امرأة منهن بنتاً ولا يلدن ذكراناً أبداً، وقيل: إن ولد تبع اليمانى وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين، وأن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقش، وهو الذى بنى إفريقية، وسماها باسمه، وأنه وصل إلى واد السبت، وهو واد يجرى فيه الرمل كما يجرى فيه السيل لايمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت، فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات، فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم، وتلك الأمة التى لا رؤوس لهم أعينهم فى مناكبهم وأفواههم فى صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم، وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة، والرخاء والأمن الذى لاخوف معه، ففى بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لايقدر أحد سواهم على أمثالها، وفى بلادهم وجزائرهم ينبت العود وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل والدارصينى، والكبابة، والبسباسة، وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك، وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك فى سرته، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتعرب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم

أنواع اليواقيت، وأكثرها في جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال.

وحكى أنه كان ببابل سبع مدائن كل مدينة فيها أعجوبة كان في إحدها تمثال الأرض، فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرج أنهارها عليهم في التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسد التمثال لايسد في ذلك البلد، وفي الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب، فصبه في ذلك الحوض، فاختلطت الأشربة، فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرابه الذى جاء به، وفي الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فإن كان حيًا سمع له صوت، وإن كان ميتًا لم يسمع له صوت.

وفي الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أي حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه، وفي الخامسة أوزة من نحاس، فإذا دخل الغريب صوّتت الأوزة صوتاً يسمعه أهل المدينة، وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتي الخصمان، فيمشي المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين، ويقع المبطل في الماء، وفي السابعة شجرة ضخمة لاتظل إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص، فإذا زادوا على الألف واحداً جلسوا في الشمس كلهم، ولو بسطت المقال في ذلك لاتسع المجال، وقد اقتصرت في ذلك على ما ذكرت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

فى خلق الجان وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب (تحفة الألباب) أنه قال: قرأت فى بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقاً سماه جاناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٧]. وقال الله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥]. وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجان من لهبها والشياطين من دخانها، وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعاً من الجن فى قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً فى الأرض قد طبقوها براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما فى السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة، وذكر المسعودى أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكاً، وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لايلد بل يلقح كالطير، ويبيض ويفرخ قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليه وأدناهم منه، ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفى الحديث: «إن إبليس لعنه الله قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وطردتنى وجعلتنى رجيماً فاجعل لى مسكناً قال: مسكنك الأسواق قال: فاجعل لى طعاماً، قال: ما لم يذكر اسمى عليه. قال: فاجعل لى شراباً قال: كل مسكر. قال: فاجعل لى مؤذناً. قال: المزامير. قال: فاجعل لى صيداً، أو قال مصائد قال: النساء».

فصل: فى مكايده لعنه الله

منها: أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى برصيصا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصا ليدعو لها، قال فجاء إبليس إلى العابد، وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتاً مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك فى جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها، قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين فى الطريق، فقال له: إن سجدت لى خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرأ منه ومات الرجل كافراً. اللهم اعصمنا من مكائد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك وجئت لشيء لايعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصرعه العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم ثلاثة أيام، فلما رآه لايرجع قال له: اترك قطعها، وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهده على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة،

فعارضه إبليس فى الطريق، وتحاور معه، وتجاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عنى، واخبرنى كيف غلبتنى، فقال له: لما غضبت لله غلبتنى، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف: ٥٠].

فصل: فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة، خروا منها على وجههم، واخذ بعض من فى المركب، ومنها السعلاة يحكى أن صنفاً منها يتزيا بزى النساء، ويتراءى للرجال.

وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لايعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت ناراً من بعد عند الجبانة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالى، وتغير لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه، ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأتاه شخص بسراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كسرامتى، والله إنى لأعلم أنه شيطان، وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من ينشد الشعر.

وقال بعض المسافرين أبق لى غلام، فخرجت فى أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير، قال: فدنوت منهم، وسلمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك قلت: وما أعلمك بغلامى؟ قال: كعلمى بجهلك، قلت: أوَ جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق، قال: ثم غاب وأتانى بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشى علىَّ، فلما أفقت قال: انفخ فى يده، ففعلت، فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برئ وخلص صاحبه، ومنها نوع يقال له: العفريت يخطف النساء، يقال: إن رجلاً اختطفت ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتى، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفنى عفريت يقال له: ظليم وجعلنى ههنا، فهو يغيب عنى بالليل، ويأتينى بالنهار، فقلت لها: امضى معى، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فيأخذنى ويقتلك، فقلت: لايستطيع أخذك ولا قتلى، ومازلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتى، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتى وخططت حولها خطاً، وقرأت آيات من القرآن، وتعوذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يا ذا الذى للحين يدعوه القدر
خل عن الحسناء ثم رسلاً سرْ
وإن تكن ذا خبرة فينا اصطبر

قال، فأجبته:

يـا ذا الذى لـلـحـين يدعـــــوه الحـــــمـق
خـل عن الحـــــسناء رســـــلاً وانـطلـقْ
مــــــا أنـت فى الجـنّ بـأوّل من عــــــشـق

قال: فتبدى لى فى صورة أسد، وجاذبنى وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس منى قال: هل لك فى جز ناصيتى، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتى، أو ألف دينار الساعة، وخلِّ بينى وبين الجارية، فقلت: لا أبيع دينى بدنياى، ولا حاجة لى بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءنى منها أولاد.

وقيل: لما سخّر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيبوا نبى الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والعيران والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدى سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هى سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع. قال: فعند ذلك تعجب نبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكراً لله تعالى، وقال: إلهى ألبسنى هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرقهم فى الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص فى البحار، وأبنية الحصون، وفى استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾. ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير، والله المسئول فى تيسير كل عسير، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول: فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لايعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليها بعين الهيبة، فذابت وصارت ماء فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

واعلم أن بحر الظلمات لايدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التى ذكرناها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له: البحر المحيط، وأما بحر الخزر وبحر خوارزم، وبحر أرمينية، والبحر الذى عند مدينة النحاس، وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد، وقيل: سئل النبى ﷺ عن الجزر والمد، فقال: هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل الجزر»، وقيل: إنما سمى البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود، فإن أخذ منه الإنسان فى يده شيئاً رآه أبيضاً صافياً إلا أنه أمرّ من الصبر مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار، والله تعالى يعلم لأى شىء ذلك، وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف، وقيل: إن تغيُّر الماء بلون الأرض.

وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره، فقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمّر علينا أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نتلقّى عير قريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر، فرأينا شيئاً كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه، فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فأقمنا شهراً نأكل منها، ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذى فى وقب عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينها، وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شىء من لحمها، فتطعمونا، فأرسلنا له منه، فأكله»، وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتتبعها، فتضيق عليها مجمع البحرين، لعظمها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب «تحفة الألباب»: ركبت فى سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبى ينخلع، وسقطت على وجهى أنا وغيرى، ثم ألقت السمكة نفسها فى البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً، وعظمت أمواجه، وخفنا الغرق، فنجانا الله تعالى بفضله، وسمعت الملاحين يقولون هذه سمكة تعرف بالبغل قال: ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين، ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة فى البحر، فأرسوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة، فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا، فتحركت الجزيرة، وطلبت البحر، وإذا بها سمكة، فسبحان القادر على كل شىء لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وقيل: إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال: إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة، فتلقى نفسها عليها، فتحطمها، وتهلك من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول

ونقروا الطسوت والطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات، ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته.

وقال الشيخ عبد الله صاحب «تحفة الألباب»: كنت يوماً في البحر على صخرة، فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلى، فتباعدت عنها، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت الصخرة، فسللت خنجراً كبيراً كان معى فطعنت به رأسها، ففار فيها، فلم أقدم على خلاصه منها، فأمسكت نصابه بيدى جميعاً وجعلت أجرّه حتى ألصقتها بباب الجحر، فتركت الجحر، وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هى خمس حيات فى رأس واحدة، فتعجبت من ذلك، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال: هذه تعرف بأم الحيات، وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً وأنها تقلب الزوارق، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدها أرق من جلد البصل، ولايؤثر فيها الحديد شيئاً. قال: ورأيت مرة فى البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطرى الذى كأنه قطع من شجرة، فقلت فى نفسى: هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه، فقبضت منه نارنجة، فإذا هى ملتصقة بالحجر، فجذبتها، فإذا هى حيوان يتحرك ويضرب فى يدى، فلففت يدى بكم ثوبى، وقبضت عليه وعصرته، فخرج من فيه مياه كثيرة، وضمر، فلم أقدر أن أقلعه من مكانه، فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم، والله سبحانه وتعالى أعلم لأى شيء يصلح ذلك.

قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب أخضر العرجون كأنما قطف من كرمه، فأخذته، وكان ذلك فى أيام الشتاء، وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب، فرمت أن آكل منه، فقبضت على حبة منه، وجذبتها، فلم أقدر أن اقتلعها من العنقود حتى كأنها من الحديدة قوة وصلابة، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى، فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفى داخلها عجم كعجم العنب، فسألت عن ذلك، فقيل لى: هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك، وفى البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل، وله أنياب كأنياب السباع، وجلده له شعر كشعر العجل، وله عنق وصدر وبطن، وله رجلان كرجل الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر، ويلقى نفسه فى البر ولا يتحرك، ولاياكل، ولو قتل، ولايدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فحينئذ يدخل البحر ولاتلحقه السفن لخفته وقوته وجلده، يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له ألماً مادام ذلك الجلد عليه، وهو من العجائب، وقيل: إن فى بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع، وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل تؤخذ وتباع فى بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجوهر، ويتخذون منه نصباً للسكاكين، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص، وفى البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد إذا دخل فى شبكة، فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لايملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة، فإن أعادها عادت إليه الرعدة، وهذا أيضاً من العجائب، فسبحان الله جلت قدرته.

وقال صاحب (تحفة الألباب): حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال: حدثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة فى بحر الهند، فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً. قال: فكبر لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه، وينشر أجنحته، وينظر إلى ذنبه ساعة، ثم غاص فى البحر، وفى البحر دابة يقال لها: الدرفين تنجى الغريق لأنها تدنوا منه حتى يضع يده على ظهرها، فيستعين بالاتكاء عليها، ويتعلق بها، فتسبح به حتى ينجيه الله تعالى بقدرته، فسبحان من دبّر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة، وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويصبوا لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب، فيجتمع السمك، ويقع فى تلك الحفائر، وقيل: إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل: إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهى صفة خيل البر. وقيل: إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل: إن فى البحر المحيط شيئاً يتراءى كالحصون، فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة، ويغيب، ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهى كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة

طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف. وعجائبه لاتحصى، ولايمكن حصرها، ويقال: إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه، وحاربوه، ثم تخلص منهم وسار، فرأى صوراً متلونة بألوان شتى وسمكاً طوله مائة ذراع، وأكثر، وأقل، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه.

ويقال إنه مر في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لاتطفأ، ومن جزائر البحر جزيرة القمر يقال: إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال: إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه، وهم في غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القمارى والأبنوس والطواويس، وبها مدن كثيرة، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له: اصطفيون داخل البحر الجنوبي، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة، وهي جالسة على سرير، وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكار، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشنبر ويحمل حملاً كهيئة الإنسان، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق، ثم يسقط، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيمهم ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب، ومنها جزيرة الصين يقال: إن بها ثلاثمائة مدينة ونيفا سوى القرى والأطراف، وأبوابها اثنا عشر بابا، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده، وفيها من الأدوية والأشجار والأنهار ما لايمكن وصفه، فتبارك الله رب العالمين.

وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سده حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أعلى وسد الأفق، فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم، ففزعوا، فقال: ما لكم؟ فقالوا له: انظر ما حل بنا، فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعنى من العدو فلا يسلط عليَّ حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك، وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر، وقد رأيت هذا السد بنى وخرِّب سبع مرات، ولم يزد على ذلك، ثم غاب في البحر، فتبارك من له هذا الملك العظيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقيل: إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر، وطولها نحو ستة فراسخ، وهي حصينة ذات كروم ونخيل، وأشجار، وغير ذلك، وإذا أراد الإنسان الدخول فيها حثى في وجهه بالتراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل: إنها معمورة بالجان، وقيل: بخلق من النسناس، ويقال: إنهم من بقايا عاد الذى أهلكهم الله بالريح العقيم، وكل واحد منهم شق إنسان، ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلا يقول من الشجر: يا أبا بجير الصبح قد أسفر، والليل قد أدبر، والقناص قد حضر، فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة، فسمعت صوتاً يقول: ناشدتك. قال، فقلت لرفيقى: دعهما، قال: فلما وثقا بنا نزلا هاربين، فتبعهما الكلبان وجداً في الجرى، فأمسكا شخصاً منهما قال: فأدركناه وهو يقول:

الويل لى مما به دهانى	دهرى من الهموم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان	إلى متى إليَّ تجريان

قال: فأخذناه ورجعنا، فذبحه رفيقى وشواه، فعفته ولم آكل منه شيئاً، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. قال المفسرون: هو المطر، ومعنى سلكه أدخله فى الأرض، وجعله عيوناً ومسايل ومجارى كالعروق فى الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة، وبين ذلك، وكلها تبتدئ من الجبال وتنتهى إلى البحار والبطائح، وفى ممرها تسقى المدن والقرى وما فضل منها ينصب فى البحر المالح ويختلط به، ولايمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك: ليس فى الأنهار أطول منه لانه مسيرة شهرين فى بلاد الإسلام، وشهرين فى بلاد النوبة، وأربعة فى الخراب، وقيل: إن مسافته من منبعه إلى أن يصب فى البحر الرومى ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً. قال ذلك صاحب (مباهج الفكر ومناهج العبر). واختلف فى زيادته، فقيل إن الأنهار والعيون تمده فى الوقت الذى يريده الله تعالى. وفى الحديث: «إنه من أنهار الجنة»، رقال أهل الأثر: إن الأنهار التى من الجنة تخرج من أصل واحد من قبلة فى أرض الذهب، ثم تمر بالبحر المحيط، وتشق فيه. قالوا ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

نهر الفرات: يوجد بأرض أرمينية. فضائله كثيرة، والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطاراً بالدمشقى، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتى إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفى وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات.

جيحون: نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة، ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ولاينتفع به شىء من البلاد سوى خوارزم لأنها منسفلة عنه، ثم يصب فى بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد فى الشتاء خمسة أشهر، والماء يجرى من تحت الجمد، فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها، وإذا اشتد جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولايبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون: نهر عظيم. قيل: إن مبدأه من حدود الترك ويجرى حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون فى بعض الأماكن.

الدجلة: نهر بغداد. وله أسماء غير ذلك وماؤه أعذب المياه بعد النيل، وأكثرها نفعاً. قيل: مقداره ثلاثمائة فرسخ، وفى بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه.

حكى أنه وجد به غريق فيه الروح، فلما أفاق سألوه عن حاله، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله ويصعد به، وروى فى الأثر أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكنا نذكر منها طرفاً فنقول:

نهر حصن المهدى: قال صاحب (تحفة الألباب): إنه بين البصرة والأهواز، وإنه يرتفع منه فى بعض الأوقات شىء يشبه صورة الفيل، ولايعرف أحد شأنه.

نهر أذربيجان: قيل إن بالقرب منه نهراً يجرى فيه الماء سنة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود فى التاسعة، وقيل إنه ينعقد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبنى به. وقيل إن فى تلك الأرض بحيرة تجف فلا يوجد فيها ماء ولاسمك، ولاطين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين، فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

نهر صقلاب: يجرى فيه الماء يوماً واحداً فى كل أسبوع ثم ينقع ستة أيام.

نهر العاصى: بأرض حماة. وقيل: بحمص وهو نهر معروف. وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبةُ القصف أصبحت	يطوف بها الدانى ويسعى لها القاصى
بها روضةٌ من حسنها سندسيةٌ	تعلق فى أكناف أذيالها العاصى

نهر العمود: بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد، وقيل: من نحاس وتحتها عمود من نحاس .وقيل: من حديد، طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة، وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى، يقول: ياعظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود، فيدخل الجنة، وقال أهل تلك الناحية: من يريد ذلك فليصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه، فيتقطع.

نهر باليمن: قال صاحب (تحفة الألباب): إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب، وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق.

نهر ببلاد الحبشة والسودان: يجرى إلى المشرق يشبه النيل فى زيادته ونقصانه، وأرضه بها الخصب والبركة وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند[1] فى الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجرى فى بلادهم ثمانية أشهر، ثم ينصب فى البحر المحيط، فسبحان من دبّر هذا التدبير، وأحكم هذه الصنعة، لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث: فى ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت، فسرت إليها، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً، فدخلت فى بعضها، فوجدت شخصاً، فسلمت عليه، فرحب بى وسألنى عن حاجتى، فذكرت له غرضى فأمر يهودياً يذهب معى، فيوقفنى على البئر، ويطلعنى على الملكين. قال، فسرنا إلى البئر، ففتح سرداباً ونزلنا، فأمرنى أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبلين العظيمين منكسين على رؤوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى. قال: فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال، ففر اليهودى، فتعلقت به، فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت: بقرب حضرموت، وهى التى قال النبى ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار. قال علىّ كرّم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان: ماؤها يستشفى به، قيل إن النبى ﷺ تفل فيها، قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها، فيعافى. وقيل: إن النبى ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب: خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين، وبنيسابور آبار كثيرة، وهى معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء فى وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجرى، فينتفع به فى سقى الزرع، ثم يعود إلى ما كان، وعجائب الله كثيرة لاتكاد تنحصر. لا إله إلا الله ولا معبود سواه.

---

(١) القند: عسل قصب السكر إذا جمد.

فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول: فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم». وقال رواة الأثر: إن لله عز وجل دابة فى مرج من مروجه فى غامض علمه رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره. وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة، وقيل غير ذلك، وأقاليم الأرض سبعة. الإقليم الأول الهند، والثانى الحجاز، والثالث إقليم مصر، والرابع إقليم بابل، والخامس إقليم الروم والشام، والسادس إقليم الترك، والسابع إقليم الصين. وأوسط الأقاليم إقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذى هو سرة الدنيا وبغداد فى وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله، فسلموا من شقرة الروم وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. والممالك المشهورة التى ضبطت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر وأضيقها ثلاثة أيام. وقال أهل الهيئة: إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان فى سنة واحدة، وأنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار وبعضها حر وبعضها برد، فسبحان من خلق كل شىء، فأتقنه. لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثانى: فى ذكر الجبال

قيل: إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت، فخلق الجبال وأرساها بها، فاستقرت، ومجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ. ولنذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس.

فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً وفيه أثر أقدام آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد.

جبل الروم: الذى فيه السد طوله سبعمائة فرسخ وينتهى إلى بحر الظلمات.

جبل أبى قبيس: سمى بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كنّاه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدى الناس، وقيل غير ذلك.

جبل القدس: جبل شريف مبارك فيه غار يضىء بالليل من غير سراج، ويزوره الناس.

جبل أروند بهمذان: برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة فى السنة تقصد من كل وجه يستشفى بها.

جبل بالشام: لونه أسود كالفحم وترابه أبيض تبيض به الثياب.

جبل الأندلس: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلها فيه أوقدت، وبها جبل به عينان إحداهما باردة والأخرى حارة، والمسافة التى بينهما مقدار شبر، وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر.

جبل سمرقند: يقطر منه ماء فى الصيف يصير جليداً وفى الشتاء يحرق من حرارته.

جبل الصور: بكرمان يكسر حجره، فيخرج منه كصور الآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين، وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك.

جبل الأرجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمناً.

جبل هرمز: ينزل منه ماء إلى وهدة، فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن ثنى جرى.

جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة ويدخل فى كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة، وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب فى تلك السنة. ولنقتصر على ذلك، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث: فى ذكر المبانى العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ، ونقلة الأخبار: إن أول بناء بنى على وجه الأرض الصرح الذى بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام ابن نوح عليه الصلاة والسلام وبقعته بكوثى من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات. قالوا: كان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح فى ليلة واحدة بصيحة، فتبلبلت بها ألسنة الناس، فسميت أرض بابل.

إرم ذات العماد: التى لم يخلق مثلها فى البلاد.

حكى الشعبى فى كتاب (سير الملوك): أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة فى الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له شداد: إن آمنت بإلهك فماذا لى عنده؟ قال: يعطيك فى الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد: أنا أبنى مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدنى به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبنى فيها مدينة من ذهب. قال: فخرج أولئك الأمراء، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه، فساروا فى الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هناك أرضا واسعة طيبة الهواء، فاعجبتهم تلك الأرض، فأمروا المهندسين والبنائين، فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخًا من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليمانى حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلايكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا، فاستخرج منها الذهب واتخذه لبناً، ولم يترك فى يد أحد من الناس فى جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى فى وسطها أنهاراً، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب والجواهر واليواقيت واللآلىء، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيهاجنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد، وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر فى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا فى البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أوانى الذهب والفضة، فاتخذوا جميعا ما أمر به، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت فى أهل مملكته، وقصد مدينة إرم ذات العماد، فلما أشرف عليها ورآها قال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدنى به بعد الموت، وقد حصلت عليه فى الدنيا، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً، فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم فى طرفة عين، فخروا على وجوههم صرعى. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم: ٥٠]. وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس، فكانوا يرون بالليل فى تلك البرية التى بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضىء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً.

وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: عبد الله بن قلابة الأنصارى دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل، فخرج فى طلبها، فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره، وقال فى نفسه: هذه تشبه الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين فى الآخرة، فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليه أناخ راحلته، ودخل المدينة، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار، ولم ير فى المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت فى وعاء، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعدما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضى الله تعالى بدمشق،

وأخبره بجميع ما رآه، فقال له معاوية: في اليقظة رأيتها أم في المنام؟ قال: بل في اليقظة، وقد حملت من حصبائها وأخرج له شيئا مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك، ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه، فلما دخل عليه قال له معاوية: يا أبا إسحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبيه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦ - ٨]. وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري، ثم التفت، فرأى عبد الله بن قلابة فقال: ها هو يا أمير المؤمنين، وصفه واسمه في التوراة، ولايدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل: إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً بل قال إن النبي ﷺ قال يدخلها بعض أمتي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة الخورنق: الذي بناه النعمان بن امرئ القيس وهو النعمان الأكبر بناه في عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه، فخشي أن يبني لغيره مثله، فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه، فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار، فصارت العرب تضرب به المثل: يقولون جزاء جزاء سنمار. قال الشاعر:

جازى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ ... وحسن فعلٍ كما يجزى سنمار

ومن المباني العجيبة حائط العجوز: واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولداً، فأخذت له الرصد، فقيل لها يخشى عليه من التمساح، فلما شب الغلام خافت عليه، فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي، وقيل: بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها، وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لاينزل البحر، فصورت له صورة التمساح، فرآه شكلاً مهولاً، فأذهله، وأخذه الفزع والهم فضعف واتصل إلى أن مات. لامفر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام: وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا. قيل: إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرماً، وتعجب من بنيانها وصفتها وقيل: إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ولايقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أين الذي الهرمان من بنيانه ... ما قومُهُ ما يومه ما المصرعُ

تتخلف الآثار عن سكانها ... حيناً ويدركها الفناءُ فتُصرعُ

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها، فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجد داخله مزاليق ومهاوى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجد في أعلاه بيت وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه. ويقال: إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان، فقالوا: إنه بناها في ستة أشهر وقال: قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملون، فليكسها حصراً، والحصر أهون من الديباج، والأمر فيها عجيب جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منار الإسكندرية: التي بناها ذو القرنين، قيل: إنها كانت مبنية بحجارة مهندسة مغموسة في الرصاص، فيها نحو من ثلاثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر ويقال: إن

طولها كان ألف ذراع، وفى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو، فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت تصويتاً مطرباً، ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص، وقيل: كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس، واستقبلوا بها السفن، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق فى البحر، ويهلك كل من فيها، وكانت الروم تؤدى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودى: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً، وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال وقالوا للوليد: إن تحت المنارة كنوزاً وبإزائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها فهدموها، فلم يجدوا تحتها شيئاً، وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه، فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت، فصدئت، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً، وبطل إحراقها، فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها، وفى وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفى تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه.

وفى مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجارى فى كل طريق من طرقها ما لايعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها: اللجاة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء. كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس فى الدار خشبة واحدة بل أبوابها وغرفها، وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذى لايستطيع أحد أن يعمله من الخشب، وفى كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحى من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فينزل كل إنسان فى دار بجميع عياله وخيله، وغنمه وبقره، ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفى هذه المدينة أكثر من مائتى ألف دار، فيما يقال، ولايعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجاة لأنهم يلجأون إليها عند الخوف.

ومن المبانى العجيبة إيوان كسرى أنوشروان: بناه سابور ذو الأكتاف فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين، بناه بالآجر، والجص، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً.

وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آلته فى بنائه، فقيل له: إن نقضه يتكلف بقدر العمارة، فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليه، فوجد الأمر كذلك، وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه: هو آية الإسلام، فلا تهدمه.

وحكى أنه كان بمدينة تيسارية كنيسة بها مرآة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر فى تلك المرآة، فيرى صورة الزانى، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه، فعمد أهلها إليها، فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والستون

في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لاتكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس ومنها ما لايعرفونه وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لايذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة: وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والخارصيني، ولنبدأ أولا بذكر:

(الذهب) فقيل طبعه حار لطيف لشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية. قيل: إن النار لاتقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولايبلى ولايصدأ، وهو لين براق، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفرة من ناريته، والليونة من دهنيته، والبراقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوى القلب ويدفع الصرع تعليقاً، ويمنع الفزع والخفقان ويقوى العين كحلاً ويجلوها إذا كان ميلاً، ويحسن نظرها وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعاً، وإمساكه فى الفم يزيل البخر.

(الفضة) قريبة منه وتصدأ وتحترق وتبلى بالتراب، وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق انكسرت أو رائحة الكبريت اسودت.

ومن خواصها: أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول.

(النحاس) قريب منها ولكنه أيبس، وأغلظ فى الطبع.

ومن خواصه: إذا صدئ وطلى بالحامض زال صدؤه والأكل في آنيته يولد أمرضًا لا دواء لها.

(الحديد) كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلاّ وله فيها مدخل.

ومن خواصه: أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه، وحمله يقوى القلب ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسر النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً والبواسير تحملاً.

(القصدير) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض.

ومن خواصه: أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج ما فيها.

(الأسرب) هو الرصاص. ومن خواصه: أنه يكسر الماس، ومن خواص الماس الدخول فى كل شيء، وإذا شد من الرصاص قطعة على الخنازير، والغدد أبرأتها.

(الخارصيني) حجر لونه أسود، لونه يعطى حمرة.

ومن خواصه: إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمات نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت.

الأحجار الجوهرية: أصل الجوهر، وهو الدر على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر، ويضمها ويرجع إلى البحر، فينزل إلى قراره ولايزال طابقاً أذناه على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها، ويصير دراً، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان فى بطن هذا الحيوان شيء من الماء المر كانت الدرة كدرة، وإن لم يكن كانت صافية، وقيل غير ذلك. والدر نوعان: كبير، وصغير. قيل: إنه تصل الواحدة إلى مثقال.

ومن خواصه: إنه يفرح القلب ويبسط النفس ويحسن الوجه، ويصفى دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شد عصب العين.

(الياقوت) سيد الأحجار، وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والإسمانجوني، ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحب الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب ببياض، ثم الوردى، ثم الخمرى، ثم العصفرى وأردؤه الأزرق، الذى لونه يشبه زهر السوسن وأقله قيمة الأبيض.

خواصه: أنه لايعمل فيه الفولاذ ولا حجر الماس ولاتدنسه النار ويورث لابسه مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحوائج ويدر الريق فى الفم ويقطع العطش ويدفع السم ويقوى القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأبيض منه يبسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

(البلخش) هو مقارب الياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف.

ومن خواصه: إنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

(البنفش) أصناف أحمر مفتوح اللون صاف وأحمر قوى الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوسة بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

(عين الهر) حجر يتكون من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائيته رقيقة شفافة وفى مائيته سر إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس.

ومن خواصه: إذا علق على العين آمن عليها من الجدرى على ما قيل.

(الماس) يوجد بواد بالهند يقال: إنه مشحون بالحيات، فيأتى من يريد استخراجه من ذلك الوادى فيضع فى الوادى مرآة كبيرة، فتأتى الحيات فتنظر إلى خيالها فى المرآة فتفر من ذلك الجانب فينزل، فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى، فيلتصق الماس وغيره باللحم، فتأتى الطير، فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر، فيأخذه صاحب اللحم، وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر فى مكان، ومصيف ستة أشهر فى مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر فى غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك، ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب وضرب فإنه يتفتت وكذا إذا جعل فى شمع أو قار، وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب.

ومن خواصه: أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء.

ومن خواصه الجليلة: أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم.

(الزمرد) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر، وزنجارى وصابونى، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل.

ومن خواصه: إنه يدفع العين ويفرح القلب ويقوى البصر، ويصفى الذهن وينشط النفس.

(الفيروزج) نوعان: إسحاقى، وخلنجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى.

خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه، وينشط النفس، ولايصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت فيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه، ولايزال كذلك حتى ينطفىء.

(العقيق) معدن بأرض صنعاء باليمن، وهو ألوان يوجد عليه غشاوة ويحمى عليه ببعر الإبل، ثم يبرد ويكسر، وقيل: يوجد بالهند ولكن اليمن أجود.

خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأناة، وتصويب الرأى ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً، وحسن خلق، ويسكن الحدة عند الخصومة، قال رسول الله ﷺ: «من تختم بالعقيق لم يزل فى بركة».

(الجزع) هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن والصين، وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهم والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج، ويكثر بكاء الصبى وسيلان لعابه، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه، وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العدواة لكنه يسهل الولادة تعليقاً.

(البلور) هو صنف من الزجاج، يحكى أن ببلاد كيسان جبلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور فى ذلك الموضع قطع فى الليل لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم.

خواصه: النظر فيه يشرح القلب، ويبسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

(المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات، وبتحجره يشبه المعدن، ولايزال ليناً فى معدنه، فإذا فارقه تحجر ويبس.

خواصه: النظر فيه يشرح الصدر ويبسط النفس ويفرح القلب، ويذهب بالداء المحتبس فى العين، ويسكن الرمد، وسحاقته المخلوطة بالخل تجلو قلح الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ، وأنواعه كثيرة: أحمر، وأزرق، وأبيض، وأصله من البحر، قيل: إنه شجر ينبت، وقيل: إنه من حيوانه.

(حجر الماطليس) هو حجر هندى لايعمل فيه الحديد، والبيت الذى يكون فيه لايدخله السحر ولا الجن ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله فى عسكره.

(الحجر الماهانى) من تختم به أمن من الروع والهم والحزن والغم، ولونه أبيض وأصفر، ويوجد بأرض خراسان.

(حجر مراد) يوجد بناحية الجنوب.

وخاصيته: إن الجن تتبع حامله وتعمل له ماأراد.

(الدهنج) خاصيته: أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقى شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن وينفع من خفقان القلب وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه.

(السبج) خواصه: أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه ينفع عسر البول وإدمان النظر فيه يحد البصر، وسحاقته تجلو البصر، وإذا علق على من به صداع زال عنه.

(المغناطيس) يوجد فى بحر الهند، وهناك لايتخذ فى السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة.

خواصه: الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقاً، ومن تختم به كانت حاجته مقضية، وتعليقه فى العنق يزيد فى الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سم بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

(حجر الخطاف) الخطاف يوجد فى عشه حجران، أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على من يفزع فى نومه زال فزعه، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه.

(حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب.

(حجر الزنجفر) أصله من الزئبق واستحال.

وخاصيته: أنه يدمل الجراحات وينبت اللحم.

(حجر الملح) هو أنواع، وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط، وقد جعله الله قواماً للدنيا.

ومن خاصيته: أنه يحسن الذهب، ويزيد فى صفرته، وعن النبى ﷺ أنه قال: «يا على ابدأ بالملح واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء».

(حجر النطرون) قال أرسطو: ينفع الأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى فى العجين طيبه وبيضه ونشفه، وهو نوعان: أبيض وأحمر.

(حجر اللازورد) مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم فى أعين الناس، وينفع من السهر، والله أعلم، ومن أراد التعمق فى ذلك، فعليه بالكتب الموضوعة له، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف، والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التى هى مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس.

فصل: فى الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]. هو الصوت الحسن، وعن النبى ﷺ أنه قال: «أتدرون متى كان الحداء؟ قالوا: لا بأبينا أنت وأمنا يارسول الله. قال: إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له، فوجد غلاماً قد تفرقت إبله، فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح: وايداه، فسمعت الإبل صوته، فعطفت عليه، فقال مضر: لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». ، وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً فى الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتحب، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادى للمنصور، وكان يضرب المثل بحدائه: مر يا أمير المؤمنين بأن يُظمئوا إبلاً ثم يوردوها الماء فإنى آخذ فى الحداء فترفع رؤوسها، وتترك الشرب، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق، فيصفو له الدم، وتنمو له النفس ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء، حتى يرقص ويطرب، وزعمت الفلاسفة: أن النغم فضل بقى من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنت إليه الروح. ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو مطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع، فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله فى ضميره، ولأهل الرهبانية نغمات، وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها، ويبكون على خطاياهم، ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضى يحضر مجلس الرشيد، وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاء، كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم، وكان صاحب الفلاحات يقول: إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء، قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت ... إصغاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن فى البحر دواب ربما زمرت أصواتاً مطربة، ولحونا مستلذة يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها، فاعتنى بها، وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم، فلم يبلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ وممازجته القلب. ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها، فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد نشاطها وقوتها بالحداء، فترفع آذانها يمنة ويسرة، وتتبختر فى مشيتها، وزعموا أن السماكين بنواحى العراق يبنون فى جوف الماء حظائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك فى الحظائر، فيصيدونه، وقد نبهت على ذلك فى باب ذكر البحار، وما فيها من العجائب، والراعى إذا رفع صوته، ونفخ فى يراعته تلقته الغنم بآذانها، وجدّت فى

رعيها، والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت فى الشرب وليس شىء مما يستلذ به أخف مؤونة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمدت ومازالت ملوك فارس تلهى المحزون بالسماع، وتعلل به المريض، وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيبانى:

وسماع مسمعة يعللنا ... حتى ننام تناوم العَجمِ

وحكى أن البعلبكى مؤذن المنصور رجع فى أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية، فهى لك لاتعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمارة فى قينة:

ألم ترَها لا أبعد الله دارها ... إذا رجْعت فى صوتها كيف تصنع

تدير نظام القول ثم ترده ... إلى صلصلٍ من صوتها يترجّع

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب، وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

ربَّ سماع حسنٍ ... سمعته من حسن

مقرّبٌ من فرحٍ ... مبعّدٌ من حزنِ

لا فارقانى أبداً ... فى صحةٍ من بدنِ

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير:

قلْ للجبان إذا تأخّر سرجُه ... هل أنت من شرك المنية ناجى

إلا شاجن شجعت نفسه، وقوى قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغنى بقول حاتم الطائى:

يرى البخيلُ سبيل المال واحدةً ... إنَّ الجواد يرى فى ماله سُبُلا

إلا انبسطت أنامله، ورشحت أطرافه، واختلف الناس فى الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روى أن النبى ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بنى عبد مناف، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام». واحتجوا فى إباحة الغناء، واستحسانه بقول النبى ﷺ لعائشة رضى الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغنى؟ قالت. لم نفعل. قال: أوَ ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول، ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم ... فحيّونا نحييكم

ولولا الحبة السمراءُ ... لم نُحلُلْ بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم، ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدل عليه ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبى ﷺ حيث قلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيّها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ويدل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة

يلعبون فى المسجد الحرام حتى أكون أنا التى أسامه»، ويدل عليه أيضاً ما روى فى الصحيحين من حديث عقيل، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله تعالى عنها «أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربان والنبى ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبى ﷺ عن وجهه، وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»، وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه للنابغة الجعدى: أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك، فأسمعه كلمة، فقال له: وإنك لقائلها. قال: نعم قال: طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب، وعن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فسمعته يغنى بالركابية يقول:

فكيف ثوائى بالمدينة بعدما　　قضى وطراً منها جميلُ بنُ معمرِ

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر قال: فلما استأذنت عليه قال لى: أسمعت ما قلت؟ قلت: نعم. قال: إذا خلونا قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم، وقد أجازوا تحسين الصوت فى القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن، وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب ويستفز العقول، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهذا باطل فى أصله، وتأولوا فى ذلك قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا﴾ [لقمان:٦]. وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون: إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوا، وقال رجل للحسن البصرى: ما تقول فى الغناء يا أبا سعيد؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه ويواسى به صديقه. قال: ليس عن هذا أسألك. قال: وعمّ سألتنى؟ قال: أن يغنى الرجل. قال: وكيف يغنى؟ فجعل الرجل يلوى شدقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن: والله يا ابن أخى ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن إلا تشويه رجهه وتعويج فمه، وسمع ابن المبارك سكران يغنى هذا البيت:

أذلنى الهوى فأنا الذليلُ　　وليس إلى الذى أهوى سبيلُ

قال: فأخرج دواة وقرطاساً، وكتب البيت، فقيل له: أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران، فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة فى مزبلة. وكان لأبى حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب، وكان يغنى على شرابه بقول العرجى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا　　ليوم كريهة وسداد ثغر

قال: فأخذه العسس[1] ليلة وحبسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو فى الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى، فاستأذن عليه، فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتى أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى، وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلح الله الأمير: إن لى جاراً من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع فى حبسه، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من فى الحبس إكراماً لأبى حنيفة، فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يافتى؟ يعرض له بشعره الذى ينشده قال: لا والله ولكنك بررت وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة فى الحديث روى عنه مالك ابن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلاميذ، فقالت له: أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح، وأنت تقول:

إذا وَجَدتْ أوارُ الحب فى كبدى　　عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هبى بَرُدَتْ ببرد الماء ظاهره　　فمن لنارٍ على الأحشاء تتّقدُ

(١) العسس: اسم للجمع، وهو الخدم.

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبى رباح فى العبادة. قيل: إنه مر يوماً بسلاَّمة وهى تغنى، فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها، فقال له: هل لك أن تدخل، وتسمع، فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته، فأعجبته، ولم يزل يسمعها، ويلاحظ النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غنته:

ربَّ رسولين لنا بلّغا رسالةً من قبل أن نبرحا
الطرف للطرف بعشناهما فقضيا حاجاً وما صرّحا

قال فأغمى عليه، وكاد يهلكُ، فقالت له: إنى والله أحبك. قال: وأنا والله أحبك، قالت: وأحب أن أضع فمى على فمك. قال: وأنا والله كذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك عدواة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعضٍ عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف:٦٧]. ثم نهض وعاد إلى طريقته التى كان عليها، وأنشأ يقول:

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها فاعجبْ لما تأتى بِهِ الأيامُ
فاليوم أعذرهم وأعلم إنّما سبلُ الضلالةِ والهدى أقسامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأنزله فى دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم، فاسمع ما فى منزلك الذى جعلته من لحمك ودمك، وأنزلت بين حرمك، فجاء معاوية، فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخر له، ثم انصرف، فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلى، فنبه فاختة، وقال لها: اسمعى مكان ما أسمعتنى، هؤلاء قومى ملوك بالنهار رهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة، فقال لخادمه: اذهب فانظر مَنْ عند عبد الله بن جعفر، وأخبره إنى قادم عليه، فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية لم يرَ فى المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: مره، فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوى الأذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذنى عليلة، فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغنِّى، فأمره عبد الله بن جعفر، فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داو أذنى من علتها، فتناول العود وغنى وقال:

وَدعْ سعاد فإنّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه، فقال له معاوية: لِمَ حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال، فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية من أعزّ جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه. فغنى بديح وقال:

أليس عندك شكر للتى جعلت ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحمم
وجدّدت منك ما قد كان أخلَقَهُ صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألتنى عن تحريك رأسى، فأجبتك وأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك، فقال: كل كريم طروب، ثم قام، وقال: لايبرح أحد منكم حتى يأتى له إذنى، ثم ذهب، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب. وحدّث ابن الكلبى، والهيثم بن عدى قالا: بينما عبد الله بن جعفر فى بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا صوت رقيق لقينة تغنى وتقول:

فنزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن، فلما رأوه قاموا إجلالاً له، ورفعوا مجلسه، فأقبل عليه صاحب المجلس، وقال يا ابن عم رسول الله ﷺ: أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومن أذن لك؟ قال: قـينتك هذه سمعتها تقـول: قل للكرام ببابنا يلجوا، فولجنا، فإن كنا كـراماً، فقد أذن لنا، وإن كنّا لئاماً خرجنا ملمومين، فقبّل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك، والله ما أنت إلا أكرم الناس، فبعث عبد الله إلى جارية من جواريـه، فحضرت ودعا بثياب وطيب، فكسا القوم، وطيـبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل، وقال: هذه أحذق بالـغناء من جاريتك. وسمع سليمـان بن عبد الملك مغنيـاً فى عسكره، فقال: اطلبـوه، فجاءوا به، فقال: أعد عليَّ ما غنيت به، فغنى واحتفل. وكان سليمان أغـير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل فى الشوك، وما أظن أنثى تسمع هذا إلاَّ صبت إليه، ثم أمر به فخصى.

أصل الغناء ومعدنه:

قال أبو المنذر هشام: الغـناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأمـا النصب: فغناء الفتيان والركـبان، وأما السناد: فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج: فالخفيف كله وهو الذى يستفز القلوب ويهيج الحليم. وقيل: كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى، فاشيـاً ظاهراً، وهى المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى، ودومة الجندل، واليمامـة، وهذه القرى مجامع أسـواق العرب، ويقال: إن أول من صنع العـود لامك بن قاين بن آدم، وبكى به على ولده، ويقال: إن صانعه بطليموس صـاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحون الثمانية، والله سبحـانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الرؤساء

قيل: إن أول من غنى فى العرب قينتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قين ويحك قم فهينم … لعلَّ الله يسقينا غماما

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر، وقيل: أول من غنّى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذى علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه، وهو أول صوت غنى به فى الإسلام هذا البيت:

قدْ برانى الشّوق حتى … كدتُ من وجدى أذوبُ

ثم نجم بعد طويس بن طنبور، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرب جميعاً … دلفتُ لهم بباطية هدورِ
فلا تشربْ بلا طربٍ فإنى … رأيت الخيل تشربُ بالصفير

ومنهم حكم الوادى، ومن غنائه:

أمدح الكأسَ ومَنْ أعملَهَا … واهجِ قوماً قتلونا بالعطش
إنما الراح ربيع باكر … فإذا ما وافت المرءَ انتعش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلى، وابن جامع السهمى وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشدهم تصرفا في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول فى ابن جامع؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلى؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين، وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان، وغني رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكرُ أيام الحمى ثمّ أنثنى … على كبدى من خشية أن تصدّعا
فليست عشيات الحمى برواجع … عليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عينى اليسرى فلما نهيتها … عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

وحدّث ابن الكلبى عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان من أضيق الناس خلقاً إذا قيل له غنِّ قال: لمثلى يقال غنِّ عليَّ عتق رقبة إن غنيت يومى هذا، فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق، فلم يبق فى المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر بفضل ردائه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما، فقالا: يا مولانا قل ما أمرتنا به، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فأمسكاه، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفا به فى العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه، فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: لبيك وسعديك بأبى أنت

وامى قال: اسمع منى ما أقول لك، واعلم أنك مأسور فى أيديهما، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك فى العقيق. قال: فصاح ابن عائشة: واويلاه واعظم مصيبتاه، فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم من يحصى، ثم أقبل يغنى، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبّر الناس بلسان واحدة تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض، وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حياً وميتاً، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت، فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة، فقال ابن عائشة: والله ما مرت بى شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائى، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد يوم مر عليك؟ يقول: يوم العقيق.

وحدّث أبو جعفر البغدادى قال: حدثنى عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلى أستفيد حكمة أكتبها، فقال: ادخل إلى أبى عيسى. قلت: أمثل أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلىّ فحملونى حملاً، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبى عيسى قال لى: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتينا بشراب، وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درّى، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم المشدود ودبيس ورقيق. ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لما استقلّ بأرداف تجاذبه ... واخضرّ فوق بياض الدرّ شاربهُ
وأشرق الوردُ من نسرين وجنته ... واهتزّ أعلاه وارتجّت حقائبه
كلّمته بجفون غير ناطقة ... فكان من ردّه ما قال حاجبه

ثم سكت وغنّى دبيس:

الحبُّ حلو أمرّته عواقبُهُ ... وصاحبُ الحبُ صبٌّ القلب دائبهُ
استودع الله من بالطرف ودّعنى ... يوم الفراق ودم العين ساكبُهُ
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتفُ بى ... ارفقْ بقلبك قد عزّت مطالبُهُ

ثم سكت وغنّى رقيق:

بدر من الإنس حفّته كواكبه ... قد لاح عارضه واخضرّ شاربه
إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلفُهُ ... أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافية ... فقام يشدو وقد مالت جوانبه

ثم سكت، وابتدأ المشذود يقول:

يا ديرَ حنّة من ذات الأكيراح ... من يصحُ عنك فإنّى لستُ بالصاحى

ثم سكت وغنى دبيس:

دع البسـاتين من آسٍ وتفّـاح ... واعـدل هديت إلى شيخ الأكيـراح
واعـدلْ إلى فتيـةٍ ذابت لحومهـم ... من العبـادة إلا نضو أشبـاح
وخمـرةٍ عُتّـقت فى دنّهـا حقبـا ... كـأنها دمعـة فى جفن سيّـاح

ثم سكت وغنى رقيق:

لاتحفـلن بقـول اللائم اللاحى ... واشـرب على الورد من مشمـولة الراح
كـأسـاً إذا انحـدرت فى حلق شاربهـا ... أغناه لألاؤها عن كل مصبـاح
مـا زلت أسقى نديمى ثم ألثمـه ... والليل ملتحفٌ فى ثوب أمسـاح
فقـام يشدو وقـد مـالت سوالفـه ... يـا دير حنّة من ذات الأكيـراح

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غنّ لى شعرى فغناه:

يا لجّـة الدمع هل للغمض مرجـوع ... أم للكرى من جفـون العين ممنوعُ
مـا حيلتى وفـؤادى هائمٌ دنفٌ ... بعقـرب الصدغ من مولاى ملسـوع
لا والذى تلفت نفسى بفـرقتـه ... فـالقلب من فرق الأحزان مصدوع
مـا أرّق العينَ إلا حبٌ مستبـدعٍ ... ثوابُ الجمـالِ على خديّه مخلوع

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لايحصى عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

وحكى عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: من بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بن أمية، وأمير المؤمنين يشتهى سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا مـا تراجعنا الذى كـان بيننا ... جـرى الدمع من عينى بثينة بالكحلِ
فيـا ويح نفسى حسب نفسى الذى بهـا ... ويا ويح عقلى مـا أصبت به أهلى
خليلىّ فيمـا عشتمـا هل رأيتمـا ... قتيـلاً بكى من حبّ قـاتله قبلى

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً، وقال: أحسنت لله أبوك، ثم قلّده عقداً نفيساً، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك ياهاشم؟ فقال: يا أمير المومنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لى الأمير حدثته به، قال: قد أذنت لك. قال يا أمير المؤمنين: قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً، فلما وقعت عينه علىّ قال: هذا أعرابى قد ظهر من البوادى ادعو به لنسخر به، فدعانى، فسرت إليه، ولم يعرفنى، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى، فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إلىّ كالمنكر، فقلت يا أمير المؤمنين: أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح وتر كذا، ووتر كذا، ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا فى هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة علىّ وقالت: أستاذى هاشم ورب الكعبة، فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهى، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لى بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى بر أستاذى؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته فى عنقى، وقالت: هو لك، ثم

قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب فى السفينة، وطلعت مع إحدى الجاريتين، وأتبعتها صاحبتى، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت فى الماء، فغرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جزع الوليد عليها، وبكى بكاء شديداً، وبكيت أنا عليها أيضاً بكاء شديداً، فقال لى يا هاشم: ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعنى إياه، فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبتنى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائى، فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم. وقال على بن سليمان النوفلى: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا	كفى لمطايانا برؤياك هاديا
ذكرتك بالديزين يوماً فأشرفت	بنات الهوى حتى بلغن التراقيا
إذا ما طواكِ الدهرُ يا أمَّ مالكِ	فشأن المنايا القاضيات وشانيا

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليّ. قال: أتمنى الهنىء والمرىء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة، فأمر له بهما، فقيل له يا أمير المؤمنين: إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لايسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لاسبيل إلى استرداده ما أعطيت، ولكن احتالوا فى شرائهما منه، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار، فرضى بذلك، فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجمية ويغنى بها شعره، وشعر غيره، فقال له يوماً: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء، فغنى شعراً أرتاح إليه، وأطرب عليه يومى هذا، قال إسحاق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما فى البين من حرقِ	حتى تناودا بأن قد جيء بالسفن
قامتْ تودّعنى والدمع يغلبها	فهمهمتْ بعض ما قالت ولم تبنِ
مالتْ إلىَّ وضمّتنى لترشفنى	كما يميل نسيم الريح بالغصنِ
وأعرضت ثم قالت وهى باكية	يا ليت معرفتى إيّاك لم تكنِ

قال: فخلع علىَّ خلعة كانت عليه وأمر لى بمائة ألف درهم، وقال وغنيته يوماً:

قفى ودِّعينا ياسعادُ بنظرةٍ	فقد حان منا يا سعاد رحيلُ
فيا جنّة الدنيا ويا غاية المنى	ويا سؤل نفسى هل إليك سبيلُ
وكنت إذا ما جئت جئت لعلةٍ	فأفنيت علاّتى فكيف أقول
فما كل يوم لى بأرضك حاجةٌ	ولا كل يوم لى إليك وصول

فقال: والله لا سمعت يومى غيره وألقى علىَّ خلعة من ثيابه، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم: ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه: إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غداً، فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب، قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت

القينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب، فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك ابن صالح بنفسه، فاتفق بالأمر المقدر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت وكان صاحب جلالة رهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لامزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لايطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم ودخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا وقمنا إجلالاً له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال: فما كان أسرع من أن طُرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب لساعته، ثم قال: خففوا عنى فإنه شىء ما فعلته والله قط قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت قال: بلى إن فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير علىَّ فتسأله الرضا عنى، فقال جعفر: قد رضى عنك أمير المؤمنين قال: وعلىَّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هى حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها، قال: أريد أن أشد ظهر ابنى إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: وقد ولاه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيب أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح، قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك، قلنا هو كما ظننت قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألنى رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبته؟ قلت: قد رضى عنك أمير المؤمنين، قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا؟ قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين، قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا؟ قلت: ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية، قال: قد أجبته إلى ذلك، ثم ماذا؟ قلت: قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال: وقد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم ابن المهدى: فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتداه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازى قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لاتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد علىَّ ما سمعت فقال: والله لو كان عندى قرى[1] أقريكه لفعلت، ولكنى أجعله قراك، فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغنى ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها	أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدُها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها	إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها إلىَّ فإذا هى كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) قرى: كل ما يؤتى من كرم الضيافة.

فى ذكر القينات والأغانى

حكى على بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها، قال على بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذا أيقظنى، فقال: يا على قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضيت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لفى حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة. فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هى تضرب العود وتقول:

أدور فى القصر لا أرى أحداً ... أشكو إليه ولا يكلمنى
كأننى قد أتيت معصية ... ليس لها توبة تخلصنى
فهل شفيع لنا إلى ملك ... قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ... عاد إلى هجره وصارمنى

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قلت: يا مولاى رأيت فى منامى هذا الليلة كأنك قد رضيت عنى، فانشدت ما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال يا على: هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه ومن كان معه من ندمائه وشرب رقد ولم يخرج، فشرب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغنى رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى ... مسترشفاً من ريق فيك البارد
وكأن كفك فى يدى وكأننا ... بتنا جميعاً فى لحاف واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما ... فى راحتى وتحت خدك ساعدى
فقطعت يومى كله متراقداً ... لأراك فى نومى ولست براقد

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيراً رأيت وكلا ما أملته ... ستناله منى برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلى ودمالجى ... وتحل بين مراشفى ونواهدى
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا ... ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال: ما هذا؟ فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعتقها من وقتها وزوجها به، وقال: خذها ولا تقربنا

بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدى جارية يقال لها كاعب وكانت بكراً ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال: فتلاعب عليها أبو نواس، فتمنعت فوقع فى قلبه منها ما وقع وأحبته هى أيضاً، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من القصر، فأمسكها، فبكت وقالت له: يا سيدى الموت دون ذلك، فقال أبو نواس: هذا جزع الأبكار، فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة فى سدلة وهى سكرى لا تفيق، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هى خالية من البكارة، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم، فلم يجد، فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهدة الثديين من خدم القصر ... مرقوقة الخدين لبلية الشعر
كلفت بها دهراً على حسن وجهها ... طويلاً وما حب الكواعب من أمرى
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها ... وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئاً فقالت بعبرة ... أموت ولا هذا ودمعتها تجرى
فلما تعارضنا توسطت لجة ... غرقت بها يا قوم فى لجج البحر
فصحت أغثنى يا غلام فجاءنى ... وقد زلقت رجلى وصرت إلى الصدر
ولولا صياحى بالغلام وإنه ... تداركنى بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمرى لا ركبت سفينة ... ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

ومن ذلك ما حدث الشيبانى قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرة لخلق الله وداً ... وتلقى بالتحية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها ... فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ... ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سويد: حدثنى أبو زيد الأسدى قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت، فقلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، وكان مطرقاً، فرفع رأسه، وقال: أبا زيد فى مثل هذا الحين تصاحبنا، فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه وقال: أبا زيد ما يطيب فى يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تتولها غادة هيفاء مضمومة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمى بخدها، فأطرق سليمان ملياً لا يرد جواباً تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه، فقال: أبا زيد حضرت فى يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرنى ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندرانى يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها، وفى رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحراً،

وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطر دماً وهي تقول: عباد الله من لى بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً وماتوا كمداً، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً، ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها، فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترنى، ثم قالت: اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج فى عينى لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزنى، والصبا يعاودنى، والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها:

إنما الذلفاء يا قوتة ... أخرجت من كيس دهقان

شراؤها على أخى ألف ألف درهم، وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفى الصبر سلوة وفى توقع الموت نهية، قم أبا زيد فى دعة الله تعالى ، ثم قال: يا غلام نفلة ببدرة، فأخذتها وانصرفت، قال فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له : سنان، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان فى أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له نريد قرأ أصلحك الله، قال: وما "راكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان فى مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا، فرفع صوته يغنى بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتى فارقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر ما يدرى مضاجعها ... أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنت لمشت نحوى على قدم ... تكاد من لينها فى المشى تنفطر

قال فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء ؟ فقال:

ألا رب صوت رائع من مشوه ... قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعينى من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام على بسنان، فدعت الذلفاء خادماً لها، فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرته، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملنى على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن

عبده، فليفعل، قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل دقت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمك.

وحكى: أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحة ... ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي ... واهنأ به من كف ذي الجارية
واجعل لمن أنفذه خلوة ... تحظى بها في الليلة الآتية

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها، فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات:

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً ... على الرغم مني فصبراً جميلا
وكنت الخليل وكان الرسول ... فصرت الرسول وصار الخليلا
كذا من يوجه في حاجة ... إلى من يحب رسولا جميلا

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية، فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض، فكتب إليها يقول:

لأهجرن حبيباً خان موعده ... وكان منه لصفو العيش تكدير

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيباً خان موعده ... ولا تذمن وعداً فيه تأخير
ما كان حبي إلا من حدوث أذى ... لا يستطاع له بالقول تفسير

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمست تباع ولو تباع بوزنها ... دراً بكى أسفاً عليها البائع

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحسدها الجواري وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حسبي حسني، فازداد بها المأمون عجباً، فسمتها الجواري، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اختلست ريحانتي من يدي ... أبكي عليها آخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت ... نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي ... ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي ... فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل فى قينة:

أمــارحــهــا فــتــغــضب ثم تـرضى ... فكـل فــعــالهــا حــسن جــمــيل
فــإن غــضــبت فــأحــسن ذى دلال ... وإن رضــيت فـليس لهــا عــديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثنى إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى قال: كان فى المدينة رجل من بنى هاشم وكان له قينتان يقال لإحداهما رشا وللأخرى جؤزر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفى لذتك ولا لذة لى قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لى نبيذاً، فإنه لا يطيب لى عيش إلا به، فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمى وغمز جاريتيه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال فى نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتى أين المرحاض؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا قال يقول غنيانى:

رحــضت فــؤادى فــخليــتنى ... أهــيــم مــن الحــب فــى كــل وادى

فاندفعتا تغنيانه: فقال فى نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عنى، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال يا حبيبتى أين المخرج؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنيانى:

خــرجت لــهــا من بطـن مكة بـعــدمــا ... أقــام المنـادى بالعــشى فــأعــتــمــا

فاندفعتا تغنيانه، فقال فى نفسه لـم يفهما عنى، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتى أين المذاهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت يقول غنيانى:

ذهبـت من الهــجــران فـى كل مــذهب ... ولـم يـك حــقــاً كـل هذا التــجـنب

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لم يفهما عنى، وما أظن القبيحتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتيّ أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

خــلا عـلـى بقــاع الأرض إذا ظنـوا ... من بـطن مكـة واســترعــانى الحــزن

قال فغنتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتى أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

أوحــشــونى وعــز صــبــرى فــيــهم ... مــا احــتــيــالى ومــا يكـون فـعــالى

قال: فاندفعتا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتى أين الكنيف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل قالت: ما يقول: قالت: يسأل أن تغنى له:

تــكــنــفــنــى الــهــوى طــفــلا ... فــشــيــبنـى ومــا اكــتــهــلا

فقال: واويلاه، واعظم مصيبتاه، هذا والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا زانيتان إن لما تعلماني به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك، وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي؟ فقال الرجل: حياة نفسي أعز على من وطائك، وقيل إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكنفني الملاح واضجروني ... على ما بي بنيات الزواني
فلما قل عن ذاك اصطباري ... قذفت به على وجه الغواني

قال، فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالاً ومضى إلى سبيله.

قال علي بن الجهم: قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحب منزلة ... تدني إليك فإن الحب أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب وأنشدت:

اجعل شفيعك منقوشاً تقدمه ... فلم يزل مدنياً من ليس بالداني

وكان أشعث يختلف إلى قينة بالمدينة، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عوداً من الأرض وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنياً له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة بنت فلان، فأقلقني الشوق إليها فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرته لك، فأطرق ملياً ثم غناه:

وددت من الشوق المبرّح أنني ... أُعار جناحيْ طائر فأطير
فما لنعيم ليس فيه بشاشة ... وما لسرور ليس فيه سرور
وإن امرؤٌ في بلدة نصف قلبه ... ونصف بأخرى غيرها لصبور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات، ولكن ما قل وجل خير من كثير يمل، وفيما ذكرته كفاية، والله المسئول أن يمدني منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف
وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، وقال أعرابى: العشق خفى أن يرى وجلى أن يخفى فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وقيل: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بن الحسحاس:

وكم قد شققنا من رداء محبر ... ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شُقَّ برد شُقَّ بالبرد برقع ... من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل لأعرابى: ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال: إنى لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك، وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيباً أتى مكة وجميل فيها، فقيل لجميل: دونك شبيباً، فخذ بثارك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها فى الحشى أثر ... يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ... ومبرد الحب لا يبقى ولا يذر

وفى «الجليس الأنيس» لأبى العالية الشامى قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها توارى عن الأبصار مدخله، وخفى فى القلوب مسلكه، وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد، والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة وقال المجنون:

قالت جننت على ذكرى فقلت لها ... الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون فى الحين

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس سيء الأدب، فغمه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه، قال: وما ذاك الذى حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها،

فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبى الجارية فقال له: إنى مسر إليك سراً، فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا للملك، ثم لتعلمنى خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسره إليك، فتقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، فقال له: إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة لا يدرى به، فتقدم إليه وأمره أن يدفع أمرها إلىّ ويسألنى أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بأبيها وزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، فقال: يابنى لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست فى خبائك فإنى أمرتها بذلك وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بعدى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمره به.

وكان عبد الله بن عبيدة الريحانى يهوى جارية، فزارته يوماً، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس أى حتى تقوم الجارية، وقالت ليلى العامرية فى قيسها:

لم يكن المجنون فى حالة ... إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى ... وإننى قد ذبت كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنى ليرضينى المَمَرُّ ببابها ... وأقنع منها بالشتيمة والزجر

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشق المعذب صبراً ... فخطايا أخى الهوى مغفورة
زفرة فى الهوى أحط لذنب ... من غزاة وحجة مبرورة

وقال عمر بن أبى ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تساررنى وهذه تعضنى فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه، وأنشد شيبان العذرى يقول:

لو حز بالسيف رأسى فى محبتها ... لطار يهوى سريعاً نحوها رأسى

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لو أمرنى الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذابا.

الفصل الثاني من هذا الباب: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «من عشق فعف، فمات، فهو شهيد»[1]، وقال ﷺ: «عفوا تعف نساؤكم»[2]. وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزود كل الناس زاداً يقيهم ... ومالي زاد والسلام على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليَّ، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فلما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: امسك يا هذا. أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟ قال إبراهيم بن محمد المهلبي:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوف الله والحذر

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر

أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرام منهم وطر

كذلك الحب لا إتيان معصية ... لا خير في لذة من بعدها سقر

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامح اللحاظ فإني ... والذي يملك الفؤاد عفيف

ونحو ذلك قول القائل:

فقالت بحق الله لا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبه الطيالس

فجئت وما في القوم يقظان غيرها ... وقد نام عنها كل واش وحارس

فبتنا بليل طيب نستلذه ... جميعاً ولم أقلب لها كف لامس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بضيفي هذا خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره، وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد. ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما تحت ذيلها خبر

ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظر

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول، فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقى الله ولم يسفك دماً، ولم يشرب خمراً،

---

(١) ذكره ملا على القاري في «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» صفحة (٣٣٨) الحديث رقم (٥٠٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/٦-١).

ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة؟ قلت: أي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك، فذكرت له بثينة، فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب: أبي النبي ﷺ أنه دعته بغي إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ، وكانت جميلة، فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رأته بين عينيه، فأبى وقال:

أما الحرام فالحمام[1] دونه | والحل لا نأبى ونستدينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه | يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر:

وأحور مخضوب البنان محجب | دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسي عن مقام يشينها | ولست مريداً ذاك طوعاً ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت، وقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها | فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه | وأنت لأخرى صاحب وخليل

وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبة خردل | وهن دوان في الحديث أوانس
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبة | كما كرهت صوت اللجام الشوامس

وقال آخر:

حور حرائر ما هممن بريبة | كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقاً | ويصدهن عن الخنى[2] الإسلام

وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف:

أتأذنون لصب في زيارتكم | فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به | عف الضمير ولكن فاسق النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يا غزالاً لي إليه | شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الـ | ـضيف إحسان إليه

---

(١) الحمام: الموت.

(٢) الخنى: الفحش.

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبى إليه، فاعلميه أنى وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أعاد البيتين، فـأكبت عليه، فقال لها: كفى، قلت بـخائن، فقالت: قد وهبتنى لك مولاتى وأنا الرسـول، فقال: أما الآن فنعم، وأنشد المبرد:

مـا إن دعـانى الـهـوى لفـاحـشـة ... إلا نـهـانى الحـيـاء والكرم
فـلا إلى فـاحـش مـددت يدى ... ولا مـشـت بى لـزلـة قـدم

وقال آخر:

يقـولون لا تـنظر فـذاك بليـة ... بلى كل ذى عـينين لابد ناظر
وهل بـاكـتـحـال العين بـالعين ريبـة ... إذا عف فـيـمـا بينهن السـرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً، ومتى أنشد بيت شـعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو فى الطواف يوماً إذا نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفى مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمى وأعز الناس على وإن أباها منعنى من تزوجها لفقرى وفاقتى، وطلب منى مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر على ذلك. قـال: فطلب الخليفة أباها، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاى تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تـقـول وليـدتى لما رأتنى ... طربت وكنت قـد أسليت حـينا
أراك اليـوم قـد أحدثت عـهـداً ... وأورثك الـهـوى داءً دفـينا
بحـقك هل سـمـعت لهـا حـديثـاً ... فـشـاقـك أو رأيت لهـا جـبـينا
فـقلت شكا إلى أخ مـحب ... كـمـثل زمـاننـا إذ تعلمـينا
وذو الشـجـو الـقـديم وإن تعـزى ... مـحب حين يلقى العـاشـقـينا

ثم عد الأبيات فإذا هى خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درك من خمسة أعتـقت خمسة، وجمعت بين رأسين فى الحلال. وروى عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبنى حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بـزينب ألـم قـبـل أن يرحل الـركـب ... وقـل لا تمليـنا فـمـا مـلك الـقلب

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا . قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحباك. قالت: أما والله إن اليوم مـوعده، وعدنى العام الأول بالاجتماع فى هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فبينما هى تكلمنى إذا أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إنى لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريباً من الخيمة، ثم أقبل فسلم، ثم جلس قريباً منها، فسألته أن ينشدها، فأنشدها، فقلت فى نفسى محبـان قد طال التنائى بينهما، فلابد أن يكون لأحدهما إلـى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعـيرى لأشد عليه، فقال: على رسلك إنى معك، فجلست حـتى نهض معى فسرنا وتسامرنا، فقال لى: أقلت فى نفسك محـبان التقيا بعد طول تناء فلابد أن يكون لأحـدهما إلى صاحبـه حاجة؟ قلت: نعم قـد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحـببتهـا ما

جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسى هذا، فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هى العفة فى المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدنى قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً ولم يتناشدا شعراً بل يقوم إليها، ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة، وقال الأصمعى قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم ؟ قالت: الضمة والغمزة والقبلة، ثم أنشأت تقول:

مـــــا الحب إلا قـــــبلة	وغـــمـــز كف وعـــضـــد
مـــــا الحـب إلا هـكـذا	إن نـكـح الحـب فـــســـد

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قـــد فـــســد العـــشق وهان الـهـــوى	وصـــار من يعـــشق مـــســتـعـجـــلا
يـريـد أن يـنـكـح أحـــبـــابــه	من قـــبل أن يشـــهـــد أو ينحـــلا

وقيل لرجل: وقد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذى أمتعنى بحبها وأشقانى بطلبها. قيل: فما كنت صانعاً بها قال: كنت أطيع الحب فى لثمها وأعصى الشيطان فى إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إنى إذن للئيم لم يلدنى كريم.

ومر سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فى ليلة فى بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طـال هذا الـليـل وازور جـــانـبـــه	ولـيس إلـى جنـبـى خليل ألاعـــبـــه
فـــوالـلـه لولا الله تـخـــشى عـــواقـــبـــه	لحـــرك من هـذا الســـرير جـــوانبـــه
مـــخـــافـــة ربـى والحـــيـــاء يعـــفـنى	وإكـــرام بـعلـى أن تنـال مـــراتـبـــه

قال: فسأل عمر رضى الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله فى الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضى الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب (تلقيح فهوم الأثر) عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذا سمع امرأة تقول:

هل من ســـبـــيـل إلى خـــمـــر فـــأشـــربهـــا	أم من ســـبـــيل إلى نـــصـــر بـــن حـــجـــاج
إلى فـــتـى مـــاجـــد الأعـــراق مـــقـــتـــبل	ســـهـل المحـــيـــا كـــريم غـــيـــر ملجـــاج
تنـمـــيـــه أعـــراق صـــدق حين تـنـســبـــه	أخـى وفـــــاء عن المكـروب فـــــراج

فقال عمر رضى الله تعالى عنه: لا أرى معى بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق فى خدورهن. على بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم ، فافتتن الناس بعينيه، فقال له عمر: والله لا تساكننى فى بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبى؟ قال: هو ما أقول لك،

ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فدست إليه المرأة أبياتاً وهى:

قل للإمام الذى تخشى بوادره ... مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعل الظن حقاً أن تبينه ... إن السبيل سبيل الخائف الراجى
إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه ... حتى يقر بإلجام وإسراج

قال. فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج فى إزار ورداء وبيده الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدى الله تعالى، وليحاسبك الله أيبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبينى وبين ابنى الفيافى، والأودية، فقال لها: إن ابنى لم تهتف بهما العواتق فى خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة: من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر ابن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع منى هذه الأبيات:

لعمرى لئن سيرتنى أو حرمتنى ... وما نلت من عرضى عليك حرام
فأصبحت منفياً على غير ريبة ... وقد كان لى بالمكتين مقام
لئن غنت الذلفاء يوماً بمنية ... وبعض أمانى النساء غرام
ظننت بى الظن الذى ليس بعده ... بقاء ومالى جرمة فألام
فيمنعنى مما تقول تكرمى ... وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تقول صلاتها ... وحال لها فى قومها وصيام
فهاتان حالان فهل أنت راجعى ... فقد جب منى كاهل وسنام

قال: فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الأبيات قال: أما ولى السلطان، فلا وأقطعه داراً بالبصرة فى سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث من هذا الباب: فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثنى أبى قال: كان بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأكثرهم أدباً قد قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية فوقعت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم: ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدى إليه معروفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال: يا أمير المؤمنين ما لى حاجة، قال: ويحك أولست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها فقال: ويحك فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها، قال: فلى الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل، قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها فقالت: وما

عليك يا أمير المؤمنين فامر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها والجارية على الآخر والفتى على الثالث ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ثم قال للفتى سل حاجتك فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

لا أستطيع سلواً عن مودتها	أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى	حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراكه	لهند ولكن من يبلغه هندا
ألا عرجا بى بارك الله فيكما	وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت ثم قال للفتى: سل حاجتك؟ قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

منى الوصال ومنكم الهجر	حتى يفرق بيننا الدهر
والله لا أسلوكمو أبداً	ما لاح بدراً وبدا فجر

فأمرها فغنت قال: فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشياً عليه فقال يزيد للجارية: قومى انظرى ما حاله فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكر الغناء والجوارى المغنيات والعشق فقال عبد الملك لعبد الله: حدثنى بأمر ما مر لك فى هذه الأغانى وما رأيت من الجوارى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلى فى شأنها فكتبت إليه: والله لا تخرج منى ببيع ولا هبة فامسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراها وتراه وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكى شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه وقعد مستخفياً فلم أدع لها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتباً ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى: أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هى هبة منى إليك، فدهش الفتى ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك: لقد حدثتنى بعجب فما صنعت الجارية قلت: ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمداً ووجداً على الغلام. وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندى رأى أثر كف عشيقته فى ثوب زوجها فمات.

وذكر محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه: بسم الله

الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد... إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات أبكاراً يكون إليهن المنتهى فى الجمال واكتب لى بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين، وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل قال: وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعنى الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنى أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكاراً وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين: فإنها جارية عيطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلها دعج	كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية: فإنها جارية فائقة فى الجمال، معتدلة القد والكمال، تشفى السقيم بكلامها الرخيم، وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة: فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى فى ذلك؟ قال: نعم، فتجهزوا وخرجوا ففى بعض سيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم عينى لا تمل من البكا	وقلبى بأسهام الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى	وقلبى رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا	ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب بها ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه وما هذا الاصفرار الذى بها والانتحال فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان، قال: وإن كذبتم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدى أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغماً	وقد شدت إلى عنقى يديا
مقراً بالقبيح وسوء فعلى	ولست بما رميت به بريا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى	وإن تعفو فمن جود عليا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، آستخفاف بنا أم هوى الجارية، قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هى لك بما أعددته لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلى والحلل وسار بهـا فرحاً مسروراً إلى نحو أهله حتى إذا كان ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روى عن النبى ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومى رضى الله تعالى عنه إلى مشركى خزاعة قال خالد: فأخرجنى إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس قال: فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأقران فلولا الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله ﷺ فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة فقلنا له: يا غلام انعزل عن النساء فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد قال: فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعراً فوالله لم يمهلنى حتى أتم شعرى بل حمل على فتطاعنا حتى تكسرت القنا وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له: افد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنا أردك من حيث جئت، قال: يا خالد ما أنصفتنى اتركنى حتى أجد من نفسى القوة، قال خالد: فتركته وقلت: لعله أن يسلم ثم شددته وثاقاً وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفاقاً على حسن شبابه ثم أوثقته على بعير لى فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى؟ قال خالد: فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الاشعار ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثونى شيئاً أنا أحدثكم به فقلنا: من أعلمك به يارسول الله ﷺ قال: أخبرنى جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما وموافقة أجلهما.

ومن ذلك، ما حكاه الثورى، قال: حدثنى جبلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت فى طلب إبل لى ضلت، فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام وخفيت الطريق فسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدهما فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجانى حتى كدت أسقط عن فرسى فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسى فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راعٍ قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها	أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها	إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال، فدنوت منه وسلمت عليه فرد السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به الممالك أتاك يستجير بك ويستعينك، قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندى وطاء وطىء وطعام غير بطىء فنزلت فنزع شملته وبسطها تحتى ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز ثم قال: اعذرنى فى هذا الوقت فقلت: والله إن هذا لخير كثير فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت فإنى لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شىء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسناً فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلا

يتحادثان فقلت: هذا رجل عربي ولعلهـا حرمة له، فتناومت ومـا بي نوم فما زال في أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحـدهما لصاحبه بقبيح فلما طلع الـفجر عانقها وتنفسا الصـعداء وبكى وبكت ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئى عنى كـما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقـباء حتى يناموا ثم ودعتـه وسارت وكل واحد منهمـا يلتفت نحو الآخر ويبكى، فـبكيت رحمة لهمـا وقلت فى نفسى: والله لا أنصرف حتى أستضيـفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلنى الله فداءك الأعـمال بخواتيمها وقد نالنى أمس تعب شـديد فأحب الراحة عندك الـيوم، فقال: على الرحب والـسعة لو أقمت عنـدى بقية عمـرك ما وجدتنى إلا كما تحب ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فـأججها وشواها وقدمها إلىّ فأكلت وأكل معى إلا أنه أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معـه نهارى ذلك ولم أر أشفق منه على غنـمه ولا ألين جانباً ولا أحلى كـلاماً إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشىء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطائى فصليت وأعلمته أنى أريد الهجوع لما مر بى من التعب بالأمس، فقـال لى: نم هنيئاً، فأظهـرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيـهة من الليل فأبطأت عليه فلمـا حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر فبكى ثم جـاء نحوى فحركنى فأوهمته أنى كنت نائماً فقال: يا أخى، هل رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة: قلت: قـد رأيتها، قال: فتلك ابنة عمى وأعز الناس على وإنى لها محب ولها عاشق وهـى أيضاً محبة لى أكـثر من محبـتى لها، وقد منعنى أبوها من تزويجـها لى لفقرى وفاقـتى وتكبر على فصرت راعياً بـسببها فكانت تزورنى فى كل ليلة وقد حان وقتها الذى تأتى فيه واشتغل قلبى وتحدثنى نفسى أن الأسد قد افترسها، ثم أنشأ يقول:

مـــا بال مـيـــة لا تأتــى كـعــــادتهـــا	أعــاقـــهـــا طـرب أم صــــدها شــــغل
نفـــسى فــداؤك قـــد أحللت بـى ســقـــمـــاً	تكـاد من حــــرّه الأعـــضــــاء تـنفـــصل

قال: ثم انطلق عنى ساعة فـغاب وأتى بشىء فطرحه بين يدى فإذا هى الجارية قد قتلهـا الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول:

ألا أيهــــا الليـث المدل بـنفــســـــه	هلكـت لقــد جــريت حــقــاً لك الـشــرا
وخلفــتنى فـــرداً وقـــد كنت آنســـاً	وقـــد عـــادت الأيام من بعــدها غــبــرا

ثم قال: بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عباءتى هذه فكفنى فيهـا وضـم هذا الجسد الذى بقى منها معى، وافنّا فى قبر واحد وخذ شويهـاتى هذه وجعل يشير إليهـا فـوف تأتيك امرأة عجوز هى والدتى فـاعطها عصاى هذه وثيابى وشويهاتى وقل لها مات ولدك كـمداً بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قـبرنا وعلى الدنيا منى السلام، قال: فوالله ما كـان إلا قليل حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لسـاعته، فقلت: والله لأصنـعن له ما أوصانى به فغـسلته وكفنتـه فى عباءته وصليت عليـه ودفنته ودفنت باقى جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولهانة فقالت لى: هل رأيت شاباً يرعى غنماً فقلت لها: نعم، وجـعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خـبره فأخذت تصيح وتبكى وأنا ألاطفهـا إلى أن أقبل الليل وما زالـت تبكى بحرقة إلى أن مـضى من الليل برهة فقصـدت نحوها فـإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحـة تتحرك فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتهـا وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنـا علـى ظهــــرها والـدهر يجــمــــعــنا	والشـــمل مــجـتــــمع والدار والـوطن
فــــمــــزق الدهر بـالتـــفـــريـق ألفـــتنا	وصــــار يـجـــمـــعنـا فى بطـنهـــا الكـفن

قال: فأخذت الغنم ومضيت إلى الحى لبنى عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحى بكاءً شديداً ثم مضيت إلى أهلى وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال: والله لأحجن لعلى أفوز من عزة بنظرة، قال: فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جمله فحيته ومسحت بين عينيه وقالت له: حييت يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال:

حييتك عزة بعد الحج وانصرفت	فحى ويحك من حياك يا جمل
لو كنت حييتها ما كنت ذا سرف	عندى ولا مسك الإدلاج والعمل

قال: فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له: من تكون يرحمك الله، قال: أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا الفرزدق بن غالب التميمى، قال: أنت القائل:

رحلت جمالهم بكل أسيلة	تركت فؤادى هائماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذاً لم يرحلوا	حتى أودع قلبى المتبولا
ساروا بقلبى فى الحدوج وغادروا	جسمى يعالج زفرة وعويلا

فقال الفرزدق: نعم، فقال كثير: والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه، فقال الفرزدق: والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم تودعا وافترقا، فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانة وهو يفلى نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه وارتاع من ذلك، وجد فى السير ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد وهم زجرة الطير، فبصر به شيخ من الحى فقال: يا ابن أخى أرأيت فى طريقك شيئاً فراعك؟ قال: نعم، رأيت غراباً على بانة يتفلى وينتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب والبانة بين والتفلى فرقة، فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم، فقال: ما هذا اليوم يا سيدى؟ فقال: إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرف الفهدى لا در دره	وأزجره للطير لا عز ناصره
رأيت غراباً قد علا فوق بانة	ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقال غراب واغتراب من النوى	وبانة بين من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة فى يوم واحد.

وحكى الأصمعى: قال: بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشر العشاق بالله خبروا	إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته:

يـداري هـواه ثـم يـكـتـم سـره ... ويخـشـع فى كـل الأمـور ويخـضـع

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يـداري والهـوى قـاتل الـفـتى ... وفـى كل يـوم قـلـبـه يـتـقـطـع

فكتبت تحته:

إذا لم يـجـد صـبـراً لـكـتـمـان سـره ... فـلـيس لـه شـىء سـوى الموت أنـفـع

ثم عدت فى اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقد كتب قبل موته:

سـمـعـنا أطعـنا ثم مـتـنا فـبـلغـوا ... سـلامى عـلى مـن كـان للـوصل يمـنع

وحكى أيضاً عن الأصمعى رحمه الله تعالى أنه قال: بينمـا أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تندب وتقول:

بروحـى فـتـى أوفى الـبـريـة كلـهـا ... وأقـواهـم فى الحب صـبـراً على الحب

قال: فقلت لها يا جـارية بم كان أوفى البرية وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا، إنه ابن عـمى هوينى فهويته فكان إن أباح عنفوه وإن كتـم لاموه فأنشد بيتى شـعر وما زال يكررهما إلى أن مـات والله لأندبنه حتى أصير مثـله فى قبر إلى جانبه فقلت لها: يا جارية فما البيتان؟ قالت:

يقـولون لى إن بـحت قـد غـرك الهـوى ... وإن لم أبـح بالحـب قـالـوا تصـبـرا
فـمـا لا مـرىء يهـوى ويكـتم أمـره ... مـن الحب إلا أن يمـوت فـيـعـذرا

ثم إنها شهقت شهقـة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها والحكايات فى ذلك كـثيرة، وفى الكتب مشهورة ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقـتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشرب خمر الندى ... في الروض إلا من كؤوس الشقيق

ومطرب كقول زهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ... ودير عبدون هطال من المطر

ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر:

تقلقلت بالهم الذي قلقل الحشى ... قلاقل هم كلهن قلاقل

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام في الحماسة، وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهي: غزل، ووصف، وفخر، ومدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار، وأدب، وزهد، وخمريات، ومراث، وبشارة، وتهان، ووعيد، وتحذير، وتحريض، وملح، وباب مفرد للسؤال والجواب. ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكر (ابن نباتة):

أغصان بان ما أرى أم شمائل ... وأقمار تم ما تضم الغلائل

وبيض رقاق أم جفون فواتر ... وسمر دقاق أم قدود قواتل

وتلك نبال أم لحاظ رواشق ... لها هدف منيّ الحشى والمقاتل

بروحي أفدي شادناً قد ألفته ... غدوت وبي شغل من الوجد شاغل

أمير جمال والملاح جنوده ... يجور علينا قده وهو عادل

له حاجب عن مقلتي حجب الكرى ... وناظره الفتان في القلب عامل

رفعت إليه قصة الدمع شاكياً ... فوقع يجري فهو في الخد سائل

شكوت فما ألوى وقلت فما صغى ... وجد بقلبى حسبه وهو هازل
طويل التوانى دله متواتر ... مديد التجنى وافر الحسن كامل
أطارحه بالنحو يوماً تعللاً ... فيبدو وللإعراب فيه دلائل
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى ... وينصب هجرى عامداً وهو فاعل
تفقهت فى عشقى له مثل ما غدا ... خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
فيا مالكى ما ضر لو كنت شافعى ... بوصلك فافعل بى كما أنت فاعل
فإنى حنفى الهوى مستحنبلٌ ... بعشقك لا أصغى وإن قال قائل

كمال الدين بن النبيه:

الله أكبر كل الحسن فى العرب ... كم تحت لمة ذا التركى من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد ... والخد يجمع بين الماء واللهب
تنفستْ عن عبير الراح ريقته ... وافترّ مبسمه الشهدى عن حبب
لا فى العذيب ولا فى بارق غزلى ... بل فى جنى فمه أو ريقه الشنب
كأنه حين يرمى عن حنيته ... بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
يا جاذب القوس تقريباً لوجنته ... والهائم الصب منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يحرمها ... فمى ويلثمها سهم من الخشب
من لى بأغيد قاسى القلب مبتسم ... لا عن رضا معرض عنى بلا غضب
فكم له فى وجود الذنب من سبب ... وليس لى فى قيام العذر من سبب
تميل أعطافه تيهاً بطرته ... كما تميل رماح الخط بالعذب
أشار نحوى وجنح الليل معتكر ... بمعصم بشعاع الكأس مختضب
بكر جلاها أبوها قبل ما جليت ... فى حجرة الدن أو فى قشرة العنب

البها زهير:

يعاهدنى لا خاننى ثم ينكث ... وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبى لا يزال ودأبه ... فيا معشر العشاق عنا تحدثوا
أقول له صلنى يقول نعم غداً ... ويكسر جفناً هازئاً بى ويعبث
وما ضر بعض الناس لو كان زارنى ... وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاى إنى فى هواك معذب ... وحتام أبقى فى الغرام وأمكث
فخذ مرة روحى ترحنى ولا أرى ... أموت مراراًفى النهار وأبعث
فإنى لهذا الضيم منك لحامل ... ومنتظر لطفاً من الله يحدث
أعيذك من هذا الجفاء الذى بدا ... خلائقك الحسنى أرقُّ وأدمث

تـردد ظن الـناس فـيَّ فـــأكـــثـــروا … أحـاديـث فـيــهــا مـا يـطيب ويخـبـث
وقـــد كـــرمتْ فى الحب مـنى شـمـــائل … ويـــســـأل عنـى مـن أراد ويـبـــحـث

النابلسى:

مـــا كـنت أعلـم والضـــمـــائر تـصــدق … إن المســـمـــع كـــالنـواظر تـعـــشق
حـتـى سـمـعـت بذكـركـم فـهـويتكم … وكـــذاك أســبــاب المحــبـــة تعـلق
ولقـــد قنعت مـن اللقـــاء بــســاعـــة … إن لـم يـكـــن لــى لـلـدوام تـطـرّق
قـــد ينعش الـعطـشـــان بلّـة ريقـــه … ويـغص بـالماء الـكثـــيـــر ويشـــرق
فـعـــسى عـيـــونى أن ترى لك ســيـدى … وجـــهـــاً يكاد الحـــسن فـــيـــه ينطق

أبو الحسن الجزار:

فى خـــده مـن بقـــايا الـلثم تـخـمـيش … وبى لـتـشـــويش ذاك الـصـــدغ تشـــويش
ظبى مـن الـتـــرك أغنتـــه لـواحظه … عـــمـــا حـــوته مـن النبل الـتـــراكـــيش
إذا تثـنى فـــقلب الـغـــصن منكــــر … وإن تبـــدى فطـرف البـــدر مـــدهوش
يا عـــاذلى إن تكـن عن حـــسـن صـــورته … أعـــمى فـــإنى عـــمـــا قلت أطروش
كـم ليلـة بـات يـســـقـــينى المـدام على … روض له بـشـــيـــاب الغـــيم تـرقـــيش
والغـــيث كـــالجـــيش يرتج الوجـــود له … والبـــرق رايتـــه والرعـــد جـــاويش
فى مـــجلس ضـــحكت أرجـــاؤه طـرباً … لأنـه بـبـــديع الزهـر مـــفـــروش

سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

ترى مـــتى من فـــتـــور اللحظ ينتـــشط … من قـلبـه بـحـبـــال الشـــعـــر مـرتـبط
قـــد رق لى خـــصـــره المضنى فناســـبنى … فـــقلت خـــيـــر الأمـــور الأنسب الـوسط
وقـــد خـــفى الـردف عنى مـن تثـــاقـله … فـــقـلت هذا عـلى ضـــعـــفى هو الشـطط
وصـدره الرحب قـــد عـــانقـتـــه ســحـــراً … والقـلب منبـــعث الآمـــال منبـــسط
وفـــيـــه تلـك النهـــود المشـــتـــهـــاة ترى … رمـــانهـــا فـــيـــه قلبى أمـــره فـــرط
إن الصـــواب لتـعـــجـــيل الـسـرور فـــقم … قـــبـل الفـــوات فـــأوقـــات الـهنا غـلط

القاضى مجد الدين بن مكانس:

أهدى تحـــيـــتـــه وجـــاد بوعـــده … أفـــديه من قـــمـــر بدا فى ســعـــده
بلـر جـــوى مـــاء الحـــيـــاة بثـــغـــره … وتـرددت فـــضـــلاته فـى خـــده

أسكنته قلبي فأوقد خده ... نيران أحشائي عليه ووجده
من لي به حلو الشمائل أهيف ... روت العوالي عن مثقف قده
يا عاذلي في حبه لو أبصرت ... عيناك فوق الردف مسبل جعده
لعذرت كل متيم في حبه ... وعلمت أن ضلاله في رشده
فوحق موتي في هواه صبابة ... وحياة مبسمه الشهي وبرده
ما جاد غيث الدمع إلا عن هوى ... خلع القلوب ببرقه وبرعده
قم يارسول وأبلغ العشاق ما ... ألقاه من جور الحبيب وبعده
وإذا سألتك أن تؤدي في الهوى ... خبري فصفْ فعل الغرام وأبده

عز الدين الموصلي:

والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه:

نفسٌ عن الحب ما اغفت وما غفلت ... بأي ذنب وقاك الله قد قتلت
دعها ومدمعها الجاري لقد لقيت ... ما قدمت من أسى قلبي وما عملت
أفديك من ناشط الأجفان في تلفي ... والسحر يوهم طرفي أنها كسلت
وأوضح الحسن لو شاءت ذوائبه ... في الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
معسل بنعاس في لواحظه ... أما تراها إلى كل القلوب حلت
من لي بألحاظ ظبي يدعي كسلاً ... وكم ثياب ضنى حاكت وكم غزلت
وحمرة فوق خديه ومرشفه ... هذي محاسنها تزهو وذي ذبلت
أما كفاني تكحيل الجفون أسىً ... حتى المراشف منه باللمى كحلت
أستودع الله أعطافاً شوت كبدي ... وكلما رمت تجديد الوصال قلت
ومهجة لي كم ألقت بمسمعها ... إلى الملام ولا والله ما قبلت

غيره للفاضل:

شرخ الشباب بحبكم أفنيته ... والعمر في كلف بكم قضيته
وأنا الذي لو مر بي من نحوكم ... داع وكنت بحفرتي لبيته
كيف التعرض للسلو وحبكم ... حب بأيام الشباب شريته
لله داء في الفؤاد أجنه ... يزداد نكساً كلما داويته
قالوا حبيبك في التجني مسرف ... قاس على العشاق قلت فديته
الروم من كلفي عليه تخلصاً ... لا والذي بطحاء مكة بيته
ولو استطعت بكل اسم في الورى ... من لذة الذكرى به سميته

وللشيخ بدر الدين الدماميني:

مِلْ سيفاً من الجفون صقيلاً ... مذ تصدى جلاه رحت قتيلا
صح عن جفنه حديث فتور ... وهو ما زال من قديم عليلا
من أبدى لنا من الخصر ردفاً ... فأرانا مع الخفيف ثقيلا
ذو قوام كأنه الغصن لكن ... بالهوى نحو وصلنا لن يميلا
كامل الحسن وافر ظل وجدى ... فيه يا عاذلى مديداً طويلا
فاتك الجفن ذو جمال كثير ... أتلف العاشقين إلا قليلا
قلت إذ لاح طرفه ولماه ... فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
كيف حالى وهل لصب إليه ... من سبيل فقال لى مل سبيلا

وقال آخر:

لو أن قلبك لى يرق ويرحم ... ما بت من ألم الجوى أتألم
ومن العجائب أننى لا مسهم لى ... من ناظريك وفى فؤادى أسهم
يا جامع الضدين فى وجناته ... ماء يرق عليه نار تضرم
عجبى لطرفك وهو ماض لم يزل ... فعلام يكسر عندما تتكلم
ومن المروءة أن تواصل مدنفاً ... والدهر سمح والحوادث نوم

وقال آخر:

تصدق بوعد إن دمعى سائل ... وزود فؤادى نظرة فهو راحل
فخدك موجود به التبر دائماً ... وحسنك معدوم لديه المماثل
أيا قمراً من شمس طلعة وجهه ... وظل عذاريه الدجا والأصائل
تنقلت من طرف مع القلب والهوى ... وهاتيك للبدر المنير منازل
جعلتك للتمييز نصباً لخاطرى ... فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

وقال ابن صابر:

قبلت وجنته فألفت جيده ... خجلاً ومال بعطفه المياس
فانهلَّ من خديه فوق عذاره ... عرق يحاكى الطل فوق الآس
فكأننى استقطرت ورد خدوده ... بتصاعد الزفرات من أنفاسى

وقال آخر:

وغـــــزال كل مــن شــــبـــــهــــــه بهــــــلال أو ببــــــدر ظلـمـــــه
قـــــال إذا قـــبـلت وهــمـــــاً فــــمـــــه قــــد تعـــــديت وأســـرفت فـــمـــــه

وقال آخر:

بأبــي غـــلام لــست غـــيــــر غـــلامــــه مــــذ جـــاد لي بــســلامـــه وكـــلامـــه
ذو حـــــاجب مــــــا إن رأيـت كـنونـه أبداً وصــــدغ مـــا رأيت كـــلامـــــه

وقال جمال الدين بن مطروح:

ذكـــر الحـمـى فـصـبـــا وكـــان قـد ارعـــوى صب على عـــرش الغـــرام قـــد اســـتـــوى
تجـــرى مـــدامـــعــــه ويخــــفق قـلبــه مــهــمـــا جرى ذكـــر الـعـقـيق مع اللوى
وإذا تـــــالـــــق بـــــارق مــــن بـــــارق فــــهـناك ينشـــــر مـن هواه مـــا انطوى
فـــخـــذوا أحـــاديث الهــوى عن صـــادق مـــا ضل فى شــــرع الغــــرام ومـــا غــــوى
وبمهـــــجــــتى رشـــــأ أطالت عـــــذّلى فـيـــه الملام وقـــد حــوى مــا قـــد حـــوى
قــــالوا أفـــيـــه ســـوى رشــاقـــة قـــده وفـــتـــور عـــيـنـيــه وهل مـــوتى ســـوى
مـــا أبصـــرته الـشــمس إلا واكـتـــست خـــجـــلاً ولا غـــصـن النقـــا إلا التـــوى
يروى الأراك مـــــحــــــاسناً عن ثغـــــره يـا طيـب مــــا نقـل الأراك ومـــــا روى

وقال آخر:

عــبـث النـســيم بـقـــده فـــتـــأودا وســـرى الحـــيـــاء بخـــده فـــتـــوردا
رشـــأ تفـــرد فـــيـــه قلبى بالهـــوى لما غـــدا بجــمـــالـه مـــتــفـــردا
قـــاســوه بالـغـــصن الرطيب جـهـــالة تالـلّه قـــد ظلـم المشـــبّـــه واعـــتـــدى
حـسن الغـصـون إذ اكـتــست أوراقــهـــا وتراه أحــــســن مــــا يكـون مـــجـــردا

وقال غيره:

يـا حـــســنـاً مـــالـك لـم تحـــســن إلى قـلـوب فى الـهـــوى مــتـــعــــبـــه
رقــــمـت بـالورد وبـالـســـوسـن صـــفـــحـــة خـــد بالـسنا مـــذهّـبـــه
وقـــد أبـى خـــدك أن أجـتـــنى مـنـه وقــد ألـــســعـنى عــــقــــربــه
يا حـــسـنه إذ قـــال مـــا أحـــسـنى ويـا لـذاك اللـفـظ مـــا أعــــذبــه
قـلــت لــه كــلــك عـــنـدى ســـنـاً وكل ألـفــــاظـك مـــســـتـعـــذبه
فــــفـــوق الســـهم ولـم يخطنى ومــذ رآنـى مــيـتـــاً أعـــجـبــه
وقـــال كم مـن عـــاشق حـــبـنـى وحـــبـــه إياى قـــد أتعـــبـــه
يـرحــــمــــه الـلّه عـلـى أنـنـى قـــتـلى له لـم أدر مـــا أوجـــبـــه

وقال آخر:

مليح يغار الغصن عند اهتزازه ... ويخجل بدر التم عند شروقه
فما فيه معنى ناقص غير خصره ... وما فيه شيء بارد غير ريقه

وقال يحيى بن أكثم:

دنا هاجري نحوي بمقلته الكحلا ... فلما رأى ذلي ثنى عطفه دلا
فتيّمني شوقاً وأنحلني أسى ... وأقعدني صبراً وأعدمني عقلا
شكوت فما ألوى وولى وما لوى ... وأعرض مزوراً فسلّ الحشى سلا
إذا ما دعاه فرط سقمي لزورة ... يناديه فرط العجب من عطفه كلا

وقال أيضاً:

بأبي غزالاً غازلته مقلتي ... بين العذيب وبين شطى بارق
وسألت منه زورة تشفي الجوى ... فأجابني عنها بوعد صادق
بتنا ونحن من الدجا في خيمة ... ومن النجوم الزهر تحت سرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله ... صهباء كالمسك الذكي لناشق
وضممته ضم الكمي لسيفه ... وذؤابتاه حمائل في عاتقي
حتى إذا مالت به سنة الكرى ... زحزحته عني وكان معانقي
أبعدته عن أضلع تشتاقه ... كي لا ينام على فراش خافق
لما رأيت الليل آخر عمره ... قد شاب في لمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفاً ... صعب عليّ بأن أراك مفارقي

وقال ابن نباتة:

بدا ورنت لواحظه دلالا ... فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سنا قمر منير ... ولكن قد وجدت به الضلالا
صقيل الخد أبصر من رآه ... سواد العين فيه فخال خالا
وممنوع الوصال إذا تبدى ... وجدت له من الألفاظ لالا
عجبت لثغره البسام أبدى ... لنا دراً وقد سكن الزّلالا
شهدت بشهد ريقته لأني ... رأيت على سوالفه نمالا
فيا عجباً لحسن قد حواه ... وقد أهدى إلى قلبي الوبالا
سأشكو الحسن ما بقيت حياتي ... وأشكر من صنائعه الجمالا

القاضى فخر الدين بن مكانس:

يا غصناً فى الرياض مالا — حملتنى فى هواك مالا
يا رائحاً بعد أن سبانى — حسبك رب السما تعالى

وله أيضاً:

أجارك الله قد رثت لى — مما ألاقى عدا وحد
وعاذلى مذ رأى ضلوعى — تعد سقماً بكى وعدد

ابن رفاعة:

يقولون هل من الحبيب بزورة — ومناكم المطلوب قلنا لهم منا
فقالوا لنا غوصوا على قده وما — يحاكى إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا

الشيخ برهان الدين القيراطى:

وودى خد نرجسى لواحظ — مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
وواوات صدغيه حكين عقارباً — من المسك فوق الجلنار قد التووا
ووجنته الحمرا تلوح كجمرة — عليها قلوب العاشقين قد اكتووا
وودى له باق ولست بسامع — لقول حسود والعواذل إذ عووا
ووالله ما أسلو ولو صرت رمة — فكيف وأحشائى على حبه انطووا

وللشيخ برهان الدين القيراطى أيضاً:

شبه السيف والسنان بعينى — من لقتلى بين الأنام.استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا — حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضاً:

بأبى أهيف المعاطف لدن — حد الأسمر المثقف قده
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً — كلمتنى سيوفهن محده

وقال آخر:

تملك رقى شادن قد هويته — من الهند معسول اللمى أهيف القد
أقول لصحبى حين يرنو بطرفه — خذوا حذركم قد سل صارمه الهندى

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري:

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب وطيفها عن عياني غير محتجب
وذكرها أنس روحي وهي نائية والقلب ما زال عنها غير منقلب
لم أصغ فيها للاح راح يعذلني ولا لواش خلي بات يلعب بي
عذابها في الهوى عذب ألذ به ومر هجرانها أحلى من الضراب
فإن نأت أو دنت وجدي كما علمت تشيب فيه الليالي وهو لم يشب
دعها فأمر هوى المحبوب متبع وغير طاعته في الحب لم يجب

وقال عفا الله عنه:

سقى طللاً حلته سلمى معاهد وحياه من دمعي مذاب وجامد
فربع به سلمى مصيف ومربع وأرض نأت عنها قفار جلامد
وحيث ثوت أرضاً فأعذب مورد ولو كدرت منها على الموارد
رعى الله دهراً سالمتني صروفه وظلت لياليه بسلمى تساعد
وقد غفل الواشون عني ولم أزل ويقظان طرف البين عني راقد
وأيامنا بالقرب بيض أزاهر وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد
وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا ونحن كأنا في الحقيقة واحد
وكم قد مرجنا في مروج صبابة ولم يطرد فينا من البين طارد
تجر ذيول اللهو في قمص الهوى تلوح علينا للغرام شواهد
ولم يخطر التفريق منا بخاطر ولم نحسب الأيام فينا تعاند
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى كما كنت لي أم حاد بالقلب حائد
وهل ودنا باق وإلا تغيرت على عادة الأيام منك العوائد
وهل محيت آثار رسم حديثنا وأنساك حفظ الود هذا التباعد
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى وقولك لا عاش الخئون المعاهد
وهل أنت غيرت الذي أنا حافظ وهل أنت أحللت الذي أنا عاقد
وهل بدلت منك المودة بالجفا وفيك يقيني بالوفا منك شاهد
وإني ما بدلت عهدك في الهوى ولا اختلفت فيما علمت العوائد
ولا بت مسروراً وعيشك ليلة وكيف سلوى والحبيب مباعد
فإن كنت حبل الود صرمت طرفه فودى طريف في هواك وتالد
وإن قلت إن الحب غير النوى لعمرى وجدى بالحشاشة واقد
وإن أوردوا يوماً صبابة عاشق فبي يضرب الأمثال من هو وارد
فما شئت كوني إني بك مدنف صبور على البلوى شكور وحامد

ومنك تساوى عندى الوصل والجفا … وفيك لقد هانت على الشدائد
ولو رمت السوى من هواك أعنتنى … لقاد زمامى نحو حبك قائد
نصبت شراك الحب صدت حشاشتى … فكيف خلاصى والهوى منك صائد
بعدت وقلت البين يسلى أخا الهوى … وهل يسلى ذا الأشجان هذا التباعد
وما غير التفريق ما تعهدينه … وسوق سلوى فى المحبين كاسد
وجل مناى القرب منك وإنما … إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وقال عفا الله عنه:

تهددنى بتبريح وبين … وتوعدنى بتفريق وصد
وتحلف لى لتلبسنى سقاماً … تهى جلدى به وتذيب جلدى
وترمينى بنبل من جفون … فتضنينى وتصمينى وتردى
وتحرقنى بنار الصد حتى … تذيب حشاشتى كمداً وكبدى
فقلت لها ودمعى فى انسكاب … يفيض دماً على صفحات خدى
ومن لى أن يقال قتيل وجد … وأذكر فى هواك ولو بصدى

وقال عفا الله عنه:

سُلُوّى عنك شىء ليس يروى … وحبى فيك سار مع الركاب
ولم يمرر سواك على ضميرى … ووجدى فيك أيسره عذابى
ومالك عن سواد العين يوماً … وما لسواد قلبى من حجاب
وما اخضرّت دواعى الشوق إلا … هززت إليك أجنحة التصابى

وقال عفا الله عنه:

قفا نبك داراً شط عنا مزارها … وأنحلنا بعد البعاد أذكارها
وعوجا بأطلال محتها يد النوى … فأظلم بالنأى المشت نهارها
فقدنا بها ريماً من الإنس إن رنت … بمقلتها يصمى القلوب احورارها
تصيد قلوب العاشقين أنيسة … ويحسن منها صدها ونفارها
ويهزأ بالأغصان لين قوامها … إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وليس لبدر التم قامة قدها … وما هو إلا حجلها وسوارها
منازلها منى الفؤاد وإن نأى … عن العين مثواها ففى القلب دارها
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى … وأكثر ما يضنى النفوس افتكارها
وهيج دمعى حر نار صبابتى … وما خمدت بالدمع منى نارها
وساعدنى بالأيك ليلاً حمائم … تهاتف شجواً لا يقر قرارها
بكين ولم تسفح لهن مدامع … وعينى فاضت بالدموع بحارها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى، وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه:

نسيم الصبا بلّغ سليمى رسائلى بلطف وقل عن حال صبك سائلى
فقد صار بالأسقم صبا معذباً قريح جفون من دموع هوامل
صبوراً على حر الغرام وبرده حليف الضنى لم يصغ يوماً لعاذل
يبيت على جمر الغضى متقلباً يئن غراماً فارحميه وواصلى
الا يا سليمى قد اضر بى الهوى وهاجت بتبريح الغرام بلا بلى
رميت بسهم من لحاظك قاتل فلم يخط قلبى والحشا ومقاتلى
كتمت غرامى فى هواك ولم أبح بسر فناحت أدمعى برسائلى
سليمى سلى ما قد جرى لى من النوى فقد عاد لى حال له رق عاذلى
لعل تجودى للكئيب وتسمحى بوعد بعد الوعد إن شئت ماطلى
عسى تنطفى بالوعد نارى وأشتفى فبالسقم أعضائى وهت ومفاصلى
خفيت عن العواد لولا تأوهى وعظم أنينى لا يرانى مسائلى
فرقى فقد رقت عداى لذلتى وفاضت على حالى عيون عواذلى
قطعت زمانى فى عسى ولعلها وما فزت فى الأيام منك بطائل
فما آن أن ترضى على وترحمى ضنى جدى فالوجد لا شك قاتلى
توسلت بالمختار فى جمع شملنا نبى له فضل على كل فاضل

وله رحمه الله تعالى:

يا ربة الحسن من بالصد أوصاكى حتى قتلت بفرط الهجر مضناكى
ويا فتاة بفتان القوام سبت مَن فى الورى يا ترى بالقتل أفتاكى
لقد جننت غراماً مذ رأى نظرى فى النوم طيف خيال من محياكى
ومذ رآه جفنا طيب المنام وقد اضحى عليلاً حزيناً لم يزل باكى
عذبتنى بالتجنى وهو يعذب لى فهل ترى تسمحى يوماً برؤياكى
إن كنت لم تذكرينا بعد فرقتنا فالله يعلم أنا ما نسيناكى
ما آن أن تعطفى جوداً على فقد اضحى فؤادى أسيراً لحظ عيناكى
ما كنت أحسب أن العشق فيه ضنى ولا عذاب نفوس قبل أهواكى
حتى تولع قلبى بالغرام فما امسى أسيراً سوى فى حسن معناكى
رقى لعبدك جوداً واعطفى وذرى ولا تطيلى بحق الله جفواكى
يا هند رفقاً بقلب ذاب فيك أسى ومهجة تلفت يا هند ما أقساكى
رق العذول لحالى فى الهوى ورثى وأنت يا هند لا ترثى لمضناكى
والله لو مت ما اسلاك يا أملى ولو فنيت غراماً لست أنساكى

وقال آخر:

كان فؤادي يوم سرت دليل … يسير أمام العيس وهو ذليل
فسرت عقيب الظاعنين لكي أرى … فؤادي سرى في الركب وهو عجول
وقائلة لي كيف حالك بعدنا … لتعلم ما هذا إليه يئول
فقلت لها قد مت قبل ترحلي … فمن باب أولى أن يجدَّ رحيل
وقلت فليلي طال همًّا فأنشدت … وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت وجسمي لم يزل مسترجفاً … فقالت وجسم العاشقين نحيل
فقلت لها لو كنت أدري فراقنا … بيوم وداع ما إليه سبيل
قلعت لعيني في هواك بأصبعي … لكيلا أرى يوماً على ثقيل

وقال الوأواء الدمشقي (1) عفا الله عنه:

يا من نفت عني لذيذ رقادي … مالي ومالك قد أطلت سهادي
فبأي ذنب أم بأية حالة … أبعدتني ولقد سكنت فؤادي
وصددت عني حين قد ملك الهوى … روحي وقلبي والحشا وقيادي
ملكت لحاظك مهجتي حتى غدا … قلبي أسيراً ما له من فادي
لا غرو إن قتلت عيونك مغرما … فلكم صرعت بها من الآسادي
يا من حوت كل المحاسن في الورى … والحسن منها عاكف في بادي
رفقاً بمن أسرت عيونك قلبه … ودعي السيوف تقر في الأغماد
وتعطفي جوداً على بقبلة … فبميم مبسمكي شفاء الصادي
ماتت أطال الله عمرك سلوتي … ولقد فني صبري وعاش سهادي
ومن المنى لو دام لي فيك الضنى … يا حبذا لأراك من عوادي
وأجيل منك نواظري في ناضر … من خدك المترقرق الوقاد
وأقول ما شئت اصنعي يا منيتي … ما لي سواك ولو حرمت مرادي
إلا مديح المصطفى هو عمدتي … وبه سألقى الله يوم ميعادي

وقال البها زهير:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم … أنوح كما ناح الحمام المطوّق
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى … وتحتي بحار بالجوى تتدفّق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها … تفكُّ الأسارى دونه وهو موثق
فلا أنا مقتول ففي القتل راحة … ولا أنا ممنون عليه فيعتق

---

(1) الوأواء الدمشقي: هو محمد بن أحمد الغساني، المشهور، بالوأواء الدمشقي أبو الفرج شاعر، كان في مبدأ أمره منادياً بدار البطيخ بدمشق من آثاره «الديوان» الذي هو صغير الجرم خفيف الحجم توفي سنة (385هـ وقيل 390هـ - نحو 990م).

مجنون ليلى:

وقد خبّرونى أن تيماء منزل   لليلى إذا ما الليل ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا ستنقضى   فما للنوى يرمى بليلى المراميا
أعد الليالى ليلة بعد ليلة   وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلنى   أحدث عنك النفس بالليل خاليا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا   علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن   شمالاً ينازعنى الهوى عن شماليا
أصلّى فما أدرى إذا ما ذكرتها   اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
خليليّ لا والله لا أملك الهوى   إذا علم من أرض ليلى بدا لى
خليليّ لا والله لا أملك الذى   قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها   فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا
ولو أن واش باليمامة داره   وداري بأعلى حضر موت اهتدى ليا
وددت على حبى الحياة لو أنه   يزاد لها فى عمرها من حياتيا
على أنّنى راض بأن أحمل الهوى   وأخلص منه لا علىّ ولا ليا
إذا ما شكوت الحبّ قالت كذبتنى   فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حبّ حتى يلصق الجلد بالحشى   وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وقال آخر:

قالت لطيف خيال زارنى ومضى   بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ   وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت عهدت الوفا والصدق شيمته   يا برد ذاك الذى قالت على كبدى

كمال الدين بن النبيه:

أما وبياض مبسمك النقى   وسمرة مسكة اللمس الشهى
ورمّان من الكافور تعلو   عليه طوالع الندّ الندى
وقد كالقضيب إذا تثنى   خشيت عليه من ثقل الحلى
لقد أسقمت بالهجران جسمى   وأعطشنى وصالك بعد ريّى
إلى كم أكتم البلوى ودمعى   يبوح بمضمر السر الخفى
وكم أشكو للاهية غرامى   فويل للشجى من الخلى

صفى الدين الحلى:

أبت الوصال مخافة الرقباء   وأتتك تحت مدارع الظلماء

أصفتك من بعد الصدود مودةً وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحييت بزورتها النفوسَ وطالما ضنّت بها فقضت على الأحياء
أمست بليلٍ والنجوم كأنها درٌّ بباطن خيمة زرقاء
أمست تعاطيني المدام وبيننا عتبٌ غنيت به عن الصهباء
آبت إلى جسدي لتنظر ما انتهت من بعدها فيه يد البرحاء
ألفت به وقع الصفاح فراعها جزعًا وما نظرت جراح حشائي
أمصيبة منا بنبل لحاظها ما أخطأته أسنّة الأعداء
أعجبت مما قد رأيت وفي الحشا أضعاف ما عاينت في الأعضاء
أمسي ولست بسالم من طعنةٍ نجلاء أو من مقلة نجلاء

وله رحمه الله تعالى:

قفي ودّعينا قبل وشك التّفرُّق فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي
قضيت وما أودى الحمام بمهجتي وشبت وما حلّ البياض بمفرقي
قنعت أنا بالذل في مذهب الهوى ولم تفرقي بين المنعّم والشقي
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى ومزّقت شمل الوصل كلّ ممزق
قبلت وصايا الهجر من غير ناصحٍ وأحببت قول الهجر من غير مشفق
قطعت زماني بالصّدود وزرتني عشية رمْتُ للترحُّل أينقي
قضى الدهر بالتفريق فاصطبري له ولا تذمي أفعاله وترفّقي

وقال عفا الله عنه:

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج فعطّرت سائر الأرجاء بالأرج
جلت علينا محيّا لو جلته لنا في ظلمة الليل أغنتنا عن السُرُج
حوريّة الخد تحمي ورد وجنتها بحارس من نبال الغنج والدعج
جزت إساءة أفعالي بمغفرة فكان غفرانها يُغني عن الحجج
جادت لعرفانها أنّي المريض بها فما عليّ إذا أذنبت من حرج
جسّت يدي لترى ما بي فقلت لها كفّي فذاك جوى لولاك لم يهج
جفوتني فرأيت الصبر أجمل بي والصمت في الحب أولى من اللهج
جارت لحاظك فينا غير راحمةٍ ولذّة الحب جورُ الناظر الغنج

وقال ابن نباتة:

رقّت لنا حين همّ السفر بالسفر وأقبلت في الدجى تسعى على حذر
راض الهوى قلبها القاسي فجادلنا وكان أبخل من تموز بالمطر
رأت غداة النوى نار الكليم وقد شبّت فلم تبق من قلبي ولم تذر

وشــيــقـــةٌ لو تراهـا عندمـــا ســفــرت | والبـــدر ســاهٍ إليــهــا ســهــو مــعــتــذر
رأيت بـدرين مـن وجـــهٍ ومـن قـــمـــــر | فى ظـل جنـحين مـن ليـل ومن شـــعـــــر
رشــفــت درّ الحــمــيّــا من مــقــبّلـهــا | إذ نبّــهــتنى إليــهــا نــسـمــة الـسّــحـر
رنت نجــوم الدجى نــحـوى فـــمــا نـظرت | من يـرشف الراح قــبلى من فـم القــمـــر
راق العــتـــــاب وابدتْ لـى ســـرائـرها | فى لـيلة الـوصل بـل فى غـــرّة الـقــمـــر

وقال ابن الساعاتى:

قـــبّلتــهـــا ورشـــفــت خـمــرة ريقــهـــا | فـــوجـــدت نار صــبـــابة فى كـــوثر
ودخلـت جنة وجـــهـــهـــا فـــأباحـنى | رضــــوانهـــا المرجـــوّ شـــرب المسكر

وقال آخر:

بكـت للـفـــــراق وقـــــد راعــــهـــــا | بـكـاء المحب لبــــــعـــــــد الـدّيار
كـــــأن الـدمـــــوع على خـــــدّها | بـقـــــيــــــة طـل على جلـنـارْ

الوأواء الدمشقى تضمين:

قـــالت مـتى الظعن يـا هذا فـقلت لهـــا | إمّـــا غـــداً زعــمـوا أو لا فـــبـعـد غـد
فــــأمطـرت لؤلـؤاً من نـرجسٍ وســـقـت | ورداً وعـــضّـت على العنّـاب بالبـــرد

لابن نباتة:

عــــذولى لـست أســمع منه قـــولاً | على غــــيــــــداء مـــثل الـبــــدرتمّا
لـه طـرفٌ ضـــــــريرٌ عـن ســنـاهـا | ولى أذنٌ عـن الفـــحـــشـــاء صَـمّـــا

وقال آخر:

وربّ ليـــالٍ فـى هواهـا ســـهــرتهـــا | أراعى نجـوم الـليل فــيــهـا إلى الفــجـر
حـــديثى عـــالٍ فى الســـهـــاد لأننى | رويت أحـــاديث الســـهـــاد عن الـزّهرى

السراج الوراق[1]:

يــــا لائـــمــــى فــــى هـــواهــــا | أســــرفـت فـى اللوم جـــهــــلاً
مـــــا يـعـلـم الـشـــــوق إلاّ | ولا الـصــــبـــــابـة إلاّ

وقال آخر:

وعــــدتْ أن تزور لـيـــلاً فـــألـوت | وأتـت فى الـنـهـــار تـســحب ذيـلاً
قلـت هلاّ صـــدقت فى الـوعــد قـــالت | كـــيف صـــدّقت أن ترى الـشـــمس ليـــلا

لعز الدين الموصلى:

قـــد سـلونـا عن الـغـــزال بـخـــود | ذات وجـــه بهـــا الجـــمــــال تـفتن

(١) السراج الوراق: هو عمر بن الحسن الوراق (سراج الدين) أديب، كاتب، شاعر، كان كاتباً لوالى مصر الأمير يوسف بن سباسلار من آثاره «ديوان شعر» فى سبعة أجزاء كبار، ونظم «درة الغواص للحريرى»، توفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٦م) وقد قارب التسعين أو جاوزها بقليل.

ورجعنا عن التهتك فيه   ودفعناه بالتي هي أحسن

وقال آخر:

قالت وناولتها سواكا   ساد بفيها على الأراك

سواي ما ذاق طعم ريقي   قلت لها ذاقه سواكي

وقال آخر:

سألتها أن تعيد لفظا   قالت محبٌ دعوه يعذر

حديثها سكر شهيٌّ   وأحسن السّكر المكرر

ابن نباتة:

وملولة في الحب لما أن رأت   أثر السقام بجسمي المنهاض

قالت تغيرنا فقلت لها نعمْ   أنا بالسقام وأنتَ بالإعراض

وقال أبو الطيب المتنبي(1):

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

الناهبات عيوننا وقلوبنا   وجناتهنّ الناهبات الناهبا

الناعمات القاتلات المحييات   المبديات من الدلال غرائبا

حاولن تفديتي وخفن مراقبًا   فوضعن أيديهنّ فوق ترائبا

وبسمن عن بردٍ خشيت أذيبه   من حر أنفاسي فكنت الذائبا

يا حبّذا المتحمّلون وحبّذا   وادٍ لثمت به الغزالة كاعبا

كيف الرجاء من الخطوب تخلّصًا   من بعد أن أنشبن فيّ مخالبا

وله أيضًا من جملة قصيدة:

ولما التقينا والنوى ورقيبنا   غفولان عنّا ظلت أبكي وتبسمُ

فلم أر بدرًا ضاحكًا قبل وجهها   ولم تر قبلي ميّتًا يتكلم

الشريف الرضي:

وتميس بين مزعفرٍ ومعصفرٍ   ومعنبر ومُمَسّك ومصندل

هيفاء إن قال الشباب لها انهضي   قالت روادفها أقعدي وتمهلي

وإذا سألت الوصل قال جمالها   جودي وقال دلالها لا تفعلي

---

(1) أبو الطيب المتنبي: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الكوفي المتنبي الشاعر، ولد سنة (٣٠٣هـ) ، وأكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة، تعاطى قول الشعر في صغره حتى طبع فيه للغاية، وسار شعره في الدنيا ، بالإضافة لتفوقه على أهل زمانه، مدح الملوك كسيف الدولة وكافور الإخشيدي، وادعى النبوة في عصره فأخذ وحبس وأشرف على الهلاك ثم استتابوه وأطلقوه ، كانت وفاته بالقرب من النعمانية بمكان يقال له الصافية بعد أن تعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في عدة في أصحابه وكان المتنبي مع جماعة أيضاً وابنه محمد وغلامه مفلح وذلك سنة (٣٥٤هـ) ومن آثاره «ديوان شعره».

ابن إسرائيل:

وعـدتْ بوصل والزمان مسوفُ | حوراءُ ناظرها حسامٌ مرهفُ
نشوانةٌ خصباء منهل ثغرها | درٌّ وريقها سلافٌ قرقف
وتخال بين البدر منها والنقا | غصنًا يميس به النسيم مهفهف
لا تحسبن الخلف شيمة مثلها | وعدت ولكنّ الزّمان يسوّف
يا بانةً قد أطلعت أغصانها | وردًا جنيًّا بالـلواحظ يقطف
وغزالةً يحكى الغزالة وجهها | ويعبر ناظرها الحسام الأوطف
ما تأمرين لمغرم تسطو به | أجفانك المرضى ولا تستعطف
قمّا بوجهك وهو صبحٌ مشرقٌ | وسواد شعرك وهو ليلٌ مسدفُ
ويهز غصن البان منك على النقا | ما لى إلى أحد سواك تشوّف

ولنذكر إن شاء الله تعالى فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديوى:

ولما نأت سلمى وشطّ بها النوى | وأيقنت أنىّ بالغرام أذوبُ
علقتُ بأخرى غيرها متلاهيًا | ليُطفى ضرامٌ فى الحشا ولهيب
وكان هيامى والهوى وصبابتى | لمن هو فى الأولى إلىّ حبيب

وله فى المعنى:

تلاهيت عنها فى الغرام بغيرها | وقلت لقلبى هذه هى زينبُ
وقبلت فاهًا مبردًا لصبابتى | فأضرمت نارًا فى الحشا تتلهّب
فكنت كمن هو ذا غريقًا بلجة | تمسّك بالموج الذى يتقلب

وقال أيضًا:

سألت القلبَ هل مَيلى لليلى | وهل عند الفؤاد لها التفات
فقال الآن لا لكنْ تأنّى | فقلت الحبّ فيه تقلّباتُ
فإنّ الحبّ يهجم بعد يأس | ويعتاد المحبّ تغيرات
فلا تُظهر لها يومًا سلوا | فتضحك التصابى الواردات
وتُرمى بالصدود وبالتجنى | وتنحلك الوعود الكاذبات
فكن جلدًا ولا تك ذا لجاج | فما يغنيك إنْ فات الفواتُ

وقال البيطار:

يقولون هذى أمّ عمرو قريبةٌ | دنت بك أرضُ نحوها وسماء

ألا إنما قــــرب الحـــبـــيب وبعــــده ... إذا هــو لــم يوصــل إلـيـــــه ســـــواء

وقال غيره:

وقـــالــوا بعْ حـــبـــيـــبــك وابغ عــنه ... حــبـيـبًــا آخــرًا تحـيــا ســعــيـدًا

إذا كــــــان القــــــديم هو المـصــــافى ... وخـــــــان فـكـيف آلمـن الجـــــديدا

وقال آخر:

لم أنـس إذ قلـت من وجــدى لهـــا غلـطًا ... ووجــهـــهـــا مـــشـــرق فـى حندس الظـلم

سلوت عنك فـــقـــالـت وهى ضـــاحـكة ... لـتــــقـــــرعـنّ علىّ الـسـنّ من نـدم

وقال آخر:

أمِنَ المروءة أن أبيت مـــــســـــهّـــــدًا ... قـلقًـــا أبلُّ مــــلابـسى بدمـــوعـى

وتبـــيت ريّـان الجـــفـــون من الـكرى ... وأبـيـت مـنـك بـلـيـلـة الملـســـــوع

وقال آخر:

إلـى الله أشكـو جـــور أهيـف شـــادنٍ ... وقـــعت فـــمـــا لى مـن يديه خـــلاص

جـــرحت بعـــيـنى خــدّه وهو جـــارح ... بعـــينيـــه قـلبى والجـــروح قـــصـــاص

وقال آخر:

قـــد كنت أســـمـع بالهـــوى فـــاكـــذّب ... وأرى المحبّ ومـــا يقـــول فـــأعـــجب

حـــــــتى بـلـيـت بـحـلـوه وبمره ... من كـــان يتـــهم الـهـــوى فـيـــجـــرّب

وقال آخر:

ســـألتـــهـــا التـــقـــبـيـل من خــدّها ... عـــشـــرًا ومـــا زاد يكـون احـــتـســـاب

فـــمـــــذ تلاقـــينا وقــــبـلتـــهـــا ... غلـطت فى الـعـــدّ وضـــاع الحـســـاب

وقال آخر:

يا من ســـقـــامى من ســقـــام جـفـــونه ... وســـواد حظـى من ســـواد عـــيـــونه

قـــد كنـت لا أرضى الوصـــال وفـــوقـــه ... والـيـــوم أقنع بـالخـــيــــال ودونـه

وقال آخر:

صـــبّـحـــتـــه عـند المســـاء فـقـــال لى ... تهـــزى بـقـــدرى أو تريـد مـــزاحـــا

فـــأجـــبـــتـــه إشـــراق وجـــهك غـــرّنى ... حـــتّى توهّمت المســاء صـــبـــاحـــا

أبو عبد الله الغواص:

من عـــــذيرى من عـــــذول فى رشـــــا ... فــــأمــــر القلـبُ هواه فـــقـــــمـــر

قــــمــــر لم يبـق منى حــــســـنه ... وهواه غـــــيـــــر مـــقـلوب قـــمـــر

وقال آخر:

جـــاذبتـــهـــا والريـح تجـــذب برقـــعًـــا ... من فـــوق خـــد مـــثل قـلب العـــقـــرب

وطفــقت ألثم ثغـرهـا فـتـحـجّـبت وتسـتـرت عني بقلب العـقـرب

وقال آخر:

لو متُّ من كـثـرة الأشـواق وانبـدلت مـدامـعي بدم من كـثـرة السـهـر

مـا اخـتـرت عنك سلواً لا ولا نظرت عـيني لغـيـر مـحـيـا وجـهك القـمـر

إبراهيم بن العباس:

تمر الصَّبا صـفـحًا بسـاكن ذي الغـضى ويـسـرع قـلبي إذا يهـبّ هـبـوبهـا

قـريبـة عـهـدٍ بالحـبـيب وإنما هوى كـل نفسٍ أين حـلَّ حـبـيـبـهـا

وقال النوفلي:

إذا اخـتـلجت عـيني رأت من تحـبُّـه فـدام لعـيني مـا حـييت اخـتـلاجـهـا

ومـا ذقت كـأسًـا مـذ علقت بحـبـهـا فـأشـربه إلاَّ ودمـعي مـزاجـهـا

وقال آخر رحمه الله تعالى:

يـا ذا الـذي زارا ومـا زارا كـأنه مـقـتـبس نـارا

قـام بـبـاب الـدار من تـيـهـه مـا ضـرّه لـو دخـل الـدارا

وقال آخر:

ولقـد جـعلتك في الفـؤاد مـحـدّثي وأبـحـت مـنّي ظـاهـري لجـليـسي

فـالـكل منّي لـلـجليس مـؤانـس وحـبـيـب قـلبي في الفـؤاد أنيـسي

ابن نباتة:

أناشـده الـرحـمن في جـمـع شـمـلنا فـيـقـسم هذا لا يكون إلى الحـشـر

إذا مـا غـدا مـثـل الحـديد فـؤاده فـوالعـصـر إنّ العـاشـقين لفي خـسـر

أمين الدين بن أبي الوفاء:

يـا نـازلاً منّي فـؤادًا راحـلا ومـن العـجـائب نـازلاً في راحـل

أضـرمت قـلب مـتـيّـم أهلكتـه وسكـنتـه والـنار مـثـوى القـاتل

وقال آخر:

يـا عـاذلـي فـي هـواه إذا بـدا كـيـف أسـلـو

يمـرُّ بـي كـل وقـتٍ وكـلـمـا مـرّ يحـلـو

الحاجبي:

مـلأت فـؤادي من محـبـة فـاتنٍ أمـيـل إليـه وهـو كـالظبي رائغ

وقلت لقـلبي قم لتـعـشق شـادنًا سـواه فـقـال القـلب مـا أنـا فـارغ

وقال ديك الجن(1):

ولي كبد حرى ونفس كأنها ... بكف عدو ما يريد سراحها
كأنّ على قلبي قطاة تذكرت ... على ظمأ وردًا فهزّت جناحها

وقال عبد الله بن طاهر:

أقام ببلدة ورحلت عنه ... كلانا بعد صاحبه غريب
أقلُّ الناس في الدنيا سرورًا ... محبٌّ قد نأى عنه الحبيب

وقال آخر:

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى ... والله لا مللاً ولا لتجنّب
لكن خشيت بأن أموت صبابة ... فيقال أنت قتلته فتقاد بي

وقال ابن المعتز:

هبْ لعيني رقادها ... وانف عنها سهادها
وارحم المقلة التي ... كنت فيها سوادها
كن صلاحًا لها كما ... كنت دهرًا فسادها

وقال آخر:

وقالوا دع مراقبة الثريا ... ونمْ فالليل مسودّ الجناح
فقلت وهل أفاق القلب حتى ... أفرق بين ليلى والصّباح

وقال آخر:

ولي فؤاد إذا طال النزاع به ... طار اشتياقًا إلى لقيا معذبه
يفديك بالنفس صبٌّ لو يكون له ... أعزّ من نفسه شيء فداك به

وقال آخر:

وما هجرتك النّفس يامىّ إنها ... قلتكِ ولا أن قلّ منك نصيبها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا ... بقولٍ إذا ما جئت هذا حبيبها

وقال المحاربي:

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى ... بأهل الهوى فافقد حبيبًا وجرّبِ
ترى حرقاتٍ يلدغ القلب حرّها ... بأنضج من كي الغضى المتلهب

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لفتٍ ذات يوم لقيته ... بمكة والأنضاء ملقى رحالها
بحقك أخبرني أما تأثم التي ... أضرّ بجسمي منذ مرّ خيالها

---

(1) ديك الجن: هو كبير الشعراء، أبو محمد، عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي السلماني، الشيعي طريف ماجن خِمير خليع بطال عرف (بديك الجن) أصله من سلمية وولد بحمص توفي سنة (235هـ - 850م) وله «ديوان».

فقال بلى والله أو سيصيبها — من الله بلوى فى الزمان تنالها
فقلت ولم أملك سوابق عبرة — سريع على جيب القميص انهمالها
عفا الله عنها كلّ ذنبٍ ولُقّيت — مناها وإن كانت قليلاً نوالها

وقال آخر:

بالله ربكما عوجا على سكنى — وعاتباه لعلّ العتب يعطفه
وعرّضا بى وقولا فى حديثكما — ما ضرّ لو بوصالٍ منك تسعفه
فإن تبسّم قولا عن ملاطفةٍ — ما بال عبدك بالهجران تتلفه
وإن بدا لكما من سيدى غضب — فغالطاه وقولا ليس تعرفه

وقال عبد الله بن أبى الشيص:

ومعرضةٍ تظنُّ الهجر فرضًا — تخال لحاظها للضعف مرضى
كأنى قد قتلت لها قتيلاً — فما منّى بغير الهجر ترضى

وقال الحسين بن الضحاك[1]:

بعضى بنار الهجر مات حريقًا — والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقًا عاشقٌ فسمعته — إلاَّ ظننتك ذلك المعشوقا

وقال آخر:

وأجيل فكرى فى هوا — ك بلا لسان ناطق
أدعو عليك بحرقة — من غير قلب صادق

وقال آخر:

يا ويح من خبل الأحبة قلبه — حتى إذا ظفروا به قتلوه
عزّوا ومال به الهوى فأذله — إنَّ العزيز على الذليل يتيه
انظر إلى جسد أضرّ به الهوى — لولا تقلب طرفه دفنوه
من كان خلواً من تباريح الهوى — فأنا الهوى وحليفه وأخوه

وقال أحمد بن طاهر:

تقول العاذلات تسلّ عنها — وداو عليل صبرك بالسلو
فكيف ونظرةٌ منها اختلاسًا — ألذّ من الشماتة بالعدو

وقال إسحاق بن مولى المهلب:

هبينى يا معذبتى أساتُ — وبالهجران قبلكُمُ بدأتُ
فأين الفضل منك فدتك نفسى — علىَّ إذا أسأت كما أسات

(١) الحسين بن الضحاك: هو الحسين بن الضحاك بن ياسر، أبو على البصرى، خراسانى الأصل مولى باهلة، شاعر معروف بالخليع، أقام ببغداد ينادم الخلفاء دهرًا طويلاً وهو حسن الافتنان فى ضروب الشعر وأنواعه وبلغ سنًا عالية، توفى ببغداد سنة (٢٥٠هـ)، وقد قارب مائة سنة.

وقال أبو العتاهية:

يقول أناسٌ لو نعتّ لنا الهوى ... ووالله ما أدرى لهم كيف أنعتُ
سقامٌ على جسمى كثيرٌ موسعٌ ... ونومٌ على عينى قليل مفوّت
إذا اشتدّ ما بى كان أفضل حيلتى ... له وضع كفى فوق خدى وأسكت

وقال بشار:

يا قرّة العين إنى لا أسميكى ... أكنى بأخرى أسمّيها وأعنيك
أخشى عليك من الجارات حاسدة ... أو سهم غيران يرمينى ويرميك
لولا الرقيبان إذا ودّعت غادية ... قبّلت فاك وقلت النفس تفديك
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبرِ ... إلاّ شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرة فى الدهر واحدة ... بالله لا تجعليها بيضة الديك

وقال آخر:

ألم تعلمى يا أحسن الناس أننى ... أحبُّك حبًّا مستكنًّا وباديًا
أحبك ما لو كان بين قبائلٍ ... من الناس أعداءٌ لجرّ التصافيا

وقال آخر:

أقول لشادنٍ فى الحسن أضحى ... يصيد بطرفه قلب الكمى
ملكت الحسن أجمع فى نصاب ... فأدِّ زكاة منظرك البهى
وذاك بأن تجود لمستهامٍ ... برشفٍ من مقبّلك الشهى
فقال أبو حنيفة لى إمامٌ ... يرى أن لا زكاة على الصبى

وقال آخر:

سقى الله ربعاً كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهنا فى روضة الحسن ضاحك
أقمنا زماناً والعيون قريرةٌ ... وأصبحت يومًا والجفون سوافك

وقال آخر:

ألم تعلمى يا عذبة الماء أننى ... أظلُّ إذا لم أسقَ ماءك صاديا
وما زلت بى يا بينُ حتى لو أننى ... من الوجد أستبكى الحمام بكى ليا

أبو العباس الشهير بالنفيس[1]:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه ... هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ما أنصفتك جفونى وهى داميةٌ ... ولا وفى لك قلبى وهو يحترقُ

(١) أبو العباس: هو أحمد بن عبد الغنى بن أحمد بن عبد الرحمن بن خلف بن مسلم اللخمى، المصرى، المالكى القطرسى المنعوت بالنفيس (أبو العباس) أديب، شاعر، مشارك، فى الفقه وعلوم الفلاسفة له «ديوان شعر» توفى سنة (٦٠٣هـ - ١٢٠٦م).

الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع:

لأعــــذّبنّ الـعين غـــيــر مـــفـكّر ... فـيـهــا بكـت بالدمع أو فــاضت دمًــا
ولأهـجـــرنّ مـن الرقــــاد لـذيـذهُ ... حـتى يـعـود على الجـفـون مـحـرّمًـا
هي أوقـعـتـنى فى حـبـائل فـتـنةٍ ... لو لـم تكـن نظـرت لكـنت مـسـلّمًـا
سـفكـتْ دمي فـلأسـفحـنْ دمـوعـهـا ... وهـى الـتـى بدأت فـكـانـت أظـلمـا

وقال العتبي:

أضـحـت بـخـدّي لـلدمـوع رسـوم ... أسـفًـا عليك وفـى الفـؤاد كـلوم
والصـبـر يحـمـد فى المواطـن كلّهـا ... إلاّ عـليـك فـإنه مـذمـوم

الرفاء الأندلسي:

ومـهـفـهـفٍ كـالـغـصـن إلاّ أنه ... تـتـحـيـر الألبـاب عند لـقـائه
أضـحـى ينـام وقـد تـكلّل خـدّه ... عـرقـًا فـقـلت الـورد رُش بمائـه

وقال آخر:

اخـضـرّ واصـفـرّ لاعـتـلالِ ... فـصـار كـالنـرجس المضـعّف
كـأنّ نـسـريـن وجـنـتـيـه ... بشـعـر أصـداغـه مـغـلف
يـرشـح مـنـه الجـبـين مـاءً ... كـأنـه لـؤلـؤ منـصّـف

وقال آخر:

مـازال ينهـلُ من صـرف الطلا قـمـرى ... حـتى غـدت وجنـتـاه الـبـيض كـالشـفق
وقـام يخـطر والأرداف تُـقـعـده ... طـوارًا وحـاول أن يسـعـى فلم يطـق
فـعـائلٌ فـعلت فـعل الـشـمـول به ... فـعـل النـسـيم بغـصـن البـانـة الورق
جـاذبـتـه لعـناقى فـانـثنى خـجـلاً ... وكللت وجـنـتـاه الحـمـر بـالعـرق
وقـال لـى بفـتـسـورٍ من لـواحظـه ... إنّ الـعـنـاق حـرام قـلت فى عـنـقـى

وقال آخر:

بـأركـان هذا البـيـت إنّى لـطائـفٌ ... وفى الـكون أسـرارٌ وفـيـه لطـائف
رعى الـله أيامـاً ونـاسـاً عـهـدتـهم ... جـيـادًا ولكـنّ الليـالي صـيـارف
وبـى ذهـبـيُّ الـلون صـيـغ لمحـنـتـى ... يريـد امـتـحـاناتى ومـا أنـا زائف
يـذيـب فـؤاداً وهـو لا غـشّ عـنـده ... فـيـا ذهبـيَّ اللـون إنّك خـائـف

وقال آخر:

أسـنـى ليـالى الـدهـر عـنـدىَ ليـلـةٌ ... لم أخـلِ فـيـهـا الكاس من أعـمـالى
فـرقت فـيـهـا بـين جـفـنى والـكرى ... وجـمـعت بين الـقـرط والخـلخـال

ومما قيل فى الرقباء:

لو أنَّ لى فى الحب أمراً نافذاً … وملكت بسط الأمر فى التعذيب

لقطعت ألسنة العواذل كلّها … ولكنت أقلع عين كلّ رقيب

وقال أعرابى:

بسهم الحبِّ كِلّم فى فؤادى … ولا كالكلم من عين الرقيب

تمكّن ناظراه به وأضحى … مكان الكاتبين من الذنوب

ومن حذره الرقيب إذا التقينا … نسلّم كالغريب على الغريب

ولولاه تشاكينا جميعاً … كما يشكو المحبّ إلى الحبيب

وقال آخر:

من عاش فى الدنيا بغير حبيبِ … فحياته فيها حياة غريب

عين الرقيب غرقت فى البحر العمى … لا أنت لا بل عين كلّ رقيب

وقال أحمد بن أبى سلمة:

يعذلنى فيه جميع الورى … كأنّنى جئت بأمرٍ عجيب

أظنّ نفسى لو تعشّقتها … بليت فيها بملام الرقيب

وأنا الغريب فلا ألام على البكا … إنّ البكا حسن بكلّ غريب

وقال آخر:

وما فارقت سعدى عن قلاها … ولكن شقوةً بلغت مداها

بكيت نعم بكيت وكلُّ إلفٍ … إذا بانت حبيبته بكاها

وقال آخر:

وقائلةٍ ما بال دمعك أبيض … فقلت لها يا علو هذا الذى بقى

ألم تعلمى أنّ البكا طال عمره … فشابت دموعى عندما شاب مفرقى

وعمّا قليلٍ لا دموع ولا دما … ولم يبق إلاّ لوعتى وتحرّقى

وقال آخر:

ولم أر مثلى غار من طول ليله … عليه لأنّ الليل يعشقه معى

وما زلت أبكى فى دجى الليلة صبوةً … من الوجد حتى ابيضّ من فيض أدمعى

وقال آخر:

رجوت طيف خيالٍ … وكيف لى بهجوع

والذاريات جفونى … والمرسلات دموعى

وقال آخر:

يا نازح الطيف من نومى يعاودنى … فقد بكيت لفرط النازحين دما

أوجبت غسلاً على عيني بأدمعها ... فكيف وهي التي لم تبلغ الحلما

وقال آخر:

ارحم رحمت للوعتي ... وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لاتسلْ ... عن حالها يا ما جرى

وقال آخر:

أملت أن تتعطفوا بوصالكم ... فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
وعلمت أن فراقكم لابدّ أن ... يجري به دمعي دماً وكذا جرى

وقال آخر:

إنّ عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السهد في كراها وينهى
بدموعٍ كأنّهن الغوادي ... لاتسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر:

يقولون لي والدمع قرّح مقلتي ... بنار أسى من حبّة القلب تقدح
أدَمعُك جمر قلت لاتتعجبوا ... فكلّ وعاءٍ بالذي فيه ينضح

وقال البدر الذهبي:

قالوا تباكى بالدموع وما بكى ... بدمٍ على عيش تصرّم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لكنّه ... لما تصاعد صار يقطر أبيضا

قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمسى على تلفي مصراً ... لقلت معذبي بالله زدني
ولا تسمح بوصلك لي فإني ... أغار عليك منك فكيف مني

وقال آخر:

أغار عليك من نظري ومنّي ... ومنك ومن مكانك والزمانِ
ولو أني خَبَّأتك في جفوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني

المظفر بن عمر الآمدي:

قلت للذين جفوني إذ لهجت بهم ... دون الأنام وخير القول أصدقُهُ
أحبكم وهلاكي في محبّتكم ... كعابد النار يهواها وتحرقُهُ

وقال غيره:

لم أنس أيام الصبا والهوى ... لله أيام النجا والنجاحْ
ذاك زمان مرّ حلو الجنى ... ظفرت فيه بحبيبٍ وراحْ

الشريف الرضي:

علّلاني بذكركم واسقياني ... وامزجا لي دمعي بكأسٍ دهاق

وخــذا النوم من جــفــونــى فــإنى ... قــد خلعت الكرى على العــشــاق

وقال آخر:

قــالوا أترقــد مــذ غــبنا فــقلت لــهم ... نعم وأشــفق من دمــعــى على بصــرى

مــا حقّ طرف هــدانى نــحــو حــسنكم ... أنّى أعــذبه بالدمع والســهــر

عز الدين الموصلى:

فــسُــدتْ لطول بعــادكم أحــلامنا ... وعــقــولنا وجــفــا الجــفــون منامُ

والطيف قــد وعــد الجــفــون بزورةٍ ... يا حــبّــذا إن صــحّتِ الأحــلام

ومما قيل فى السهر وطول الليل ونحو ذلك: قال الشاعر:

وربَّ ليلٍ ســهــرنــاه وقــد طلــعت ... بقــيــة البــدر فى أولى تــسايره

كــأنّمــا أدهم الظلمــاء حين نجــا ... من أشــهب الصبح ألقى نعل حــافره

وقال آخر:

ليل المحــبين مطوىٌّ جــوانبــه ... مــشــمّــرُ الذيل منســوب إلى القِــصَــر

مــا ذاك إلاَّ لأنّ الصــبح نمَّ بنا ... فــاطلع الشمس من غــيظٍ على القــمــر

وقال غيره:

فلم أرَ مــثل ليلٍ ذوى التّــصــابى ... وكلّ يشــتكيــه بكل حــال

فــيــشكو طوله أهل التــجــافى ... بالطول ليلى وإن جــادت به بخــلا

وقال آخر:

ليلى وليلى ســواء فى اختــلافــهــما ... قد صــيّرانى جميــعاً فى الهوى مــثلا

يجــود بالطول ليلى كلمــا بخلت ... بالطول ليلى وإن جــادت به بخــلا

وقال آخر:

إنّ الليــالى للأنام مــناهــل ... تطوى وتنشــر بينهــا الأعــمــار

فــقــصــارهن مع الهــمــوم طويلةٌ ... وطوالهنّ مع الســرور قــصــار

وقال غيره:

ربَّ ليلٍ لم أذق فــيــه الكرا ... حظُّ عــينى فــيــه دمعٌ وســهــرْ

كلمــا هيج ليلى حــرقى ... صــحــت بالليل أمــا فــيك ســحــرْ

وقال آخر:

يــا لــيل ظــلّ أو لا تــظــل ... لابدّ لى من ســهــرك

لو بات عندى قــمــرى ... مــا بت أرعى قــمــرك

وقال بشار بن برد:

خليلىَّ مــا بال الدُّجى لايزحــزح ... ومــا بال ضــوء الصــبح لايتــوضّحُ

أضلّ إليها المستنير طريقه   أم الدهر ليلٌ كله ليس يبرح

وقال آخر:

كأنّ الثريا راحةٌ تشبر الدجى   ليعلم طال الليل أم قد تعرّضا
فليلى تراه بين شرقٍ ومغربِ   يقاس بشبرٍ كيف يرجى له انقضا

وقال ابن منقذ:

لما رأيت النجم ساهٍ طرفه   والقطب قد ألقى عليه سباتا
وبنات نعشٍ فى الحداد سوافرٌ   أيقنت أنّ صباحهم قد ماتا

وقال آخر فى ليلة ممطرة:

أقول والليل فى امتدادِ   وأدمع الغيث فى انسفاح
أظن ليلى بغير شكٍ   قد بات يبكى على الصباح

ومما جاء فى الأشعار الخمرية قول صفى الدين الحلى:

بدت لنا الراح فى تاجٍ من الحبب   فمزّقت حلة الظلماء باللهبِ
بكرٌ إذا زوّجت بالماء أولدها   أطفال در على مهدٍ من الذهب
بقيةٌ من بقايا قوم نوح إذا   لاحت جلت ظلم الأحزان والكرب
بعيدة العهد بالمعصار لو نطقتْ   لحدّثتنا بما فى سالف الحقب
باكرتها برفاقٍ قد ذهبت بهمْ   قبل السلاف سلاف العلم والأدب
بكلّ متشحٍ بالفضل مؤتزر   كأنّ فى لفظه ضرباً من الضرب
بل ربّ ليلٍ غدا مثل الإهاب غدت   تنقضّ فيه كؤوس الراح كالشهب
بذلت عقلى صداقاً حين بت به   أزوّج ابن سحاب بابنة العنب
بتنا بكاساتها صرعى ومطربنا   يعيد أرواحنا من شدّة الطرب
بعثٌ ألمّ فلم نعلم لفرحتنا   من نفخة الصور أم من نفخة القصب
بروضةٍ طلّ فيها الطلُّ أدمعه   والزهر مبتسمٌ عن ثغره الشنب

وقال أيضاً:

تاب الزمان من الذنوب فواتِ   واغنم لذيذ العيش قبل فوات
تمّ السرور فقمْ يا صاحبى   تستدركُ الماضى بنهب الآتى
توّج بكاسات الطلا هام الربا   فى روضةٍ مطلولة الزهراتِ
تغدو سلاف القطر دائرة بها   والكأس دائرةٌ بكفّ سقاة
تلّف النضار على العقار غنيمتى   وقواع راحاتى على الراحات
تركى لأكياس النضار جهالةٌ   من ذا أحق بها من الكاسات
تبت يدا من تاب عن رشف الطـ   ـلا و الكاس متقدٌ كخدّ فتاةِ

تابع إلى أوقاتها داعي الصبا واعجب لما فيها من الآياتِ
تم بها نقص السرور فإنها عند الكرام تتمة اللذاتِ

وقال أيضاً:

حيّ الرفاق وطف بكاس الراح واطرز بكاسك حلة الأفراح
حثّ الكؤوس على جسوم أصبحت فيها المدام شريكة الأرواح
حاش الأنام وعاطني مشمولةً ظنّت فسادي وهي عين صلاحي
حمراء لو ترك السقاة مزاجها أغنى تلألؤها عن المصباح
حببٌ تظلّ به الكؤوس كأنها خصر الفتاة ممنطقٌ بوشاح
حَجَبَ الحبابُ شعاعها فكأنه شفقٌ تلهب تحت ذيل صباح
حكم الزمان وغضّ عنّا طرفه يا صاح لاتقنع بأنك صاح

وقال آخر:

قد قلت إذ أضحى يعبّس كلما دارت عليه بالمدام الأكؤسُ
تالله ما أنصفتها يا سيّدي تأتيك باسمةً وأنت تعبّسُ

عز الدين الموصلي:

لئن شبّه الساقي المدام بعسجدٍ فقد مال بالتشبيه عن صيغة الأدبِ
ولكن رآها جوهراً سمّيت طلاً فميّز ما قد حلّت الكاسُ بالذهبِ

يزيد بن معاوية:

وشمسة كرم برجها قعر دنّها وطلعتها الساقي ومغربها فمي
مدامٌ كتبرٍ في إناءٍ كفضّةٍ وساقٍ كبدرٍ مع ندامى كأنجم

وقال آخر:

كأنّ النّدامى والسقاةُ ودننا وكاساتنا في الروض تملى وتشرب
شموسٌ وأقمارٌ وفلكٌ وأنجمٌ ونورٌ ونوارٌ وشرقٌ ومغرب

وقال آخر:

فكأنها وكأنّ حامل كاسها إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقّط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وقال كشاجم:

صدح الديك في الدجى فاسقنيها خمرةً تترك الحليم سفيها
لست أدري من رقةٍ وصفاءٍ هي في الكأس أم هو الكاس فيها

كمال الدين بن النبيه:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح فالدّيك قد صدع الدجى لما صدح

خفيت تباشير الصباح فاسقني ... ما ضلّ في الظلماء من قدح القدح
صهباء ما لمعت بكفّ مديرها ... لمقطب إلاّ تهلّلَ وانشرح
تاللّه ما مزج المدام بمائها ... لكنّه مزج المسرّة بالفرح
هي صفوة الكرام الكريم فما سرت ... سرّاؤها في باخلٍ إلاّ سمح
من كف قتّان اللحاظ بوجهه ... عذر لمن خلع العذار أو افتضح

وقال غيره:

وليلة أوسعتني ... حسناً ولهواً وأنسّا
ما زلت ألثم بدراً ... بها وأشهد شمسّا

عبد الله بن محمد العطار وقيل يزيد بن معاوية:

وكأس يرينا آية الصّبح في الدجى ... فأوّلها شمس وآخرها بدرُ
مقطّبة ما لم يزرها مزاجها ... فإن جاءها جاء التبسُّم والبشر
فيا عجبا للدّهر لم يخل مهجةً ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

وقال ابن تميم:

وليلةٍ بت أسقى من غياهبها ... راحا تسلُّ شبابي من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى ... غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

ابن مكانس:

نـــزل الـــطـــلُّ بـــكـــرةً وتــوالــى تجــــدّدا
والـنـدامى تجــمــعــوا فــأجـلُ كـــأسـى عـلى الـنـدى

الشيخ شهاب الدين بن الحجارى:

كـــأسنا يا صـــاح صـــرفـــا جـلـيـت بـيـن الـنـدامـى
لـم نجـــد مـــاءً لمزج لـقـنـعـنـا بـالـنـدامـى

صفى الدين الحلى:

كـيف لا تـخـضـع العـقـول لـديهـا وهـى سـلـطـان سـائـر المسكرات
ألفــوا فـى الكـؤوس إذ مـزجـوها بين مـاء الحـيـا ومـاء الممـات

غيره:

صـهـبـاء فى الكاس صـرفـاً غـلـبـت ضـوء الـسـراج
ظنـنـهـا فـى الـكـاس نـاراً فـطـفـاهـا بـالـمزاج

مجد الدين بن تميم:

نـديمى لا تـسـقـنـى سوى الصـرف فـهـو الهـنى
ودع كـأسـهـا أطلـسـاً ولا تـسـقـنـى مع دنـى

تقى الدين بن حجة:

حـيّـا بهـا عـاصـرها فى كـأسـهـا مـشـرقـةً باسـمـةً كـالـثـغـر
وقـال هذى تحـفـة فى عـصـرنا قلـت اسـقـنيـهـا يا إمـام العـصـر

أبو الطيب المتنبى:

يا صـاحـبى امـزجـا كـأس المدام لنا كـيـمـا يضىء لنا من أفـقـهـا الغـسقُ
خـمـراً إذا مـا نـديمى همَّ يـشـربهـا أخـشـى عليـه من اللألاء يحـتـرقُ
لو راح يـحلف أنَّ الـشـمـس مـا غـربت فى فـيـه كـذّبه فـى وجـهـه الشـفق

وقال آخر:

بنتُ كـرمٍ يتّـمـوها أمـهـا وأهـانـوهـا بـدوسٍ بـالـقـدم
ثـم داروا حكّـمـوهـا فـيـهـمُ ويـلـيـهـم من جـور مظلومٍ حكم

وقال آخر:

عـناقـيـد علـى قـضـب تدلّت حكـى منظومـهـا عـقـد اللآلى
إذا عـصـرتْ بدا فـى الكـأس منـهـا دوالـى قـد تربّت فـى دوالـى

برهان الدين بن المعمار:

بـاكـر لـكـرم العـنـب المجـتـنـى واستـجـنه من عـنـد عنّـابـه
واعـصـره واسـتـخـرج لـنا مـاءه لـكـى تـزيـل الـهـمّ عـنّـابـه

جولان العاذلي:

إذا ما الخمر في الكاسات صُبّت ... رأيت لها شموساً في بروج
وإن جليت على الندمان يوماً ... تزاحمت الهموم على الخروج

وقال في الشراب المطبوخ:

يامنْ يعذّب ماء الكرم بحرقه ... بالنار في أيّ شيء تظلم العنب
إنّ التي طبختها الشمس أنفعُ لي ... ولست أخمر لا قدراً ولا حطبا

وقال أيضاً:

وعتيقة رقّت وراق مزاجها ... لطفاً وانحلها الزّمان الغابر
لم يبق منها غيرُ نزرٍ ساطعٍ ... لايستطيع يجول فيه الناظر
ترنو إليك من الحباب بأعينٍ ... خلقت ولم تخلق لهنّ محاجر

وقال غيره:

لاتعصرنّ زبيباً واعتصر عنبا ... فبين هذين فرّقنا بتصريح
هذا من الحي للأحياء معتصرٌ ... وذاك يعصر من جسم بلا روح

وقال غيره:

عابوا عليَّ مداماً ... أخّرتها لصبوحي
واستنكروها وقالوا ... ارتحت قلت روحي

وقال آخر في الشراب على الرعد والبرق:

أما ترى الرعد بكى فاشتكى ... والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيمٍ كصبغ الدجى ... أضحك وجه الروض لما بكى
وانظر لماء النيل في مدّه ... كأنّه صندلٌ أو مسطكا

وقال آخر:

يا ليلةً جمعت لنا الأحبابا ... لو شئت دام لنا النعيم وطابا
بتنا بها نُسقى سلافاً قرقفاً ... يذر الصحيح بعقله مرتابا
من كفٍّ غانيةٍ كأنَّ بنانها ... من فضّةٍ قد قمّعت عنّابا

وقال آخر:

أما ترى الغيث كالباكي بأدمعه ... والأرض تضحك والأزهار في فرح
فقم فديتك نشكو ما نكابده ... من الزمان وما نلقى إلى القدح

ابن نباتة:

أما ترى الليل قد ولّت غياهبه ... وعارضُ الفجر بالإشراق قد طلعا
فاشرب على وردةٍ وردية قدمتْ ... كأنها خدُّ ريمٍ ريمَ فامتنعا

ومن شعر عضد الدولة:

طربت إلى الصَّبوح مع الصباح / وشرب الرّاح والغُرر الملاح
وكان الثلج كالكافور نثراً / ونارى بين نارنجى وراحى
فمشمومى ومشروبى ونارى / وثلجى والصباح مع الصباح
لهيبٌ فى لهيبٍ فى لهيبٍ / صباح فى صباح فى صباح

ابن وكيع:

وصفراء من ماء الكروم كأنها / فراق عدو أو لقاء صديق
كأنَّ الحباب المستدير بطوقها / كواكب در فى سماء عقيق
صببت عليها الماء حتى تعوَّضت / قميص بهارٍ من قميص شقيق

وقال آخر:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده / أتت بين ثوبى نرجسٌ وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا / عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

وقال آخر:

إذا الكروان صاح على الرمال / وحلّ البدر فى برج الكمال
وجعّد وجه بركتنا هبوبٌ / تمرّ به الجنوب من الشمالِ
وحرّكت الغصون فشابهتها / قدود سقاتنا فى كل حال
فهات الكأس مترعة ودعنى / أبادر لذّتى قبل ارتحالى
فكلٌّ جماعةٍ لاشكّ يوماً / يفرّقُ بينهم صرفُ الليالى

وقال آخر فى الشراب على الغيم:

أرى غيماً تؤلفه جنوبٌ / ويوشك أن يوافقنا بهطلٍ
فوجه الرأى أن تدعو برطلٍ / فتشربه وتدعو لى برطلٍ

وقال آخر:

فيا بكر باكر بكرة بكر كرمة / تفز ببكور باكرتك بها بكرُ
وداو خمار الخمر بالخمر إنّما / دواء خمار الخمر من ذاتها الخمر

وقال الصنوبرى:

لاتبكين على الأطلال والدّمن / ولا على منزل أقوى من السكن
وقمْ بنا نصطبح صهباء صافية / تنفى الهموم ولا تُبقى على الحزن
بكراً معتّقة عذراء واضحة / تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
حمراءَ مروقة صفراءَ فاقعة / كأنّما مزجت من طرفك الوسنى
يسعى بها غنجٌ فى خدّه ضرجٌ / فى ثغره فلجٌ يُنمى إلى اليمن
فى ريقه عسلٌ قلبى به خبلُ / فى مشيه مَيَلٌ أربى على الغصن
كأنّه قمرٌ ما مثله بشرٌ / فى طرفه حورٌ يرنوا فيجرحنى

سبحان خالقه يا ويح عاشقه ... يهدى لرامقه صنفاً من الشجن
فى روضة زهرتْ بالنبت قد حسنتْ ... كأنها فرشتْ من وجهه الحسن
يا طيب مجلسنا والطير يطربنا ... والعود يسعدنا مع منشدٍ لسن

كمال الدين بن النبيه:

طاب الصبوح لنا فهاك وهات ... واشرب هنيئاً يا أخا اللذات
كم ذا التوانى والزمان مساعدٌ ... والدهر سمحٌ والحبيب مواتى
قم واغتبق من شمس كاسك واصطبح ... بكواكبٍ طلعتْ من الكاسات
حمراء صافية توقد نورها ... فعجبت للنيران فى الجنّات
ينسلّ فى قاع الظروف حبابها ... والدرُّ مجتلبٌ من الظلماتِ
عذراء واقعها المزاج أما ترى ... منديل عذرتها بكفّ سقاة
يسعى بها عبل الروادف أهيف ... خنث الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره ... ملتّفةٌ كأساود الحيّات
لو قسمت أرزاقنا بيمينه ... عدل الزمان على ذوى الحاجات

وقال أيضًا:

باكر صبوحك أهنى العيش باكره ... فقد ترنّم فوق الأيك طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته ... كالروض تطفو على نهرٍ أزاهره
وكوكب الصبح نجّاب على يده ... مُخلّق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حببٌ ... تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
حمراء من وجنة الساقى لها شبهٌ ... فهل جناها من العنقود عاصره
ساقٌ تكوّن من صبح ومن غسق ... فابيضّ خدّاه واسودّت غدائره
بيضٌ سوالفه لعسٌ مراشفه ... نعسٌ نواظره خرسٌ أساوره
مفلّج الثغر معسول اللمى غنجٌ ... مؤنث الجفن فحل اللحظ شاطره
مهفهف القدّ يبدى جسمه ترفًا ... مخصّر الخصر عبل الردف وافره
تعلّمت بانة الوادى شمائله ... وزوّرت سحر عينيه جآذره
كأنه بسواد اللحظ مكتحلٌ ... وركّبت فوق صدغيه محاجره
فلو رأت مقلتا هاروت آيته الـ ... كبرى لآمن بعد الكفر ساحره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنمًا ... وأنت ناهٍ لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكاس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مرّت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرًا ... عظيم ذنبك إنّ الله غافره

وقال آخر:

شربنا بالبواطى ثم رحنا ... نعلل بالكؤوس وبالقنانى
ولولا خيفة الإجرام قلنا ... لساقيها أدرها بالدنان

برهان الدين القيراطى:

أرى جرار الخمر تغلو وقد عزّت وبالإفلاس حالى عجيب
جئنا لخمار وقلنا له احمل إلينا جرةً كى نطيب
قال زبيبًا تريدون أم خمرًا فإنّ الكلّ منى قريب
قلنا له خمرًا فنادى زنوا فى جرةٍ عشرين قلنا الزبيب

وقال أيضًا:

صرف الزبيب لصرف همى نصّ على نفعه طبيبى
آهًا على سكرة لعلى أن أخلط الهمّ بالزبيب

وقال:

قالوا اترك الخمر واجتنبها لا تتعدّ الحرام حدّا
قلت أراها للروح قوتًا وطالب القوت ما تعدّى

ومما قيل فى شرب الفقهاء:

يحمون بالفقه عرض الدين من سفه علمًا بمصريف أحوالٍ وتحقيق
وبعضهم يكرع الصهباء مغتنمًا تحت الظلام بأفواه الأباريق

ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس فى يده:

وشادنٍ نطقه جارٍ إذا شفعت فى مجلس الشرب كاسات بطاسات
يظل يحكى وكأس الراح فى يده حكاية عرضها عرض السموات

ومما قيل فى كريم السكر لئيم الصحو:

إذا هزّ اللئيم السكرَ يومًا بدا فى بذل مالٍ فيه ضنًا
يجود بماله فى الشرب سكرًا ويأكل كفّه فى الصحو حزنًا

وقيل فى شجاع السكر:

إذا شرب الجبان الخمر يومًا أعارته الشجاعة باللسان
وعند الصحو تلقاه جزوعًا إذا اشتدّ اللقا يوم الطعان

وفيه أيضًا:

يقول جبان القوم فى حال سكره وقد شرب الصهباء هلْ من مبارز
وأين الخيول الأعوجيات فى الوغى أناقل فيها كلّ ليثٍ مناهز
ومن لى بحرب ليس تخمد نارها لعمرى إنّى لست فيها بعاجز
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

وقال فى شرب الثلاثة:

ثلاثة فى مجلس طيب وعيشهم ما فيه تكديرُ
هذا يغنى ذا وهذا الذى يسقى وذا بالشرب مسرور

وقيل فى شرب الأربعة:

ألا إنما خير المجالس مجلس به وله صفو الزمان مساعدُ
فتاة وساق والمغنى وصاحب وخامسهم همٌّ على الكل زائد

وقيل فى شرب الستة:

خير المجالس خمسة أو ستة ... أو سبعة وعلى الكثير ثمانيه

فإذا تعدى صار شغلاً شاغلاً ... وتكثرت بين الرجال الآنيه

فاهرب إذا ما كنت تاسع مجلس ... ولئن أتيت به فأمك زانيه

ومما قيل فى الشرب مع التجار:

شربت مع التجار وكان يومًا ... جعلت حضورنا فيه وداعا

فذاك يقول كم أطلقت بيعًا ... ووفيت الذى بعت الذراعا

وهذا قال عندى كل شىء ... ولكن لا أبيع ولا أباعا

فلا تجعلهم أبدًا ندامى ... فتكسب من مجالسهم صداعا

ومما قيل فيمن أكل على الشراب:

وندمان إذا ما الكاس دارت ... بغير الأكل ارتعدت يداه

نديم دأبه فى السكر أكل ... فلا يبقى على شىء يراه

وقيل فى قدح:

غرامى وجدى بالذى كان فى الثرى ... مهانًا فأضحى فى المجالس حاكما

قضى ما عليه من ورود جهنم ... فصار لجنات النعيم ملازما

محمد بن جعفر الأنصارى يستدعى بعض أصدقائه إلى الشراب:

بساط الأرض مسكٌ وعبيرُ ... وزهر الروض وشى أو حرير

وقد صفّى الدنان الخمر حتى ... لقد عادت لدينا وهى نور

ومن يرد السرور يعش هنيئًا ... إذ العيش الهنىء هو السرور

وعندى اليوم فتيان كرامٌ ... وجوههمو شموس أو بدور

وقطب الأمر أنت وهل لأمر ... بغير القطب فيه رحىً تدور

فرأيك فى الحضور فحقّ يومى ... عليك وقد دعاك له الحضور

وقال آخر:

باكر صبوحك واشربها مشعشعة ... واهنأ بعيش حميد غير مذموم

حمراء من بعدما احمرت موردةً ... طافت علينا فسرّت كلَّ مهموم

كأنَّ فى كأسها والماء يقرعها ... أكارع النمى أو نقش الخواتيم

لا صاحبتنى يدٌ لم تغن ألف يدٍ ... ولم ترد القنا حمر الخياشيم

وقال آخر:

بادر بجودك بادر قبل عائقة ... فإن خلف الفتى عندى من اللوم

سيف الدولة بن حمدان فى ساق:

وساقٍ في صبيح للصبوح دعوته — فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم — فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي النجوم مطارفا — على الجو أدكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السماء بأصفر — على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل — مصبغة والبعض أقصر من بعض

ابن نباتة:

سقى وواعدني وصلاً ألذ به — عند المنام ولا والله ما وصلا
قبيلة الله من ساق مواعده — كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وقال آخر في ساق:

وساق كالهلال سعى بكأس — لربة نرجس فسقى وحيا
فقلت تأملوا بدرًا منيرًا — سقى شمسًا وحيا بالثريا

وفيه لابن النبيه:

ساقٍ صحيفة خده ما سودت — عبثًا بلام عذاره وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده — وجرى الذي في خده بيمينه

في جارية ساقية:

نديمتي جارية ساقية — ونزهتي ساقية جارية
جارية أعينها جنةٌ — وجنة أعينها جارية

فيمن حبس الكاس في يده:

قالوا الذي تهواه يحبس كاسه — في كفه من غير ذنب موجب
فأجبتهم كفوا الملام فإنّه — قمر ينزه طرفه في كوكب

وقال آخر في مجلس أنس:

ومجلس راق من واشٍ يكدّره — ومن رقيب له باللوم إيلام
ما فيه ساعٍ سوى الساقي وليس له — على الندامى سوى الريحان نمام

صفي الدين الحلي في عود:

ولي عود به عاد السرور لأنه — حوى اللهو قدمًا وهو ريان ناعم
يغرب في تغريده فكأنه — يعيد لنا ما لقنته الحمائم

وقال آخر في زامرة:

وناطقة بالنفخ عن روح ربها — تعبر عما دوننا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت — فنحن سكوت والهوى يتكلم

ومما قيل في فانوس لابن تميم:

انظر إلى الفانوس تلق متيمًا — ذرفت على فقد الحبيب دموعه
يبدو تلهب جسمه لنحوله — وتعد من تحت القميص ضلوعه

وفيه لابن قزل:

وكأنما الفانوس فى غسق الدجى ... دنف براه شوقه وسهاده
اضلاعه خفيت ورق أديمهُ ... وجرت مدامعه وذاب فؤاده

ولبعضهم فى شمعة:

حكتنى وقد أودى بى السقم شمعة ... وإن كنت صبًا دونها متوجعًا
ضنى وسهادًا واصفرارًا ورقة ... وصبرًا وصمتًا واحتراقًا وأدمعا

ومما قيل فى الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير ونحو ذلك. قال الشاعر:

هذا الربيع وهذه أزهاره ... متجاوب فى أيكه أطياره
وبدا البنفسج والشقائق مونق ... والورد يضحك بينها وبهاره
فاشرب على وجه الحبيب وغن لى ... هذا هواك وهذه آثاره

وقال غيره:

غدونا على الروض الذى طله الندى ... سحيرًا وأوداج الأباريق تسفك
فلم نر شيئًا كان أحسن منظرًا ... من النور يجرى دمعه وهو يضحك

وقال آخر:

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها ... بخضرة واكتسى بالنور عاريها
فللسماء بكاء فى جوانبها ... وللربيع ابتسام فى نواحيها

وقال غيره:

إن السماء إذا لم تبك مقلتها ... لم تضحك الأرض عن شىء من الزهر
والأرض لا تنجلى أنوارها أبدًا ... إلا إذا رمدت من شدة المطر

وقال ابن قرناص:

أيا حسنها من رياض غدا ... جننونى فنونًا بأفنانها
مشى الماء فيها على رأسه ... لتقبيل أقدام أغصانها

وقال آخر:

انظر إلى الأغصان كيف تعانقت ... وتفارقت بعد التعانق رجعًا
كالصب حاول قبلة من إلفه ... فرأى المراقب فانثنى متوجعًا

وقال ابن تميم:

وحديقة ينساب فيها جدول ... طرفى برونق حسنها مدهوش
يبدو خيال غصونها فى مائه ... فكأنما هو معصم منقوش

وقال أيضًا عفا الله عنه:

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها ... وأظل منها تحت ظل صافى
والزهر حيانى بثغر باسم ... والماء وافانى بقلب صافى

وقال آخر:

قد سعينا نبغى زيارة دوح ... قد حيانا باللطف والإكرام

تـاولـتـنا أيـدى الغـــــصـــــون ثـمـــــارا أخـــرجــــتــــهـــا لـنا من الأكــــمــــام

(ومما قيل فى الأزهار والثمار) قال بعضهم فى الورد:

يا راقـــــداً ونــــسـيم الصـــبـيح منتـــبـــه فى روضــــة القــــصف والأطيـــار تنتـــحب
الورد ضــــيـف فــــلا تجـــهل كــــرامـتـــه فـــهـــاتهـــا قـــهـــوةً فى الكـاس تلتـــهب
ســـقـــيًـا لـــه زائرًا تحـــيـــا الـنفـــوس به يجـــود بالوصـل شـــهـــراً ثم يحـتـــجب

وقال آخر فيه:

طاب الزمـــان وجـاء الورد فـــاصطبـــحــا مــــــــــــا دام لـــلـورد أنـــوار وأزهـار
واســتـقــبـلا عـيـشنا بـالكأس مـتـرعـةً لا طولـت للـئـــام النـاس أعـــمــــــار

وقال آخر:

اشـــرب على الورد مـن حـمـــراء صـافـيـــة شــهـراً وعـــشـراً وخــمــسًـــا بعـدها عـــددا
واســـتـــوف بالـكأس من لهـــوٍ ومـن طربٍ فلـست تـأمن صـــرف الحــــادثات غـــدا

وقال آخر:

اشـــرب علـى ورد الخـــدود فـــإنهـــا أيـام وردٍ والـصــــبــــوح يـطـيـب
مــــا الورد أحــــســن منـظرٍ مـن وجنـةٍ حـــمــــراء جـاد بـهـا عـلـيك حـبـيـب

وقال بعضهم:

ولـقـــــد رأيت الـورد يـلـطـم خـــــده ويقـــــول وهـو علـى البـنفــــج يحـنق
لا تـقـــــربـوه وإن تـضـــوع نشـــــره من بـيـنـكم فـــــهــــو الـعـــدو الأزرق

(ومما قيل فى البنفسج) قال ابن المعتز:

ولازورديـةٍوافــت بـزورتــهــــــــــا بـين الرياض علـى زرق الـيــــواقــــيـت
كـــأنما فـــوق طاقـــاتٍ ضـــعـــفن بهـــا أوائـل النـار فـى أطراف كـــبــــريـت

وقال آخر:

اشـــرب عـلى زهر الـبـنفـــج قـــهـــوةً تهــــدى الســـرور لكل صب مكـمـــد
فكـأنه قـــرص بخـــد مـــهـــفـــهفٍ أو أعـينٍ زرقٍ كـــحـلن بـأثـمـــد

ولبعضهم فى الورد:

للورد فضل على زهر الربيع سوى ... أن البنفسج أزكى منه فى المهج
كأنه وعيون الناس ترمقه ... آثار قرص يدٍ فى خد ذى غنج

وقال آخر:

يا مهديًا لى بنفسجًا أرجًا ... يرتاح صدرى له وينشرح
بشرتنى عاجلاً مصحفة ... بأن ضيق الأمور ينفسح

وقال غيره فى النرجس:

وقضب زمردٍ تعلو عليها ... عيون لم تذق طعم الغماض
توهمت الغمام لها رقيبًا ... فنكست الرؤوس إلى رياض

وقال آخر فيه:

أنت يا نرجس روض ... لزهور الأرض ست
ودليل القول فيك ... أن أوراقك ست

وقال آخر:

أقول وطرف النرجس الغضّ شاخص ... إلى وللنمام حولى إلمام
أيا رب حتى فى الحدائق أعين ... علينا وحتى فى الرياحين نمام

وقال أيضًا فيه:

لما تمادى الورد فى زهوه ... وراح من إعجابه يرأس
تلون المنثور مما به ... واصفر من غيظٍ به النرجس

ومما قيل فى اللينوفر لابن المعز المصرى:

وبركةٍ تزهو بلينوفرٍ ... نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتح الأجفان فى نومه ... حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على خده ... وغاص فى البركة خوف الرقيب

وقال تميم بن المعز المصرى:

رأيت فى البركة لينوفرا ... فقلت ما شأنك وسط البرك

فقال لى غرقت فى أدمعى ... وصادنى ظبى الفلا بالشرك
فقلت ما بال اصفرار بدا ... فيك وما هذا الذى غيرك
فقال لى ألوان أهل الهوى ... صفر ولو ذقت الهوى صفرك

وبما قيل فى البان:

قد أقبل الصيف وولى الشتا ... وعن قليلٍ تسأم الحرا
أما ترى البان بأغصانه ... قد قلب الفرو إلىَّ تبرا

وقال آخر فيه:

أو ما ترى البان الذى يزهو على ... كل الغصون بقده المياس
وافى يبشر بالربيع وقربه ... يختال فى السنجاب والبرطاس

وقال فى الشقيق:

حييته بشقائق فى مجلسٍ ... ورأى الرقيب فشق ذاك عليه
فاحمر من خجلٍ فأنبت خده ... أضعاف ما حملت يداى إليه

وقال آخر:

لو لم أعانق من أحب بروضةٍ ... أحداق نرجسها إلينا تنظر
ما انشق جيب شقيقها حسداً ولا ... بات النسيم بذيله يتعثر

وقيل إن ابن الرومى زار قبر أخيه يومًا فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأنشد يقول:

قالت شقائق قبره ... ولرب أخرس ناطق
فارقته ولزمته ... فأنا الشقيق الصادق

وبما قيل فى المنثور:

تخال منثورها فى الدوح منتشراً ... كأنما صيغ من در وعقيان
والطير ينشد فى أغصانه سحراً ... هذا هو العيش إلا أنه فانى

وقال آخر:

قد أقبل المنثور يا سيدى ... كالدر والياقوت فى نظمه
ثناك لا زال كأنفاسه ... ومخ من يشناك مثل اسمه

ولبعضهم فيه:

ولقد خلوت مع الأحبة مرةً ... في روضة للزهر فيها معرك
ما بين منثور أقام ونرجس ... مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبعٍ وعيون ذا ... ترنو إليه وثغر هذا يضحك

وبما قيل في الياسمين:

والأرض تبسم عن ثغور رياضها ... والأفق يسفر تارةً ويقطب
وكأن مخضر الرياض ملاءة ... والياسمين لها طراز مذهب

وقال آخر:

رأيت الفأل بشرني بخيرٍ ... وقد أهدى إليَّ الياسمين
فلا تحزن فإن الحزن شين ... ولا تيأس فإن اليأس مين

وبما قيل في السوسن لأخطل الأهوازي:

سقيًّا لأرض إذا ما نمت نبهني ... بعد الهدو بها قرع النواقيس
كأن سوسنها في كل شارقةٍ ... على الميادين أذناب الطواويس

وبما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

أفدى الذي زارني سرًا فأتحفني ... بأقحوان يحاكي ثغر مبتسم
فبت من فرحي أفني مقبله ... لثمًّا وأرشف من ريقٍ له شبم

ولبعضهم فيه:

إن فاه ثغر الأقاحي في تشبهه ... بثغر حبك واستولى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسمًا ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وبما قيل في الجلنار:

وجلنار مشرق ... على أعالي شجره
كأنه في غصنه ... احمرة وأصفره
قراضة من ذهبٍ ... في خرقةٍ معصفره

وبما قيل في الآس:

أهديت مشبهه قدك المياس — غصنًا نضيرًا ناعمًا من آس
فكأنما يحكيك فى حركاته — وكأنما تحكيه فى الأنفاس

ومما قيل فى الريحان:

وغصن من الريحان أخضر ناضر — نما بين غصنى نرجس وشقائق
يريك إذا كف الصبا عبثت به — شمائل معشوق وذلة عاشق

وفيه أيضًا:

وريحان يميس بحسن قد — يلذ بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خز — وقد قاموا مكاشيف الرؤوس

وقال آخر:

قضيب من الريحان شاكل لونه — إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعداً — عذار تبدى فى سوالف أغيد

(ومما قيل فى الفواكه والثمار على اختلافهما) قال ابن الرومى فى الأترج:

كل الخلال التى فيكم محاسنكم — تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجر الأترج طاب معًا — حملا ونشراً وطاب العود والورق

ولبعضهم فيه:

حياك من تهوى بأترجة — ناعمة مقدودة غضه
فجلدها من ذهب أصفر — وجسمها الناعم من فضه

وقال آخر:

يا حبذا أترجة — تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة — لها غشاء من ذهب

فى الليمون قول أبى الحسن رئيس الرؤساء:

يا حسن ليمونة حيا بها قمر — حلو المقبل المى بارد الشنب
كأنها أكرة من فضة خرطت — واستودعوها غلافاً صيغ من ذهب

وفيه أيضًا:

وصاحب ناديتُهُ ... والطير لم يغرِّدْ
انهض إلى الراح ولا ... ترضى بعيش نكد
واشرب سلافًا قرقفًا ... من كفِّ ساق أغيد
قد اكتست تلهُّبًا ... من خدِّه المورد
ولا تدع مجتهدًا ... لذة يوم لغد
أما ترى الليمون في ... غصن من الزبرجد
كأكرة من فضةٍ ... مملوءة من عسجد

في النارنج لعبد الله بن المعتز:

نظرت إلى نارنجةٍ في يمينه ... كجمرة نار وهي باردة اللمس
فقربها من خده فتألقت ... فشبهتها المريخ في دارة الشمس

وقال آخر:

ونارنجة بين الرياض نظرتها ... على غصن رطبٍ كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرةٍ ... بدت ذهبًا في صولجان زبرجد

وقال آخر:

ونارنجٍ يلوح على غصونٍ ... ومنه ما نرى كالصولجان
أشبهها ثديا ناهداتٍ ... غلائلها صبغن بزعفران

وقال آخر:

وأشجار نارنجٍ كأن ثمارها ... حقاق عقيقٍ قد ملئن من الدر
تطالعها بين الغصون كأنها ... قدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كل مشتاقٍ بريا حبيبه ... فهاجت له الأشجان من حيث لا يدرى

في التفاح لبعضهم:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقًا ... دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فعندنا ... خدود الأغاني قد جمعن على طبق

وقال آخر في تفاحة:

وتفاحة من سندس صيغ نصفها ومن جلنار نصفها وشقائق
كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة بها خد معشوقٍ إلى خد عاشق

ولبعضهم فيه:

تفاحة كسيت لونين خلتهما خدى محب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واشٍ فراعهما فاحمر ذا خجلاً واصفر ذا فرقا

وقال آخر:

وتفاحةٍ وردية ذهبية تجلى عن المهموم ليل همومه
كأن سلاف الخمر روى أديمها بخمر فجاءت باحمرار أديمه
تذكرنى شكل الحبيب وحسنه خديه وطيب نسيمه

وقال آخر:

حمرة التفاح فى خضرته أشبه الألوان من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوةً واسقنيها بنشاط وفرح

وفيه أيضًا:

أهدى لنا التفاح من كفه من لم يزل يجنيه من خده
وخط بالمسك على بعضها قد عطف المولى على عبده

ومما قيل فى السفرجل:

حاز السفرجل لذات الورى فغدا على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح طعمًا وشم المسك رائحة والتبر لونًا وشكل البدر تدويرا

وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكى بلونها محيًا شجاه للحبيب فراقُ
إذا شمها المشتاق شبه ريحها بريح حبيب لذ منه عناق
وطيبةٍ عند المذاق فطعمها كريق حبيبٍ طاب منه مذاق

وقال آخر:

سفرجلة جمعت أربعًا فكان لها كل معنى عجيب

صفار النضار وطعم العقار ... ولون المحب وريح الحبيب

وقيل فى الكمثرى:

وكمثرى لذيذ الطعم حلو ... شهى جاء من دوح الجنان
مناقير الطيور إذا اقتتلنا ... مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلاً:

وكمثرى سبانى منه طعم ... كطعم الشهد شيب بماء ورد
لذيذ خلقه لما أتانا ... نهود السمر فى معنى وقد

ما قيل فى المشمش:

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه ... على غصن اغصان من الروض مُيَّد
حكى وحكت أشجاره فى اخضراره ... جلاجل تبر فى قباب زبرجد

ما قيل فى الإجاص:

انظر إلى شجر الإجاص قد حملت ... أغصانه ثمراً ناهيك من ثمر
تراه فى أخضر الأوراق مستتراً ... كما اختبى الزنج فى خضر من الأزر

ما قيل فى الخوخ:

أهدى إلى الصديق خوخًا ... منظره منظر أنيق
من كل مخصوصة بحسن ... معناه فى مثلها دقيق
حمراء صفراء مستعير ... بهجتها التبر والعقيق
كوجنة مسها خلوق ... فزال عن بعضها الخلوق

وما قيل فى الفستق:

تفكرت فى معنى الثمار فلم أجد ... لها ثمراً يبدو بحسن مجرد
سوى الفستق الوطب الجنى فإنه ... زها بمعان زينت بتجرد
غلالة مرجان على جسم فضة ... وأحشاء ياقوت وقلب زبرجد

ما قيل فى البندق:

ولقد شربت مع الحبيب مدامةً ... حمراء صافية بغير مزاج

فتفضل الظبي البهي ببندق شبهته ببنادق من ساج
فكسرته فوجدت ثوبًا أحمراً قد لف فيه بنادق من عاج

وبما قيل في النبق:

وسدرة كل يوم من حسنها في فنون
كأنما النبق فيها وقد حلا في العيون
جلاجل من نضار قد علقت في الغصون

وبما قيل في اللوز:

ومهد إلينا لوزةً قد تضمنت لبصرها قلبين فيها تلاصقا
كأنهما حبان فازا بخلوة على رقبةٍ في مجلسٍ فتعانقا

في العنب لبعضهم:

هدية شرفتنا من أخ ثقةٍ نعم الهدية إذا وافتك من يده
نوعان من عنب جاءا على طبقٍ كأن طيبهما من طيب محتده
فأبيض العين يحكي لون أبيضه وأسود العين يحكي لون أسوده

وقال في قصب السكر:

ورماح لغير طعن وضرب بل لأكل ومص لب ورشف
كملت في استوائها واستقامت باعتدالٍ وحسن قد ولطف

وبما قيل في البطيخ الأصفر:

أتانا غلام فاق حسنًا على الورى ببطيخةٍ صفراء في لون عاشق
فشبهته بدراً يقد أهلة من الشمس ما بين النجوم ببارق

وقال آخر:

وبطيخة وافى بها فوق كفه إلينا غلام فاق كل غلام
فخيل لي شمس الأصيل أهلةٌ يقطعها بالبرق بدر تمام

وبما قيل في البطيخ الأخضر:

وظبي أتى في الكف منه بمديةٍ وقد لاح في خديه شبه شقيق

فـمـال إلـى بطيـخـة ثم شـقـهـا ... وفـرقـهـا مـا بين كـل صـديق
فـشـبـهـتـهـا لما بدت فى أكـفـهـم ... وقـد عـملت فـيـهـم كـؤوس رحـيق
صـفـائـح بلـورٍ بدت فـى زبرجـدٍ ... مـرصـعـةٍ فـيـهـا فـصـوص عـقـيق

وقال آخر:

وبطيـخـةٍ خـضـراء فى كـف أغـيـدٍ ... أتانـا بهـا فـارتاح ذو الـهم وابتـهج
وأقـبل يفـريهـا بمديتـه وقـد فـرى ... طـرفـه الـسـاجى القلوب مـع المهج

وبما قيل فى القثاء:

أنظـر إلـيـهـا أنابيـبًـا منضـدةً ... من الـزمـرد خـضـرًا مـا لـهـا ورق
إذا قلبت اسـمـهـا بانت مـلاحـتـهـا ... وصـار فـى عـكسـه أنـى بـكم أثـق

وبما قيل فى الباذنجان:

وكـأنمـا الأبنـنج سـود حـمـائم ... أوكـاره خـمـل الربـيـع المبكـر
نقـرت مناقـره الزمـرد سـمـسـمًـا ... فـاسـتـودعـتـه حـواصـلاً من عـنبـر

(وبما قيل فى الأنهار والبرك والنواعير):

أمـا ترى البـركـة الـغـراء قـد كـسـيت ... نورًا من الـشـمـس فى حـافـاتهـا طـلعـا
والنـهـر مـن فـوقـه يـلهـيك منـظره ... شـهـب سـمـاوية فـارتج والـتـمـعـا
كـأنه الـسـيف مـصـقـولاً يقـلّبـه ... كف الـكمى إلـى ضـرب الكمـاة سـعى

وقال آخر فى البركة:

يا مـن يرى البـركـة الحـسناء رؤيـتـهـا ... والآنسـات إذا لاحت مـغـانيـهـا
فلـو تمر بـهـا بـلقـيـس عـن عـرض ... قـالت هى الصـرح تمثـيـلا وتشـبيـهـا
كـأنـهـا الفـضـة البـيـضـاء سـائلة ... من الـسـبـائـك تجـرى فى مـجـاريـهـا
إذا علتـهـا الصـبـا أبـدت لهـا حـبكًا ... مـثل الجـواشـن مـصـقـولا حـواشـيـهـا
فـحـاجب الشـمس أحـيـانًا يضـاحكهـا ... وريق الـغـيث أحـيـانًا يـبـاكـيـهـا
إذا النـجـوم تراءت فى جـوانبـهـا ... ليـلاً حـسبت سـمـاءً ركـبـت فـيـهـا

وقال آخر:

وبـركـة لـلعـيـون تـبـدو ... فى غـايـة الحـسـن والصـفـاء

كـأنهـا إذا صـفت وراقـت   فـى الأرض جـزء مـن الـسـمـاء

وقال محمد بن سارة المغربى:

النـهـر قـد رقت غـلالة صـبـغـه   وعليـه من صـبغ الأصـيـل طراز
تـتـرقـرق الأمـواج فـيـه كـأنهـا   عكـن الخـصـور تهـزهـا الأعـجـاز

وقال آخر:

يوم لـقـا بالـنيـل مـخـتـصـر   ولـكل وقـت مـسـرة قـصـر
فـكـأنما أمـواجـه عـكـن   وكـأنما دارتـه سـرر

وقال آخر فى نهر يسبح فيه الغلمان:

خليج كـالحـسـام له صـقـال   ولـكن فـيـه لـلرائى مـسـره
رأيت بـه الملاح تجـيـد عـومًـا   كـأنهم نجـوم فـى المجـره

وقال آخر فى النيل:

الـنـيـل قـال وقـولـه   إذ قـال ملء مـسـامـعى
فـى غـيـظ من طـلـب الـعـلا   عـم الـبـلاد مـنـافـعـى
وعـيـونهـم بـعـد الـوفـا   قـلعـتـهـا بـأصـابعـى

وقال آخر:

كـأن الـنيل ذو فـهـم ولـب   لمـا يـبـدو لـعين الـنـاس مـنـه
فـيـأتى عنـد حـاجـتـهم إلـيـه   ويمـضى حـين يـسـتـغنون عنه

وقال آخر فيه:

وفـت أصـابـع نـيـلـنـا   وطـفـت وطـافـت فـى الـبـلاد
وأتـت بـكـل مـسـرة   مـا ذى أصـابـع ذى أيـاد

وقال آخر:

سـد الخليـج بكـسـره جـبـر الورى   طرًا فـكل قـد غـدا مـسـرورا
والمـاء سـلـطـان فـكـيـف تـواتـرت   عنـه الـبـشـائـر إذا غـدا مكـسـورا

وقال آخر:

ونهــــر خـــــالف الأهــواء حــــتى غـــــدت طوعًـــــا له فـي كل أمـــــر
إذا عـــصــــفت على الأغــــصـــان ألـقت إليــــه بهـــا فـــيـــأخـــذها ويجـــرى

وقال آخر فى ناعورة:

وكـــــريـة ســـــقت الرياض بدرها فـــغـــدت تنوب عن الغــمـــام الهــامع
بلـســـان مـــحـــزونٍ ومـــدمع عـــاشقٍ ومـــســـيــر مـــشـــتـــاقٍ وأنه جــــازع

وقال آخر:

وناعــــورة قــــالت وقــــد حــــال لـونهــــا وأضلـعــهـــا كـــادت تعـــد من الـــسـقم
أدور علـى قـلـبـى لأنى فـــــقـــــدته وأمـــا دمــوعى فـهى تجـرى على جـــسمى

وفيها أيضًا:

وحنانة من غــــيــــر شــوق ولا وجــــد يفـــيض لهـا دمع كـــمنتـــشـر العــقـــد
أحــن إذا حـــنـــت وأبـــكـــى إذا بـــكــت فـليس لـنـا من ذلـك الـفـــعـل من بـد
ولكـنهــــا تبكى بغــــيــــر صـــبـــابة وأبكى بإفـــراط الصـــبـــابة والوجـــد
وأدمـــعــهــــا من جـــدول مــــســتــعــارة ودمــعى من عـــينى يفــيض على خــدى

وفيها أيضًا قال الخطيرى:

رب ناعـــــورة كــــأن حـــبـــيـــبًـــا فـــارقـــتـــه فـــقـــد غـــدت لى تحـكى
أبـدًا هـكـذا تـئـن بـشـــــجــــــو وعـلـى إلفـــهـــــا تـدور وتبـكى

ابن تميم:

تأمل إلى الدولاب والنهــــر إذ جــــرى ودمــــعــهــمـــا بين الرياض غـــدير
كـأن نـسـيم الجـو قـــد ضـاع منهـمـــا فـــأصـــبح ذا يـجـــرى وذاك يـدور

فصل: فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف فى قاض مليح:

ورب قــــــاضٍ لـنـا مـلـيـحٍ يعــــــرب عن مـنطـقٍ لـذيـذ
إذا رنـا لـى بـســــهـم لحـظٍ قـلـنـا لـه دائـم الـنـفـــــوذ

وقال فى فقيه مليح:

وبمهجتى ظبى غدا متفقهًا ... وهو المهذب فى الرشاقة والحور
أمسى بسيط الشعر منه مطولاً ... لكن وجيز الخصر منه المختصر

وقال فى محدث مليح:

علقته محدثًا ... شرد عن جفنى الوسن
حديثه ووجهه ... كلاهما عندى حسن

وقال فى إمام:

جاء يسعى إلى الصلاة بوجه ... يخجل البدر فى ليالى السعود
فتمنيت أن وجهى أرض ... حين يومى بوجهه للسجود

ابن الرومى فى عروضى وأجاد:

بى عروضى مليح ... موتى فيه حياة
عاذلاتى فى هواه ... فاعلات فاعلات

فى مؤذن مليح:

ومؤذن أضحى كريمًا وجهه ... لكنه بالوصل أى شحيح
أبدًا أموت بهجره لكننى ... من بعد ذاك أعيش بالتسبيح

لابن عربى:

وبنفسى مؤذن قد سبانى ... لم يفدنى شكوى الغرام إليه
كيف أصغى لما يقول حبيب ... واضع أصبعيه فى أذنيه

وقال آخر فى مريد:

مراد قلبى مريد ... مخبأ فى الزوايا
وليس ذا بعجيب ... ففى الزوايا خبايا

وفى فقير مليح:

بى فقير يتغنى ... بسنا وجه منير
لا تلمنى فى افتضاحى ... فغرامى بالفقير

في أمير شكار لابن دانيال:

بي من أميـر شكـار وجـد يذيب الجوارح
لما حكى الظبي حسنًا حنت إليه الجوارح

في مليح مغن:

أضحى يخر لوجهه قمر الدجا رغدا يلين لحسنه الجلمود
فإذا بدا فكأنما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داود

في مليح عواد:

غنى على العود ظبي سهم ناظره أمسى به قلبي المضنى على خطر
دنا إليّ وجست كفه وترًا فراحت الروح بين السهم والوتر

في مليح كاتب:

بروحي كاتبًا كالبدر حسنًا بديعًا ما رأينا منه أجمل
على ريحان عارضه المفدى بوجنته غدا دمعي مسلسل

غيره:

وراقنا ذا المفدى فيه تزايد عشقي
فلو يجود بوصل لكان مالك رقي

وفيه أيضًا:

يا حسن وراق أرى خده قد راق في التقبيل عندي ورق
تميل في الدكان أعطافه ما أحسن الأغصان بين الورق

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطي فيه أيضًا:

فديتك أيها الوراق قلبي لمطلك بالوصال يكاد يبلى
وقد طلب الوفاء وغير بدع محب يسأل الرواق وصلا

في مليح صيرفي:

يا سائلاً عن حالتي ما حال من أمسى بعيد الدار فاقد إلفه
بي صيرفي لا يرق لحالتي قد مت من جور الزمان وصرفه

في مليح بخانقي:

تسلطن في الملاح بخانقي | ولا يرضى ببدر التم نائب
وقد صفت له الأتراك جندا | وأصبح راكبًا تحت العصائب

في مليح فراء:

قلت لفراءٍ فرى أديمي | وزاد صدًّا وطال هجرا
قد فر نومي وفر صبري | فقال لما عشقت فرا

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء في مزين:

حبي المزين وافى | بعد البعاد بنشطه
ومص دمل قلبي | بكأس راح وبطه

في مليح قصاص:

أشكو إلى الله قصاصًا يجرعني | بالهجر والصد أنواعًا من الغصص
إن تحسن القص يمناه فمقلته | أيضًا تقص علينا أحسن القصص

في مليح صياد:

وموَلع بفخاخٍ | يمدها وشراك
قالت له العين ماذا | تصيد قال كراكي

في مليح رامي بندق:

وأهيف القد ذي دلال | طائر قلبي عليه واجب
كالشمس في كفه هلال | يرمي إلى البدر بالكواكب

وقال آخر في راع:

أفديه من راع كبدر الدجى | قوامه فاق الغصون الرشاق
ضيفني بالجدي ناديته | ما القصد يا مولاي إلا العناق

القيراطي في مليح طحان:

حسن طحان سباني | بلحاظٍ وبقامه
خاف من واش فأضحى | يجعل الغمز علامه

القاضي بدر الدين البلقيني في تراب:

رب تــراب مــليــح أورث القــلــب عــذابــا
قــلــت لمــا أن بــدا لــي لــيــتــني كــنــت ترابــا

وقال آخر في مليح عوام:

يا حــسن عــوام كــغــصن النقــا يــبــخل بالوصل لمن هــامــا
وتقــنــع العــشــاق منه بأن يــريــهم الأرداف إن عــامــا

ابن نباتة في مليح حبشي:

بروحي مشــروطًا على الخــد أســمــرًا دنا ووفى بعــد التجنب والســخط
وقــال على اللثم اشــترطنا فــلا تزد فــقــبلتــه ألفًــا على ذلك الشــرط

وله أيضًا:

ومن عــجــب تدعى للطفك سنبــلاً ونشــرك كــافــور وذكــرك عنبــر
وســعــدك إقــبــال وحــسنك مــرشــد وخلقك ريحــان ولفظك جــوهــر

وقال آخر فيمن به صفرة:

قــالوا به صــفــرة شــانت مــحــاسنه فــقــلت مــا ذاك من عــيب به نزلا
عــيــناه مطلوبة في ثأر من قــتــلت فلست تلقــاه إلا خــائفًــا وجــلا

للشيخ شهاب الدين ابن حجر في مليح اسمه زائد:

وزائــر قــال قــلــبــي لــلــطــرف يــا طــرف شــاهــد
مــدحــتــه فــتــجــنى تــيــهًــا عــليّ بــزائــد

وقال آخر في مليح أرمد:

شكا رمــدًا فــقــلت الآن كلت لــواحظه من الــفــتكات فــيــنا
وقــالوا ســيــف مــقلتــه تصــدى فــقلت نعم لقــتــل العــاشــقــينا

لمجد الدين بن مكانس فيه:

تورمت مــقــلة المحــبــوب من رمــد وبات يشكو لهــيــب القلب والألما
وبات يرمي مــحــبــيــه بأســهــمــه فــيــا له من حــبــيــب قــد شكا ورما

لابن أبي جحلة[1] في أعور:

ما شان من أهواه عين أصبحت ... مقلوعة بمحاسن متزايده
لولا استخف العالمين بأسرهم ... ما ظل ينظرهم بعينٍ واحده

وقال آخر في مليح راهب:

رأيته يضرب الناقوس قلت له ... من علم البدر ضربًا بالنواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمكي ... ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

القيراطي في مليح اسمه بدر:

سموه بدرًا وذاك لما ... أن فاق في حسنه وتما
وأجمع الناس إذ رأوه ... بأنه اسم على مسمى

وآخر في مليح اسمه حمزة:

متى يبدو لحمزة ما بقلبي ... ويرثي لي وينظر في بلائي
وأشفي بالمبرد من لماه ... وأجمع بين حمزة والكسائي

وقال آخر:

كلفت به ولم أبلغ مرادي ... غزال قد تحكم في قيادي
فتصحيف اسمه في وجنتيه ... وفي معسول فيه وفي فؤادي

في مليح اسمه سروجي:

فتنت به سروجيًّا بديعًا ... به قد ذبت وجدًا من ضجيجي
إذا جذب الغرام له عناني ... يلذ لي الركوب على السروج

وقال آخر في مليح محموم:

قالوا حبيبك محموم فقلت لهم ... أنا الذي كنت في حمائه السببا
عانقته ولهيب النار في كبدي ... فأثرت فيه تلك النار فالتهبا

لأبي نواس في مليح ألثغ:

ومهفهف دنف الصبا ذي لثغة ... تصبوا إليه ذوي العقول الرجح
قبلت فاه فقال لي متخوفًا ... من كاشح متدللاً بالثاء اثتحي

---

(١) ابن أبي حجلة: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني المعروف بابن أبي حجلة نزيل دمشق ثم القاهرة، أديب، ناظم، ناثر، ولد بزاوية جدة بتلمسان، وكان حنفي المذهب، وكان يقول للشافعية إنه شافعي وللحنفية إنه حنفي، وللمحدثين إنه على طريقهم، وقيل إنه سمي بأبي حجلة، لأن حجلة أتت وباضت على كمه، وكان كثير النوادر والنكت ومكارم الأخلاق له: «ديوان الصبابة» و «منطق الطير» و «أدب الغصن» و «أطيب الطيب» توفي سنة (٧٧٦هـ - ١٣٧٥م).

وقال فى مليح خباز:

إن خبازنا المليح المفدى ... فى حشا الصب من جفاه كلوم
خلت دكانه البديع سماء ... وهو بدر والخبز فيه نجوم

وقال فى مليح حائك:

وحائك يا صاح أبصرته ... كالبدر فى كفيه مساسوره
فلم أرح إلا وروحى لنا ... عاينت فى كفيه مأسوره

وقال فى مليح لاعب شطرنج:

لعبت بالشطرنج مع أهيف ... رشاقة الأغصان من قده
أحل عقد البند من خصره ... وألثم الشامات من خده

وفيه أيضًا قال:

تلاعبت بالشطرنج مع من أحبه ... فنادمنى حتى سكرت من الوجد
وأنشدنى مالى أراك مفكرًا ... تدور على الشامات وهى على الخد

فى مليح خياط:

خياطنا الفاتن المفدى ... بديع حسن فريد شكل
فصل للجسم ثوب سقم ... لما جفانى وكفّ وصلى

وقال غيره:

فتنت بخياط بديع ملاحة ... له طلعة أبهى ضياء من الشمس
تراه على الكرسى للثوب خائطًا ... فتقسم حقًا أنه آية الكرسى

الصفى الحلى فى مليح قلع ضرسه:

لحا الله الطبيب لقد تعدى ... وجاء لقلع ضرسك بالمحال
أعاق الظبى فى كلتا يديه ... وسلط كلبتين على غزال

وقال فى مليح سلم عليه:

تنبأ فيك قلبى فاسترابت ... به قوم وعمهم الضلال
وصدهم الهوى أن يؤمنوا بى ... وقالوا إن معجزه محال

ومـــذ سلمت سلمت البـــرايا ... إلـيَّ وقـيل كـلمه الغـزال

وقال في مليح يرمى بالسهام:

وظبي بشعر فوق طرف مفوّق ... بقوس رمى في النقع وحشًا بأسهم
كبدر بأفق برق بكفّه ... هلال رمى في الليل جنا بأنجم

وقال في مليح يضرب بالعود:

فتن الأنام بعوده وبشدوه ... شاد تجمعت المحاسن فيه
حتى كأن لسانه بيمينه ... وكأن ما بيمينه في فيه

وقال أيضًا فيه:

واغنٍ قد أبدى لنا من عوده ... نغمًا أصح به القلوب وأمرضا
بيدٍ إذا سخطت على أوتاره ... نال الرفاق بسخطها عين الرضا

وقال في مليح مشبب:

يا نافخ الطور بل يا باعث الصور ... من رقدة السكر لا من رقدة الحفر
قرنت حسنك بالإحسان فيه لنا ... فكان فيك مراد السمع والبصر
ضمنت للصحب إقبال السرور كما ... ضمنت نايك نأى الهم والفكر
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت ... إذ جئت في اللفظ والمعنى على قدر

وقال في مليح ساق:

وساق من بني الأتراك طفل ... أتيه به على جمع الرفاق
أملكه قيادى وهو رقى ... وأفديه بعيني وهو ساقى

وقال أيضًا في رسول مليح أتاه من عند من يحبه:

من كنت أنت رسوله ... كان الجواب قبوله
يا طلعة الشمس الذى ... جاء الصباح دليله
لم يبد وجهك قبلهُ ... إلا ارتقبت وصوله
فلذاك إذ واجهتنى ... بلّ الفؤاد غليله

في مليح قارىء:

نفسى الفداء لشادن شاهدته | يوم الزيارة قارئًا فى المصحف
فتن الأنام ببهجة وبلهجة | تسبى وتضنى كل صب مدنف
فتلا مليًّا جل سورة يوسف | وجلا محيا مثل صورة يوسف

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار:

وكامل العارض قبلته | فصدنى وازور من قبلتى
وقال كم أنهاك عن مثل ذا | وأنت ما تفكر فى لحيتى

وقال آخر فى مليح حجّام:

كلفت بحجّام تحكّم طرفه | فغدا على سفك الدماء يواطى
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن | منه اللحاظ كليلة المشراط

فصل: فى الألغاز

فى غزال:

اسم من قد هويته | ظاهر فى صروفه
فإذا زال ربعه | زال باقى حروفه

فى كوز فقاع:

ومحبوس بلا ذنب جناه | له فى السجن ثوب من رصاص
إذا أطلقته وثب ارتفاعًا | يقبل فاك من فرح الخلاص

فى زر موزة:

مطية فارسها راجل | تحمله وهو لها حامل
واقفة بالباب مزبولة | لا تشرب الدهر ولا تأكل

وقال فى طاحون:

ومسرعة فى سيرها طول دهرها | تراها مدى الأيام تمشى ولا تتعب
وفى سيرها ما تقطع الأكل ساعة | وتأكل مع طول المدى ولا تشرب
وما قطعت فى السير خمسة أذرع | ولا ثلث ثمن من ذراع ولا أقرب

فى دواة:

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم ... لها لبن ما لذ قط لشارب
وفى بطنها السكين والثدى رأسها ... وأولادها مدخورة للنوائب

وفى دواة أيضًا:

وما أمٌّ يجامعها بنوها ... وليس عليهم تجب الحدود
كأنهم إذا ولجوا حشاها ... أفاعى فى أماكنها رقود

فى قلم:

وأهيف مذبوحٍ على صدر غيره ... يترجم عن ذى منطقٍ وهو أبكم
تراه قصيرًا كلما طال عمره ... ويضحى بليغًا وهو لا يتكلم

وفيه أيضًا:

بصير بما يوحى إليه وما له ... لسان ولا قلب ولا هو سامع
كأن ضمير القلب باح بسره ... إليه إذا ما حركته الأصابع

وفيه أيضًا:

وأصفر عارٍ أنحل السقم جسمه ... يشتت شمل الخطب وهو جموع
حمى الجيش مفطومًا كما كان تحتمى ... به الأسد فى الغابات وهو رضيع

فيه أيضًا:

وذى نحولٍ راكع ساجد ... أعمى بصير دمعه جارى
ملازم الخمس لأوقاتها ... مجتهد فى طاعة البارى

فى مرملة:

معشوقة لذوات العز قد صنعت ... حزينة ما تراها قط تبتسم
كأنها من صروف الدهر خائفة ... تبكى دماء على ما سطر القلم

فى كتاب:

وذوى أوجهٍ لكنه غير بائح ... بسر وذو الوجهين للسر يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه ... فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

في سلطان حسن لابن أبي حجلة:

ما اسم محبب للقلوب لأنه … حسن الحروف يجود بالإحسان
تصحيفه أمسى حبيبًا كلما … صحفت أحرفه بحسن بيان
لو جاد لي يومًا برؤية وجهه … نلت المراد وعشت بالسلطان

في شبّابة:

وما صفراء شاحبة ولكن … تزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان … منقبة وليس لها نقاب
تصيح لها إذا قبّلت فاها … أحاديث تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها … وليست لاسعاد ولا الرباب

وفيها أيضا:

ومقروحة الأجفان مثلي شجية … تناءت عن الأهلين أسقمها البعد
تزوجها عشر وذاك محرم … ولا حرج كلا ولا وجب الحد
إذا وطئها قوم تصرخ صرخةً … يلين إليها كل قلبٍ ولو صلد

وفيها أيضًا:

منقبة مهما خلت مع محبها … يزودها لثمًا وينظرها شزرا
وتصحيفها في كف حاملها فقل … إذا شئت في اليمنى وإن شئت في اليسرى

في دملج:

إلى النساء يلتجي … وعندهن يوجد
الجسم منه فضة … والقلب منه جلمد

في خلخال:

أيا عجبًا من صابر صامت ولم … يفه بكلام قط في ساعة الضرب
أقام ولم يبرح مكانًا ثوى به … على أنه أضحى يدور على الكعب

في شعر اللحية:

وذي عددٍ كالرمل سامٍ مسحله … جميل على كل الملاح له حق
يحاذر من موسى ويرهب باسمه … وفي قلب هرون له الهلك والمحق

وفى التين:

أى شىء لذ طعمه ... ناعم الملمس لين
كيف لا يبدو وضوحًا ... وهو فى التصحيف بين

فى الموز:

ما اسم لشىء حسن شكله ... تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدودًا فإن زدته ... واوًا ونونًا صار موزونًا

فى حمزة:

من لى بمعتدل القوام مهفهفٍ ... أروى بغصن البان لينة قده
فى فيه تصحيف اسمه وبخده ... ويقلب عاشقه لشدةِ صدّه

وفيه أيضًا:

اسم الذى أنا أهواه وأعشقه ... وطول دهرى أخشى من تجنيه
تصحيفة فى فؤادى دائمًا أبدًا ... يبدو فى خده أيضًا وفى فيه

فى ساقية:

وجاريةٍ لولا الحوافو ما جرت ... أشاهدها تجرى وليس لها رجل
وترضع أطفالاً ولا هى أمهم ... وليس لها ثدى وليس لها بعل

وفيها أيضًا:

وجاريةٍ تبكى إذا الليل جنها ... بلا ألمٍ فيهاولا ضرب ضاربِ
عليهارجال شنّقوا بعد حرقهم ... وما كان شنق القوم إلا بواجب

فى زر وعروة:

وما أخت يجامعها أخوها ... وليس عليهما فيه جناح
ترى بجوازه الحكام طرًا ... وفى أعناقهم ذاك النكاح

فى راوية:

وسوداء تشرب من رأسها ... وإن شئت تسقيك من فرد يد
ولونها مثل لون أختها ... وثنتاهما واحد فى العدد

وتحبل في الوقت هي وأختها ... وفي ساعة يضعان الولد

في شطرنج:

يا ذا النُّهى ما اسم له حالة ... يحار فيها الذهن والفكر
له حروف خمسة إنما ... ثلاثة منها له شطر

في فيل:

أيّما اسم تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات ... لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفة ولكن إذا ما ... رمت عكسًا يكون لي ثلثاه

في بجع:

ما طائر في قلبه ... يلوح للناس عجب
منقاره في بطنه ... والعين منه في الذنب

في نار:

وما اسم ثلاثي به النفع والضرر ... له طلعة تغني عن الشمس والقمر
وليس له وجه وليس له قفا ... وليس له سمعٌ وليس له بصرْ
يمد لسانًا يختشى الرمح بأسه ... ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا ما قمت تسقيه عامدًا ... ويأكل ما يلقى من النبت والشجر
فيا قارئ الأبيات دونك شرحها ... وإلا فنم عنها ونبه لها عمر

وفيها أيضًا:

وآكلةٌ بغير فم وبطن ... لها الأشجار والحيوان قوت
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت ... وإن أسقيتها ماءً تموت

في يد الهاون:

قل لي فما شيء يُرى ناعمًا ... منتصب القامة طول الزمان
أطولَ من شبرٍ له حزّةٌ ... مسفيشل الرأس قوى الجنان
يسمع في القعر له رنة ... ويظهر الصفق بأعلى مكان

وفيه أيضًا:

خبرونى أى شىء … أوسع ما فيه فمه
وابنه فى بطنه … يرفسه ويلكمه
وقد علا صياحه … ولم يجد من يرحمه

فى خشخاش:

وما قبة مبنية فوق شاهقٍ … لها علمٌ يحكى الملاحة بالظرف
وأولادها فى بطنها فى جماعة … يكونون ألفًا أو يزيدون عن ألف
ويأخذها الطفل الصغير بجهله … ويقلبها عسقًا على راحة الكف

فى كوز زير:

وذى أذن بلا سمع … له قلب بلا لب
إذا استولى على صب … فقل ما شئت فى الصب

فى اسم على:

اسم الذى أعشقه … أوله فمى ناظره
إن فاتنى أوله … فإن لى فى آخره

فى موسى للصفدى:

وما شىء له حد وخد … يكلم من يلامسه بحلقه
وكل حلقه من تحت راسٍ … وهذا الرأس صارت تحت حلقه

فى حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

ما بلدة بالشام قلب اسمها … تصحيفه أخرى بأرض العجم
وثلثه إن زال من قلبه … وجدته طيرًا شجى النغم

وقال فى سمرقند:

وما اسم سداسى إذا ما لمحته … ترى فيه أجزاء تذم وتشكر
له ثلث يأتى به الموت فجأة … وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
وثلث رعاك الله يا صاحبى له … على مدى الأيام نشر معطر
وفى نصفه لما تحرك بعضه … حديث شهى فى الليالى يذكر

وفى نصفه الثانى إذا ما أعدته ... إلى النار للتحليل والعقد سكر
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجى ... فليس على ذى العقل لغز معسر

وقال فى كمون:

يا أيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قل فى سومكا
تراه بالعين فى يقظة ... كما ترى بالقلب فى نومكا

وقال فى قالب الطوب:

وما آكل فى قعدة ألف لقمة ... ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
إذا أنزل المأكول جنبيه لم يقم ... سوى لحظة أو لحظتين ببطنه

فى العين:

وباسطة بلا عصب جناحا ... وتسبق ما يطير ولا تطير
إذا ألقمتها الحجر اطمأنت ... وتجزع أن يباشرها الحرير

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه وما نبهت من هذا الفن عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فن الشعر القريض وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقيةالفنون السبعة على وجه الاختصار والفنون السبعة المذكورة عند الناس هى الشعر القريض، والموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليات، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدالا يغتفر اللحن فيها، وهى الشعر القريض والموشح والدوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً، وهى: الزجل، والكان وكان، والقوما، ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا، وقيل: لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة، فإن هذا أقبح العيوب التى لا تجوز، وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحونًا لا يدخله الإعراب وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلى فى ديوانه، وسماه: «بالعاطل الحالى، والمرخص الغالى» ولو بسطت المقال لاتسع المجال وكثر المقال، ولكن الاختصار يذهب الأوجال، والحمد لله رب العالمين على كل حال.

فصل: فى بيان الفن الثانى وهو الموشح

لابن المبارك:

قد أنحل الجسم اسمر أكحل ... وأوجل القلب فيه مذ حل

دور:

أميل له فلا يميل ... يحول وعنه لا أحول

أقول إذا زاد بى النحول

أما حل عقد الصدود ينحل   وترحل عن نجم المزحل

دور:

كم أبعد وكم أبيت مكمد   ويعمد بهجره لا فقد

واجهد لارتصاد من قد

تحمل والحامدون رحل   تمحل والوعد منه ما حل

دور:

متوج بالحسن هذا الأبلج   مدبج عذاره البنفسج

مفلج وطرفه ذا الأدعج

مكحل وثغره منحل   مخلخل بعنبر معجل

دور:

برغمي من يستحل ظلمي   ويرمي بحربه لسلمي

وجسمي من التزام سقمي

منحل وقد غدا مرحل   فمن حل دمي وما حل

دور:

قلاني واشتط ذا الفلاني   غزاني بطرفه اليماني

تراني أنشد لمن يراني

قد أنحل الجسم أسمر أكحل   وأوحل القلب فيه مذ حل

لابن سناء الملك:

كللي يا سحب تيجان الربا بالحلى   واجعلي سوارك منعطف الجدول

دور:

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما   كلما أخفيت نجمًا أظهرت أنجما

وهي ما تهطل إلا بالطلى والدما

فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي   وانقلي للدن طعم الشهد والقرنفل

دور:

تتـقـد كـالكوب الـدرى للمـرتصـد يعـتـقـد فـيهـا المجـوسى بما يعـتـقـد

فـاتئـد يا سـاقـى الراح بهـا واعـتـمـد

واملْ لـى حـتى ترانـى عنك فـى مـعـزل قل لـى فـالـراح كـالعـشق إن يـزد يقـتل

دور:

لا أليم فى الـشـرب صـهـبـا وفى عـشق ريم فـالـنعـيم عـيش جـديد ومـدام قـديم

لا أهـيم إلا بـهـذين فـقـم يا نـديم

واجل لى مـن أكـؤس صـيـرت مـن فـوفل ألـذ لى مـن نكـهـة الـعنبـر والمندل

دور:

خـذ هنى واعطنى كـاسى مـثل كـاسك هنى واسـقـنى عـلى رضـاب الـفطـن الملـسن

والهـنى ببـعض مـا صـيغ من الألـسن

لو تـلى مـدح سناه مع رشـا أكـحل لذلـى على سنا الصـهـبـاء والـطـل

دور:

أزهرت لـيلتـنا بـالوصل مـذ أسـفـرت أصـدرت بـزورة المحـبـوب إذ بشـرت

أخـرت فـقلـت للظلـمـاء مـذ قـصـرت

طـولـى يـا لـيلـة الـوصـل ولا تـنـجـلـى واسلبى سـتـرك فـالمحـبوب فى منزلى

دور:

من ظـلـم فـى دولة الحـسن إذا مـا حـكم فـالألـم يجـول فـى بـاطنـه والنـدم

والقـلـم يكـتب فـيـه عنت لـسـان الأمم

من ولـى فى دولـة الحـسن ولـم يعـدل يعـزى لالحـاظ الرشـا الأكـحل

وله أيضًا:

تـرى هل يـشــــتــــــفى مـنـك الغـلـيـل ويشـــــفى من صـــــجـــابتـــه الـعـلـيل

لقـــد أســـرفت فى هـجـــرى وصـــدى بلا ســـبب ســـوى كـلفى ووجْـــدى

ومـــــاذا فـى سـلو عـنـك يـجـــدى

خـــضـــاب الوجـــد ليس لـه نصـــول وأســـيـــاف الـهـــوى فـــينا تصـــول

دور:

لـئن شـــحـــيـت عنى بـالســـلام وطيـــفك قـــد جـــفـــا لجـــفـــا المنام

فـــقـــد جـــادت بأربـعـــةٍ ســـجـــام

جـــفـــون بالبـكا كـــادت تحـــول علـى خـــد أسـفٌ بـه الـنحــــول

دور:

لـقـــد أرسـلـت فى طـى الـنـســـيـم حـــديث هوى عـن الوجـــد القـــديم

فـــعـــادت وهى عـــاطرة الـشـــمـــيم

تـخـــبِّـــرُ أن ظعـنـهـم نـزول بـدارٍ لا يـلـمُّ لـهـــــــــا نـزيـل

دور:

تـلـقـــتـــه الموالى والموالـى بـألحـــاظ وزرق من نـصـــال

وأعـطافٍ وســـمـــرٍ مـن عـــوالـى

وله أيضًا:

شـــمس الحـــيـــا أم الـقـــمـــر أم بـارق الـشـــغـــر بشـــر

أم البـــهـــا حـــفـــه الخـــفـــر بـطرز خـــديك مـــســـتطر

سلسلة:

قـم تبـــاهـا بما تـبـــاهـا ولا تلاهـا

قفلة:

فـكل أحـــبـــابنا حـــضـــروا والـعـــود يـشـــجـــيك والوتـر

الدور :

أفديك بالسمع والبصر		يا أهيف وصله وطري
بدر بدا في دجى الشعر		قد لذّ في حبه سهري

سلسلة :

إذا تجلى وقد تجلى		على عليك يجلي

قفلة :

تحير في وصفه الفكر		والعقل والسمع والنظر

الدور :

فهاك حدّث عن الطرب		وعن سلاف ابنة العنب
إذا سقاها مع الضرب		بدر بأفق الجمال ربي

سلسلة :

في ظل بان على المثاني		من غير ثاني

قفلة :

إلا الندامى إذا سكروا		والروض والماء والشجر

وقال رحمه الله تعالى:

والنسيمَ السحر هل لك خبر		عن عريب هم بالمنحنى
فارقوني ولم أقض الوطر		من لقاهم ولا نلت المنى
قلت يا قلب صبراً ما صبر		والنبي ما الهوى إلا عنا
ما كتمت الهوى إلاّ ظهر		مع شهود المدامع والضنى

دور :

ليش تمنع وصالك يا حبيب		عن محبك وهو لا يعشق سواك
راقب الله وارجع من قريب		قبل يبلى جسمه في هواك
لست ألقى لدائي من طبيب		غير رشفي يا حبيبي من لماك
لو رأى حالي العاذل عذر		حينما ينظر جمالك والسنا

دور :

يا قمر فوق غصنٍ من نقا		أتخنتنا مطالك والصدود
يا رعى الله لويلات اللقا		ليتها يا خلُّ يومّا لي تعود
ليلة السعد ما فيها شقا		كيف تشقى وطالعها سعود
صفوها لا يمازجه كدر		بالمسرات وأوقات الهنا

غيره :

حملت مذ سارت الحمول		وجدّ مضى العمر وهو باقي

دور :

ساروا وسار الفؤاد لكن جسمي مقيم على المساكن

وعن الحب صار ظاعنْ

مالي إلى وصله وصول لو سرت بالبرق والبراق

دور:

وغادة كالقضيب قداً والورد والياسمين خداً

كأنها البدور إذ تبدى

وشعرها أسود طويل كأنه ليلة الفراق

دور:

هونا أتتنا تميل ميلاً سحابة كالسحاب ذيلاً

فقلت شمس تزور ليلاً

وما درى كاشح عذول فذاك من أعجب اتفاق

دور:

وسدتُها ساعدى لسعدى وبتُّ أرعى رياض وردى

وخمر ريق كذوبِ شهد

لو ذاقها مدنف عليل لعاش والروح فى التراقى

دور:

لما رأتنى أذوب سقما ومن ورود الرضاب أظما

قالت كَلَمت الخدود لثما

ما يشتفى منك ذا الغليل بغير نومى وشيل ساقى

فصل: فى الفن الثالث وهو الدوبيت

لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى:

أهوى قمراً له المعانى رق من صبح جبينه أضاء الشرق

تدرى بالله ما يقول البرق ما بين ثناياه وبينى فرق

وقال أيضًا:

أهوى رشا كلّ الأسى لى بعثا مذ عاينه تصبرى ما لبثا

ناديت وقد فكرت فى خلقته سبحانك ما خلقت هذا عبثا

وقال أيضًا:

عرّج بطويلع فلى ثم هوى واذكر خبر الغرام واسنده إلىّ

واقصص قصصى عليهم وابك علىّ قل مات ولم يحظ من الوصول بشئ

وقال أيضًا:

روحى لك يا زائراً فى الليل فدا ... يا مونس وحدتى إذا الليل هدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا ... لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وقال آخر:

يا شمس ضحى جبينه وضاح ... ساعات وصولك كلها أفراح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم ... ماتوا كمداً وبالهوى ما باحوا

وقال آخر:

أهواه مهفهفًا ثقيل الردف ... كالبدر يجلُّ حسنه عن وصف
ما أحسن واو صدغه حين بدت ... يارب عسى تكون واو العطف

وقال التلعفرى:

قلبى ذهبت لبعدكم راحته ... ما الصبر على بعادكم عادته
بنمْ فرشى لما به شامته ... لا كان فراقكم ولا ساعته

وقال المنشدى:

إحسانك طول الدهر لا أنساهُ ... لا أذكر بعد خالقى إلا هو
إن أبعدك الزمان عنى حسدا ... مولاى خليفتى عليك الله

وقال آخر :

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجدُ ... فاذكر ولهى وما جناه البعدُ
قد كنت أقاسى الصدق حتى رحلوا ... ياليتهم عادوا وعاد الصد

فصل : فى الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغبارى:

قل لغزلان وادى مصر والشام يقصروا ذا النفار
لهم اجعل حشاشتى مرعى وفؤادى قفار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمرلوعيون نجل سود ... وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهار ... وذا بدر الكمال ظهر في الليل وذا شمس النهار

دور:

تدر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود

قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود ... وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار ... أنتم التفاح وما نقصد منكم إلا الخيار

دور:

وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح

والحلاوة وطيبة الأخلاق فى الخلائق مباح — إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار — وورثنا الحسن من يوسف واكتسبنا الفخار

دور:

حسن حبى الفرارجى فرحه بدر فى السعد لاح

فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح — كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح
ومن البيضة قد خرج نافر رد جفنى بنار — وجفانى وخد بياض جسمى خلطوا بالصفار

دور:

وقع الطل خط بالأبيض فى اخضرار الطروس

قم يا ساقى على بساط زهرى تحت ظل العروس — هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذرا عروس
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمى وابتهاج الثمار — قد جلوها فى كاس زجاج أبيض فاكتسى باحمرار

دور:

خمر فيها سر لو جعل أشياف رد الأعمى بصير

اقطع القطف أسود يحاكى الليل شفق أحمر يصير — يا ترى ذا السر فى كرمه أو يكون فى العصير
وترى النوردا عليه يلمع ذاك من إيش استنار — وكذا الكاس يحاكى يا سمير من كساه جلنار

دور:

فهو عطار عندو وشراب هندى وبرانى جفاه

كل من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاه — ورد خدو وحبتو سودا شبه خال فى صفاه
جبل آس عارضو أسر قلبى والكبار والصغار — فى المحب غاروا على حسنو وكل من حب غار

دور:

دورونى الملاح على كعبى ونصوا نصوص

بلا دعوى التف لف اليسير فى هواهم خصوص — وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص
والبساط انطوى وحين مارأوا خلف له همه ولو اصطبار — قمرونى فى عشق هذا القمر والمحبة قمار

دور:

لحبيبى ثغر من جوهر والشفيفات عقيق

وعوارض ما ضرهم عارض غير نبات الشقيق — وخدود ورد من غير نمش ووصفنا عن حقيق
يحرس الورد خال عنبر تحت أهداب غزار — فى صفا وجهو أنزه طرفى عند خلع العذار

دور:

فى رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف

كيف لا ترقص والنسيم بها موصول وورقها دفوف — واعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار باختلاف الألحان سحر في الروض صاح على عود وطار

دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال

والشرايع والحق والباطل والحرام والحلال نبي من بين أصابعه تحقيق نبع الماء الزلال

ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد البحار والخلايق تكتب مديحوتاه كل كاتب وحار

دور:

خلف أستاذ فى الفن ما ينطاق ذاق عداه المنون

ما يعيبو فى الفن غير ناقص عقل زايد جنون شيخ مصدر لبيب قيم في جميع الفنون

باتضاعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار وأهل الفنون تجرى وما تلحق للغبارى غبار

غيره لناصر الغيطى:

كنز روضى طالبو بسعد ياخليع قم فى دجى الأسحار تلتقى در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار

دور:

كنز روضى نزهة الطالب جوهر وبين الندى يرهج

ولجين الما بيتكسر يا خليع هيا تعا اتفرج بين عنابر تلتقى الخلع كل حد مع إلفو يدرج

وامش فى عرض الرياض وارتع بين اغصان وأطيار فوق بساط زمرد ذو قضبان كل وردة أحكتْ لنا دينار

دور:

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل النزه صلبان

والشحارير لابسين أسود وقلانس كنهم رهبان وكذا الكتاب وهو أصفر بعمائم زرق للناس بان

وانجلت بين القسوس فى ألحان وعلينا دارها الخمار والقطيع الراهبى يحكى لشماس لابس الزنار

دور:

الفراق نار والوصال جنّة والخلائق بعضهم يعشق

دا حبيب قلبو عليه راضى ودا محبوبو عليه يشفق ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشتق

والمليح عندى وأنا مطمن وسط روضا زهر لها معطار فى نعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح فى نار

دور:

وعمل فى الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كتر وجدو هام والنخيل بأكمامها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام

والعصافير شيخهم ريق لو طريق بين الأزاهر طار والبلبل بالغنا يشجى فكأنوا ناى أو مزمار

دور ناصر الغيطى:

يا خلاّيا صحبت إنسان أنكر الصحبة وعادانى

وبغضنى حين بقيت مسمي والإله بالفضل أسمانى فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى

والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لو تذكار والبلط يوقع لو تنعلق ما يحصل شيء مع الشطار

للغباري:

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجوز أو يزيد لو عدل عشت بو مرور ويكون الرشيد

دور:

أقلع القلب في هوى العشاق والدموع في انحدار

وبحور الهوى إذ هاجت ليس لها لمن قرار كنت أحسب قلبي معوريس غرتو ذا البحار

صحت لما وحلت يا محبوب قلبي بحر عشقك يزيد خفت فيه الغرق فقال افرح من غرق مات شهيد

دور:

أنا يوم في الغبوق باتفرج على شط الغدير

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير نظرت مقلتي إلى منظر ما لحسنو نظير

قلت يا عين إن غرك الصياد بالجمال المصيد يوقعك في فخاخ شباك عشقو وكراكي يصيد

دور:

من نحبو جديد حبيب قلبي يوم صدفتو صدف

قلت لين يا قاسي لمن دمعو سال وحالو وقف دار وقال لي ما لاسم بالانجيل قلت اسمي خلف

قال علينا يكتب ومن يسمع دا الكلام يستفيد في الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد

دور:

لك عوارض في الخد مرقومة ليس لها من مثال

وجفاك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال وأنت دوبيت موشح القاما يا عزيز الدلال

ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد ويشعرك متوج القاما وأنت بيت القصيد

دور:

عن محرم شرابنا ضمنا ونفطر بالثمار

حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار وغنا الطير به الجماد يطرب وكذا الجلنار

في ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد وحسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد

دور:

من لهيب مدمعي جرى الطوفان للهيب ما طفي

وأنا هو الغباري في العشاق ما جرى لي كفي حين عليا بالصد والهجران والبعاد والجفا

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد لو عدل عشت بو مرور ويكون الرشيد

غيره:

حين سكنت القلب يا عيسى أمسى من بعدك الحزين فرحان

وتقدس بك ولكنو ما جرت فيه يا ابن عين سلوان

دور:

عارضوا لما عشق خدو غرت من وجدي بقيت حاير

جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر — بعد حين نظرت فى خدو النقى العارض وهو داير
وعليه قد دب بالسرقة جيت لطرفو قلت يا كسلان — هكذا فى عادة الحراس قال لى اعذرنى أنا نعسان

دور:

بدر شعبان ميتى لما فى بروج السعد لاح نجمو

فقلت لو أقضى بفيض دمعى أطلقوا واجراه على رسمو — قلت لو دام الله اطلاقك فالحزين قلبو المشوم قسمو
ايش قد أذنب حين قطرتو دا يمغلط قول بالبهتان — قال لى صوم عن الوصال ناديت ليش أصوم يابدر فى شعبان

دور:

حين تدبج احمرار خدو باخضرار العارض أسبانى

ضحك فابيض وابتسم واسوداد شعرى وأبكانى — وحين أضحيت باصفرار لونى اشعث أغبر فى هواه عانى
قال لى لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعى طوفان — ذقت تبريح الغرام ناديت فى هواك ذقت الهوان ألوان

دور:

قلت لو حين عنى تخلف لله كن لى يا رشيد مهدى

قد تلون دمعى من بعدك وتجرى اليوم على خدى دار — إلى إنسان مقلتى قال لو أنت من عندك نظر بعدى
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود قال يا فتان — جرى الماء تحت من بعدك راقب الله فيا يا إنسان

دور:

ذا الغزال النافر الأنسى للغزالة قد أعار النور

كسر قلبى كسير جفنو فاعجبوا للكاسر المكور — ويخمر الدن قد عربد وادعى أنى أنا المخمور
وابتسم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيا بان — صحت يا قلبى صفا وردك أنت ما بين النقا والبان

للصفى الحلى:

أنت يا قبلة الكرام — زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام — ويعيدك على السنين

دور:

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرس شمايلك

ويزيدك بالدوام كى نعيش فى فواضلك — ما ينطوى ذكر الكرام لم تنشر فضايلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين — قد بقينا بك فى آمان الله يحييك طول السنين

دور:

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم

كل من جا ليسألك ليش تقول له سوى نعم — أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت فى الجود كالغمام وسماك فوق ماردين — در غيثك فى انسجام عم كل السائلين

دور:

لا عدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا — كل ليلة ولك يوم ينشر الذكر والثنا

الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمنى

دور:

حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى السنين ... وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

غيره:

خال عبد الرحيم نقطة حبر من غير قاف ولام ... وميم ثغر معشوقى الفتان نون وعين وميم
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم ... داللى قد هواه قلبى صاد وبا ويا
مليح ما رأيت مثله ظا وبا ويا ... ما أحلاه عندما يلبس قاف ويا ويا
ذقت من صدود حبى غين وصاد وصاد ... ولما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
النوم من جفون عينى خا ولام وصاد ... وأصبحت وجود فكرى عين ودال وميم
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال ... اعدل فى الذى صبرو نون وفا ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال ... ما أفلح قط يا ناس من ظا ولام وميم

جمل فى الألغاز: (المطلع فى العين):

وما طير أكلوا الحجر يا كرام ... وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام ... يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور فى السراج:

وما بحر ما هو ما وفى الليل يزيد ... وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
وفيه شىء صفات حية لا وكر استفيد ... لها جوهره فى فمها يا رفيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد ... ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
يغيب فى النهار لكن إذا جا الظلام ... تشوفو يضئ بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام ... قتيل الهوى بين الربا والبطاح

دور فى جوزة الكنافة:

وما هى التى تركب على ستين ألف ... وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
مليحة وقصيفة وتلبس ترف ... وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف ... يشيلو أودها الكبير والصغير
لها فحل يخدمها عليه السلام ... يحادى سراها فى المجى والرواح
وأكثر تعبها فى ليالى الصيام ... وذا اللغز قلته ومن غير مزاح

دور فى الغربال:

وما هو الذى يا سعد كله عيون ... ولا يحتلم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفنون ... وميت وهو يحيى أصول الحيا
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون ... ولا حد يعوض مرضعه لوعيا
وكم من رقيص فى صنعته باهتمام ... مكابد عجاجه فى المسا والصباح
ويحتاج له الناس كل يوم فى الدوام ... على شان فنونه دول فنون ملاح

الفن الخامس فى المواليا

وله وزن واحد وأربع قوافى فمن تلك الأربعة واحد لصفى الدين الحلى:

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت ... والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت ... والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال أيضًا:

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها ... ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التى مدت سلاسلها ... كم من أسود ضوارى فى سلاسلها

وقال آخر:

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو ... فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو
والطل من فوقنا قد بلنا نخلو ... ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

وقال آخر:

قسمًا وبالله مفرقها وجامعها ... ومن أمرنا بمسجدها وجامعها
لو حل مع بغيتى عايد وجامعها ... كأن افتتن فى محاسنها وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر:

قوم اسقنى ما تبقى فى أباريقو ... أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو
مع شادن كلما دار شفاريقه ... سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

وقال:

البارحة رأيت بعينى فى الدجاجيين ... اثنين مثل البدورة فى الدجى جيين
ناديتهم فين كنتم يا خفاجيين ... قالوا لمن قد وعدنا فى الخفاجيين

وقال:

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك ... ارحم خضوعى وخف فى قتلتى ربك
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك ... ما ظن فى الناس أقسى قلب من قلبك

غيره خمرى عاطل:

كاس الطلا لطلاها طال لما سر ... وصار لما حوى حمراء مكلل در
مدام لو طعم كله حلو ما هو مر ... ما حل مملوك إلا صار ملك حر

غيره حربى:

لك يا إمام الوغا فى كل موقع حرب ... سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب ... سيوف تفنى وكفك لا يمل الضرب

الصفى الحلى فى المدح:

أغنت وأقنت كفوفك فى الندى والحرب ... فى القرب والبعد من شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب ... ذا الكرب فرج وهذا قد رمى فى الكرب

وقال أيضًا:

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين | أخطأ القياس وفى قوله جمع ضدين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يازين | وذاك ما جاد إلا وهو باكى العين

وقال فى التهنئة:

رأيت العيد أول يوم فى عصرك | رأيت ذا اليوم مع ذا الشهر فى نصرك
وديت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك | والكل بالكل أول مبتدا عمرك

فى المعاتبة:

عن تسليت وأسياف الجفا سليت | ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت | إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وقال أيضًا:

يا قلب إن غدورا فاغدر وإن خانوا | فخن وإن هم قسوا فاقيا وإن لانو
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا | فبن وكن لى معاهم كيفما كانوا

وقال آخر:

حلف عليما جكاره أن يقاطعنى | وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع يصدعنى | إن كنت أنا هو المطلق لا يراجعنى

وقال آخر هجواً:

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك | والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك | وإن كنت تسكت يبول الكلب فى فمك

وقال آخر:

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح | لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح | وإن ضاق صدرك فكر فى ألم نشرح

وقال آخر:

إن كنت عاقل وريك بالتقى برك | ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرك | ناديه يا أيها الإنسان ما غرك

وقال آخر:

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر | عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر | فإن والله ما خاب الذى يصبر

الفن السادس كان وكان:

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى فمنه هذه الوعظيات:

يا قاسى القلب مالك تستمع وما عندك خبر | ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فى كل ما لا ينفعك | ليتك على ذى الحالة تقلع عن الإصرار
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل | فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

ويحك تنبه يا فتى وافهم مقالي واستمع
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه
تلوت قولي ونصحى لمن تدبر واستمع

ففى المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
ما فى النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقال أيضًا:

صرح بذكر المحبة ما فى المعمى فائدة
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر
من أين للبدر حسن يحكيه أو شمس الضحى
إن غبت فهو أنيسى وإن حضرت نديمى
فمنه روحى وراحى إذا سكرت وراحتى
قولوا لمن يلحانى فى الحب قصر واعتبر

وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
أنا عاشق لحبيب كل المعانى فيه
حاشا لذاك المحيا من مشبه يحكيه
وإن شربت مدامى فالكأس هو ساقيه
وفيه عزى وذلى بهجتى أفديه
هذا الذى قد عشقته قد حار وصفى فيه

الصفى الحلى:

شاهدت فى الليل طيرى وقمت حتى أنصب شرك
طيرى الذى كان إلفى لو ردت مثله ما حصل
قد كان شرطى وخلقى لبرج غيرى ما عرف
من قبل ما أبصبص له يجئ ويدخل قصورى

ما كل صيد يحصل يفرح الصياد
وهو علىَّ محمود وأنا عليه معتاد
كأننا فى الصحبة جينا على ميعاد
أنا أرصده فى مطاره خائف عليه ينصاد

وقال آخر:

ما ذقت عمرى جرعة أمر من طعم الهوى
الناس تعلم منى حال الجلادة والقوى
لى حب مثل الخوخة لو لون وطعم وريحة
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لويحى

الله يصبر قلبى على الذى يهواه
وما أطيق التجلد على أليم جفاه
ما أكثر مغابن حبيبى وما أقل وفاه
لو كنت أعشق ظلى ما كنت قط أراه

وله فى الفراقيات:

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى
أو حشتم العين منى وأنسكم فى خاطرى
قد انتهى الصبر منى وما بقى فيا رمق
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى
ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبكم
ما مر ما ريت ضدى يقول لى من فرحته
لو لم أسل روحى وأرض نفسى بالمنى
وقفت لمرحلتم حيران بين أظعانكم
طول الليالى أساهر كنى أريد الكيميا
ما أطول ليالى جفاكم ساعتها مثل السنة

لا أوحش الله منكم فى سائر الأوقات
والقلب فى النور منكم والعين فى ظلمات
هيهات إنى أحيا من بعدكم هيهات
أعد بين الأحياء وأنا مع الأموات
إيش ضر لو كان جسمى من جملة التبعات
هنا تشق المرابر وتسكب العبرات
لكان قلبى تقطع من بعدكم حسرات
أخفض جناح المذلة وأرفع الأصوات
أقطر الدموع منى وأصعد الزفرات
وما أقصر أيام وصلى كأنها ساعات

مـالى أرى حسـناتى بالسـيئـات تبـدلت | وسـيـئـات الأعـادى اتبـدلت حسـنات
خـالفتـمـونى وعـمـرى مـاولت أتبع أمركم | كـذا العـبـيد تتـابع أوامـر السـادات
أسكت واصـبـر عنكمـو ويفـعل اللـه مـا يشـا | والـدهر مـن عـاداته يـقلب الحـالات

الفن السابع فى فن القوما:

قيل أول من اخترعـه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر والصحيح أنه مخـترع من قبله. وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك، فـصبر إلى دخول شهـر رمضان ثم أخذ أتبـاع والده من المـحرين ووقف أول ليلة من الشهـر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة إليه وطرب له، فكان أول ما قاله قوله:

يـا سـيـد الســادات | لـك بـالكرم عـادات
وأنـا بـنـى ابـن نـقـطـة | تـعـيش أبـويا مـات

فاعجب الخليفة منه هذا الاختصار، فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه.

ومنها للصفى الحلى:

مـن كـان يـهـوى البـدور | ووصـل بـيـض الخـدور
بالبـيض والصـفـر يسـخـو | وقـد جلـس فـى الصـدور
مـن حب بـيـض الخـدور | ورام لـزوم الـصـدور
يـسـمح وإلا فـيـبـقى | مـن بينـهـم مـهـدور
كـم بيـن سـجـف الخـدور | مـن عـاشـق مـصـدور
يـرعـى الـكـواكـب تـعـلـو | يـرى جـمـال البـدور
بـيـن الحـلـل والخـدور | وجـوه مـثـل البـدور
إشـراقـهـا فى المحـاجـر | وغـربهـا فـى الصـدور
قـد كـنت فـوق الصـدور | بيـن الـظبـا والبـدور
فـصـرت أحـسـد مـن أبصـر | خـيـامـهم والخـدور
نـوائـب المـقـدور | مـثـل الـكـواكب تـدور
مـن بـعـد طـيب الخـواطـر | يـقـضى بـضـيق الصـدور
غـيـرى يـلازم الصـدور | أنـا عـلـيـكـم أدور
واصـطـلـى الـصـد وأنـا | مـن بـينـهـم مـهـدور

وقال أيضًا:

حـال الهـوى مـخـبـور | يـريـد جـلـد صـبـور
يـصـون سـره وإلاً | يـبـقى مـن أهـل القـبـور
مـن كـان هـواه مـستور | يـحـظى بـرفـع الـسـتور
ومـن هـتك سـر حـبـو | يـمـحى مـن الدسـتـور
أبـذل لبـيـض الـنحـور | أمـوال مـثـل البـحـور

إن أردت تملك وتظفر   ولدانهم والحور
قم فابذل المذخور   وفى العطا لا تجور
تريد هذى المحبه   قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور   من عاشق مذعور
مثل الدواليب تجرى   دموعها وتدور
من يركب المحذور   هو فى الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ   قصده ويوفى النذور
كن بالهوى مسرور   ولا تبيت مغرور
واجعل تراب أعتابهم   لأجفان عينك درور
طرق المحبة وعور   كم بينها معذور
من فتك بيض السوالف   على سواد الشعور
كم عاشق مذعور   فى حب بيض الشغور
يغار قلبه ولكن   مدامعه ما تغور
كم بينهم يعفور   كالظبى أنس نفور
من أهل بدر فديته   إيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء فى رمضان:

لا زال سعدك جديد   دائم وجدك سعيد
ولا برحت مهنّى   بكل صوم وعيد
فى الدهر أنت الفريد   وفى صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح   وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد   ولطف رأيه سديد
ومن يلاقى الشدائد   بقلب مثل الحديد
لا زلت فى تأييد   فى الصوم والتعييد
ولا برحت مهنى   بكل عام جديد
نحن لذكرك نشيد   بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك   على خيول البريد
ظلك علينا مديد   ما فوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك   قريبنا والبعيد
لا زلت فى كل عيد   تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك   وافر وظلك مديد

لا زال قــــدرك مـــجـــيـــد   وظـل جـــودك مـــديد
ولا بـرحـت مـــوقــى   كـــمـــا يـوقى الـولـيـــد
مـــا زال بـــرك يـزيــد   عـلـى أقل الـعـــبـــيـــد
ومـــا بـرح جـــود كـــفـك   مـنـا كـــحـــبـل الـوريد
لا زال بـــرك مـــزيـــد   دائـم وبـأسـك شـــديـــد
ولا عـــدمـنـا نـوالـك   فـى صـــوم فـطر وعـــيـــد

ومما قيل فى فن الحماق:

أنا مـــا عـــبـــورى الحـــمـــام   لجـســمى لـكـى يـنـظـف
إلا لـــدمـــع جـــــارى   عـــلـــى المـــاء ولايـــوقـــف
وديـك المجـــــارى تجـــــرى   ودمـــعى يـســابقـــهـــا
تـقـــول الأنام فـى الحـــمـــام   لـه أحـــبـــاب فـــارقـــهـــا

وقال آخر:

تـرى كل مـن نـعـــشـــقـــو   عـلـيـنـا يـقـــيـم أنـفـــه
فـــاســـلاه واتـرك هـواه   وســـد الـطـريـق خـلـفـــه
وإن زاد عـلى عـــشـــقـــوا   وزاد بـى الـهـــوى والـــذل
تـركـــتـــو ولـو كـــان يـحـــيـى   لأهـل الـقـــبـــور الـكـل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبتهج به النفوس وتقر به العيون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق الله فى الحسن نهاية، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من بره ونعمه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول: فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوار عندكم»، وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين وأن يختار الحسب والشرف».

كما حكى أن نوح بن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته، فاستشار جار له مجوسياً، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتينى! قال: لابد أن تشير على: قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمدكان يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدى. وقال رجل للحسن: إن لى ابنة فمن ترى أن أزوجها له؟ قال: زوجها ممن يتقى الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة. فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها، ويستحب أن يختار البكرلقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهن أطيب أفواهاً وأنتق أرحاماً» وقالوا: أشهى المطى مالم يركب وأحب اللآلىء ما لم يثقب، وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم ... أشهى المطىّ إلىَّ ما لم يركبِ
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة ... نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقبِ

فأجابته امرأة:

إنّ المطيّ لايلذ ركوبها ... حتى تذلل بالزمام وتركبا
والدر ليس بنافع أربابه ... حتى يؤلف بالنظام ويثقبا

قال خالد بن صفوان(١):

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحاً ... بذات الثنايا الغرّ والأعين النجلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج، فقال له: سل سليمان وأخبرنى بجوابه، فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً قصبة فسأله فقال: عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لايضربك. فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاءالثيب الشابة، ومن وراءهما كالفرس الجموح. وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم»، وقال ﷺ: «انظر فى أى شىء تضع ولدك، فإن العرق دساس». وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى المنبت السوء»، وأنشدوا فيه:

إذا تزوّجت فكن حاذقاً ... واسأل عن الغصن وعن منبته

وقال بعضهم:

وأوّل خبث الماء خبثُ ترابه ... وأول خبث القوم خبث المناكح

(١) خالد بن صفوان: هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمى المنقرى البصرى أحد فصحاء العرب، ومن مشاهير الأخباريين، وله أخبار فى البخل، كان يجالس عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة، وكان أيسر أهلها مالاً، ولم يتزوج، له كلمات سائرة، ومن كلامه عندما سئل: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يغفر زللى، ويقبل عللى، ويسد خللى، عاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسى وحظى عنده، وكان لفصاحته اقدر الناس على مدح الشىء وذمه، توفى بعد أن كف بصره سنة (نحو ١٣٣هـ- نحو ٧٥٠م).

وعن عليّ رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ قال: «لاتسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدى». وقيل: إن جعفر بن سليمان بن على عاب يوماً على أولاده، وأنهم ليسوا كما يجب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن ينجبن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز فهلافعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها، فزوجها منك، وأنشدوا:

صفاتٌ من يستحب الشرع خطبتها ... بلوتها لأولى الألباب مختصراً
صبيةٌ ذات دينٍ زانه أدبٌ ... بكرٌ ولود حكت فى نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها ... تلك الصفات التى أجلوا لمن نظرا
فبيها أحاديثُ جاءت وهى ثابتةٌ ... أحاط علماً بها من فى العلوم قرا

وقال آخر:

مطيّات السرور فويق عشر ... إلى العشرين ثم قف المطايا
فإنْ جزت المسير فسرْ قليلاً ... وبنت الأربعين من الرزايا

وقال آخر:

فإيّاك وإيّاك العجوز ووطاها ... فما هو إلاّ مثلُ سمٍّ الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لاتسكن النفس إلى عشرتها ولاتقر العيون برؤيتها. وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفيهة تهدمه.

وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر، خطب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصرمضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخى من لايوزن به رجل من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلاً، فإن كان فى المال قلّ. فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمروبن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخولها بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أى بنية إنك مفارقةبيتك الذى منه خرجت وعشّك الذى منه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة ليكون لك عبداً، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً، فأما الأولى والثانية: فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولايشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصِ له أمراً، ولاتفشِ له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها، فأنجبت وولدت له الحرث ابن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائى عن الشعبى قال: لقينى شريح، فقال لى: يا شعبى عليك بنساء بنى تميم، فإنى رأيت لهن عقولا، فقلت: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهن وإذا أنابعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت إليها، واستسقيت وما بى عطش. فقالت لى: أى الشراب أحب إليك؟ قلت ماتيسر قالت: ويحك يا جارية ائتيه بلبن،فإنى أظن الرجل غريباً، فقلت للعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت: هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة. قلت: هى فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة.

---

(١) شريح: هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندى قاضى الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل، وابن شُرَحبيل، ويقال: هو من أبناء الفرس الذين كانوا باليمن. يقال: له صحبة، ولم يصح، بل هو ممن أسلم فى حياة النبى ﷺ وانتقل من اليمن زمن الصديق مات سنة (٧٨هـ).

قلت: أتزوجينيها؟ قالت: إن كنت كفوا -ولم تقل كفوا وهي بلغة بني تميم- فتركتها ومضيت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: زينب ابنة أخيك قال: ما بها عنك رغبة، فزوجنيها، فلما صارت في حبالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت علي. فقلت: إن من السنّة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين. ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها. فتوضأت: فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي، فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صبغت بالزعفران فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناصيتها، فقالت: على وسلك أبا أمية. ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، أما بعد، فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأجتنبه، فإنه قد كان لك منكح في قومك ولي في قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت، فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إمّا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين. قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي وأسلم على محمد وآله أما بعد، فإنك قلت كلاماً إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظاً لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فابثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها. فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه، قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى. وقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليلتك، قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً قالت: كيف رأيت زوجتك قلت: خير زوجة وأوفق قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيراً، فقالت: أبا أمية إن المرأة لايرى أسوأ حالاً منها في حالتين قلت: وما هما: قالت: إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة، فقلت: والله لقد أدبت، فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي ياشعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً. وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلّت يميني يوم تضرب زينبُ
أأضربها من غير ذنبٍ أتتْ به	فما العدل مني ضرب من ليس يذنب
فزينب شمسٌ والنساء كواكبٌ	إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية، فأجابه إلى ذلك، وحملها إلى العراق، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة. ومعه الناس. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً. قال: مهلاًيا ابن أخي، فلست أهلاً لهذه المقالة منك، قال: بلى، والله وبشر منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف. فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها بتخفذ. قال: وفي هذا عتبت عليَّ يا ابن أخي؟ قال: نعم فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لايلومني في هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك، فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيرة، فكتب إلى الحجاج

يقسم عليه أن لايضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل، قال: ولم يكن قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ومازال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتى عليه الحول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكى أن المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهى فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفى. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف فى محافل العرب، فتقول: تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأى خير فى اجتماع عمياء وأعور. وكان عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً وأبرّهم بوالديه. فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً. فثقل ذلك على أبيه، فمر به أبو بكر يوماً، وهو فى غرفةله، فقال: يا بنى إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك، فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك، قال: أقسمت عليك إلا ما طلقتها، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها، فجزع عليها جزعاً شديداً، وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبى بكر: أهلكت عبد الرحمن، فمربه يوماً، وعبد الرحمن لايراه وهو مضطجع فى الشمس يقول هذه الأبيات:

فو الله لا أنساك ما ذرّ شارقٌ ... وما ناح قمرىُّ الحمام المطوّقُ
فلم أر مثلى طلّق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء يطلّقُ
لها خلقٌ عفٌّ ودينٌ ومحتدٌ ... وخلقٌ سوىٌّ فى الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له: راجعها يابنى، فراجعها، وأقامت عنده حتى قتل يوم الطائف مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فآليت لاتنفكُّ نفسى حزينةً ... عليك ولا ينفكُّ جلدى أغبرا
فتىً طول عمرى ما أرى مثله فتىً ... أكرّ وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فى الأسنة خاضها ... إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته، ودعا الناس إلى وليمته، فأتوه، فلما فرغ من الطعام، وخرج الناس قال له على بن أبى طالب رضى الله عنه: يا أميرالمؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنيها، وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة، فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح، فائذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له، فرفع جانب الخدر. فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق، فقال لها يا عاتكة: ألست القائلة:

فآليت لاتنفكُّ نفسى حزينةً ... عليك ولا ينفكُّ جلدى أغبرا

وقيل: إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام، وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها، فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: «لاتمنعوا إماء الله مساجد الله»، فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد وهى لاتعرفه، فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد، وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس ومابهم من بأس، وأما الآن فلا. ثم قُتلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع وهو نائم، ثم تزوجها بعده محمد بن أبى بكر، فقتل عنها بمصر، فقالت: لا أتزوج بعده أبداً إنى لأحسبنى أنى لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكى عن الحارث بن عوف بن أبى حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أخطب إلى أحد فيردنى. قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائى، قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده، فوجدناه فى فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت

خاطباً. قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً، فقالت له: من الرجل الذى سلم عليك، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فمالك لاتستنزله؟ قال: إنه استهجننى. قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءنى خاطباً. قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب. قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب فى زمانه. فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فبماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف، وقد فرط منى إليه ما فرط، قالت: تقول له إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط منى، فارجع ولك عندى كل ما طلبت، قال: فركب فى أثرهما، قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته. فقلت للحارث وهو ما يكلمنى هذا أوس فى أثرنا، فقال: ما أصنع به، فلما رآنا لانقف قال: يا حارث أربع علىّ. فوقفنا له. وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً، قال خارجة بن سنان: فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة أكبر بناته. فأتته. فقال لها: أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطباً. وقد أردت أن أزوجك منه. فما تقولين؟ قالت: لاتفعل. قال: ولمَ؟ قالت: لأنى فى خلقى رداءة وفى لسانى حدة. ولست بابنة عمه، فيراعى رحمى ولا هو بجارك فى البلد فيستحى منك. ولاآمن أن يرى منى مايكره، فيطلقنى، فيكون علىّ بذلك مسبة، قال لها: قومى بارك الله فيك، ثم دعا ابنته الأخرى، فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، فقال لها: قومى بارك الله فيك. ثم دعا بالثالثة، وكانت أصغرهن سناً، فقال لها مثلما قال لاختيها، فقالت له: أنت وذاك. فقال لها: إنى عرضت ذلك على أختيك، فأبتاه، ولم يذكر لها مقالتهما، فقالت: والله إنى الجميلة وجهًا، الرفيعة خلقًا، الحسنة رأيًا، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه فقال لها: بارك الله فيك ثم خرج إليه فقال زوجتك يا حارث بابنتى هنيسة، قال: قد قبلت نكاحها، وأمرأمها أن تهيئها له، وتصلح شانها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إلىّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدى إليها قالت: مه أعند أبى وأخوتى هذا، والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معاً وسرنا ما شاء الله. ثم قال لى: تقدم، فتقدمت، فعدل عن الطريق، فما لبث أن لحقنى، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت ولمَ؟ قال: قالت تفعل بى كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل مما يعمل مثلك لمثلى، فقلت: والله إنى لأرى همة وعقلاً، فقال: صدقت. قال: وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة، فوردنا إلى بلادنا، فأحضرالإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلىّ، فقلت: أفرغت من شأنك، قال: لا والله. قلت: ولمَ ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدها، فقلت لها أحضرت من المال ما تريدين، قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضًا، فكان ذلك فى أيام قيس وذبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: اخرج إلى القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إنى لأرى عقلاً ورأياً سديداً، قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينابينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهما الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها، فقالت له: أما الآن، فنعم، فأقامت عنده فى ألذ عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ماكان، والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبى قال: حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك، ثم أتبعها رسولاً يسألها ألها زوج ويذكره لها وكان جميلاً، فقالت للرسول وما حرفته، فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلة ما حرفتى قلت حرفتى ... مقارعة الأبطال فى كل شارق

إذا عرضت خيل لخيل رأيتنى ... أمام رعيل الخيل أحمى حقائقى

أصبّر نفسى حين لم أر صابراً ... على ألم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول، فأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه، وقل له أنت أسد، فاطلب لك لبوة، فلست من نسائك، وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغى جواداً بماله ... كريماً محيّاه كثير الصدائق

فتى همه مذ كان خود خريدة ... يعانقها فى الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن عبد الحكم عن الإمام الشافعي رضى الله عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة ... وأخرى رمى فيها الزمان فشلّت

ثم تعود وتقول:

وما يستوى الثوبان ثوبٌ به البلى ... وثوبٌ بأيدى البائعين جديدُ

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت:

نقّل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأوّل منزل

وقال عمرو بن العلاء، وكان أعلم الناس بالنساء:

فإن تسألونى بالنساء فإنّنى ... بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء أوقلّ ماله ... فليس له فى وُدّهنّ نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة[1] عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مؤاساة، والغرائب أنجب، وماضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء، وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية، قال الشاعر:

لاتشتمنّ امرأ ممّن يكون له ... أمٌّ من الروم أم سوداء عجماء

فإنّما أمهات القوم أوعيةٌ ... مستودعات وللأنساب آباءُ

وقال الأصمعى: أتانى رجل من قريش يستشيرنى فى امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخى أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم عنّى، فقلت: يا ابن أخى، أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباها اكتفت به، والطويلة النسب فهى التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبها، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم، فتضيع نسبك فيهم. وخرج رجل من أهل الكوفة فى غزاة، فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه، فكتب إليها يعيرها ويقول:

الا بلّغوا أمّ البنين بأننا ... غنينا وأغنتنا الغطارفة النجد

بعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء كالتمثال زيّنها العقد

فهذا لأيام العدو وهذه ... لحاجة نفسى حين ينصرف الجند

فلماورد عليها كتابه وقرأته قالت ياغلام: هات الدواة، وكتبت جرابه تقول:

ألا فاقرأ منى السلام وقل له ... غنينا وأغنتنا الغطارفة المرد

إذا شئت أغنانى غلامٌ مرجّلٌ ... ونازعته فى ماء معتصر الورد

وإن شاء منهم ناشىء مدّ كفه ... إلى عكن ملساء أو كفلٍ نهدى

فما كنتم تقضون حاجة أهلكم ... شهوداً فتقضوها على النأى والبعد

فعجّل إلينا بالسّراج فإنّهُ ... منانا ولا ندعو لك الله بالرد

فلا قفل الجند الذى أنت فيهم ... وزادك رب الناس بعداً على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه، فكان أول شيء بدأهابه بعد

---

(١) المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن مسعود بن هوف الثقفى، أبو عيسى ويقال: أبو عبد الله، أبو محمد، صحابى، أسلم عام الخندق، وشهد الحديبية وما بعدها وولى العراق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وكان من رجال الدهر حزمًا ورأيًا ودهاءً، يقال له (مغيرة الرأى) شهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، كان أول من وضع ديوان البصرة، توفى سنة (٥٠هـ) وقيل (٥١هـ) وقيل (٥٨هـ) والأول أرجح.

السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك، فقالت له: الله فى قلبى أعظم وأجل وأنت فى عينى أذل وأحقر من أن أعصى الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية، وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثانى: فى صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها، ذليلة فى نفسها، مؤاتية لبعلها، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها، فكتب إليه لايكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدييها، فتدفىء الضجيع، وتروى الرضيع، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لى أحسن النساء؟ قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين، شنباء الثغر، محلولكة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال: تجدها فى خالص العرب وفى خالص الفرس. وقال حكيم: عليكم بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر. وقال رجل لخاطب: ابغ لى امرأة لاتؤنس جاراً ولا توطن داراً، يعنى لاتدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها، وفى مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ — عيطاء غامضة الكعبين معطار
خودٌ من الخفرات البيض لم يرها — بساحة الدار لابعلٌ ولا جار

وقال الأعشى:

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على جملٍ — ولم تر الشمس إلاّ دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً، وكان هو من أقبح الناس وجهاً، فقال لها يوماً: أنا وإياك فى الجنة إن شاء الله تعالى. فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنى أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلى فصبرت، والصابر والشاكر فى الجنة، وقال بعضهم: رأيت فى طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير، فأخذ بردائها وسار بها ومضى فلقيتها مرة أخرى، فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجى، قلت: كيف يرضى مثلك بمثله فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجرى وشاحها — تزف إلى شيخٍ بأقبح تمثالِ
دعانى إليه أنه ذو قرابة — يعزُّ علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلاً يقول:

ومن لايرد مدحى فإن مدائحى — نوافق عند الأكرمين توامى
نوافق عند المشترى الحمد بالندى — نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أخى ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام؟ قال: كن من أجمل النساء وجوهاً وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن. فقال: يا ابن أخى لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهن، وجعل يقول:

قضاعية الكعبين كندية الحشا — خزاعية الأطراف طائية الفم
لها حكم لقمانٍ وصورة يوسف — ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضمخ بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم إذا خجل يحمر وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم ديباج الوجه، يريدون تلونه من رقته، قال على بن أبى زيد فى وصفه:

حمرة خلطَ صفرة فى بياض — مثل ما حاكَ حائكٌ ديباجا

(وقال على بن عبد ربه):

بيضاء يحمر خدها إذا خجلت ... كما جرى ذهبٌ فى صفحتى ورق

وقالوا: إن الجارية الحسناء تتلون بتلون الشمس فهى بالضحى بيضاء وبالعشى صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تنازعها ... لونان من فضّة ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التى تأخذ ببصرك جملة على بعد فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التى كلما كررت بصرك فيها زادتك حسناً، وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فاغضبها ثم قع عليها قال الشاعر:

ممّن حملن به وهنّ عواقد ... حُبُك النطاق فعاش غير مهبّل

حملت به فى ليلة مزؤودة ... كرها وعقد نطاقها لم يحللِ

الفصل الثالث: فى صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

فى حكمة داود عليه السلام: «إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لاينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه». وقيل: المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى فى عنق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابى كان ذا تجربة للنساء، صف لنا شر النساء؟ فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض، الممراض، المصفرة الميشومة، العسرة المبشومة، السلطة البطرة، النفرة السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غيرعجب، وتبكى من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف فى السماء وإست فى الماء، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد كلامها وعيد، وصوتها شديد،وتدفن الحسنات وتفشى السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولاتعين بعلها على الزمان، ليس فى قلبها عليه رأفة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء تأكل لمّاً، وتوسع ذماً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكى فى المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكى وهى ظالمة، وتشهد وهى غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لاتقلع عن النظر إليه، قال بعضهم:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتى ... ولكن قرين السوءُ باق معمّرُ

فياليتها صارت إلى القبر عاجلاً ... وعذّبها فيه نكيرٌ ومنكر

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت ... أبى الله إلا خَرْيَها فتعود

فإن طمثت قادت وإن طهرت زنت ... فهاتيك تزنى دائماً وتقود

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرت عينه برؤيتها، والله أعلم.

الفصل الرابع: فى مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

فى حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت فى الرجال واحداً فى ألف ولم أجد واحدة فى جميع النساء. وقيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقى إبليس وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله، فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين،فقال: ما أحدها؟ قال: الجور، قال: ومن يشتريه؟ قال: السلاطين. قال: فما الثانى؟ قال: الحسد. قال: فمن يشتريه؟ قال: العلماء، قال: فما الثالث؟ قال: الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال: التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال: النساء. وقال حكيم: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. وقالت الحكماء: لاتثق بامرأة ولا تغتربمال، وإن كثر. وقال: النساء حبائل الشيطان. قال الشاعر:

تمتع بهـا مـاسـا عـفـتك ولا تـكن ... جـزوعـاً إذا بـانت فـسـوف تـبين
وخنهـا وإن كـانت تفى لك إنهـا ... علـى قـدم الأيام سـوف تخـون
وإن هى أعـطتك الليـان فـإنهـا ... لغـيـرك من طلآبهـا سـتلين
وإن حلـفت أن لـيس تـنقـض عـهـدها ... فـليس لمخـضـوب الـبنان يمـين
وإن سكـبت يوم الـفـراق دمـوعـهـا ... فـليس لعـمـر الـلـه ذاك يقـين

وقال ابن بشار:

رأيت مـواعـيـد النسـاء كـأنهـا ... سـرابٌ لمرتـاد المـناهـل حـافـل
ومـنتـظر المـوعـود مـنـهنّ كـالذى ... يـؤمـل يـومـاً أن تـلـين الجـنادل

قال بعض الحكماء: لم تنه المرأة عن شىء قط إلا فعلته، وقال الغنوى:

إنّ الـنسـاء مـتى يـنـهين عـن خلـقٍ ... فـإنّـه واقعٌ لابدّ مـفـعـول

وقال النخعى: من اقتراب الساعة طاعة النساء، ويقال: من أطاع عرسه فقد أضاع نفسه، وقال على رضى الله تعالى عنه: إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضر من دخول من لايوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل، قال السمعانى:

لاتـأمنن عـلـى النسـاء ولو أخـاً ... مـا فـى الرجـال على النّـساء أمين
إنّ الأمـين وإن تحـفّظ جـهـده ... لابـدّ أنّ بنـظـرة سـيـخـون

وقال غيره:

لاتـركـننّ إلـى النسـاء ... ولاتـثـق بـعـهـودهـنّ
فـرضـاؤهن جـمـيـعـهنّ ... مـعـلّـقٌ بفـروجـهـنّ

وقال علىّ رضى الله تعالى عنه: لاتطلعوا النساء على حال، ولاتأمنوهن على مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركن وما يردن أوردن المهالك، وأفسدن الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهافتن فى البهتان، ويتمادين فى الطغيان. وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: ذل من أسند أمره إلى امرأة. وقيل: إن صياداً أتى أبرويز بسمكة. فأعجبه حسنها وسمنها، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته سيرين زوجته، فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له أذكر كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذكر، فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله، فقال: كانت أنثى، فقال: ائتنى بذكرها، فقال عمّر الله الملك كانت بكراً لم تتزوج، فقال: زه وأمر له بثمانية آلاف درهم، وقال: اكتبوا فى الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل. وقال حكيم: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت. وقال عمر رضى الله تعالى عنه: أكثروا لهن من قول لا، فإن نعم تغريهن على المسألة، قال: استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.

ومما قيل فى الباءة: ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه: قال هو نور وجهك، ومخ ساقك، أفلل منه أو أكثر. وقال معاوية رضى الله تعالى عنه: ما رأيت نهمًا فى النساء إلا عرفت ذلك فى وجهه. وخلا تمام بجارية له فعجز عنها. فقال: ما أوسع حرك، فأنشأت تقول:

أنـت الفـداء لمنْ قـد كـان يملـؤه ... ويشـتكى الـضـيق منـه حين يـلقـاه

وقال آخر:

شفاء الحب تقبيل ولمسٌ وسحبٌ بالبطون على البطون
ورهز تذرف العينان منه وأخذٌ بالمناكب والقرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقيل: هى مع زوجها فى القيطون، فسمعت شهيقا، وشخيراً لم أسمع مثله ثم خرجت إلى وجبينها يتصبب عرقاً، فقلت لها: ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها، فقالت: إن الخيل تشرب بالصفير. وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها، فأجابها يقول:

أنا شيخ ولى امرأة عجوز تراودنى على ما لايجوز
وقالت رقّ أيرك مذ كبرنا فقلت بل قد اتسع القفيز

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخاصمني تأتيني بشفيع لا أقدر على رده. وأتى رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقال: إن لى امرأة كلما غشيتها تقول قتلتنى، فقال: اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصح بدناً وأنقى جلداً وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير، وهى أكثرها سفاداً، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس: فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال: قال عمي للرشيد فى بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغنى أن رجلاً من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك، وإنما لايجوز للرجل غير أربعة، قال يا أمير المؤمنين: كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهن يوماً، فوجدهن متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن اذهبى. فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح. فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعدِّدة أياديهما طالق، فقالت الرابعة، وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق. فقال لها، وأنت طالق أيضاً،فسمعته جارة له، فأشرفت عليه، وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك فى ساعة واحدة، فقال لها، وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازنى بعلك، فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيد من ذلك، وطلق رجل امرأته، فما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر إنى والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلنى عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيهاً وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا ممنع. وقال رجل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعها نفسه: قال الهيثم بن عدى: كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عم له، فطلقها فتبعتها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع، فكتبت إليه تقول:

إن كنت ذا حاجةٍ فاطلب لها بدلاً إنَّ الغزال الذى ضيّعت مشغولُ

فكتب إليها يقول:

إن كان ذا شغلٍ فالله يكلؤه فقد لهونا به والحبل موصول
وقد قضينا من استظرافه وطراً وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ولك عشرة آلاف درهم، قال: أقبضنيها، فأمر له بها، فلماقبضها قال له: هات

رسالتك،قال: ائتها، فأنشدها:

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ ولاحتّى القيامة من تلاقِ
بلى ولعلّ دهراً أنْ يواتى بموتٍ من خليلك أو فراقِ

قال، فأتاها أشعب، فاستأذن عليها، فأذنت له، فدخل، فقالت له: مابدا لك فى زيارتنا يا أشعب؟ فقال: ياسيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواريهـا: عليكن بهذا الخبيث فقال: ياسيدتى إنه دفع إلىّ عشرة آلاف درهم، فهى لك، واعتقينى لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: ياسيدتى فاجعلى لى جعلاً قالت: لك بساطى هذا، قال: قومى عنه، فقامت. فأخذه، وألقاه على ظهره، وقال: هاتى رسالتك، فقالت:

أتبكى على سعدى وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة فقال لأشعب: اختر منى إحدى ثلاث إما أن اقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر. وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك، فتحير أشعب وأطرق ملياً ثم قال: يا سيدى ما كنت لتعذب عيناً نظرت إلى سعدى،فتبسم وخلى سبيله، وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار. ثم ندم على طلاقها، وقال:

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقةٌ نوار
فأصبحت الغداة ألوم نفسى بأمرٍ ليس لىَ فيه اختيار
وكانت جنّتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكت بها يمينى لكان علىَّ للقدر الخيار

وممن طلّق امرأته، فتبعتها نفسه فندم قيس بن ذريح، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشأ يقول:

فنى صبرى وعاودونى رداعى وكان فراق لُبنَى كالخداع
تكنّفنى الوشاة فأزعجونى فياللناس للواشى المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسى على أمرٍ وليس بمستطاع
كمغبون يعضُّ على يديه تبيّن غبنه عند البياع

وحدث العتبى قال. جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتى هذه شجّتنى فسالها عبد الرحمن، فقالت: نعم يا مولاى غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر من يدى على رأسه وليس عندى علم ولا يقوى بدنى على القصاص، فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال يامولاى: إن صداقها على أربعة آلاف درهم، ولاتطيب نفسى بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها، قال: نعم، قال: هى لك، قال:فهى إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن احبى علينا نفسك، وأنشأ يقول:

يا شيخ يا شيخ من دلأك بالغزل قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها فاعمدْ لنفسك نحو القرّح والذلل

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها

قد أنزل الله تعالى فى الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فكان من المسلمين من شارب، ومن تارك إلى أن شرب رجل، فدخل فى الصلاة فهجر، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضى الله تعالى عنه، فأخذ بلحى بعير وشج به رأس عبد الرحمن ابن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائن بالقليب قليب بدر ... من الفتيان والعرب الكرام

أيوعدنى ابن كبشة أن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

أيعجز أن يردّ الموت عنّى ... وينشرنى إذا بليت عظامى

ألا من مبلغ الرحمن عنى ... بأنى تاركٌ شهر الصيام

فقلْ لله يمنعنى شرابى ... وقل لله يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه، فرفع شيئاً كان فى يده، فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فانزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة: ٩١]. فقال عمر رضى الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لايدخل الجنة مدمن خمر». وقوله ﷺ: «أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال». وممن تركها فى الجاهلية عبد الله بن جدعان، وكان جواداً من سادت قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى، فضربه على عينه، فأصبحت عين أمية مخضرة فخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت. فألح عليه، فقال: ألست ضاربها بالأمس. فقال: أو بلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر علىَّ حرام لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

وممن حرمها فى الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته أو لأخته، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبرالقصة، فحرم الخمر على نفسه، وممن حرمها فى الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة، فجعل يتناول القمر ويقول: والله لا أبرح حتى أنزله، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ويقع على وجهه، فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا؟ فأخبروه بالقصة. فقال: والله لا أشربها أبداً، وقيل للعباس بن مرداس: لمَ تركت الشراب، وهو يزيد فى سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم. ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده، فأعجبه إنشاده وشعره روصله، ثم دعا بالطعام، فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين جلدى أسود، وخلقى مشوه ووجهى قبيح، وتكفينى مجالستك، ومؤاكلتك، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى وأنا أكره أن يدخل عليه ماينقصه، فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه: هل لك فى الشراب؟ قال يا أمير المؤمنين: لا خلاف لما أمرت ولكن أنا أمنع أهل عملى منه واكره أن أمنعهم عن شىء ولا أمتنع منه. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقيل لاعرابى: لمَ لاتشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلى. وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامى، قال: أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر؟ قال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا ياقومي ليس في الخمر رفعةٌ فلا تقربوا منها فلست بفاعل
فإنّي رأيت الخمر شيناً ولم يزلْ أخو الخمر دخّالاً لشر المنازل

وقال الحسن: لو كان العقل يشترى لتغالى الناس فى ثمنه، فالعجب ممن يشترى بماله ما يفسده، وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبائل الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر». وقال بعضهم:

بلوت نبيذ الخمر فى كل بلدةٍ فليس لإخوان النبيذ حفاظ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرّم معظم إذ زلت بك القدم، فجروك على شوك السلم، فاحفظ قول القائل فيه:

وكلُّ أناس يحفظون حريمهم وليس لأصحاب النبيذ حريم
فإن قلتُ هذا لم أقلْ عن جهالةٍ ولكنني بالفاسقين عليم

وللأعرج الطائى:

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى

وقال الصفدى:

دع الخمر فالراحات فى ترك راحها وفى كأسها للمرء كسوة عار
وكم ألبستْ نفسُ الفتى بعد نورها مدارع قارٍ فى مدار عقار

نكتة: اجتمع نصرانى ومحدث فى سفينة، فصب النصرانى خمراً من زق كان معه فى شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصرانى: جعلت فداءك إنما هى خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر، فشربها المحدث على عجل، وقال للنصرانى: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودى، والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق، فجاء كلب فلحس شفتيه، فقال: خدمك بنوك ولاعدموك، فبال على وجهه، فقال: وماء حاراً أيضاً بارك الله فيك، وقيل: حالة السكارى ثلاث: قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبح، وحية رويت فنامت. ومر عقال الناسك بمرداس بن خدام الأسدى، فاستسقاه لبناً، فصب له خمراً وعلاه بلبن فشربه، وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام فقال:

سقيت عقالاً بالعشية شربةً فمالت بعقل الكاهلىُّ عقالى
قرعت بأم الخلِّ حبّة قلبه فلم ينتعش منها ثلاث ليالى

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.

فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول: فى النهى عن المزاح

قال رسول الله ﷺ: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن على: ما مزح أحد مزحة إلا مجّ الله من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح، فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدور، وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم. وقال آخر: لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح، وعن محمد ابن المنكدر قال: قالت لى أمى: لاتمازح الصبيان تهن عندهم، وخرج أعرابى بالليل، فإذا بجارية جميلة فراودها، فقالت: أمالك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك، فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا، وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها، فقال لها: إنما كنت مازحاً، فقالت:

فإيّاك إيّاك المزاح فإنّه يُجَرِّئ ... عليك الطفل والرجلَ النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورث بعد العز صاحبه ذلاً

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به، ومما روى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحداً.

الفصل الثانى: فيما جاء فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهاً، والله تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]. وقيل: إن يحيى بن زكريا لقى عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ما لى أراك لاهياً كأنك آمن، فقال له عيسى: ما لى أراك عابساً كأنك آيس، فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحى، فأوحى الله إليهما إن أحبكما إلىّ أحسنكما ظناً بى، ويروى أن أحبكما إلىّ الطلق البسام. وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجارية: خلقنى خالق الخير وخلقك خالق الشر. فبكت الجارية، فقال عمر: لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر، قال الشاعر:

إنّ الصديق يريد بسطك مازحاً ... فإذا رأى منك الملالة يقصرُ
وترى العدو إذا تيقّن أنه ... يؤذيك بالمزح العنيف يكثّرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولايقول إلا حقاً، فمن مزحه ﷺ أنه جاء رجل، فقال: يارسول الله احملنى على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال يارسول الله: إنه لايطيقنى فقال له الناس: ويحك، وهل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقى زوجك ففى عينيه بياض، فسعت إلى زوجها مرعوبة، فقال لها: مادهاك؟ قالت: إن النبى ﷺ قال لى إن فى عينيك بياضاً، فقال: نعم والله وسواداً، وأتته أيضاًعجوز أنصارية، فقالت: يارسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الجنة، فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لايدخلها عجوز، فولت المرأة تبكى، فتبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: سابقت رسول الله ﷺ فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته، فسبقنى، فضرب بكتفى، وقال: هذه بتلك، وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى ولايعيب على. وسئل النخعى: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان فى قلوبهم

مثل الجبال الرواسى، وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك، قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك، فمن مزحه إنه مر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهرى وهو ضرير، فقال: له قدنى حتى أبول، فأخذه بيده حتى أتى به إلى المسجد، فأجلسه فى مؤخره،فصاح به الناس إنك فى المسجد، فقال: من قادنى؟ قالوا: نعيمان، قال لله علىَّ نذر أن أضربه بعصاى هذه إن وجدته، فبلغ ذلك نعيمان، فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك فى نعيمان، قال: نعم،قال: ها هو قائم يصلى وأخذه بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى، وقال: هذا نعيمان، فعلاه بالعصا، فصاح الناس: أميرالمؤمنين، فقال: من قادنى؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها، وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا، وربما لم يقم حتى يضحكنا. وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ويقص عليهم حتى يبكيهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم.

فمن لطائفه انه حكى يوماً بعدما فرغ من ميعاده قال: سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع فى قلبى أن أتعلمه، فدخلت فى سوق الكتبية واشتريت كتاباً فى التصحيف، فأول ما تصحفته وجدت فيه سكباج تصحيفه شك تاج، فرميت الكتاب من يدى وحلفت أنى لا أشتغل به أبداً، فضحك الناس حتى غشى عليهم. ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فوجده يتأوه، فقال يا أمير المؤمنين: لو ادخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت؟ فقال: لست بصاحب لهو، فقال: ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه، فبلغ منى ما ترى، فقال: إن بديحاً مولاى أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح أرق رجلى، فقال يا مولاى أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لايسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية، أين فلانة ائتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل، فقال له بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى، فقال: تحمل، فحملت،فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه، ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلى العامرية أصبحت ... على البعد منّى ذنبَ غيرى تنقَمُ

فقال: ويلك ما تقول؟ فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها علىَّ، فقال: كيف، وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط، وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أنبئت أنَّ فتاة كنت أخطبها ... عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

وبما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه: أما النهى عنه، فقد قيل: إن علياً كرَّم الله وجهه مر بقوم يلعبون الشطرنج، فقال لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟. وكان أبو القاسم الكسروى يقول: لاترى شطرنجياً غنياً إلا بخيلاً، ولا فقيراً إلا طفيلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجى فصار يقول: شاه مات شاه مات مكان الشهادتين حتى مات. وأما الترخيص فيه، فقد سئل الشعبى عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل، وقال بعضهم: كنا فى السجن مع ابن سيرين، فكان يرانا ونحن نلعب الشطرنج، فيقوم، فيأتى ويقول: ارفع الفرس ارفع كذا افعل كذا، ولايعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب الشطرنج مع صديقى فى بيته حين خفت الحجاج. ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرضٌ مربّعةٌ حمراء من أدمٍ ... ما بين حِرّين معروفين بالكرمِ

تذكّر الحرب فاحتالا لها فطناً ... من غير أن يأثما فيها بسفك دم

هـذا يغـــــيــــــر علـى هـذا وذاك علـى | هذا يـغـــيـــــر وعين الحـــــزم لـم تنـم
فــــانـظر إلى هـمم جــــاشت بمعـــركـــة | فـى عـــــســـكـريـن بـلا طبـلٍ ولا عـلـم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كـانوا يرون بقتال، فـإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعـبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال. وقيل: إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر والقطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء فى لعب الغلمان ما حكى أن غلمـاناً من أهل البحرين خرجوا يعلبون بالصوالجة وأسـقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره، فأخـذها، فجعلوا يطلبونها منه فأبى، فقال غلام منهم: سـألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا، فأبى لعنه الله وسب رسول الله ﷺ فأقـبلوا عليه بصوالجهم، فمازالوا يخبطونه حـتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضى الله عنه فـو الله ما فرح بفتح ولا غنيمة كـفرحته بقتل الغلمان لذلـك الأسقف، وقال: الآن عز الإسلام إن أطفالاً صغاراً شـتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا وأهدر دم الأسقف، واللـه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في النوادر وفيه فصول

الفصل الأول من هذا الباب: في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى، فأخرج له قرص شعير، فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: بارك الله لك في موضعك،ثم سقاه مرة أخرى، فشرب فقال: يا أعرابي: أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: لا. أنا من قواد أمير المؤمنين، قال: رحبت بلادك وطاب مرادك، ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال يا أعرابي: أتدرى من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال: لا، ولكني أمير المؤمنين. قال: فأخذ الأعرابي الركوة، فوكأها[1] وقال: إليك عني فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله، فضحك المهدي حتى غشي عليه، ثم أحاطت به الخيل، ونزلت إليه الملوك والأشراف، فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك، ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل. ووجد أعرابي يأكل ويتغوط ويفلي ثوبه، فقيل له في ذلك، فقال: أخرج عتيقًا وأدخل جديداً، وأقتل عدواً. وقيل لبعض الأعراب: إن شهر رمضان قدم، فقال: والله لأبددن شمله بالأسفار. وسمع أعرابي قارئًا يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقًا﴾. [التوبة: ٩٧] فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. [التوبة: ٩٩]. فقال: لا بأس هجا ومدح. هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إني مدحته	وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه: أفرجوا لأخيكم، فقال الأعرابي: لا حاجة لي بإفراجكم إن أطنابي طوال يعني سواعده، فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد، فقال يا أخا العرب: أظن أن طنبًا من أطنابك قد انقطع. ورؤي أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط، وكلما غطس عقد عقدة، فقيل له: ما هذا؟ قل: جنابات الشتاء أقضيها في الصيف. وسرق أعرابي غاشية من على سرج ثم دخل المسجد يصلي فقرأ الإمام: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [الغاشية: ١] فقال: يا فقيه لا تدخل في الفضول، فلما قرأ: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ [الغاشية: ٢]، قال: خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له: يا أبا أمامة أتقوم الليل؟ فقال: نعم، قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام. وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلي، وكان اسمه موسى، فقرأ الإمام، ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧] ، فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لي إبل، فخرجت في طلبها، وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حي من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتف بكساء، وهو يرتعد من البرد وينشد:

أيا رب إن البرد أصبح كالحًا	وأنت بحالي يا إلهي أعلم
فإن كنت يومًا في جهنم مدخلي	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي: فتعجبت من فصاحته، وقلت: يا شيخ أما تستحي تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير، فأنشد يقول:

أيطمع ربي في أن أصلي عاريًا	ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عاريًا	عشاءً ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة	وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسني ربي قميصًا وجبة	أصلي له مهما أعيش من العمر

---

(١) وكأها: ألقاها ورمى بها.

قال: فأعجبني شعره وفصاحته، فنزعت قميصًا وجبة كانا علي ودفعتهما إليه، وقلت له: البسهما وقم، فاستقبل القبلة، وصلى جالسًا وجعل يقول:

إليك اعتذاري من صلاتي جالسًا	على غير طهر مومئًا نحو قبلتي
فمالي ببرد الماء يا رب طاقة	ورجلاي لا تقوى على ثني ركبتي
ولكنني أستغفر الله شاتيًا	وأقضيكها يارب في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم	بما شئت من صفعي ومن نتف لحيتي

قال: فعجبت من فصاحته، وضحكت عليه وانصرفت. وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام: ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا﴾ [الملك: ٢٨]. فقال الأعرابي: أهلكك الله وحدك. إيش كان ذنب الذين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك. وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون، فقرأ الإمام: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء: ٣]. وجعل يرددها، فجلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ. وصلى اعرابي خلف الإمام، فقرأ الإمام: ﴿ألم نهلك الأولين﴾. [المرسلات: ١٦]، وكان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾. [المرسلات: ١٧]. فتأخر، فقرأ: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ [المرسلات: ١٨]. وكان اسم البدوي مجرمًا، فترك الصلاة وخرج هاربًا، وهو يقول: والله ما المطلوب غيري، فوجده بعض الأعراب، فقال له: مالك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين والآخرين وأراد أن يهلكني في الجملة، والله لا رأيته بعد اليوم. وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندائمه فاحتاج إلى بيت الخلاء، فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرط ضراطًا شنيعًا، فضحكوا عليه، فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائط	تراخت بلا شك مصاريع فتحته
فمن كان ذا عقل فيعذر ضارطًا	ومن كان ذا جهل ففي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزبان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب وعوى الذئاب ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال، ثم احتال حتى دخل موضعًا بقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا، فعوى عوى الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هاربًا، ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل، فاقتحموا عليه وأخرجوه عويانًا، فلما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكًا شديدًا، وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلبًا وذئبًا وحمارًا وفرسًا لما غضب عليّ الملك قال: فأمر الملك أن يخلع عليه وأن يرد إلى مرتبته الأولى. ومن الملح قول بعض الشعراء:

أيا من فاق حسنًا واعتدالاً	وولج في عطيته الشبابا
أما في مال ردفك من زكاة	فتدخل فيه لي هذا النصابا

وحكى الأصمعي أن عجوزًا من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذًا، فسقوها قدحًا، فطابت نفسها، فتبسمت فسقوها قدحًا آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثًا، فقالت خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربن النبيذ؟ قالوا: نعم، قالت: زنين ورب الكعبة، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه، وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ: ﴿إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ [نوح: ١]، ثم وقف وجعل يردده، فقال الأعرابي أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام، فقرأ: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ [يوسف: ٨٠]، ووقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل نحن وقوفًا إلى الصباح، ثم تركه وانصرف. ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث، فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث: حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه

عليه الصلاة والسلام: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه أيضًا: ليس من البر الصوم فى السفر، وقيل لأعرابية: ما صفة الأير عندكم؟ قالت: عصبة ينفخ فيها الشيطان، فلا يرد أمرها. وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجنى إلى ذلك، قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره فى قشر بيض الذر واكتحل به ينفعك، فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية وقال: خذ هذه فى لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك. فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته. وخرج معن بن زائدة فى جماعة من خواصه للصيد، فاعترضهم قطيع ظباء، فتفرقوا فى طلبه، وانفرد معن خلف ظبى حتى انقطع عن أصحابه، فلما ظفر به نزل، فذبحه، فرأى شيخًا مقبلاً من البرية على حمار، فركب فرسه واستقبله، فسلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة، وقد أخصبت فى هذه السنة فزرعتها مقثأة، فطرحت فى غير وقتها، فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور، وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور، قال: فكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال: لك كثير. قال: خمسمائه. قال: فإن قال: لك كثير: قال: ثلاثمائة. قال: فإن قال لك كثير. قال: مائة، قال: فإن قال لك كثير. قال: خمسين، قال: فإن قال لك كثير. قال: فلا أقل من الثلاثين، قال: فإن قال لك كثير. قال: أدخل قوائم حمارى فى حر أمه وأرجع إلى أهلى خائبًا. فضحك معن منه، وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل فى منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به على، فأتى بعد ساعة، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته، وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر فى دسته، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذى أتى بك يا أخا العرب؟ قال: أملت الأمير، وأتيته بقثاء فى غير أوان، فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير، فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميشومًا على، ثم قال: خمسمائة دينار، قال: كثير فما زال إلى أن قال: خمسين دينار، فقال له: كثير، فقال: لا أقل من الثلاثين، فضحك معن، فعلم الأعرابى أنه صاحبه، فقال: يا سيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب وها معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على فراشه، ثم دعا بوكيله، فقال: أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائة دينار وخمسين دينارًا وثلاثين دينارًا، ودع الحمار مكانه، فتسلم الأعرابى المال وانصرف.

الفصل الثانى: فى نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا فى دهليز عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ن والقلم فى أى سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غلبت الترك فى أدنى الأرض، فقال له: الروم. فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يومًا: كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا عالم به، فقيل له هذه الآية فى أى سورة: الحمد لله لا شريك له، فقال له: فى سورة الحمد، فضحكوا عليه، وجاء رجل إلى فقيه، فقال: أفطرت يومًا فى رمضان، فقال: اقض يومًا مكانه، قال: قضيت وأتيت أهلى وقد علموا مأمونية، فسبقتنى يدى إليها، فأكلت منها، فقال: اقض يومًا آخر مكانه، قال: قضيت، وأتيت أهلى وقد عملوا هريسة، فسبقتنى يدى إليها، فقال: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك. وجاء رجل إلى بعض الفقهاء، فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل وإنى توضأت وصليت، فبينما أنا فى الصلاة إذ أحسست ببلل فى سراويلى يتلزق، فشممته فإذا رائحته كريهة خبيثة، فقال الفقيه: عافاك الله خريت بإجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تفوح روائحى، فهل يجوز لى أن أصلى فى ثيابى؟ قال: نعم لكن لا كثر الله فى المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه، فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه. وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرقع فى كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة، فقال له: أصلح السقف، فإنه يقرقع، قال: لا تخف، فإنه يسبح الله تعالى قال: أخشى أن تدركه رقة فيسجد.

الفصل الثالث: في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة. فقرأ يومًا في المصحف. ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: ٦] ، فقال لغلامه: اطلق البغلة ورزقها على الله، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان وقشور الرمان وقشور البطيخ، وقمامات الطريق، فماتت، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم، فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا: ليس لنا شئ نرتزق منه إلا من مثل هذا، وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة، العدالة، والتزويج، والعقود، والوراقة، والسجن، والإطلاق، وحاكمية الحكم، وأجرة اليمين، والتدريس، والأوقاف، فقال لهم القاضي: أمثلي يقال هذا، وأنتم لكم اثنا عشر بابًا من المنافع، منها: الوسخ، والزفر، والهلع، والولع، وبيت النبذة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الصياح، وثمن الإصلاح، وما تروحوا من هذه البغلة بلا شئ، جلدها للدباغين وذنبها للغرابلية ومعرفتها للشعار وتطبيقتها للبيطار، قال: فتقدم أحدهم إليه، وقال: بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشئ ولا تدعنا نروح بلاش.

تفسير هذه الألفاظ: الزفر: النساء الزانيات، والوسخ: المراحيض. والهلع: جباية الأسواق، والولع: القمار، وبيت النبذة: محل المزر، وشركة النفوس: كل من حمل ميتًا، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه. وسلب الشطار: كل من شنقوه لهم سلبه. وولي يحيى بن أكثم قاضيًا على أهل جبلة، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة، فقال لأهل جبلة: إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير. فوعدوه بذلك، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه، فسرح القاضي لحيته، وكبر عمته وخرج، فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي، فقال يا أمير المؤمنين: نعم القاضي قاضي جبلة عدل فينا، وفعل كذا وكذا. وجعل يثني على نفسه، فلما رآه أبو يوسف عرفه، فضحك فقال له الرشيد: مم تضحك؟ فقال يا أمير المؤمنين: المثني على القاضي هو القاضي، فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض، ثم أمر بعزله فعزل. وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي، فأنكر ولده ذلك، فقال أبوه: يا سيدي أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد: إني أقرأ القرآن، فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب الربابا ... بعدما شابت وشابا
إن دين الله حق ... لا أرى فيه ارتيابًا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه، فقال القاضي، وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي:

فارحمي مضنىً كئيبًا ... قد رأى الهجر عذابًا

ثم قال القاضي: قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبي صمصامة القاضي، فادعى أحدهما على الآخر طنبورًا، فأنكر فقال للمدعي: ألك بينة؟ فقال: لي شاهدان فأحضر رجلين شهدا له، فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدي عن صناعتهما، فأخبر أحدهما: أنه نباذ، وقال الآخر: أنه قواد، فالتفت القاضي إلى المدعى عليه، وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين؟ ادفع إليه طنبوره. وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالوذج واللوزينج أيهم أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد بإحضارهما، وقدما بين يدي أبي يوسف، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته. وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدي إن امرأتي قحبانًا، فقال له القاضي: طلقها، فقال: عشقانًا، فقال: قودهانا، وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين، فجعل القاضي يميل إليها بالحكم، فقال الرجل: أصلح الله القاضي حجتي أوضح من هذا النهار، فقال له القاضي: اسكت يا عدو الله، فإن الشمس أوضح من النهار، قم لا حق لك عليها، فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفي خيرًا فقد قويته، فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتي خيرًا فقد أوهيتها،

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضى تبغى الفرقة، وزعـمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاضى: يا سيدى لا تعجل على حتى أقص عليك قصـتى، إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر وفيها قصـر عالٍ، وفوق القصر قبة عالية، وفـوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل، وإن الجمل يطأطئ برأسه ليـشرب من البحر، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخـوف، فلما سمع القـاضى ذلك بال فى فراشه وثـيابه وقال: يا هذه أنا قـد أخذنى البول من هول حـديثه، فكيف من يرى الأمر عيانًا.

وحكى أن تاجرًا عبر إلى حـمص، فسمع مؤذنًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشـهدون أن محمدًا رسول الله، فـقال: والله لأمضـين إلى الإمام وأسأله، فـجاء إليه، فـرآه قد أقام الصـلاة وهو يصلى على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعذرة، فـمضى إلى المحتسب ليخبـره بهذا الخبر، فسـأل عنه فقيل: إنه فى الجامع يبيع الخمـر، فمضى إليه، فـوجده جالسًـا وفى حجره مصـحف وبين يديه باطية مملوءة خـمرًا وهو يحلفُ للناس بحق المصحف أن الخـمرة صرف ليس فـيها مـاء، وقد ازدحمت الناس عليـه وهو يبيع، فقـال: والله لأمضينّ إلى القـاضى وأخبره، فـجاء إلى القاضى، فدفع الباب، فانفتح فـوجد القاضى نائمًا على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحـشة، فقال التاجر: قلب الله حمص، فـقال القاضى: لم تقـول هذا؟ فأخبـره بجميع مـا رأى. فقال: يا جـاهل أما المؤذن، فإن مـؤذننا مرض فاستأجرنا يهوديًا صبيـًا يؤذن مكانه، فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام، فإنهم لما أقامـوا الصلاة خرج مسرعًا، فتلوثت رجله بالعذرة وضاق الوقت، فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى، ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلّا كرم، وعنبه ما يؤكل، فـهو يعصره خمرًا ويبيعه ويصرف ثمنه فى مـصالح الجامع، وأمّا الغلام الذى رأيته، فـإن أباه مات وخلف مالاً كـثيرًا وهو تحت الحـجر، وقد كبـر وجاء جمـاعة شهـدوا عندى أنه بلغ، فأنا أمتحنه، فخرج التاجر من البلد، وحلف أنه لا يعود إليها أبدًا.

الفصل الرابع: فى نوادر النحاة

وقف نحوى على بياع يبيع أرزًا بعسل وبقلاً بخل، فقال: بكم الأرز بالأعـسل والأخلل بالأبقل؟ فقال: بالأصفع فى الأرؤس والأضرط فى الأذقن. ووقع نحوى فى كنيف، فجاء كناس ليـخرجه، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا، فقال له الـنحوى: اطلب لى حبلاً دقـيقًا وشدنى شدًا وثيـقًا واجذبنى جذبًا رفـيقًا، فقـال له الكناس: امرأتى طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف. وكان لبعضهم ولد نحوى يتـقعر فى كلامه. فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتـمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعو لك فلانًا أخـانا، قال: لا إن جاءنى قتلنى، فقـالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم، فـدعوه، فلما دخل عليـه قال له يا أبت: قل لا إله إلا الله تدخـل بها الجنة وتفوز من الـنار، يا أبت: والله ما أشغـلنى عنك إلا فلان، فـإنه دعانى بالأمس، فـأهرس، وأعدس، واستـبـذج، وسكبج، وطهبج، وأفـوج، ودجج، وأبصل، وأمضر، ولوزج، وافلوزج، فصاح أبوه غمضونى، فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى.

وجاء نحوى يعود مريضًا، فطرق بابه، فخرج إلـيه ولده فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجليه، قال: لا تلحن قل: رجلاه، ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه. قـال: لا تلحن قل: إلى ركبتيه. ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله فى نظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه. وعاد بعضهم نحويًا، فقال: ما الذى تشكوه؟ قال: حمى جاسية، نارها حامية، منها الأعضاء واهية، والعظام بالية، فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس: فى نوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعـلم صبيان وعنده عصا طويلة وعـصا قصيرة، وصولجان وكـرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندى صـغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فـيصفر لى بضرطة، فأضـربه بالعصا القصيرة، فـيتأخر، فأضربه بالعصـا الطويلة، فيفر من بين يدى فأضع الكرة فى الصولجـان وأضربه فأشجه، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألواح فأجـعل الطبل فى عنقى والبوق فى فـمى وأضرب الطبل وأنفخ فى البـوق فيـسـمع أهل الدرب ذلك، فيسـارعون إلى ويخلصونى منهم.

وحكي الجاحظ أيضًا قال: مررت على خربة. فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب. فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم. وجعل يلطمه ويسبه، فقلت: عرفني خبره. فقال: هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظن أنه الكلب فيخرج فأمسكه. وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه فقال له: إما أن تنتهي وإلا فعلت بأمك. فقالت يا معلم: هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينه ويتوب، فقام وفعل بها أمام ولدها، وقال الجاحظ: رأيت معلمًا في الكتاب وحده فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت: أحب أن أراهم فقال: ما أشير عليك بذلك فقلت: لابد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى. وقال بعضهم: رأيت معلمًا وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عض أذني، فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذي عض أذن نفسه، فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه. وقال بعضهم: رأيت معلمًا وهو يصلي العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون، وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

وحكي عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتابًا في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك، فدخلت يومًا مدينة، فوجدت فيها معلمًا في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ورحب بي فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يومًا لزيارته، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده، فسألت عنه، فقيل: مات له ميت، فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إلى جارية، وقالت: ما تريد؟ قلت سيدك، فدخلت، وخرجت، وقالت: باسم الله، فدخلت إليه، وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت. فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: أخاك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي: فقلت في نفسي: هذه أول المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها، فقال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أني كنت جالسًا في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة	ردي علي فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به	فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو	فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار، فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتابًا في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس: في نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: إني نبي كريم، قال: فأي شئ يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت، قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردًا في لحظة واحدة، فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة. وتنبأ إنسان، فطالبوه بحضرة المأمون

بمعجزة، فقال: أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب. قالوا: رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت، فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا فدعها تذوب. فقال: لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعبانًا. فضحك المأمون وأجازه. وتنبأ رجل في أيام المعتصم، فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم، قال: وإلى من بعثت؟ قال: إليك، قال: أشهد أنك لسفيه أحمق، قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشئ، وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين، قال: وما براهينه؟ قال: أضرمت له نارًا وألقى فيها، فصارت عليه بردًا وسلامًا، ونحن نوقد لك نارًا ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك، قال: أريد واحدة أخف من هذه، قال: فبراهين موسى، قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق، وأدخل يده فأخرجها بيضاء. قال: وهذه على أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هي؟ قال: إحياء الموتى. قال: مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة، فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصدق. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخًا في هذه الساعة. قال: أمهلني ثلاثة أيام: فقال ما أريده إلا الساعة. قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين، إذا كان الله تعالى الذي خلق السموت والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام، فضحك منه ووصله. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فلما مثل بين يديه. قال له: من أنت؟ قال: أنا أحمد النبي. قال: لقد ادعيت زورًا، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي، فهل تذمه أنت، فضحك المأمون منه وخلى سبيله. وتنبأ آخر في زمن المتوكل، فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فما الدليل على صحة نبوتك قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾. [النصر: ١]. وأنا اسمي نصر الله، قال: فما معجزتك؟ قال: ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته، فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي الله، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به. فضحك المتوكل وأطلقه. وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسرى وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾. [الكوثر: ١]. وقلت: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب، فمر به خلف بن خليفة الشاعر، فضرب بيده على الخشبة وقال: إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة، فقال له: ألك علامة على نبوتك؟ قال: علامتي أني أعلم ما في نفسك، قال: وما في نفسي؟ قال: في نفسك أني كاذب، قال: صدقت، ثم أمر به إلى السجن، فأقام فيه أيامًا. ثم أخرجه، فقال: هل أوحي إليك بشئ؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبوس. فضحك منه وخلى سبيله. وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل، فقال لها: أنت نبية؟ قالت: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه ﷺ قال: لا نبي بعدي، قالت: فهل قال لا نبية بعدي؟ فضحك المتوكل وأطلقها، وتنبأ رجل يسمى نوحًا، وكان له صديق نهاه، فلم يقبل. فأمر السلطان بقتله، فمر به صديقه، فقال له يا نوح: ما حصلت من السفينة إلا على الصاري.

الفصل السابع: في نوادر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل، فقال له صغير من باب الدار: بورك فيك، فقال: قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيرًا، ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح الله عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصبر لعلي جئت أدعوك إلى وليمة. وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إني جائع، فقالوا له: كذبت، فقال جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم. ووقف سائل على باب، فقالوا: يفتح الله عليك، فقال كسرة، فقالوا: ما نقدر عليها، قال: فقليل من بر أو فول أو شعير، قالوا: لا نقدر عليه، قال: فقطعة دهن أو قليل زيت أو لبن. قالوا: لا نجده، قال: فشربة ماء. قالوا: وليس عندنا ماء، قال: فما جلوسكم ها هنا قوموا فاسألوا، فأنتم أحق مني بالسؤال.

الفصل الثامن: فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن: ما نسمع أذانك، فلو رفعت صوتك، فقال: إنى أسمع صوتى من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذنًا أذن ثم غدا يهرول، فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذانى أين بلغ. واختصم رجلان فى جارية فأودعاها عند مؤذن. فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التى وضعت عندى قيل إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيبًا. وسمع مؤذن حمص يقول فى سحور رمضان: تسحروا قد أمرتكم وعجلوا فى أكلكم قبل أن أوذن، فيسخم الله وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة. فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضى، فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفترًا وتصحفه وقال: وعليكم السلام، فعذروا المؤذن. وسمعت امرأة مؤذنًا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم، فقالت النوم خير من هذه الصلاة. ومر سكران بمؤذن ردئ الصوت فجلد به الأرض وجعل يدوس بطنه، فاجتمع الناس فقال: والله ما بى رداءة صوته، ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع: فى نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية[1]: تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتًا وراء الباب فقال لزوجته: إنى أسمع غاغة فى البر حلى قلوعى واعملى أسفيرتى على جامورى وقدمى إلى إسقالة الوجل، وقيميني بمدرة، فامتثلت كلامه، فنزل وجلس على مصطبته وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه ووقفت الخبرتية حواليه، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة وعمامته فى حلقه والدم نازل من أنفه وهو يصيح بصوت عال: أنا بالله وبالوالى، فقال: تعال يا شيخ مالى أرى أرطمونك فى حلقك وشبورتك مكسورة وأنت بترلع ماء متغير وتقيم الهليلا فى الساحل دخل عليك شرد غربى وإلا دخلت على بواجى، فقال الشيخ: والله يا سيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا، فقال: يا أولاد جيبوا غريمو بخنسوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه، فامتثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر أنت الذى قطعت القلس وخرجت فى الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته وكسرت استقالته، لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة وعلقتك فى الصارى، فلما سمع الرجل كلام الوالى علم أنه من أولاد المعيشة، فقال له بهمترة النواتية: والله يا خوند هو كار زنى فى معاشى اجصطن على الوحشة وأنا عايم فى الليل إلا وشرد جانى من الشرق كايس هز أطرافى وكسر شابورتى وقطع لبانى وها هو يحمد الله على بر السلامة، وإن كن انصلح فيه شئ فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط. أسد فتحه وأعيد له وسقه وأخليه يروح فى طريقه، فقال له الوالى: أنت تقذف فى وجهى وتطرح مقاديفك حتى تعبر على الحجر، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه وعروا مقاديفه، ويلو شيبنة اللبان وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب المية على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برًا وجنب جوا قدام الخن وراء الصارى، فأكل علقة من كعبه إلى أذنه، فقالت النواتية: يا خوندا هو خنسفت عليه الطمية البحرية؟ قال: مدراتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوندا سألتك بهبوب الرياح وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان فى الخلافى، وأنت حافى فى الصيافى، ويكفيك شر الأربعينات قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد وعياط الركاب عند قيام الموجة وبعد البر فى أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك وأقعد فى زوايدك حتى أخلى ظهرك جيفة، فقال له: والله يا خوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوثق العظيم ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعى لوح وغرقنى بالقايم، فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة واخرج فى دى الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لى يا عملات على أبوس.

---

(١) الملاح الذى يُدَبِّر السفينة فى البحر.

الفصل العاشر: في نوادر جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت: يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان، وأسلم مجوسي في شهر رمضان فثقل عليه الصيام، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصراني قال: لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذبًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص، فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطى في الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر. فقال المغفل يومًا: قد عولت على بيع النصف الذي لي، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها. وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال: لا أدري إلا أن أمها ذكرت أنه ولدتها في أيام البراغيث. وقيل لطفيلي: أي سورة تعجبك من القرآن؟ قال: المائدة. قال: فأي آية؟ قال: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ [الحجر: ٣] قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿آتنا غداءنا﴾ [الكهف: ٦٢]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ [الحجر: ٤٦]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ [الحجر: ٤٨]. وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يومًا: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال: أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك، فيدخلوني، وقيل له: أتعرف بستان فلان؟ قال: إي والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلبًا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يومًا: ما هذه الصفرة التي في لونك؟ قال: من الفترة من الصحنين. وقال: مرت بنا جنازة يومًا ومعي ابني ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء، ولا وطاء ولا خبز ولا ماء، فقال ابني: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقًا شديدًا، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرقت هذه الليلة وضاق صدري ولم أعرف ما أصنع، وكان خادمه مسرور واقفًا أمامه فضحك، فقال له: ما يضحكك استهزاء بي أم استخفافًا؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمدًا ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفًا يضحك الناس يقال له: ابن المغازلي، فتفكرت الآن في شئ من حديثه وكلامه، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: ائتني الساعة به، فخرج مسرور مسرعًا إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال: سمعًا وطاعة، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشئ يكون لك منه الربع والبقية لي، فقال له: بل اجعل لي النصف ولك النصف، فأبى فقال: الثلث لي ولك الثلثان، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم، فأبلغ وترجم فأحسن، ووقف بين يديه، فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكني أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات، فقال ابن المغازلي في نفسه، وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب؟ وظن في نفسه أن الجراب فارغ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجيبة تضحك الجلمود، فلم يضحك الرشيد، ولم يتبسم، فتعجب ابن المغازلي وضجر وخاف، فقال له الرشيد: الآن استحققت الضرب، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسرورًا شرط عليّ شرطًا واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولي فيه الثلث وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم. وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبي منها واحدة ونصيبه اثنتان، وقد أخذت نصيبي وبقي نصيبه. قال: فضحك الرشيد ودعا مسرورًا، فضربه، فصاح، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي. فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار، ورجع ابن المغازلي شاكرًا والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول: فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾. [البقرة: ١٨٦]. اختلف فى سبب نزولها، فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتمًا، وكان ذلك قبل الرخصة، فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾. [البقرة: ١٨٦]. وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قومًا قالوا للنبى ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت هذه الاية. قوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾. [البقرة: ١٨٦]. أى قبل عبادة من عبدنى. فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعى وإما أن يدخر له فى الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها». وروى أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة فى الجنة، فبينما العبد المؤمن فى قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله. فيقول ما هذا، أليس الله قد أنعم على وأكرمنى؟، فيقولون: ألست كنت تدعو الله فى الدنيا؟ هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه قد ادخر لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لابد لها من شروط، فشرط الداعى أن يكون عالمًا بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن الله تعالى لايستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنبًا لأكل الحرام ولا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: إن للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوى وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب، والخشوع، وأجنحته: الصدق، ومواقيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على النبى ﷺ: ومن شروط الدعاء: أن يكون سليمًا من اللحن، كما قال بعضهم:

ينادى ربه باللحن ليث ... كذلك إذ دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطى، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عرطبة، وهى الطنبور، ولا صاحب كوبة، وهى الطبل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء: أن يدعو الداعى مستقبل القبلة ويرفع يديه. لما روى عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ربكم حى كريم ليستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا». وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء، لما روى عن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم». وأن يخفض الداعى صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾. [الأعراف: ٥٥]. وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى قال: صليت مع أبى إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر فى الدعاء فقال: كن كزكريا ﴿إذ نادى ربه نداء خفيًا﴾ [مريم: ٣] ، وينبغى للداعى أن لا يتكلف وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع، لقوله ﷺ: «إياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم: يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل». وقيل: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة

والانطلاق. وكانوا لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات، فما مدونها، كما فى آخر سورة البقرة. وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه. فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس، إذ قال: ﴿رب انظرنى إلى يوم يبعثون﴾ [الحجرة: ٣٦]. وعن النبى ﷺ: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شئ فليقل: الحمد لله على كل حال. وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربى الأعلى الوهاب». وعن أبى سليمان الدارانى: من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريمًا.

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك وقت السحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وفى الثلث الأخير من الليل لما جاء فى الحديث: «إن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه». وفى حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء وأوقات الاضطرار، وحالة السفر والمرض، هذا كله جاءت به الأثار. قال جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ فى مسجد الفتح ثلاثة أيام، يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور فى وجهه. قال جابر: ما نزل بى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فادعو فيها فأعرف الإجابة. وفى بعض الكتب المنزلة: يا عبدى إذا سألت فاسألنى فإننى غنى وإذا طلبت النصرة فاطلبها منى فإنى قوى، وإذا أفشيت سرك فافشه إلى فإنى وفى وإذا أقرضت فأقرضنى فإنى ملى، وإذا دعوت فادعنى فإنى حفى».

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له». وقال وهب بن منبه: بلغنى أن موسى مر برجل قائم يبكى ويتضرع طويلاً فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له». قال: يا رب لم ذلك؟ قال: لأن فى بطنه الحرام. ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء: الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، والثانى: زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته، الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به، الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، الخامس: قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، السادس: قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها، السابع: قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، الثامن: قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له، التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: من آقر لله بإساءته جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته، ومن أخلص لله فى دعوته من الله عليه بإجابته. وقال على رضى الله تعالى عنه: ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء. وعن أنس رضى الله تعالى عنه (يرفعه): «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثانى: فى الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى: اللهم إنى أسألك الجنة بلا عمل عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته، ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهى لك اذل وعليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك.

ومن دعاء سلام بن مطيع: «اللهم إن كنت بلغت أحدًا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية». وقيل لفتح

الموصلي: ادع الله لنا فقـال: اللهم هبنا عطاءك ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعـاء بعض السلف: اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي فإن لم تقبل تعبي ونصبي فـلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع. وقال الحسن: ومن دخل المقابر، فقال: اللهم رب الأرواح الفانية والأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مـؤمنة أدخل عليها روحًا من عندك وسلامًا مني، كـتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم السـاعة حسنات.

وحكي عن معروف الـقاضي أن الحجيج كانوا يجـتهدون في الدعاء وفـيهم رجل من التركمـان ساكت لا يحسن أن يدعو، فخشع قلبه وبكى فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أني لا أحسن شيئًا من الدعاء. فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا، فرأى بعض الصـالحين في منامه أن الله قـبل حج الناس بدعوة ذلك التركـماني لما نظر إلى نفسـه بالفقر والفاقـة. وقال الأصمعي: حـدث عبد الملك على كلمـة تكلم بها عند الموت. وهي: اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجـلت عن الصفة فإنهـا صغيـرة في جنب عفـوك فاعف عني. وركب إبراهيم بن أدهم في سـفينة، فهـاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك، وكان إبراهيم نائمًا في كسـاء، فاستوى جالسًا وقال: أريتنا قدرتك فأرنا عـفوك، فذهب الريح وسكن البحر. وقال الثوري: كان من دعاء السلف، اللهم زهدنا في الدنيا ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا آوى إلى فراشه قال: اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأؤمن بكل ما آمن به، ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول في دعائهـا: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم، فزجـرها رجل، فقالت: دعني أصف ربي وأمجد إلهي بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار»: سـمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة عن القبيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فـرق عندهم بين الكريم وأبي المكارم ولا بين الجواد والعريض الجفنة ولا بين المنزه والأبيض الوجه. وقيل لأعرابي: أتحسن أن تدعو ربك؟ قال: نعم. قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسـألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسـألك. وذكر لعبد السـلام بن مطيع أن الرجل تصيبـه البلوى، فيدعو فتبطئ عنه الإجابة، فقال: بلغني أن الله تعالى يقـول: كيف أرحمه من شئ به أرحـمه. وقال طاوس: بينما أنا في الحـجر ذات ليلة إذ دخل علي علي بن الحسين، فـقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسـمعن دعاءه، فسمـعته يقول: عبيـدك بفنائك، مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك. فمـا دعوت بهما في كرب إلا فرج عني، ودعا أعرابي فقـال: اللهم إنا نبات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إني أسألك عمـلاً بارًا ورزقًا دارًا وعيشًا قارًا، فدعوت به. فما وجدت إلا خيرًا. ودعت أعرابية بالموقف، فقالت: أسألك سـتـرك الذي لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء أي دعواتهم، ودعا أعرابي فقال: اللهم امح مـا في قلبي من كذب وخيانة واجعل مكانه صدقًا وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك وبادر القيام، فجذب ثوبه وقال: أمّا لك إلى ربك حاجة؟. وقـال سفيان الثوري.: سمعت أعرابيًا يقول: اللهم إن كان رزقي في السماء، فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيدًا فقربه، وإن كان قريبًا فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيرًا فبارك لي فيه.

وقال أبو نواس:

أحـبـبت من شـعـر بشـار وكلمـتـه	بيـتًـا لهـجت به مـن شـعـر بشـار
يـا رحـمـة الله حلي في منازلنا	رجـاورينا فـدتك النفس من جـار

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها، ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شئ. وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يقـول وهو متعلق بأستـار الكعبة: يا من لا يشغله سـمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل ولا يبرمـه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك، وحلاوة مـغفرتك، فقال علي: والذي نفـسي بيـده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغـفر لك. ومن دعائه رضي الله تعالى عنه: اللهم صن وجهي باليسـار، ولا تبدل جاهي بالإقتـار. فأسترزق طامعًا رزقك من غـيرك، وأستعطف شرار خلقك وأبتلى بحـمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله، ولي الإجابة والمنع. وعن أبي عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما انتهيت إلى الركن اليـماني قط إلا وجدت جبريل قد سـبقني إليه يقول: قل يا محمـد: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر

والفقر والفاقة وهى من مواقف الخزى». وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كثير الخير يادائم المعروف رد على ابنى، فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخراسانى إذ نابه أمر قال: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبتلى الذى اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافى الذى لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهرى يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إنى أسألك من خير ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به عمك فى الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن عبد الغافر: دعوة فى السر أفضل من سبعين دعوة فى العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات.

وعن أبى الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتًا، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعى على الكلب آنفًا؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إنى أسألك بأن الحمد لك لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن، فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمى وهو: «ياعلى يا عظيم يا حليم يا عليم». قال الراوى: فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه، ولها طنين حتى ضربت الحائط. وعن أنس إذا قال العبد: يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل: لبيك عبدى، وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين، فقال له الرسول ﷺ: سل حاجتك. فقد نظر الله إليك.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروى عن على بن أبى زفر عن أخ له، وكان فاضلاً صالحًا، فقال: دعوت الله أن يرينى الاسم الأعظم الذى إذ دعى به أجاب، فقمت ليلة أصلى فسمعت قعقعة فى سقف البيت، ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهى وإذا مكتوب بالنور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روى عن وهب أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إنى أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك سمعًا حاضرًا وجوابًا عتيدًا، ولكل صامت منك علمًا ناطقًا محيطًا، أسألك بمواعيدك الصادقةوأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة أن تفعل بى كذا وكذا، فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته فى النوم ما كنت أرى أن أحدًا يحسنه. وعن وهب أيضًا قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة، فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم، هل أعلمك شيئًا تنتفع به فى الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال قل: اللهم أتمم النعمة حتى تهنينى المعيشة، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى، اللهم اكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى. وعن معروف الكرخى قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم، وأهبط الله تعالى عليه جبريل وفى باطن جناحيه مكتوب: اللهم إنى أدعوك باسمك الأجل الأعز، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد، وأدعوك باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها، أن تكشف عنى ضر ما أصبحت وأمسيت فيه، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدى إلىّ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء، ولا تستبطئوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخى، ثم هو منقطع، ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافيًا فى قبوله والعمل به.

حدث عبد الله بن إبان الثقفى رضى لله عنه قال: وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس بن مالك، فظننت أنه يتوارى عنى، فأتيته بخيلى ورجلى، فإذا هو جالس على باب داره مادًا رجليه، فقلت له: أجب الأمير، فقال: أى الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج، فقال غير مكترث به: قد أذله الله ما أرانى أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والذليل من ذل بمعصية الله، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة، والله لينتقم الله منه، فقلت

له: اقصر عن الكلام وأجب الأمير، فقام معنا حتى حضر بين يدى الحجاج، فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذى تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم، قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك، مخالف لسنة نبيك، تعز أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدرى ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا، قال: أريد أن أقتلك شر قتلة، قال أنس: لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله، قال الحجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمنى دعاء، وقال من دعا به فى كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل، وقد دعوت به فى صباحى هذا، فقال الحجاج: علمنيه؟ فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد مادمت أنت فى الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحاجب: أيها الأمير لنا فى طلبه كذا وكذا يومًا حتى أخذناه، فكيف تخلى سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما. ثم إن أنسًا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء باسم الله الذى لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافى، باسم الله المعافى، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسى ودينى، باسم الله على أهلى ومالى، باسم الله على كل شئ أعطانيه ربى، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف، وأحذر الله ربى لا أشرك به شيئًا، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم إنى أعوذ بك من شر كل جبار عنيد، وشيطان مريد، ومن شر قضاة السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم. وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل وتركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقاد كل شئ لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لى من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا، إنك على كل شيء قدير، اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك عن قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك مما قضيته لى أدعوك آمنًا وأسألك مستأنسًا لا خائفًا ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إلى وأنا المسئ إلى نفسى، فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم مع غناك عنى، وأتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك، فلم أر مولى كريمًا أعطف منك على عبد لئيم مثلى، لكن الثقة بك حملتنى على الجراة على الذنوب فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك مع طولك، أن تصلى على محمد وآله وأن تفتح لى باب الفرج بطولك، وتحبس عنى باب الهم بقدرتك ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ النسفى بإسناده عن الزهرى، عن أبى مسلمة، عن أبى هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول فى سجوده: اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى، فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى مال أو بدن أو عرض علمتها أو لم أستطع أن أتحللها، فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت، ثم تهبها لى من لدنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل شئ، فلتسعنى رحمتك، فإنى لا شئ، وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك ولا تهنى بذنوبى وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب يا الله، فقال رسول الله ﷺ: ارفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام. وقال صالح المزنى: قال لى قائل فى منامى: إذا أحببت أن يستجاب لك، فقل: اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس، فما دعوت بها فى شئ إلا تعرفت الإجابة.

وقيل: إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنى أسألك بالعزة التى لا ترام والملك الذى لا يضام، والعين التى لا تنام، والنور الذى لا يطفأ، وبالوجه الذى لا يبلى وبالديمومة التى لا تفنى، وبالحياة التى لا تموت وبالصمدية التى لا تقهر، وبالربوبية التى لا تستذل، أن تجعل لنا فى أمورنا فرجًا ومخرجًا حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين. وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد فى ليلة مقمرة وأظن أنى قد أصبحت وإذا الليل على حاله، فقمت أصلى، وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفى يا عبد الله قل قلت: ما أقول؟ قال: قل: اللهم إنى أسألك بأنك ملك وأنت على كل شئ قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط فى شئ إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال: روينا عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق، أنبأنا الشيخ زيد الدين أبو البقاء خالد بن

يوسف النابلسى بقراءتى عليـه، قال: أنبأنا الحافظ بهـاء الدين ناصر السنة محـمد بن الإمام أبى محمـد بن الحافظ أبى القاسم على ابن الحسين بن هبة الله بن عساكـر قراءة عليه، وأنا أسمع، قال: رويت بالإسـناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعى الجليل محمد بن سيرين، قـال: نزلنا بنهر تيرا، فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا: ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخـذ متاعه فرحـل أصحابى وتخلفت، فلما أمـسينا قرأت آيات، فمـا تمت حتى رأيت أقوامًا قـد أقبلوا وجاءوا إلى جهـتى أكثر من ثلاثين نفرًا وقـد جردوا سيوفـهم فلم يصلوا إلى، فلما أصبحت رحلت فلقـينى شيخ على فرس ومعه قوس عربية، فقال لى: يا هذا إنـسى أنت أم جنى؟ فقلت: بل أنا من بنى آدم، قال: فما بالك لقد أتيناك فى هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفى كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد، قلت: حدثنى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن رسـول الله ﷺ أنه قال: من قرأ فى ليلة ثلاثًا وثلاثين آية لم يضره فى تلك الـليلة لص طار ولا سبع ضار، وعوفى فى نفسه وأهله وماله حتى يصبح، فنزل عن فرسه وكـسر قوسه وأعطى الله تعالى عهدًا أن لا يعود لهذا الأمر، وهذه الآيات وهى أن تقـرأ بعد الفـاتحة ﴿ألم ذلك الكتـاب.. إلى قوله.. المفلحـون﴾. وآية الكرسى إلى قـوله: هم فيـها خـالدون، وآمن الرسول إلى آخـر السورة وأن ربـكم الله الذى إلى قوله المحـسنين و﴿قل ادعـوا الله أو ادعوا الرحـمن﴾ [الإسراء: ١١٠] إلى آخر السـورة، والصافات صفًا إلى قوله تعالى لازب، ويا معشر الجن والإنس إن استطعتم إلى قوله فلا تنتصرن، لو أنزلنا هذا القـرآن على جبل لرأيته خاشعًا إلى آخرها، وأنه تعـالى جد ربنا إلى قوله: شططًا زاد البونى إلى قوله شهابًا رصدًا، والله من ورائهم محيط إلى قوله: محفوظ، قـال محمد بن سيرين: فذكرت هذاالحديث لشعيب بن حرب، فقال: كنا نسميها آيات الحرز ويقال: إن فيهـا شفاء من مائة داء، وعدوًا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن على: قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى ذلك الفالج، قـال البونى: هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور لا ينكرها إلا غبى أو غيور، وقد جربهـا المشايخ، وعرف سرها من له فى العلم قدم راسخ، وقدر شامخ، وهى على ما رويناه بل ما رأيناه أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العبـاس أحمد القسطلانى: سـمعت الشيخ أبا عبـد الله القرشى يقول: سمعت أبا زيد القـرطبى يقول فى بعض الآثار أن من قال: لا إله إلا الله سبعـين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت ذلك رجاء بركـة الوعد، ففعلت منها لأهلى وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسى وكـان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضـلاً على صغـر سنه، وكان فى قلبى منه شئ، فـاتفق أن استدعـانا بعض الإخوان إلى منزله، فنحن نتـناول الطعام والشواب معًـا إذ صاح صيحة منكرة، واجتـمع فى نفسه وهو يقول: يا هم هذه أمى فى النار ويصـيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت اليوم أجـرب صدقه. فألهمنى الله تعالى السبعين ألفًا، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى، فقلت فى نفسى الأثر حق والذين رووه لنا صادقون: اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار، فـما استتـمـمت هذا الخاطر فى نفسى أن قال: يا عم هذه أمى أخـرجت من النار، والحمد لله فحصل عندى فائدتان امتحانى لصدق الأثر وسلامتى من الشـاب وعلمى بصدقه. ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبـهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيز أذللـت بعزتك جميع من خلقت. صل على محمد وآله واكفنى فلاناً بما شئت، كفاه الله تعالى شـره. وروى الثقفى رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن هلى بن الحسين رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بنى من أصابته مصـيبة فى الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فـإذا انصرف من صلاته يقول: يا موضـع كل شكرى، ويا سامع كل نجوى ويا شاهد كل بلوى ويا منـجى موسى والمصطفى محـمد والخليل إبراهيم عليهم الـسلام، أدعوك دعاء من اشـتدت فاقتـه، وضعفت حركتـه وقلت حيلته، دعاء الغريب الغريق الفقير الذى لا يجـد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبـحانك إنى كنت من الظالمين، قال على بن الحسين رضى الله عـنهما: لا يدعو به مبـتلى إلا فرج الله عنه، وقيل الاسم الأعظـم هو بـسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنـى أسألك يا مؤنس كل وحـيد، يا قريبـاً غير بعـيد يا شاهداً غير غائب يا غـالباً غير مغلوب يا حى يا قيوم يا بديع الـسمـوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، أسألك باسمك بـسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، وأسألك باسمك بـسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات ووجلت له القلوب أن تصلى على مـحمد وهلى آله وأن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شئ قدير. وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهذه هى:

إني لأرجو عطفة الله ولا ... أقول إن قيل متى ذاك متى

لابد أن ينشر ما كان طوى ... جوداً وأن يعطر ما كان خوى

وربما ينشر ما كان زوى ... وربما قدر ما كان لوى

وكل شئ ينتهي إلى مدى ... والشئ يرجى كشفه إذا انتهى

لطائف الله وإن طال المدى ... كلمحة الطرف إذا الطرف رمى

كم فرج بعد إياس قد أتى ... وكم سرور قد أتى بعد الأسى

من لاذ بالله نجا فيمن نجا ... من كل ما يخشى ونال ما رجا

سبحان من نهفوا ويعفو دائماً ... ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطى الذى يخطى ولا يمنعه ... جلاله من العطا لذى الخطا

ومن المنظوم أيضاً:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن ... أمنن فإن الخير عندك أجمع

مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع

مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرع

ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

حاشا لجودك أن تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

ثم الصلاة على النبى وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

وقال آخر:

يا خالق الخلق يارب العباد ومن ... قد قال في محكم التنزيل ادعونى

إني دعوتك مضطراً فخذ بيدى ... يا جاعل الأمر بين الكاف والنون

نجيت أيوب من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب يا ذا اللطف نجّينى

واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال بعضهم:

يارب مازال لطف منك يشملنى ... وقد تجدد بى ما أنت تعلمه

فاصرفه عنى كما عودتنى كرما ... فمن سواك لهذا العبد يرحمه

وقال آخر:

يا من نحل بذكره ... عقد النوائب والشدائد

يا من إليه المشتكى ... وإليه أمر الخلق عائد

يا حى يا قيوم يا ... صمد تنزه عن مضادد

أنت الرقيب على العباد وأنت في الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطاعك والمذل لكل جاحد
إنى دعوتك والهموم جيوشها نحوى تطارد
فافرج بحولك كربتى يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعان به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجاً قريباً يا إلهى لا تباعد
كن راحمى فلقد يئست من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبى وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ما خر للرحمن ساجد

دعاء عظيم مأثور: اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بغيض يتجهمنى، أو إلى قوى ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك، أو ينزل بى سخطك، فلك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يارب العالمين.

ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض: دعا رجل لآخر فقال: سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابى لآخر فقال: رحب واديك وعز ناديك، ولا ألم بك ولا طاف بك عدم، وسلمك الله، ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرهق والوهق، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل، وسلمك الله من الشاردات والواردات، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة. ودعا أعرابى لعبد الله بن جعفر رضى الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار، وتناسخت الظلم والأنوار، ودعا بعضهم لآخر فقال: زودك الله تعالى الأمن فى مسيرك والسعد فى مصيرك، ولا أخلاك من شهر تستجده وخير من الله تستمده، وعزى شبيب بن شبة يهودياً. فقال: أعطاك الله على مصيبتك ما أعطى أحداً من أهل ملتك.

ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم: دعا أعرابى على ظالم فقال: لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً، أى عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: «فته الله فتاً وحته حتاً وجعل أمره شتى». وخرج أعرابى إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه؛ فاتبعته نواة وقالت: شط نواك ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثتك أهلك وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة، وقالت: حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابى على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه، أى جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابى على آخر فقال: سقاه الله دم جوفه أى قتل ابنه، وأخذ ديته فشرب لبنها. ودعا أعرابى على آخر فقال: بعث الله عليه سنة قاشورة تحلقه كلما يحلق الشعر بالنورة، ودعا رجل على أمير فقال:

أزال الله دولته سريعاً فقد ثقلت على عنق الليالى

وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها:

وما دعوت عليه حين ألعنه إلا وآخر يتلوه بآمين
فليته كان أرض الروم منزله وليتنى قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله ﷺ فى خطبته يوم الأحزاب: «اللهم كل سلاحهم، واضرب وجوههم، ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد». ودعا رجل، فقال: اللهم أكفنا أعداءنا، ومن أرادنا بسوء، فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا فى بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، إلهى إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت. وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم، إلهى ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك، ولكن سولتها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا، وغرنا سترك علينا، وأطمعنا فى عفوك برك بنا، فالآن من عذابك من ينقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلتاه غداً من الوقوف بين يديك، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك، اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت. إلهى إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالى، إلهى تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً، ولساناً كان لك ذاكراً، وداعياً لا بالذى دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك، وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل، سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يارب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة أفضالك، فقد ذلوا لعزك وجلالك ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجرى فى العالم، من حركة، وسكون، وخير، وشر، ونفع، وضر، وإيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كما لا يجرى شئ من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة كما أن ما فى علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر فإن تعسر شئ فبتقديره، وإن اتفق شئ فبتيسيره، فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه ويفوض أمره لربه، وينتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه له فيه.

وقد ظاهر النبى ﷺ بين درعين واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لأمة الحرب ويهيئ الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: الذى أنزل الداء أنزل الدواء، فإن قيل: قد روى أن النبى ﷺ قال: من استرقى أو اكتوى فهو برئ من التوكل، قلنا: أليس قد قال: اعقلها وتوكل. فإن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا :معناه من استرقى أو اكتوى متكلاً على الرقية أو الكى، وأن البرء من قبلهما خاصة، فهذا يخرجه عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله. وقد أمرنا بالكسب والتسبب. ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم: ٢٥] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا فى ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها ... جنته ولكن كل شئ له سبب

وقد تقدم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمهما طلبه بالغدو والرواح. وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر الدابة، إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته. وضربوا فيه مثالاً عجيباً، فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا فى قرية بفقر وضر لا قائد للأعمى ولا حامل للمقعد، وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتساباً لله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا أياماً واشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق وأهل القرية يتصدقون عليهما، فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً فى ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير مواقعة، وأن ينبت الزرع من غير بذر، كان عن المعقول خارجاً، ولأمر الله كارهاً.

قال الغزالى: أما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً، وقال: أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً. وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم، وهو فى بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه، وإذا بحية فى فمها باقة نرجس، فمازالت تذب عنه حتى انتبه. فحسبك توكل يؤدى إلى هذا. وعن عبد الله الهروى قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس فقال: لو أن رجلاً صدق فى توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز،

فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك، فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فكن، وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار، فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك وقال له: تمهل على بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالاً آتيك به، وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر، فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فداخل الرجل خشية الله تعالى، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكر، فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب، ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك، وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذر على وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال، وطرحها في البحر بيده وأقام في البلدة مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال، فابتدأه وقال: أنت سيرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: قد أوصلها الله تعالى إلى، والله نعم الكفيل، فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطباً، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرني بذلك، فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى أملك لما توكلت عليه حق التوكل، وقيل: إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى، فبينما هو يفكر في أمر ذلك الطائر، فإذا هو بسكرجتين[1] برزتا من الأرض إحداهما ذهب والأخرى فضة، هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح، فلقط القمح وشرب الماء. ثم غابا بعد ذلك فذهل ذو النون، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكى أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصياغة، وكان أوحد أهل زمانه، فساء حاله وافتقر بعد غناه، فكره الإقامة في بلده، فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة، فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرة يعملون الأشغال للسلطنة، وله سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقي من أحد الصناع الذين في دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة، وتكون أجرة عمله تساوي عشرة دراهم، فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم، فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده كانت في إحدى يد محاظيه، فانكسرت، فقال له: الحمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها، فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها، فازداد المعلم لذلك غماً، ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع، فاشتد الملك على إحضارها، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سواراً، فلما رأى الصائغ الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه هذا وقت المروءة اعملها ولا أؤاخذه ببخله على وعدم إنصافه ولعله يحسن إلى بعد ذلك، فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت، ونظم عليها جواهرها، فعادت أحسن مما كانت، فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً، ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعته، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه، فبقي الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به. فما التفت إليه المعلم، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً، فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه وأكد عليه في تحسين الصفة وسرعة العمل، فجاء إلى الصائغ وأخبره بما قال الملك، فامتثل مرسومه ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين، وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل معه، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج الأساور أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك، فنقش في باطن أحدهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

---

(١) سكرجة: بضم السين والكاف والراء والتشديد، وهي: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية.

مصائب الدهر كفى ... إن لم تكفى فعفى
خرجت أطلب رزقى ... وجدت رزقى توفى
فلا برزقى أحظى ... ولا بصنعة كفى
كم جاهل فى الثريا ... وعالم مستخفى

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما فى قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة، ولما سبق له فى القضاء، فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك، وقدمهما إليه، فلم يشك الملك فى أنهما صنعته، فخلع عليه وشكره، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع، وما زاده فى آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما فى يديها، فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفى حسن صنعتهما، فقرأ الأبيات، فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك، وأمر بإحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين السوارين؟ قال: أنا أيها الملك، قال: فما سبب نقش هذه الأبيات؟ قال: لم يكن عليهما أبيات. قال: كذبت. ثم أراه النقش. وقال: إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك، فأصدقه الحق. فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سأله عن حاله، فحكى له قصته، وما جرى له مع المعلم، فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع، وأن يكون عوضاً عنه فى الخدمة ثم خلع عليه خلعة سنية، وصار مقدماً سعيداً، فلما نال هذه الدرجة. وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضى عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر. ورحم الله من قال:

إذا كان سعد المرء فى الدهر مقبلاً ... تدانت له الأشياء من كل جانب

وقال آخر:

ما سلم الله هو السالم ... ليس كما يزعم الزاعم
تجرى المقادير التى قدرت ... وأنف من لا يرتضى راغم

وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى ... سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل ... لا ينتهى ذاك حتى ينتهى العمر

وروى فى الإسرائيليات أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه. فقال له الطائر: يا نبى الله: هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدنى به وأنا أنظر إليه؟ قال: فذهب عنه ذلك النبى عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر فى الفخ، فقال له: عجباً لك ألست القائل كذا وكذا آنفاً؟ فقال: يا نبى الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر تعال نتناظر فى القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدللت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبروراً وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة، ويبصر القريب منه والبعيد على بعد فى التخوم، ثم ينصب له الصبى الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا فى ذلك:

وإذا خشيت من الأمور مقدراً ... وفررت منه فنحوه تتوجه

وقال آخر:

أقـــام عـلى المســـيـــر وقــد أنيــخت	مـطـايـاه وغـــــرد حـــــــاديـاهـا
وقـــال أخـــاف عـــادية الـليـــالي	عـلـى نـفـــــــسى وأن الـقـى رداهـا
مـــشـــيـناهـا خطاً كـــتـــبت عـلينا	ومن كـــتـــبت علـيـــه خطاً مـــشـــاهـا
ومـن كـــانـت منـيـــتـــه بـأرض	فـلـيـس يموت فـى أرض ســـــواهـا

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد فى منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل. وإذا كان الغدر فى الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز. وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

وحكى الطرطوشى رحمه الله تعالى فى كتابه «سراج الملوك» قال: من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففى بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت فى بعض الطرق وترامى فى بئر والمدينة إذ ذاك مسردبه بسرداب يمشى الماشى فيه قائماً، فمازال الرجل يمشى إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منها فإذا البئر فى دار النائب، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه، فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب كالمتقلب فى يد الطالب. وأنشدوا فيه:

قـــالوا تـقـــيـم وقـــد أحـــاط	بـك الـعــــــدو ولا تـفـــــر
لا نـلـت خـــيــــراً أن بـقـــيــــ	ــت ولا عـــــدانـى الـدهر شــــر
إن كـــنـــت أعـــلـــم أن	غـــيـــر الله يـنـفـع أو يـضـــر

فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة. وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]. ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفتح باب الرجاء فقال: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنى أتوب إلى الله تعالى فى اليوم مائة مرة».

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلمانى قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم، فقال الثانى: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم، فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة، أو قال بضجعة، فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فالله أشد فرحًا بتوبةعبده المؤمن من هـذابراحلته وزاده». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخارى) وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» (رواه مسلم) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم. ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك فى صورة آدمى فحكموه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو أقرب لها، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة (متفق عليه وفى الصحيحين) فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر فجعل من أهلها.

وعن أبى نجيد بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنه، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه على فدعا نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال عمر: يارسول الله تصلى عليها وقد زنت؟قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل (رواه مسلم).

وعن أبى بصرة قال: لقيت مولى لأبى بكر رضى الله عنه فقلت له: سمعت من أبى بكر شيئًا، قال: نعم، سمعته

يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب فى اليوم سبعين مرة».

وحكي.. أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشترى تمرًا، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزارى قال: سمعت عليًا يقول: إنى كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثًا ينفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لى صدقته، وإنه حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور ويصلى ثم يستغفر الله إلا غفر له.

وروى فى الصحيح أيضًا عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنبًا فقال يارب أذنبت ذنبًا فاغفره لى، قال الله عز وجل: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له. ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنبًا آخر، فقال: يارب أذنبت ذنبًا فاغفر لى، قال ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى فليفعل ماشاء». وكان قتادة رضى الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دواؤكم فالاستغفار، وأما داؤكم فالذنوب، وكان على رضى الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة، قيل: وما هى؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشرًا حين يصبح وحين يمسى: استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءًا فاغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل».

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللهم إنى أسألك واستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسى ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرنى فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرنى فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخافتى ولا ييأس من مغفرتى، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت له.

وقال بشر الحافى: بلغنى أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقواعليه سبع ساعات، فإن استغفرنى فلاتكتبوها وإن لم يستغفرنى فاكتبوها.

نكتة.. قيل: انقطع الغيث عن بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام فى بنى إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدى صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام، فلم يمطر لهم، فقال موسى اللهم أنت القائل: ادعونى استجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبى، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يارب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نمام. ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بإنعامى عليكم، فنادى منادى موسى فى بنى إسرائيل أن اجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه والعصاة يسمعون، فذرفت أعينهم ورفعوا مع بنى إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يارب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه

الصلاة والسلام: يا داود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إلىَّ وتقطعت أوصالهم من محبتى، يا داود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى بالمقبلين على، ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزى بالإساءة إفضالا	وأعصى فيسولينى برًا وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يبرنى	وأبعد عنه وهو يبدل إيصالا
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى فى هذا الباب والله أعلم بالصواب.

فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء
وما جاء فى السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الأمراض والعلل وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنيس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات والذى بعثنى بالحق نبيًا إن الرجل لتكونن له الدرجة فى الجنة فلا يبلغها بشىء من عمله فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله، وقال ﷺ: ما من مسلم يمرض إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها، وكان يقول: لاتزال الأوصاب والمصائب بالعبدحتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة».

وقيل: إن الناس قد حُمّوا فى فتح خيبر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله فى الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء فى الشنان، ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزالت عنهم.

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو فى الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف».

وعن عفيرة بنت الوليد البصيرة العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى، أنها سمعت رجلا يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً ، فقالت له: يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا. والله لوددت أن الله وهب لى كنه معرفته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها.

وكتب مبارك لأخيه سفيان الثورى يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: أما بعد.. فقدفهمت كتابك فيه شكاية ربك، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام.

وقيل لعطاء فى مرضه: ما تشتهى؟ قال: ما ترك خوف جهنم فى قلبى موضعا للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ فى ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابى فى مرضه: ما تشتهى؟ قال: الجنة، فقيل: أفلا ندعوا لك طبيبًا؟ قال: طبيبى هو الذى أمرضنى.

الفصل الثانى من هذا الباب: فى ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم
والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر وأصم، فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال: والله لا أدرى غير أنه فسا فى أذنى. وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعض يومًا على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها. فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنفه بكمه فعبر أبوالأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر. وقيل: أطول انطباق الفم يورث البخر وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه. وقيل: إن الزنج أطيب الناس أفواهًا، والسباع موصوفة بالبخر، والمثل مضروب بالأسد والصقر فى البخر والكلب من بينهما طيب الفم، وليس فى البهائم أطيب أفواها من الظباء.

وحكى.. أن أبخر تزوج بامرأة. فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها. ثم أنشدت تقول:

يا حبُّ والرحمن إنّ فساكا … أهلكني فقولني قفاكا
إذا غدوت فاتخذ مسواكا … من عرفط إن لم تجد أراكا
لا تقربني بالذي سوّاكا … إني أراك ماضغًا خراكا

في ديوان المنثور: كم من ذي عرج في درج المعالي عرج، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم. وقيل: إن من الصم من يسمع السر، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي. وقيل: إن طريفًا الشاعر مدح عمرو بن هداب، وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: أبرص فياض اليدين مهذب. صاح به الناس وقالوا قطع الله لسانك، فقال عمرو مه إن البرص مما تفاخر به العرب أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أيشتمني زيدٌ بأن كنت أبرصًا … وكلُّ كريم لا أبالك أبرصُ

قال:

كفى حزنًا أنّي أعاشر معشراً يخوضون … بعض الحديث وأمسك
وماذاك من عي ولا من جهالة … ولكنه ما في للصوت مسلك
فإن سد منّي السمع فالله قادرٌ … على فتحه والله للعبد أملك

ومما جاء في العمى: ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحرث بن هشام يطعم الطعام، وكان أعور، فجعل أعرابي يطيل النظر إليه حابسًا نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة في ذلك فقال: والله إني ليعجبني طعامك وتريبني عينك، قال: فما يريبك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال. فقيل له: إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله. وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار. وقال علي كرّم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده، وقال أبو علي البصير:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي … ويقتادني في السير إذ أنا راكب
لقد يستضئ القوم بي في وجوههم … ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب

وقال:

إذا عدمت طلاّبة العلم ما لها … من العلم إلا ما تسطّر في الكتب
غدوت بتشمير وجدّ عليهم … ومحبرتي سمعي وها دفتري قلبي

وقال:

إن يأخذ الله من عيني نورهما … ففي لساني وسمعي منهما نور
فهمي ذكيٌ وقلبي غير ذي غفل … وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهور

وقال:

عزاءك أيها العين السكوب … وحقك أنها نُوَبٌ تنوب
وكنت كريمتي وسراج وجهي … وكانت لي بك الدنيا تطيب

على الدنيا السلام فما لشيخ ضريرالعين في الدنيا نصيب
يموت المرء وهو يعدّ حيّا ويخلف ظنه الأمل الكذوب
إذا ما مات بعضك فابكِ بعضًا فإنّ البعض من بعض قريب

وحكى... أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمداوان فاحتسبي بنظرة منك تشفيه من الرّمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رمدٌ على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: داء الأنبياء الفالج واللقوة. قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام، وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس لأن الشاب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس. وقيل: إن أبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان، وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم، وممن فلج ابن أبي داود قاضي قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه، قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

أتضربُ مثلَهُ بالسّوط عشراً ضربتَ بفالج ابن أبي داود

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم، وكان بارعًا في الحسن والجمال فزادته حسنًا إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بني أمية، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر في جبهته، قال أصبغ: الله اكبر هذا أشج بني أمية يملأ الأرض عدلا. وقال أعور لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء فقال: أما الشيء فالبصير كأنا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأنت يا أعور. اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث من هذا الباب: في التداوي من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء. وقال ﷺ: ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله. وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئًا من قضاء الله تعالى؟ قال: همامن قدر الله تعالى. وقال عبد الله بن عكرمة: عجيب لمن يحتمي من الطعام خوف الداء، ولا يحتمي من الذنوب خوف النار. وقيل: إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له: ألا تدعوا لك طبيبًا، فقال لهم: إن مرضي من الطبيب وأنه متى أراد عافاني، ولا حاجة لي بطبيبكم، وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيبًا لطبه ولكنني أدعوك يا منزل القطرِ

وعاد الفرزدق مريضًا فقال:

يا طالب الطب من داءٍ تخوفه إنّ الطبيب الذي أبلاك بالداءِ
فهو الطبيب الذي يرجى لعافية لا من يذيب لك الترياق بالماءِ

قال: ولما مرض بشر الحافي[1] رحمه الله تعالى قالوا: أتدعوا لك طبيبًا؟ فقال: إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد،

(١) بشر بن الحارث: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، يكنى أبا نصر، المعروف بالحافي مروزي. سكن بغداد، كان ممن فاق أهل عصره بالورع والزهد وتفرد بوفور العقل، وأنواع الفضل، وحسن الطريقة، واستقامة المذهب، وعزوف النفس، كان كثير الحديث، إلاّ أنه لم ينصب نفسه للراوية، وكان يكرهها ودفن كتبه لأجل ذلك، توفي ببغداد سنة (٢٢٧هـ).

فألح عليه أهله وقالوا: لابد أن ندفع مـاءك إلى الطبيب، فقال لأخته: ادفعي إليـهم الماء في قارورة وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حـاذقًا في الطب، فـأتوه بمائه في القارورة فلما رآه قـال: حركـوه فحركـوه ثم قال: ضعـوه ثم قال: ارفعوه. فقـالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: وبم وصفت لكم؟ قـالوا بالحذق والمعرفة، قال: هو كمـا تقولون غير أن هذا الماء إن كان ماء نصـراني فهو راهب. قد فتتت كـبده العبادة، وإن كان مـسلمًا فهو ماء بشر الحـافي فإنه أوحد أهل زمانه في السلوك مع الله تعـالى، قالوا: هو ماء بشـر الحافي، فأسلم النصـراني وقطع زناره فلما رجعوا إلى بشـر قال لهم: أسلم الطبيب، فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجـتم من عندي هتف لي هاتف وقال: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة. وفلج الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأوجـاع كثيرة والأطباء أكثر فلم يبق المداوي ولا المداوى وقد أبادهم الموت. ثم قال هذا المفرد:

هـلـك المُـداوِي والمُـداوَى والذي ... جلب الدواء وباعـه والمشـتـري

وقيل لجـالينوس حين نهكته العلة: أمـا تتعالج؟ فـقال: إذا كان الداء من السـماء بطل الدواء من الأرض، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب. ومـرَّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطـيبات وهن من أجمل الناس، فأحبوا أن يروهن فحكوا سـاق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا: هذا جريح مـريض فهل من طبيب؟ فخرجت صغراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية فإذا طلعت الشمس مات، فكان الأمر كما قـالت. وقيل دواء كل مريض بعقاقير أرضه فإن الطبيعـة تتطلع لهوائها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخـذ من ترابها وجعله في مائها وشربه، لم يمـرض فيها وعوفي من وبائها، واحـتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبـرئ. فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيـا تبرئهم من المرض، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل: إن الأبدان المعتادة بالحمية آفـتها التخليط، والمعتادة بالتخليط آفتها الحميـة، لأن الحكماء تقول عودوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه، ويقول: تركنا ما نحبه لنستغني عن العلاج بما نكرهه. وقـال لقمان: لاتطيـلوا الجلوس على الخلاء فإنـه يورث الباسور. وكـانت هذه الحكمة مكتـوبة على أبواب الحشوش أي الكنف. وقيل: كفى بالمرء عارًا أن يكون صريع مأكوله وقتيل أنامله.

فـكـم أكـلـة أكـلـت نـفـس حـر ... وكـم أكـلـة جـلـبـت كـل ضـر

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام، أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهـله شيـئًا، وكان يقول قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ [ق: ٩]. وقال تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: مـاء زمزم لما شرب له. وقال تعالى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء: ٤]. من جمع بين مـا بورك فيه، وبين ما فيـه شفاء، وبين الهنئ المرئ، يوشك أن يلقى العـافية، وقيـل خمسة من المـهلكات: دخول الحمـام على الشبع، والمجامـعة على الشبع، وأكل القديد، وشرب الماء البـارد على الريق، ومجامعة المرأة العجوز. وقـال: لا تنكح العجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه. وقال الإمام علي رضي الله عنه:

تـوقّ مـدى الأيام إدخـال مـطعـم ... عـلى مـطعـم من قـبـل هـضم الـمطاعـم
وكلّ طـعـام يعـجـز السنّ مـضـغـه ... فـلا تقـربنه فـهـو شـرّ لطـاعـم
ووفـرّ على الجـسـم الدمـاء فـإنهـا ... لقـوّة جـسم المرء خـيـر الدعـائم
وإيّـاك أن تـنـكـح طـواعـن سـنهـم ... فـإنّ لهـا سـمّـا كـسـم الأراقم
وفي كـلّ أسـبـوع عليك بقـيـئـة ... تـكن آمنًا من شـر كـلّ البـلاغـم

ومما يورث الهزال، النوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظام رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر فى المرآة وكثرة الضحك والنظر إلى النجوم. وفى الحديث احتجم رسول الله ﷺ فى أم مغيث وهى وسط الرأس، وكان ﷺ يحتجم فى الأخدعين، ونهى عن الحجامة فى نقرة القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال، فقال فى آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتداو بالحل، فـفعلوا فعافاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر فى عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك، فرب شظية حقيرة قلعت عينًا خطيرة. وقيل: كانت الادوية تنبت فى محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء: يا نبى الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج، والإسهال الذريع، والإقعاد، وصنفًا من الجذام يقال له: الفهدلا يسمع صاحبه ولا يبصر، نسأل الله العفو والعافية. وقيل: البطنة تورث الصداع، والكمنة فى العينين، والضربان فى الأذنين، والقولنج فى البطن، فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى واتق الليل وطعامه جهدك. وقال جالينوس: الغم المفرط يميت القلب ويجمد الدم فى العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل: إنه وضع على مائدة المأمون فى يوم عيد أكثر من ثلاثين لونًا فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته. فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا فى الطب فأنت جالينوس فى معرفته، أو فى النجوم فأنت هرمس فى صناعته. أو فى الفقه فأنت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى علمه، أو فى السخاء فأنت حاتم فى كرمه، أو فى الحديث فأنت أبو ذر فى صدق لهجته، أوفى الوفاء فأنت السموأل بن عادياء فى وفائه، فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فُضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع فى البر. وقيل: الشراب فى آنية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هى قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حى تكلمنى، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتًا. وقيل: إن ملكًا من الملوك حصل عنده صداع فى رأسه فأحضر الطبيب فأمره أن يضع قدميه فى الماء الحار وكان عنده خصى فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتك؟ نزعتا فذهبت لحيتك. وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس، فأحضر طبيبًا كان عنده فلم ينفعه علاجه. فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغنى صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك، فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ثم أنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوبًا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى فى عرق ساكن وغير ساكن حم عسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وقال على رضى الله تعالى عنه: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار فى الشتاء بارد فى الصيف. وقال أيضًا رضى الله عنه: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم. وعنه رضى الله عنه: إن لم يكن فى شيء شفاء ففى شرطةحاجم أو شربة من عسل. وقال الحجاج لطبيبه: أخبرنا بجوامع الطب. فقال: لا تنكح إلا فتاتًا ولا تأكل من اللحم إلا فتيًا، وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخلن بطنك طعامًا حتى يستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء، وكل الفاكهة فى إقبالها وذرها فى إدبارها.

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده أنه إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت. فقال: إياك أن تدخل طعامًا على طعام ولا تمش حتى تعيا، ولا تجامع عجوزًا، ولا تدخل حمامًا على شبع، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك فى كل أسبوع بقيئة، ولا تأكل الفاكهة إلا فى أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة، ونم على يسارك لتقطع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها، وتستريح الكبد من حرارة المعدة. ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج. واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه. قال بعضهم:

شـــره النـفـــوس على الجـــــــوم بـليـــةٌ   فـــتـــعـــــوّذوا من كـلّ نفس تـشـــرهْ
مـــا مـن فـــتى شـــرهـت له نـفسٌ وإنْ   نـال الـغـنـى إلا رأى مـــــــا يـكـرهْ

وقال أبو الفيض القضاعى يمدح الفضل وقد فصد:

أرَقْتَ دمًـــا لـو تـكـب المزن مـــثلـه   لاصـبح وجـه الأرض أخـضـر زاهيـــا
دمًـــا طيـــبًـــا لـو يطلق الـشـــرع شـــربه   لكـان من الأســـقـــام للناس شـــافـــيـــا

الفصل الرابع: فيما جاء فى العيادة وفضلها

قـال رسول الله ﷺ : ثلاثة فى ظل العـرش، عائد المريـض، ومشـيع الموتى، وطائع والديه. وفى رواية ومعـزى الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس فى العيادة. مـرض بكر بن عبد الله المزنى فـعاده أصحـابه فأطالوا الجلوس عنده فقال: المريض يعاد والصحيح يزار، قال الشاعر:

يعـــدن مـــريـضًـــا هن هـيّـــجن داءهُ   ألا إنمـا بـعض الـعـــــوائد دائيـــــا

وقيل: إذا دخل العـراد على الملك فحقـهم أن لا يسلموا عليـه فيحـوجوه إلى رد السلام ويتـعبوه، فـإذا علموا أنه لاحظهم دعواه وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليـه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعلة من الخطايا ومتعك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة. ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بـإخـــــوانـك الأدنـين لابـك كلّ مـــــا   شـكـوت إلـىّ الـيـــــــوم مـن ألـم الـورد
فكـلُّ امـــرئ منهم بـقـــدر احـــتـمـــاله   وإنْ عـــجـــزوا عنـه تحملـــتـــه وحـــدى

(وقال آخر):

بـى الــــــوء والمكـروه لابك كـلّـمـــــا   أراداك كـــانا بـى وكـــان لك الأجـــر

(وقال عبد الله بن مصعب):

مـــالى مـــرضت فلـم يعـــدنى عـــائدٌ   منكـم ويـرض كلبكم فـــأعـــود

فسمى بعد ذلك عائد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:

عـــادنـى مـــــالكٌ فـلـسـت أبالـى   بـعـــد من عـــادنى ومـن يعـــدنـى

وقال علىّ بن الجهم[1]:

أراقـــد الليـل مـــــروراً عـــدمت إذا   عـيـــشى وأحـــمـــد يرعى لـيله وصـــبـا
الـلـه يـعـلـم أنّـى قـــــد نـذرت لـه   صـيـام شـهـر إذا مـا أحـمـدٌ ركـبـا

---

(١) على بن الجهم: هو على بـن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود الشامى، أبو الحسن الشاعر المشهور، أحد الشعراء المجيدين، له «ديوان شعر» مشهور، وكان جيد الشعر عالماً بفنونه، نفاه المتوكل إلى خراسان، ولى فى عهد المأمون بريد اليمن وطرازها، وولى له الثغور. توفى فى سنة (٢٤٩هـ).

(وقال آخر):

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

(وقال آخر):

أعاذك الله من أشياءَ أربعة الموتُ والعشق والإفلاس والجربُ

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قالتْ مرضتُ فعدتها فتبرمت فهي الصحيحة والعليل العائد
والله لو أن القلوب كقلبها ما رق للولد الصغير الوالد

(وعلى الثاني قول بعضهم):

حقّ العيادة يومٌ بعد يومين وجلسةٌ مثل خلس اللحظ بالعين
لا تُبرِمنّ عليلاً في مُساءَلة يكفيك من ذاك تسآلٌ بحرفين

وفضل العيادة مشهور، وشرفها مذكور، وبها تعظم الأجور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه وعجلوا إنجاز وصيته وأعمقوا له فى قبره وجنبوه جار السوء، قيل: يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة؟ قال: وهل ينفع فى الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: وكذلك فى الآخرة». ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبور تذكر بهاالآخرة، ولا تزرها بالليل وغسل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى، وقيل: جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضى الله عنه على معاوية فى مرضة مرضها، فقال له: أعائد أنت أم شامت؟ فقال له عمرو: ولم تقول هذا، والله ما كلفتنى رهقاً ولاأصدعتنى زلقاً ولاجرعتنى علقاً، فلم أستطل حياتك ولم أستبطىء وفاتك. فأنشد معاوية يقول:

فهل من خالدين إذا هلكنا ... وهل فى الموت بين الناس عار

ولمامرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشاً وأسندونى وأوسعوا رأسى دهاناً ثم أكحلوا عينى بالإثمد ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قياماً ولاتجلسوا عندى أحداً، ففعلوا ذلك، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول:

وتجلدى للشامتين أريهمُ ... أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنية أنشبتْ أظفارها ... ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

وقيل: لمادنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لامنجى من الموت والذى ... نحاذر بعد الموت ادهى وأفظع

قال: ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولايثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لذى خطيئة منك مهرب. ومات رحمه الله تعالى. وذكر أبو العباس الشيبانى قال: وفد على أبى دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى العلة التى مات فيها فأقاموا ببابه شهراً لايؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه بشر: إن قلبى يحدثنى أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب ولاتمنعن أحداً، قال: فكان أول من دخل آل على رضى الله عنه فسلموا عليه ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن تجبر كسيراً وتغنى فقيراً لا يملك قطميراً فافعل. فقال لخادمه خذ بيدى وأجلسنى. ثم أقبل معتذراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار، قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: على بالمال. فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفنى، فإذا لقيت محمداً ﷺ فى القيامة كانت حجة لى أن قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال: يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف دينار ينفقها فى طريقه حتى لاينفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل إلى موضعه، قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله. وقيل: لما دفن عمر بن العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء، فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابى: إنك تموت. قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه، وبكى الخولانى عند موته فقيل له: مايبكيك؟ قال: أبكى لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة ولا أدرى إلى أين أهبط وإلى أى مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذى لايهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولايقبل الرشا، فقال: إذن أنت ملك الموت، وإنى لم أستعد بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك، أين فلان قريبك؟ قال:

ماتا. قال: أما كان لك فى موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام (وفى الخبر) من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحراء والبرارى من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المرء على أهبة من ذلك، وقيل بينما حسان جالس وفى حجره صبى يطعمه الزبد والعسل إذ شرق الصبى فمات. فقال:

اعـمـل وأنت صـحـيـحٌ مطلـقٌ فـرح ... مـادمـت ويحك يا مـغـرور فى مـهلِ
يرجـو الحـيـاة صـحـيحٌ ربّـمـا كـمـنت ... لـه المنيـة بين الـزبـد والعـسـلِ

وقيل: إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض اصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابةوبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لايزول ملكه ارحم من زال ملكه.

ولما احتضرعمرو بن العاص دعا بغل وقيد وقال: ألبسونى إياهما فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه، ثم استقبل القبلة، وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو، وإن تعاقب فبما قدمت يداى. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، ثم مات وهو مغلول مقيد، فبلغ ذلك الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

ولما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة مايمر بظهر المجلود، وسمع أبو الدرداء رجلاً فى جنازة يقول: من هذا؟ فقال: أنت، فإن كرهت فأنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكثير عزة فى يوم واحد. فقال رجل: اللهم كما جمعتهما فى زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور. فما بقى فى المدينة أحد إلا استحسن كلامه.

ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه السلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ قال: فاقبض روحى الساعة. وقيل: إذاقضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذامـا حِـمـامُ المرء كـان ببـلدةٍ ... دعـتـه إلـيـهـا حـاجـة فـيـطيـرُ

حكى أن شاباً تقياً من بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فبينما هو عند سليمان فى مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب صفر لونه وارتعدت فرائضه وقال: يا نبى الله إنى خفت من هذا الرجل، فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند، فأمرسليمان الريح فذهبت به، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: ممّ تتعجب؟ قال: أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك، فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبى. فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته. وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومـسـتـعـب الروح مـسـرتـاحٌ إلى بـلدٍ ... والمـوت يـطـلـبـه فـى ذلـك الـبـلـد

وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل: إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاظيه، فجزع عليها جزعاً شديداً، فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به؟ ما أحببت أحداً إلامات. فقال يا أمير المؤمنين: أحببنى، فقال: ويحك إن الحب ليس هو شىء يصنع إنما هو شىء يقع فى القلب تسوقه الأسباب. فقال: قل أنا أحبك، قال: نعم أحبك. فَحُمّ من وقته ومات.

وفى الحديث (المرفوع): «كسر عظم الميت ككسره فى حياته». وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضى فى الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة، وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضى الله عنه بالطائف، فلما

وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه، ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى. وقال عطاء: بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لايبكيه عند ذكر الجنة والنار، فقيل له فى ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه». وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال: أخبرنى رجل من قومى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فى جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش، فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه فوجده قبض، وقال الحسن رضى الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على لهو أو لعب أو معصية اوضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراد به، ثم يقول له: اعمل ما شئت، فإن لى فيك غمزة اقطع بها وتينك. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وضعت فى لحدى، فاكشف الثوب عن وجهى فإن رأيت خيراً فاحمد الله وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك. قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه، فرأيت نوراً ساطعاً، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضاً: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إنى أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً، ثم رفع يده فقال: اللهم أنت ربى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت، إلا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة، ثم قضى نحبه رحمه الله، وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعدما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه، ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فقيل له ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ وهذا أخى جعفر وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون على يبشروننى بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها من الحور العين، وهذه منازلى لمثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصرعينيك كالمرأة الوكعاء، ولكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعنى فى حفرتى وخلنى وشأنى، وعليك شأنك. وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا، ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية، فقال: هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد؟ فقالوا: لانعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذاتحته سيف مسلول تحت يمينه، كل هذاوروحه تتردد فى حنجرته، وهو يقول: الحمد له الذى لايبالى أصغيراً أخذ أم كبيراً، لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون، فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرٌ عنا يريد بنا الردى ... ومستخبراتٍ والعيونُ سواكنُ

وقال محمد بن هارون:

كأنّى بإخوانى على جنب حفرتى ... يهيلون فوقى والعيون دماً تجرى

فيا أيها المذرى علىّ دموعه ... ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى

عفا الله عنى أنزلُ القبر ثاوياً ... أُزارُ فلا أدرى وأُجفى فلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف تكون حالته، ثم يبكى حتى يغشى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يغتر بالأمل، فإن من عاش مات ومن مات فات. وكل ما هو آت آت. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. وقال ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث استرجاعاً إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها». وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزينا أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغنى سأله ما فى يده أحبط الله ثلثى عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار، أبعده الله عن رحمته لأنه هو الذى فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن».

وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لايلج النار إلا تحلة القسم، يعنى قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[مريم:٧١]. وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنَّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها، إلا فعل الله به ذلك»، «وروى أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوبنا، ومن لايَرحم لايُرحم، فإن القلب يخشع والعين تدمع، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضى الله ربنا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون». وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أول شيء كتبه الله فى اللوح المحفوظ إننى أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى، من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ رباً سواى. وقال ابن المبارك: إن المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن لإحداهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب أجره وهو أعظم من المصيبة. وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبى ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال: لاتبكى يا بنتاه قولى إذا مت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى. وعن عطاء بن أبى رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فإنها من أعظم المصائب». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: من أخذت حبيبتاه يعنى عينيه فصبر واحتسب أدخله الله الجنة. وقيل: إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك، فقال لها: ويحك كنا فى النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيراً وأن عوفى. وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه. وقيل: إن معاوية رضى الله تعالى عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبى وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتانى نعى سيد شباب العرب، فقال له: ابنى أو ابنك قال: بل ابنك. قال: للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبرلحكم من لاتجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه. وقال سويد السدوسى:

فأوصيكما يا ابنى سدوسٍ كلاكما ... بتقوى الذى أعطاكما ويراكما
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمةً ... وصبرٍ لأمر الله فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صاحبى إن رمت أن تكسب العـ ... ـلا وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر فى كل حالة ... فما صابرٌ فيما يروم بنادم

وقال آخر:

هـو الدهـر قـــد جـــربْتـــه وبـلوتـه فـــصـــبـــراً عـلى مـكروهـه وتجلـدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ وأكبر الأحـداث بعده، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبـر فى المصيبة، وأنا تابعة له فى الصبر، فـأقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومـستعيضـة بأكثر الاستغـفار لك، فـسلام الله عليك، توديع غيـر قالية لحياتك، ولا زارئة على القضاء فيك.

ولما مات ذر الهمدانى جاء أبوه، فوجـده ميتاً وكان موته فجأة، وعياله يبكون عليـه فقال: ما لكم، والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا فى مثله، ولما وضعه فى حفرته قال: رحمك الله يا بنى وجعل أجرى فيك لك، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك، فوالله لـقد كنت بى باراً ولى نافعاً وكنت لك محباً وما بى إليك من وحشة وما بى إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلـع لتمنيت ما صرت إليـه، فليت شعرى ماذا قلت ومـاذا قيل لك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيـبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذر صلة منى فلا تحرمنى ولا تعرفه قبيـحاً وتجاوز عنه، فإنك رحيم بى وبه، اللهم وقد وهبت لك إساءته لى فهب لى إساءته إليك، فإنك أجود منى وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً وجعلت لى عليه حقاً قرنته بحقك. فقلت: ﴿اشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾[لقمان: ١٤]. اللهم إنى قد غفرت له ما قصر فـيـه من حقى، فاغفر له ما قصر فيـه من حقك، فإنـك أولى بالجود والكرم. فلما أراد الانصـراف قال: يا ذر قـد انصرفنا وتركناك ولو أقـمنا عندك ما نفعناك.

وفى الحديث: إذا مـات ولد العبد يقول الله تعـالى للملائكة: ماذا قـال عبدى عند قبض روح ولده وثمـرة فؤاده؟ فيقولون: إلهنا حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتى أنى بنيت له بيتاً فى الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عـمر رضى الله تعالى عنهما أنه دفن ابناً له وضـحك عند قبره. فقيل له: أتضحك عند الـقبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فـينبغى للعبد أن يتـفكر فى ثواب المصيبة فـتـسهل عليه، فـإذا أحسن الصبر استـقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصـيبة. وقد وعد الله تعالى فى المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبـها، واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محـمد: ٣١]. وقـال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[البقـرة: ١٥٥]. اللهم رضينا بقـضائك وصبـرنا على بلائك واغفـر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثانى من هذا الباب: فى التعازى والتأسى

روى الترمذى فى كتاب السنن للبيهقى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «من عزى مصاباً فله مثل أجره». وروينا فى كتاب الترمذى أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: «من عزى ثكلى كسى بُرداً فى الجنة». وروينا فى سنن ابن ماجة والبيهقى بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم عن النبى ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كـساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة».

واعلم أن التعزية هى التصبير وذكر ما يسلى صاحب الميت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهى مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وهى أيضاً داخلة فى قـوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]. وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزية. ،وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: «الله فى عون العـبد ما دام العبد فى عون أخيه».

واعلم أن التعـزية مستـحبة قبل الدفن وبـعده، وتكره بعد ثلاثة أيام، لأن التـعزية لتسكين قلب المصـاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهيـر من أصحاب الشافعي رضى الله تعالى عنه. وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين، وهما إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن فاتفق رجوعه بعد الثلاثة، وأما لفظ التعزية فلا حجـر فيه فبأى لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحـاب الشافعي أن يقول فى تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحـسن عزاءك وغفـر لميتك. وفى المسلم بالكافـر: أعظم الله أجرك، وأحسن عـزاءك، وفى الكافر بالكافر: أخلف الله عليك ولا نقص لك عدداً.

روى أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقـالوا: يا رسول الله بنيه الذى رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ، فسأل عن بنيه، فقال: يارسول الله هلك، فعزاه فيه ثم قال: يا فلان أيما كان أحب إليك أن تـتمتع به عمرك أو لا تأتى غداً باب من أبواب الجنة إلا وجدته وقـد سبقك إليه، فـيفتحه لك؟ فـقال: يارسول الله سبـقه إلى باب الجنة أحب إلى من التمتع به فى دار الدنيا. قال: ذلك لك. وروى البيهقي بإسناده فى مناقب الشـافعي رحمهما الله: أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخى عز نفسك بما تعز به غيرك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعـا مع اكتسـاب وزر؟ ألهمك الله عند المصـائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجـراً. وروى عن ابن المبارك قال: مات لى ابن فمر بى مجوسى وقال: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال: اكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قـال: مات لى ابن، فكتب إلىَّ رسول اللهﷺ : من محمد رسـول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإنى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو، أما بعـد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا مـن مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعـة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضـها لوقت معلوم، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبـر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعـواريه المستودعـة. متعك الله بـه فى غبطة وسرور، وقـبضه بأجـر كبير إن صبرت واحتـسبت، فاصبر واحتسب، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حـزناً. وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزأ قال: ليس مع العزاء مصيبـة ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مـصيبتك برسول اللهﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزى الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إنـا نعـــــزيـك لا أنا عـلـى ثـقـــة ... مـن الحـــيــــاة ولكـن سـنـة الديـن
فـمـا المعـــزى بـبـاق بعـد مـيـتـه ... ولا المعـــزى ولـو عــاشـــا إلـى حين

وكـتب بعضـهم إلى أخ يعزيه: أنت يا أخـى أعزك الله عـالم بالدنيا ومـا خلقت له من الفناء، وأنهـا لم تعط إلا أخذت، وكم تسر ألا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر، لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعزى رجل بعض الخلفاء بابن لن فكتب إليه يقول:

تـعـــزَّ أمـــيـــر المؤمنين فــإنـه ... لما قــد ترى يـغــدو الصــغـيـر ويـولد
هـل الابـن إلا مـن ســـــلالـة آدم ... لكـلٍّ علـى حـــوض المنيـــة مـــورد

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:

المـوت أخـــفـى ســـواةٌ لـلبـنـات ... ودفـنـهـــا يروى مـن المكـرمـــات
أمـــا رأيـت الـلـه ســبــحــانـه ... قـــد وضـع الـنعـش بـجـنـب البـنـات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعـزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخى والقضـاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تلذ بالصبر فقد اعـترضت على مالـك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجـعل بين هذه اللوعة الغالبة والدمعة الساكبة حاجبـاً من فضلك وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومـانعاً من يقينك، فإن المحن إذا لم تعـالج بالصبر كانت كـالمنح إذا لم تقابل بالشكر، فصبـراً صبراً، ففحـول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كـما أن متون الجبال لا تـهزها العواصف بهبوبها، فـعزيز على أن أخاطب

مولاى معـزياً وأكاتبه مسلياً عن كبير أو صغـير مما يتعلق بخدمتـه أو ينتهى إلى جملته، فكيف بـالصنو الأكرم والذخر الأعظم والركن الأشد والسهم الأسد والشـهاب الأسطع والحسام الأقطع، لكن التعزية سير سـائرة وسنة ماضية غابرة، وقدر الله هـو المقدر وأجل الله إذا جـاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنـفع والتعزية يـستوى فـيهـا الأشرف والأوضع، لأجللت مولاى أن أفاتحه معزياً وأخـاطبه مسلياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقـدم فبمولاى يقتدى فى الصبر علـى النوائب وبنوره يهتدى فى مشكلات المذاهب، ولكل مـا كان من الردى أوجع كان الأجر علـيه أوسع جعل الله مولاى من الصابرين على المصيبة وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه.

وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجـده كما أحب فقال: يا بنى سوء الخلف أضر علينا من فـقد السلف. ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بدرة من المال وقـال: من بالغ فى تعزيته فهى له، فدخل علـيه أعرابى وقال: عظم الله أجر الملك كفيت المؤنة، وسـترت العورة، ونعم الصهر القبـر، فقال: قد أبلغت وأوجزت ثم دفعهـا له. وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وآجركم ورحمه. وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فعزاه على بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله إن ابنى كان مـسرفاً على نفسـه، فـقال: لا تجزع، فإن من ورائه ثلاث خلال. أولهن: شـهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محـمداً رسول الله، والثانية: شفاعـة جدى ﷺ، والثالثة: رحمة الله التى وسعت كل شىء، فـأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال. وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن فى كبدى جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال عمـر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصـبر، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشـورته فقال رجاء: أفضهـا يا أمير المؤمنين، فمـا بذلك من بأس، لقد دمـعت عينا رسـول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال: إن العين لتـدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يـسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم، قال: لولا نزفت هذه العـبرة لا نصدع كـبدى، ثم إنه لم يبك بعدها. وكـتب الإسكندر إلى أمه قـبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابى هذا فاجـمعى أهل بلدك وأعدى لهم طعاماً وكلى بالأبواب من يمنع من أصابته مـصيبة فى أم أو أب أو أخت أو ولد، ففعلت، فلم يدخل إليها أحد، فعلمت أن الإسكندر عزاها فى نفسه.

ولما قتل الفـضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعـزيها فيه فـقال: يا أماه لا تحزنى على الفـضل، فأنا خلف منه، فقالت: كيف لا أحـزن على ولد عوضنى عنه خليفة مثلك، فـعجب المأمون من جوابها، وكان يقـول: ما سمعت قط أحسن منه ولا أجلب للقلوب. فقال لها: عليك بالصبر، فإن فـيه مزيد الأجر. وممن جزع على ولده جعفر بن علبة لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقـة فذبحه وألقاها بين أيديها وقال لها: ابكين معى على جعفر، فما زالت النوق ترغو والشياه تعير والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكى معهن، فلم ير مأتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح.

ومما قيل فى التأسى والتسلى بالخلف عن السلف: قيل: عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية فى والده فقال:

اصـبـر يزيد فـقـد فـارقت ذاثقـة ... واشـكر إلـهك مـن بالملك حـاباكـا

لا رزء أصـبـح فـى الأيام نـعـرفـه ... كـمـا رزئت ولا عـقـبى كـعـقـبـاكـا

وقال آخر:

لا بد مـن فـقـد ومن فـاقـد ... هيـهـات مـا فـى النـاس من خـالد

وقال آخر:

تـبـصـر فـلو أن البـكاء رد هـالكـاً ... على أحـد فـأكـثـر بكاك على عـمـر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم فى والدهم فقال:

فلو كـان فـيض الدمع ينفع باكـيـاً ... لعلمت غـرب الدمع كـيف يـسيل

فإن غاب بدر فالنجوم طوالع ... ثوابت لا يقضى لهن أفول
يغاب بهما فى ظلمة الليل حائر ... ويرى عليها بالرفاق دليل

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له فى تلك الليلة ولد، فقال سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبى يا نفس مما تربته ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعى عن قول الخنساء فى نعيها صخر حين مات ونعته فقالت:

يذكرنى طلوع الشمس صخراً ... وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان، فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنسيه حتى ... أفارق عيشتى وأزور رمسى
ولولا كثرة الباكين حولى ... على أمواتهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن ... أسلى النفس عنه بالتأسى

وقال آخر:

ولولا الأسى ما عشت فى الناس ساعة ... ولكن إذا ناديت جاوبنى مثلى

وقال آخر:

وهون وجدى عن خليلى أننى ... إذا شئت لاقيت الذى أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤدينى إلى الصبر والعزا ... تردد فكرى فى عموم المصائب

الفصل الثالث: فى المراثى

لما توفى رسول اللهﷺ رثاه جماعة من أصحابه وآله بمراث كثيرة منها ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فإنه كان أقرب الناس إليه، وهو أول من رثاه فقال:

لما رأيت نبينا متجندلاً ... ضاقت على بعرضهن الدور
فارتاع قلبى عند ذاك لموته ... والعظم منى ما حييت كسير

أعتيق ويحك إن خلك قد ثوى والصبر عندك ما بقيت يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غيبت في لحد عليه صخور
فلتحدثن بدائع من بعده تعيا بهن جوانح وصدور

وقال آخر:

فقدت أرضنا هناك نبيا كان يغدو به النبات زكيا
خلقاً عالياً وديناً كريماً وصراطاً يهدى الأنام سويا
وسراجاً يجلو الظلام منيرا ونبياً مؤيداً عربيا
حازماً عازماً حليماً كريماً عائذاً بالنوال برا تقيا
إن يوماً أتى عليك ليوم كورت شمسه وكان خليا
فعليك السلام منا جميعاً دائم الدهر بكرة وعشيا

ورثاه -ﷺ- أبو سفيان بن الحرث فقال:

أرقت فبات ليلى لا يزول وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرائيل
وذاك أحق ما سالت عليه نفوس الناس أو كادت تسيل
نبى كان يجلو الشك عنا بما يوحي إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ملاماً علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعى فهو السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

ولما مات أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

ذهب الذين أحبهم فعليك يا دنيا السلام
لا تذكرين العيش لى فالعيش بعدهم حرام
إنى رضيع وصالهم والطفل يولمه الفطام

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما عزاً بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدماً فقالا أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت مهلاً متما بعد موته وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال آخر:

ولا أرتجى فى الموت بعدك طائلاً لا أتقى للدهر بعدك من خطب

وفى المعنى لبعضهم:

لقد أمنت نفسى المصائب بعده فأصبحت منها آمناً أن أروعا
فما أتقى للدهر بعدك نكبة ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعا

ورثى أشجع السلمى عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدرى ما فواضل كفه على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح فى لحد من الأرض ميتاً وكان به حياً تضيق الصحاصح
سأبكيك ما فاضت دموعى فإن تغض فحسبك منى ما تكن الجوانح
وما أنا من رزءٍ وإن جل جازع ولا بسرور بعد فقدك فارح
لئن حسنت فيك المراثى بذكرها فقد حسنت من قبل فيك المدائح

وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
أخلاى لو غير الحمام أصابكم عتبت ولكن ما على الدهر معتب

وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا أجب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

وقال آخر يرثى صديقه:

خليلى ما ازداد إلا صبابة إليك وما تزداد إلا تنائيا
خليلى لو نفس فدت نفس ميت فديتك مسروراً بنفسى وماليا
وقد كنت أرجو أن تعيش وأن أمت فحال رجاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا

أخذها بعضهم فقال:

كنت السواد لمقلتي ... يبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

وقال آخر يرثي بعض أولاده:

وقاسمني دهري بني مشاطراً ... فلما تقضى شطره عاد في شطري
ألا ليت أمي لم تلدني وليتني ... سبقتك إذ كنا إلى غاية نجري
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا ... فأصبحت لا يخشون نابي ولا ظفري

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء أخبريني بأفضل بيت قلتيه في أخيك فقالت:

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى ... فأنت على من مات بعدك شاغله

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:

لم أنسه وبنو الملوك أمامه ... يدمون للأسف الأكف عضاضا
والثلج قد غطى الربا فكأنها ... من حزنها لبست عليه بياضا

وقال آخر:

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصفوا
وليس نسيم المسك ريا حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقال مقاتل بن عطية يرثي الوزير نظام الملك:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه إلى الصدف

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودعاً ... بأبي وأمي وجهك المقبور
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة ... والقبر منك مشيد معمور
فالناس كلهم لفقدك واجد ... في كل بيت رنة وزفير
عجباً لأربع أذرع في خمسة ... في جوفها جبل أشم كبير

وكان رجل توفي ولده في يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم في عيدهم ... ولبست حزن أبي الحسين جديدا

أيسرني عيد ولم أر وجهه   فيه ألا بعداً لذلك عيدا
فارقته وبقيت أخلد بعده   لا كان ذاك بقاءً ولا تخليدا
من لم يمت جزعاً لفقد حبيبه   فهو الخؤون مودةً وعهودا
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش   من بعده ذا لوعة مكمودا
ما أم خشف قد ملا أحشاءها   حذراً عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجع وطافت حوله   فسيبيت مكلوماً بها مرصودا
منى بأوجع إذ رأيت نوائحا   لأبى الحسين وقد لطمن خدودا
ولقد عدمت أبا الحسين جلادتى   لما رأيت جمالك المفقودا
كنت الجليد على الرزايا كلها   وعلى فراقك لم أجد تجليدا
ولئن بقيت وما هلكت فإن لى   أجلاً وإن لم أحصه معدودا
لا موت لى إلا إذا الأجل انقضى   فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى   يوماً على هذا وذاك مزيدا
ما هد ركنى بالسنين وإنما   أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
يا ليت أنى لم أكن لك والداً   وكذاك أنك لم تكن مولودا
فلقد شقيت وربما شقى الفتى   بفراق من يهوى وكان سعيدا
من ذم جفناً باخلاً بدموعه   فعليك جفنى لم يزل محمودا
فلأنظمن مراثياً مشهورة   تنسى الأنام كثيراً ولبيدا
وجميع من نظم القريض مفارق   ولداً له أو صاحباً مفقودا

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

سألت رسوم القبر عمن ثوى به   لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عمن عاش بعد وفاته   بإحسانه إخوانه وأقاربه

وقال الإمام السبكى رحمه الله تعالى يرثى فضل الله العالم:

مصاب ليس يشبهه مصاب   لذى الألباب إذ فقد الشهاب
إمام قد حوى من كل علم   كنوزاً نحوها يسعى الركاب
ليبكى كل ذى علم عليه   فكم علم له ضم التراب
وكم كلم موانع قد أتته   ثناها وهى عاصية صعاب
فسلطان البلاغ بغير شك   شهاب الدين ما فيه ارتياب
سقى الله الكريم ثراه صوباً   له من كل رضوان رضاب

وقال الصفدى:

يا غائباً فى الثرى تبلى محاسنه   الله يوليك غفراناً وإحسانا
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة   فى كل يوم أذوق الموت ألوانا

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي ابناً له:

أضـــحت بخـــدي لـلدمـــوع رســـوم | أســـفـــاً عليك وفي الفـــؤاد كـلوم
والصـــبـــر يحـــمـــد في المواطـن كلهـــا | إلا عـليـك فـــإنه مـــذمـــوم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتاً له فقال:

عـــجـــبـــاً للمنون كـــيف أتـتـهـــا | وتخـطت عـبـد الحـمـيـد أخــاكـــا
شـــملـتنا مـصـيـبـتـــان جـمـيـعـاً | فـــفـــقـــدنا هذه ورؤية ذاكـــا

وله يرثي الأمير بليغا:

ألا إنما الـدنيـــا غـــرور وبـاطـل | فطوبى لمن كـــفـــاه منهـــا تفـــرغـــا
ومـــا عـــجـــبي إلا لمن بات واثـقـــاً | بأيـام دهر مـــا وعـى حق بـلـيـغـــا

وقال آخر:

إلـى اللّـه أشـكو أن كـل قـــبـــيـلـة | من النـاس قـد أفنى الحـمـــام خـيـــارها

وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء:

مـــا درى نعـــشـــه ولا حـــاملوه | مـــا على النعش من عـــفـــاف وجـــود

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

اسـتـشـعـر الكتـاب فـقـدك سـالفـاً | وقـــضت بـصـــحـــة ذلك الأيـام
فـلذاك ســـودت الـدواة كـــآبـة | أســـفـــاً عليـك وشـــقـت الأقـــلام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلـمـــا إلى مـــعن وقـــولا لقـــبـــره | ســقـتك الـغـوادي مـربعـاً ثـم مـربعـاً
فـيـــا قـبـر مـعـن كنت أول حـفـرة | من الأرض خطت لـلسـمـاحـة مضـجـعـا
ويا قـــبـــر كـــيف واريت جـــوده | وقـد كـــان منه البـر والبـحـر مـتـرعـا
بلى قـد وسـعـت الجـود والجـود مـيت | ولو كـــان حـيـــاً ضـقـت حـتى تصـدعـا
فـتى عـاش في مـعـروفـه بعـد مـوته | أناس لـهم بالـبـر قـد كـــان أوسـعـا
ولما مـــضى مـــعن مـــضى الجـود كـله | وأصـــبـح عـــرنين المكـارم أجـدعـا

وقال آخر:

عـجـبـت لصـبـري بـعـده وهو مـيت | وقـد كنت أبكـيـه دمـاً وهو غـائب

وقال آخر:

فــديتك لم أصــبــر ولى فــيك حــيلة ... ولكن دعــانى اليــأس منك إلـى الصــبــر

وقالت ريطة بنت عاصم:

وقــفت فــأبكتــنى ديار عــشــيــرتى ... علـى رزئهن الـبــاكـيــات الحــواســر

غــدوا كــســيــوف الهند وراد حــومــة ... من المـوت أعــيــا وردهن المــصــادر

فــوارس حــامــوا عن حــريمى وحــافظوا ... بدار المـنايـا والقـنا مــتــشــاجــر

ولـو أن سـلمى نـالـهــا مــثـل رزئنا ... لهــدت ولكــن مــحــمل الـرزء عــامــر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكـان أبوه قائماً يصلى فقال له محمد: أوجز فأوجـز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس فى حجره وقال: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت مـن الناس الذين قال الله تعالى فى حقهم: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرعد: ٢٠] . ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فــتى كــان يحــمــيــه من العــار ســيــفــه ... ويكــفــيـــه ســوآت الأمــور اجــتنابهــا

ثم قال للربيع: قل لصاحـبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعمتك أيام، والملتـقى غداً بين يدى الله تعالى، فكان ذلك فالاً على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقـيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه. والله أعلم بالـصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيـدنا محمد وعلى آله وصـحبه وسلم.

فى ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾[النساء:٧٧] فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت أيها الأنسان تعلم أنك مـا أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن متعت به، فهـو لعب ولهو، لقوله تعالى: : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد: ٢٠]. وقـال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. فـلا تبع أيها العاقل حياة قليـلة تفنى بحياة كثيـرة تبقى، كما قـال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى، ثم تأمل بعقلك هل أتاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه الصلاة والسـلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن وسخر له الريح، والطير، والوحوش، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾. [ص: ٣٩]. فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجًا من حيث لا يعلم فقال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر. هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وقال تعـالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة مـا سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أريك الدنيا بما فيـها؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدى وأتى إلى واد من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهى اليوم صارت عظامًا بلا جلد، ثم هى صائرة عظمًا رميمًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتـسبوها فى الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليهـا أطراف البلاد. فمن كان باكياً على الدنيا فليبك قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا».

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط فى جنبه، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه، فقـال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيـصر. وما كانا فيه من سعة الدنيـا، وأنت رسول الله، وقد أثر الشريط بجنبيك، فـقال ﷺ: هؤلاء قوم عُجلت لهم طيبـاتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخـرت لنا طيباتنا فى الآخرة. وروى عن الضحاك قـال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشـى عليهما أربعين يومًا من نتن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحـكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: ركـون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبى ﷺ أنه قال لعلى: «يا على أربع خصال من الشقاء، جـمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا». وروى عن ابن عبـاس رضى الله عنهما أنه قال: يؤتى بـالدنيا يوم القيامـة على صورة عجوز شـمطاء زرقاء العينين أنيـابها بادية، مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منا، فتشرف على الخلائق أجـمعين فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: لا، نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقـال: هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عـياض أنه قال: جعل الخير كله فى بيت واحد، وجـعل مفتـاحه الزهد فى الدنيا. وجعـل الشر كله فى بيت واحد. وجـعل مفتاحـه حب الدنيا. وقيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر، وإن تركته تبعك، وفيه قال بعضهم:

إنما الرزق الذى تطلبه ... يشبه الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه متبعًا ... وهو وإن وليت عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت خيال الظل أعظم عبرة — لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها — لبعض وأشكالاً بغير وفاق
تجيء وتمضي بابةٌ بعد بابة — وتفنى جميعاً والمحرك باقي

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم الله على عبد — بنعمة أوفى من العافية
وكل من عوفي في جسمه — فإنه في عيشة راضية
والمال حلوٌ حسنٌ جيدٌ — على الفتى لكنه عارية
ما أحسن الدنيا ولكنها — مع حسنها غدارة فانية

وتوفى رجال من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا — إن الحمام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو — أن المفرط في التزود نادم
لا تستعزّوا بالحياة فإنكم — تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى ما بيننا في حفرة — حيث المخدم واحد والخادم

وقال آخر:

عن قليل أصير كوم تراب — وتقول الرفاق هذا فلان
صار تحت التراب عظماً رميماً — وجفاه الأصحاب والخلان

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا — فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبني يا نفس مما ترينه — فكل أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملك ملكاً لا بقاء له — حملت نفسك آثاماً وأوزاراً
هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت — إلا كطيف خيال في الكرى زارا

وقال بعضهم:

وغاية هذي الدار لذة ساعة — ويعقبها الأحزان والهم والندم
وهاتيك دار الأمن والعز والتقى — ورحمة رب الناس والجود والكرم

وقال غيره:

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت — ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها — وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن — بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

ابن آدم أين الأولون والآخرون؟ أين نوح شيخ المرسلين؟ أين إدريس رفيع رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن؟ أين موسى الكليم من بين سائر النبيين؟ أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين، وإمام السائحين؟ أين محمد خاتم النبيين؟ أين أصحابه الأبرار؟ أين الأمم الماضية؟ أين الملوك السالفة؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبرًا وعتيًا؟ أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا؟ أين الذين اغتروا بالأجناد؟ أين أصحاب الوزراء، والقواد؟ أين أصحاب السطوة والأعوان؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان؟ أين أصحاب الأعمال والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر؟ أين الذين أعطوا النصر فى موطن الحروب، والمواقف؟ أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا ﴿هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ذكراً﴾[مريم:٩٨] أفناهم الله مفنى الأمم. وأبادهم مبيد الرمم. وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور، تحت الجنادل والصخور، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحباء والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء، والبعداء، لو نطقوا لأنشدوا:

مقيمٌ بالحجون رهين رمس	وأهلى راحلون بكل واد
كأنى لم أكنْ لهمو حبيبًا	ولا كانوا الأحبة فى السواد
فعرجوا بالسلام فإن أبيتم	فأومئوا بالسلام على البعاد

وقالوا: لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلى ركنيف يملى، وفى هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم	فتبسمت عجبًا ولم تبدى
حتى مررت على الكنيف فقال لى	أموالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له عظنى، وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك، قال: نعم، قال يا أمير المؤمنين: لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، فقال له: لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيمًا لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة، وروى أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيها	ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت؟ فقيل: لأبى نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لى بنصف شعرى.

وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها، إبراهيم بن أدهم بن منصور، كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ، لما زهد الدنيا زهد فى ثمانين سريراً. قال ابن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال: كان أبى من ملوك خراسان وكان قد حبب إلى الصيد، فبينا أنا راكب فرسى وكلبى معى إذ رأيت ثعلباً أو أرنبًا، فحركت فرسى نحوه، فسمعت نداء من ورائى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت نداء أعلى من الأول: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت النداء من قربوس سرجى: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت وقلت: هيهات جاءنى النذير من رب العالمين، والله لا عصيت ربى ما عصمنى بعد يومى هذا، فتوجهت إلى أهلى وخلفت

فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي، فـأخذت جبته، وكساءه، وألقيت إليـه ثيابي، فلم أزل أرض تقلني وأرض تضعني، حتى صرت إلى العراق فعملت بها أيامًا فلم يصف لي شيء من الحلال، فـسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال: عليك بالشام، قال: فانصـرفت إلى بلد يقام لها المنصورية، فعملت بها أيامًـا، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال: إن أردت الحلال، فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها، والعمل فيـها كثير، فانصرفت إليها. قال: فبينما أنا قاعد على باب البحـر إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانًا، فتوجـهت معه، فأقمت في البستان أيامًـا كثيرة، فإذا خادم له قـد أقبل ومعـه أصحاب له ولو علمت أن البـستان بخـادم ما نظرته، فقـعد في مجلسـه ثم قال: يا ناظورنا، فأجبته. قال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فـأتيته برمان، فكسر الخادم واحدة، فوجدها حامضة، فقال: يا ناظورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهـتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئًا، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال: فغـمز الخادم أصحابه، وقال: ألا تعجبون من هذا، ثم قال لي: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة، قال: ثم تحدث الناس بذلك، وجـاءوا إلى البستان، فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون، وأنا هارب منهم، وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين ويعمل في الطين، فبينما هو يومًا يحرس كـرمًا إذ مر به جندي فـقال: اعطنا من هذا العنب، فقـال له: إن صاحبه لم يأذن لي، فـضربه بالسوط فطأطأ رأسه ، وقال: اضرب رأسًا طالما عصى الله يا سيدي الجندي، فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروى أن داود عليه الصـلاة والسلام بينما هو يسـيح في الجبال إذ مـر على غار فيه رجل عـظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسـم الملك، تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وافتضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى، التراب فراشي، والحجر وسادي، فمن رآني فلا تغره الدنيا كمـا غرتني. وقال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسـلام ذات يوم مع أصحابه، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا: يا نبي الله إنا جياع فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم في قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعي وأرضي ورثتها من أبي وجدي، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة، يقـولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم، وكان قد بلغـه أمر عيسى ولكن لا يعرفه، فلمـا عرفه قال: معذرة إلـيك يا نبي الله إني لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عـيسى عليه الصلاة والسـلام وقـال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها، ثم ارتحلوا عنها، وأنت مـرتحل عنها ولاحق بهم، ليس لك أرض ولا مال. ولما مـات اسكندر قال أرسطاطاليس: أيهـا الملك لقد حـركتنا بسكونك، وقال بـعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، أخذه أبو العتاهية فقال:

كـفى حـزنًا بدفنك ثم إني ... نفضت تراب قبرك من يديا
وكـانت في حـياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة ... فأيامنا تطوى وهنّ مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنّه ... إذا ما تخطته الأماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شاغل
ترحّل من الدينا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعدّ قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خـرجنا من المدينة حُجّاجًا فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العبـاس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا، وأقبل على الآخرة، فـجمعتني وإياه الطريق، فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلني، فـإن معي فضلاً من راحلتي، فجزاني خيرًا وقال: لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم آنس إلى فجعل يحدثني فقال: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد، ونعمة طائلة، ومال كـثير، وبذخ زائد، فأمرت يومًا خادمًا لي أن يحشو لي

فراشًا من حرير ومخدة بورد نثير، ففعل، فإنى لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم، فقمت إليه فأوجعته ضرباً، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة، فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال: أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

يا خل إنك إن توسّد لينًا … وسّدت بعد اليوم صمّ الجندل
فامهد لنفسك صالحًا تسعد به … فلتندمنّ غدًا إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوبًا وخرجت من ساعتى هاربًا إلى ربى كما ترانى ثم أنشأ يقول

من كان يعلم أن الموت يدركه … والقبر مسكنه والبعث يخرجهُ
وأنه بين جنات مزخرفة … يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شىء سوى التقوى به سمجٌ … ومن أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنًا … لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندى، فترجم بالعربى، فإذا هى أبيات جليلة، وموعظة عظيمة وجميلة وهى هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم … غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالى عز معقلهم … فأسكنوا حفرة يا بئس ما نزلوا
فإذا همو صارخ من بعد ما دفنوا … أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة … وكان من دونها الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم … تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا … فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب فى بعض سياحاته، فأصابهما الجوع، وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعامًا من هذه القرية، وأعطاه ما يشترى به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلى، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فقعد ينتظر انصراف عيسى عليه السلام من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيفًا وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما. ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحدًا منها، فجاءه فذكّاه وأكلا منه. فقال له عيسى: بالذى أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فانطلق الله له لبنة، فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى صوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوز النهر، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذى أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها: كونى ذهباً بإذن الله، فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى: نعم، واحدة لك، وواحدة لى، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هى لك كلها، ثم فارقه عيسى، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر نعم، وأما الذى ذهب ليشترى الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء، وقال: أجعل لهما فى الطعام سمًا

فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام، فماتا، فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها. وقال الهيثم بن عدى: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيصو بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلا ورأيت عجبًا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، و قد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلونني عن سريري ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ويترأس الصبيان، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً. وعن عمرو بن ميمون أنه قال: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت، فيه سرير من الذهب، عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس، كنت أعتاهم بطشًا، وأقساهم قلبًا، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذللت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدى به من الموت إذ نزل بي. ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينا هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة، فسأل الله أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله: أنا بلوان بن حفص، ملك اليمن، عشت ألف سنة، ورزقت ألف ولد وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم، فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا. فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديدًا حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه وبادت أهله وأظلمت نواحيه هذه الأبيات:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم

تبكي عليهم ديار كان يطربها ... ترنم المجد بين الجود والكرم

وقيل في المعنى:

بالله ربك كم قصر مررت به ... قد كان أعمر باللذات والطرب

نادى غراب المنايا في جوانبه ... وصاح من بعده بالويل والخرب

وفيه:

أيها الرافع البناء رويدًا ... لا يرد المنون عنك البناء

وحكى: أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض، فقالت: إني كنت ملكًا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذني خزاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت وصرت ترابًا، فأخذني طواب وعملني لبنًا وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تتنازعان في هذه الأرض؟ وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروى أن ملكًا بنى قصرًا وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين. فقالوا له: وما هما؟ قال: يموت الملك ويخرب القصر. قال: صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا. وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ومررت بها، فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التي ها هنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر ها هنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلاّ أن هذا البحر من عهد الطوفان. فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة

صيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم: أين البحر الذى كان ها هنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا بحر. فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التى كانت ها هنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟، فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان. فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها، فإذا عاليها سافلها وهى تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة؟ قال: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته فى سياحتى. فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها. ولبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكى الأحبة حسرةً وتشوّقا
كم قد وقفت بها أسائل أهلها ... عن حالها مترحما أو مشفقا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها ... فارقت من تهوى وعز الملتقى

ولبعضهم:

أيها الربع الذى قد دثرا ... وكان عيناً ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا ... خبرن عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادى دارهمْ ... رحلوا واستودعونى عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلى لهم فتفتنيهم، وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفى أسفله سم، فللذائق منه حلاوة عاجلة وفى أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح فى منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

أتبنى بناء الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيل

قال، فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذى منازل أقوام عهدتهم ... فى خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

وروى أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما رجع من صفين، ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خباب بن الأرت، فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلى فى جسمه آخراً، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور، فجاء حتى وقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف، ورضى عن الله تعالى، ثم قال: يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا، فما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً فى فضل الصلاة على النبى ﷺ:

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة، صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شيء فى السموات ولا فى الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثانى: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهم صلى على عبدك ما دام يصلى على نبيك».

الحديث الرابع : قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ مرة صلى الله عليه بها عشراً ومن صلى على عشراً صلى الله عليه بها مائة ومن صلى علىّ مائة صلى الله عليه ألفاً ومن صلى على ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ : «من صلى على مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل يوماً وقال يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحداً من قبلك وهى أن الله تعالى يقول لك من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على فى الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله : «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكاً حين يدفن فى قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على فى يوم مائة مرة قضيت له فى ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادى عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم منى مجلساً أكثركم على صلاة».

الحديث الثانى عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءنى جبريل عليه السلام وقال لى: يا رسول الله لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة علىّ لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة علىّ نور على الصراط وقال عليه الصلاة والسلام: لا يلج النار من يصلى على».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ : «من جعل عبادته الصلاة علىّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسى الصلاة على أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فى الهواء بأيـديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على وعلى أهل بيتى».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبـداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم تكن فـيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بى أكثرهم على صلاة».

الحديث الحادى والعشرون: قـال رسول الله ﷺ: «من صـلى علىَّ فى كتـاب لم تزل الملائكة تصلـى عليه مـا لم يندرس اسمى من ذلك الكتاب».

الحديث الثانى والعشرون: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى الصلاة على من أمتى فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىَّ كنت شفيعـه يوم القيامة، ومن لم يصل علىَّ فأنا برىء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا: يارسول الله ولم ذاك؟ قال: سمعوا اسمى ولم يصلوا على».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسـول الله ﷺ: «يؤمر بـرجل إلى النار فأقـول ردوه إلى الميزان فـأضع له شـيئاً كالأنملة معى فى ميزانه وهو الصلاة علىَّ فيرجح ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجـتمع قوم فى مجلس ولم يصل على فيه إلا تفـرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسـول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكل بقـبرى ملكاً أعطاه أسـماء الخلائق كلهـا فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغنى اسمه وقال: يا رسول الله إن فلان بن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى بكر الصـديق رضى الله تعـالى عنه أنه قـال: «الصـلاة على النبى ﷺ أمـحى للذنوب من الماء لسواد اللوح».

الحديث التاسع والعشرون: قال رسـول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى مـوسى عليه الـسلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر من الصلاة على النبى الأمى ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعـها، فغضب الله عليه وكسَّرَ أجنحته فمر به جبريل عليـه السلام فشكا له حاله فـسأل الله فـيه فأمره أن يصلى على النبى ﷺ فصلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبى ﷺ».

الحديث الحادى والثلاثون: عن عائشـة رضى الله عنهـا قالت: من صلى على رسـول الله ﷺ عشـر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثانى والثلاثون: عن زيد بن حارثة قـال: سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فـقال ﷺ: «صلوا على واجتهدوا فى الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قـال: رسول الله ﷺ: «صلوا على فإن صلاتكم على زكاة لكم واسألوا الله لى الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدى أن النبى ﷺ قال: «لا صلاة لمن لا يصلى على نبيه ﷺ».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ».

الحديث السادس والثلاثون : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يصلى علىّ إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم منى منزلاً يوم القيامة أكثركم علىّ صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن «شفاء الصدور» لابن سبع أن النبى ﷺ قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة علىّ فإنه من صلى علىّ فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياه ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطى أمله وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه فى الجنان».

اللهم صلِّ على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، الذى أنزل عليه فى محكم الكتاب العزيز تعظيماً له وتوقيراً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ ﴾[الأحزاب: ٤٥- ٤٧]. فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولاً بالرسالة إلا سيد خلقه محمد ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة﴾[البقرة: ٣٥] ﴿ويانوح اهبط بسلام منا﴾[هود: ٤٨] ﴿ويا إبراهيم أعرض عن هذا﴾[هود: ٧٦] ﴿ويا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض﴾[ص: ٢٦] ﴿ويا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى﴾[المائدة: ١١٠] وقال لمحمد ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك﴾[المائدة: ٤١] ﴿يا أيها النبى حسبك الله﴾[الأنفال: ٦٤] ﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾[الأنفال: ٦٥] ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾[التوبة: ٧٣] ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء﴾[الطلاق: ١] ﴿يا أيها النبى لم تحرم﴾[التحريم: ١] ﴿يا أيها النبى اتق الله﴾[الأحزاب: ١] ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا فى أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ. الأول قوله عز وجل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. [آل عمران: ١٤٤]. لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية، ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمداً. الثاني قوله عز وجل: ﴿ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[الأحزاب: ٤٠]. الثالث قوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾. [محمد: ٢]. فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولى لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسمه محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل ﴿محمد رسول الله﴾[الفتح: ٢٩] والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾[الصف: ٩] فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذى أرسله فعرفه باسمه فقال: محمد رسول الله ﷺ وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد وله حكمة وهى أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بنى إسرائيل ﴿يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدى من التوراة﴾[الصف: ٦] التى أنزلت على موسى ﴿ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾[الصف: ٦] لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وإنما ذكر ذلك إعلامًا به وتعريفًا له وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. أى شاهداً بالإيمان للمؤمنين ومبشرًا لأهل التمجيد ونذيراً لأهل التجحيد، وقيل: شاهداً لأهل القرآن ومبشراً لهم بالغفران ونذيراً لأهل الكفر والعصيان. وقيل: شاهداً لأمتك ومبشراً بشفاعتك ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك. وقيل: شاهداً بالمنة

ومبشراً بالجنة وقوله وداعيًا إلى الله بإذنه أى تدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾[الجن:١٩] وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعيًا فقال: أنا الداعى إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وسراجًا منيرًا﴾[الأحزاب:٤٦]. أى يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة فى قوله تعالى: ﴿وسراجًا منيرًا﴾. ولم يقل قمرًا منيرًا. فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[نوح:١٦]. والشمس أعم نفعًا ونورًا من القمر، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وسراجًا منيرًا﴾. السراج الذى يقتبس منه لأن القمر لا تصل إليه الأيدى حتى يقتبسون منه، والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نوراً لأن كل من جاء يقتبس منه، والقمر ليس كذلك ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلامًا فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر. ومن النساء خديجة، ومن الشباب على، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال، رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه فهو ﷺ أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، لم يخلق الله أحسن، ولا أجمل، ولا أكمل، ولا أفضل، ولاأفصح، ولا أرجح، ولا أسمح، ولا أصبح، ولا أجل، ولا أعظم، ولا أسخى، ولا أكرم، ولا أبهى، ولا أنصف، ولا أعدل، منه ﷺ، فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ. اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا فى زمرته وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون نحمدك يا من هيأت لكتب الآداب جميع المعدات وفتحت للتحلى بأنوار آياتك سبل الخيرات ونصلى ونسلم على من كملت آدابه ورشحت بكمال البيان وإعجاز التبيان جنابه سيدنا محمد القائل: «إن من البيان لسحرًا» وعلى آله وصحبه ما أطلعت حدائق الأتباع زهرًا.

أما بعد فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف تأليف العلامة الفاضل واللوذعى الكامل الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى رحمه الله وأعلى منزله فى دار رضاه.

المحتـويــات

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين